الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية — كلية الاداب والعلوم الانسانية

قسنطينة — قسم التاريخ

الرقم الترتيبي: .....

رقم تسجيل الطالب: .....

الحركات الاصلاحية في افريقيا جنوب الصحراء إبان القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي.

رسالة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الحديث

من الطالب : احمد بو عتروس

أمام اللجنة:	الاسم واللقب:	الرتبة:	الجامعة الاصلية:
1-الرئيس:	أ.د. حميدة عميراوي	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة
2-المقرر:	أ.د/عبد الكريم بوصفصاف	أستاذ محاضر	جامعة منتوري/ قسنطينة
3-العضو:	أ.د/كمال فيلالي	أستاذ محاضر	جامعة منتوري/ قسنطينة
4-العضو:	أ.د السعيد جلبو ا.ن.	أستاذ...	جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة
5-	.....	.....	.....

نوقش يوم: 13 ماي 2001

بسم الله الرحمن الرحيم

"أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة

وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل

عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين"

صدق الله العظيم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهـــداء

إلى الذي شملني برعايته و اهتمامه و لم يبخل علي بإرشاداته و توجيهاته

الأستاذ الدكتور : عبد الكريم بوصفصاف.

إلى روح والدي الطاهرة

إلى جميع أفراد أسرتي الذين تحملوا معي مشاق و عناء هذا البحث.

إلى أخي محمد الصالح الذي بذل كل ما في وسعه و وفر لي كل الوقت.

إلى جميع الأصدقاء و الزملاء الذين قدموا يد المساعدة في إنجاز هذا العمل.

و إلى كل من يتفضل بقراءة هذه الرسالة

أهدي هذا العمل المتواضع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقـــدّمة البـــحث و خطّـــته



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة البحث و خطّته :

يعد موضوع هذه الدراسة من الموضوعات الهامة و الحساسة، التي تتناول التاريخ الإسلامي الحديث في القارة الإفريقية، لأنها تعالج مرحلة هامة من مراحل مسار الحركات الإصلاحية الجهادية التي شهدتها القارة خلال القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي في جنوب الصحراء الإفريقية الكبرى، و التي تعد حلقة من حلقات التاريخ الإسلامي الحديث، لا سيما ان المنطقة ظلّت مستعصية على الدراسات الجامعية الأكاديمية، اذ لم تتناولها الاّ الكتابات العامة، التي تهدف الى وضع مؤلفات شاملة عن القارة من جميع النواحي السياسية و الإقتصادية و العسكرية و التاريخية و الجغرافية و نحو ذلك .

و من هنا كان على الباحث ان يتقصى المعلومات من مختلف هذه الدراسات العامة التي تفتقر في احيان كثيرة للرؤى الواضحة و التفاصيل الدقيقة، لا سيما حول الحركات الإصلاحية الإسلامية و خاصة المؤلفات العربية، بالرغم من ان تراث هذه الحركات مدوّن بهذه اللغة نفسها، و المنطقة جديرة بالبحث و التنقيب، و الحضور الى عدد من مواطن الحركات الإصلاحية و الدول الإسلامية التي ظهرت في هذه الأقاليم الإفريقية، حتى يتمكن الباحث من الكشف عن الجوانب المتوارية وراء تراكمات الثقافات المتعددة و أنظمة الحكم المختلفة .

ففي غضون القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي كانت الغالبية الساحقة من دول القارة و شعوبها ترزح تحت نير الإستعمار الأوروبي البغيض، و بعد ردح من الزمن ظهرت انتفاضات و حركات في مختلف أقطار افريقيا، لكنها ظلت محتشمة في أول عهدها و لم تبلغ في عمقها و اتساعها مرحلة النضج الكافي لهزيمة الإستعمار و اخراجه من البلاد، و لكنها سرعان ما تطورت و تبلورت نحو الجهاد و النضال الوطني ضد المحتلين الأجانب، و انصبّت معظم جهودها على العمل السياسي المحض، اذ انها برزت في شكل حركات وطنية سياسية تناضل من أجل تحقيق امال الأفارقة و اخراجهم من دياجير الليل الإستعماري الطويل ، و انقاذهم من مخالب الفقر و الجهل و الحرمان .

و قد استخدمت في ذلك كله أساليب متنوعة و مناهج متعددة لمقاومة القوى الإستعمارية بمختلف أنماطها و جنسياتها، و بمرور الوقت و اكتساب الخبرة و التجربة ازدادت صلابة و ادراكا بواقعها اكثر، و تبلور وعيها بمجالها الجغرافي و بعدها التاريخي و عمقها الحضاري حتى برزت في شكل حركات أكثر قوة و أحدث تنظيما خلال الستة عقود الأولى من القرن العشرين رمت بكل ثقلها لمقاومة تغلغل الإستعمار الأجنبي الذي ناء بكلكله على كل ربوعها الشاسعة تقريبا محاولا كتم انفاسها و ابتلاعها فيما بعد .

و اذا كانت هذه الحركات الإصلاحية المناضلة في القرن الثالث عشر الهجري، القرن التاسع عشر الميلادي. لم تحقق أهدافها الوطنية التي ظلت تكافح من اجلها، فليس مرد ذلك الى تهاونها او خيانتها او عدم اخلاصها، و انما يعود الى ضعف وسائلها و قلّة إمكاناتها المادية من ناحية، و قوّة خصمها بأسلحته الحديثة

المتطوّرة و كثرة عساكره المدرّبة من ناحية أخرى.

و في القرن العشرين غيّرت الحركات الوطنية الإفريقية أسلوبها و استخدمت وسائل أخرى جديدة لم تكن مستعملة من قبل، و هي شكل من أشكال المقاومة الجديدة في القارة، إذ ظهرت جمعيات و أحزاب سياسية تتنوّع بين أقصى اليمين المتشدّد و اليسار المتطرّف متأثّرة باحتكاكها بالإيدولوجيات التي عرفها العالم المعاصر، فاستخدمت الصحف و المنابر و الإضرابات و المظاهرات و حملت السّلاح، و هي السّمة التي عرفتها القارة الإفريقية كلّها، و بالأحرى ما كان يسمى بالعالم الثالث، حتى استطاعت هذه الحركات فيما بعد إحراز النّصر و افتكاك الحرية و الإستقلال.

دوافع إختيار البحث :

بدأ اهتمامي بهذا الموضوع كهواية منذ وقت مبكّر و أنا لم أتخطّ بعد عتبة الثّانوية، و قد نمت هذه الهواية و تطوّرت مع مرور الزّمن و تحوّلت إلى ميل، و ذلك لتظافر عوامل متعدّدة و أسباب متنوّعة زادت في بلورة هذا الميل و تعميقه، فتحوّل إلى شغف. و يمكن حصر هذه العوامل و الأسباب فيما يأتي :

أوّلا : ففي صائفة سنة 1389 هـ، 1969 م و أنا في عنفوان الشّباب شاهدت مدينة الجزائر تتحوّل إلى عاصمة للقارة السمراء و ذلك بمناسبة إنعقاد المهرجان الثقافي الإفريقي الأوّل، إذ لفت إنتباهي تقاطر الوفود الإفريقية المختلفة على البلاد، بذلك الزّي التقليدي الإفريقي المتنوّع الضّارب في عمق التاريخ و الحضارة الإفريقيين، و كان هذا في تصوّري أقرب إلى الزّي العربي الإسلامي، ممّا دفعني إلى تتبع أشغال المهرجان و أخباره عبر وسائل الإعلام المختلفة، ثمّ الإطلاع فيما بعد على ما قدّم في أشغال هذا المهرجان من خطب و محاضرات و مداخلات جمعت بين دفّتي سفر تحت عنوان " المهرجان الثقافي الإفريقي الأوّل، ملتقى الجزائر 1969 م".

ثانيا : ملتقيات التعرف على الفكر الإسلامي في الجزائر التي كانت تعقد سنويا، و كان يحضرها العديد من العلماء و الباحثين الأفارقة يقدّمون خلالها أبحاثا و دراسات عن تاريخ و حضارات القارة و انتشار الإسلام و العروبة فيها و قيام ممالك و أمبراطوريات كانت على جانب كبير من التقدّم و الإزدهار تربطها علاقات جدّ وطيدة بالعرب و المسلمين و خاصة في شمال القارة، و كانت اللّغة العربية هي لغة الدواوين و المعاملات اليومية و الرّسمية، فكانت لي محفّزا زاد من فضولي لمعرفة المزيد عن القارة.

ثالثا : النّقص العلمي و المعرفي الذي لاحظته في مقياس إفريقيا جنوب الصّحراء و الذي كان يدرّس بقسم التّارخ في الجامعة الجزائرية لمّا كنت طالبا بجامعة قسنطينة لاسيما من حيث التأطير و قلّة المصادر و المراجع المتخصّصة في الموضوع، و إختلاف ما تقدّمه من معلومات لا تقنع الطّالب و لا تشفي غليل الباحث، فزاد إهتمامي بهذا الموضوع أكثر، و لمّا إلتحقت بقسم ما بعد التدرّج، قرّرت أن أخوض غمار

البحث في جزء من تـاريخ القارة السّـمراء، لعلّي أضيف جـديدا لمعلومات القارئ العـربي عمومـا و الجزائري خصوصـا في هذا المضمار، و أسّلـط بعض الأضواء الكـاشفة عن جوانب ظلّ يكتنفها اللّبس و الغموض.

رابعا : الإحتكاك بالأفارقة، لقد كانت لي بعض الإتّصالات بالطّلبة الأفارقة في الجزائـر من قبل، ثـم كانت دراستي في قسم الدّراسات العليا بالجامعة على يد أستاذ إفريقي جمـع بين غزارة العلم و دماثة الخلـق فزادت صلتي بالدّراسات الإفريقية، و اطّلعت من خـلاله على الكّثير من المعلومات عن التّقـاليد الإفريقيـة و شجّعني هذا الأستاذ عـلى العمـل في الموضـوعـات ذات الـصّلـة بتـاريـخ القـارة و حضاراتهـا و خاصـة في الجوانب المتعلّقة بالإسلام و العروبة، و العلاقـات بيـن شمـالـي الصّـحـراء و جنوبيهـا، و زيّن لي زيـارة البلدان الإفريقية و إمكانية مساعداته لي في ذلك، مما جعلني أتوجّه هذه الوجهة التي كنت أراها تحقيقـا لرغبـتي و ميولي و سجّلت موضوع دراستي معه، و بعد الشّروع في العمل وجدت نفسـي وحيـدا أتخبّـط في لجّـة بحـر السّباحة فيه شاقة بالنسبة للمبتدي و الخروج منه إلى برّ النجاة أصعب.

إشكالية البحث :

تتمثل إشكالية هذه الرّسالة في أسئلة جوهرية حاولت الإجابة عنها عبر صفحات البحث الذي أنفقت فيه وقتا طويلا، و إستنفذت في جمع مادته و معالجتها و إعدادهـا جهـدا لا أراه قليـلا، و أعتقـد أنّهـا سـتقدّم للقارئ بلغة الضاد على الأقل صورة واضحة عن نطاق الصّحراء الإفريقيـة الكبرى و جنوبيهـا، كمـا سيجد فيها إجابة عن أسئلة محيّرة غالـبا ما كانت تدور في أذهان المهتّمين و تشـغل بالهم، كحدود هذا النّطـاق و تحديده تحديدا دقيقا و الذي بات يحيّر الكثير من الطّلبة و الدّارسين.

و قد أوضحت فيه أن الصحراء الإفريقية الكبرى لم تكن في عصر من العصـور أو في يـوم مـن الأيـام عقبة في وجه إنسان شمالي هذه الصّحراء أو جنوبيها، و لم تكن بمعزل عن القارات الأخرى.

و لعلّ أهم قضية عالجتها في الموضوع هـي كيـف انتقـل الإسـلام أوّلا إلى القـارة الإفريقيـة مـن شبه الجزيرة العربية ؟ و كيف وصل الدين الجديد إلى شرق إفريقيا ؟ و كيف تقدّم نحو شمالها ؟ ثـم كيـف عـبر إلى نطاق جنوب الصحراء عبر هذه القفار الصعبة بطبيعتها الجغرافية و ظواهرها المناخية القاسية حتـى بلـغ منطقـة الغابات الإستوائية؟ و أهم الوسـائل التـي سخّرت في حملـه إلـى هذه الرّبـوع؟ و الأسـباب الـتي عجّلـت بنشره على أديم هذه الرّقعة الفسيحة من القارة؟، و العوامل التي أدّت إلى ترسيخه في نفوس الأفارقة الوثنـيين و الإحيائيين منهم على السّواء؟.

هؤلاء الذين تحوّلوا إلى الإسـلام مبرزا دور كل من التّجـار و الطّرق الصـوفية و الحج و العلمـاء و الدّعاة، و خصوصا هؤلاء الأخريـن و جهودهـم في نشر الدين الصّحيح و الثّقافة العربية الإسـلامية

واللّغة العربية و آدابها بمجهودات ذاتية و دون مساعدات من جهات رسمية، و كيف تمكّن المسلمون الأوائل من بناء ممالك و أمبراطوريات واسعة و تشييد حضارات راقية؟ أبهرت الرّحالة و الجغرافيين الذين جابوا المنطقة القدماء منهم و المحدّثون؟! و لماذا إنهارت هذه الممالك و الإمبراطوريات و اندثرت؟.

كما حاولت الإجابة عن كثير من الإنشغالات و التساؤلات حول العوامل التي أدّت إلى ظهور حركة الجهاد الإسلامي في القارة الإفريقية عموما و منطقة موضوع الدّراسة خصوصا، إذ أبلى المسلمون بلاء حسنا و كانوا السبّاقين إلى المقاومة و الوقوف في وجه الهجمة الإستعمارية على القارة.

كما حاولت إزاحة بعض الغموض و الضّبابية التي اكتنفت بعض زعماء الحركات الإصلاحية الإسلامية و التعريف بهم و بدورهم الكبير و الفعّال في المقاومة، و عظيم شأنهم في الحركات الوطنية المعاصرة التي جرّت بلدان القارة الإفريقية إلى خوض غمار الثورات التحريرية لنيل الحرّية و الإستقلال.

صعوبات البحث :

لقد واجهتني – و أنا بصدد الإشتغال في البحث و جمع مادته العلمية – صعوبات جمّة لم أكن أتوقّعها إذ أنني استدرجت إلى العمل إستدراجا – و انا أجهل خطورة البحث فيه – و ذلك من قبل أستاذ إفريقي كان يريد مدّ جسور علمية قوية بين إفريقيا و الجزائر من جهة و إبراز دور الإسلام و المسلمين في نهضة القارة الحديثة من جهة أخرى.

و تكمن هذه الخطورة في إتّساع مساحة الرّقعة الجغرافية " موضوع البحث " و تعدد الدعوات و الحركات الإصلاحية الجديرة بالدّراسة من ناحية، و كون الموضوع جديد لم يطرق على هذا النّحو من قبل جامعيين أكاديميين في الجزائر إلا نادرا من ناحية أخرى، كما طرح أمامنا إشكالية شح المصادر و المراجع.

و لعلّ ما زاد في صعوبة هذه الدّراسة هو أن المنشورات التي تناولت جوانب معيّنة من هذا الموضوع كانت أجنسة إستعمارية مغرضة، لذلك وجدت نفسي أمام كمّ هائل من الآراء المختلفة و الأحكام المتضاربة و المتطرّفة في كثير من الأحايين، و لاسيما نظرتهم إلى الجهاد الإسلامي و زعمائه، هذا فضلا عن إتّساع الموضوع و تفكّك أجزائه، و الذي لا مناص من لمّ أطرافه و صياغته صياغة ملائمة وفقا لمنهجية البحث و أهدافه.

لقد كان هدفي عند تسجيل الموضوع هو زيارة بعض البلدان الإفريقية و بعض المراكز الحضارية كالخرطوم، كانو، سكوتو، زاريا، و دكار و غيرها، و لا شك أن هذه المراكز بالإضافة إلى كونها تحتوي على أرصدة هائلة من المعلومات، فانّها تضم خزائن واسعة من كتب البلاد المغاربية،كما أن مكتبات جامعات مصر و السّودان، و زوايا الطّرق الصوفية بافريقيا غنية كلّ الغنى بالمصادر و المراجع و الوثائق

التي تغذي الموضوع و تثريه و ربّما تعطيه أبعادا و إتّجاهات أخرى بطريقة أيسر و أكثر فائدة.

و الحق أنّه لو تيسّر لي القيام بزيارات ميدانية و رحلات إلى المنطقة لكان البحث أكثر عمقـــا و ثراء و لجاءت الدّراسة بالجديد النّادر، ســـــواء على مستوى البحث و هيكلة الموضـــوع، أو على صعيد مضامينه و أهدافه،أو من حيث المادة الخبرية المحرّرة، و قد تظهر الدّراسة مغايرة لما هي عليـــه الآن و تكـون بعيـدة عـن الأبحاث و الدّراسات التقليدية التي ألفناها و الـتي تفيـد المعرفـة العامـة لعـدم إعتمادهـا علـى الحقـائق التاريخيـة الميدانية، غير أن قلّة الإمكانات المادية من جانب، و الظّروف العامة مـن جـانب آخـر حـالت دون ذلـك، ممـا جعلني أتخبّط كالغريق باحثا عمّا أتعلّق به لكي أخرج إلى برّ الأمان.

و ممّا زاد في صعوبة الموقف أنني قضيت طيلة فترة البحث مرحلة مضطربة و حرجة في جمع المـادة مـن جهة، و البحث عن مشرف مؤطّر أستفيد من ملاحظاته و توجيهاته من جهة أخـرى، علمـا أن المؤطّـر الأوّل ظلّ غائبا لفترة ثم غادر البلاد دون رجعة.

و فضلا على ذلك، التغيير الذي أدخل على الموضوع، فالدّراسة في البداية كانت مبنيـة علـى التّقسـيم الجغرافي للحركات – موضـوع الدّراسـة – ثـمّ تحوّلـت إلى البنـاء الموضوعـي المبـني علـى التسلسـل التـاريخي للحركات التي تخدم الموضوع أكثر بتوجيه من المشرف الجديد، الذي كان لي منقذا حقيقيا من الضّياع بسبب غياب المؤطّر الأوّل، ممّا دفعـني إلى إعـادة صـياغـة الـمـوضـوع و تنـظيـم و ترتيب فصول البحث وفق الخطّة الجديدة.

و من الصعوبات أيضا إختيار القضايا الصّالحة للبحث و المعالجة في هـذا الإطـار و الـتي توخّيـت مـن ورائها إضافة جديد إلى المكتبة العربية الجزائـريـة، يـتنـاول إلى جـانـب التـاريـخ قضـايـا فكريـة و حضـــــارية و إجتماعية جديرة بالإهتمام، و الإبتعاد ما أمكن عن تناول جانب من جوانب المواضيع المستهلكة.

إن زيارتي للمكتبة الوطنية بالجزائر في ظروف جدّ صعبة لم تمكّني من العثور على ضالتي المنشودة، غير أنّها أفادتني في بعض جوانب الموضوع، شجّعني على شدّ الرّحال لزيارة مركـز جهـاد الليبـين بطرابلـس الـذي وجدت فيه جدّية و حسن إستقبال من قبل المشرفين عليه عمّالا و مسؤولين ما حفّزنـي أكـثر علـى المضـي في البحث و يسّر لي الإطّلاع على مراجع سمحت لي بجمع مادة و لو يسيرة ساهمت بقدر كبير في إنجـاز جـانب من الدّراسة و فتحت لي الباب واسعا على أفق أكثر إتّساعا فيما يتعلّـق بـالتواصل المتعـدّد النّشـاط بـين شمـالي الصحراء و جنوبيها عير طرق القوافل التجارية العابرة للصحراء، و لاسيما عندما إنتقلت إلى الجنوب و بلوغي مدينة " غدامس " التي كانت محطّة رئيسة لطرق التّجارة و العلماء و الدّعاة و مواكب الحجّاج المتّجهـين مـن جنوب الصّحراء صوب البقاع المقدّسة و العكس.

و رغم هذه الصّعوبات التي واجهتني في إيجاد المصادر و المراجع و تحديدها و جمـع المـادة الخبريـة الـتي كانت شحّيحة فعلا و إلى حدّ بعيد، و خاصة في بعض الجوانب التي لم تطرق بشكل كاف، و كانت عبـارة

عن نتف و مقتطفات إستنطقتها و سبرت أغوارها و استنبطّت منها الأفكار و استقيت المعلومات قدر الإمكان، و قد سلكت في ذلك أسلوب العرض التاريخي المبني على التحليل و الإستنتاج و المقارنة و إستخلاص المادة المحرّرة و عرضها على المقاييس المنهجية التي تبقي المفيد و تطرح الغث.

فإن وفّقت – بعون الله – فتلك غايتي و إن أخفقت فحسبي اني بذلت جهدا معتبرا يضيف لبنة جديدة للمكتبة العربية عن تاريخ إفريقيا جنوب الصّحراء، لاسيما بعض العوالم التي ظلّت مجهولة لدى الكثير من أرباب الإختصاص، و المجتهد مأجور في كلّ الحالات، فإن أصاب فله أجران، و إن أخطأ فله أجر واحد.

أهم المصادر و المراجع المعتمدة في البحث :

إن الكتابات عن إفريقيا الإسلامية الحديثة و المعاصرة و خاصة جنوب الصّحراء قليلة، و لاسيما تلك التي تمسّ الموضوع مسا مباشرا و خصوصا باللّغة العربية سواء الكتب المؤلّفة أو المخطوطات المحقّقة، أما المراجع الأجنبية و إن كانت موجودة فإنها قليلة لا تشفي غليل الباحث في مكتباتنا الوطنية على الأقل، بل فإنّها كتب عامة لم تتعمّق في دراسة الحركات الإسلامية، إذ ركّز مؤلّفوها على الجوانب العسكرية و وصفوا زعماء الحركات الإصلاحية الإسلامية و الوطنية بأبشع الأوصاف و أقبح النّعوت و أطلقوا عليهم أسماء مضلّلة أحيانا لا تنطبق عليهم و لا على سلوكاتهم و أفعالهم لتشويه صورهم في أعين مواطنيهم، و ما ذلك إلا لأنّهم قاموا بالجهاد و مقاومة الإستعمار،فأوردوا بذلك نصوصا و أقوالا مختلفة و متناقضة في أحايين كثيرة غير أنّه و من خلال البحث و التحري عثرت على بعض المصادر و المراجع التي تناولت موضوع الدّراسة بشيئ من الموضوعية أعطت معلومات كشفت عن جوانب هامة من الموضوع.

أ – المصادر :

1 – المصادر العربية :

لقد إعتمدت في الجانب التاريخي المتعلق بانتشار الإسلام في إفريقيا على مصادر قيّمة تناولت الموضوع، مثل تاريخ العلامة عبد الرحمن بن خلدون، و خاصة المجلّدين السادس و السّابع، و هو مصدر غني عن التعريف. بالإضافة إلى مروج الذّهب للمسعودي، و هو كتاب من أربعه أجزاء، تناول فيه صاحبه تاريخ البشرية حتى عصره، و إن كان لم يخصّص مادة خبرية و علمية لإنتشار الإسلام في إفريقيا فإنّه أشار إشارات خفيفة إلى ذلك تنير للباحث الطّريق. كما تناول البلاذري في كتابه فتوح البلدان انتقال الدين الإسلامي إلى ربوع القارة دون إعطاء صورة موسّعة عن ذلك. و فضلا على ما سبق اعتمدت على كتاب وصف إفريقيا للوزّان " ليون الإفريقي " Lyon L'Afriquin " ترجمة عبد الرحمن حميدة، و هو مصدر هام لما يحوي بين دفّتيه من مادة خبرية و معلومات دقيقة عن القارة و تاريخها و مدنها لإعتماد صاحبه على

المشاهدة العينية و الحضور الفعلي. كما استخدمت رحلة ابن بطّوطة و هي تقع في جزئين ضمن كتاب واحد أورد فيهما معلومات دقيقة عن جوانب كثيرة من حياة النّاس، و أثر الإسلام فيهم و بعض دول إفريقيا و ملوكها، و حتى و أن كان يغلب عليها الطّابع الأدبي فان الباحث لا يستغني عن قراءة هذين الجزئين الممتعين و إستخدامهما.

أما أهم مصدر حديث اطّلعت عليه و إستخدمته هو كتاب الدكتور نعوم شقير جغرافية و تارخ السودان و هو كتاب ضخم في عدد صفحاته قيّم في مادته العلمية، و هو عبارة عن موسوعة لا لتاريخ السودان فحسب، بل لإفريقية عموما. و قد سلّط فيه الاضواء الكاشفة على الحركة المهدية إذ أودر نصوصا لها قيمتها التاريخية و العلمية ناهيك عن الخرائط و الصّور النّادرة التي أعطت الدّراسة قيمة جمعت بين القديم في العرض و الحديث في التحليل و التعليل و الشّرح و التعليق، و هي دراسة لا مناص لمن يتناول تاريخ و جغرافية السودان من الإستغناء عنها. أمّا المصدر الهام الآخر الذي إعتمدته في هذا البحث هو " نيل الإبتهاج " لأحمد بابا التمبوكتي، هذا المصدر الزّاخر بالمعلومات و الذي يعدّ ذخيرة الأفارقة و المسلمين إذ جمع بين دفّتيه تراجم العلماء الأعلام الأفارقة و المسلمين بأسلوب علمي يعبّر على ما بلغته الحضارة الإسلامية و اللّغة العربية في إفريقيا من قوّة و إزدهار، و قد إستفدت منه كثيرا خصوصا في موضوع التراجم.

2 - المصادر الأجنبية :

استخدمت في الدراسة بعض المصادر الأجنبية باللغة الفرنسية مثل كتاب الرحالة "أوجين ماج " " Eugene Mage "و هذا المصدر الصغير الحجم عبارة عن مذكرات يومية سجل فيها صاحبها اثناء تنقلاته في افريقيا مشاهداته العينية، و وصف فيها حالة السكان الإجتماعية و الإقتصادية، و تكلّم فيه عن بعض الطرق الصوفية و جهودها في نشر الإسلام و ثقافته بين النّاس، كما تحدث عن نشاط زوايا الطريقة السنوسية خاصة في شمال السودان الأوسط و خطرها على الوجود الإستعماري الفرنسي في القارة.

كما تناول الموضوع المؤرخ هيبرت ديشان " H. Dechamps " في كتابه " التاريخ العام لإفريقيا السوداء " و يتكون من جزئين اثنين اهتم فيهما بتاريخ القارة و ركّز في المجلد الثاني على بعض الحركات الإصلاحية الإسلامية في اطار استعراضه للحروب التي شنّها الإستعمار على القارة مركزا على الجوانب العسكرية ليبرز بطولات مواطنيه و ما قدموه من تضحيات لنشر الحضارة في القارة . أما غروني اوجين "Guernier Eugene" فقد تناول الموضوع في الجزء الأول من كتابه "افريقيا الغربية " ، و كغيره من الغربيين الذين كتبوا عن افريقيا ركزوا على تاريخ كشف القارة و تاريخ الإستيطان الفرنسي خاصة في غرب افريقيا، و ركّز على الجوانب العسكرية و المعارك الحربية متهجّما على الزّعماء الأفارقة المسلمين منهم و الوثنيين، و وصفهم بالتزمّت و التعصب و حبهم لسفك الدماء و عدم قابليتهم للحضارة .

ب - المراجع :

1 - المراجع العربية :

ففي ما يتعلق بالإطار الجغرافي استخدمت مراجع عديدة اعطت صورة واضحة و حددت معالم التقسيم الجغرافي لإفريقيا جنوب الصحراء، و أخص بالذكر كتاب احمد نجم الدين فليجة " افريقيا دراسة عامة و اقليمية " و قد تعرض فيه صاحبه الى جغرافية القارة مسلطا الأضواء على الدول غير الإسلامية، و هو كتاب تميز بأسلوبه العلمي البعيد عن الوصف و الإطناب، و قد حدد فيه منطقة افريقيا جنوب الصحراء. و كذا كتاب الدكتور جمال الدين الديناصوري " جغرافية العالم الإقليمية افريقيا استراليا " و هو كتاب علمي قيم في مجال تخصصه، تناول بالدراسة في هذا الجزء القارتين، و في القارة موضوع البحث اهتم بجميع جوانبها و مظاهرها المختلفة، و اعطى صورة وضحت جانبا هاما من الموضوع .

هذا فضلا على كتاب " الجغرافية السياسية الإفريقية " للدكتور فليب رفلة، و هو كتاب جد مهم في دراسة القارة من النواحي التاريخية و الجغرافية و السياسية و الإقتصادية، و هو مرجع لا يمكن الإستغناء عنه في كل دراسة تتناول القارة. بالإضافة الى كتاب الدكتور جودة حسين جودة " جغرافية افريقيا الإقليمية " و هو كتاب علمي متميز يتكون من قسمين، تناول في قسمه الأول تاريخ القارة و اكتشافها، و أفرد القسم الثاني دراسات قيمة تعرضت لبعض الدول الإفريقية من النواحي الطبيعية و السياسية و الإقتصادية .

أما في ما يتعلق بالجانب التاريخي المرتبط بانتشار الإسلام في افريقية، فأخص بالذكر كتابين للدكتور حسين مؤنس " الإسلام الفاتح " و " اطلس التاريخ الإسلامي " و هما من الكتب القيمة، تناول الكتاب الأول حركة انتشار الإسلام و الطرق التي سلكها و الوسائل التي استعملها بأسلوب علمي و منهجي، اما الثاني فقد تناول فيه التاريخ الإسلامي قديمه و حديثه بشكل مركز و دقيق مصحوب بخرائط توضيحية أزالت الكثير من الغموض عن العديد من المناطق و القضايا التي كانت مطروحة، و الكتاب يعد مفخرة للمكتبة العربية. اضافة الى موسوعة التاريخ الإسلامي للدكتور أحمد شلبي لاسيما الجزئين الرابع و السادس اللذين تناولا جزء هاما من فترة الدراسة. هذا فضلا عن البحث الذي قام به الدكتور محمد عبد الله النقيرة تحت عنوان " انتشار الإسلام في شرقي افريقيا و مناهضة الغرب له " و قد تعرض باسهاب الى انتشار الإسلام و اتساع دائرته بطريقة علمية و منهجية و بأسلوب علمي يشد القارئ .

اما دراسة التراجم و الحركات الإصلاحية فقد اعتمدت على كتاب الحفناوي " تعريف الخلف برجال السلف " و هو سجّل يعرف برجال العلم و الدعوة و الإصلاح و قد اعتمد فيه صاحبه كثيرا على كتاب احمد بابا السالف ذكره في التعريف بالقدماء، كما اعتمدت على الكتاب الصادر عن المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، و هو مجموعة من الأبحاث و الدراسات العلمية القيمة قدمت في ندوة العلماء

الأفارقة تحت عنوان " ندوة العلماء الأفارقة و مساهماتهم في الحضـــارة العربية الإســـلامية " و هـو سـجّل تناول عددا كبيرا من العلماء و الدعاة القدماء منهم و المحدثون، و هـذا الأخير يزخر بمادة علمية و تـــاريخية و اعلامية قدّمها باحثون و مختصون في الميدان، و لا تقتصر الإستفاد منه على التراجم فقط .

أمـا الفصـول المتعلقـة بالحركـات الإصلاحيـة و زعمائهـا، فقـد اعتمـدت علـى كتـاب " الحركـات الإصلاحية في غرب افريقيا خلال القـرن التاسـع عشـر " للدكتـور عبـد الله عبـد الـرازق ابراهيـم. و كتـاب "الجهاد الإسلامي في غرب افريقيا " لأحمد محمد كاني، و هما كتابان هامان أزاحا الكثير مـن الضـلال علـى زعماء الحركات الإصلاحية في السودانين الأوسط و الغربي .

أما الحركة السنوسية فقد افردت لها كتبا تناولتها باسهـاب اذكـر منـهـا كتـاب " السـنـوسـيـة ديـــن و دولة " لمحمد فؤاد شكري ، و " السنوسي الكبير " لمحمد الطيب بن ادريس الأشهب. و كتاب محمد صدقي الدجاني " السنوسية نشأتها و تطورها ".

2 - المراجع العربية :

تناولت جملة من الكتب ذات القيمة العلمية مثل كتاب السـير تومـاس اورنولـد " Thomas Ornold " " الدعوة الى الإسلام " و هو دراسة علمية متميزة، و قد تعـرض فيها المؤلف للدعوة الإســـلامية و تاريخ انتشار الدين الإسلامي في العالم و طرق و وسائل انتشاره بطريقة بعيدة عن كل تعـــصب او تحـامل، و اذا كان قد تناول بعض الحركات الإسلامية المعاصرة بشيء من الإختصار فانـه تنـاول الموضـوع بكثـير مـن الموضوعية، و قد استفدت من مادته في كثير من جوانب الموضوع .

اما " تاريخ الشعوب الإسلامية " لصاحبه كارل بروكلمان " C . Brocklman" فهو كتاب هـام و قد اطلعت عليه بلغته الأصلية و المعربة و استخدمته في البحـث، غـير ان صاحبـه نحى منحى آخـر عكـس سلفه، فقد تناول هذا الأخير حركة انتشار الإسلام و الحركات الإسلامية الحديثة بنوع من التحامل و التشويه للواقع، لذلك فلا مفر من تناول مادته بشيء من الحذر، فعمدت الى مقارنتها مع غيرهـا في محاولـة لإستجلاء الحقائق العلمية و التاريخية البعيدة عن الأهواء و المجرّدة عن العواطف .

هذا بالإضـافة الى كتاب " حاضر العالم الإسلامي " لصاحـــبه الإمـــريكي لوثـــروب ســتودارد " L . Dtudard " تعريب عجاج نويهض و تعليق الأمير شكيب ارسـلان، و هـو كتـاب يتكـون مـن أربعـة أجزاء ضمّها مجلدان، و الكتاب يتوفر على مادة علمية غزيرة تعرضت لعـدد مـن زعمـاء الإصـلاح في العصـر الحديث .

3 - المراجع الأجنبية :

اعتمدت في الناحية الجغرافية على كتاب جاك ولرس " Jaques Weulersse " " افريقيـا السوداء " و هو كتاب هام جدا في جغرافية القـارة، اذ تنـاول كـل مـا يتعلـق بإفريقيـا مـن جميـع النواحـي

المختلفة و حدد منطقة افريقيا جنوب الصحراء بأسلوب علمي بعيد عن الإطناب .

كما استخدمت الدراسة الهامة التي قدّمها غوست .ب، و. ر " Gosset (p .et. r) " و هي عبارة عن سفر ضخم ضم بين دفتيه تسعة كتب تناول فيها تاريخ القارة الحديث، و بالتحديد على تاريخ كشف افريقيا و استعمارها و الحركات الإصلاحية، مركّزا على الجوانب العسكرية، و كغيره اهتم بتاريخ الحروب و المعارك، و قد وصف زعماء حركات الإصلاح بالتخلف و التعصب و التعطش للقتل و سفك الدماء، و في نفس الوقت اشاد ببطولات بني جنسه واصفا اياهم بالفاتحين الحاملين لمشعل الحضارة، و قد استفدت من مادته خاصة فيما يتعلق بالحاج عمر، و ابنه احمدو شيخو، و ساموري توري ، و الشيخ ماباجاخوبا .

4 - الدوريات :

تناولت في الدراسة دوريات عربية، أخص بالذكر منها حوليات كلية الإنسانيات و العلوم الإجتماعية، جامعة قطر، العدد (5) . 1413هـ 1992م، و تعرض صاحب الدراسة الدكتور عبد الله عبد الرازق ابراهيم، الى حركة " عثمان دان فودي "، و هي دراسة قيمة تناولت الأصول الفكرية للمصلح و انجازاته . بالإضافة الى اعداد مختلفة من مجلة كلية الشريعة الإسلامية بالجماهرية العربية الليبية و اخص بالذكر العددين الرابع، و الثالث عشر الذين اوردا دراسات لها صلة وثيقة بموضوع البحث . فضلا عن مجلتي الثقافة، و الأصالة الجزائريتين. أعداد مختلفة، تناولت دراسات قيمة عن التاريخ الإفريقي و حضاراته و لا سيما حركات الإصلاح. الى جانب مجلة منبر الإسلام أعداد مختلفة تناولت دراسات لها صلة بالموضوع، و هي مجلة تصدر عن دولة الإمارات العربية المتحدة، و قد استفدت منها خاصة فيما يتعلق بتاريخ الصومال، بالإضافة الى اعداد مختلفة من مجلة منبر الإسلام الصادرة في القاهرة و التي تناولت في بعض أعدادها موضوعات لها علاقة بموضوع الرسالة. فضلا على أعداد من المجلة الإفريقية التي تطرقت لمواضيع لها صلة بالبحث .

خطة البحث :

لقد تم بناء هذا البحث على التسلسل الزمني للحركات الإصلاحية و السياسية، بطريقة توخيت فيها الموضوعية و المنطق السليم و المنهجية العلمية .

و يتكون هذا البحث من مقدمة و تسعة فصول و خاتمة و صور و خرائط و ملاحق لها صلة وثيقة بموضوع الرسالة .

الفصل الأول : لقد تناولت في الفصل الأول الإطار الجغرافي للموضوع و انتقال الإسلام الى القارة و اثاره على السكان، و اسباب ظهور الحركات الإصلاحية و الدور الذي لعبه العلماء و

الدعاة في الدعوة الى الإسلام و حركة الإصلاح و مقاومة الإستعمار في القارة، و يعد الفصل الأول تمهيدا تناول الحيز الجغرافي لإفريقيا جنوب الصحراء و صلتها بالشمال، تحدثت فيه عن التقسيم الجغرافي معرفا بكل قسم من أقسامها و حدوده بدقة، كما تعرضت فيه بالدراسة الى الصحراء الإفريقية الكبرى موضحا من خلال الدراسات و الوثائق، مؤكدا على ان الصحراء الكبرى لم تكن في يوم من الأيام عائقا في وجه التجار و العلماء و الدعاة و انتقال الثقافات .

أما الفصل الثاني : فقد خصصته لتاريخ انتشار الإسلام و الطرق التي سلكها في شرق القارة و شمالها و غربها و كيفية توغّله الى أعماقها و الوسائل المستعملة في نشره، ثم تطرّقت الى تراجم اشهر العلماء الدعاة الأفارقة و جهودهم في الإصلاح و نشر الإسلام و ثقافته و اللغة العربية و آدابها، مع الإشارة الضمنية للمراكز الثقافية الإسلامية في القارة .

أما الفصل الثالث : فقد عالج حركة شيخ الدعاة الأفارقة في العصر الحديث " عثمان دان فودي" و الدعوة التي قام بها في افريقيا جنوب الصحراء في وقت كان فيه المسلمون قد انحرفوا عن جادة الدين الإسلامي بعد سقوط الأمبراطوريات الإسلامية في المنطقة، و قيام الممالك و السلطنات التي كان يحكمها حكام وثنيون او مسلمون منحرفون، ثم تطرقت الى حياة الشيخ عثمان و جهوده في تصحيح الإسلام و محاربة الوثنية، و اعلانه الجهاد و المراحل، التي مرت بها دعوته مع التركيز على اهم منجزاته السياسية و الفكرية .

أما الفصل الربع : فقد درس حركتين اصلاحيتين متزامنتين تقريبا في اقليمين متباعدين جغرافيا، الأولى في السودان الأوسط، قام بها الشيخ " محمد الأمين الكانمي " و الثانية قام بها " أحمدو لوبو الماسيني " و تعرضت في الحركة الأولى بإيجاز الى تاريخ المنطقة قبل وصول شخص الداعية، ثم تطرقت إلى حياته و الأوضاع التي كان عليها السودان الأوسط بعد تسرب الضعف الى مملكة " كانم برنو " و تدهور احوالها و خروج سكانها حكاما و محكومين عن تعاليم الشريعة، و جهود المصلح العلمية و الفكرية في اعادة المياه الى مجاريها، و الوقوف في وجه قبائل الفولاني التي كادت تعصف بكيان الدولة.

أما الجزء الثاني من الفصل فقد تناول حركة " أحمدو لوبو " في منطقة ماسينا " Macina " عرضت فيه حياة الرجل و أهم منجزاته في ميدان الدعوة و الإصلاح و بناء الدولة الإسلامية و تنظيماتها المختلفة .

أما الفصل الخامس : فقد عالج حركة من أهم الحركات الإصلاحية في العالم الإسلامي في العصر الحديث و هي حركة محمد بن علي السنوسي الجزائري المستغانمي، تطرقت فيه الى التعريف بشخصية الشيخ من جميع جوانبها، و بداية دعوته في شبه الجزيرة العربية و انتقاله الى البلاد الليبية و استمراره في نشر افكاره و بناء الزّوايا التي حملت لواء الإصلاح و الجهاد، علاوة على دورها في التربية و التعليم و التوجيه، ثم

عرجت على آراء الشيخ الفكرية و فلسفته الإصلاحية، كما تتبعت نشاط الحركة في عهد خليفته محمد المهدي، و ذيلت الفصل بقائمة الزّوايا و رؤسائها و مناطق تواجدها .

أما الفصل السادس : فقد تضمن حركتين اخريين قام بهما كل من الحاج " عمر بن سعيد الفوتي " و الشيخ " ماباجاخوبا " استعرضت في الجزء الأول من الفصل حركة الحاج " عمر " و عرّفت شخصيته و المراحل التي قطعها حتى ظهر كداعية و مصلح كبير في عموم افريقيا، مسلطا الأضواء على اهم اصلاحاته الإجتماعية و منجزاته السياسية حتى انشائه الدولة الإسلامية في منطقة غرب افريقيا، ثم تتبعت اثر الحركة بعد وفاة زعيمها في شخص ابنه " أحمدو شيخو " الى ان سقطت الدولة في يد المستعمرين الأجانب .

أما الجزء الثاني من الفصل فقد خصصته لحركة الشيخ " مابا " فعرّفت بشخصيته و جهوده في نشر الإسلام و اللغة العربية و محاربة الوثنية و مقاومة الإستعمار، في ظروف قاهرة و جد صعبة الى ان توفاه أجله .

أما الفصل السابع : فقد عالج حركة اصلاحية اخرى اتخذت منهجا مميزا عن سابقاتها، تلك هي دعوة " محمد أحمد المهدي السوداني "، و قد تطرقت فيها باسهاب الى التعريف بشخص المصلح و تتبعت مراحل حياته و المؤثرات الداخلية و الخارجية في فكره و اعلانه الدعوة و تقمصه المهدية و جهاده في تصحيح العقيدة و محاربة الأوضاع الفاسدة و تصديه للسلطات المصرية الحاكمة و مستعمريها الإنجليز، ثم تعرضت الى فكر المهدي و دعوى المهدية و مناقشتها، و خلصت في نهاية الفصل الى نتائج هذه الحركة .

أما الفصل الثامن : فقد انفرد بدراسة حركتي شخصيتين لعبتا دورا كبيرا في تاريخ المنطقة، تعرضت في الجزء الاول من الفصل الى حركة الشيخ " محمدو لامين " في سانغمبيا " Singambia " و عرفت بشخصه و المراحل التي مر بها و النشاط الذي مارسه من اجل تصحيح عقيدة المسلمين في منطقته و ما جاورها، و نشر الإسلام بين الوثنيين، و لم شمل قبائل " الساركولي " و تنظيمها في دولة حكمت المنطقة وفق الشريعة الإسلامية، و لم أغفل التنظيمات التي اقامها " محمدو " و جهوده في مقاومة الغزو الإستعماري الدخيل على القارة .

أما الجزء الثاني فقد استقطب الحديث فيه عن دعوة " رابح بن فضل الله " المشهور بـ (رابح الزبير) في منطقة السودان الأوسط، و بعد التعرض لترجمة الرجل و العوامل المؤثرة فيه و التي اعدته ليكون رجل دعوة و اصلاح بالرغم من الطابع العسكري الذي تميّز به في بداية حياته، ثم عرجت إلى نشاطه الدعوي و الإصلاحي و اقامة الدولة و تنظيمها، كما أشرت الى علاقته بالمهدي السوداني و وقوفه في وجه الإستعمار الفرنسي حتى سقط شهيدا في ميدان المعركة، و مواصلة ابنه " فضل الله " الحرب ضد الفرنسيين حتى سقوط البلاد في قبضتهم .

أما الفصل التاسع و الأخير :فقد عالج حركتين لا تقلان أهمية عن الحركات السابقة، بل فقد كانتا

اكثر ضراوة و اشد قسوة سواء على قائديهما او سكان منطقتيهما، و حتى على المستعمرين الأجانب انفسهم،وقد تناولت في الشطر الأول من الفصل حركة " ساموري توري " "Samory Touré " و قد تعرضت لترجمته و للمراحل التي مر بها حتى رفعه راية الدعوة الى الإصلاح و نشر العقيدة الإسلامية و جمع المسلمين في منطقة واسعة من غرب افريقيا تضم اليوم دولا كثيرة، ثم تطرقت لجهاده ضد الإستعمار و سعيه لبناء الدولة و تنظيمها الى غاية القبض عليه من قبل الفرنسيين و نفيه وظروف موته في المنفى .

أما الشطر الثاني فقد تناول حركة الشيخ " محمد بن عبد الله حسن " التي تميزت بخصوصيات متميزة، كونها وقعت في منطقة جد استراتيجية و حسّاسة و هي منطقة القرن الإفريقي " الصومال " من جهة، و كون الحركة واجهت أربع دول مسيحية كبرى ثلاثة منها اوروبية من جهة ثانية، و قد تعرضت إلى حياة المصلح و سلطت الأضواء على منهجه في الإصلاح و مساعيه في مكافحة الجهل و الإنحراف و الغزو الأجنبي، و جهاده من اجل اقامة دولة اسلامية ، و وقفت عند الأسس و التنظيمات التي اقام عليها محمد بن عبد الله دولته و ما جناه من ثمار ، و مواقفه الصلبة و الشجاعة مع الإستعمار الذي اضطر رغم قوته الى الإعتراف به، و عقد معاهدات الصلح معه بعد فشل كل محاولات القضاء عليه بالقوة الى ان سقطت دولته بعد حوالي ربع قرن، بعد الحرب الكونية الأولى و تعاون الدول الأوروبية و استخدام بريطانيا لأحدث ما وصلت اليه الصناعة الحديثة.

و ذيلت البحث بخاتمة تضمنت النتائج التي تمكنت من استخلاصها من خلال هذه الدراسة و معايشتي الموضوع .

و لا يفوتني قبل الفراغ من هذه المقدمة الوجيزة، الا ان اقر و اقول كم انا شديد الإنتمان و الإعتراف بالجميل للأستاذ الدكتور عبد الكريم بو الصفصاف الذي استفدت من علمه الغزير و استلهمت منه الصبر على الشدائد و الجلد في الطلب ، منذ كنت طالبا في مرحلة التدرج، و زادت افضاله علي عندما قبل تبني الإشراف مشكورا على هذا الإنجاز، في فترة كادت جهودي خلالها تضيع و تتبدّد، فأمسك بيدي و فتح لي باب بيته و مكتبته العامرة، و لم يبخل علي بتوجيهاته و نصائحه القيمة التي كانت لي نورا أضاء سبيلي في انجاز هذه الدراسة و تنقيتها من شوائب غريبة ما كنت لأتفطن إليها لو لا متابعاته للبحث و مراقبته لكل خطوة أخطوها .

و قد كانت ملاحظاته سببا في تخطي الكثير من العثرات المنهجية التي واجهتني اثناء اعداد الرسالة، و قد زالت بفضل ملاحظات هذا المشرف القدير، الذي لم يتخل عني رغم ضخامة مهامه الموزعة بين تدريس طلبة التدرج، و الدراسات العليا، في اكثر من جامعة، و الإشراف على الرسائل العلمية الأكاديمية و مناقشاتها، فضلا على انكبابه على الإنتاج الفكري، بالإضافة الى مسؤوليات و مهام بيداغوجية اخرى .

كما لا يفوتني ان اوجه شكري و تقديري الى الأستاذ الدكتور عبد الرحمن عمر الماحي المشرف

الأول على هذا البحث، و الذي كان سببا في اختيار هذا الموضوع، فله مني جزيل الشـــكر و جميل العرفـان

و لا أنسى ان أشكر خاصة عمال مكتبي جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية و جامعة منتوري و ارشيف ولاية قسنطينة على المساعدات التي قدموها لي .

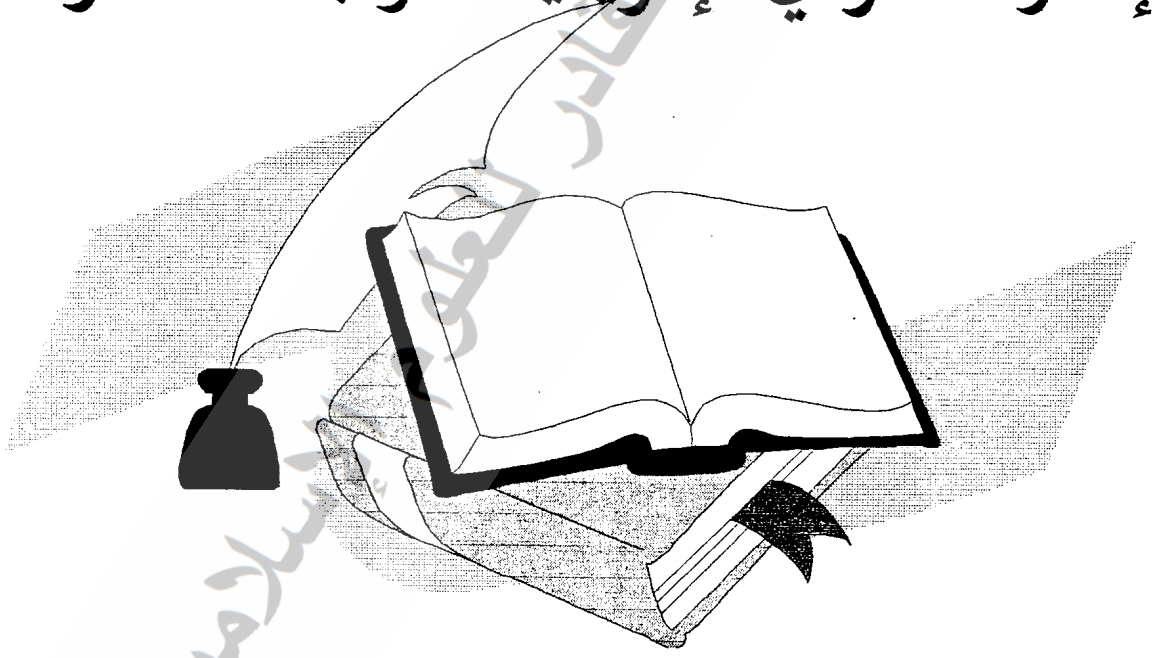
كما أتقدم ببالغ الشكـــر و العرفان بالجميل لكل الساهرين على ادارة مركـز جهاد الليبيـين عمـالا و مسؤولين على الخدمـــات التي قدموها لي، و اخـص بالذكر الأستاذ الفاضل مصـــطفى حامد رحـومـة، و الدكتور محمد احمد الطوير مدير جامعة السابع عشر أبريـل بمدينـة الزّاويـة الليبيـة، اللذيـن قدّمـا كـل مـا في وسعهما من امكانات و توجيه أنار لي درب الامل في مواصلة طريق البحث، و حفزاني على المضي فيـه قدمـا بما أسدياه من نصح، سواء فيما يتعلق بالوثائق و المصادر و الكتب داخل المركز أو خارجه، حيث دلاني علـى كل ما له صلة بموضوع الدراسة من قريب او بعيد، فقد نبهاني الى ضرورة زيارة " السـراي الحمـراء " و هـو متحف اثري ضخم احتوى رسومات وضحت الصلة الوثيقة بين الشمـــال و الجنوب لا سيما منطقـة فـزّان منذ العصور القديمة. كمـــا اشكرهما على كـــرم الضيـــافة و حرارة الإستقبال.

كما أقدم الشكر للزملاء الذين قدموا لي المساعدة في ترجمة بعض النصوص التي استعنت بهـا في هـذه الدراسة .



الفصل الأول :

الإطار الجغرافي لإفريقيا جنوب الصحراء



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول :

الإطار الجغرافي لإفريقيا جنوب الصحراء



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يتناول هذا الفصل الموقع الجغرافي للقارة الإفريقية التي دارت على أديمها الأحداث التاريخية و السياسية و الثقافية و الإجتماعية التي سنعالجها في هذه الرسالة.

و بما ان البلدان التي ستكون محور هذا البحث، لم تكن حدودها السياسية معلومة و مضبوطة كما هو الحال في وقتنا الحاضر، لذلك سأحاول بقدر الإمكان باذلا قصارى جهودي من أجل رسم صورة عامة و واضحة عن مناطق الحركات الإصلاحية و الدول الإسلامية التي قامت في هذا البلد او ذاك في افريقيا جنوب الصحراء، مع ربطها بحدودها الحالية لأزيح بعض الضباب الذي ما فتئ يغشى هذه البقعة من العالم، لكي أضع القارئ أمام تصور واضح لهذه الأصقاع الإفريقية، التي ظلت مجهولة لدى كثير من الدارسين و الطلبة .

و سيتضمن الجزء الأول من هذا الفصل التحولات الأساسية و المختلفة للأطماع الأوروبية نحو هذه القارة التي أصبحت بعد الكشوفات الجغرافية ميدانا فسيحا للدول البحرية الكبرى منذ نهاية العصور الوسطى و بداية العصور الحديثة، ثم أعرّف بعد ذلك بأهمية القارة و خصائصها المختلفة و مظاهر جغرافيتها السطحية و ظروفها المناخية، و وقفت مع التوزيع الجغرافي للسكّان مسلطا الأضواء على نموهم و تطور عددهم و توزيعهم، ثم عرجت على الناحية الإقتصادية مذكرا بالثروات الطبيعية المتنوعة التي تزخر بها القارة و التي بزّت في الكثير منها قارات العالم.

أما الجزء الثاني فقد ركّزت فيه بالخصوص على نطاق من أهم النطاقات الصحراوية في العالم ذلك هو الصحراء الإفريقية الكبرى، هذا النطاق الذي اختلف الدارسون في تحديده تحديدا جغرافيا دقيقا كما اختلفوا في إعماره، بالإضافة الى كونه لغزا محيرا بالنسبة للأوروبيين خصوصا، و بينت حدود هذا النطاق المجهول من جميع جهاته الجغرافية الرئيسة منها و الفرعية، و قد انطلقت في التعريف به من لفظ الصحراء لغة و اصطلاحا، و بينت ان هذا الحيز من النطاق الجغرافي لم يكن مجهولا لدى العرب و المسلمين - عكس الأوروبيين - بل كان مطروقا و معروفا لديهم معرفة تامة و دقيقة، و كان المجال الخصب الذي استلهم فيه رحالاتهم و علماؤهم الكثير مما خلفوه من كتابات مثل الإدريسي، المسعودي، ابو الفداء، ابن سعيد، ابن بطوطة، و الحسن الوزان و غيرهم، كما وضحت التسميات التي أطلقها العرب المسلمون على المنطقة موضوع الدراسة .

أما الجزء الثالث من الفصل فقد ركّزت فيه على الساحة الخاصة بموضوع البحث و هو منطقة جنوب الصحراء الإفريقية الكبرى، هذه المساحة الجغرافية من الأرض هي التي أطلق عليها العرب المسلمون بلاد السودان، و قسموها الى ثلاثة أقسام هي : السودان الغربي، السودان الأوسط، و السودان

الشرقي، و التي عرفت فيما بعد بمصطلح افريقيا الغربية، افريقيا الوسطى (*) و افريقيا الشرقية مع شيء من التعديل، و ركزت في هذه الأقسام على التعريف بجغرافية كل قسم من اقسامها على حدة مبرزا التضاريس المتنوعة و الإرتفاعات المختلفة. من جبال شاهقة، و هضاب متوسطة و سهول مستوية، و شبكة هدروغرافية جارية. ثم تطرقت الى المناخ و التساقط لما لهذه المظاهر من أثر و انعكاس على توجيه الأحداث التاريخية، كما أفردت للقطر الليبي حيزا من الدراسة على الرغم من أنه لا ينتمي الى أقطار افريقيا جنوب الصحراء، و ذلك لما لعبته الحركة السنوسية الضاربة في البلاد الليبية نفسها من دور اصلاحي في جنوب الصحراء، كما أشرت في الدراسة الى النشاطات الإقتصادية للسكان و اهم محاصيل كل إقليم باختصار.

1 - مدخل لجغرافية افريقيا :

كانت القارة الإفريقية منذ القديم محط أنظار الكثير من الشعوب، و بتنامي الثقافة و الفكر و تطور الحضارة و نمو الإقتصاد زاد الإهتمام و تعمق أكثر بأقطار و شعوب هذه القارة، و بذلك أصبحت دول هذه المناطق الإفريقية و شعوبها هدفا للدول الإستعمارية المتنافسة على المجالات الحيوية و مصادر الثروة لاسيما الموارد الأولية العديدة .

و قد أدى هذا التنافس العالمي بين الدول الكبرى إلى البحث عن المعلومات و الدراسات المتخصصة و البيانات و الإحصاءات و الكتابات المتنوعة التي تكشف عن أسرار إفريقيا في جميع عصورها التاريخية، لمعرفة طبيعتها الجغرافية و المناخية و تضاريسها الإقليمية و إمكاناتها الإقتصادية السطحية و الباطنية .

و لقد عرفت سواحل القارة و أطرافها المختلفة و المتعددة بعثات استكشافية منذ القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي. اذ وصل الملاحون البرتغاليون الى " رأس بوجادور " حوالي سنة (838هـ، 1443م) و الى نهر " السنغال " و " الرأس الأخضر " حوالي عام (850هـ، 1446م) و سيراليون عام (865هـ، 1460م).و في حوالي (884هـ، 1479م) وصل برثلمو دياز " Barthèlemy diaz "(**) إلى أقصى جنوب القارة و أطلق عليه رأس العواصف. و بناء على رغبة حكومة البرتغال، عاود فاسكودي جاما (***) " Vasco de Gama " الرحلة و بلغ المنطقة حوالي عام (904هـ، 1498م) و أطلق عليها تيمّنا

(*) – المقصود هنا هو وسط القارة الإفريقية برمّته لا جمهورية افريقية الوسطى الحالية، و هذه الأخيرة يشملها المصطلح أيضا .

(**) – برثليمو دياز : بحار برتغالي أول من وصل الى اقصى جنوب افريقيا 1478م او 1479م و أطلق عليه اسم رأس العواصف، و أعاد الكرة مع مواطنه فاسكودي جاما، و توقف عند جزر الرأس الأخضر : انظر : جماعة من الأساتذة، موسوعة المعرفة، م ١، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت 1984 ص 516

(*) – فاسكودي جاما : 1469-1524م بحار برتغالي عيّنه ملك البرتغال لمواصلة الرحلة التي قام بها برثليمو دياز، انطلقت الرحلة من لشبونة في صيف 1497م و بلغ رأس العواصف الذي صار يعرف برأس الرجاء الصالح، و اكمل رحلته بإتجاه الشرق، و بلغ كلكتا بالهند في 23 ماي 1498 م و بذلك تم اكتشاف الطريق البحري الى جزر الهند الشرقية، انظر : منجد اللغة والإعلام، ط ٢٣، دار المشرق، بيروت 1960 ص 516 موسوعة المعرفة، المجلد ١، مرجع سابق ص 46

اسم رأس الرجاء الصالح " Cap de bonne Espérance "[1]، و تواصلت الرحالات الإستكشافية الأوروبية خصوصا بعد تأسيس جمعية الكشف الجغرافي "African Association" في لندن حوالي (1203هـ ،1788م)، و هذه الأخيرة انظمت الى الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية سنة (1247هـ ، 1831م) [2]، و منذئذ حفلت الإكتشافات الجغرافية في القارة خلال القرون التالية بأسماء الكثير من الرحّالة من جنسيات مختلفة[3] وفدوا عليها من كل حدب و صوب، و كأن افريقيا لغز مجهول .

و الحق ان القارة الإفريقية لم تكن ذلك المجهول، و لاسيما النطاقات التي وصلها تيار العروبة و الإسلام، فلم تكن معروفة فحسب بل سبقت حتى اوروبا في الظهور حسب رأي بانكار[4] "Banikar" و لقد ساهم في التعريف بتاريخ القارة الإفريقية و حضارتها الكثير من ابنائها، و عملوا على إسقاط الكثير من الشائعات التي طالما امتلأت بها مؤلفات اوروبية مغرضة، مثل مقولة ان الرجل الإفريقي الأسود ليس له تاريخ او حضارة قبل قدوم المستعمر الأوروبي، و أن شعب الدهومي (بنين) مثلا : كان نتيجة لعلاقة جنسية بين حصان و امرأة حسب الإشاعات.

و ربما يكون هذا قد استقوه من بعض الخرافات الإفريقية التي ترجع أصل بعض القبائل الى حيوانات، و هذا لا شك درب من التخريف، و قد عبر المؤرخ الإمريكي لوثروب ستودارد " Lothrob Studard " عن رأي قابل للنقاش اذ يقول :[5] ***"اذا تحدثنا عن الإنحطاط الطبيعي الموروث في الإفريقيين، فإننا لا نبالغ في ذلك، فحينما نواجه افراد الجنس الزنجي انما نجد انفسنا أمام مخلوقات تختلف تماما عن الجنس الأبيض أو أي جنس بشري آخر، فهذا الجنس الزنجي لم يقدم للحضارة العالمية شيئا قط ".***

و حتى بعض الذين صنّفوا الإنسان الإفريقي ضمن بني البشر، فقد نظروا اليه نظرة احتقار، فالرحالة النقيب بيروتون " Berauton " يقول :[6] ***"لقد فشلوا تماما عن التطور من مرحلة البدائية الكاملة إلى مرحلة أرقى و لو قليلا من مرحلة البداءة " .***

و الحق ان المعروف في التاريخ الحديث و المعاصر ان نهضة امريكا قامت على كواهل هؤلاء الزنوج الذين نقلوا من افريقيا عبر البحار و المحيطات في رحالات دموية و مأساوية يندى لها جبين الإنسانية الى العالم الجديد

---

(1) – د/ زاهر رياض : استعمار افريقيا، الدار القومية للنشر، القاهرة – 1384هـ ، 1965م ص.ص 21 – 22 و Georges . Hardy : L'histoire d'afrique . librairie armand. paris.1922 P 73

(2) – د/ فليب رفلة : الجغرافية السياسية الإفريقية، مكتبة النهضة المصرية، ط 2. القاهرة، 1966 ، ص 32.

(3) – د/ فليب رفلة : نفس المرجع، ص 15.

(4) – د/ احمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، مجلد 6، ط5، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.1985– ص 30.

(5) – محمد جلال عباس : (افريقيا بين الخرافة و الواقع العلمي) مجلة الفيصل، العدد 91، محرم 1405 هـ اكتوبر 1984 م .

(6) – محمد جلال عباس : المرجع نفسه، ص 91 و ما بعدها.

خلال ثلاثة قرون من قبل الغربيين أنفسهم .

و الواقع ان الأفارقة لم يكونوا وحدهم في موقف التعريف بحضاراتهم، بل ان العرب ايضا لعبوا دورا في هذا المضمار، حيث اشار الدكتور قوامي نكروما(*) الى هذه الحقيقة في خطاب له امام الصحفيين الأفارقة بجامعة غانا ، في الثاني عشر من شهر ديسمبر سنة (1962م) حينما قال[1] : "***ان الرحالة العرب كثيرا ما كانوا غير متحيزين في اعمالهم عن افريقيا ، و نحن مدينون لهم فيما كتبوه عن ماضينا***" .

كما ان الواقع في القرنين الثالث عشر و الرابع عشر الهجريين، التاسع عشر و العشرين الميلاديين. قد فند مزاعم الرجل الأبيض المستعمر لإفريقيا و ما جاء به من أفكار و مشاريع غريبة كل الغرابة عن شعوب القارة، و خاصة رسالة التمدن التي ادعى نقلها الى القارة السمراء باتت آراء مغلوطة و بعيدة عن جادة الحق و منطق الصدق، لما اخدته من تمزيق الكثير من أبناء الجنس الواحد و البلد الواحد في هذه الربوع ، و ما اقحمته من كيانات اجنبية دخيلة في قلب هذه الأمم و الشعوب التي تحتويها قارة افريقيا ، مثل الأقلية البيضاء في " بريتوريا " Pretoria " و المستعمرات في كل من السنغال، مالي و النيجر ....الخ .و ما نشر من لغات اوروبية بين المجتمعات الإفريقية، كالإنجليزية و الفرنسية و البرتغالية و الإسبانية و الإيطالية و الألمانية. و كان الهدف من وراء ذلك كله القضاء على شخصية الإنسان الإفريقي و سحقها و ابعاده عن هويته الوطنية و انتماءاته الحضارية.

و اذا كان تاريخ افريقيا الشمالية معروفا الى حد ما منذ الفتوحات الإسلامية، فإن افريقيا جنوب الصحراء كان يعتقد الى وقت قريب انه ليس لها تاريخ، و اذا كان الأوروبيون يجهلون حقا ماضي هذه المنطقة و ما بلغته من رقي حتى فجر العصور الحديثة، فإن المسلمين قد وصلوا الى هذه الربوع الشاسعة منذ إتمام الفتح الإسلامي للمغرب و الأندلس[2] .

و الحق أن لإفريقيا جنوب الصحراء تاريخ حافل بالحضارات الإنسانية، و ذلك للصلة الوثيقة التي كانت تربطه بتاريخ الجزء الشمالي للقارة و تفاعلها المستمر مع مختلف الحضارات العالمية ، و إذا كان للإسلام و المسلمين دور بارز في فك العزلة عن هذه القارة و إثراء تاريخها و حضارتها و ذلك بتكوين ثقافات زاهية، فقد اسهموا بشكل إيجابي في إنماء و تطور هذه الحضارة نفسها .

(*) – نكروما : هو قوامي نويا كوفي نكروما (1909–1972) سياسي غاني و رئيس جمهورية، التحق بالمدارس التبشيرية بقرية "نكروتول" مسقط رأسه، انهى دراسته و عمل مدرسا، ثم سافر سنة 1935م الى (الو. م. أ) و تحصل على دكتوراه من جامعة لنكولن في الآداب، ثم سافر الى انجلترا و شارك في النشاطات الطلابية عاد الى بلاده سنة 1948م و اشتغل بالصحافة، و أسس حزب الشعب الدستوري، طالب بالإستقلال الفوري 1957م، صار رئيسا للوزارة ثم للجمهورية و اطيح بحكمه في 24/02/ 1966م، توفي بغينيا 1972م مخلفا عدة مؤلفات.انظر: سمير المقدسي، موسوعة المورد، المجلد 7، ط 1، دار العلم للملايين بيروت 1980 ص 136

(1) – محمد ابو الفتوح الخياط : الوحدة الإفريقية، سلسلة اقرأ، العدد.275، دار المعارف،مصر، 1965، ص 15.

(2) – د/ مسعود عبد الله الوزاني : (التواصل الإنساني و اثره في وحدة العقيدة بين شمال الصحراء و بلدان السودان الغربي في عصر المرابطين) ، مجلة الدعوة الإسلامية ، كلية الدعوة الإسلامية.العدد 13. طرابلس ،الجماهرية العربية الليبية، 1996م – ص 303.و ما بعدها

2 - التعريف بالقارة الإفريقية :

تعد إفريقيا ثاني قارة في العالم من حيث المساحة بعد القارة الأسيوية[1] حيث تبلغ مساحتها 30,3مليون كم^2 أي نحو 20% من مساحة المعمورة، فهي أكبر من أوروبا و أمريكا الشمالية مجتمعتين[2] تمتد على مسافة 8000كم من الشمال إلى الجنوب، و بنفس القدر تقريبا من الشرق إلى الغرب في قسمها الشمالي، و تنحصر بين دائرتي عرض 38^0 شمال خط الإستواء ، و 35^0 جنوبه ، لذلك فإن قسما كبيرا منها يقع بين المدارين . و يتميز نصف القارة الشمالي باتساع الأراضي الصحراوية ، و أن احوال المناخ المعتدلة تتركز في أقاصي القارة الشمالية و الجنوبية[3] ،و بذلك فهي تتوفر على أقاليم مناخية و نباتية متنوعة، و رغم وجود بعض المظاهر التضارسية المتباينة ، فإن البناء الجيولوجي للقارة يعد بسيطا نسبيا مقارنة بباقي القارات .

تحتل القارة الإفريقية موقعا إستراتيجيا على مستوى جد رفيع من الأهمية ، فهي تتصل بقارة آسيا عن طريق شبه جزيرة سينا المصرية ، و لا يفصلها عن شبه الجزيرة العربية سوى الأخدود الذي تغمره مياه البحر الأحمر و بوغاز باب المندب، [*] و يطل ساحلها الجنوبي و الشرقي على المحيط الهندي الذي يربطها بجنوب آسيا و جنوب شرقها، و لا يفصلها عن قارة أوروبا سوى حوض البحر الأبيض المتوسط، و هي تكاد تلامسها عبر مضيق " جبل طارق "[4] و جزيرة صقلية ، أما ساحلها الغربي فيشرف على المحيط الأطلنطي مما يسر لها الإتصال بالعالم الجديد . و زاد في أهمية موقعها و إستراتجيته في العصر الحديث شق قناة السويس[**] التي ربطت بين البحرين المتوسط و الأحمر و قربت المسافة بين الشرق و الغرب ، و قلصت مسافة الرحلة بين آسيا و أوروبا إلى النصف منذ إفتتاحها .

يغلب على القارة السمراء السمة الزراعية، و هي غنية بالثروات السطحية المختلفة و المتنوعة و التي

---

(1) - احمد عطية الله : القاموس السياسي ، ط4. دار النهضة العربية ،القاهرة 1980 ، ص.111

(2) - احمد عطية الله : القاموس الإسلامي ، م 1. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة. 1383هـ ، 1963م - ص 140

(3) - د/ جودة حسين جودة : جغرافية افريقيا الإقليمية ، دار النهضة العربية، بيروت. 1981 - ص. 73

(*) - باب المندب : مضيق يفصل بين افريقيا و اقصى جنوب غرب شبه جزيرة العرب عرضه حوالي 40كم استولت عليه بريطانيا 1839م ، وضعه كوضع مضيق جبل طارق زاد الإهتمام به بعد فتح قناة السويس سنة 1869م. انظر سيرا البحلس، موسوعة الورد ، م ع، مرجع سابق ص 7

(4) - يوسف روكز : افريقيا السوداء سياسة و حضارة ، ط 1 . المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت - 1406هـ 1986م، ص 13.

(**) - قناة السويس بحرى مائي : يصل بين البحرين الأبيض المتوسط و الأحمر ، بدأت أعمال الحفر منذ عام 1859م تحت إشراف المهندس الفرنسي " فرديناند دي لسبيس " ،فتحت للملاحة الدولية رسميا في 1869 ، و -حضر حفل التدشين الأمير عبد القادر الجزائري- يبلغ طولها 172كم، و عمقها 18م، ثم زيد في تعميقها. تم الجلاء عليها من قبل الإنجليز في 3/ 4/ 1956م ، و في 07/26 /1956م اعلن الرئيس جمال عبد الناصر عن تأميمها . انظر : الموسوعة العربية الميسرة . اشراف رفيق غربال ، ط.1 دار القلم و مؤسسة فرانكلين ، 1965 - ص. 1400.

غالبا ما يندر وجودها أو ينعدم في سواها من باقي القارات الأخرى ، كما تحتل مراتب مشرفة في إنتاج بعض المحاصيل مثلا : ثلثي محصول الكاكاو العالمي، ثلاث اخماس انتاج زيت النخيل[1] .

و بالرغم من تأخر التنقيب و ضعف المسح الجيولوجي، فإن باطن القارة يزخر بثروات معتبرة لم يستغل معظمها حتى الآن، غير أنها تستحوذ على نسب عالية بإنتاجها المحلي، و تحتل مراتب متقدمة في مجموع الإنتاج العالمي[2]، إذ تنتج نحو 98% من ماس العالم و 55% من ذهبه و 22% من نحاسه ، بالإضافة إلى ما حباها الله به من ذهب أسود و غاز طبيعي و فضلا على الثروات الإقتصادية الوفيرة و المتعددة التنوع[3]، فإن القارة السمراء تتوفر على ثروة بشرية هائلة قدرت كما هو موضح في الجدول الآتي :

جدول يوضح : تطور سكان افريقيا منذ منتصف القرن السابع عشر[4] .

السنة	تقديرات ويلكوكس	تقديرات كارسوندرز	السنة	تقديرات الأمم المتحدة
1650	100	100	1920	136
1750	100	95	1930	155
1800	100	90	1940	177
1850	100	95	1950	199
1900	141	120	1960	1054
			1970	344
			1977	420

وحدة القياس : مليون نسمة

و قد بلغ العدد حسب إحصاء سنة (1995م). 728 مليون نسمة، بنسبة نمو سكاني يقدر بـ 2,8%.[5]

و إذا كان النمو السكاني متوقفا حسب التقديرات السابقة خلال قرنين من الزمن، بين سنتي (1060هـ/1650م و 1267هـ/1850م). ثم تضاعف العدد في قرن واحد فأصبح 200 مليون نسمة، في عام (1950) ، و يعزى توقف النمو الديموغرافي المذكور سابقا إلى تجارة الرقيق. و بعد أن توقفت هذه الهجرة الجبرية، إزداد النمو ثم اشتد خلال القرن العشرين بعد إستقلال معظم الدول و تحقيق استقرارها السياسي[6]، و نتيجة لإتساع مساحة

---

(1) – د/ حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ط2 ، مكتبة النهضة المصرية 1964 – ص 8.

(2) – مصطفى مؤمن : قسمات العالم الإسلامي المعاصر ، ط1 ، دار الفتح 1394هـ 1974م – ص 298.

(3) – د/ حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق – ص 8.

(4) – د/ جودة حسين جودة : المرجع السابق ، ص 137.

(5) – Serge cordellier : l'etat du monde Edition La couverte paris , 1996 .P. 686

(6) – د/ جودة حسين جودة : المرجع السابق ، ص.ص.137-138 .

القارة و تنوع أقاليمها المناخية، قسمها الجغرافيون تيسيرا لدراساتها إلى خمس مناطق : شمال إفريقيا ، جنوب إفريقيا، شرق إفريقيا، غرب إفريقيا، و وسط إفريقيا [1] .

و رغم هذه الثروات المادية والبشرية الهائلة، فقد إعتبرها الغربيون مركز الفقر و البؤس و الشقاء و مرتع الأمراض الفتاكة، نتيجة الظروف الإجتماعية[2] ،و المناخية، و البيئية، التي تتراوح بين شدة الحر بسبب عرش الشمس الوهاج الذي يصعب أن تحدق إليه عين مخلوق ، فضلا عن الرطوبة العالية .

و الحق أن ما كتبه الغربيون يوضح بجلاء أن القارة كانت مجهولة لديهم، و لا يعرفون عنها إلاّ النزر اليسير قبل الكشوفات الجغرافية على الأقل ، إذ ساد الإعتقاد زمنا طويلا أن داخل القارة خال من السكان ، و هذا ما يؤكده "هيرودت" في القرن الخامس قبل الميلاد بقوله[3] : "***لا يستطيع أحد أن يقول عما وراء القفار المملة، لأن القارة غير مأهولة بسبب شدة الحرارة التي لا تطاق***" لذلك جاءت المعلومات عنها مشوبة بالخرفات و الأساطير التي تبعث الدهشة في النفوس و الغموض في العقول ، و اللبس في الأذهان، و ما زاد في توسيع الجهل و تعميقه بالقارة، هو وجود النطاق الصحراوي الكبير و الواسع، الذي بقي لغزا محيرا للأروبيين ، هذا الحزام الكبير و الواسع هو الصحراء الإفريقية الكبرى ، هذا الإسم الصغير – الصحراء – يحمل معاني كبيرة و أراضي شاسعة، ترى ما هي حوافه ؟ و حدوده ؟ و ما تنطلي عليه من أسرار ؟

الصحراء الإفريقية الكبرى[*] :

إن المعلومات و المعارف التي ساقها لنا الجغرافيون اليونانيون و الرومان قديما هي المعلومات المتوفرة لدينا فقط عن هذا النطاق الواسع من إفريقيا، فقد ذكر "بطليموس" في القرن الثاني الميلادي ، كلمة ليبيا للدلالة على داخل القارة، و أطلق كلمة " أثيوبيا " [**] على منطقة جنوب مدار السرطان، أما الصحراء الإفريقية الكبرى فلم تكن واضحة المعالم لديهم .

إذن فكلمة الصحراء الكبرى [*]التي نتداولها اليوم لم تستعمل إلاّ حديثا، و دلت استعمالاتها المتعددة على أنها تشير إلى النطاق الواسع الممتد من بلاد البربر و إقليم البحر المتوسط شمالا إلى بلاد السودان جنوبا، دون تحديد دقيق.[4]

---

(1) – يوسف روكز : المرجع السابق ، ص .9.

(2) – د/ عبد الجليل التميمي : الروابط الثقافية بين تونس و ليبيا و وسط غرب افريقيا خلال العصر الحديث ، مطبعة الإتحاد العام التونسي للشغل، تونس .1981. ص.22.

(3) – دونيربولم : ترجمة نسيم نصار، الحضارات الإفريقية ، ط1. منشورات عويدات، بيروت. لبنان.1974م، ص.9.

(*) – أنظر الشكل رقم (1)، ص 23.

(**) – إثيوبيا : كلمة أطلقها الإغريق على الجهات الواقعة إلى الجنوب و الجنوب الشرقي لبلاد النوبة ، فهي غير اثيوبيا الحالية، و أطلق القدماء لفظ إثيوبي على كل من لونه أحمر قاتم، و معناه في اليونانية الوجه المحترق. أنظر: د/ فليب رفلة ، مرجع سابق ، ص.335.

(4) – اسماعيل العربي : الرحلة و الإستكشاف في البر و البحر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986م، ص.287.

الشكل (1)



الصحراء الإفريقية الكبرى

عن د/ فليب رفلة : الجغرافية السياسية الإفريقية ص 145

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و الصحراء كلمة عربية تعني الأرض الجرداء ، لكن العرب الذين توضعوا على إطلاق كلمة الصحراء أطلقوها على أية بقعة جرداء رملية، و قد عرفها كل من إبن منظور و إبن شميل، قال إبن منظور[1] : " ***بأنها الأرض المستوية في لين و غلظ ، و قيل أنها الفضاء الواسع*** " ، و قال ابن شميل[2] : " ***الصحراء من الأرض مثل ظهر الدابة الأجرد و ليس بها شجر و لا أكام و لا جبال*** ".و لكن هذا الوصف لا يمكن إطلاقه على الصحراء الإفريقية الكبرى المتموجة، لأن هذه المنطقة محل الدراسة تشتمل على عدد كبير من الواحات و التجمعات السكانية و المدن الجميلة، و قبل الإسلام لم يستعمل العرب هذا المصطلح للدلالة على منطقة محددة بعينها إلاّ في القرنين الثالث الهجري، التاسع الميلادي.

فقد استخدمها الرحالة الجغرافي اليعقوبي لنعت تربة المقابر التي يواري فيها الناس جثث موتاهم . و في القرن نفسه ظهرت كلمة الصحراء في كتاب إبن الحكم الموسوم " بغزو الشمال الإفريقي"، ليعبر المصطلح و لأول مرة على جزء من شمال إفريقيا و جهات طرابلس الغرب الداخلية.[3]

ثم راجت الكلمة بعد ذلك و راحت تدور على أقلام الجغرافيين ، و خصوصا عند كل من الإدريسي و البكري ، إذ يقول هذا الأخير:[4] "***أن الماء متوفر في الصحراء من وادي درعة إلى وادي تارجا و هو أول الصحراء ، ثم تمشي في الصحراء فتجد الماء على اليومين و الثلاثة*** " .

و من هنا فالصحراء الإفريقية الكبرى تتخللها الواحات و بها آبار المياه على هوامش الطرق، و تتلقى مناطقها كميات مختلفة من الأمطار، و بذلك فهي تختلف عن صحراء شبه الجزيرة العربية، و باقي صحاري المكسيك و قارة أستراليا .[5]

أما الأدريسي فقد أطلق المصطلح على النطاق الذي يقع جنوب النيجر في خريطته، و وضع كلمة الصحراء في الحزام المحصور بين بلاد السودان جنوبا، و سلسلة جبال الأطلس الصحراوي شمالا ، و مناطق صنهاجة غربا، و منطقة فزان شرقا ".[6]

ثم جاء الحسن الوزان في القرن العاشر الهجري ، السادس عشر الميلادي. باعثا من جديد أسماء القدماء. ليبيا و نوميديا، و لم تلبث الكلمة – الصحراء – أن اتسع مدلولها، فبعد أن كانت تطلق على هضبة

---

(1) – ابن منظور : لسان العرب، المجلد 4، دار صادر، بيروت.بدون تاريخ ،ص.443

(2) – ابن منظور : نفس المكان .

(3) – د/ احمد ابراهيم دياب:لمحات من التاريخ الإفريقي الحديث،ط1، دار المريخ،الرياض1401هـ-1981م .ص.33.

(4) – ابو عبد الله البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقيا و المغرب ،تحقيق دي سلان ،مكتبة الحكومة ،الجزائر 1857م ،ص.163.

(5) – د/ اسماعيل العربي : (مسالك الإسلام و العربية الى الصحراء الكبرى) ،مجلة الثقافة ،الجزائر ،العدد62،مارس افريل 1981م ،ص.41.

(6) – د/ جمال الدين الديناصوري و آخرون : جغرافية العالم ، الجزء1 ،إفريقيا و أستراليا ،مكتبة الأنجلو المصرية 1967م ،ص.2

" آيـر " " Air " (*) أصبحت تضم كل منطقـة الصـحراء بين البحر الأبيـض المتوسـط و السـودان،[1] و قـد أورد الوزان نفسه قوله :[2] " ***و وراء جبال الأطلس تقع سهول نوميديا التي ينبت فيها النخيل، و هي بـلاد تكاد تكون كلـها رملية، و بعدها تأتي صـحاري ليبيا التي هي بدورها رملـية، و تمتد إلى بلاد السـودان و تكثر فيها الجبال، و من وراء صحاري ليبيا بلاد السودان و معظمها سهل رملي*** " .

و الصحراء الإفريقية الكبرى تقـع بـين مـار مايكـا (**) و بـلاد طـرابلس و بـرقة و بـــلاد البـربـــر (المغرب العربي) شمالا، و بلاد السودان شرقا. و يذهب جغرافيون آخرون إلى مد رقعـة الصحـراء أكـثر مـن ذلك بإتجاه الشرق، و يجعلون حدودها البحر الأحمر[3].

تبلغ مساحة الصحراء الإفريقية الكبرى التي عبرها الكـثيـر من العلماء و التجار و الدعاة و المصلحون المسلمون عبر الأزمان و العصور ثمانية ملايين كم^2 . -أي أكثر من ربع مسـاحة القـارة السـمراء - و تشـغل هذه الصحراء النصف الشمالي من إفريقيا، و تمتد على نحو 5600 كم من المحيـط الأطلنطي غربـا، إلى البحـر الأحمر شرقـــا، و بعرض يقدر بنحو 1900 كم من الإقليم الســـوداني جنوبا حتى سواحـــل البحر المتوسـط و سلاسل جبال الأطلس الصحراوي شمالا، و تضم هذه الصحراء الفسيحة الأرجاء اليـوم أجـزاء مـن المملكـة المغربية، الصحراء الغربية، موريطانيا، جنـوب الجـزائر و أقصى جنوب تونـس، مـالي، النيجـر، تشـاد، ليبيـا، مصر اثيوبيا، الصومال، و جيبوتي. [4]

يغلب على سطح الصحراء الكـبرى طـابع الإنخفـاض و الإستواء و البسـاطة، و قـد أخفـت العوامـل الطبيعية المختلفة أجزاء كثيرة من الطبقات الجيولوجية أحـــدث عهدا، كما أن الســـطح بعيد عـن التجـانس، و تتجلى فيه تغيرات كثيرة في المستوى، ففي جنوب شرق الجزائر و جنوب كل من تونس و ليبيا تظهر بعـض الهضاب و الكتل الجبلية ذات الإرتفاع الشاهق و الأصل البركاني (الهقار، تيستي) إذ يتعدى ارتفـاع بعـض قممها ثلاثة آلاف متر، بينما تنخفض في بعض الجهات إلى ما دون مستوى سطح البحر[5] ، و بناء على هذا

(*) – آير : إقليم جبلي بين دائرتي عرض 16^0 -20^0 شمالا ،5900 كلم^2 إكتشفه الرحـالة الألمـاني بـارث 1850م ، و في سنة 1899م، تجولت فيه بعثة فور لامي الصحراوية ، و جمعت عنه معلومات مهمة، و ترجع أهمية المنطقة إلى موقعها في ملتقى طرق القوافل التجارية الرابطة بين سوكوتو و جنوب النيجر ، و توات وغات و غدامس و ملاحات بالما ، أهم مدنه أجـاديس التي بلغت أوج عظمتهـا 1519م، قـال عنهـا فـورو لامي: أن سكانها مسلمون و أهم الطرق الصوفية بهـا السنوسية و التيجانيـة. انظـر: د/ اسماعيل العربي: الصحـراء الكـبرى و شـواطئها، مرجـع سابق،ص.ص.191-194

(1) – د/ جمال الدين الدياصوري و آخرون : نفس المرجع ،ص.2

(2) – الحسن بن محمد الوزان : وصف افريقيا ،تحقيق محمد حجي و محمد الأخضر ،ط2 ،دار الغرب الإسلامي ،بيروت 1983م،ص.72

(**) – مارمايكا : و هي قديما الإقليم السـاحلي من إفريقيا الشمالية و البحر المتوسط و الوجه البحري و برقة.

(3) – محمد محمود الصياد : مدخل للجغرافيا الإقليمية ، دار النهضة العربية للنشر،دون تاريخ ،ص.113.

(4) – دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد 14 ،ص.152.

(5) – د/ اسماعيل العربي : الصحراء الكبرى و شواطئها ،مرجع سابق ،ص.14.

راح بعض الجغرافيين إلى تقسيم الصحراء إلى قسمين إحداهما الصحراء الشرقية (صحراء ليبيا) و أرضيها يغلب عليها الطابع الصخري، و الآخر يسمى الصحراء الغربية أو " الساحل " و سطحها رملي في معظم الجهات.[1]

و طبيعة القفر الذي تتميز به هذه الصحراء يجعل عبء الحياة ثقيلا على الإنسان،و هذه السمات مرجعها الى طبيعة المناخ الحار و الجفاف الذي يفرض خصائص الصحراء الحارة[2]، فالأمطار في هذا النطاق جد نادرة و غير منتظمة، مما يترتب عليه مظاهر الشح و الفقر في الكساء النباتي، كما أن جفاف الهواء يبلغ درجات قصوى، و ينتج عن هذه التغيرات في درجات الحرارة من جهة، و شدة الرياح من جهة أخرى.تسهيل عملية الحت، الأمر الذي يزيد من صعوبة الحياة النباتية و الحيوانية.[3]

و إذا كان هذا المناخ هو السائد في الصحراء بوجه عام، فإن هوامشها الشمالية و الجنوبية تطغى عليها المناخات المجاورة لها، فالأمطار الوفيرة بعض الشيء التي تسقط في الشمال قد أفرزت منطقة سهبية رعوية صالحة لتربية المواشي، و خير مثال على هذه المنطقة ، الهضاب العليا بالجزائر، كما نجد هامشين من البطاح و الأدغال تمتدان من المحيط الأطلنطي غربا إلى حوض النيل شرقا في شكل حلقة إنتقال بين الصحراء و المناطق الخصبة في إفريقيا الإستوائية التي تقل فيها صيفات الصحراء شيئا فشيئا كلما توغلنا جنوبا.

و من هنا يمكن أن نقول : أن الصحراء الكبرى بمعناها الصحيح تشغل المنطقة المحصورة بين هذين الهامشين، و يتخلل هذه المنطقة صحراء العرق، الرق، و الحمادة، بالإضافة إلى وجود بعض الوديان الجافة و المنخفضات التي تتوفر على العديد من العيون و الآبار التي تكّون الواحات بعضها قائما بذاته و بعضها يجتمع كأرخبيل من الجزر،[4] و أهم هذه الواحات فزان، كوار، واداي، الزيبان توات، قرارة، و تافيلالت.

و رغم صعوبة التضاريس و قساوة المناخ، فإن المنطقة كانت و مازالت موطنا للإنسان، و هذا ما أشارت إليه الإكتشافات الأثرية و أكدت أن الإنسان كان يعيش في الصحراء منذ أزمنة سحيقة جدا في القدم، حيث ذكر هيرودوت " Hirodot " إسم اللبين أو الأثيوبيين، كما ذكر شعوبا كانت تسكن فزان "الكراميون "، كما تطرق في حديثه إلى شعب أبيض من البربر كان يسكن الحدود، أكره شيئا فشيئا على

---

(1) –د.محمد رياض وكوثر عبد الرسول : إفريقيا دراسة لمقومات القارة. ط ، دار النهضة العربية،بيروت، 1973، ص ص 105-108.

(2) – صلاح الدين علي الشامي و آخر : جغرافية العالم الإسلامي ،ط ،منشأة المعارف الإسكندرية 1987م ،ص.158.

(3) – دائرة لمعارف الإسلامية ،المجلد 14 ،ص.153.

(4) – د/ احمد شلبي ،المرجع السابق ،ج6،ص.30.

(*) – الجمل : مخلوق جديد و دخيل على الصحراء،دخل مصر في القرن 5 ق.م نتيجة غزو الفرس للبلاد، لذا يمكن القول أن دخوله صحراء المغرب و توغله جنوبا لابد أن يكون في وقت متأخر نسبيا ،و ذهبت بعض الروايات أن جماعة من البيض قد جاءوا به من الشرق،و ربما هؤلاء هم "الهكسوس" الذين غزوا مصر و هزموا جيوشها في عهد الأسرة الرابعة عشر في منتصف القرن 7،ق.م انظر: د/ اسماعيل العربي الصحراء الكبرى و شواطئها ،مرجع سابق .ص.ص.33-34.

النزوح و الإنتقـــال نحو الجنوب و خاصة بعد دخول الجمل(*) إلى شمالي إفريقيا، فقد ساعـدت هذه الوسيلة و ساهمت مساهمة فعالة في غزو الصحراء من قبل البربر الذين عاشوا في وادي ريغ، كما كانت قبائل صنهاجة تحيا حياة البدو الرحل بين جنوب الأطلس الكبير و بلاد السنغال.(1)

و لذلك فالإتصال بين شمالي الصحراء و جنوبيها يعود إلى أزمنة موغلة في القدم، فقد كانت طرابلس الغرب " Oea " و صبراتة " Sabratha " بليبيا من المراكز التي تعج بالنشاطات التجارية القرطاجية،حيث كانت عند هذين المركزين تلتقي طرق القوافل التي تشق الصحراء الكبرى و تربط بين البحر الأبيض المتوسط شمالا،و بلاد السودان جنوبا.(2) و لم تنقطع هذه العلاقات بل استمرت نشيطة حتى القرن الثاني قبل الميلاد،عندما انتهت الحروب البونية(*) بين روما و قرطاجة .(**) (3).

و يذكر إبن حوقل النصيبي التاجر و الجغرافي المغربي (ت367هـ، 977م) الذي تجول في بلدان المغرب و أقام في أودغشت(***) في أواخر النصف الأول من القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي. عن الثراء الذي بلغه التجار بموجب التبادل التجاري بين شمالي الصحراء و جنوبيها (4) و في القرن الخامس الهجري.

كان المرابطون قد بسطوا نفوذهم على المنطقة، فازدادت القبائل البربرية انتشارا في طول الصحراء و عرضها.(5)

---

(1) – د/ احمد شلبي : نفس المكان.

(2) – محمد الصغير غانم : التوسع الفنيقي في غربي البحرالأبيض المتوسط ، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر1978م،ص.98.

(*) – الحروب البونية او البونقية : و هي ثلاثة حروب وقعت بين روما و قرطاجة الأولى (264-241ق.م) ،انتهت بإستلاء الرومان على صقلية، و أهم جزر البحر المتوسط ، و الثانية (219 ،202ق.م)، خسرت قرطاجة جميع مستعمراتها باسبانيا و جزر البحر المتوسط. الثالثة (149-146ق.م) و فيها تم القضاء على قرطاجة .انظر : محمد الهادي حارش: التاريخ المغاربي القديم السياسي و الحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي ،المؤسسة الجزائرية للطباعة 1995م ،ص.56 و ما بعدها.

(**) – قرطاجة : الراجح أنها تأسست سنة 814ق.م من قبل الأميرة ديدون "عليسة" الفنيقية التي فرت من شقيقها "بجماليون" بكنوز زوجها "عشر باص" ،و نزلت بساحل تونس و إبتاعت قطعة من أرض جبل "برسة" و أقامت المدينة ، و قيل أشتق إسمها من اللفظ الفنيقي "كرت حدشت" ، بمعنى القرية الحديثة .انظر : محمد الهادي حارش: مرجع سابق ،ص.44و ما بعدها ،و محمد الصغير غانم : مرجع سابق ، ص.106 و ما بعدها.

(3) – بوفيل: و عرض حمزة .ج ،(العهد الذهبي لتجارة المسلمين في شمال إفريقيا و غربها) مجلة الأصالة س8.العدد58-59،جوان.جويلية 1978.ص.65و ما بعدها.

(***) – أودغشت : (بضم الألف و الغين بينهما دال مفتوحة و سكون الشين و التاء) هي مدينة قديمة و مركز من مراكز الثقافة الإسلامية في شمال غربي القارة الإفريقية ،و لم يعد لها وجود اليوم ،تقع بين دائرتي عرض 18^0-19^0 شمالا، بين سجلماسة و غانا و هي بموريطانيا اليوم .انظر: د/ حسن ابراهيم حسن : مرجع سابق ،ص.215.

(4) – د/ اسماعيل العربي : (مسالك الإسلام و العربية الى الصحراء الكبرى)، المرجع السابق، ص.41.

(5) – د/ قمر الدين محمد فضل الله : (لمحة تاريخية عن مملكة صنغاي الإسلامية)،مجلة حولية كلية الدعوة الإسلامية ،العدد.4. طرابلس .الجماهرية الليبية.1397هـ،1987م،ص.214.

و الحق أن العرب المسلمين كانوا قد توغلوا في عمق الصحراء منذ القرن الأول الهجري، السابع الميلادي. إذ وصلوا إلى فزان ثم التمسوا طريقهم إلى الصحراء الوسطى دافعين أمامهم قبائل بربرية. و لقد كان لطرد العرب المسلمين من الأندلس نصيب في انتشار العنصر العربي في الصحراء ، كما تواصلت الهجرات العربية في نهاية القرن الحادي عشر الهجري[1]، السابع عشر الميلادي. أثناء غزوة السعديين للسودان، و أول من أطلق كلمة السودان هم العرب المسلمون على تلك الأقوام التي تعمر جنوب الصحراء الإفريقية الكبرى، كما سموا بلادهم بلاد السودان[*]، و أن أصل هذه التسمية عندهم إستوحوها على ما يبدو من لون البشرة. و قسمت بلاد السودان أو إفريقيا جنوب الصحراء إلى ثلاثة أقسام و هي : [2]

أ – **السودان الغربي** : و يضم منطقة واسعة تشمل كل من حوض نهر السنغال الآن و جمهورية غامبيا و بوركينافاسو (فولتا العليا سابقا) بالإضافة إلى المناطق التي تحيط بنهر النيجر الأوسط.

ب – **السودان الأوسط** : و يضم المناطق المجاورة لبحيرة تشاد .

جـ – **السودان الشرقي** : و يشمل مجرى النيل و روافده حتى جنوب بلاد النوبة، و قد أطلق العرب المسلمون على هذا القسم الأخير إسم بلاد " الزنج " ، بين القرنين الثالث و السادس الهجريين ،التاسع و الثاني عشر الملاديين . إلا أن كلمة السودان كانت تشمله أيضا.[3]

و إذا بحثنا المفهوم الإصطلاحي لكلمة السودان من الناحية الجغرافية عند العرب المسلمين أمكننا أن نعتبر حدوده الشمالية من بداية الصحراء المغاربية، و تحده جنوبا دائرة عرض 10^0 شمال خط الإستواء، أما من ناحية الغرب فيحده المحيط الأطلنطي، و من الشرق المحيط الهندي و البحر الأحمر.

و خلاصة القول أن الصحراء الإفريقية الكبرى تمثل إقليما طبيعيا واسعا يشمل معظم مساحة إفريقيا الشمالية الغربية، أي من صحراء شنقيط [**] "موريطانيا الحالية" غربا، إلى صحراء مصر شرقا، و من سواحل الجماهرية الليبية شمالا، إلى منخفض تشاد جنوبا، أما سطح الصحراء فهو عبارة عن هضبة تتميز بالإستواء و التضرس نسبيا، و تظهر على سطحها الأشكال التضارسية الآتية : الجبال البركانية القديمة، الصحاري الحجرية (الحمادة)، فضلا عن، العرق، الرق، و مما تجدر الإشارة إليه أن هذه الصحراء لم تكن

---

(1) – أ.ج. هو بكنز : ترجمة احمد فؤاد بلبع : التاريخ الإقتصادي لإفريقيا الغربية، المجلس الأعلى للثقافة .القاهرة 1998م ،ص.158.

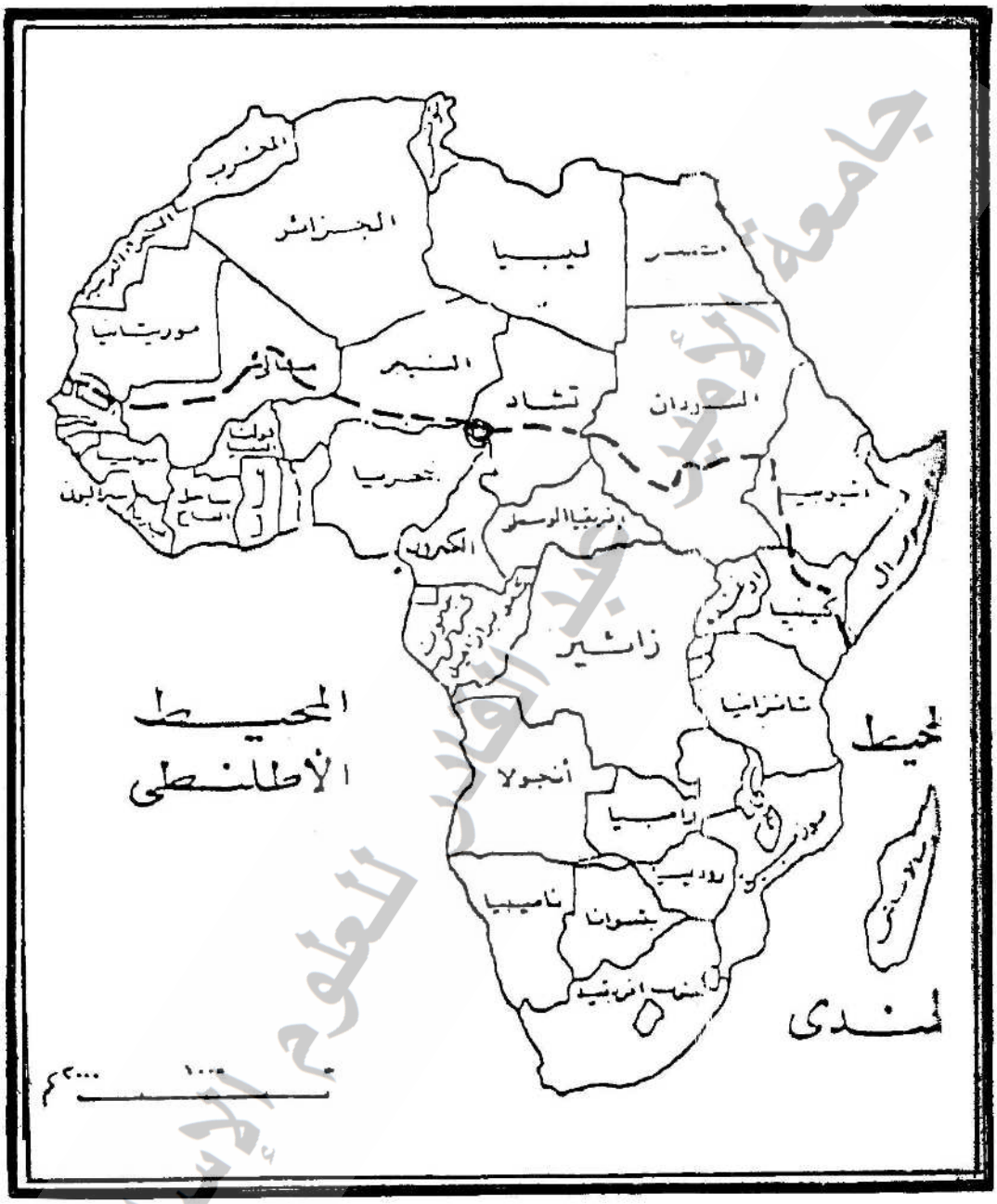
(*) – أنظر الشكل رقم (2)، ص 29.

(2) – عمر رضا كحالة : إفريقيا الغربية البريطانية ، مكتبة عرفة دمشق ، بدون تاريخ ص.ص.13.15.

(3) – د/ عبد القادر زبادية : الحضارة العربية و التأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء،دراسة و نصوص ، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر 1989.ص.11.

(**) – شنقيط : كلمة تعني عيون الخيل بلغة السكان ، و هي نسبة إلى قرية كانت سوقا للخيل تعرف بهذا الإسم كان منها كثير من العلماء المسلمين، ثم عمم إسمها على الإقليم ، و إستبدل الفرنسيون الإسم فصار موريطانيا نسبة إلى السكان " مور" و هي تحريف من Mahur بمعنى سكان المرتفعات عند الرومان .انظر : د/ فليب رفلة : مرجع سابق .ص455 .

الشكل (2)



إفريقيا السياسية

تقسيم إفريقية إلى بيضاء و سوداء

... الخط الفاصل بين إفريقية البيضاء و إفريقية السوداء

عن setigman.C.G, Races of Africa, O.U.P, 1966, pp, 30,31

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

دما هي اليوم، بل كانت في القرون الخمسة السابقة للميلاد تتلقى كميات معتبرة من الأمطار، كما كانت آهلة بالبحيرات و السباسب، يعيش فيها التمساح، الفيلة ، وحيد القرن، الأسد، الحمار الوحشي، الزواحف، و الطيور، ثم أخذ الجفاف يشتد تدريجيا في عصور ما بعد الميلاد، مما أدى إلى انقراض بعض الحيوانات و رحيلها، كما تلاشت البحيرات التي لم يبق منها سوى بحيرة " تشاد " و أما الغطاء النباتي فحدث و لا حرج .

هذا النطاق الصعب لم يشق على الإسلام كدين و لا على المسلم كداعية و معلم و تاجر من اختراقه، فقد مكن الإيمان العقائدي و الإزدهار الثقافي و التفوق الحضاري للشماليين من إجتياز الصحراء الكبرى عبر مسالك و دروب تجارية منتظمة،و نشر تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، فارتقت المجتمعات الإفريقية و تمكنت من إنشاء دول و امبراطوريات إسلامية واسعة في جنوب الصحراء خاصة في العصور الوسطى طبعت بطابع شمالها، و يتجلى ذلك في المظاهر الإجتماعية و الثقافية كالدين و اللغة و العادات و التقاليد القبلية و في أنظمة الحكم، كما يبرز في المجالات الإقتصادية من تجارة و زراعة و ري، و قد بلغت هذه الدول درجة عالية من الرقي و الإزدهار . أبهر الرحالة و المستكشفين الأوروبيين في العصور الحديثة .

إن هذا النطاق من الصحراء هو الذي شهد في القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي. دعوات إسلامية و حركات إصلاحية تهدف إلى هداية الوثني لرسالة التوحيد من جهة،و إعادة المسلمين المنحرفين إلى جادة الإسلام من جهة ثانية، و محاولة بناء و بعث دول إسلامية في المنطقة .

3 - المجال الجغرافي لنشوء الحركات الإصلاحية و الدول الإسلامية جنوب الصحراء :

تنقسم منطقة إفريقيا جنوب الصحراء التي نحن بصدد دراسة الحركات و الشخصيات الإصلاحية الإسلامية التي أفضى نشاطها العلمي و الدعوي لإنشاء دول إسلامية على ربوعها إلى ثلاثة أقسام :

أ - غرب افريقيا :

يطل هذا الجزء على المحيط الأطلنطي من الغرب و الجنوب الغربي، و من الجنوب على نطاق الغابة الإستوائية الكثيفة، أما من الشرق فليس من السهل ضبط حدود إفريقية الغربية تحديدا دقيقا ذلك لخلو المنطقة من وجود حواجز طبيعية يمكن اعتبارها حدا فاصلا، لذلك حدد بخط وهمي يكاد ينطبق مع الحدود الشرقية لجمهورية نيجيريا حاليا، و من الشمال الصحراء الإفريقية الكبرى .

هذا النطاق تخترقه مجاري مائية أهمها نهران كبيران هما : النيجر و السنغال اللذان يجريان بمحاذاة تخوم الصحراء الجنوبية، بيد أنه لا يمكن اعتبارهما مع الصحراء من المعوقات التي تمنع انتقال الشعوب و القبائل المختلفة أو تحول دون مزاولة أنشطتها التجارية[1].

كما نلاحظ على أقصى حدود شمال غرب المنطقة تدرجا عند الإنتقال من الأماكن التي يقطنها السكان حيث توجد بعض المناطق الصحراوية ليست خالية من البشر[2].

و لاشك أن هذا الموقع المتنوع لعب دورا لا يستهان به في تاريخ المنطقة و حضاراتها فالشبكة الهدروغرافية في غرب إفريقيا لعبت دورها في تاريخ تلك البلاد، و تضم هذه الشبكة كل من نهر النيجر و السنغال، و غامبيا و غيرها من المجاري .

و يعتبر نهر النيجر الذي ينبع من مرتفعات " الفوتاجلون " من غرب القارة مشكلا قوسا ينحني باتجاه الشمال الشرقي و يتصل به نهر "بنوي" غير بعيد من مصبه الذي ينتهي بدلتا ذات فروع متعددة أطلق عليها إسم أنهار الزيت[3]. و قبل مصبه تنظم إليه عند جنوب مدينة " باماكو " مجموعة روافد تشكل مستنقعا على شكل بحيرة أثناء فصل الفيضان، و يواصل النهر إنسيابه إلى أن يبلغ هذه المدينة، فتتحد مجاريه محدثة ثنية كبيرة يتّجه بعدها النهر صوب مصبه بالمحيط الأطلنطي [4]، و تمثل هذه الثنية النهرية أهمية قصوى لدول المنطقة إذ تتقاسمها كل من " كوت ديفوار "، و الداهومي (بنين حاليا) و غينيا، و يعد النهر عصب الحياة و العمران و شريان المواصلات، إذ يمر غير بعيد عن باقي أنهار المنطقة مثل نهري السنغال و شاري، و هذا ما يسّر السبل للمستكشفين و المستعمرين للتوغل نحو دواخل القارة [5].

ظلّت مشكلة الخلط بين نهري السنغال و النيجر و تحديد إتجاه مسار هذا الأخير قائمة حتى القرن الرابع عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي. إذ تمكن الإنجليز من استجلاء حقيقة هذا النهر، فاستغلت فرنسا هذا الإستكشاف و أقدمت على إنشاء شركة إفريقيا الفرنسية، و أسّست مراكز تجارية لها إتخذتها كقواعد خلفية للإنطلاق نحو مجاهل القارة [6].

---

(1) – د/ عبد الرحمن زكي : تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية، المؤسسة العربية الحديثة للطبع و النشر و التوزيع ،القاهرة، 1961، ص 7.

(2) – د/ عبد الرحمن زكي : نفس المكان.

(3) – د/ شوقي الجمل:تاريخ كشف إفريقيا و إستعمارها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1971م،ص.92 و ما بعدها.

(4) – احمد نجم الدين فليحة : إفريقيا دراسة عامة و اقليمية لأقطارها غير العربية ، دار المعارف، الإسكندرية 1978م، ص.144 و ما بعدها.

(5) – جمال الدين الدياصوري و آخرين،المرجع السابق، ص.368.

(6) – د/ شوقي الجمل : المرجع السابق، ص 93.

و تواصلت الإكتشافات في القرن اللاحق(*)، و تمكن رينيه كاييه " R.Caillié " الفرنسي إنطلاقا من غينيا بلوغ مراكش عبر الصحراء، وحذا الإنجليز حذو الفرنسيين بغية التعرف على البيئة الجغرافية للقارة و ما تزخر به من ثروات، و في سبيل ذلك قضى بعض الرحالة و المستكشفين سنوات في عمق البلدان الإفريقية [1] أمدّوا دولهم بمعلومات قيّمة جرّاء دراساتهم و ملاحظاتهم، مما ساعد بعد ذلك على استعمار هذه المنطقة.و في هذا المجال يمكن أن نقول أنّ الدور الذي لعبه نهر النيجر قام به نهر السنغال نفسه، فهو بدوره ينبع من " فوتاجلون " و بعدها يتّجه صوب الشمال، ثم يغير إتجاهه نحو الغرب ليصب في الأطلنطي. و يتميز نهر السنغال بتدرج انحدار مجراه، و عندما يقترب من المنطقة الساحلية يقل عمقه إذ لا يتعدى ثلاثة أمتار في مسافة تقدر بحوالي ثلاثمائة و خمسين كيلو متر (350كلم) من المصب [2] ينتهي بفروع عديدة و مستنقعات على غرار سابقه. أما نهر غامبيا فهو صالح للملاحة انطلاقا من مصبه،و تنبسط على جانبيه سهول غاية في الثراء و الخصوبة إستغلت خاصة في زراعة الفول السوداني.

و بالإضافة إلى الأنهار السالفة هناك نهران آخران صالحان للملاحة أيضا، هما نهر سالوم و الكازمنس. أما منطقة خليج غينيا فإن أنهارها تقريبا كلها ضحلة و غير صالحة للملاحة خصوصا عند مصبّاتها بفعل الكثبان الرملية و الحواجز الصخرية .

و مما سبق يمكننا أن نلاحظ دور الأنهار بالنسبة للكشف الجغرافي في المنطقة، إذ لم تكن ذات أهمية كبيرة حيث أن هذه الأنهار تنتهي عند مصباتها بمستنقعات أو دالات، أو عبارة عن مساقط مائية، متعددة الفروع، لذا كان كشف منابعها عن طريق البر.[3] و تضم هذه المنطقة أكبر تجمع سكاني في إفريقيا جنوب الصحراء يمارس سكانها الزراعة و الرعي بالإضافة إلى التجارة .

ب - وسط إفريقيا :

تبلغ مساحة منطقة وسط إفريقيا الكلية حوالي 4.082. 501كلم^2 و تضم مجموعة من الدول : زائير (الكنغو الديمقراطية)، الكنغو، الغابون، جمهورية إفريقيا الوسطى، الكامرون، تشاد(**) و غينيا الإستوائية، و أبرز معالم هذه المنطقة حوض الكونغو الذي تحصره من الشمال هضاب أوبنغي "Oubangui "،و هي عبارة عن مسطّحات واسعة تتخللها بعض التلال، و يطل شمال هذه الهضاب بدوره

(*) – أنظر الشكل رقم (3)، ص 33.

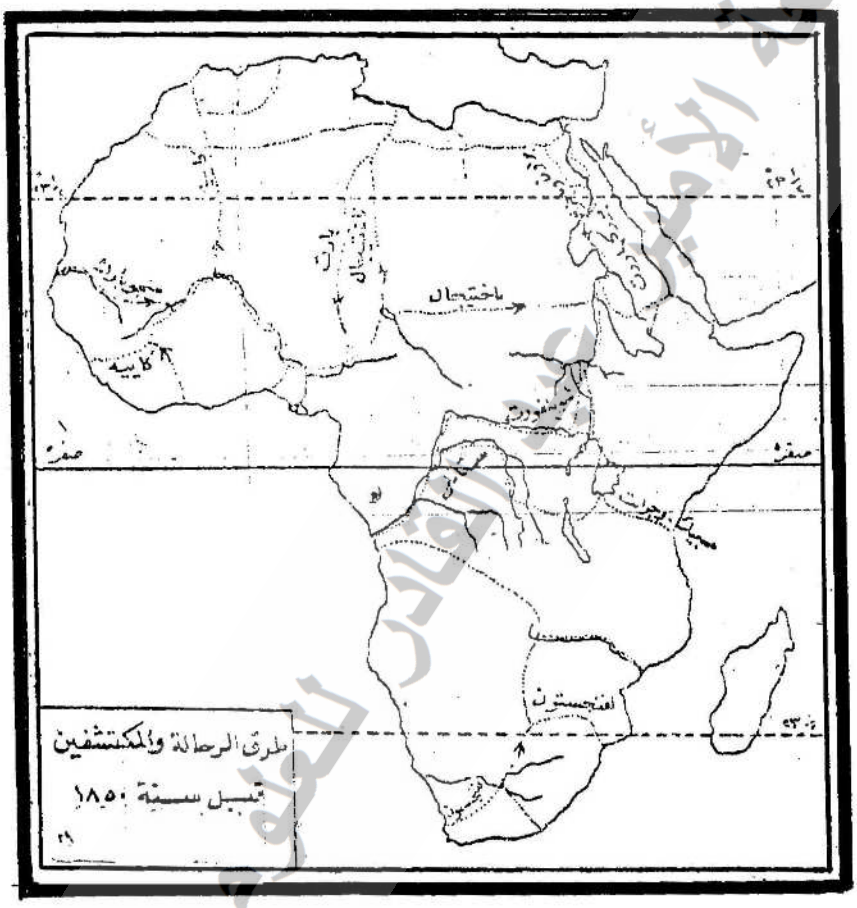
(1) – Zerbo Joseph : Histoire de l'afrique noire D'hier Ademain ,Librerie larose ,paris, 1972.P402.

(2) – احمد نجم الدين فليحة: المرجع السابق، ص 148 و ما بعدها .

(3) – د/ شوقي الجمل : المرجع السابق، ص 10.

(**) – أنظر الشكل رقم (6)، ص 119.

الشكل (3)



طرق الرحالة و المستكشفين قبل 1850

عن د/ فليب رفلة : الجغرافية السياسية الإفريقية ص 12

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

على حوض تشاد [1] و المنطقة الأخيرة هي التي تهمنا في الدراسة باعتبارها مهدا لممالك إسلامية قوية و حركات إصلاحية فاعلة، بالإضافة إلى ليبيا[*] التي بالرغم من أنها لا تندرج ضمن دول وسط إفريقيا فإن دراستها أمر واجب تقتضيه الضرورة التاريخية،نظرا للدور الفعال الذي لعبته الحركة السنوسية في العصر الحديث.

و يمكن تقسيم بلاد تشاد إلى ثلاثة أقاليم متباينة لما لها من انعكاسات على انتشار السكان و بالتالي على النشاط الإصلاحي، و هذه الأقاليم هي :

1 - الإقليم الصحراوي : و هو جزء من الصحراء الإفريقية الكبرى، ينحصر بين درجتي عرض 22^{0}و 18^0 شمالا، و تتخلله جبال تبستي البركانية العالية، كما يحتوي هذا النطاق على منخفض "بركو" القليل النبات و النادر السكان و تعمّره قبائل " التبو "[2].

2 - الإقليم شبه الصحراوي : يقع بين دائرتي عرض 18^{0}و 15^0 شمالا، قليل التساقط تنعدم به المجاري المائية ماعدا نهرإقليم "بحر الغزال "[**] و رغم شح المطر تنمو به بعض الأعشاب التي تعد مرتعا لبعض البهائم، كالأبقار و الأغنام و الخيل، و توجد بالإقليم منطقة " كانم " شمال شرق بحيرة تشاد، و مباشرة إلى شرقها على خط مستقيم تقع " واداي "، التي تمتد حتى " دارفور " السودانية.

3 - الإقليم السوداني : ينحصر بين دائرتي عرض 15^{0}و 8^0 شمالا - أقصى الحدود الجنوبية لتشاد - و هو أوفر مطرا حيث يستمر التساقط به مدة ثمانية أشهر جنوب خط 10^0 شمالا حيث المنابع العليا لنهري " لوجون" و "شاري"[***] اللذين يتّجهان شمالا و يتّحدان قبل انصبابهما في بحيرة تشاد. و للنهر الأخير روافد متعددة أهمها نهر " السلامات " الذي ينبع من " دارفور "، ثم يتحد معه في جزئه الأوسط.

هذه المنطقة غنية و أراضيها خصبة و توجد بها منطقة " باجرمي " جنوب البحيرة، و تنمو بالإقليم الحشائش الطويلة في الجنوب و تقصر و تقل بالتدريج كلما اتجهنا شمالا، لذلك كانت المنطقة منطقة عمران و ازدحام بالسكان[3]. و بقدر ما كانت أنهار تشاد مهمّة و سهلة الملاحة بالنسبة للإنسان التشادي. فقد كانت مسلكا ميسورا لغزو البلاد من قبل الأجانب .

أما المناخ الذي يسود وسط إفريقيا فهو المناخ الحار الشديد الرطوبة، حيث تتساقط الأمطار عند خط الإستواء، فتنموا الغابات التي تنكمش كلّما ابتعدنا عنه.

---

(1) - يوسف روكز : المرجع السابق، ص.ص 31،32.

(*) - أنظر الشكل رقم (8)، ص 164.

(2) - د/ فليب رفلة : المرجع السابق، ص 529.

(**) - ليس هو بحر الغزال الذي يقع بجمهورية السودان العربي .

(***) - أنظر الشكل رقم (6)، ص 119.

(3) - د/ فليب رفلة : المرجع السابق، ص.ص 531، 532.

أما النشاط الإقتصادي فتغلب عليه الزّراعة و هي بدائية، أدخل عليها الإستعمار بعض التطور خدمة لمصالحه، و أهم مجالاته زراعة البن، و الأرز، و الكاكاو، والقطن.[1] بالإضافة إلى استخراج الملح خصوصا على أطراف البحيرة، و يندر وجود السكان في الغابات و المستنقعات. و يعاني هذا النطاق العزلة بسبب انتشار هذه الأخيرة، فضلا عن شدّة الفيضانات و تعدد الشلالات و الأنهار بالإضافة إلى الغلايات الكثيفة.

أما ليبيا[*] فهي بلد عربي مسلم يقع شمال القارة الإفريقية، و رغم انفتاحه من الشمال على البحر المتوسط يغلب عليه الطابع الصحراوي، ينحصر بين دائرتي عرض 20^0 و 32^0 شمالا، و بين خطي طول 10^0 و 25^0 شرقا، تبلغ مساحته 1.8مليون كلم^2، سطحه سهلي في الشمال باستثناء مرتفعات برقة (الجبل الأخضر) و جبال نفوسة جنوب طرابلس في الشمال، و تبستي بالجنوب، بالإضافة إلى بعض التلال المنتشرة هنا و هناك، و إلى الجنوب تنحدر الأرض نحو الصحراء بالتدريج، و أهم أقاليمها إقليم برقة و طرابلس و فزّان، و معظم أراضيها صحراوية رملية تتميز بالجفاف، لذلك تندر الزّراعة بها ماعدا في الواحات و الشريط الساحلي الضيق[2].

أما المناخ فتتأثر ليبيا بموقعها و بهبوب الرياح التجارية الشمالية الجافة و انخفاض سواحلها فيما عدا إقليم برقة، لذلك تشتد الحرارة صيفا و خاصة في المناطق الداخلية البعيدة عن مؤثرات البحر المتوسط، كما يندر تساقط الأمطار إلاّ في ضواحي طرابلس و برقة، لذلك كان حفر الآبار ضرورة ملحة، كما يلاحظ شح في الغطاء النباتي ماعدا في برقة و ما يحيط بطرابلس.

أما نشاط السكان فيعتمد على الزّراعة بالشريط الساحلي و على تربية الحيوان، لاسيما في برقة[3] قبل ان تظهر ثروة البترول[4].

و رغم هذا القحط و القفر الشديدين، لم تقف هذه الفيافي و الفجاج أمام تقدم المد الإسلامي، و الحركة الإصلاحية التي قام بها محمد بن علي السنوسي المستغانمي الجزائري، الذي إمتدت حركته إلى معظم ربوع إفريقيا .

جـ - شرق إفريقيا :

يضم هذا النطاق الجزء الجنوبي لما كان يسمى بالسودان الشرقي و جنوب بلاد النوبة عند العرب المسلمين، أما التقسيم الحديث فيحصر المنطقة فيما بين بحيرة نياسا " Niyassa" جنوبا و البحر الأحمر

(*) – أنظر الشكل رقم (8)، ص 164.

(1) – Jacques Weulersse : L'afrique Noir .imprimrie firmin didot ,paris, 1934 ,P.P.162163

(2) – د/ محمد سعودي : الوطن العربي دراسة لملامحه الجغرافية، دار النهضة العربية، بيروت، بدون تاريخ، ص 556 و ما بعدها .

(3) – د/ فليب رفلة : المرجع السابق، ص 385 و ما بعدها .

(4) – د/ محمد سعودي : المرجع السابق، ص 572 .

في الشمال و الشمال الشرقي، و المحيط الهندي في الشرق، و من الغرب زائير، و تضم مجموعة من الدول.و يمثل شرق إفريقية المنطقة الأكثر شموخا و ارتفاعا في القارة، لضمّه جبل كليما نجارو (*) ، كما يضم منطقة البحيرات، فيكتوريا، نياسا، و تنجانيقا[1].

المناخ و النبات:يختلف المناخ في شرق إفريقيا بين المناطق الساحلية و الداخلية، و المناطق المنخفضة و المرتفعة، و هذه الأخيرة تتلقى كميات معتبرة من الأمطار، و أما السواحل فيندر فيها التساقط خاصة في القرن الإفريقي، حيث تقل الغابات و تنتشر حشائش الإستبس في المناطق الشمالية الشرقية، و يمارس السكان حرفة الزراعة.

حيث التربة البركانية الخصبة و توفر المياه،كما يقوم السكان بتربية المواشي[2]، غير أن ما يعنينا في هذه الدراسة هما بلدا السودان العربي و البلاد الصومالية.

- ***السودان***(**) : يقع شرق إفريقيا جنوب مصر، محصورا بين درجتي عرض $3,30^0$ و 22^0 شمالا[3]

يطلّ بواجهة بحرية على البحر الأحمر يقدر طولها بـ 800 كلم، سطحه سهلي، تحيط به المرتفعات من كل جانب، لذلك فهو عرضه للفيضانات في فصل المطر، و يخترق هذا السهل الرسوبي نهر النيل و فروعه، و في شرق السهل تبرز المرتفعات الأثيوبية على شكل ألسنة، كما يجري في المنطقة الشرقية نهرا " عطبرة " و "النيل الأزرق "، اللذان ينبعان من الهضاب الأثيوبية، و في أقصى جنوب البلاد تقع هضبة " داندي " ارتفاعها يتراوح بين (500-1000م) و تعتبر خط تقسيم المياه بين النيل و الكنغو، و بالسهل تظهر كتل و تلال " دارفور " و " كردفان ". - حيث ظهر " المهدي " و حركته -. و من هذه المرتفعات تنبع أنهار تتجه نحو النيل الأبيض، و في الجنوب الغربي توجد منطقة مستنقعات مثل : بحر العرب و بحر الغزال، أما في الشمال مع الحدود المصرية السودانية، فهي منطقة صحراوية توجد بها كثبان رملية يطلق عليها إسم العطمور[4]. و السودان جد غني بثرواته الزّراعية المتنوّعة. أما سكانه فهم عبارة عن قبائل مختلفة يمارسون النشاط الزراعي و تربية المواشي[5]، و فيه معتقدات مختلفة و ديانات متعددة الإسلام، و المسيحية، و الوثنية.

أما الصومال(***) : فيحتل القرن الإفريقي يمتد بين درجتي عرض 3^0 جنوبا و 12^0 شمالا و لأرضه

(*) - كلمانجارو : جبل بجمهورية كينيا، يبلغ ارتفاعه 5895م، و هي أعلى قمة بالقارة الإفريقية و تكسو الثلوج قمته طول العام . انظر: جماعة من الأساتذة، جغرافية العالم، الجغرافية التقليدية، ج 2، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بغداد، نيويورك، 1960، ص 193.

(1) - يوسف روكز : المرجع السابق، ص25 .

(2) - يوسف روكز : المرجع نفسه، ص 27.

(**) - أنظر الشكل رقم (11)، ص257

(3) - د/ محمود سعودي : المرجع السابق، ص 530.

(4) - د/ فليب رفلة : المرجع السابق، ص.ص 315، 316.

(5) - د/ جودة حسين جودة : المرجع السابق، ص 223 و ما بعدها، و كذا محمود سعودي : المرجع السابق، ص 534 و ما بعدها.

(***) - أنظر الشكل رقم (20)، ص367

هضبة تسمى باسمه، يطل الصومال على خليج عدن بسهل " جوبان " و هو ضيق في الشـــرق و يتسع غربـا، أما في جنوبه يتجمّع السكان في موسم المطر حيث ينتج السكان 9/ 10 من البخور التي يستعملها المسيحيون في المعابد.

و في الجنوب تنحدر الهضبة تدريجـــيا نحو الجنوب الشرقي، إلى أن تبلـغ السهول المطلّة علـى المحيـط الهنـدي الـتي تتميز بالإتســـــاع (200كـم)، حتـى تصـل إلى هضبـة يبلـغ ارتفاعهـا (700م). و سـواحل الصومال طولها حوالي 1500 ميل[1]. و يجري في البلاد نهـــران هـــــامان همـــا " جوبـا" و " شـبيلي"، ينبعان من هضبة الحبشة و يصبّان في المحيط الهندي و يحصران بينهما أرضا خصبة صالحة للزراعة.

أما المناخ في الصومال فشديد الحـرارة 34^0 متوسـط شـهور الصـيف و 22^0 في الشـتاء . و الأمطـار قليلة تكثر على الهضاب الداخلية و نادرة على الساحل لموازاة الرياح للشاطئ الصومـــالي، و سـواحل المحيـط الهادي ألطف مناخا من شواطئ خليج عدن[2].

و تقوم حياة السكان الإقتصادية بالصومـــال على تربية الحيـوان مثل : الأبقـار و الأغنـــام و الإبـل و تصدر كميات معتبرة منها، كما يمارس الصوماليون الزراعة، فيزرعون القطن و السمسم و الـذرة و قصـب السكر و الفواكه، بالإضافة إلى الصيد البحري و الصيد البري[3].

و هذا البلد تعيش فيه قبـائل مختـلفة خضعت لأبشع سيـاسة استعمـارية إذ قسم البلد بـين الإنجلـيز و الإيطاليين و الفرنسيين، و عند خروج الإستعمار ترك القبائل الصومالية موزّعة بين الدول المحيطة.

و هذا القطر العربي الإسلامي شهد حركة من أهـم الحركـات الإصلاحيـة و الجهاديـة في المنطقـة في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، أواخر القرن التاسع عشر و أوائل العشرين الميلاديين .

---

(1) – د/ جودة حسين جودة : نفس المرجع، ص.ص 288، 292.

(2) – د / جودة حسين جودة : نفس المكان.

(3) – د/ فليب رفلة : المرجع السابق، ص.ص 346،345 .

خاتمة الفصل :

و خلاصة القول أن القارة السمراء التي استوهت الشعوب، كانت منذ القديم محل غزوات عديدة و ميدان صراع بين أمم كثيرة كالفنيقيين و الرمان و الوندال، و ذلك لما تزخر به هذه القارة من خيرات وفيرة و موارد متنوعة، لكل هذا كانت محط أطماع الشعوب و الأمم المختلفة، فتعرضت ثرواتها للنهب و الإستنزاف، و خضعت شعوبها للإستغلال و الإستعباد و محاولات الإبادة و التهجير .

و لما كان الغزاة الأوائل قد ركزوا نشاطهم على هذه الجوانب و أهملوا كل ما يتعلق بشؤون الشعوب الإفريقية و نهضتها، حيث توقفت إهتماماتهم عند مناطق معلومة و محددة تتمتع بثروات كانت شهرتها قد أطبقت الأفاق و تجاوزت حدود القارة، لذلك فإن الشعوب و القبائل الإفريقية لم تتأثر بثقافات هذه الشعوب، و لم تؤثر فيها إلاّ نسبيا، بل فإن ما بقيت تحفظه للغزاة الأجانب لا يعد و أن يكون مجرد ذكريات يملأها الكره و تغذيها الأحقاد،لما خلفته بينها من مآسي و أحزان، إلى أن حل العرب المسلمون الذين احتكوا بهذه الشعوب و اختلطوا بها بل اندمجوا فيها و استقروا بين ظهرانيها، فتمت بينهم روح الألفة و المحبة لما كان يكنّه هؤلاء العرب المسلمون من احترام و تقدير لهذه الأمم و الشعوب، و ذلك بفضل المعاملات الإنسانية الحسنة التي استمدّوها من روح الدين الإسلامي الحنيف، الذي يأمر بالعدل و الإحسان و يدعو إلى المساواة بين النّاس "***لا فضل لعربي على أعجمي، و لا أبيض على أسود إلاّ بالتقوى، كلكم لآدم و آدم من تراب***"[1] لهذا أقبل الأفارقة على الدين الإسلامي الذي اعتبروه دين الرجل الأسود كما هو دين الرجل الأبيض، فاعتنقوه جماعات و فرادى، و تأثروا بالثقافة العربية الإسلامية، فتعلموا آداب العرب و لغتهم و اتقنوها، و أدى ذلك إلى انتشارها على أوسع نطاق فظلت المدارس الدينية التي انشأها الأفارقة نبراسا للتقاليد الإجتماعية و الثقافة الإفريقية و أصبحت تراثهم الذي لا ينفصل عن تاريخهم، و بذلك انتشرت لغة القرآن كانتشار النّار في الهشيم على ربوع الأرض الإفريقية مكتسحة الفيافي و القفار متوغلة في غابات و أدغال القارة غير عابئة بما تتجشّمه من مشاق و ما يعترضها من حواجز و عراقيل جغرافية. و لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تزاوج العرب و الأفارقة و تصاهروا، فصارت لهم علاقات نسب، فانصهروا في بوتقة واحدة، و كان لهذا أثره الكبير في الحضارة التي شهدتها إفريقيا في العصور الوسطى، و ما شيّده أبناؤها من حضارة و ما تلى ذلك من انشاء الدول و الممالك و الإمبراطوريات التي كانت تعتمد في دواوينها على اللغة العربية و أساليب العرب في أوج عزهم في العصور الإسلامية الزاهرة .

---

(1) – د/ عمر محمد التومي الشيباني : (أهمية الإنسان و مفهومه و إبعاد الطبيعة البشرية في الفكر الإسلامي) مجلة الدعوة الإسلامية، العدد 4، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الجماهرية الليبية، 1397هـ-1987م، ص 18.

الفصل الأول ـــــــ

الأفارقة في مناطق شاسعة من القارة بالحضارة الغربية قدر تأثرهم بالحضارة العربية الإسلامية التي صارت جزء من تاريخهم و حضارتهم. و نحن اليوم نشهد مدنا ودولا عربية إسلامية في أسمائها و دياناتها و لغاتها، لذلك إتضح للمستعمرين أن الإكتشافات الجغرافية و الإستعمار في مجاهل إفريقيا ليس سوى عملا سطحيا بالقياس إلى الكشف عن تاريخ الإفريقيين و حضاراتهم و إزاحة الغطاء عن جوانب من معتقداتهم و عاداتهم و أخلاقهم، لذلك أسرع الباحثون منهم يتنافسون في ميادين البحث النفسي و الإجتماعي و الديني للأفارقة، فأنشأوا مراكز أو فروعا في جامعاتهم خاصة بالإنسان و الشؤون الإفريقية .

و رغم هذه الانشطة و الإهتمامات فإن القارة بجغرافيتها و مناخها و ديمغرافيتها أقرب إلى الإسلام و المسلمين منها إلى المسيحية و المسيحيين و أن المستقبل للإسلام في ربوع القارة السمراء .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني :

إنتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء

و جهود العلمـــاء و المصلـــحين

الأفارقة في نشره



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 - انتشار الإسلام في القارة الإفريقية :

كان الدين الإسلامي و ما يـزال يستقطب أقـلام و اهتمامـات الدّارسـين و البـاحثين علـى اختـلاف أديانهم و ألوانهم و مشاربهم، وبما أن موضوع هذه الرّسالة مرتبط أساسا بالحركـات الإصلاحيـة الإسـلامية في إفريقيا جنوب الصّحراء، فإنّه مـن الأهمّيـة بمكـان أن نسـتعرض بإيجـاز مراحـل إنتشـار الإسـلام في القـارة الإفريقية منذ السنة الخامسة للبعثة النبوية الشّريفة سنة 615 م، و هي بداية هجرة المسلمين الأوائـل مـن شـبه جزيرة العرب إلى الحبشة بشرق القارة الإفريقة هروبا بمعتقدهم الجديد إلى خارج حدود بلادهم.

ثم نتتبع تاريخ انتشار الدين الإسلامي الحنيف خـارج حـدود شبه الجزيـرة العربيـة، و السّـرعة الـتي شهدها هذا الإنتشار الواسع على الأطراف المجاورة، و مدى تقبّل الشّعوب و القبائل لهذا الدين الجديـد علـى حد سواء، حتى عمّ ربوع أقطار شاسعة من غرب آسيا، و شمال إفريقيا، و لم يتوقّـف الإنتشـار عنـد حـدود هذه الأقاليم بل سرعان ما توسّع متقدما صوب الجنـوب حتـى توغّـل في عمـق القـارة الإفريقيـة و أطرافهـا المختلفة كما سيأتي.

ثمّ سلّطت بعض الأضواء على عـدد من العلماء الذين حملوا لواء الدّعوة عاليا في أقطـار هذه القارة و لعبوا دورا مشهودا في خدمة رسالة الإسلام في المنطقة موضـوع البحـث، و الـتي مـازالت تحمـل بصمـاتهم الروحيـة و الأخلاقيـة و الحضاريـة حتـى اليـوم، و يتجسّـد ذلـك في الآثـار الـتي خلّفوهـا شـاهدة علـى تلـك المنجزات، فكانت أعمالهم الرّائدة بذورا طيبة و أرضية صلبة ارتكزت عليها الدّعوات الإصلاحية و الحركـات الجهادية التي شهدها العصر الحديث فيما بعد، خصوصا في الرّقعة الجغرافية محل موضوع الدّراسة.

أ - في شرق إفريقيا :

بدأت الدّعوة إلى الدين الجديـد مباشـرة بعـد نـزول الوحـي علـى الرّسـول (ص)، و كـانت البدايات الأولى لدخول الإسلام شـرق إفريقيـا منـذ هجـرة المسـلمين الأوائـل إمتـثالا لقولـه (ص) : [1]" ***لـو خرجتم إلى أرض الحبشة (*) و ذلك لأن ملكها رجل صالح يحسن الجوار و لا يظلم عنده أحد*** "[2]

---

(1) الطّبري : تاريخ الأمم و الملوك، ج2، تحقيق أبو الفضيل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1961م، ص 328.

(*) – الحبشة : أطلق عليها هذا الإسم نسـبة إلى القبيلـة العربيـة " حبشـت " و الـتي هـاجرت إليهـا في القرن 7.ق.م، أنظر: د/ عبـد اللّـه النقيرة :إنتشـــار الإسلام في شرق إفريقيا و مناهضـــة الغرب له، دار المريخ، الرياض،1982م،ص 33.

(2) – أبن هشام : السيرة النبوية، ج1، تحقيق محمد الهادي عابدين و ابن الدين عبد الحميد، دار المعارف، القاهرة، 1964م، ص213.

إمتثل المسلمون للأمر و كانت أوّل هجرة إسلامية خلال شهر رجب السّنة الخامسة من البعثة النبوية الشّريفة 615م، و قد إختلفت المراجع في عدد هؤلاء المهاجرين[1] الذين كان من بينهم أشراف من قريش، كالصّحابي الجليل عثمان بن عفّان، و زوجته رقية بنت الرّسول (ص)، و جعفر بن أبي طالب و غيرهم، و يبدو أن النبي (ص) قد بعث بهؤلاء المهاجرين ليمهّد بهم في بلاد الحبشة، إذ سرعان ما تتابع المهاجرون بعد ذلك حتى كان منهم عدد غير يسير [2]، و لمّا رأت قريش إطمئنان المسلمين في دار هجرتهم، أرسلت في السّنة السّادسة للبعثة 616م وفدا يتكوّن من " عمارة بن الوليد " و " عمرو بن العاص " إلى "النجاشي " أملا في ردّهم إلى مكّة، فخيّب الملك رجاءهما و من ورائهما قريش، فأعادت قريش الكرّة بوفد ثان يتألّف هذه المرّة من " عمرو بن العاص "، و " عبد اللّه بن أمية بن أبي ربيعة " اللذين أضمرا في نفسيهما الكيد للمهاجرين المسلمين بالتقول عليهم في بلاط الملك، فكان ردّ " جعفر بن أبي طالب " الواضح أمام "النجاشي "، فقام الملك يقول[3] : " ***إن هذا و الذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة*** " و رفض تسليمهم إلى الموفدين رغم العلاقة الوثيقة التي تربطه بهما. و قيل أن " النجاشي " أسلم و قد صلى الرّسول (ص) عليه عندما نعي إليه[4].

و من هنا يمكن القول أن هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة، هي باكورة دخول الدين الإسلامي إلى القارة السّمراء، كما عدّ " جعفر بن أبي طالب " فاتحة الدّعاة إلى الإسلام في تلك الرّبوع من شرق القارة الإفريقية. و هنا يظهر إرتباط الدّعوة الوثيق بالحركة، إذ لا يمكن أن تكون الدّعوة إلى الإسلام بمعزل عن الحركة و النّشاط، لأنّ كلتيهما ترتبط بالأخرى إرتباطا عضويا سواء كان ذلك على مستوى الأفراد أو الجماعات. قال تعالى [5] : " ***و الذين هاجروا في ا لله من بعد ما ظلموا لنبوّئنهم في الدنيا حسنة و لأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون الذين صبرو و على ربّهم يتوكّلون*** ".

و الحق أن هناك عوامل أخرى إضافية كان لها الأثر الفعّال في نشر الإسلام و توسيع رقعته في شرق إفريقيا، يمكن حصرها فيما يأتي :

– إتّصال المنطقة جغرافيا بمنبع الإسلام، إذ لا يفصل القارة عن شبه الجزيرة العربية سوى البحر الأحمر[6].

---

(1) – الطبري : المصدر السابق، ص 328.

(2) – الطّبري : نفس المصدر، ص 329.

(3) – عبد الرحمن خليل إبراهيم : دور الشّعر في معركة الدّعوة الإسلامية أيام الرّسول (ص)، ط2، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1971م، ص 167.

(4) – عبد الرّحمن بن خلدون : ديوان العبر...، م6، دار الكتاب اللّبناني للطباعة و النّشر، 1956م، ص 411.

(5) – سورة النّحل، الآية 41،42.

(6) – أحمد نجم الدين فليحة : إفريقيا دراسة عامة و إقليمية، مركز الإسكندرية للكتاب، 1996م، ص 29.

– صلات العرب منذ القديم بشرق إفريقيا و نشاط تجارهم، و لاسيما المسلمون منهم فيما بعد بسبب صدقهم و نزاهتهم و إخلاصهم في المعاملة.

– غموض عقيدة المسيحيين بالنسبة للأفارقة.

– إشتداد الصّراع بين المذاهب المسيحية و مناوءة بعضها للبعض الآخر[1].

– موقف الإسلام من العبودية و إضعاف نظام الرّق.

– هجرات المسلمين من بلاد اليمن و حضرموت إلى شرق إفريقيا، خاصة بعد حروب الردّة في عهد الخليفة " أبي بكر الصّديق رضي الله عنه "[2].

– محاولات الفتح الإسلامي لبلاد النوبة في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب على يد "عقبة بن نافع"[3].

– هجرات الشّيعة التي إتّسع نطاقها بعد مقتل الخليفة " علي بن أبي طالب " كرّم الله وجهه (40هـ – 660 م)، إذ انقسم المسلمون إلى فرق كثيرة و شيع مختلفة، و تجذّرت الخلافات بينهم فزادت الهجرات و شملت أصقاعا واسعة من إفريقيا، و خاصة في الفترة ما بين (35 هـ،656م / 132 هـ، 750م)، لا سيما بعد مذبحة كربلاء، و فشل ثورة الإمام " زيد " في خلافة " هشام بن عبد الملك "[*].

– تمسّك حكّام شرق إفريقيا بالإسلام و تعاليمه.

– نشاط الدّعاة و المعلّمين المسلمين و الطّرق الصوفية.

و الواقع أن كل هذه الأسباب تظافرت و ساهمت في إنتشار الإسلام و إعتناقه من طرف سكّان شرق القارة، مما أدى إلى ظهور ممالك و سلطنات إهتمّت بالإسلام و لعبت دورا لا سبيل لإنكاره في ترسيخ العقيدة الإسلامية و تعاليمها بين سكّان المنطقه[4]. و قد اتّبع الحكّام المسلمون في شرق إفريقيا التعاليم الإسلامية و لم يكرهوا أحدا على ترك دينه و اعتناق دينهم و لو كان وثنيا، لذلك إستمرّ الإسلام ينتشر بينهم حتى في ظل الحكومات الإستعمارية، لأن الأفارقة وجدوا فيه ثقافة ملائمة لحاجاتهم جديرة بتكييف مطالبهم و تحقيق مطامحهم[5]، و هو ما ذهب إليه " هوبير ديشان " " Deshamps Hubert " إذ يقول[6] : "***لم يقل أحد من***

---

(1) – أبوا الحسن علي الحسني الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ط5، دار الشّهاب، باتنة، الجزائر،1987، ص ص 47،50.

(2) – د/ محمد عبد الله النقيرة : إنتشار الإسلام في شرق إفريقيا و مناهضة الغرب له، دار المرّيخ، الرّياض، 1402هـ، 1982م، ص 33.
و توماس أورنولد : الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د/ حسن ابراهيم حسن و آخرين، ط3، مكتبة النهضة القاهرة، 1971،ص. 134.

(3) – د/ حسن إبراهيم حسن : إنتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ط2، مكتبة النّهضة، القاهرة، 1964م، ص 114.

(*) – هشام بن عبد الملك : بويع بالخلافة في 25 شوّال 105 هـ 724م، توفى بالرّصافة، 6 ربيع الثاني 125 هـ، 773م، و عمره (53) سنة، أنظر : المسعودي : مروج الذهب ...، ج3، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1989م، ص 255.

(4) – د/ محمد عبد الله النقيرة : المرجع السابق، ص 141.

(5) – د/ عبد الله النقيرة : نفس المرجع، ص 115.

(6) – د/ عبد الله النقيرة : نفس المكان.

أرّخوا للإسلام في شرقي إفريقيا فيما أعلم، أن المسلمين أكرهوا الإفريقيين على الدّخول في الإسلام بل أكّدوا جميعا أن الإسلام قد انتشر على نطاق واسع في ظل الحكومات الإستعمارية المسيحية خلال القرنين التاسع و عشر و العشرين " .

و بناء على هذه الشّهادة يتأكّد أن الإفريقين قد إعتنقوا الإسلام طواعية و رغبة فيه لا رهبة من المسلمين، و عن قناعة لا عن إكراه من أصحابه، ذلك أن المسلمين لم يبدأوا بشن العدوان على النّاس، بل واجهوا أعتى قوة مسيحية في المنطقة هي دولة الحبشة، التي أعلنت حربا ضروسا على الإسلام و المسلمين منذ النصف الثاني من القرن السّابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، و استمرّت حتى القرن العشرين، و رغم ذلك فإن الإسلام في المنطقة ما يزال القوّة الغالبة و توقّع المستقبل له[1].

ب - الشّمال الإفريقي[*] :

يعدّ شمال القارة الإفريقية المعبر الرئيس الذي مرّ عبره الإسلام إلى باقي جهات القارة، فلقد عرف الفاتحون المسلمون طريقهم إلى مصر على يد القائد العربي " عمرو بن العاص "[**] بعد فتح بلاد الشام و تسلّم مدينة القدس، وعقد مؤتمر الجابية [***] سنة (17 هـ، 638 م) و اتّخاذ قرار فتح مصر التي كانت ترابط بها القوّات البيزنطية لتأمين ظهر المسلمين في بلاد الشام من جهة، و مواصلة نشر الإسلام من جهة ثانية[2]، و تولى قيادة جيوش فتح مصر "عمرو بن العاص " بين سنتي (18 هـ 638م / 25هـ، 645م)[3]. و بعد الصّلح مع مبعوث " المقوقس " سار إلى طرابلس الغرب بعد عودة عقبة من برقة بأخبار مشجّعة[4] و صالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار[5].

تمكّن المسلمون من نشر الإسلام في مصر بسرعة مذهلة، لما لقيه هذا الدين و أهله من ترحيب،

---

(1) - د/ محمد عبد الله النقيرة : المرجع السابق، ص. ص 217، 218.

(*) - أنظر الشكل رقم (2) ص 29.

(**) - الجابية : منطقة بالجولان عقد فيها الخليفة عمر بن الخطّاب مؤتمرا إنضمت بموجبه بلاد الشام إداريا و تم تنصيب معاوية بن أبي سفيان واليا عليها، أنظر : جون باجوت غلوب : ترجمة خيري حمّاد. الفتوحات العربية الكبرى، مكتبة المثنى بغداد، بدون تاريخ، ص 314.

(2) - عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج2، ص 971.

(***) - لم يكن عمرو يجهل البلد، فقد كان تاجرا في الجاهلية و كان يختلف إلى مصر، أنظر : محمد بن يوسف الكندي : ولاة مصر. تحقيق د/ حسين نصار، دار صادر، بيروت، لبنان، 1379هـ 1959م، ص 29.

(3) - البلاذري : فتوح البلدان، ج2. تحقيق صلاح الدين المنجد، دار النهضة، القاهرة، 1958م، ص 229.

(4) - د/ موسى لقبال : المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى قيام ثورات الخوارج، ط1، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1969م، ص 18.

(5) - إبن الأثير : الكامل في التاريخ، ج3، ط6، دار الكتاب العربي، بيروت، 1986، ص 12.

و لما وجده المصريون في الدين الإسلامي من سماحة، فهو لا يكره الناس على إعتناقه إمتثالا لقوله تعالى[1] : "***لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطّاغوت و يؤمن با لله فقد إستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها و ا لله سميع عليم*** " هذا من جانب، و عزوفهم عن البيزنطيين بسبب الظّلم و الإضطهاد و المعاملة القاسية من جانب آخر[2].

و لمّا استقرّت أوضاع المسلمين في البلاد المصرية استمرّ تطلّعهم إلى الفتوحات، خاصة منذ تولي مقاليد الخلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه (23 هـ، 643 م / 35 هـ، 655 م)، إذ أذن لعامله " عبد الله بن أبي سرح" بفتح إفريقية[3]، ومنذ ذلك الحين بدأت الحملات على الشمال الإفريقي التي استغرقت سبعين سنة بدأها "عمرو بن العاص" و ختمها "موسى بن نصير"عام (90 هـ، 708 م) واجه خلالها الفاتحون مقاومة عنيفة من قبل الأمازيغ، غير أن الإستجابة لتقبّل الإسلام كانت أسرع و أوسع، بسبب عدم انتشار الديانة المسيحية بين السّكان و تأثيرها فيهم، علاوة على مقت الأمازيغ الشّديد للروم[4].

و الحق أن المغاربة قد حسن إسلامهم و اطمأنوا إلى الوافدين الجدد و ذلك لما حققه الفاتحون باستمالة الأهالي إليهم، فقد مهد " عقبة بن نافع الفهري " المناخ لنشر الإسلام، كما كسب " أبو المهاجر دينار " بفضل سياسته الحكيمة إلى صفّه أعظم شخصية أمازيغية - كسيلة بن لمزم - الذي أسلمت باسلامه جموع غفيرة من قومه الأمازيغ. و إذا كان هؤلاء السابقين قد نشروا الإسلام على الشّريط الساحلي فإنّ "موسى بن نصير"(85هـ ، 707م / 95 هـ، 714 م) قد ركّز على فتح المناطق الدّاخلية فاستأمن إليه البربر و أطاعوه و ساهموا في نُصرته[5].

و بالإضافة إلى جهود قادة الفتح، كان للهجرات العربية و استقرارها في بلاد المغرب دورها الإيجابي الفعّال في توسيع رقعة الإسلام و نشر الثّقافة العربية الإسلامية و آدابها بين السكّان، و قد كلّلت جهود الولاة بدعم الخليفة "عمربن عبد العزيز" (99 هـ، 717م / 101هـ، 719 م) الذي عيّن "اسماعيل بن عبيد الله "(*)

---

(1) - سورة البقرة : الآية 256.

(2) - توماس أورنولد : المرجع السابق، ص 123.

(3) - إبن عذاري المراكشي : البيان المغرب فيي أخبار الأندلس و المغرب، ج1، ط2، دار الثّقافة، بيروت، 1400 هـ، 1980، ص 9.

(4) - توماس أورنولد : المرجع السابق، ص. ص 143،144.

(5) - عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ص 110 و ما بعدها.

(*) - هو عبد الحميد اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر الأعور القرشي المخزومي، ولاه عمر بن عبد العزيز عام (100هـ) إفريقية فكان خير والٍ و خير أمير، دعا البربر إلى الإسلام فأسلم على يديه خلق كثير، و قيل أنه أحد الذين علّموا أهل إفريقية الحلال و الحرام، كان رجل علم و فقه، و روى عن التابعين و روي عنه، توفي سنة (131 هـ و قيل 132 هـ)، أنظر : إبن أبي الأعراب : طبقات علماء إفريقية و تونس، تحقيق علي الشابي و نعيم حسن اليافي، ط2، الدار التونسية للنشر، 1985م، ص 84.

على ولاية المغرب وعهد إليه بنشر الدّعوة و السّهر على سيرها و أرسل معه عشرة من الفقهـاء يساعدونه في أداء مهامه[1].

و الحق أنه منذ إشراق الفتوحات الإسلامية إستمرّت الدعوة الإسلامية تنمو و تتبلور يوما بعد يوم في ربوع الشّمال الإفريقي، فحتى بدت مصطلح المغرب القديم و شغل محلّه المغرب الإسلامي الذي شـرع في ممارسة واجبه التاريخي و أداء دوره الحضاري.

و بعد أن استقر الإسلام في ربوع المغرب الإسلامي تطلّع المـسلمون إلى الشـمال و الجنوب، و لعبت الدول الإسلامية التي نشأت بالمنطقة دورا مشرّفا في نشر الإسلام في عمق الصحراء، هذا بالإضافة إلى جهـود الدعاة و المعلّمين و العلماء و التّجار و الطرق الصوفية و حيوية الإسلام نفسه.

و من هنا يمكن القول أن شمال إفريقيا عموما و بلاد المغرب خصوصا، كانت المنطلق الرئيس لإنتشـار الإسلام في عمق القارة الإفريقية، و القاعدة الخلفية التي أمـدّت بسخاء كـل الدعـاة و الحركـات الإصلاحيـة الإسلامية بالدعم المادي و المعنوي، لذلك إستقطبت هذه الرّقعة أنظار الشّعوب و اهتمامات الدّول في القديم و الحديث.

جـ - السودان الأوسط[*] :

إنتشر الإسلام في المنطقة بفضل الدّعوة و الموعظة الحسنة، فباستثناء شمال إفريقيا فإن الإسـلام ساد و إنتشر في القارة دون تجهيز للجيوش، فمنذ القدم كان لبلاد النوبة علاقات وطيـدة مـع مصـر، و أهلهـا كانوا نصارى حتى القرن السابع الميلادي [2]، عزاها القائد "عقبة بن عامر" في ولاية "عمرو بن العاص" علـى مصر (21 هـ، 641 م) [3]، ثم غزاها "عبد الله بن أبي سرح" (31 هـ، 651م) و عقد مع ملك" دنقلـة " معاهدة كانت بمثابة ضمان لإستمرار الدّعـوة [4]. و في عهـد الخليفـة العبـاسي "الواثـق " (232 هـ، 847 م) / 247هـ، 861) فتـحت البلاد و عقد صلح ببغـداد بـين ملـك " البجّة " و الخليفـة (241هـ، 855م) نص على أداء الجزية للمسلمين[5].

---

(1) – ابن أبي الأعراب : طبقات علماء إفريقية و تونس، تحقيق علي الشابي و نعيم حسن اليافي، ط2، الدار التونسية للنشر، 1985م، ص 84 و ما بعدها.

(*) – أنظر الشكل رقم (2)، ص 29.

(2) – C. Brockel Mann : Histoire des peuples et des état Islamique de puis les origines jusqu'a nos jours, Payot, Paris, 1949, P. 41.

(3) – المسعودي : مروج الذهب و معادن الجوهر، ج1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1989م، ص.ص 511،512.

(4) – د/ حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق، ص 139.

(5) – البلاذري : المصدر السابق، ص 228.

و بواسطة الإحتكاك و هجرة القبائل العربية زاد انتشـــار الإسلام و نشطت حركة الثّقافة العربيـة الإسـلامية و آدابها، و لما زادت إحتياجات الدول الإسلامية (*) التي نشأت بمصر إلى الجيـوش دعـت الضـرورة إلى تجنيـد السودانيين، فاعتنق هؤلاء المجنّدون الدين الإسلامي، و نشروه عند عودتهم بين ذويهم[1]، و كان لهجرة قبيلـة جهينة في العصر المملوكي الأوّل (642 هـ، 1250م / 748 هـ، 1387م) و اختلاطها بالسّـكان إلى انتشـار الإسلام بين مختلف طبقات المجتمع، فخلـص الأمـر إلى سـقوط المـمالك النصرانيـة المتعـددة، فتبـدّت المقاومـة المسيحية للإسلام، و لم تلبث أن تلاشت. فتمكّن المسلمون من بسط سلطانهم على بلاد السـودان الأوسـط، و زاد نفوذ ملوك " الفونج " في التمكين للإسلام و تثبيت أقـدامه بفضل تشجيعهم للعلم و رعايتهم العلمـاء و حمايتهم، و عـلاوة على ذلـك لعبـت دولـة " كـانم برنـو " (184 هـ - 800م / 1255 هـ، 1839 م) بسـبب عراقـة إسلام حكّامهـا و سهرهـم على الأمن و تشجيعهم للتجارة و ربطها بمراكـز الشّـمال إلى رفع راية الإسلام في سماء القارة السمراء[2].

يقول القلقشندي [3] : " ***و سلطـان كانم من بيت قديم في الإسلام، و أدعى بعضهـم أنّهم من أحفاذ الإمام علي و يتمذهب بمذهب الإمام الشافعي***"، و يذكر القلقشندي نفسه سكان الكانم، و يقول[4] " ***و العدل قائم في بلادهم و يتمذهبون بمذهب الإمـام مـالك و هـم يابسـون في الديـن*** ". و بذلـك بلغـت المنطقة درجة عالية من الرقي في ظل الممـالك الإسـلامية، و خاصـة فيمـا بـين القـــرنين الخـامس و السّـابع الهجريين، الحادي عشر و الثالث عشر الميلاديين. و منـذ (778 هـ، 1376 م) إمتـد الضعـف و الوهـن إلى الدولة، و دخلت في حروب دامت أزيد من قرن[5] ،و بعدها إستتبت الأوضاع على يد "إدريـس بـن علـي "، ثم سرعان ما عاد التنافس و الشقاق على السـلطة و ظهـرت ممـالك إسـلامية نعمـت بآزدهـارأبهر الرحالـة الأروبيين بعد كشف إفريقيا[6].

و الحق أن الإسلام كان له دور في رقي المجتمعات الإفريقية، إذ أخرجهـا من عبـــادة الأوثان و سمـا بفكرها فتخلّت عن كثير من أعمال الشعوذة و السحر و العادات و التقاليد المشينة، و ظهرت دول و ممالك

(*) - دولة بني طولون : (254 هـ، 868م / 929هـ، 905م)، الإخشيديون (324 هـ، 935م / 359 هـ، 969 م)، الفـاطميون (296هـ، 909 م / 567 هـ، 1171 م).

(1) - حسن أحمد محمود : الإسلام و الثقافة العربية في إفريقيا، دار الفكرالعربي، 1986م، ص.ص 187،188.

(2) - د/ أمين الطي : (وصول الإسـلام و إنتشـاره في " كـانم برنـو") مجلّة كلية الدّعوة الإسـلامية، العـدد 4، طرابلس، ليبيـا، 1397هـ، 1987م، ص.ص 181،183،و C. Brockl Mann, Op. Cit, P341.

(3)- أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج2، المؤسسة المصرية العامة، بدون تاريخ، ص 281.

(4) - أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي : نفس المكان.

(5) - د/ أمين الطي : المرجع السابق، ص 181.

(6) - بازل دافيدسون : ترجمة جمال .م. أحمد،إفريقيا تحت أضواء جديدة، دار الثقافة، بيروت،بدون تاريخ، ص 166.

و إمبراطوريات مزدهرة عملت على توثيق الرّوابط السياسية و التجارية و الثّقافية مع البلاد العربية، لكن سرعان ما عاد إليها الضّعف و الإنحلال فزالت، و تطلّب الأمر ظهور زعامات جديدة من رجال الدّعوة و الإصلاح يدعون إلى النهوض بالإسلام و المسلمين و تجديد عقيدتهم و تصحيحها.

د - غربي إفريقية(*) :

لم يكن هذا المجال من القارة مجهولا لدى العرب و الأمازيغ، بل كان معلوما و مطروقا لديهم، إذ كانت المنطقة ترتبط بمراكز النّشاط التجاري في الشّمال عبر الطرق التجارية، لذلك عرف الإسلام سبيله إلى هذه الربوع بواسطة التجار و المعلّمين و العلماء و الدعاة الذين سلكوا هذه الدروب، و يرد بعض المؤرّخين وصول الإسلام إلى بلاد "غانا" إلى عهد "عقبة بن نافع الفهري"، غير أن الذي لا خلاف حوله هو أن "موسى بن نصير" كسب إلى جانبه قبائل الملثّمين التي تنتشر على حدود "السودان" حتى بلغ "غانا"، و دعّم هذا "عبد الرحمن بن حبيب الفهري" (127 هـ، 743م / 132هـ، 749م) عامل القيروان على حفر الآبار بين الشّمال و الجنوب و فتح الطّرق التجارية و تأمينها(1). كما قام الأدارسة (172هـ، 788م / 375هـ، 985 م) بنفس الدّور(2).

و نتيجة تردّد التجار المسلمين على "غانا" و مرونة حكّامها ساعد هذا على إنتشار الإسلام بين الأهالي، كما مكّن بعض المسلمين من تقلّد وظائف عليا في الدولة بسبب معرفتهم القراءة و الكتابة و لكفاءاتهم الإدارية، و للحيوية و النشاط الذي تميّزوا به، فقد ذكر الرّحالة " ريسل " " Ruppell " أن إختيار تولي المناصب كان يقع دائما على شخص مسلم(3)، و قد يسّر هذا الدعوة إلى الإسلام، و بمرور الوقت زاد عدد المسلمين باضطراد و صار لهم مثلا في " كمبي صالح " العاصمة الغانية إثنا عشرة مسجدا(4).

ورغم الإنتشار الواسع للإسلام ظل الملوك على الوثنية، لذلك قام المرابطون بقيادة "عبد الله بن ياسين" بحركة الجهاد، و لما توفى هذا الأخير سنة (440 هـ، 1057م) واصل تلاميذه الجهاد و تمكّنوا

(*) - أنظر الشكل رقم (4)، ص 50.

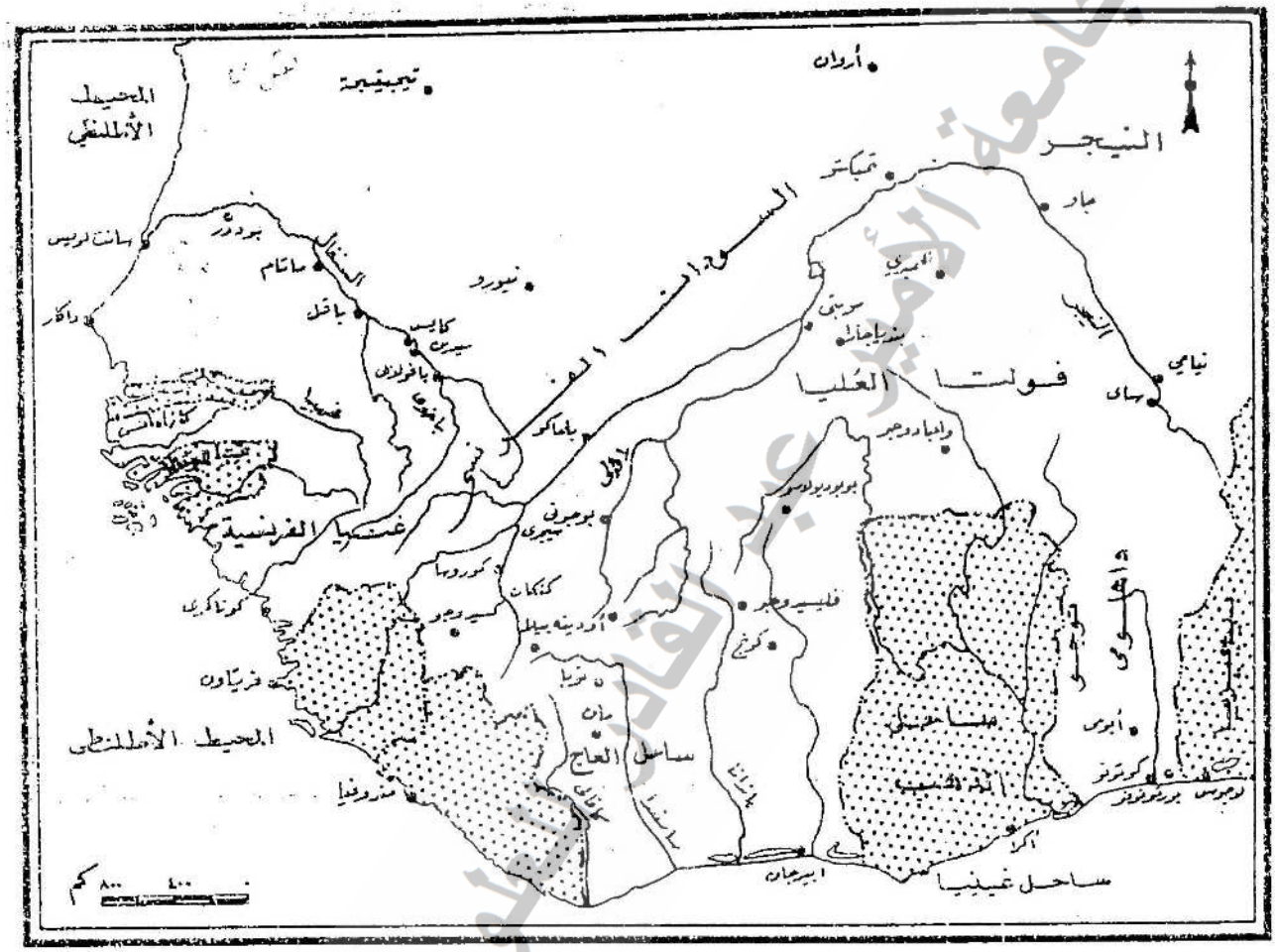
(1) - د/ صباح ابراهيم الشيخلي : (النشاطات التجارية العربية عبر الطّريق الصحراوي في نهاية القرن الخامس عشر الهجري)، تجارة القوافل و دورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، مؤسسة الخليج، الكويت ، 1404هـ، 1984م، ص 33.

(2) - د/ أمين الطيبي : المرجع السابق، ص 181.

(3) - كارل بروكلمان : ترجمة نبيه أمين فارس و منير البعلبكي : تاريخ الشّعوب الإسلامية، ط6، دار العلم للملايين، بيروت، 1974م، ص 319.

(4) - د/ عبد القادر زبادية : الحضارة العربية و التأثير الأروبي في إفريقيا جنوب الصّحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص 14.

الشكل (4)



غرب إفريقيا في القرن التاسع عشر

عن د/ إلهام محمد علي دهني، جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي 1850-1914، دار المريخ، الرياض، 1988، ص 231

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من دخول العاصمة الغانية (469هـ، 1076م) بقيادة "أبي بكر بن عمر"[1].

و إذا كانت سيطرة المرابطين لم تدم طويلا على هذه المناطق، فإن تواجدهم بها مكّن الطبقة الحاكمة من اعتناق الإسلام، لكن أعظم توسّع لهذا الدين ظهر على يد مملكة مالي (638هـ، 1240 م / 1081 هـ ، 1670م) إذ بلغ في عهدها أدغال القارة، و كل هذا مرجعه إلى حسن إسلام الماليين و تطبيق الإسلام في حياتهم السياسية و الإجتماعية، حتى صار دين الدّولة الرّسمي[2]، كما اشتهر ملوك مالي بتشييد المدارس و المساجد و جلب الفقهاء و المعلّمين، و من الممارسات الدالة على حرص هؤلاء ما ذكره الرّحالة إبن بطوطة أثناء رحلته إلى مالي (753هـ، 1352 م / 754 هـ، 1353 م) فقد رأى ازدحام المساجد بالمصلّين حتى أنّه إذا كان يوم الجمعة و لم يبكّر المصلي إلى المسجد لم يجد مكانا له لأداء الصّلاة، كما شاهد معاقبة الصّبيان في تلك الجيهات عند تقصيرهم في حفظ القرآن الكريم[3]، كما وصفهم الرحالة الإنجليزي" رايد " " Riade " بأنّهم مزارعون مهرة و متدينون، و من أشدّ الدّعاة حماسا للإسلام، و قد أبدى إرتياحه لأخلاقهم الكريمة و مظهر نسائهم المحتشم[4].

و إذا كان المرابطون قد أدوا دورهم، فإن الموحّدين لم يقصّروا هم الآخرون و لعبوا نفس دور أسلافهم بزعامة "محمد بن تومرت" و تلاميذته من بعده[5].

و منذ إعتناق ملوك الصنغاي الإسلام في أواخر القرن الثالث و أوائل القرن الرابع الهجريين، الحادي عشر الميلادي، زاد إنتشار الإسلام بسرعة مذهلة خاصة بعد إنتقال الحكم إلى أسرة الأسيقيين (899هـ، 1493م) و رغم بعض النكسات فقد عمل حكّام البلاد على ترسيخ الإسلام إلى أن سقطت المملكة على يد جودار باشا " Judar " قائد جيش المنصور الذهبي (1000هـ / 1591م)[6]، و بذلك عمّت البلاد الفوضى، فانتقلت السّلطة من يد المغاربة إلى قبائل البمبارا الوثنيين[7].

في ظل هذه الأوضاع التي سادها الصّراع ضعف الإهتمام بالدين و تخلى عنه الكثير من الناس، كما إختلطت به الخرافات و البدع و الأباطيل، و إمتزجت به بعض العادات المستمدّة من عمق المجتمعات الإفريقية الوثنية.

---

(1) - Georges Hardy : Vue générale de histoire d'Afrique. librairie, Armand Colin, Paris, 1922, P.P 50, 52.

(2) - د/ حسن ابراهيم حسن: المرجع السابق، ص 102.

(3) - إبن بطوطة : الرحلة، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1377هـ، 1958م، ص208.

(4) - نعيم قداح : حضارة الإسلام و حضارة أروبا في إفريقيا الغربية، ط2، ش.و.ن.ت، 1975م، ص88.

(5) - د/ عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب و حضارته، المرجع السابق، ص 769 و ما بعدها، و رشيد بو روية، ترجمة عبد الحميد حاجيات : ابن تومرّت، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982،ص 89.

(6) - د/ إسماعيل العربي : الصحراء الكبرى و شواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م، ص330.

(7) - د/ حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق، ص.ص 113، 114.

و إذا كانت السّلطات الرّسمية قد تهاونت و تخلّت أحيـــانا عن واجبها و أداء مهامها، فـإن الدعـاة و المعلّمين لم يتقاعسوا عن أداء رسالتهم، و قد حضي الكثير منهم بالتقدير و الإحترام، و خاصة أنّهم إمـتزجوا بالإفريقيين عن طريق الزّواج و المصاهرات، قال تعالى : [1] " ***يا أيّها الذيـــن آمنوا إنا خلقـــناكم من ذكـــر و أنثى و جعلنكم شعوبا و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقكم إن الله عليم خبير*** " .

و من هنا فقد لعب هؤلاء دورا لا يقدّر في مجالي التعليم و نشر الإسلام من جهـة و إصـلاح أحـوال المسلمين عبر فترات و حقب زمنية مختلفة منذ وصول هذا الدين إلى المنطقة على يد العلماء الوافدين سواء مـن المشّرق أو المغرب، أو من أبناء المنطقة أنفسهم الذين فتح الله عليهم و أخذوا بعض العلوم و المعارف.

و خلاصة القول أن انتشار الإسلام في القارة الإفريقيـة، بيّـن أن الأفارقـة لم يكونـوا متوحشين كمـا وصفهم بعض الغلاة من الأروبيين الذين كانت كتاباتهم مغرضة، فـإن الإنسـان الإفريقي قـد خلّـف شـواهد حضارية كغيره من بني جنسه، دلّت على تطـوّر هذا الكائن البشـري، فقد تمكّن من صهر الحديد و ممارسـة الزّراعة و التجارة، التي تطوّرت بفضل القوافل التجارية، فقد ربط صلات لاسيما مـع سـكان شمـال و شـرق إفريقيا، فزاد إحتكاكه بهؤلاء السّكان و ازدادت العلاقات وثوقـا بمرور الوقـت و نشـطت الصّـلات في كـل المجالات.

فبعد وصول الإسلام إلى شمال إفريقيا تسلل إلى منطقة إقليم الجنـوب، عـبر مراحـل تاريخيـة متعاقبـة، فاعتنقه بدو الصّحراء و حسن إسلام سكّان هذه البلاد الشاسعة، خصوصا بعـد إستقرار الهجـرات المتـــتابعة للقبائل العربية و الأمازيغية المسلمة بينهم، فـــأندمجت هذه القبائل مع بعضها البعض، و تصاهرت و ازدادت العلاقات بينها وثوقا، و ساهم الجميع في بـــناء مراكز حضارية تخرّج منها علماء أجلاء و مثقّفون، و كـانت منارات بدّدت ظلام الجهل و الأمّية في سماء القارة، كما زعزعت أركان الوثنية في ربوعها فهدّمتها و قلّصـت من رقعتها، و أقـامت على أنقاضهـا ثقافة و حضـــارة إسلامية قـــائمة على التوحيد، فنشـــأت بذلك ممـالك و دول وامبرطوريات إسلامية و خلّفت حضارة راقية مازالت شاهدة، لاسيما في الحواضر و المراكز العلمية التي استرعت اهتمام الدارسين و البـاحثين حديثـا، و قـد قدّمـت هـذه المراكـز خدمـات جليلـة للحضـارة العربيـة الإسلامية خاصة و للفكر البشري عامة[2]، فكانت مقصد طـلاب العلـم مـن مختلـف الجهـات حتـى نافسـت مراكز الشّمال و بزّت الكثير منه بفضل جهود المعلمين و إنجازات العلماء و المصلحين و ما خلّفـوه مـن آثـار مادية و كتابات قيّمة و مخطوطات نادرة، كوّنت رصيدا حضاريا إعتمد عليه العلماء و المصلحون في العصر

---

(1) – سورة الحجرات، الآية 13.

(2) – د/ عبد القادر زبادية : (ملامـــح الحركة التعليـــمية في تمبوكتو خلال القرن 16)، مجلّة الأصالـة ، عـدد 53، الجزائر، محرّم. 1398، جانفي 1978م، ص 9 و ما بعدها.

الحديث و قاموا بحركات إصلاحية و جهادية وقفت في وجه الغزو الإستعماري الأوروبي الدخيل على القارة السّمراء.

2 – العلماء المصلحون في إفريقيا جنوب الصّحراء :

إذا كان الإسلام قد إنتشر في إفريقيا جنوب الصحراء عن طريق قنوات مختلفة و وسائل متنوّعة، فلا شكّ أن للعلمـــاء و الدّعاة و المصلـــحين الدّور الأكبر بلا منازع في توســـيع رقعته و تصحيح مفاهيمه، فبفضل المدارس و المساجد و مراكز العلم التي أنشأها المسلمون سواء في شمال الصّحراء أو جنوبها و تخرّج منها نفر من العلماء العاملين كانت لهم مكانتهم في المجتمع، و مازالت بصماتهم جلية في الصّرح الحضاري الذي بنته شعوب إفريقيا الإسلامية، فبعد إنتشار الإسلام في القارة الإفريقية طبع المجتمع الإفريقي بطابعه المميز، إذ لم تكن طبقة المثقفين بمعزل عن المجتمع، و لم تكن منطوية على نفسها منعزلة عن غيرها، بل كانت ذات حركية و فعالية و نشاط لا يعرف الكلل و الملل و لا يتسلل إليه الفتور، و بذلك ساهمت في إرساء و بعث نهضة شاملة، فنشطّت بذلك حركة اللغة العربية و صارت لغة التخـــاطب و التعامل اليومي، و لم تبق حبيسة المساجد و دور العلم و الثّقافة مقصورة على الطّلاب و حلقات الدروس، و حكرا على الدواوين الرسمية، فزادت بذلك مراكز العلم الإسلامية و انتشرت في عموم إفريقيا و وثّـــقت علاقاتـــها مع المـــراكز العلمية في البلاد العربية و الإسلامية الأخرى، فزاد النشاط العلمي و الفكري و نما التباذل الثقافي، فبرزت عبقريات إفريقية نالت شهرة عالمية ما زال التاريخ يشهد على جلائل أعمالها بفضل منجزاتها في المجالات العلمية و التربوية والإصلاحية، و مثّلت أعظم دور في ترسيخ الإسلام كعقيدة و حياة بين الناس، فاستقامت بذلك أحوالهم سواء بمجهودهم الشخصي أو بما خلّفوه من مدونات، و من هؤلاء العلماء المصلحين :

– عبد الكريم المغيلي (ت 909 هـ، 1503 م) :

هو أبوعبد الله بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني الجزائري، ينسب إلى قبيلة مغيلة القاطنة بضواحي تلمسان – التي مازالت إلى يومنا هذا –[1]، و لا نعرف عن حياته الأولى شيئا، غير أنه تعلّم على أيدي علماء أجلاء ، من اشهرهم عبد الرحمن الثعالبي (ت 875 هـ) في تونس، و يحي بن إدير (ت 875 هـ) في تلمســـان و غيرهم[2]، ثم انتقـــل إلى " فاس " لإكمـــال دراسته و هناك إنكـــبّ على الـــدّرس و التحـــصيل حتى صار من أكابر العلماء و المثقّفين في عصره، أثنى عليه " أحمد بابا " فـــي " نيل

---

(1) – د/ عبد القادر زبادية : الحضارة العربية و التأثير الأروبي في إفريقيا جنوب الصّحراء، المرجع السابق، 153.

(2) – د/ أمين الطيبي : (مراجعة أجوبة الفقيه المغيلي)، مجلّة الدّعوة الإسلامية، العدد3، كلّية الدّعوة الإسلامية، طرابلس، الجماهرية الليبية، 1398هـ، 1988م، ص 371 و ما بعدها.

الإبتهاج "[1] و دخل في حوار و نقاشات حادة مع العلماء بلغت حد الخلاف، خصوصا أن هذه الفترة لم يكن فيها المغرب على ما يرام بسبب الإضطرابات السياسية[2]، كما شهدت البلاد هجرات مسلمي و يهود الأندلس.

في هذا الجو المتميز بالفوضى تصدى المغيلي للحكّام المسلمين، و أنكر عليهم الإبتعاد عن تعاليم الدين الإسلامي الحنيف في حكم البلاد و إدارتها، لاسيما و أن هؤلاء الحكّام باعوا ذممهم لليهود الذين سيطروا على مصادر التجارة و الرّبح فقرّر الهجرة[3].

هاجر المغيلي إلى منطقة توات بالجنوب الجزائري، و هناك باشر التعليم و الإصلاح و كانت له مشاحنات مع السّكان، إذ قام بتهديم بيعة لليهود[4]، فلقي بعض المعارضة خاصة من قاضي توات، فاضطر إلى مكاتبة الفقهاء في " فاس " فعارضه بعضهم، فسافر لمناقشتهم بصحبة عدد من تلاميذته، و لما واجه معارضيه إتّهموه بالتطاول على السّلطات و الطّموح لكرسي الحكم، فنفى المغيلي ذلك، و رد حجج خصومه، و لعل هذه المواقف الثابتة و الشّجاعة في الحق و الغزارة في العلم هي التي دفعت إبن مريم و محمد السنوسي إلى تعظيم شأنه، إذ وصفوه بأنّه عالم مفكّر و مصلح كبير قلّما جاد الزّمان بمثله[5].

عاد المغيلي إلى توات و منها هاجر إلى السودان الغربي، و كانت شهرته قد سبقته، إذ صار من أكبر علماء البلاد، و هناك إتّصل به " الأسكيا الحاج محمد " حاكم البلاد و قرّبه إليه للإستفادة من علمه، و قد مكث المغيلي بمدينة " كانو " " Kano " حوالي عشرين سنة،قدّم خلالها خدمات جليلة و قام بدور بارز في التدريس و التوجيه و في خدمة الإسلام و الثّقافة العربية، كما ساعد الحاكم " محمد رمفا " " M. Ramfa " في إصلاحاته السياسية و الإجتماعية و العقيدية، و انشأ المدارس للتعليم و تخرّج على يديه العديد من العلماء و الدّعاة، و عيّنه السّلطان مستشارا سياسيا و شرعيا، و كما إهتمّ المغيلي بالتدريس إعتنى بالتأليف، فقد ذكر له أحمد بابا واحدا و عشرين مؤلّفا[6]، و يتضح من الرسائل التي كتبها لحكّام " كانو " "Kano " أنّه كان عالما قديرا في جميع الشؤون، و على دراية بفن الحكم لذلك عدّ المختصون رسالة " تاج الدين على ما يجب على الملوك " صورة لدستور إسلامي، إقترح فيها المغيلي

---

(1) – أحمد بابا التنبكتي : نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، منشورات كلية الدّعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1989م، ص 576.

(2) – عبد القادر زبادية : الحضارة العربية والتأثير المرجاني في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء. مرجع سابق – ص 19 إلى 54.

(3) – أحمد محمد كاني : الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، ط1، الزهراء للإعلام العربي،القاهرة، 1407 هـ 1987م، ص 36.

(4) – خير الدين الزركلي : الأعلام، المجلّد6، ط4، دار الملايين، بيروت، 1980م، ص 216.

(5) – أحمد بابا، المصدرالسابق، ص 576، و عبد القادر زبادية، مجلّة الأصالة، عدد 26، مرجع سابق، ص 209 و ما بعدها.

(6) – أحمد بابا :نفس المصدر، ص 578.

المغيلي إعادة تنظيم الدّولة بانشاء المجالس و الدواوين، و حدد مواصفات من يتولى المناصب، و وجدت هذه المقترحات تجاوبا من قبل حاكم " كانو " " Kano " "محمد رمفا" و قام بتنفيذها، كما أثمرت جهود المغيلي مع حاكم مدينة " كاتسينا " " Katcina "، " ماجي إبراهيم " الذي فرض على أهل البلاد تطبيق الشّريعة الإسلامية خاصة في الأحوال الشخصية[1]. و يرجّح أن " الأسكيا الحاج محمد " بعد عودته من الحج في حدود عام (905 هـ،1499م / 906هـ، 1500م) أوفد إلى مدينة " كبي " " Kébi " شرق النيجر وفدا ضم جماعة من العلماء للعمل فيها كان من بينهم عبد الكريم المغيلي، فقام بمهمّته أحسن قيام، و تمكّن من تعميق الفهم للإسلام بين العامة و الخاصة و أعتبر إماما يسير بطريقة علمية و منهجية، و استطاع إخضاع الفكر الإسلامي و معارفه في إفريقيا جنوب الصحراء عموما و بلاد السودان الغربي خصوصا إلى الحوار و النّقاش دون تعصب، و أخذ بيد طلابه و دفعهم بمعية زملائه من العلماء إلى الإحتكام لكتاب الله و سنّة رسوله، مع العلم أنّه كان مالكيا متشدّدا[2](*).

أسس المغيلي في مدينة " كاتسينا " مدرسة إسلامية كما تقلّد فيها منصب قاضي القضاة، و مكث بالسودان عالما مصلحا و فقيها مجاهدا، و لم يعد إلى بلاده إلى أن بلغه نبأ مقتل ولده " عبد الجبار " على يد يهود توات، و هو يومئذ بمدينة غاو " Gao "، فعاد على الفور و بقي هناك حتى وافته المنية عام (909 هـ، 1503 م)[3] و قيل سنة 921 هـ(**) و هو مستبعد .

و يمكن القول أن العمل و الجهاد الذي قام به المغيلي في تلك الظّروف لم يبلغه عالم أو مصلح إسلامي في عصره على الأقل، فقد كان سفيرا للمغاربة و المسلمين عموما و للجزائريين على وجه الخصوص بالمنطقة، حيث ترك أثرا إسلاميا طيّبا و واسعا، وقام بتصحيح معالم كثيرة مسّها الزّيف،و وضّح قضايا و مفاهيم كانت مبهمة في أذهان المسلمين حكاما و محكومين، و ما زال ذكره و أثره محمودين إلى يومنا هذا .

الشّيخ مخلوف بن علي بن صالح البلبالي (ت 940 هـ 1553هـ) :

من مواليد مدينة " ولاتة " التي تقع على الأطراف الشّمالية للصحراء[4]، تعلّم القراءة و الكتابة و بعض العلوم الشرعية بعد حفظه القرآن الكريم، ثم عمل بالتجارة و اشتغل بالعلم على كبر، فأوّل

---

(1) – أحمد محمد كاني : المرجع السابق، ص.ص 36، 37.

(2) – د/ أحمد إبراهيم دياب : (علماء السودان الغربي في القرنين السادس عشر و السابع عشر و آثارهم العلمية)، ندوة العلماء الأفارقة و مساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية)، الخرطوم، 28-30 أوت 1983م، مؤسسة الخليج للطباعة و النشر، الكويت، 1405هـ 1985م، ص 148،

(*) – سأشير فيما بعد إلى هذا المرجع باسم ندوة العلماء الأفارقة.

(3) – أحمد محمد كاني : المرجع السابق، ص.ص 36،37.

(**) – أنظر هامش خير الدين الزركلي، المرجع السابق، م6، ص 216.

(4) – أحمد محمد كاني : نفس المرجع، ص 41.

من اخذ عنه الشيخ " الصالح عبد الله بن عمر بن محمد آقيت " بولاتة فقرأ عليه رسالة أبي زيد القيرواني في الفقه، و لمّا رأى فيه ذكاء و نجابة حضه على الإشتغال بالعلم و التخلي عن التجارة[1]، ورجل مثل مخلوف لم يكفه ما تحصّل عليه من علوم و ثقافة محلية في بلادها، وكانت العلوم الدينية قد استقطبت اهتماماته فكان عليه لقاء رجالاتها أينما وجدوا، وكان عليه أن يتوّج اجتهاده برحلة إلى فاس و هناك درس على يد الشيخ الرّازي[2]. وبعد اتمام دراسته دخل بلاد السودان و تصدّر للإقراء و الافتاء في حواضر بلاد السودان الغربي في كل من " كانو" " Kano "و "كاتسينا " " Katcina"، كما جلس للتدريس في مدينة "تمبكتو"، و جرت له هناك مشاحنات و مجادلات فقهيّة مع الفقيه الكبير " العاقب الأنصميني " .

سافر إلى المغرب مرّتين للاستفادة من العلوم و المعارف للرّفع من مستواه و اشباع رغباته و نهمه، اشتهر بقوّة الحافظة و غزارة العلم. وصفه صاحب كتاب نيل الابتهاج بالفقيه الحافظ الحجة، قيل انّه كثير الحفظ، إذ كان يحفظ صحيح البخاري عن ظهر قلب، و كثر حسّاده، قيل إنّه سمّ في مراكش فرجع إلى بلاده، و توفي بها بعد عام (940 هـ / 1533م)، ألّف كتابا في النوازل[3]، كان له ذكر حسن في عموم افريقيا و ذلك لنشاطه في الدعوة و الإصلاح، تخرّج على يديه عدد من التلاميذ دأبوا دأبه، و كان لهم دور مشهود في احياء السنن و محاربة الجهل و الخرافة و البدع، كما ساهموا في اصلاح أحوال المجتمع الافريقي المسلم.

الشيخ العاقب بن عبد الله الأنصميني المسوفي :

ولد بتكدة " Takidda" التحق بمدارس مسقط رأسه، شهد له منذ صباه بالنباهة و الفطنة و الشغف بالعلم و حب المعرفة، تتلمذ على يد معلمين و علماء أجلاء، من أمثال محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني الجزائري، و الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي، و الشيخ النجيب بن محمد شمس الدين التكداوي الأنصميني، يعدّ من أهل الفضل و التقوى و الصلاح، إنشغل بالتدريس و التأليف[4] و صفه الحفناوي بأنّه فقيه ذكي الفهم حذق حاد الذكاء وقّاد الخاطر جريئ و في لسانه حدّة.

---

(1) – احمد بابا : المصدر السابق، ص 608.

(2) – د/ أحمد ابراهيم دياب : (علماء السودان الغربي في القرنين السادس عشر و السابع عشر و آثارهم العلمية)، ندوة العلماء الافارقة، مرجع سابق، ص 149

(3) احمد بابا : المصدر السابق، ص 608.

(4) – أحمد محمد كاني : المرجع السابق، ص 27.

وأهم تآليفه وأحسنها تعليقه على قول الامام خليل قال: " ***و خصصت فيه الحالف حسن مفيد جدا" و اختصره مع كلام غيره في جزء عنوانه*** " تنبيه الواقف على تحرير و خصصت فيه الحالف " كما ألّف كتابا في وجوب الجمعة، كانت له آراء خاصة، خالف بها فقهاء و شيوخ بلده فاضطروا إلى مراسلة علماء مصر فصوبوه[1]، و قد وصف "بالراديكالية" كانت له مشاحنات و نزاعات فكرية مع الشّيخ الحافظ مخلوف بن علي بن صالح البلبالي[2]، كان حيا في حوالي الخمسين و تسعمائة هـ(950هـ، 1593)[3]. و لا نعرف سنة ولادته و لا وفاته، لعب دورا كبيرا في ترسيخ الإسلام و إصلاح أحوال المسلمين، و كان يجاهد بفكره و قلمه تخرّج على يديه عدد من التلاميذ الذين واصلوا راية نشر الإسلام و الحفاظ على تعاليمه السليمة وفق توجيهات أستاذهم.

محمد بن محمود كعتو التمبكتي (950هـ، 1543م / 1101هـ، 1593م) :

يقول عن نفسه في كتابه [4] " تاريخ الفتّاش " : " ***أنه الكرمي دارا و التمبكتي مسكنا، الوتكري أصلا*** "، لا نعرف تاريخ ميلاده، حفظ القرآن الكريم في سنّه الأوّلي، و تعلّم اللغة العربية و كتابتها ثم درس الفقه و الحديث و التفسير و التاريخ على يد والده القاضي محمود في تمبكتو، ثم هاجر لطلب العلم فقصد مصر و حضر دروس العلم و جالس العلماء و أخذ عنهم الكثير، ثم إتّجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج من جهة و الإحتكاك بأكابر العلماء من جهة ثانية. بعدها رجع إلى مدينة تمبكتو ليدرّس بها الفقه و الحديث و المنطق و التاريخ الإسلامي،قال عنه تلميذه أحمد بابا :[5] " ***لقد صار شيخ زمانه في العلوم و الفنون و قد لازمه عشر سنين*** "، و أثنى عليه و اعترف بفضله و شهد له بالتبحر في علوم كثيرة، و كان ذا صدر رحب لا يأنف من مبتدئ و لا يغضب من بليد، و كان يقرأ بعد الفراغ من صلاة الصّبح إلى الضحى، ثم يقوم لقضاء شؤونه و حوائجه إلى حين وقت الزّوال، فيؤم الناس في صلاة الظهر، ثم يجلس للدرس حتى العصر، و إذا صلى المغرب يجلس مدرّسا حتى صلاة العشاء ثم يعود إلى بيته[6].

كان ذكيا فطنا سبّاقا للمهامات يبادر لحل المشاكل الإجتماعية بالحكمة و الوعظة الحسنة، عمل

---

(1) -أبو القاسم محمد الحفناوي:تعريف الخلف برجال السلف،ط2،مؤسسة الرّسالة،تونس،1405هـ، 1985م،ص 199.

(2) – أحمد محمد كاني : المرجع السابق، ص 27.

(3) – أبو القاسم الحفناوي : المرجع السابق، ص 200.

(4) – د/ أحمد إبراهيم دياب : (علماء السودان الغربي في القرنين السادس عشر و السابع عشر و آثارهم العلمية)، ندوة العلماء الافارقة، المرجع السابق، ص 152.

(5) – أحمد بابا التمبكتي : المصدر السابق، ص.ص 601، 602.

(6) – أحمد بابا التمبكتي : نفس المصدر، ص 601.

مستشارا للسلطان " محمد الحاج " – أعظم أباطرة سنغاي الإسلامية – و صحبه إلى الحج، عاصر الأزمات السياسية و حضر الغزو المرّاكشي للسودان وكتب يقول[1] : " ***و لما أجلاهم القوم و ارتحلوا صارت " تمبكتو " جسما بلا روح ... و ساد أرذلها على عظمائها*** "، و كتابه " الفتّاش " لا غنى عنه في تاريخ السودان، و أن الحوادث التي إحتواها كتابه تجتاز عمره بست سنوات على الأقل،مما يدفع إلى الظن بأن أحد أفراد أسرته قد أتمّه فيما بعد.

وقد توفي كعتو و هو إبن الخمسين عاما، و بذلك يمكن أن نقدّر سنة ولادته فتكون بذلك حوالي سنة (950 هـ، 1543م).

و قد تخرّج على يديه عدد كبير من علماء السودان الغربي، و مازال ذكره محمودا داخل السودان الغربي و خارجه.

أحمد بابا التمبكتي (963 هـ، 1556م / 1032هـ، 1622م) :

هو أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد آقيت الصنهاجي الماسي السوداني المشهور بـ " بابا " و هو من أسرة عريقة في العلم، تولى معظم أفرادها مهمة القضاء،ولد بمنطقة أروان " Arouan " من أعمال تمبكتو في 21 ذي الحجّة (963 هـ، 1556م)[*]، نشأ في طلب العلم، درس علوم اللغة العربية على يد عمّه أبي بكر، و التفسير و الحديث و الفقه و البيان و التصوّف و غيرها على يد العلامة الشيخ " بغيغ "، كما أخذ على والده الحديث و المنطق، و الكثير من أمّهات كتب الأدب، مثل مقامات الحريري[2] إشتهر بين أقرانه بقوّة الحفظ و المهارة في الطلب دون كلل أو ملل[3].

تصدّر " بابا " كغيره من العلماء لمهنة التدريس و التأليف، و ترك للمكتبة ما يربو على الأربعين مؤلّفا[4] و قد عرّفه تلميذه السعدي بقوله : [5] "***كان عالما علامة، فريد عصره البارع في كل فن من فنون***

---

(1) – د/ عبد القادر زبادية: الحضارة الغربية و التأثير الأروبي في إفريقيا جنوب الصحراء، المرجع السابق، ص 56.

(*) – و عنه يقول حسن أحمد محمود انه من مواليد مدينة وهران، و درس ببجاية، ثم انتقل إلى تمبكت، أنظر: حسن أحمد محمود، الإسلام و الثقافة العربية في إفريقيا، دار الفكرالعربي، القاهرة، 1986م، ص.245.

(2) – أحمد بابا : المصدر السابق، ص 11.

(3) – أبو القاسم محمد الحفناوي : المرجع السابق، ص.ص 17، 18.

(4) – دائرة المعارف الإسلامية، المجلّد الثاني، ص 289.

(5) – د/ أحمد ابراهيم دياب : (علماء السودان الغربي في القرنين السادس عشر و السابع عشر و آثارهم العلمية)، ندوة العلماء الافارقة، المرجع السابق، ص 153.

العلم " كما أثنى عليه المرّاكشي صاحب الفهرسة[1].

و أثناء غزو السلطان أحمد المنصور الذهبي (986 هـ، 1578م / 1012هـ، 1603م) لتمبكتو عام (1000هـ ، 1591م)، ألقي القبض على مائة و تسعة و ستين عالما من بينهم أحمد بابا و أسرته، و سيقوا إلى مراكش[2] و في طريقه إنكسر ساقه، و لما بلغ مراكش أودع السجن من عام (1001هـ، 1592م / 1005هـ 1596م)[3] و ذلك أن السلطان إتهمه باشعال نار الفتن ضد الحكم المغربي.

قدم خدمات جليلة داخل البلاد و خارجها، و عرّف سكان المغرب بسعة عمله و وافر إطلاعه على عقل الإنسان الإفريقي المسلم من وراء الصّحراء على أنّه مبدع و يقظ[4]. و لما أطلق سراحه جلس للتدريس بجامع الشرفاء بمرّاكش، فازدحم الخلق عليه، و ذاع صيته في البلاد الإسلامية و كان له لقاء بـ " المقري " صاحب كتاب " نفح الطيب "، و تتلمذ على يديه الكثير من طلاب العلم الذين صاروا علماء فيما بعد[5]، و أثناء مقامه بمراكش لم يقتصر إهتمامه على التدريس، بل إهتم إلى جانب ذلك بالتأليف، و كان أهم مؤلف له "الهامش على كتاب الديباج المذهب "، و قد بدأه في تمبكتو قبل غزوها و أتمّه بمرّاكش، و يعد هذا المؤلف سجّلا حافلا بالأعلام المغاربة و الأندلسيين، يتوفّر على الكثير من المعلومات المتنوّعة سياسية و إقتصادية و إجتماعية و ثقافية بالإضافة إلى مؤلّفات أخرى[6].

و لما توفي السلطان المنصور، تولى العرش السلطان زيدان، فسمح هذا الأخير لـ " بابا " بالعودة رفقه أسرته إلى " تمبكتو " سنة (1014 هـ ، 1605م) و لما حل بها واصل مهام التدريس في معظم مساجد تمبكتو،حيث درّس علوما مختلفة،و تخرّج على يده العديد من العلماء المسلمين في المغرب و السودان الغربي و الأوسط، من أشهرهم تلميذه عبد الرحمن السعدي.

و إلى جانب ذلك فقد تصدى الرجل لإصلاح أحوال المجتمع و بعث همم الجماهير الشعبية، حاثا إياها على عدم الركون إلى الكسل، و الإبتعاد عن الخمول و الخرافات، و كانت وفاته في يوم سبعة خلون من شعبان (1032 هـ، 1622م)[7].

---

(1) – أبو القاسم محمد الحفناوي : المرجع السابق، ص17.

(2) – خير الدين الزركلي : المرجع السابق، المجلّد1، ص 102.

(3) – أحمد بابا : المصدر السابق، ص 13.

(4) – لاسيكيني مودي سيسيكو : (نزعة تمبكتو في وحدة العالم الإفريقي)، الثقافة الإفريقية، ملتقى الجزائر، جويلية أوت 1969م، ش.و.ن.ت. الجزائر، 1969م، ص 267.

(5) – أحمد ابراهيم دياب : (علماء السودان الغربي في القرنين السادس عشر و السابع عشر و آثارهم العلمية)، ندوة العلماء الافارقة، المرجع السابق، ص 153.

(6) – أبو القاسم محمد الحفناوي : المرجع السابق، ص18.

(7) – أحمد بابا :المصدر السابق، ص.ص 11، 12.

و إعترافا من جمهورية مالي الحديثة بمقام الرجل و جلائل أعماله أطلق إسمه على الكثير من المؤسسات، و أنشأت مركزا للبحوث و الدراسات، عامر بالوثائق و المخطوطات التي تحمل إسمه[1].

عبد الرحمن السّعدي (1004هـ، 1595م / 1066هـ، 1656م) :

هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السّعدي[2]، ولد بتمبكتو في غرّة جمادى الأولى سنة (1004هـ، 1595). و هو من أسرة سودانية أرستقراطية، تلقى العلم بمسقط رأسه على يد أحد شيوخ المذهب المالكي هو أحمد بابا و على غيره من العلماء، و لما إشتدّ عوده و تفتقت مواهبه ساح في البلاد، فزار مناطق عديدة يدعو الناس إلى الإسلام و تعاليمه الحنيفة، و في عام (1036هـ 1626م) أصبح إماما لمسجد " سنكورة " في " جني "، و في عام (1056هـ 1646م)[3] استدعاه محمد بن عثمان باشا الذي كان حاكما لتمبكتو ليتولى منصب الخارجية فكان خير سفير لبلاده أينما حل و ارتحل، و مكث بهذا المنصب إلى أن وافته المنية عام (1066هـ، 1656م)، و قد اشتهر السعدي منذ صغره بحبّه للعلم و شغفه بالمعرفة، و أثناء طوافه بأنحاء مملكة صنغاي حزّ في نفسه أن يمرّ على منجزات و معالم قد تندثر مع الزّمن، خصوصا و أن السعدي كان ثاقب النظر، حاد الذكاء، دقيق الملاحظة، ينظر إلى الأمور نظرة العالم المتبصّر المدقق، فاستقرّ رأيه على كتابة تاريخ لبلاده، و بحكم مكانة أسرته و منصبه هو شخصيا، تيسر له جمع المادة و شرع في تنقيحها و ترتيبها و تحريرها، و قدر لهذا المولود أن يشهد النور في الخامس من ذي الحجة (1063هـ، 28 /1653/10م)، و سماه " تاريخ السودان ".

و يعود اهتمامه بهذا اللون من المعرفة إلى تأثّره بأستاذه أحمد بابا و كتابه " الذيل "، و يبدو أنه كان يسجل كل ما يسمعه من روايات أو يشاهده رؤي العين، لذلك جاءت كتاباته متأثّرة بما جاء في كتب من سبقوه مثل أحمد بابا و محمود كعتو حيث كتب في مقدمة كتابه [4]: " ***و لما رأيت إنقراض ذلك العلم و دروسه و ذهاب ديناره و فلوسه و أنه كبير الفوائد لما فيه من معرفة المرء بأخبار وطنه و أسلافه و طبقاتهم و تواريخهم و وفياتهم فاستعنت بالله في كتابة ما رويت عن ذكر ملوك أهل صنغاي و قصصهم، و أخبارهم و سيرهم و غزواتهم و ذكر آخر الدّولة الأحمدية الهاشمية العباسية سلطان مدينة حمراء مراكش فأقول : " و بالله تعالى أستعين و هو حسبي و نعم الوكيل*** " ".

---

(1) ـ ساسيكيني مودي سيسيكو : (نزعة تمبكتو في وحدة العالم الإفريقي)، المرجع السابق، ص 269 و ما بعدها.

(2) خير الدين الزركلي : المرجع السابق، م3، 313.

(3) – خير الدين الزركالي : نفس المكان.

(4) – د/ أحمد إبراهيم دياب : (علماء السودان الغربي في القرنين السادس عشر و السابع عشر و آثارهم العلمية)، ندوة العلماء الافارقة، المرجع السابق،ص.ص 153،154.

و في هذا الكتاب تحدّث عن دولة مالي التي كان لها دور كبير في تاريخ المنطقة و توجيه الأحداث بها، كما تطرّق إلى الممالك الإسلامية بالسودان، و لم يغفل في حديثه المدن الإسلامية التي بلغت شأوا من الحضارة بتلك الرّبوع مثل مدينة " ديبيني " و " تمبكتو" مستعرضا بعض أخبارهما ،كما ترجم للكثير من العلماء والفقهاء و رجال الاصلاح والدعوة،باعطاء نبذة ولو وجيزة عن حياتهم ونشاطاتهم، بالاضافة إلى التعرض للسلاطين والامراء الذين تعاقبوا على حكم تلك البلاد والمدن .كما خص كتاب" الذيل " لأحمد بابا بالحديث منوها به كانجاز يعد مفخرة للمنطقة، كما سرد في الكتاب التاريخ القديم لقبائل السودان الغربي و أصولهم، و لم يهمل رحلته إلى "ماسينا"حيث أفرد لها الباب الثامن والثلاثين من كتابه[1]، كما تعرض بالتأريخ للدولة السعدية، و لم يهمل السعدي الحديث عن أحد أساتذته "أبو تلوري" فيقول [2]: "***لقد تعلمت عنه الكثير وأجاز لي كتبا قرأتها عليه بخط يده وأهديت إليه بعض المصنفات التي ألفتها بمساعدته***".

ثم يواصل السعدي سرد تاريخ المنطقة ويورد أدلة تثبت مؤكّدة على وجود مجتمع إسلامي متشبع بالثقافة الاسلامية يشبه إلى أبعد الحدود المجتمعات الإسلامية المتواجدة في ربوع العالم الإسلامي، خصوصا في المغرب والمشرق، و ما زال كتاب السعدي إلى يومنا هذا يعد من أهم المصادر التي يعتمد عليها في تاريخ المنطقة.

الشيخ محمد بن محمد الكشناوي الفلاني (ت 1153 - 54 هـ/ 1741 م) :

لا نعرف تاريخ ميلاده بالتحديد، غير أنه من مواليد " كاتسينا " " Katcina " ببلاد السودان الأوسط، تلقى العلوم والمعارف على أيدي مشاهير علماء السودان، مثل محمد بن سليمان بن محمد الوالي وغيرهم، إلاّ أن أبرز شيوخه الذين تأثر بهم كان محمد فودي الذي نوّه به، وقال عنه أنه أول من حصل لي الفتح على يده، إذ درس عليه كتب الادب ولازمه في حلّه وترحاله مدة أربع سنوات، أطلق عليه إسم "صاحب المقامات " - إشارة إلى مقامات الحريري-، كما أتقن الكشناوي علوم اللغة من نحو و صرف على يدي هذا الشيخ حتى أكسبه لقب سبويه[3]، ثم انتقل إلى الشيخ " محمد بندو" وتلقى عليه علوما مختلفة سرية وحرفية وآلاتها الحسابية والميقاتية، كما درس عليه علوم الأصول والمعاني والعقائد والبيان والمنطق، وسمع عليه صحيح البخاري وخليل وغيرها، بالاضافة إلى التاريخ والتراجم، هاجر من مسقط رأسه إلى بلاد برنو وأقام بها حوالي نصف عام، درس فيها على يد العالم "محمد كرعك " فنونا كثيرة من علوم الأسرار وبعض كتب الحساب. ورجل طموح كالكشناوي لم يكتف بما جمع في بلاده فقرّر الرحيل إلى البقاع المقدسة وذلك في

---

(1) - د/ احمد إبراهيم دياب : (علماء السودان الغربي في القرنين السادس عشر و السابع عشر و آثارهم العلمية)، ندوة العلماء الافارقة، المرجع السابق، ص.ص 154،155.

(2) -د/ عبد القادر زيادية/الحضارة العربية والتأثير الاروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء المرجع السابق، ص.ص 83،85.

(3) أحمد محمد كاني : الرجع السابق، ص.ص 42-43.

عام (1142هـ/1729م)، وهناك إلتقى بأكابر العلماء وأخذ عنهم، وجاور بمكة المكرمة، لـه مؤلفـات عديـدة منها :

1- " الدر المنظوم وخلاصة السر المكتوم في علـوم الطلاسـم والنجـوم "، الـذي وضعـه في مصرعـام (1146هـ/1733م).

2- " بهجة الأفاق وإضاح اللبس والإغراق في علم الحروف والأوفاق ".

3- " إزالة العبوس عن وجه منح القدوس " في ستين كراسة.

4- " بلوغ الأرب في كلام العرب ".

ويبدو أن شهرة الكشناوي كعالم متخصص في علوم الاسرار، و ضرب الرّمل أكسبته منزلـة رفيعـة، فقصده كثير من طلاب العلم والمعرفة. و من العلماء الذين تتلمذوا عليه حسن الجيرتي (الجيرتي الكبير). توفي الكشناوي في مصر عام (1145هـ/1741م) بمنزل الجيرتي و دفن ببستان العلماء المجاورين ويبدو أنه كان شاعرا ومما قاله[1] :

طلبت المسـتقر بكـل أرض *** فلـم أر لي بأرض مستقرا .

تبعت مطاعمي فاستبعدتني *** ولو أني قنعت لكنت حرا .

و يوجد الكثير من مؤلّفاته بدور المخـطوطات، بالقاهرة و مرّاكش و نيجريا و بريطانيـا[2] ، و رغـم أن الكشناوي لم يطل به المقام في بلاده إلاّ أن المدة التي قضاها هناك كـانت حافلة بالنشـاط العلمـي، و كتبـه كانت متداولة في إفريقيا.

الشّيخ محمد بن عبد الرحمن البرناوي (ت 1168، 1169هـ / 1755م):

يعد من أبرز العلماء الذين عرفتهم المنطـقة، ظهر كعالم مجدّد في وقت كـانت المنطقـة في أمس الحاجة إلى رجل مثل البرناوي، دعا هذا العالم الجليل إلى التجديد و الإصلاح و تـرك البـدع و الرّذائل و التخلي عنها، كما دعا إلى التمسك بالإسلام الصّحيح و الحكم بمقتضى الشّريعة الإسـلاميـة و مـا تدعو إليه من الفضـائل و مكارم الأخلاق من جميع أوجه مناحيها السيـاسية و الإقتصادية و الإجتماعية و الثقافية و الأخلاقية، عمل مدرّسا و واعظا في بلاده بل و كان إلى جانب كونه عالما

---

(1) – أحمد محمد كاني : نفس الرجع، ص44.

(1) – أحمد محمد كاني : المرجع السابق، ص 45.

مجدّدا،كان شاعرا، و مما جاء في قصائده التي كان يدعو فيها إلى الإصلاح في جميع مجالاته، هذا القصيد الذي يقول فيه[1] :

أصل الحلال الكسب بالزّراعة *** وبالتجارة وبالصّناعة

بورع والصدق في المعاملة *** والعلم والمطلب والمجاملة

وكل ما من الحقوق إنحلا *** والتبعات ذا الحلال حلا

من حق ربنا وحق غيره *** بلا تعلق به فاستدره

أنواع بيت المال خمسة عشر *** فالجزية فالخراج فيء وفر

وما الذي جهلت أربابه *** وارث مال لا له أصحابه

فهذه السبعة بيت المال *** لمن له المدخل في الحلال

و يبدو من خلال هذا القصيد دعوة هذا الشيخ المصلح العالم المتمرّس إلى الكف عن الكسل و الحض على ممارسة النشاطات الإقتصادية المختلفة و المتنوعة، و الكسب الحلال الذي يتماشى و روح الشّريعة الإسلامية السّمحة. منفّرا من الكسب الذي يأتي صاحبه من مصد رمشبوه أو غير شرعي.

لم تبق دعوة هذا العالم المصلح حبيسة حدود منطقته بل عمّت أرجاء المملكة اليرنوية ، وتجاوزتها إلى خارج حدودها، و تخرّج على يديه عدد من الطّلبة نهجوا نهجه، و من مؤلّفاته : شرب الزّلال [2].

الشّيخ محمد صغيرون و أبناؤه :

هو محمد صغيرون بن سرحان العودي، و أمّه فاطمة التي تنتمي إلى أولاد جابر[3] و كانت من فضليات نساء قبيلتها، إشتهرت بالعلم و التقوى و الصلاح إلى جانب أخويها عبد الرحمن و إسماعيل. تفقّه محمد صغيرون على يد خاله إسماعيل بن جابر الذي أجازه، و لم يشف هذا القدر من العلم غليله، فاتّجه صوب مصر و درس العلوم الشرعية، و عند عودته جلس بمجلس أخواله يدرّس الفقه، وصف محمد صغيرون بأنّه ممن جمع بين العلم و الفقه و التصوف.

---

(1) – أحمد محمد كاني : نفس المرجع، ص 22.

(2) – نعيم قدّاح : المرجع السابق، ص 167.

(3) – يوسف فضل الله : (العلماء المسلمون في سلطنة الفونج بسودان وادي النيل)، ندوة العلماء الأفارقة، المرجع السابق، ص 188.

حقق محمد صغيرون نجاحا كبيرا في نشاطه التعليمي فأثار هذا حفيظة و غيرة أبناء أخواله فحقدوا عليه و ألبوا عليه " زمراوي " " Zamraoui ملك قبائل الشايقية فهدده بالقتل[1].

و في هذه الأثناء دعاه سلطان الفونج " بادي سيد القوم " الذي كان يجلّه و يقدّره و يؤمن بصلاحه و يعجب بتقواه، فنزح الشّيخ إلى ديار " الجعلين " و استقرّ "بالفجيجة " قرب " شندي"[*] حوالي(1021هـ، 1612م)، فأقطعه السّلطان أرضا أقام عليها مسجدا و شرع فورا في تدريس العلوم الشّرعية، و لم يلبث أن شاع خبره و ظهر أمره فتقاطر عليه الطّلاب من كل حدب و صوب يستمعون الى دروسه و ينتفعون بعلمه[2]. و أثمرت جهوده بتخرّج عدد من العلماء المشهود لهم بالعلم و الفقه إلى أن توفاه الأجل، و تحت قيادة إبنه و خليفته الشّيخ الزين بن محمد صغيرون إتّسعت المدرسة، و ذاع صيتها في القارة و أعتبرت من أهم مراكز التعليم في الجزء الشمالي من سلطنة " الفونج "، فشدّت إليها الرّحال، إذ إشتهر صاحبها بالتبحّر في العلوم العقلية و النقلية و عرف بالتقوى و الصّلاح. فضمّ مجلس علمه ألف طالب، و تلامذته صاروا شيوخا للإسلام، و بعد وفاة الشّيخ الزين (1086هـ 1674م) حل محلّه في التدريس و الدّعوة و الإصلاح إبنه محمد الأزرق.[3]

أستمرّت مجهودات هذه الأسرة الإصلاحية و التعليمية متواصلة في المنطقة، و بالإضافة إليها هناك أسر سودانية أخرى قامت بنفس الدّورو ساهمت في مراكزها بتعليم القرآن الكريم،و اللغة العربية، و العلوم الشرعية المختلفة.

و الحق أن العديد من العلماء و الدّعاة صار لهم نفوذ كبير بين القبائل نتيجة للخدمات التي كانوا يقدّمونها و وقوفهم إلى جانب المستضعفين و الفقراء و المحرومين ضد الطغيان والظلم و قساوة الطبيعة، حيث كانوا يقدّمون الإعانات و الصدقات، كما أن بيوتهم كانت مأوى لعابري السبيل.

كل هذا كان يحدث في مجتمع يفتقر إلى فاعلية الدّولة و إشرافها على ضبط الأمور، مما دفع إلى خلق نوع من الترابط، أو على الأقل الإحساس بالتماسك و الشعور بالألفة و التقارب بين الأتباع و المريدين

---

(1) -دينوسف فضل الله : (العلماء المسلمون في سلطنة الفونج بسودان وادي النيل) ندوة العلماء الأفارقة ، المرجع السابق ،ص.ص 188-189

(*) – شندي : من اهم المدن و الأسواق و ملتقى طرق التجارة بين غرب السودان و شرقه لها اتصالات قوية "بسواكن " ، و هي من أشهر عواصم قبائل الجعليين الذين ثاروا على الأمير اسماعيل بن محمد علي باشا ، و قتلوه زادت شهرة المدينة خاصة منذ القرن الثامن عشر، و من أهم منتجاتها الفواكه .انظر : حسن الفكهاني : موسوعة المعارف الحديثة للدول العربية ج1، الدار العربية للموسوعات القاهرة 1390هـ 1970م (قسم جمهورية السودان) ص.35.

(2) -دينوسف فضل الله : (العلماء المسلمون في سلكنة الفونج بسودان وادي النيل)، ندوة العلماء الأفارقة، المرجع السابق، ص.ص 189،191.

(3) – محمد أبو القاسم حاج حمد : السودان المأزق التاريخي و آفاق المستقبل، ط1، دار الكلمة للنشر، بيروت، 1980، ص.ص 28،29.

الأمر الذي جعل هؤلاء المصلحين يتمـــتّعون بقوّة ضغط استغلوها في حل المشاكل و النزاعات و اصلاح ذات البين بين أطراف القوى المختلفة و تعميق الإسلام سلوكا و عملا في النفوس[1].

جبريل بن عمر :

ولد بمنطقة أغدس " Aghdas "[*]، إلتحق منذ صباه بمدارس المنطقة فحفظ القـرآن و تعلّـم اللغة العربية و آدابها، ثم درس العلوم الشرعية و برع فيها حتـى صـار مـن العلمـاء الأعـلام في عصـره، كمـا اشتهر بالورع و التقوى و بعد النظر[2]، و رغم ما بلغه من منزلة في العلم و ما غرفه من علوم بلاده، لم تشف غليله و لم تشبع نهمه فشدّ الرحال إلى البقاع المقدّسة طلبا للمزيد.

و لا شك و أنّـــه و هو في طـريقه إلى الحجاز قد مرّ على مراكز العلم و الثقافة الإسـلامية و أحتـك بعلمائها و استفاد من علمهم و خبراتهم، لاسـيما و أن الرجـل تـردد علـى البقـاع المقدّسـة مرّتـين مكـث في واحدة منهما عشر سنـوات، و تشير الدلائل أن الشّيخ تتلمذ على يد الأستاذ محمد مرتضى الزبيدي بالقـاهرة و هو حينها من أكابر علماء العصر بالعـالم الإسـلامي كلّـه و قـد أجـازه[**]، كمـا إلتقـى بكبـار العلمـاء في الحرمـين الشـريفين و تـأثر بالمبـادئ الوهابيـة[3] ، بـالرغ مـن ذلـك ظـل مالكيـا و متصوّفـا ملتزمـا بالطّريقـة القادرية[4].

ذاع صيت الشّيخ في غرب إفريقيا و قصده طلاب العلم، و تخرّج على يديه كثير مـن علمـاء العصـر، فقد رحل إليه عثمان بن فودي و أخوه عبد الله و لازماه مدّة إستفـــادا من علمـه و توجيهاتـه و كـان لهمـا نعم المعلّم و الموجّه[5]، كما كان له الأثر الكبير في حياة العلماء و الدعاة و المصلحين في غرب إفريقيا عموما.

و بالإضافة إلى غزارة علمه و تقواه إشتهر بالغيرة على الإســـلام، و شـــدّة بأسه في محاربـة البـــدع و الخرافات و الأباطـــيل التي غشيت المجتـــمع الإفريقي، و كان الشائـــع عن الشّيخ أنّه من الخـوارج و يتبنى مذهبهم، فقد سعى إلى إصلاح أحوال المجتمع في المنطقة و إثارة روح الجهاد الإسلامي في نفوس أهل البلاد،

---

(1) ـ يوسف فضل الله : (العلماء المسلمون في مملكة الفونج بسودان وادي النيل)، ندوة العلماء الأفارقة، المرجع السابق، ص 92، و د/ عبد الرحمن عمر الماحي : المرجع السابق، ص.ص 116، 117.

(*) – أغدس : عاصمة إقليم آهير تحتل موقعا إستراتجيا هاما، تربط بين صنغاي بالجزء الغربي و بلاد الهوسا جنوبـا، و في الشـمال تصـل السـودان الغربي بليبيا و مصر ثم الحجاز، أنظر أحمد محمد كاني: المرجع السابق، ص 23.

(2) – أحمد محمد كاني : المرجع السابق، ص 23.

(**) – أنظر الملحق رقم (1).

(3) ـ السر أحمد العراقي : (عبد الله بن فودي،و محمد بلو بن الشّيخ عثمان بن فودي من علمـاء غربي إفريقيـا في القـرن التاسـع عشـر)، نـدوة العلماء الأفارقة، المرجع السابق، ص.ص 357، 359.

(4) – أحمد محمد كاني : المرجع السابق، ص 29.

(5) – حسن أحمد محمود : المرجع السابق، ص 261.

لكنّه لم يوفّق في ذلك[1] فتوجّه إلى التعليم و الوعظ و الإرشاد، و تمخّضت جهوده عن بروز مجموعة من الدعاة و المصلحين و مما يشهد على عظمة هذا الشيخ و منزلته العلمية ما ذكره تلامذته في مؤلّفاتهم، فقد ذكره المصلح عثمان بن فودي في أسانيده و أثنى عليه قائلا [2]: "***إن للشيخ فضلا على الجهاد السوكوتي و بالرغم من مخالفتي له في بعض الأحيان في منهجه و أسلوبه في حمل الناس على ترك البدع إذ أنه أعتبر مرتكبي الكبائر كفّارا***"، إلاّ أن عثمان يعترف له بالجميل في إنارة طريق الدّعوة و حمل راية الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و يشير عثمان إلى أن أستاذه هو الذي رفع راية الجهاد العملي في المنطقة، أما دورنا فاتمام المشوار فقط، و يوضّح عثمان مقام شيخه في هذا البيت[3] :

إن قيل فيّ بحسن الظن ما قيلا *** فموجة أنا من أمواج جبريلا

و قال عنه تلميذه الآخر عبد الله بن فودي في كتابه " إيداع النسوخ فيما أخذت من الشّيوخ[4]" : "***و منهم شيخنا و شيخ شيوخنا الإمام العالم الحاج جبريل بن عمر ... أخذت عنه كتب أصول الفقه و قرأت عليه بعض تواليفه***" و عن فضله في العلم و الاصلاح نورد هذين البيتين من قصيدة لعبد الله بن فودي في شيخه قال [5] :

جبريل من جبر الإله به لنا *** دينا حنيفا مستقيم المنهج

لم يخش في إظهار دين الله من *** مستهزئي ولائم متمجمج

ويتّضح من خلال المؤلفات التي أجاز فيها جبريل تلامذته و آراؤهم فيه أنّه كان حقا من كبار العلماء و المجّددين و المصلحين المخلصين في إفريقيا جنوب الصّحراء، و ذكره في البلاد لايزال قائما إلى يومنا هذا .

صالح الفولاني (1166هـ، 1752م):

ولد صالح الفولاني في (1166هـ، 1752م)، في مدينة مازالت غير معروفة، كتب إسمها على شكل قوس من قبل محمد عبد الحي الكتاني، صاحب كتاب فهرس الفهارس، و ذلك

---

(1) خالسر أحمد العراقي : (عبد الله بن فودي، محمد بلو بن الشّيخ عثمان بن فودي من علماء غربي إفريقيا في القرن التاسع عشر)، ندوة العلماء الأفارقة، المرجع السابق : ص 350.

(2) – أحمد محمد كاني : المرجع السابق، ص 30.

(3) – أحمد محمد كاني : نفس المرجع ، ص 28.

(4) – أحمد محمد كاني : نفس المكان.

(5) – أحمد محمد كاني : نفس المكان.

بمنطقة فوتاجلون، و نسبت عائلته نفسها إلى الخليفة عمر بن الخطّاب، لذلك أطلق عليها نسب العمري، و ربّما يكون من أصل فولبي و عربي مشترك، كما نسبت قبيلته إلى مسوّفة إحدى فروع صنهاجة.

بدأ تعليمه الأوّلي في مسقط رأسه على يد عمّه عثمان و على يد عالم عمري آخر يدعى صالح بن محمد بن عبد القادر، كان مجدا و حاذقا حاد الذكاء، بدأ ترحاله في سبيل طلب العلم، و سنّه لم يتعد الثانية عشر من عمره، فانتقل إلى " بونا " " BOUNA جنوب موريطانيا و إلى "باكونو" " Bakouno " غرب ماسينا " Macina " و هناك تتلمذ على يد محمد بن سينا الفولاني الشنقيطي، الذي وصف بأنّه من أبرز شيوخه، و شهد له بالفضل و التقوى و الورع، بعد ذلك إنتقل إلى تمبكتو و كانت في حالة التدهور بسبب هجمات الطوارق [1].

زار مرّاكش و تونس و القاهرة، و في هذه الأخيرة جالس العلماء و منهم الشّيخ " الدردير " (ت 1201هـ، 1786م) و كان هذا الأخير إلى جانب كونه عالما كان زعيما للمذهب الخلواتي بمصر، و لم يلبث أن ترك مصر و إتّجه إلى الحجاز و تنقل بين مكة و المدينة، و هناك اتّصل بثلة من العلماء الذين كان لهم الفضل في صقل مواهبه، و من هؤلاء راوية الحديث محمد سعيد بن محمد صفار، (ت 1192هـ، 1778م) و محمد الهاشمي المعروف بالأمير (ت 1213هـ، 1799م)، ثم إتّصل بالعالم المتصوّف محمد بن عبد الكريم السمان (ت 1189هـ، 1775م) منشئ الطّريقة السمانية و هي فرع من الشاذلية[2].

و قد درس صالح أمّهات الكتب المتعلقة بالشريعة الإسلامية و خاصة علم الحديث، كما أن دراسته للغة كانت عميقة و دقيقة، و لم تنحصر الدّراسة في هذين اللونين، بل شملت حقولا أخرى من المعرفة، كالسيرة و المنطق و علم العروض و التصوّف، و في عام (1203هـ، 1788م) يبدو أن صالح الفولاني قد أحس بأن تعليمه قد أكتمل و أنه أصبح قادرا على وضع ثبت بالأعمال التي رويت بالإسناد، فوضع الثبت الأصغر "قطف الثمر " و الثبت الأكبر " الثمر اليانع ". ثم إتّجه المصلح للتدريس، و لا نعرف الفترة التي جلس فيها لذلك بدقة، غير أنه تخرّج على يديه عدد غير قليل من علماء العصر، و يبدو أن أعمال صالح في مجال التدريس كانت أكثر منها في مجال التأليف، و من أهم مؤلّفاته بالإضافة الى ما سبق " تقويم الكافي ما للعلماء من حديث الحنا و الكفا " جمع " الأحاديث القدسية "، " أيقاظ أولي الأبصار " و يعتبر هذا الأخير المؤلف الرئيس حيث تضمن أراؤه في مناهضة المذهبية، فعلى الرغم من أن الشّيخ صالح كان مالكيا، إلا أنه لم يكن متعصّبا لمذهبه .

---

(1) -زجي.أو.هنويك : صالح الفولاني (1752م / 1803م)، (تعاليم عالم إفريقي غربي في المدينة)، ندوة العلماء الأفارقة، المرجع السابق، ص.ص 315، 316.

(2) -زجي.أو.هنويك : (صالح الفولاني، 1752م / 1803م ، تعاليم عالم إفريقي غربي في المدينة)، ندوة العلماء الأفارقة، المرجع السابق، ص 318.

و يقول صالح[1] : *" لو تأمّلت لبدا واضحا أن الإتباع الأعمى للمذهب الخاص بإمام معين دون التحري عن المصدر الموثوق في القرآن و السنة، إنّما هو جهل مطبق حيث أن مثل ذلك لا يعدو أن يكون سوى هوى شخصي و عصبية "*.

و ربّما يوحي الهجوم الذي شنّه على المتعصّبين والذي عبّر عنه من خلال مناهضته للمذهبية أنّه كان رجلا راديكاليا يدعو إلى التغيير، و كانت علاقته بتعاليم الحركة الوهابية متطابقة رغم أن الوهابين حنابلة، و صالح كان من حيث النشأة دعا بالعودة إلى نصوص القرآن و الأحاديث غير أنه لم يشارك الوهابيين في مناهضتهم الشّديدة و معاداتهم للتصوف و المتصوفة.

و المهم أن أعمال صالح في التدريس أعطت ثمارها، فقد تخرّج على يديه علماء بارزون من أصقاع مختلفة من العالم الإسلامي منهم الحجازيون و السوريون، و من عشيرة جمال الليل بشرق إفريقية، و من شنقيط (موريتانيا) و إفريقيا الغربية.

و إذا كانت أعمال صالح ذات أثر مباشر في الحجاز فإنّها لم تبق حبيسة هذه البقعة من العالم الإسلامي، بل كانت ذات أثر في جميع أنحائه و ذلك بفضل العلماء و الدعاة الذين تخرّجوا على يديه، و بفضل جهوده و نشاطه و آرائه حتى عدّ من المجدّدين[2].

عبد الله بن فودي (1180هـ، 1766م) :

ولد بقرية مرت " Mart " من أعمال غوبر " Goubir " (ولاية سوكوتو " Sokoto " في شمال نيجريا الحالية) إعتنى به والده منذ الصّغر، درس الفقه المالكي على يد الشّيخ جبريل بن عمر، و تنقل عبد الله مع أخيه الأكبر عثمان دان فودي لطلب العلم و المعرفة فزارا بقاعا كثيرة تمبكت، و مالي، و كانو و غيرها من المدن المشهورة بالعلم[3]، ثم سافر إلى المغرب و لما عاد إلى بلده اشترك مع أخيه عثمان في الوعظ و الإرشاد كما جلس للتدريس، و قد لعب و أخوه مع أستاذهما جبريل في نشر الإسلام في مملكة غوبر "Goubir " و غيرها دورا مشرّفا، إذ لازم أخاه في الدعوة إلى الإسلام و نشر فضائله بين الناس على الطريقة القادرية، و قد تنقل من قرية إلى قرية و من مدينة إلى أخرى معلّما واعظا و مرشدا، و كان ينطلق في دعوته من قواعد الإسلام الصّحيحة موضحا حقائقه مبينا العادات و التقاليد و البدع التي علقت به و هي ليست

---

(1) ـ جي.أو.هنويك :، نفس المرجع، ص 120 و ما بعدها.

(2) ـ جي.أو.هونيك : (صالح الفولاني 1752م / 1803م ،(تعاليم عالم إفريقي غربي في المدينة)، ندوة العلماء الأفارقة، المرجع السابق، ص.ص 326،327.

(3) - Y.Urvoy : Histoire population du soudan central colonie du niger, librairie la rosee, paris 1936, P274.

منه في شيئ، حاثا الناس على الإبتعاد و التخلي عنها و تركها إلى الأبد.

خاض معارك عنيفة ضد المتكلّمين و الإنتهازيين و علماء السوء، و اشترك في حركة الجهاد التي أعلنها أخوه و صار من أبرز قادتها،إيمانا منه بضرورة الجهاد و استمراريته و تمسّك المسلمين به، كما أشار إلى ضرورة تقديم البيعة لأخيه عثمان ليكون أميرا للمؤمنين.

صار من أكبر وزراء حكومة عثمان التي تكونت أثناء حركة الجهاد كما كان من أكبر مستشاري أمير المؤمنين، و عندما نشأ الجدل بين سكوتو " Sokoto " و " برنو " " Barnou " تولى عبد الله الرّد على محمد الأمين الكانمي حاكم " برنو " و قارعه الحجّة بالحجة،و ذلك بأمر من الشّيخ عثمان[1].

حكم الجزء الغربي من الدولة بعد أن قسمها عثمان بينه و بين إبنه محمد بلو و ذلك منذ (1127هـ، 1812م) من عاصمته " غوندو " " Goundou " و ظل أبناؤه يحكمون المنطقة حتى عام (1321هـ، 1903م) عند استلاء الإنجليز على البلاد[2].

كان عبد الله كثير الإختلاف مع أخيه بسبب تمسّكه بحرفية النصوص و عمل السلف، على عكس عثمان.

إنتاجه الفكري : إلى جانب إشتغاله بالتدريس و الوعظ و الإرشاد و حمل السيف للجهاد و تولي شؤون الحكّام إلا أن هذا لم يقعده عن التأليف و التدوين، فقد ترك عبد الله أثارا فكرية لها وزنها في مضمار العلم و في شتى مجالاته، فأثناء قيامه بالجهاد وضع كتاب " ضياء الحكام فيما لهم و ما عليهم من الأحكام " شرح فيه أحكام الجهاد و مشروعيته، كما بذل جهدا معتبرا في تنسيق آيات الجهاد و الأحاديث النبوية في الإستشهاد و الترغيب و الترهيب، و أحاديث التوجيه النضالية، و ذلك ليبين فضل الجهاد و قيمته في الإسلام.

كما ساهم مساهمة لا يستهان بها في العلوم الشرعية، و التاريخ و اللغة، و من أشهر مؤلّفاته في هذا المجال :

- " اللؤلؤ المصون " نظّم فيه المسائل الدينية و حولها من المنثور إلى المنظوم في ألف بيت.
- " ضياء التأويل في معاني التنزيل " و هو تفسير للقرآن الكريم في أربعة أجزاء.
- " الفوائد الجليلة وسائط الفوائد الجميلة " في علوم القرآن.
- " تزيين الورقات " و هو كتاب تاريخ سجل فيه الحوادث و الوقائع الهامة في بلاد الهوسا و ما جاورها في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر الميلاديين.

أما في النحو فقد بزّ جميع أصحاب الألفيات بتأليفه " البحر المحيط " في أربعة آلاف و أربعمائة بيت. و في

---

(1) /السر سيد أحمد العراقي : (عبد الله بن فودي، محمد بلو بن الشّيخ عثمان بن فودي من علماء غربي إفريقيا في القرن التاسع عشر)، ندوة العلماء الأفارقة، المرجع السابق، ص.ص 358،359.

(2) – د/ حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق، ص 120.

الصرف كتاب " الحصن الحصين "، و يضم ألف بيت.

- " فتح اللطيف الوافي في علم العروض و القوافي " و هو كتاب نفيس في علوم العروض و أحكامه، هذا علاوة على قصائد عديدة جادت بها قريحته، تناولت مختلف الأغراض، كالثناء على الله و مدح الرسول (ص) و الحكم ... إلخ[1]، كما كان يتبارى مع العلماء في صحيح البخاري، و قد عرف من مؤلفاته نحو ثمانية عشر كتابا[2].

و لا يسعنا في هذا المقام إلاّ أن نعترف و نقر بأن هؤلاء الرجال قد خدموا الإسلام و الثقافة العربية خدمة قلما قام بها شعب غير عربي.

محمد بلو بن عثمان دان فودي :

ولد محمد بلو سنة (1201هـ، 1786م) شب في بئة تهتم بالعلم و الثقافة الدينية و الأدبية، تلقى تعليمه الأولي في مدرسة أبيه و معهد عمّه عبد الله بن فودي و غيرهما من المعاهد التي كانت عامرة بالعلماء و الطلاب.

نشأ محمد بلو شديد الحرص على التعلم و التحصيل، رزق ذكاء حادا و بصيرة نافذة، بالإضافة إلى قوّة الحافظة، كان فصيحا بليغا حسن الحديث لطيف المعاملة. و كان منذ صباه شغوفا بالدّراسة و المطالعة، فقد درس كتبا كثيرة في مختلف العلوم و المعارف ذكر عددها في كتابه " ***شفاء الأسقام*** "، حيث بلغت عشرون ألفا وثلاثمائة كتاب[3].

و يدل هذا على حقيقتين في غاية الأهمية، الأولى : تبين مدى سعة إطلاع مترجمنا، و طول باعه في العلوم و المعارف. و الثانية : توضح مدى وفرة الكتب و تداولها في المنطقة.

إشتهر بلو منذ ريعان شبابه بالتقوى و الصلاح و الغيرة على الدين، فقد كان صوفيا ورعا مدققا كما كان معلّما و مرشدا واعظا يدعوالناس إلى الإسلام و يصحح عقائدهم، يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر فأحبه الناس و ألتفوا حوله، و عندما توفى والده - عثمان - (1233هـ، 1817م) إختاره أهل الحل و العقد خليفة لوالده، و استمرّت خلافته إلى أن توفاه الله سنة (1253هـ، 1837م)، كان عصره حافلا بالإضطرابات و الفتن التي لم تستقر إلا بفضله[4].

---

(1) -د/السر أحمد العراقي : (عبد الله بن فودي، محمد بلو بن الشّيخ عثمان بن فودي من علماء غربي إفريقيا في القرن التاسع عشر)، ندوة العلماء الأفارقة، المرجع السابق، ص 362.

(2) - حسن أحمد محمود : المرجع السابق، ص 267.

(3) -د/السر سيد أحمد العراقي : (عبد الله بن فودي، محمد بلو بن الشّيخ عثمان بن فودي من علماء غربي إفريقيا في القرن التاسع عشر)، ندوة العلماء الأفارقة، المرجع السابق، ص 362.

(4) - د/ حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق، ص 122.

و الحق أن محمد بلو كما ظهرت عبقريته ونبوغه في التحصيل، أظهر عبقرية نادرة في السياسة و فن الحكم، فقد كان شجاعا لا يهاب الموت، قاد الجيوش و حقق انتصارات عديدة[1]، و قد أجمعت الروايات على أن محمد بلو من أعظم خلفاء " سكوتو " و أشجعهم، و أبعدهم نظرا، شجّع طلب العلم و ساهم في تطوير الثقافة العربية الإسلامية، أسس حوالي أربعين مدرسة و دعا العلماء للتدريس و قرّبهم منه و شجّعهم و وفر لهم ما يحتاجون، و كان يحضر الدروس و يتفقد أحوال الطلبة و المدرسين، و قد استعان في تنشيط و دفع الحركة العلمية قدما بأساتذة و علماء أجلاء من داخل البلاد و خارجها، و منهم الشيخ عمر بن سعيد الفوتي.

و بهذا الإهتمام و التشجيع ازدهرت العلوم و ظهر علماء و دعاة عملوا على رفع راية الإسلام و النهوض به و ترسيخ قدمه في المنطقة و نشره فيما جاورها، و في نفس الوقت الذي كان فيه يمكّن للإسلام كانت الدولة تتوسع في الفتوحات و تزداد قوة.

و إلى جانب إهتمام محمد بلو بالجهاد و الإصلاح و السياسة و الحكم، إهتم بالكتابة و التأليف، و كتابة الخطابات و النشرات و توزيعها داخل حدود البلاد و خارجها إلى الحكام و الملوك المسلمين و غيرهم، و قد زاره الرحالة الإنجليزي " كلابرتون " " Clapperton "، و لما همّ بالرحيل حمله رسالة لملك إنجلترا حثه فيها على معاملة الرعايا المسلمين بالحسنى[2]، و هذه المؤلفات كلها تعد من مصادرالتشريع الإسلامي، و أهمّها :

– " الغيث الوابل في سيرة الإمام العادل "، و يعد دليلا و مرشدا و هاديا للحكم،فيه تغطية شاملة للجوانب السياسية،و المالية،و الإقتصادية.

– " المجهول في ذكر جملة من مسائل الغلول " و كتاب " ضياء العقول في بيان غلاظ تحريم الغلول " بالإضافة إلى كتب أخرى توضح المسائل الغامضة،و تعين المسلمين في حل المسائل المالية التي تحتاج إلى تفسير مثل : " جمل من المباني"، "جواب شافي"، و" أجوبة محررة "، " تنبيه الصاحب على أحكام المكاسب "، و كل هذه الكتب تتناول مسائل إقتصادية،و تجارية معقدة و مستجدّة على الساحة.

– " أنفاق الميسور في بلاد التكرور، " و يعتبر من أكبر مؤلفات محمد بلو حجما و أكثرها نفعا و هو من أوثق المصادر في تاريخ المنطقة، مع كتاب عمّه " عبد الله " " تزيين الورقات ".

– " أصول السياسة "، و هو بدوره من الكتب المهمة شرح أسس السياسة الإسلامية و الصفات الواجب توفّرها في الحاكم، كالعدل بين الرعية و العلم بالشّريعة.

---

(1)–راجع السر السيد أحمد العراقي : (عبد الله بن فودي، محمد بلو بن الشّيخ عثمان بن فودي من علماء غربي إفريقيا في القرن التاسع عشر)، المرجع السابق، ص.ص 363،364.

(1) –د/ حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق، ص 122.

– " إفادة الطالبين " و هو ديوان شعر يكشف لنا نبوغ هذا العالم و السياسي الحاكم، كما يكشف لنا من خلال قصائده عن إهتمامه بالإسلام و الثقافة العربية الإسلامية و ما بلغته من قوة و إزدهار، كما يعد مرآة صادقة للحياة الإجتماعية و السياسية و الثقافية التي كانت عليها المنطقة[1].

و كان كلّما ألف كتابا أخرجه للناس يقرأه عليهم ثم ينصرف إلى تأليف آخر.

و بفضل هذا النشاط أنتقلت الحركة الفكرية من " تمبكتو " و " جني " إلى " كانو " و " زاريا " بشمال نيجريا[2].

الشيخ علي بن عبد الله بن نافع المزروعي (ت 1316هـ،1898م) :

كانت " مومباسا " تحكم من قبل عشيرة المزروعي و في عام (1253م، 1837م) سقطت في يد البوسعيديين المنتصرين، فتشتتت عائلة المزروعي، و توجّه الشيخ علي بن عبد الله و والده عبد الله بن نافع المزروعي إلى الحجاز، و إستقرا بمكّة المكرّمة، و هناك توجّها لدراسة القانون و العلوم الشّرعية و الفقه و غيرهما من العلوم على يد عالم مصري قدير يدعى " عثمان بن حسن الدمياطي "، ثم توجّها إلى مجلس الشّيخ " أحمد بن يزيني الدهمي " مفتي الشافعية الأكبر بمكّة، و عند عودتهما عام (1262هـ، 1846م) توفي الوالد بمدينة " الشهر"بحضرموت، فمكث الشيخ علي هناك إلى غاية عام (1271هـ، 1854م)، ثم رجع إلى مكّة للإستفادة من العلوم و المعارف على يد علمائها، و في طريق عودته إلى مسقط رأسه و موطن عشيرته عرج على حضرموت ثانية و جلس إلى علمائها و حاورهم، و فور وصوله الى "مومباسا " إلتحق بوظيفة منصب القاضي الشافعي.

و بعد أن تعرف " سيد مجيد " حاكم " مومباسا " على قدراته الفكرية و كفاءاته العلمية طلب منه القدوم إلى " زنجبار " ليكلف بمهمة التدريس بها، و بقي هناك حتى عام (1305هـ، 1887م)، يزاول مهنة التدريس و الوعظ و الإرشاد، فالتف حوله عدد غير يسيرمن الطلاب و الأتباع، و في العام المذكور سابقا عاد إلى " مومباسا " و إستقر به المقام فيها، و هناك استطاع أن يستقطب إليه الجماهير الشعبية،ونجح في نشر المذهب الشافعي بينهم، كما تصدى في كتاباته و محاضراته إلى محاربة البدع و الخرافات، و ابراز التعاليم التعبدية،مشجّعا المسلمين في شرق قارة إفريقيا على إعتناق المذهب الشافعي، فأثار عمله هذا نقمة السلطان " برغش " فألقى عليه القبض و أودعه السجن عام (1887م) و في العام الموالي أفرج عنه بعد موت السلطان

---

(1) –السر سيد أحمد العراقي : (عبد الله بن فودي، محمد بلو بن الشّيخ عثمان بن فودي من علماء غربي إفريقيا في القرن التاسع عشر)، المرجع السابق، ص.ص 364،365.

(2) – حسن أحمد محمود : المرجع السابق، ص 268.

و أعيد إلى منصب قاضي " مومباسا " ثانية، و بقي يشغل هذا المنصب إلى أن وافاه الأجل عام (1216هـ، 1898م).

قام الشيخ المزروعي بإنجازات هامة في مجال التدريس حيث تخرج من حلقاته المنتظمة عدد كبير من طلاب العلم، تقلدوا مناصب بارزة و حساسة في الدولة و المجتمع و منهم أحمد بن سمياط[1].

الشيخ أحمد بن سمياط (1278هـ، 1861م / 1344هـ، 1925م) :

هو أحمد بن أبي بكر بن سمياط ولد بجزر القمر [2]، كان والده أبو بكر من اشراف حضرموت جمع بين العلوم الدينية و التجارة البحرية، و كان قاضيا " لزنجبار " على أيام السلطان مجيد، درس أحمد بن سمياط العلوم الدينية على يد والده أولا، ثم على سيد عبد الحسن أحمد جمال الليل، و عندما بلغ سن العشرين من عمره توجّه إلى حضرموت و جلس إلى علمائها و أخذ عنهم[3]، و بعد عودته من حضرموت عام (1301هـ، 1883م) تم تعيينه من قبل السّلطان " برغش " في منصب القاضي الثاني، و هو منصب تدريبي شغله مدة ثلاث سنوات، بعدها قام برحلات عديدة في العالم الإسلامي، فزار "أستمبول" و مكث بها عاما كاملا، و حباه السلطان عبد الحميد الثاني العثماني برعايته و كرمه و كان ينوي تجنيده للدعوة و الترويج للجامعة الإسلامية في " زنجبار "، و بعد مغادرته " إستمبول " توجّه صوب القاهرة فجلس إلى علماء الأزهر و ذلك عام (1305هـ، 1887م) و منها يمّم وجهه شطر الأماكن المقدّسة لأداء فريضة الحج.

عاد إلى " زنجبار " عام 1306هـ، 1888م)، و لقي ترحيبا كبيرا من قبل خليفة السلطان "برغش" "سيد خليفة بن سعيد " الذي اصبح صديقا له، فعينه قاضيا " لزنجبار"، و هذا المنصب ظل يشغله مع ترقيات مستمرّة. ألقى الكثير من المحاضرات على طلاب العلم، و ذاعت شهرته حتى بلغت الحجاز و مصر و عُمان، حاول سلاطين و علماء حضرموت إغراءه للإشتغال بها، و اعتبرته السلطات في الخارج بمرتبة لا تقل عن مرتبة أعظمهم، كما اعتبرته الجالية المصرية أفضل قاض في المنطقة، و كثيرا ما لجأوا إليه لحل مشاكلهم القانونية المعقّدة.

---

(1) د/بدرود كاتريغا : (علماء شرق إفريقيا و إسهاماتهم في الثقافة و الحضارة الإسلامية العربية في القرنين التاسع عشر و العشرين)، ندوة العلماء الأفارقة، المرجع السابق، ص 267.

(2) – د/ عبد الرحمن عمر الماحي : الدعوة الإسلامية في إفريقيا الواقع و المستقبل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص 117.

(3) د/بدرود كاتريغا : (علماء شرق إفريقيا و إسهاماتهم في الثقافة و الحضارة الإسلامية العربية في القرنين التاسع عشر و العشرين)، ندوة العلماء الأفارقة، المرجع السابق، ص 268.

كان ابن سمياط غزير العلم بارع في الكتابة، ترك مؤلفات عديدة في الفقه و التاريخ و في حركة الدعوة الإسلامية في شرق إفريقيا و مناطق عديدة من العالم الإسلامي، كما يعد من أكبر الدعاة في المنطقة بعد سلفه " علي بن عبد الله "[1].

لم يفتر نشاط الشيخ أحمد بل ظل قائما كمشعل ينير الطريق للضالين إلى أن توفاه الأجل عام 1925م، و له من العمر ستة و ستون (66) عاما. و جرت له أكبر جنازات التشييع التي عرفتها شرق إفريقيا، و قد خلفه إبنه " عمر " كقاض " لزنجبار " و مرشد للدعاة في شرق القارة[2].

عبد الله بن محمد باكثير (1277هـ، 1860م) :

ولد باكثير في " لامو" " Lamo " و هي إحدى لواحق زنجبار، توفي والده و هو لم يتخط الرابعة من عمره، فاشتغل صانع طرابيش لكسب قوته، بدأ يتعلّم الدروس الدينية في وقت مبكّر، فدرس على يد الأستاذ " أبوبكر بن عبد الرحمن الحسين (1244هـ، 1828م / 1341هـ، 1922م) كما تتلمذ على يد كل من الشيخ " سيد علي بن عبد الله جمال الليل " (1241هـ، 1334م) و إبن أخيه " سيد صالح بن علوي " (1260هـ، 1844م / 1354هـ، 1935م)، كما درس على يد عالم زنجبار الكبير " أحمد بن سمياط "، غير أن الدراسة المحلية لم تشف غليله، فتاقت نفسه لإكمال دراسته و مجالسة علماء العصر، و لما توفرت له السبل توجّه إلى الحجاز فدرس بمكة المكرمة و المدينة المنورة على يد ألمع علمائها، ثم غادر مكة متجها إلى أندونيسيا و في جزيرة " جاوة " حط رحاله لنشر الدعوة الإسلامية و تعليم السكان المحليين مبادئ الإسلام الحنيف.

و في عام (1338هـ، 1919م) سافر الشيخ عبد الله العالم الشاب إلى " كيب تاون " "Kip Taoun" بجنوب إفريقيا حيث عمل على نشر الدعوة و رأب الصدوع و الإنشقاقات بين القبائل و العشائر، فتعلّق الناس به، و تكريما لشخصه و للدور الذي اضطلع به في إصلاح ذات البين بين الفئات الإسلامية المتنازعة شيد مسلموا المنطقة مدرسة و أطلقوا عليها إسمه " مدرسة باكثير ".

و بعد عودته من جنوب إفريقيا استقر " بزنجبار " و خصص كل وقته للتدريس و الوعظ و الإرشاد فاحتل مكانة خاصة في نفوس الناس، فكان محط اعجاب و تقدير العديد من مسلمي شرق إفريقيا[3].

---

(1) – د/ عبد الرحمن عمر الماحي : المرجع السابق، ص 117.

(2) – د/ بدرود كاتريغا : : (علماء شرق إفريقيا و إسهاماتهم في الثقافة و الحضارة الإسلامية العربية في القرنين التاسع عشر و العشرين)، ندوة العلماء الأفارقة، المرجع السابق، ص 269

(3) – د/ بدرود كاتريغا : (علماء شرق إفريقيا و إسهاماتهم في الثقافة و الحضارة الإسلامية و العربية في القرنين التاسع عشر و العشرين)، ندوة العلماء الأفارقة، المرجع السابق، ص 269.

أما عن أخلاقه فكان طيب المعشر شديد التواضع رفض تقلد منصب القضاء في العديد من المناسبات، و تتمثل أسهاماته في العديد من الرحلات التي قام بها لخدمة الإسلام و المسلمين، و في تعليمه و تكوينه لعدد كبير من طلاب العلم الذين صاروا فيما بعد علماء أجلاء في شرق إفريقيا من أمثال الشيخ " الأمين بن علي المزروعي "[1] (1309هـ، 1891م / 1367هـ، 1947م)، و لم نعرف تاريخ وفاته.

الشّيخ شعيب سيما كولا(1292هـ، 1875م) :

ولد الشّيخ شعيب (دسويبو، سيما كولا) " Desybou Simacola " الملقب باسم الشيخ " مزي " عام (1292هـ، 1875م) في " بوسيرو " " Passirou " ولاية " مبيغي " "Mabigui " جنوب غرب أوغندا، يتميز عن باقي علماء شرق إفريقيا الذين كانوا ينتمون إلى أسرعريقة في الإسلام، غير أن الشيخ شعيب ولد في عائلة مسيحية حديثة التحوّل للإسلام، اشتغل و هو صغير مع القوافل التجارية المتنقلة، فاحتك بالمسلمين السواحليين و العرب فتعمّق فهمه للإسلام على يد هؤلاء المسلمين و أعجب به كثيرا[2].

بدأ دراسته في " زنجبار " و بعد عودته إلى " أوغندا " رافق إحدى البعثات المتوجّهة للدعوة الإسلامية و الوعظ إلى مدينة " مبالي " " Mabali " شرق أوغندا، التي كانت تضم مجموعات سكانية من المسلمين و الإحيائيين.

و في هذه المدينة إلتقى بأحد المعلمين المسلمين يدعى" يوسف "، فلازمه و توجّه الاثنان في مهمة واحدة هي تدريس الاسلام لصغار الضباط العسكريين الأوغنديين العاملين ضمن قوات الحكومة الاستعمارية بالمنطقة، بالاضافة الى عناصر السكان الاصليين [3].

وبينما كان منشغلا بأعباء التدريس والدعوة قيض الله له اللقاء بالعالم التاجر"عبد الصمد بن نجيب "، فتلقى عليه المزيد من العلوم و المعارف، و منحه إجازة عالم و ذلك عام 1911م، و توّجه الطربوش الرسمي الخاص بالعلماء في شرق إفريقيا[4].

ظل الشيخ شعيب يواصل نشاطه كمعلم و تلميذ في شرق إفريقيا، و كان أستاذه العظيم التالي هو الشيخ " خلفان بن مبارك " الزنجباري الذي أثر في مترجمنا تأثيرا بالغا، و هكذا أصبح الشيخ شعيب فائق الشهرة ذائع الصيت لمعارفه الواسعة و ثقافته الرصينة، كما مكنته معرفته للنصرانية و فهمه للكتاب المقدّس من

---

(1) – د/ عبد الرحمن عمر الماحي : المرجع السابق، ص 118.

(2) –د/بدرود كاتريغا : (علماء شرق إفريقيا و إسهاماتهم في الثقافة و الحضارة الإسلامية و العربية في القرنين التاسع عشر و العشرين)، ندوة العلماء الأفارقة، المرجع السابق، ص 272.

(3) – د/ عبد الرحمن عمر الماحي : المرجع السابق، ص 119.

(4) –د/بدرود كاتريغا : (علماء شرق إفريقيا و إسهاماتهم في الثقافة و الحضارة الإسلامية و العربية في القرنين التاسع عشر و العشرين)، ندوة العلماء الأفارقة، المرجع السابق، ص 272.

بزّ باقي، العلماء، و كانت له الغلبة في أية مجابهة أو محاورة مع النصارى الذين كانوا يجهلون الإسلام،أو ربما على غير معرفة دقيقة به.

و لم يقتصر نشاط حركة الشيخ شعيب على التدريس و الوعظ و الإرشاد فحسب، بل تجاوزها إلى تشييد و بناء عدد من المدارس القرآنية، ألقى فيها محاضراته و توجيهاته على عدد لا يحصى من المسلمين الأوغنديين، و حوالي 50% من الشيوخ و العلماء و الدعاة المعاصرين في أوغندا درسوا على الشيخ شعيب مباشرة.

لم يكن الشيخ شعيب من الذين إهتموا بالكتابة و التأليف و التدوين، بل إهتم بتكوين الرجال ليضمن استمرارية الدعوة، كما أنه أعد من بعض تلامذته من يكفيه هذه المهمة، و قد دفع ببعضهم إلى التأليف في العديد من الموضوعات، و قد قام أحد تلامذته مؤخرا بانجاز أول ترجمة لمعاني القرآن إلى اللغة الأوغندية،و هو الشيخ " عبد الرزاق ماتوفو "(*) و قد تم طبع هذا الإنجاز بـ " نيروبي " عاصمة كينيا.

كما تولى الشيخ شعيب العمل كمفتي لأوغندا و بموجب فتواه أتيح للنساء تعلم العلوم الدينية و الوصول إلى مرتبة شيخات[1].

و لا شك أن هذا العمل الجليل الذي إضطلع به الشيخ شعيب لخدمة الإسلام و المسلمين في العالم عامة و في أوغندا بوجه خاص،مازال يعطي ثماره و لا يمكن تقديره بثمن، و لا يستطيع أحد مهما كان أن يغمط الرجل حقّه كرجل علم و اصلاح ضمن استمرارية الدعوة إلى الإسلام و تعميق تعاليمه في الأجيال القادمة.

الشيخ طاهر الفولاني :

ولد الشيخ بمملكة " برنو " في موقع يدعى " ذات البقر "، شب بمسقط رأسه و تعلم بخلاوي المنطقة، لم يكتف بما حصّله من علوم و معارف في قريته وما لبث أن شد رحاله لطلب العلم على يد أحد شيوخ البلاد المشهورين و يدعى الشيخ " البكري "، جلس إليه يستمع إلى دروسه و مواعيظه و ينهل من معارفه، يلاحظ حركاته و سكناته، و لما شعر بكفايته و نضج فكره و حاجة بلاده إلى خدماته، عاد و تصدى للتدريس و الوعظ و الإرشاد و التربية، فذاع صيته و انتشر خيره بين الناس، نظرا لسعة علمه و تقواه و صلاحه، و بدعوته الناس بالحسنى و بموجب الشرع الإسلامي، فاستقامت على يديه جموع غفيرة

(*) – عبد الرزاق ماتوفو : هو تلميذ الشيخ شعيب و إبن محمد ماتوفو درس في الباكستان، تنقل بين مراكز العلم و عواصم البلاد العربية و صار عالما واسع الشهرة، تولى منصب الإفتاء بأوغندا. مقابلة شخصية مع الدكتور شارنو (السنغال) بقاعة ابن باديس بجامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، على هامش ندوة الجامعات الإسلامية، بتاريخ 9 شعبان 1409هـ الموافق لـ 16 مارس 1989 على الساعة الحادية عشر.

(1) د/بدرود كاتريغا : (علماء شرق إفريقيا و إسهاماتهم في الثقافة و الحضارة الإسلامية و العربية في القرنين التاسع عشر و العشرين)، ندوة العلماء الأفارقة، المرجع السابق، ص 272.

من الناس، و لما بلغ أمره سلطان برنو " Barnou " أرسل في إستدعائه و أحسن استقباله و أكرم وفادته و بنى له دارا داخل حصن " برنو " و أسكنه فيها و صار من خاصته. ثم أسند له بعض الوظائف في الدولة. نبغ الشيخ طاهر في علوم كثيرة،و كان له أثر محمود في الحياة الإجتماعية و السياسية، و ألّف كتبا عديدة شملت علوما مختلفة كالفقه و علم الكلام و السياسة و الأدب و التصوف، له أشعار جيدة و عدد من المؤلفات منها :

نظمه على الكبرى و شرحه، نظمه على الحاكم، الدرر اللوامع و منار الجامع. في التصوف.

ترجم له"محمد بيلو" في " انفاق الميسور "فأشاد به و بعلمه و وصفه بأنه عالم بالمعقول و المنقول، كما وصفه بالتقوى و الصلاح[1].

و لاشك أنه كان بالإضافة إلى هذه العلوم يتقن علوما أخرى كانت بلاد " برنو " " Barnou " قد اشتهرت بها في تلك الآونة، لذلك كانت البلاد قبلة علماء إفريقيا جنوب الصحراء، و قد برع علماء برنو في تلك الآونة بعلوم الأسرار و ضرب الرمل و الخوافي و علم السفلك.

و يبدو أن الناس إنساقوا وراء هذه العلوم الأمر الذي دفع بعضهم إلى التنبيه إلى خطورة الإشتغال بها، لأنها تصرف المسلم عن العمل الإسلامي الصحيح، و قد كان للرجل مواقف مشرفة في هذا المضمار، إذ كان له دور في التوجيه،لذلك قصد الناس مجلسه من داخل إفريقيا و حتى من خارجها، و لا يزال للرجل في عموم البلاد ذكر حسن، و لا نعرف عن تاريخ ميلاده و لا وفاته شيئا. و من هنا يمكن القول أن حركة إنتشار الإسلام في إفريقيا مردّها إلى عوامل عديدة،على رأسها الفاتحون و العلماء و الدعاة، و الفضل الأكبر يعود لهؤلاء الأخرين في ترسيخه و تحرير الإنسان و العقل الإفريقيين، و دفعهم إلى العمل و الجد و التكيف مع الواقع و تغييره نحو الأحسن، كما يبين أن المثقف الإفريقي نشيط و جاد و واع بوجوده حازم في مواجهة الأخطار، لذلك ظل العلماء و الدعاة يواجهون الظلم و الجمود و ينيرون الطريق أمام الشعوب غير عابئين بما يواجهون من مشاق في سبيل آداء دورهم.

---

(1) – أحمد محمد كاني : المرجع السابق، ص 22.

خاتمة الفصل :

بعد أن عرضنا تاريخ بداية ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية، و دخوله أولا إلى شرق القارة الإفريقية مع الطلائع الأولى للمهاجرين المسلمين، و بدأ ينتشر في تلك المناطق، بفضل الإتصال و الإحتكاك بين شعوب شرق القارة و سكان شبه جزيرة العرب عبر التبادل التجاري و الهجرات المختلفة للقبائل العربية، و لاسيما بعد حروب الردّة و سقوط الخلافة الراشدية، و تفاقم الصراع بين خلفاء بني أمية و العلويين، إذ شهدت المنطقة هجرات الزيدية و استقرارها، بالإضافة إلى مئات الدعاة الذين كانوا يجوبون أصقاع افسيحة من شرق إفريقيا، و قد انتشر الإسلام في شرق القارة عن طريق الدعوة بالحكمة و الموعظة الحسنة، فاقبل عليه الناس و اعتنقوه لما وجدوا فيه من بساطة و تسامح فحسن إسلامهم، و كان لذلك أثره الإيجابي في حياتهم.

لم يقتصر المد الإسلامي على شرق القارة و لم يقصّر المسلمون الأوائل - منذ بزوغ فجر الدعوة - في نشر رسالة الإسلام، فكانت الحملات المتتابعة على شمال القارة الإفريقية، فقد خضعت مصر في البداية للمسلمين و هبّ المصريون للدخول في الإسلام لما وجدوا في هذا الدين الجديد من بساطة و في أصحابه من تسامح، بعد معاناتهم الشّديدة مع البزنطيين، و إذا ما لاحظنا مقاومة الأمازيغ للإسلام في بداية الأمر، فإن هذه المقاومة سرعان ما تبددت و تلاشت بعد ما عرف السكان حقيقة الإسلام، و بفضل جهود قادة الفتح الأوائل من جهة و جهود الدعاة والمعلمين و العلماء الذين صاحبوا هذه الحملات تمكّن الإسلام من الإنتشار و التوسع، و رسخ في نفوس الأمازيغ لاسيما بعد استقرار الفاتحين و زيادة هجرة القبائل العربية إلى شمال إفريقيا و بناء مدينة القيروان من جهة ثانية.

لم يبق الإسلام حبيس هذا النطاق، إذ ما لبث أن امتد مع الأيام إلى وسط القارة و غربيها و بلغ حتى أقصى جنوبها، و ذلك نتيجة الإتصال و التعامل بين سكان شمالي الصحراء و جنوبيها عبر طرق القوافل التجارية التي كانت تعبر فيافي الصحراء الإفريقية و وهادها في وقت كان العالم المتمدن اليوم يعتبر الصحراء الحد الفاصل للقارة، و لكن جهود التجار و الدعاة و العلماء المسلمين و حيوية الإسلام و بساطته، مكّنت من إختراق هذا الحاجز الطبيعي المنيع حاملة الإسلام إلى سكان الأصقاع النائية، فتمكّن الدين الجديد من نفوس الأفارقة و اثّر في حياتهم، خاصة و أن هؤلاء الوافدين الجدد قد أسرعت سلوكاتهم و معاملاتهم الإنسان الإفريقي نتيجة إخلاصهم و نزاهتهم و صدقهم في التجارة من جهة، و بسبب نظافتهم و طهارتهم و حسن هندامهم و أخلاقهم و تنظيم أوقاتهم و أداء صلواتهم في إنتظام و خشوع و في مواقيت معلومة و حركات متّزنة من جهة أخرى.

و زاد من تعميق هذه الأفكار الدعاة و المعلمون و العلماء الذين كانوا يجوبون الفيافي، إذ كانت القوافل التجارية تحمل في ركابها عددا من هؤلاء الذين كانوا يعدّون بالمئات، و علاوة على ما سبق فقد كان لنزوح القبائل العربية و البربرية دور كبير في نشر رسالة التوحيد في القارة، إذ إستقر الكثير من هذه الهجرات

الفصل الثاني ـــــــ

أعقبت التدهور و الإنحطاط و زوال الدول و الإمبراطوريات الإسلامية في افريقيا، فهي تلجأ اليه كلما شعرت بالخطر يحدّق بها فتستغلّه لجمع الجماهير، و رصّ صفوفها و تستنفرها لإبعاد الخطر و القضاء عليه، و ذلك لما وجدت فيه من قوّة سحريّة و بأس شديد،فكان دائما المخلص و الدواء الناجع لكل المعضلات .

لذلك عادت هذه الحركات الى التراث و الموروثات الحضاريّة المستمدّة من العقيدة الإسلاميّة و استلهمت منها عناصر الوحدة و القوّة لمواجهة الزلزال الجارف المتمثل في الإستعمار الأوروبي الحديث، فكانت الحركات الإصلاحيّة الإسلاميّة التي وقفت في وجه هذا المد و التي سنتطرّق اليها في الفصول اللاحقة بالتفصيل .

و رغم محاولات طمس الاسلام و محاربته في كثير من الدول الافريقية و نشاط حركات التيشير المسيحية و من ورائها المنظمات والدول، إلا ان المستقل للإسلام في افريقيا رغم تقاعس المسلمين عن أداء واجبهم في هذا المضمار.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث :

حركة الشيخ عثمان بن فودي و منجزاته السياسية و الفكرية



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بعد ان تعرضنا في الفصل السابق إلى انتقال الدين الإسلامي وانتشاره في ربوع القارة الإفريقية مباشرة بعد ظهوره في شبه الجزيرة العربية و الطرق التي سلكها و الوسائل السلمية البسيطة التي استعملها، فانتشر على نطاق واسع، و في فترة زمنية قصيرة إذا ما قورنت بحجم الدّعوة و المساحة الجغرافية التي شغلتها، وبيّنا كيف كان للدين الجديد أثره الإيجابي في حياة الأفارقة إذ غيّر من أسلوب تفكيرهم ونظرتهم للحياة في جميع مناحيها و صورها الدنياوية منها و الدينية،فاندفعوا للعمل وفق هذه النظرة الجديدة فاستقامت أحوالهم و ساهموا بدورهم في نشره و بناء حضارات راقية في عموم افريقيا ولا سيما في جنوب الصحراء الكبرى. فربطوا شمالي الصحراء بجنوبيها رغم المناخ والطبيعة القاسية، وأسّسوا مراكز حضارية يشعّ منها نور العلم و المعارف المختلفة وثّقت صلاتها بباقي المراكز في العالم الاسلامي و العربي، و كان ثمار هذه الانجازات بروز علماء و دعاة و مصلحين أعطوا دفعا قويا لهذه الحركة.

وقد تعرّضت للتعريف ببعضهم و بالدور الذي لعبوه في اصلاح أحوال المجتمع و ما أضافوه من لبنات و أثار في بناء الصرح الحضاري الانساني خاصة بما خلّفوه من أعمال و انتاج فكري .

أما في هذا الفصل فسأحاول تقديم لمحة سريعة عن الحياة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية في افريقيا جنوب الصحراء بوجه عام و أخص السودان الغربي بوجه خاص. اذ لا يمكن ان نتعرض لاي دعوة أو حركة اصلاح اجتماعي في أي صقع دون معرفة الأوضاع التي كانت تسوده باعتباره الأرضية التي انطلق منها الدعاة و المصلحون للنهوض بشعوب هذه الربوع و تغيير أوضاعها.

ثم اخلص بعدها لتناول حركة من الحركات الدعوية والاصلاحية الاسلامية التى تشهدها منطقة غرب افريقيا في العصر الحديث، وكان لها عظيم الأثر في احداث تحوّل جذري، وثورة احدثت نقلة نوعية في ثقافة و فكر المجتمع الافريقي الحديث، ونهضت بالاسلام وحاولت بعثه من جديد على يد الشيخ "***عثمان دان فودي***" الذي لم يدّخر جهدا في سبيل خدمة الاسلام والمسلمين، وأحاول من خلالها ان اعرّف بشخص الداعية وجهوده في الاصلاح وجهاده لإقامة دولة اسلامية في القارة الافريقية.

الاوضاع العامة في افريقيا جنوب الصحراء :

انتشر الدين الاسلامي في ربوع واسعة من القارة الافريقية، و لم يقتصر على شمال الصحراء بل تجاوزه الى ما وراء الصحراء الإفريقية الكبرى، وتغلغل في نفوس سكّان تلك المناطق الواسعة، وبنيت دول وممالك اسلامية على انقاض الامارات الوثنية التي كانت قائمة في تلك الربوع[1].

وبلغت هذه الممالك الاسلامية من القوة والازدهار والتقدّم والتنظيم ما لم تعرفه ممالك المنطقة من قبل، ومن

---

(1) – نعيم قداح : حضارة الاسلام وحضارة اوربا في افريقيا الغربية، ط 2، (ش.و.ن.ت) الجزائر،1975، ص.ص. 85 . 86.

بين هذه الممالك مملكة " غانا " (*) التي ذاع صيتها نظرا لسعة مساحتها وقوة بأسها. ودولة "مالي" (**) التي لعبت دورا بارزا في نشر الدعوة الاسلامية في المنطقة وخاصة زمن حكم منسى موسى (707هـ 1307م ، 733هـ 1332م) الذي حج عام (723هـ.1324م)، وما زال موكب حجّه مثار مفخرة للمسلمين عامة وسكان منطقة غرب افريقيا بوجه خاص [1]، فقد استطاع هذا السلطان ان يمد نفوذ دولته الى مدينة "غاو" " Gaou " في النيجر حاليا، ويقطع الصحراء الكبرى ليصل الى افريقيا الاستوائية، وقد نعمت هذه الدولة بالإستقرار زمنا طويلا ثم امتد اليها الضعف والوهن فانهارت[2].

و قامت على انقاض دولة مالي "مملكة صنغاي" التي قيض الله لها ملوكا عرفوا بالجد و التقوى والصلاح فلعبت المملكة في عهدهم دورا كبيرا في نشر الاسلام وحماية المسلمين على غرار اسلافهم في دولة مالي، فتوسعوا جنوبا و ظلوا يمارسون هذا الدور حتى القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، لكن لم يقدّر لهذه الدولة ان تستمر طويلاوذلك ان المنصور السعدي سلطان مرّاكش (986هـ1578م ، 1012هـ1603م)[3] بعدانتصاره على البرتغاليين في معركة وادي المخازن (986هـ.1578م)[4] وجه حملة كبيرة بقيادة جودار باشا.الى" صنغاي " ودخل " عاصمتها تمبوكتو " " Tumboucto " و قضى على ما بقي من ملوكها في عام (1000هـ.1591م) وبذلك ينتهي دور هذه الدولة الاسلامية [5].

وعلى أثر هذا الغزو المدمّر الذي دك فيه اركان المدينة وأهان العلماء المسلمين هنالك اضطربت الأحوال في المنطقة وساءت الاوضاع الاقتصادية و تدهورت الحالة الإجتماعية و الثّقافية و ذلك بسبب التدمير الشّامل للمنشآت بالإضافة للعزلة الإقتصادية فانخفض مستوى المعيشة وانتشر الفقر والبؤس وتشرّد العلماء والمثقفون في الأصقاع، وسجن رجال الدعوة والاصلاح، كما فرّ أغلب المهتمين والمشتغلين بحقول العلم والمعرفة والقائمين على مختلف الفنون والحرّف والصناعات الى المشرق الاسلامي.

---

(1) – Robert et Marianne Cornevin : Histoire de l'Afrique.des Origines a nos jour 2em, edition petit bibliotheque.payot. paris. 1966.p p.134-135.

(*) – غانا : ليست جمهورية غانا الحالية.: وكانت تضم موريطانيا حاليا والسينغال و جزء من جمهورية مالي وربما غينيا، نشأت خلال القرن الثالث عشر الميلادي، وغانا في الأصل اسم لملوكها، انظر.: بازل دافيدسن.افريقيا تحت اضواء جديدة، مرجع سابق، ص183.

(**) – مالي : امبراطورية شكّلها المند نجو أي قبائل مالي وتضم جمهورية مالي حليا والسنيغال الشرقي وشمال غينيا وشمال كل من بوركينا فاصو وبنين واقصى جنوب موريطانيا، تأسست سنة (1225م)، واستمرّت حتى النصف الثاني من القرن 16 الميلادي ، انظر: عبد القادر زبادية مملكة صنغاي في عهد الاسيقيين (1493 ، 1591) (ش.و.ن.ت) .الجزائر. 1971، ص.ص21 -24.

(2) – د/.عبد الحي عبد الحق : (دخول و انتشار الاسلام في السودان الاوسط)، ندوة العلماء الافارقة، المرجع السابق، ص.119.

(3)– عبد القادر زبادية : مملكة صنغاي في عهد الاسيقين (1493هـ-1591م)، مرجع سابق،ص.ص 24-25.

(4) – احمد بابا التمبكتي : المرجع السابق، ص 16.

(5) – احمد بابا التمبكتي : المرجع السابق، ص ص 13-14 .

وفي ظل هذه الظروف السيئة سيطر الرماة المغاربة على الثروات والأملاك وكوّنوا طبقة ارستقراطية ممتازة تمكّنت من السيطرة والتحكم في جميع مناحي الحياة المختلفة في البلاد.

في هذ الجو المتعفّن والمنذر بالانهيار التام والشامل ازداد الأمن تدهورا فاغتنم البدو الطوارق هذا المناخ وقاموا شاهرين سيوفهم يشنّون الغارة تلو الغارة على المدن الاسلامية هنالك ليزيدوا في خراب عمرانها ودمار منشآتها وسلب و نهب ثرواتها وقتل وتشريد سكانها، وهكذا انقسمت دولة صنغاي وتشتتت الى قبائل وعشائر يسود بينها التناحر و التطاحن والصّراع، فلم يعد هناك نفوذ لدولة في المنطقة يفرض سلطانه ويجمع شتاة بطون و قبائل تلك الربوع تحت راية واحدة و قيادة يخضع لها الجميع [1] .

في ظل هذه البيئة الإجتماعية الفاسدة التي تتحكم فيها الحروب و الصراعات و التقاليد المحلية السّاعية لتحقيق الأغراض الدنياويّة،انتشرت البدع و الخرافات و الأباطيل و العادات الوثنية فاختلطت و لا سيما هذه الاخيرة بتعاليم الدين الاسلامي الحنيف، فاضحى الحكّام لا يفقهون من أحكام الشريعة و أوامر الدين إلاّ قليلها، و لم يتوقف الخطب عند هذا الحد بل تقلّد السلطة حكّام وثنيون ،فزاد ابتعاد السكان عن تعاليم الشريعة الاسلامية التي كانت حائلا بينهم و بين ارتكاب المعاصي و عاصما لهم من اقتراف المنكرات فانتشرت الفواحش و تعمّقت الرذيلة و تجذّرت فتفاقمت أعمال السطو و العدوان و الصراعات المستمرّة الدائرة على السلطة خلال القرنين التاليين الحادي عشر و الثاني عشر الهجريين، السابع عشر و الثامن عشر الملاديين [2] .

و لعل الجماعة الوحيدة التي ظلّت متمسكة بالإسلام و قيمه هي جماعة الفلاني[*] التي اختلف المؤرخون في نسبهم. فقيل من صعيد مصر، و قال بعضهم من أصل هندي او فنيقي أو يهودي[3]. و هذه الجماعة هي التي انبرى رجالها لمقاومة الشرور حاملين أعباء نشر الدّعوة، فصار منهم المدرسون و القضاة و الأئمة و المصلحون، و لعب الفولانيون دورا بارزا و جهدا معتبرا لبعث و نشر الدّعوة من جديد بين حكّام مسلمين شكلا و مظهرا فقط، و اعطوا دفعا كبيرا للإقتصاد في المنطقة، اذ كانوا مزارعين نشطين كذلك .[4]

---

(1) – عبد القادر زبادية : مملكة صنغاي في عهد الاسيقيين (1493 – 1591)، مرجع سابق، ص 105 .

(2) – عبد القادر زبادية : نفس المرجع، ص 52 .

(*) – الفلاني او الفولي او الفولبة : ويسمون انفسهم الهوسا قدموا الى المنطقة من الغرب في القرن الثالث عشر الميلادي و كانوا مقسمين الى البوروجي أي فلاني البقر و هم وثنيون، وفلاني الجيدا أي المدينة و هم مسلمون، انظر زاهر رياض : الممالك الاسلامية في غرب افريقيا و اثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، مكتبة الانجلو المصريّة، القاهرة، 1968، ص 290 .

(3) – عبده بدوي : (دول اسلامية في افريقيا)، مجلة منبر الاسلام، العدد 06، السنة21، (1383هـ، 1963م)، ص 74.

(4) – عبده بدوي : (دول اسلامية في افريقيا)، نفس المرجع، ص 74.

برز من بين هذه الجماعة داعية رفع راية الجهاد الاسلامي ضد الوثنيّة و الوثنيين و تصدى للحكام المسلمين المتخاذلين الذين رغبوا عن تطبيق الشريعة الاسلامية السمحاء مكتفين بما عرفوه من مظاهر الاسلام الشكلية.

و يعد ظهور الداعية المصلح عثمان دان فودي بداية لمرحلة جديدة و صحوة كبرى في تاريخ الاسلام و المسلمين في غربي افريقيا حيث تبلورت فكرة إحياء العقيدة و بعثها من جديد و تعمّقت في نفوس الدعاة فكرة رفع راية الجهاد (1).

أسباب ظهور فكرة الاصلاح و الجهاد في افريقيا جنوب الصحراء :

لعلّ أهم ميزة تميّز بها القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي في افريقيا جنوب الصحراء هي ظهور فكرة الجهاد الاسلامي و نشر الدعوة و اصلاح العقيدة الاسلامية و تنقيتها من شوائب و طقوس وثنيّة، و التطلّع الى اقامة دول و حكومات اسلاميّة تحكم المسلمين بموجب الشريعة و التمكين لدين الله. و يمكن ان نجمل أسباب نمو فكرة الجهاد بين مسلمي افريقيا جنوب الصحراء في العوامل الآتية :

- الإنتشار الواسع للبدع و الأباطيل و الخرافات، وامتزاج العقيدة الاسلاميّة بطقوس الوثنيّة و الافكار الاحيائيّة و تقديس الموتى و عبادتهم و التمسّح بالقبور و التبرّك بالأضرحة و بناء القباب، و التزلّف للأولياء و الصالحين، و تقديم القرابين لهم، والايمان ببعض المظاهر الطبيعية و الشعوذة،و عمّت هذه الظاهرة مساحات شاسعة من القارة الافريقية و لا سيما جنوب الصحراء.

- انتقال بعض الزعماء و طلبة العلم من مناطق افريقيا جنوب الصحراء صوب حواضر و مراكز الثقافة الاسلاميّة كالأزهر الشريف بالقاهرة لتلقي العلوم و المعارف، ولمّا عادوا الى أوطانهم عادوا و كلّهم عزم و حماس لنشر الدين الاسلامي و اصلاحه و تنقيته مما علق به من أدران.

و الحق ان الازهر الشريف قد لعب دورا كبيرا في خدمة الاسلام و المسلمين حيث اصبح محط أنظار المسلمين و قبلة طلاب العلم في مختلف الاقطار الاسلاميّة منذ تأسيسه على أيام الفاطميين (287هـ 909 م ، 567 هـ 1071م)، هذا علاوة على الدور الذي لعبه كل من جامع الزيتونة بتونس، وجامع القرويين بفاس .

- الحج : لعب الحج الى البقاع المقدسة دورا بالغ الاهمية في تكوين الدعاة و المصلحين، وهذا بفضل الاحتكاك و الاتصال المباشر، اذ كثيرا ما كان حجاج المنطقة يحطّون رحالهم في البقاع المقدّسة قد تدوم لفترات طويلة، كما كانوا يتوقّفون في مصر أيضا فيتعرّفون فيها على الحضارة العربيّة الاسلاميّة و ما بلغته من رقي .

---

(1)- Robert et Marianne Cornevin : Histoire de l'Afrique Des origines anos jour 2eme edition. Petit Bibliotheque. Payot. Paris 1966 P253

و يذكر *بونتي* " Pontier " - أحد حكام افريقيا الغربيّة الفرنسيّة - إذ يقول[1] : "*ان هذه الفريضة تحدث تشويشا في أذهان الافارقة و تبدّل من نفوسهم للتقائهم بإخوانهم المسلمين فتقرّي في ذهنهم روح النّضال و الثورة*" .

- ظهور وانتشار المراكز الثقافية الاسلامية في منطقة افريقيا جنوب الصحراء و خصوصا في غربها حيث انتشرت على نطاق واسع و زاد نشاطها لا سيما في مدينتي "*سوكوتو*" Socoto "*وحمد ا لله*" فكان لهذه المراكز الفضل الكبير في انارة الطريق لسكان المنطقة وابراز فكرة الجهاد في الاسلام واسمى انواعه وفضله على المسلمين قال تعالى[2] : "*فضل ا لله المجاهدين بأموالهم وانفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد ا لله الحسنى وفضل ا لله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما*".

- الطرق الصوفية : زاد نمو و نشاط هذه الطرق وشمل انتشارها نطاقا واسعا من افريقيا جنوب الصحراء وخاصة منطقة السودان الغربي حيث كانت مسرحا للطريقة القادرية، والتيجانية، والسنوسية، وغيرها. وقد لعب اتباع ومريدوا هذه الطرق الصوفية دورا معتبرا في نشر الاسلام،كما وقفوا فيما بعد في وجه الغزو الاروبي الصليبي للمنطقة . رافعين راية الجهاد عازمين على استخدام القوة والسلاح لصد زحف الغزاة، منادين بالنفير والعدّة مصداقا لقوله تعالى[3] : "*واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو ا لله وعدوكم*".

- تبلور الوعي والدعوة للجهاد : فقد عمّت الدعوة الى هذه الفريضة جل المناطق الإفريقية و لم تقتصر على منطقة دون سواها، بل شملت معظم جيهات القارة،ونتج عن انتشارها حدوث ثورة جذرية مسّت عمق و مختلف جوانب الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية والدينية.

لقد تفاعلت هذه الاسباب وانصهرت في بوتقة واحدة فاستغلتها الحركات الاصلاحية والدعوية العديدة ووظفتها أحسن توظيف فانساقت خلفها الجماهير الشعبية الغفيرة تتطلع من خلالها لتحقيق ما كانت تطمح اليه من تغيير وتسعى الى تحقيقه من أجل مستقبل أفضل .

واذا ما استعرضنا التاريخ السياسي لمنطقة إفريقيا جنوب الصحراء خلال القرون المتأخرة يتضح لنا

---

(1) - د/ الهام محمد علي ذهني : جهاد الممالك الاسلامية في غرب افريقيا ضد الاستعمار الفرنسي (1850-1914)، دار المرّيخ، الرياض، 1988، ص 37.

(2) - سورة النساء : الآية 95.

(3) - سورة الانفال : الاية 60.

جليا ظهور عدد من العلماء و الدعاة والزعماء المصلحين الذين أدوا دورا كبيرا في احياء الدعوة وبعثها، ونشر الاسلام بين الوثنين،وتنقية اذهان الناس من الشوائب و الخرافات،وصدهم عن ممارسات لا علاقة لها بالاسلام، ولم تتوقف جهودهم عند هذا الحد، بل راحوا يسعون لتأسيس دول وممالك قائمة على أركان الشريعة الاسلامية السمحاء .

وبالرغم من هذه الاعمال الجليلة والاعباء الشاقة لم تلههم عن التصدي و الوقوف في وجه الاستعمار الأروبي الصليبي الغاشم الذي يداهم البلاد، وبذلك نجد التاريخ الإفريقي الحديث حافلا باسماء دعاة مناضلين ومصلحين مسلمين دوّخوا جنيرالات وضباط اروبيين تخرجوا من كبريات المدارس والكليات العسكرية مدعومين بقوات مدجّجة بأحدث الأسلحة الفتاكة وعلى مستوى متقدم من التدريب العسكري، أمام زعماء مصلحين سلاحهم الصبر و الايمان بالله وبقضايا الامة والوطن. ومازالت اسماء هذه الزعامات عالقة بأذهان أساطين الفكر والسياسية و العسكرية في أروبا كإسم - عثمان بن فودي - و الحاج عمر تال، وساموري توري وغيرهم كثيرون .

وهكذا عرفت افريقيا جنوب الصحراء حركة واسعة ونهضة شاملة في إطار الاصلاح الديني والاجتماعي والثقافي،أدّت في نهاية المطاف الى قيام دول إسلامية مازال التاريخ يشهد على عظمة شموخها وما بلغته من قوة وتنظيم وحضارة، وعلى عبقرية مؤسسيها ومنهم الداعية الاسلامي "***عثمان دان فودي***"، فمن هو هذا المصلح والداعية الكبير ؟ وماهي أصوله ؟

الشيخ عثمان بن فودي(*) :

حيـــاته :

ولد هذا المصلح الإفريقي العظيم "***عثمان دان فودي بن صالح***" بقرية "***مـــرت***" (Maratta) بأرض "***جالي***" " Gualmie " من أعمال " جوبير " " Guobir "ولاية " سوكوتو " بشمال نيجيريا الحالية(**). في يوم الاحد 29 من شهر صفر 1168هـ الموافق ليوم 17 من شهر نوفمبر سنة 1754م (1).

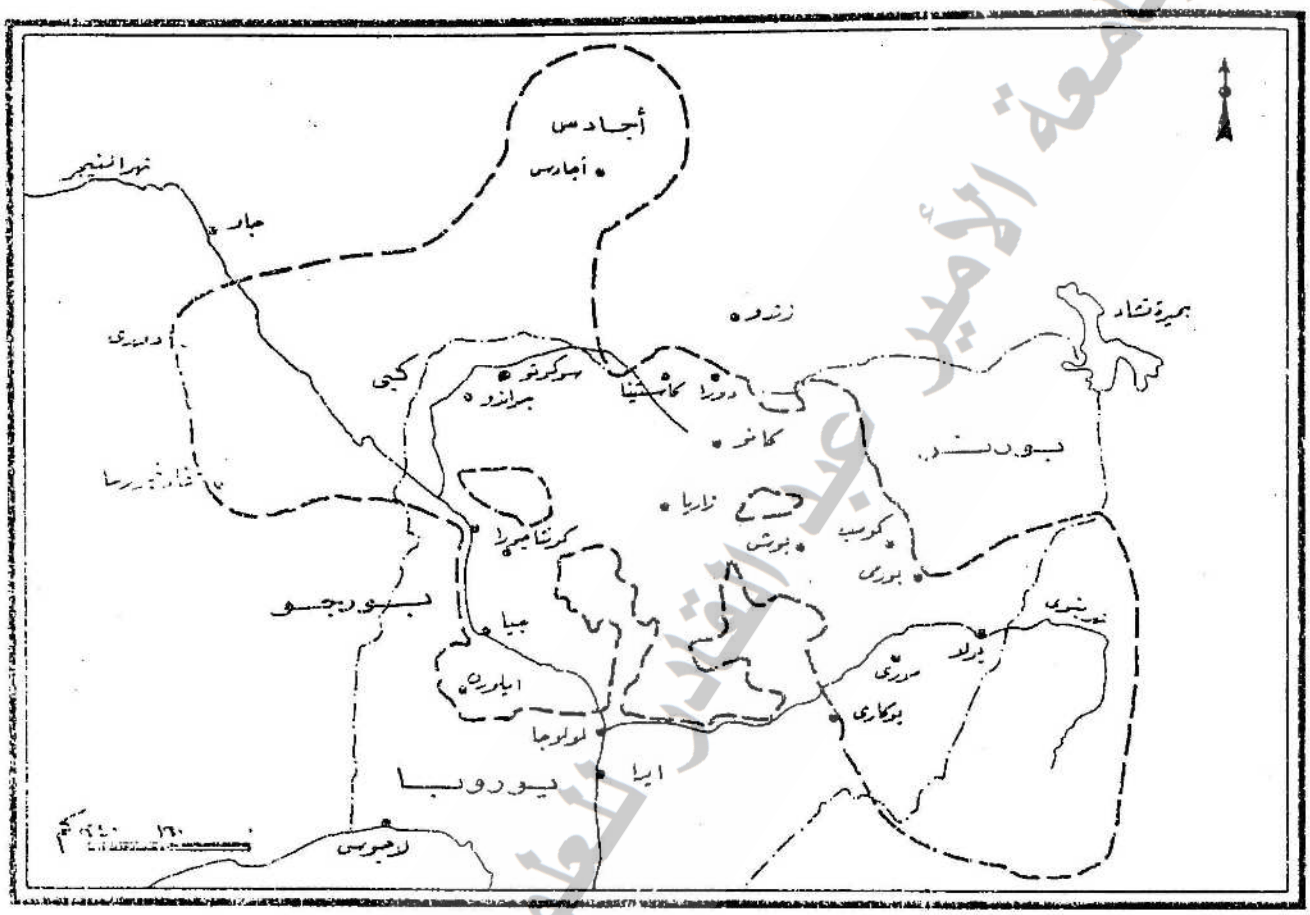
نشأ عثمان في أحضان أسرة علمية توارثت العلم أب عن جد منذ القرن التاسع الهجري، الخامس عشر ميلادي، هاجرت قبيلة فودي الفولانية إلى بلاد الهوسا، من فوتاتورو " Foutatorou " الواقعة على نهر السنيغال بقيادة " موسى جكل " الجد الأكبر للشيخ، الذي جاء بمجموعته إلى جوبير "Goubir".

(*) - فودي : تعني في لغة قبائل الفولانيين الفقيه، أنظر : أحمد محمد كاني، المرجع السّابق، ص 59.

(**) - أنظر الشكل رقم (5)، ص 88.

(1) - Robert et Marianne Cornevin : OP. Cit. P, 258.

الشكل (5)



إمبراطورية الفولاني

عن د/ إلهام محمد علي دهني، ص 230

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أمّا أسباب الهجرة فتذكر الرّوايات أن هجرة الفولانيين من منطقة فوتاتورو " Foutatorou " و فوتاجلون " Foutadjloun " يعود إلى أسباب سياسية و إقتصادية [1] و هذا ما تؤكّده معظم الروايات، " فأحمد كاني " أحد أبناء المنطقة يقول [2] : "***إن الصّراع على السّلطة في مناطق فوتاتورو و فوتاجلون هو الذي أجبر مجموعات كثيرة من الفولانيين على الهجرة إلى الشرق بحثا عن المراعي و عن أوضاع سياسية أفضل***" .

و من هنا يمكن أن نستشف بوضوح أن هجرة قبيلة فودي كانت ضمن جزء من هجرات جماعية شهدتها منطقة افريقيا الغربية على فترات زمنية مختلفة.

تعليمه :

بدأ عثمان تعليمه كبقية أقرانه من طلبة العلم في ذلك الزّمن، فقد إتّجه إلى الكتّاب و حفظ القرآن الكريم على يد والده الشيخ " محمد فودي "، كما درس علوم اللّغة العربية و العلوم الإسلامية من فقه و أصول و تفسير و حديث، على يد أستاذه الشّيخ عبد الرحمن حمدا و بعض أعمامه[3]، كما درس على جدّته رقية و أمّه حوّاء[4]. ثم راح يتنقل من بلد إلى بلد، و من شيخ إلى آخر في سبيل جمع العلوم و الإستزادة من المعارف على عادة طلاب عصره، حيث كانوا يعتمدون في الدّراسة أساسا على أستاذ متضلّع في علم من العلوم أو فن من الفنون، و بعد إجازتهم ينتقلون إلى شيخ آخر و هكذا[5]. و لا تقف عملية الأخذ عند سن محدّدة أو فنّ معيّن واحد، بل هي عملية متواصلة يستوعب فيها الطّلبة العديد من المؤلّفات و المصنّفات و يتفقّهون في العلوم المختلفة على فترات متقاربة أو متباعدة زمنيا.

على هذا المنهاج تعلّم و درس عثمان مختصر خليل على عمّه الشيخ عثمان بن الأمين الملقّب بـ : بيدور " Budouri " و لم تتوقف شهرة هذا الشّيخ على معرفته العميقة بـ " مختصر خليل " و فهمه للعلوم الإسلامية، بل إشتهر أيضا بورعه و تقواه و دعواته للإصلاح عن طريق الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر مصداقا لقوله تعالى[6] : "***كنتم خير أمّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و تؤمنون بالله و لو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون و أكثرهم الفاسقون***" .

---

(1) – Y.Urvoy : Histoire de la Population du soudan central colonie du niger, Librairie Larose. Paris 1936. P 274

(2) – أحمد محمّد كاني : المرجع السّابق، ص 59.

(3) – د/ أحمد ابراهيم دياب : لمحات من التّاريخ الإفريقي الحديث، مرجع سابق، ص 204.

(4) – حسن أحمد محمود : الإسلام و الثّقافة العربية في افريقيا، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986، ص 261.

(5) – ذكر الشيخ في أسانيده أساتذته الذين تأثّر بهم، حتى الذين لم ترد أسماؤهم في الراجع، أنظر : د/ عمر عبد الرازق النقر : (دراسة أوّلية في أسانيد الشيخ) ندوة العلماء الأفارقة، مرجع سابق، ص 350.

(6) – سورة آل عمران، الآية 110.

و قوله صلى عليه و سلّم[1] : " ***من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، و إن لم يستطع فبقلبه و ذلك أضعف الإيمان*** ".

لقد تأثّر عثمان بعمّه فلازمه مدّة حولين كاملين، نهل من ينبوع علمه و تطبّع بطباعه و سجاياه الحميدة.

و لم يلبث عثمان أن غادر مدرسة عمّه و رحل إلى الشيخ جبريل بن عمر الأغديسي[*] و كان من أفاضل علماء السودان و أغزرهم علما و فصاحة، فصاحبه في حلّه و ترحاله مدّة سنة كاملة يرتوي من ينبوع علمه المتدفّق و يستفيد من تقواه و ورعه و تصوّره الإسلامي [2].

كان لهذا العالم الجليل الأثر الفعّال في تكوين شخصية عثمان علميا و فكريا و حركيا، و لمّا عزم الشيخ جبريل على شدّ الرّحال لأداء فريضة الحج ،كان إبن فودي على ما يبدو ينوي مصاحبة أستاذه إلى البقاع المقدّسة، فمنعه من مصاحبته و أمره بالعودة لعدم استئذان والده في الذّهاب بمعيته إلى الحج.

و لعل هذا الصدّ من أستاذه هو الذي فجّر قريحته و أثار أشجانه لينظّم قصيدة عدّها المهتّمون بإنتاج عثمان باكورة مؤلّفاته و هذه أبيات من القصيدة : [3]

هل لي مسير نحو طيبة مسرعا *** لأزور قبر الهاشمي محمد

لما فشا رباه في أكنافها *** وتكمّش الحجّاج نحو محمّد

غدوت (منهل) الدموع مزبّدا *** شوقا إلى هذا النبي محمد

أحكي المصاب بشوقه *** مالي سرور دون زورة سيد

و من خلال هذه الأبيات الشعرية تبدو لوعة الشوق و الحنين لزيارة البقاع المقدّسة و الوقوف على قبر الرسول (ص)، كما توضّح أيضا أن " عثمان بن فودي " لم يحج بيت الله الحرام كما ورد في بعض الكتابات، و هذا ما يؤكّده محمد الأوّل أبو بكر، و الدكتور الفضل كلود آل دكو [4] و هما من أبناء المنطقة، و هو خلاف لما ذهب إليه بعض المؤرّخين من أن عثمان قد حجّ فعلا إلى البقاع المقدّسة.

لم يتوقّف عثمان عن طلب العلم فذهب يدرس علم التفسير على كل من ابن خاله أحمد بن محمد

---

(1) – سنن أبي داود : ج1، ص 295، الحديث رقم 1140.

(*) – أنظر التعريف به في الفصل السّابق.

(2) – د/ عبد الرحمن عمر الماحي : المرجع السابق، ص 128.

(3) – أحمد محمد كاني : المرجع السابق، ص 63.

(4) – مقابلة شخصية مع كل من الأستاذين : د/ الفضل كلود آل دكو : مدير الجامعة الإسلامية بالنيجر. و د/ محمد الأوّل أبو بكر، جامعة كانو نيجيريا على هامش ملتقى ندوة الجامعات الإسلامية المنعقد بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر بتاريخ 10 شعبان عام 1409 هـ الموافق 17 مارس 1989 م على الساعة 11 و 30د.

الأمين و الأستاذ هاشم الزّنفري، و كلاهما شهد له بقوّة الحفظ و شدّة الصبر و الجلد في الطلب، ثم إتّجه بعد ذلك إلى علوم الحديث فدرس صحيح البخاري على يد خاله " بن مود بوعال "، و أجازه فيما روى [1]، و من خلال هذه الرحلة الطّويلة الحافلة بالنّشاط و الجد و الإجتهاد في سبيل تحصيل العلوم

و المعارف، و مصاحبة العلماء و الأخذ عنهم، و إجازاتهم له، و لاسيما و أن هؤلاء العلماء الذين تتلمذ عليهم كانوا أعلام عصرهم و مشهود لهم بالعلم و الفضل.

و من هنا نلاحظ أن هذا الرّجل – ابن فودي – قد بلغ مرحلة متميّزة من النضج بفضل ما حصل عليه من علوم و معارف و ما اكتسبه من خبرة في معالجة المسائل الدينية و القضايا الإجتماعية، مما أهّله ليكون داعية و مصلحا في بيئة موبوءة، بعد أن تفشّت فيها البدع و الخرافات، و انتشرت فيها المفاسد الأخلاقية،و نسي النّاس أصول الدين الإسلامي الحنيف، و صار الحّكام لا يعيرون الدين أدنى إهتمام، بل تسلّم مقاليد السّلطة في البلاد وثنيون لا يعرفون من الدين الإسلامي إلا اسمه.

في هذا الجو المتعفّن انبرى الدّاعية المصلح عثمان بن فودي لإصلاح المجتمع و الدين و السياسة بتنقية الإسلام من الإدران و الأباطيل و تطهيره مما علق به من دنس البدع و السّحر و الشّعوذة، و احياء الكتاب و السّنة النبوية و تطبيق الشريعة الإسلامية،و بناء دولة إسلامية على غرار الخلافة الراشيدية [2].

و من خلال دراستنا لهذه الحركة الإصلاحية الإسلامية لاحظنا أنّها مرّت بأدوار متمايزة يمكن حصرها فيما يأتي

أدوار بناء الدولة

1 – الدّور الأوّل : إنطلاق الدّعوة و منجزاتها (1198 هـ 1784 م، 1218 هـ 1803م) :

أخذ الشّيخ في هذه المرحلة يدعو الناس إلى الدين الإسلامي الصحيح، و تطهير عقائدهم من الشّرك و الخرافات و اتّباع سلوك السّلف الصالح و كانت وسيلته في ذلك التعليم و الوعظ و الإرشاد. و في سبيل نشر دعوته تجشّم الصّعاب فشدّ الرّحال متنقّلا بين المدن و القرى داخل بلاد الهوسا ليطلع بنفسه عن كثب على جوانب الحياة المختلفة التي يعيشها النّاس ليستبين أساليب نشر الدّعوة و ارساء قواعدها، و لكسب النّاس و اصلاح المجتمع[3].

---

(1) – أحمد محمّد كاني : المرجع السابق،ص 63.

(2) – د/ عبد الله عبد الرازق ابراهيم : الحركات الإصلاحية في غرب افريقيا في القرن التاسع عشر، نشر البحوث و الدراسات الإفريقية، القاهرة، 1983، ص 4.

(3) – د/ عبد الرحمن عمر الماحي : المرجع السابق، ص 129.

و تذكر المراجع أن الشيخ عثمان أثناء تنقّلاته كان عازفا عن زيارة الملوك و الحكّام، و يستنكف ملاقاة أصحاب النفوذ و السلطان و لا يتعامل معهم و لا يتدخّل في أمورهم السياسية متفرّغا لتربية النّاس و توجيههم، شارحا لهم قواعد الإسلام بأسلوب الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر،مركّزا على مهاجمة رذيلتين أنتشرتا في السودان الغربي. هما شرب الخمر، و فساد الأخلاق[1].

و في خضّم هذه الإنشغالات دعاه باوا " Bawa " ملك جوبير " Goubir " إلى البلاد ليعلّم أبناءه فزاد هذا من شهرته و ذيوع صيته و ارتفاع مكانته بين العامة و الخاصة [2].

إتّخذ الشّيخ عثمان من بلدته ديجل " Déguel " منطلقا لنشر دعوته [3] و قد ساعده في ذلك نفر غير قليل من الأتباع و تلاميذه المخلصين الذين آمنوا بأفكاره و دعوته الإصلاحية.

و لعلّ ما يؤكّد هذا القول ما كتبه أخوه و تلميذه عبد الله بن فودي الذي لازمه و لم يفارقه منذ صباه إلى أن بلغ الخمسين من عمره إذ يقول [4] " ... ***ثم قمنا مع الشّيخ نعينه على تبليغ الدين، يسير لذلك شرقا و غربا يدعو النّاس إلى دين الله بوعظه و قصائد عجمية، و يهدم العوائد المخالفة للشرع، فيأتي إليه بعض النّاس من الآفاق و يدخلون في جماعته و نحن في بلده ...*** ".

كما كانت له مراسلات مع زعماء و شيوخ قبائل الفولاني يشرح لهم فيها أفكاره داعيا آياهم بالرّجوع إلى تعاليم الدين الإسلامي الحنيف و تطبيقها في حياتهم.

و أثناء رحلته زار مدينة كبّي " Kebbi " و دعا النّاس فيها إلى الإصلاح و الإيمان و الإحسان و ترك الرّذائل ما خفي منها و ما ظهر. و وجدت دعوته هناك سبيلها إلى نفوس النّاس و سكنت عقولهم فعاد عدد غير يسير منهم إلى الله، بعد أن سمعوا دروسه و مواعظه المؤثّرة و إرشاداته السّليمة، فتخلوا عن البدع و الخرافات و نفروا من المشعوذين و طقوسهم التي عمّت معظم نواحي البلاد منذ قرون خلت.

و لمّا كان الشيخ يعود إلى "ديجل " كان الناس يتقاطرون عليه جماعات و فرادى مستمعين إلى دروسه و توجيهاته.

و بعد ان أحدث الشيخ يقظة فكرية عامة في كلّ من" كبي " و " ديجل " شدّ الرّحال ميمّما وجهه شطر إقليم " زمفر " " Zemfar " الذي كان تابعا لإمارة " جوبير " و يرزح هو الآخر تحت ظلام الوثنية و البدع و الخرافات البعيدة عن الإسلام[5]، و راح يلقّن سكّانه دروسا في الدّعوة الإسلامية و ينفخ فيهم من

---

(1)- توماس أورنولد : المرجع السابق، ص 360.

(2) - Y. Urvoy : OP. Cit P. 274.

(3) - Y. Urvoy : IBID. P.274.

(4) - أحمد محمّد كاني : المرجع السّابق، ص 67.

(5) - د/ الهام محمد علي ذهني : المرجع السابق، ص 68.

روح الإصلاح و النهضة لينفض عنهم غبار الجمود و يعيدهم إلى جادة الإسلام الصّحيح و اخراجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان. و مكث بالمنطقة خمس سنوات .

موقف الشّيخ عثمان من تعليم المرأة :

نظرا لحداثة سكّان تلك الأصقاع بالدين الإسلامي و تعاليمه السّامية، فقد كانوا يأتون إلى مجالس الوعظ مصحوبين بنسائهم. فعاب بعض العلماء على الشّيخ و أتباعه هذا المسلك المشين و عدّوه مخالفا لتعاليم الشّريعة الإسلامية، كما إعتبروا دروسه بداية لإنتشار المفاسد و شيوع الرّذائل في أوساط المجتمع. و ادّعى ذوي النّفوس الشّريرة و النّيات السيئة أن مجالس الشّيخ هذه تحوّلت إلى أوكار للرّذيلة و الفساد و الإنحلال الخلقي، و إزدادت المعارضة للشّيخ و دعوته هذه، إذ أخذ خصومه بنظّمون القصائد الشّعرية و يشهّرون بهذا السّلوك للتّنقيص من قيمة حركته. فأنشأ الشّيخ " المصطفى القوني " أبياتا يطلب فيها من الشّيخ أن يحول بين مجلسه و النّساء يقول فيها [1] :

أيا إبن فودي قم تنذر أولي الجهل *** لعلّهم يفقهون الدين و الدّنا

فأمنع زيارة نسوان لوعظك إذ *** خلط الرّجال نسوان كفى شينا

لا تفعلن ما يؤدي للمصائب إذ *** لم يأمر الله عيبا كان يؤذينا

لم يتقبّل الشّيخ هذه التّهمة المنسوبة الى شخصه و مجالس علمه و وعظه، وعدّها قذفا مباشرا له و افتراء على مجالسه الموقّرة، خصوصا ان هذه التهمة تفتقر الى السند الصحيح و الدليل الشرعي القاطع، فاشار على اخيه عبد الله بالرد على هذه الدعوى فانشأ قصيدة بنفس الوزن و القافية للرّد على الخصوم و ممّا جاء فيها : [2]

يا أيها ذا الذي قد جاء يرشدنا *** سمعا لما قلت فاسمع انت ما قلنا

نصحت جهدك لكن ليت يعذرنا *** وقلت سبحان هذا كان بهتانا

انّ الشياطين اذا جاؤوا الى مجلسنا *** هم يبثّون سوء القول طغيانا

لسنا نخالط بالنسوان كيف وذا *** كنّا نحذّر لكن قلت سلمنا

---

(1) – أحمد محمد كاني : المرجع السابق، ص 68.

(2) – د/ عبد الرحمن عمر الماحي : المرجع السابق، ص 131.

ان كان ذلك ولكن لا أسلّم *** ان يتركن بالجهل هملا كان احسانا

إذا رتكاب اخفّ الضرّ قد حتما *** بكفر الجهل ان ذا كان عصيانا

هذي البلاد وجدنا قومها غرقوا *** في جهل ان يفقهوا الدينا

قد قيل تحدث للاقوام أقضية *** بقدر ما أحدثوا خذ ذلك ميزانا .

و لم تتوقف القضية عند هذا الحد بل فقد اثيرت مسائل فقهيّة معقّدة، الامر الذي دفع الشيخ عثمان لتأليف عدد من الكتب في هذا الباب، و في مقدّمة كتابه "***تنبه الاخوان على جواز اتخاذ المجلس لاجل تعليم النسوان علم فروض الاعيان من دين ا لله تعالى الرحمٰن***"، وضّح فيه سبب وضعه هذا المؤلف لمّا بلغه ان بعض الناس كان يعيب و يعترض على حضور النّساء لمجالس العلم و الوعظ.

وقد دافع الشيخ عن هذه الآراء بقوّة نسف من خلالها اتهامات معارضيه و افتراءاتهم و تطاولهم عليه و ردّ كيدهم الى نحورهم مستدلا في ذلك بآراء بعض العلماء المسلمين الذين انكروا على علماء السودان عدم اهتمامهم بتربية المرأة و تعليمها باعتبارها ركيزة المجتمع واصفين منطقهم بالأعرج، كما وضّح للناس حقوق المرأة في الاسلام و واجباتها الشرعية .

وختم الشيخ خطابه بخلاصة عامة اسدى فيها بالنصح لكل الناس قائلا[1] : "***محق على كلّ مسلم ان يبدأ بنفسه يصوّبها بالمواظبة على الفرائض و ترك المحرمات، ثمّ يعلم ذلك أهله و اقاربه، ثم يتعدّى بعد الفراغ منهم الى جيرانه ثم الى السواد المكتّف ببلده و كذا الى أقصى العالم***".

وقد كان الشيخ غيورا على الاسلام حريصا اشدّ الحرص على تطبيق ما يدعو اليه، فقد اشرف بنفسه و سهر على تعليم زوجاته وبناته تعليما شاملا،و قد مارست زوجاته التعليم و التوجيه، و كن مربيات ومرشدات صالحات لعبن دورا لا يستهان به في صقل و تهذيب النشئ و تعليمه،أما بناته الائي شاركن في ميادين الدعوة و ذاع صيتهن و كانت لهن اسهامات في التربية و التعليم و السياسة فهن خديجة، مريم، و اسماء. و هذه الاخيرة شاركت في جميع النشاطات الثقافية و الاجتماعية و السياسة، وكانت كلمتها مسموعة خصوصا بعد وفاة والدها، فقد كان الأمراء و العلماء يستشيرونها ويستفتونها في المعضلات التي تواجههم و المشاكل التي تعترضهم، كما تعدّ مصدرا موثوقا في تاريخ جماعة والدها وحركته الاصلاحيّة، ومما يدل على سعة علمها و رجاحة عقلها انها تركت عدّة مؤلفات باللّغات العربية و الفولانيّة و الهوسويّة[2] ، لكن اغلب وقتها وجهدها كرّسته للتعليم و تنظيم شؤون المرأة .كما لعبت مريم نفس الدور تقريبا.

---

(1) - احمد محمد كاني : المرجع السابق، ص ص 69-70.

(2) - د/ عبد الرحمن عمر الماحي : المرجع السّابق، ص 132.

و الحق انّ الشيخ عثمان قد اصاب في هذا الموطن اذ كان على حق، ذلك ان الاسلام حثّ على الاهتمام بالمرأة و كفل لها حقوقها و منحها الحق في التربية و التعليم، فالرسول صلّى الله عليه وسلّم يقول في حديثه [1] : "***العلم فريضة على كلّ مسلم*** "، كما ان الشرع الاسلامي لم يغمطها حقها و الاخذ برأيها و الالتزام به فيما يتعلّق بشؤونها العامّة و الخاصّة، لذلك منحها عثمان هذه الحقوق، اذ من غير المعقول ان يخفى على عقل عثمان و بصيرته و هو مسلم يعد لبناء مجتمع،ان يترك نصفه مهملا بلا عناية، فالشاعر العربي حافظ ابراهيم يقول :

الأمّ مدرسة اذا اعددتها ** اعددت شعبا طيّب الاعراق

كلّ هذا لم يكن خافيا عن ذهن الشيخ خاصة ان جدّته و امّه كانتا متعلّمتين، لذلك اثمرت جهوده في هذا المجال، اذ اقبلت النسوة على مجالس علمه و وعظه دون عقد او موانع، فتخرج منهنّ الكثيرات و كنّ مربيات صالحات، و بهذا يكون الشيخ عثمان قد سدّ بابا امام المبشرين فيما بعد لكونه تفطّن الى دور المرأة في المجتمع و حفاظها على العقيدة اكثر من غيرها [2].

ركائز الدّعوة و منهج التعليم :

ركّز الشيخ عثمان منذ بداية انطلاق دعوته على خمسة ركائز "***خماسيّة الشيخ عثمان*** " حدّث الناس فيها بافاضة متعرّضا بالشرح الوافي لكلّ تفاصيلها و دقائقها و هي :

1- فروض الشريعة الاسلامية من الاصول و الفروع الظاهرة منها و الباطنة .

2- التمسك بالسنّة النبويّة الشريفة، و التخلي عن البدع و الانصراف عن فعل المنكرات .

3- اخماد الفتنة وقبر البدعة و القضاء على الاباطيل و الخرافات التي أحدثها الناس في الدين الاسلامي الحنيف و الابتعاد عن ممارسة العادات و التقاليد المخالفة للشرع .

4- التركيز على تعليم العلوم عامة والشرعية منها خاصة، بأساليب ميسورة و مبسطة لتقريبها من اذهان العوام و توظيفها لحلّ مشاكلهم .

5- رد الاوهام وتصحيح الآراء المغلوطة في اذهان الطلاب مما قرأوا و تلقوا من علم الكلام و تكفيرهم لعامة الناس دون دليل او سند شرعي، لا سيما ان بعض العلماء الافارقة حرموا التزاوج مع العامة و اكل ذبائحهم [3].

---

(1) - رواه ابن ماجه ومحمد ناصر الدين الألباني : سنن ابن ماجه، ط1، المكتب الإسلامي، بيروت، 1408، 1988.

(2) - د/ مصطفى خالدي و عمر فرّوخ : التبشير و الإستعمار في البلاد العربية، ط4، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان 1390هـ، 1970م، ص ص 203، 204.

(3) - احمد محمد كاني : المرجع السابق، ص 132.

عالج الشيخ عثمان هذه الافعال و الممارسات المنافية للشريعة الاسلاميّة و اكّد حقيقة و صحّة ايمان العامة، و وضّح ان اهتمام الطلبة بهذه الامور و انغماسهم في مثل هذه الافكار و المتاهات تشغلهم عن العلم و الدرس و تحول بينهم و بين الدعوة الى كتاب الله و سنّة رسوله الكريم .

اما في ميادين التربية و التعليم فعلى ما يبدو ان الشيخ كان على دراية و معرفة بعلم النّفس و البيداغوجيّة الحديثة، اذ كان يعقد في حلّه ترحاله مجلسين للتوجيه و الوعظ و الارشاد أحدهما للخاصة،وثانيهما للعامة، و يتكون الخاصة من تلاميذته العلماء الذين يفيدون عليه و يلازمونه، و تختلف المناهج و الطرق و الاساليب و الموضوعات التي كان ينتهجها و يطرقها للعامة عن تلك التي يسلكها مع الخاصة، ويراعي فيها التدرّج و التعقيد .

و تذكر المصادر ان الشيخ كان عند خروجه لمجلس التعليم و الوعظ يستقبل تلاميذه و اتباعه و مرديه ببشاشة و تركيز ذهني ينمّان عن سمو خلق،ورغم وجود بعض العوام الذين كانوا يثيرون بعض المضايقات له، فانّه كان ينهرهم و ينهاهم دون غضب أو تجريح، وكان لا يخص بخطابه أحدا دون سواه، غير أنه كان صلبا شديدا لا يتردد في تطبيق تعاليم دينه و لا تأخذه في الله و اقامة حدود شرائعه لومة لائم، فكان يطبّق العدل و يحكم بالقسطاس بين الناس جميعا[1].

ومما يسّر تبليغ الدعوة و تمكينها في نفوس و اذهان الناس ان الشيخ كان متضلعا في العلوم متمكنا من عدّة لغات، فإلى جانب اتقانه اللغة العربية و مختلف اساليبها البلاغيّة كان يجيد اللغة الفولانية و الهوساويّة و التماجك[*].

و قد تركزت دروس و محاضرات هذا الداعية المصلح حول العلوم الشرعية، و خصوصا الفقه و أصول الدين والتوحيد، مستعملا في ذلك اللغات و اللهجات التي يعرفها و يفهمها الحضور، و كثيرا ما كانت دروسه تترجم الى اللغات الافريقية سالفة الذكر. وكانت هذه الدروس تتميّز بالتركيز و الدّقة و الشمول يتعرّض فيها بالتفسير و الشروح المستفيضة لكل شاردة وواردة دون ان يترك أي لبس او ابهام او غموض و خصوصا في المسائل العالقة التي ترتبط بحياة الناس.

و نظرا لكون هذا المصلح على علم و دراية شاملة و فهم عميق للاوضاع الاجتماعيّة و النفسية التي تعيشها المجتمعات الافريقية، فقد استخدم اسلوب الدعوة بالحكمة و الموعظة الحسنة في توجيه مجتمعه توجيها صحيحا، تطبيقا لقوله تعالى[2] : "***أدع إلى سبيل ربّك بالحكمة و الموعظة الحسنة و جادلهم بالتي هي***

---

(1) -أحمد محمد كاني : نفس المرجع، ص .ص 71. 72.

(*) - التماجك : هي احدى اللهجات المنتشرة في افريقيا الغربية خصوصا في جنوب الصحراء و هي شائعة خاصة بين الطوارق . انظر : عبد الرحمن عمر الماحي . المرجع السابق، ص 132.

(2) - سورة النحل ، الآية 125.

أحسن إنّ ربّك هو أعلم بمن ضل عن سبيله و هو أعلم بالمهتدين .".

و بعد أن عرف المصلح علل المجتمع و أسقامه المتنوعّة، عرف كيف ينتقي له البلسم الشافي، و يصف له الدّواء النّاجع، فتجرّعه المجتمع دون غصّة أو انفعال فكان البرء دون مضاعفات، و الشّفاء دون ردود أفعال سلبية. و لمّا ذاع صيت المصلح و طبقت شهـــرته الآفاق، حضيـــت دعوته و أفكاره بالترحيب و القبـول و أحاطته العامة و الخاصة بحفاوة فائقة إجـــلالا لشخصه و تعظيما لعلمه و نبل مقاصده، فأقبل عليـه النّـاس من كل الجيهات، مستمعين لدروسه و وعظه مطبّقين تعاليمه،مقتفين اثره و سجاياه الحميـدة،سـالكين سـبيله الدّاعي إلى الإصلاح.

موقف علماء البلاط من الدّعوة و الإصلاح :

و بينمـــا الشيخ منهمـــك في دعوته لقي عنتـــا شديدا، إذ بدأ الأعداء و الحاقدون يرسمون الخطـط و يكيدون له في الخفاء،و خصوصا علماء عصره الذين أضمـرو لـه الحسـد و البغضـاء للنّجـاح الـذي أحـرزه لاسيما و أنّه لم يكن من متزلّفي السّلطة و متملّقي الحكّـــام، و هذا ما زاد في غيرتهـــم فضاعفوا كيدهم لـه و حقدهم عليه، فاغتنموا الفرصـة و وشـوه إلى السّـلطان في محاولـة منهـم عرقلـة مســـار الدّعـوة و كسـر شوكتها قبل أن يشتدّ ساعدها، أملا في طمس معالمها و اطفاء نورها قبـل أن ينتشـر و يعـم مجتمعـات ربـوع افريقيا الغربية.

يبـدو أن الشـيخ لم يهتـم بـالأمرو لم يعـره أدنـى إنتبـاه و لم يلتفـت لكيدهـم، بـل إسـتمرّ في دعوتـــه الإصلاحية لتخليص مجتمعه من الأوحال و إنقاذه من الإنحرافات .

و لما عظم عليه الأمر و اشتدّت محـاصرة الأعـداء لـه إذ بـالغوا في افـتراءاتهم عليـه، انـبرى لخصومـه يحـاربهم باللّسان و القلم لاغيا كلّ التهم التي لفّقت له بالحجّة الدامغة و البرهـــان القـاطع، الأمـر الذي أثـار الدّهشـة و أذهل النّاس جميعهم و حرّك فضولهم[1].

تصنيف الشّيخ عثمان العقيدي لمجتمعه :

من خلال معايشة الشّيخ عثمان و احتكاكه المباشر بالمجتمع الذي يعيشه و هو يلاحظ دقـائق حركة أنفاسه و سكناتها و سـلوكاته الحياتيـة و معاملاتـه اليوميـة في شـؤون الدنيـا و الديـن بفكـر و حـس مرهف،و بعقل العالم الخبير قسّمه إلى ثلاثة أقسام:

– صحيحوا العقيدة : و هم أولئك الذين يطبّقون الشّريعة الإسلامية في سلوكاتهم و معاملاتهم

---

(1) – أحمد محمد كاني : المرجع السابق، ص 73.

اليومية، و لا يتخطّون حدود تعاليمها و لا يمجزون بها ممارسات ليست نابعة منها و لا يظهرون شيئا من أعمال الكفر و ما يتناقض مع الإسلام.

– أما النوع الثاني فهم المخلطون و هم الذين يقومون بتطبيق أحكام الشّرع مصحوبة بأعمال الكفر و الشّعوذة و يسمع منهم ما يناقض الشّريعة و تعاليم الدين الإسلامي، و من أمثلة هؤلاء يقول عنهم ابن فودي [1] : " ***إن المخلطين بالرّغم من إظهارهم الإسلام، و تظاهرهم به، فهم يقومون بتعظيم بعض المظاهر كالأشجار و الأحجار و إقامة الذبائح عندها تقربا و تزلّفا، أو تقديم الصّدقات عندها أو بصب العجين لها*** "، و من المخلطين من يدّعي علم الغيب و معرفة أخبار الجن و يمارس الشّعوذة و التنجيم، و هذا القسم من المجتمع عدّه الشّيخ من الكفّار.

– أما النوع الثالث و هم الكفّار بالأصالة و هؤلاء هم الذين لم يدخلوا الإسلام و لم يشمّوا رائحته قطّ [*] وهؤلاء لا تجري عليهم أحكام الشّريعة الإسلامية.

و قد وضّح الشّيخ هذه الأقسام الثّلاثة في كتابه " ***نور الألباب*** " [2]

و الحق أن هذا الداعية المصلح لم يكتف بالوعظ و الإرشاد في إطار الدّعوة إلى الإسلام،بل فقد بين لمجتمعه النّهج القويم و السّبيل الصّحيح لإقامة الشّريعة الإسلامية و كيفية التخلّص من البدع و التخلي عن الخرافات التي لا صلة لها بالإسلام في شيئ، و بعيدة كلّ البعد عن روحه السّمحة، فضلا على تصدّيه للجمود و تعرّضه بالنّقد اللاذع للتّحجّر الفكري الذي أصاب الأمّة، و لم تقتصر حركته على إصلاح المظاهر الخارجية و القشور السّطحية، بل تغلغلت إلى العمق، فمسّت خفاياها الدّقيقة كالعلاقة بين الزّوج و زوجه، و توكيل الجهال في العقود التجارية و المقايضة بين النّاس، و كان يأمر النّاس بالإقلاع عن العادات السّيئة، و إتّباع العادات و التقاليد المتوارثة التي تنسجم مع قيم الإسلام. و يدعوهم إلى الإبتعاد عن التشبّه بالإفرنج و ما تقوم به نساؤهم في الأسواق و الأماكن العامة، و حذّر من مغادرة المرأة لبيتها و تركها له دون ضوابط شرعية،غير أنّه رخّص لخروجها عند الضّرورة القصوى لإنعدام من ينوب عنها من الذّكر. و يبين أحكام ذلك في كتابه : " بيان البدع الشّيطانية التي أحدثها النّاس في الملّة المحمّدية "، إذ يقول [3] : " ***هل يجوز***

---

(1) – د/ محمد أحمد الحاج : (الشّيخ عثمان بن فودي و الحضارة العربية الإسلامية في الإقليم الشّمالي جمهورية نيجيريا الإتّحادية)، ندوة العلماء الأفارقة، مرجع سابق، ص 339.

(*) – رغم ما قيل عن جهاد عثمان من نقائص، فإنّه لا صحّة للرأي الذي يقول : أن الجهاد كان في منطقة وثنية لم تشم رائحة الإسلام، كما لا صحّة لمن قال أنّها كانت حربا قبلية بين الفولاني و الهوسا للإستلاء على السّلطة السياسية و أن الدين كان زيا فقط، أنظر ندوة العلماء الأفارقة، مرجع سابق، ص 343.

(2) – د/ محمد أحمد الحاج : (الشّيخ عثمان و الحضارة العربية الإسلامية في الإقليم الشّمالي جمهورية نيجيريا الإتّحادية)، ندوة العلماء الأفارقة، نفس المرجع ، ص ص 339 - 340.

(3) – أحمد محمد كاني : المرجع السابق، ص 73.

خروج المرأة الأجنبية إلى السّوق و البيع و الشّراء إذا كانت مستقرّة، و لم تقع خلوة و لا شيئ ممّا أنكره الشّرع؟ مثل مزاحمتها الرّجال و مباسطتها ؟ قلت إن ذلك جائز إذا أعدمت من ينوب عنها من زوج أو ذكر محرم".

و يبدو مما سبق أن الشّيخ لم يكن منغلقا على نفسه منزويا عن مجتمعه قابعا في صومعة منعزلا عمّا يحيط به، بل كان رجلا متفتّحا على العالم الخارجي من حوله، و ما يحدث فيه من تغيّر، و على علم و دراية بالأمراض الإجتماعية، و النّفسية و المفاسد الأخلاقية التي غشيت المجتمعات الأروبية و تتنافى مع القيم و الأخلاق الإنسانية النبيلة و الشّريعة الإسلامية.

أما فيما يتعلّق بتولي الجهلة المناصب الشّرعية فقد وقف منه موقفا مناوئا و حذّر تقلّد هذه المناصب من قبل الجهلة على حساب أهل العلم، سواء كان ذلك عن طريق التوارث، أو لأي اعتبارات أخرى دون الأهلية العلمية، و عدّ هذا بدعة من البدع المحرّمة بالإجماع [1].

لقد لقيت دعوة الشيخ عثمان بن فودي صداها العميق في نفوس العامة و هوى جامحا لدى السّواد الأعظم من الخاصة،حيث أخرجتهم الدّعوة إلى نقاوة الإسلام و صفائه بعد أن حرمتهم أمواج البدع و ظلام الخرافة و طلاسم التنجيم، و ضلال الشّعوة السّائدة و ليل الدّجل الرّهيب، و الجهل بحقيقة الدين و الدّنيا معا من هذه النّعم.

و لعلّ هذا ما يدفعنا إلى القول أن سر نجاح الدّعوة يكمن في بساطتها و أسلوب منهجها المبني على المنطق البعيد عن التعقيد كون صاحبها من كبار المفكّرين و الدّعاة المصلحين المسلمين و رجل علم و سياسة معا.

و لبساطة دعوته و مرونتها و سرعة فهمها و وضوحها في أذهان النّاس، استطاع كسبهم إلى صفّه زرفات و وحدانا فزاد إقبالهم عليه،لما إتّصف به من دماثة الخلق و حسن المعاملة و صدق النيّة، و بذلك بلّغ رسالة الإسلام إلى الناس دون تمييز بين عامتهم و خاصتهم،و بين أغنيائهم و فقرائهم، و رجالهم و نسائهم، و بين صغارهم و كبارهم.

و هكذا استطاع الشّيخ و بعد فترة وجيزة من العمل الدؤوب أن يحيط به جموعا غفيرة من الأتباع المخلصين و المريدين الصّادقين كوّن منهم "***الجماعة***"، و هذه الجماعة قوامها تلاميذته الذين تعلّموا على يده و تأثّروا بأفكاره و دعوته فصقلتهم فكريا و هيأتهم نفسيا و ذهنيا و أعدّتهم عمليا للقيام بالنّشاط الإصلاحي و الدّعوة إلى الإسلام الصّحيح و تربية الأجيال [2]، و قد قسّم الشّيخ جماعته إلى قسمين :

– القسم الأوّل (الملازمون) و يتولّى هؤلاء مهمّة تفسير و شرح دروس المصلح و توجيهاته، و نسخ مؤلّفاته و نشرها في عموم البلاد و التمكين لدين الله و توعية النّاس و الإرتقاء

---

(1) – أحمد محمد كاني : المرجع السابق، ص 73.

(2) – د/ أحمد ابراهيم دياب : لمحات من التاريخ الإفريقي الحديث، مرجع سابق، ص 205.

بأفكارهم إلى إدراك كنه الإسلام و حقيقته كونه دين متكـامل و شـامل لمختلف نواحـي الحياة الروحيـة و المادية.

أما القسم الثاني فقد إنتشر في مناطق السودان الأوسط و الغربي و كانوا على صلة و علاقة بالشّيخ بطريق التلقي المباشر عنه أو عن طريق طلابهم الذين يبعثون بهم للإغتراف من علم الشّيخ،أو بواسطة مؤلفاته الكثيرة التي كانوا يقرؤونها و يستنسخونها و يوزعونها للإستفادة مما جاء فيها [1] .

و لما زاد اتباعه و قويت شوكتهم، اثار هذا ريبة و مخاوف الحكام في امارة " جوبـير " "Goubir" فسارعوا بالتودّد للشيخ محاولين احتواءه ظنا منهم انه على شاكلة علماء البطانة الذين وشوا بـه الى السـلطات، لكـن في كل مناسبة كان يلتقي بهم او يصادفهم كان يجدد دعوته لهم للإسلام و ترك ما سواه، و الإبتعاد عـن الرذائـل و هجر الفواحش و اقامه العدل في الحكم .

و في عيد الأضحى المبـارك لعـام (1253هـ، 1788م) دعـا سـلطان " جوبـير " Goubir " بـاوا "Bawa " علماء البلاد، و لما اجتمعوا به في مغمي " Maguemi " حاول امامهم شراء ذمّـة الشيخ عثمـان بعطية ذهبية تقدر بـ خمسمائة مثقال(*) اكراما له ، لكن الشـيخ رفـض الهديـة و ردهـا الى السـلطان، عكـس العلماء الأخرين الذين كانوا يتنافسون على التقرب و التودّد الى السلطات، و قدم بدلهـا لحكـام البـلاد خمسـة مطالب لحماية دعوته و احترام من يستجيب لها، و يتزي بالزي العربي الإســلامي و هذه المطالب هي :

- السماح له بالدعوة الى الإسلام و الإصلاح، و حرية التنقل لمختلف انحاء البلاد .
- الاّ يقف في وجه من يريد الإستجابة الى الدعوة و صده عنها .
- احترام و توقير كل عالم يرتدي اللباس الإسلامي و يضع العمامة .
- العفو عن المساجين و المعتقلين و خاصة السياسيين و سجناء الرأي و اطلاق سراحهم .
- الغاء الضرائب الثقيلة على كاهل الرعية [2]

لبى السلطان هذه المطالب كلها مكرها، فكان ذلك منعـطفا جديـــدا في مسار حركـــة الشيخ و انتصارا سياسيا باهرا على حكام البـلاد، و كانت منـاسبة كبيرة احتفل بها العامة و الخاصة من الأنصار و الأتباع ، و جادت قريحة الشعراء بقصائد مجدّت الحدث كقصيد عبد الله بن فودي الذي مطلعه :

عباد الله انصار الرسول *** هم الضّرغام ثم هم شبول [3]

---

(1)- احمد محمد كاني : المرجع السابق – ص 75

(*) – المثقال يساوي وزن 72 برّة من القمح المتوسطة الحجم، انظر : عبـد القـادر زبادية ، الحضـارة العربيـة و التأثير الأروبي في افريقيا الغربيـة جنوب الصحراء، مرجع سابق، ص 54.

(2) – د/ عبد الرحمن عمر الماحي : المرجع السابق – ص 134.

(3) – احمد محمد كاني : المرجع السابق، ص 75.

و منذئذ تبيّن بجلاء ان اهداف الجماعة لا تتوقف عند عتبة اصلاح السلبيات الإجتماعية و القضاء على البدع و الضلالات و الجمود الفكري، بل هدفهم أسمى من ذلك و ابعد، و هو التمكين لدين الإسلام في الأرض و اقامة دولة اسلامية على انقاض دولة الكفر و الوثنية، و لو تطلب ذلك القيام بالجهاد و رفع رايته .

أدرك حكام البلاد سوء العاقبة و عدم تقدير الأمور حق قدرها، فحاولوا سد الطريق امام حركة الشيخ، و لكن " *سبق السيف العذل* " كما يقال و توفى السلطان باوا " Bawa " عام 1157 هـ ، 1744م و خلفه " نافاتا " Nafata " الذي ادرك و قدّر ما يتمتع به اتباع الشيخ عثمان و شعر هو الآخر بالخطر الداهم الذي يهدده و ملكه، و عزم على القضاء على الإصلاح و الدعوة الإسلامية في بلاد " الهوسا " و الحيلولة دون زيادة انتشار رقعة الإسلام و تنامي عدد المسلمين بإصداره مرسوما نص على :

1 – يمنع منعا باتا السّماح لأي شخص اعتناق الدين الإسلامي و التدين به الاّ من ورثه عن آبائه و أجداده.

2 – عدم السماح لأي كان بإرتداء العمامة بعد تاريخ صدور هذا المرسوم .

3 – ألاّ تضع اية امرأة الخمار على رأسها و النقاب على وجهها .

4 – يمنع العلماء من ممارسة النشاط الإصلاحي و الدعوي و الوعظي الاّ الشيخ عثمان وحده [1].

و يتضح من هذا المرسوم " النافاتي " انه يهدف الى عرقلة الحركة و شل دعوة الشيخ و الحد من اتساع دائرة نشاطه، و منع النّاس من اعتناق الدين الإسلامي و صدهم عنه ، و دعوة النساء الى السفور و التخلي عن زي المسلمات المحتشم، و الخروج عن تعاليم الشريعة الإسلامية السمحة. كما حصر الدعوة في شخص الشيخ وحده، و هذا التضييق السياسي يقف عقبة كؤودا في وجه الحركة . على خلاف ما كانت عليه من قبل، و يفتح الباب واسعا لعودة مظاهر الإنحطاط الأخلاقي و الفساد الإجتماعي في البلاد .

و كان من الطبيعي ان يتلقى اتباع الشيخ محتوى هذا المرسوم بالرفض، و لا سيما اخوه " عبد الله بن فودي " ساعده الأيمن، و قرر ان يواجه هذه الإجراءات التعسفية مهما كلفه ذلك من أعباء .

اما الشيخ عثمان فكان موقفه خلاف موقف اخيه " عبد الله " اذ انّه عارض استعمال القوة و العنف ضد الحاكم و هو في بداية الطريق، و قبل المرسوم على مضض، و كان يدرك ان الدائرة سوف تعود على الحكام الطغاة لإيمانه بإنتشار الدعوة بطريقة سلمية،فهو لا يرغب في التورط و الإنغماس في الصراع مع السلطات حتى لا تتشتت جهوده و تتبدد قواه و ينحرف عن الهدف المنشود لإعلاء كلمة الله و رفع راية الإسلام في سماء الوثنية، و ان أمر اعلان الجهاد المسلح ضد من يقوم في وجه الدعوة و يقف حائلا دون

---

(1) – د/ محمد احمد اخاج : (الشيخ عثمان بن فودي و الحضارة العربية الإسلامية في الإقليم الشمالي لجمهورية نيجيريا الإتحادية) ، ندوة العلماء الأفارقة، مرجع سابق، ص 341.

انتشارها لم يخن بعد [1]، فزاد هذا من شدة حنق "نافاتا " " Nafata" على الدعوة و الداعية و اضمر لهما الشر في نفسه،و سعى بالكيد و التآمر على الشيخ محاولا قتله بالحيلة [2]،لكن القدر لم يمكّنه من تحقيق هدفه،إذ نجا الشّيخ من خصمه الذي لم يمهله المنون بعد صدور هذا المرسوم إلا أياما قليلة و غادر الحياة غير مأسوف عليه [3].

و خلف نافاتا " Nafata " في الحكم ابنه يونفا " Yunfa " [4].و هو أحد تلاميذ الشيخ عثمان، فوعد استاذه المصلح بإنهاء الخلاف و تصفية الأجواء بينهما و السماح له بمزاولة نشاطه الإصلاحي و الدعوي، لكن (شهر العسل) لم يدم طويلا بين الرجلين، اذ سرعان ما انقلب الحاكم على الشيخ محاولا التخلص منه [5]، و التآمر على اتباعه و ظهر الحاكم على حقيقته، و ما دعواه لإصلاح ذات البين ما هي الاّ مجرد نزوة عابرة سرعان ما تلاشت، فتوترت العلاقات من جديد و زادت سوء بعد ان شنّ "يونفا " "Yunfa " حملة عسكرية على احدى جماعات الشيخ التي كان يقودها عبد السلام. [6] و يرابط بها في غمبنا "Guimbina " و فتك بأهلها و قتل عددا من الفقهاء و العلماء دون رحمة، و بالغ في سلب اموال المسلمين و استباحة اعراضهم و قتل اطفالهم و نسائهم، و امر قواته بإحراق الكتب و المصاحف و الألواح [*] و قذف المؤمنين بكلمات نابية جارحة لمشاعرهم، و تمادوا في السخرية و الإستهزاء بهم و القدح في دينهم و رسالته قائلين لهم " *ايتونا بما تعدونا ان كنتم صادقين* " [7].

و هذا الحيف و الإعتداء على اتباع الشيخ وقع في شهر رمضان الذي يعظمه و يجله المسلمون في مشارق الأرض و مغاربها و اينما وجدوا [8].

---

(1) – د/ عبد الله عبد الرازق ابراهيم : (حركة الشيخ عثمان في غرب افريقيا و آثارها الدينية) حوليات كلية الإنسانيات و العلوم الإجتماعية، العدد 5، جامعة قطر، الدّوحة، 1413هـ 1992م، ص 242.

(2) – Y.Urvey : O P .cite .P .274

(3) – Y.Urvey : IBID. P. 274.

(4) – حكم بين سنتي (1803-1808) انظر : Y.Urvey : IBID. P. 276.

(5) – د/ احمد ابراهيم دياب : لمحات من التاريخ الإفريقي الحديث، مرجع سابق، ص 206.

(6) – د/ احمد ابراهيم دياب : لمحات من التاريخ الإفريقي الحديث، مرجع سابق، ص 206.

(*) – الألواح : كانت تستخدم لنسخ ايي القرآن الكريم لحفظها من قبل الدارسين، و هو ما يمارس عندنا في الجزائر في الكتاتيب القرآنية و المساجد .

(7) – احمد محمد كاني : المرجع السابق، ص 79.

(8) – د/ عبد الله عبد الرازق ابراهيم : (حركة الشيخ عثمان الإصلاحية في غرب افريقيا و اثارها الدينية)، حوليات كليات الإنسانيات و العلوم الإجتماعية ، المرجع السابق، ص .ص 242 ،243.

و قد تمادى هذا الحاكم الجبيري في القتل و التنكيل و اذلال المسلمين، و بالغ في هتك أعراضهم بغية القضاء على جماعة الإصلاح الإسلامي و على رأسها الشيخ عثمان، اذ طلب منه التخلي عن جماعته و العيش منفردا في المنفى، لكن المصلح رفض أوامر و قرارات الحاكم المستبد و قرر التحرك و الإبتعاد عن المواجهة بأتباعه و الذهاب الى منطقة جودو " Gudo " . فجن جنون الحاكم و اصدر امرا يقضي بإلقاء القبض على الشيخ، كما طلب من حكام الإمارات التابعة له غزو و تخريب قرى المسلمين و قتل رجالهم و سبي نسائهم و ابنائهم و نهب ما استطاعوا من أموالهم .

و لما رأى الشيخ عثمان ما حاق بالمسلمين من قتل و اضطهاد، قام بإصدار ما يعرف بوثيقة اهل السودان ، فكان هذا بداية لرفع راية الجهاد و الوقوف في وجه الحكام الظالمين،و الإعلان عن قيام دولة اسلامية في غرب افريقيا، و صار الشيخ مرشدا و اماما لجماعة الفولاني المسلمين الذين وجدوا في شخصه قائدا محققا لأمال كانوا يحلمون بها و يتطلعون لتجسيدها،فصاروا عدّة لتقويض و هدم اركان قوى الشر و الإطاحة بها و القضاء على خصوم الشيخ و اتباعه في المنطقة، لذلك رأى الداعية ان يتخطى هذه المرحلة بإجراءات اكثر فعالية .

2 – الدور الثاني: هجرة الشيخ و جهاده (1219هـ، 1804م–1224هـ ،1809م)

الهجرة :

بعد الضيم الذي لحق بالشيخ و اتباعه قرر الهجرة الى مدينة *جودو* " Gudo " هذه الهجرة التي شبهوها بهجرة الرسول (ص) من مكة الى يثرب عام 610م [1] . إذ تعتبر منعطفا تارخيا حاسما في مسار الحركة،و تعد بداية لتأسيس دولة اسلامية تقوم ركائزها على سواعد اتباع الشيخ من قبائل الفولاني المسلمين. حيث بدأ الشيخ مراسلة حكام بلاد الهوسا طالبا منهم الدخول في طاعته و تطبيق الشرع الإسلامي . و لم تجد دعوته هذه آذانا صاغية من قبل الحكام و رفضوا طلبه الاّ حاكم *زاريا* " Zaria " *خاتو* "Khatou "،و حاولوا الإنتقام منه و مقاومة حركته بدعوى أنها مصدر للفتنة و التفرقة بين النّاس، و لكن اتباعه كانوا قد سبقوهم الى تأمين حماية شيخهم و الدفاع عن دعوته،و عقدوا له البيعة و اقروا له بالولاء و أقسموا له يمين الطاعة على الكتاب و السنّة ، و بذلك باءت مساعي الحكام المناوئين للحركة بالفشل الذريع، و منذئذ حمل الشيخ لقب "*سارکين مسلماني*" [*] .كما حمل لقب الخليفة في بعض الأحايين، و استقر

---

(1) - Y.urvey : O P.cit. P. 275 .et Robert et Marianne Cornevin :OP.cit. P. 258

(*) – سارکين مسلماني : " Sarkin Musulmani " امير المؤمنين بلغة الفولاني انظر : د/ حسن ابراهيم حسن ، مرجع سابق – ص 120

بـ ***سوكوتو*** " Sokoto " و كانت هجرته يوم (21 فبراير 1804م) [1] . و تعتبر مبايعة الشيخ عثمان بداية جديدة و منطلقا فعليا في تغيير اسلوب الدعوة، اذ كانت البيعة بداية لوضع قطار حركة الإصلاح على سكة الجهاد،و ايذانا بإقامة و تأسيس دولة الخلافة الإسلامية التي طالما اشرأبت لها اعناق المسلمين و هفت لها نفوسهم في بلاد الهوسا عام (1219هـ، 1804م). و تناقل النّاس اخبار الجهاد و قيام الدولة في مختلف انحاء البلاد، بعد ان بشّر الشيخ بوثيقة " ***اهل السودان*** " السالفة الذكر، و التي طرح فيها اراءه في النظم المختلفة السائدة في بلاد الهوسا داعيا فيها سكان السودان الى الدخول في طاعته و التخلي على ما هم عليه من الكفر و البدع و الضلالات.

و قد صارت هذه الوثيقة اعلانا رسميا للجهاد، حيث حدد فيها الشيخ الأسس التي بنى عليها جهاده، كوجوب الهجرة من بلاد الكفر، و وجوب الجهاد، و موالاة المؤمنين، و تعيين القضاة، و تأمير الأمراء،و اتباع ما جاء في القرآن الكريم و السنّة النبوية الشريفة بإعتبارهما أهم مصادر التشريع الإسلامي و تنفيد أحكام الشرع [2] .

و من خلال المبادئ التي حددتها وثيقة " ***أهل السودان*** " (*). يبدو واضحا ان المصلح كان ينتظر الظروف المواتية و اللحظة المناسبة للإطاحة بالأنظمة الفاسدة، و نسف الحكومات التي تتحكم في رقاب المسلمين في بلاد الهوسا و ما حولها من بلدان، كما يتضح أن إقامة مثل هذه الدولة لا يقع الاّ على عاتق المخلصين من العلماء الجادّين و المجاهدين، لا على كاهل المتقاعسين و المتملقين منهم،وكان الرد العملي من قبل الحاكم على دعوة الشيخ الإصلاحية ان أُرسل الى إخوته و أعوانه و زبانيته من الأمراء يطلب منهم مساعدته على تطويق " الفتنة " التي أحدثها هذا الشيخ و اتسعت رقعتها في البلاد حتى تجاوزت قدرة الحاكم و استعصى عليه امر اخمادها، فكانت بداية المواجهة الفعلية و الشاقة في آن واحد بين الطرفين، و يبدو ان التفاهم قد صار صعبا و غير ممكن بين الحاكم من جهة و الداعية و اتباعه من جهة أخرى. و لم يجد الشيخ بدا سوى اعلان الجهاد و نشر الإسلام و اصلاح المجتمع [3] .

لبى تلامذة الشيخ و اتباعه النداء و استجاب انصاره و مؤيدوه لرغبته لإرتباطهم الوثيق به،

---

(1)- Robert et Marianne Cornevin : IBID .P 258

(2)- احمد محمد كاني : المرجع السابق – ص 84

(*) – وثيقة اهل السودان اقرت المبادئ التي اعلنها الشيخ عثمان بشأن الجهاد ، و اقامة الدولة الإسلامية و قد قام السير " بالمر " بجمعها و التعليق عليها . و اعتبرت من المخطوطات الهامة النادرة و قد وقّع ناسخها اسمه تحتها و يدعى " محمد ساي بن امير دورا و اسمه اسحق "، و هي تضم سبعة و عشرين مبدأ هي خلاصة المبادئ التي دعا اليها الشيخ عثمان، انظر : د/ عبد الله عبد الرازق ابراهيم (حركة الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية في غرب افريقيا و آثارها الدينية) حوليات كلية الإنسانيات و العلوم الإجتماعية المرجع السابق، ص 244. و : د/ عبد الرحمن عمر الماحي : الدعوة الإسلامية في افريقيا الواقع و المستقبل، مرجع سابق، ص ص 138 – 139.

(3) – د/ زاهر رياض : الممالك الإسلامية في غرب افريقيا و اثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى ، المرجع السابق، ص 292.

الفصل الثالث ـــــــ

و في عام (1224هـ 1809م) انتقل الشيخ الى مدينة " *سيغادا* " " Sigada " بينما مكث ابنه محمد بلو في مدينة *سوكوتو* " Sokota " التي تحولت فيما بعد الى عاصمة للدولة .

و جملة القول ان الدور الثاني من مسيرة الشيخ عثمان كان ضروريا و أساسيا في بناء الدولة و اصلاح المجتمع، اذ انه استطاع خلال هذه المرحلة الحاسمة من عمره و عمر حركته الإصلاحية و الدعوية و الجهادية ان يجند حوله الآلاف من الأفارقة الذين آمنوا بدعوته و أفكاره و أعتنقوا الإسلام على يديه، أن يهزوا اركان الدول و الإمارات الوثنية التي كانت دعامة للكفر و الفساد الإجتماعي و الأخلاقي الذي ساد و تغلغل بين سكان غرب افريقيا .

3 - الدور الثالث : انشاء الدولة (1225هـ 1810م ، 1233هـ 1817م)

تميزت دعوة الشيخ عثمان بن فودي في هذه المرحلة بتغيير جوهري في انماط الحياة الإجتماعية و الثقافية التي كانت سائدة في بلاد الهوسا، حيث تكوّن مجتمع جديد تخلص من رواسب الماضي يتولى أموره علماء مقتدرون و دعاة مخلصون، سما بهم إيمانهم و اخلاصهم و رفعهم علمهم و عملهم الى مناصب قيادية في المجتمع، و من هذا المنطلق تغير نظام و طابع الحياة العامة من عادات و تقاليد و نظم اجتماعية و اسرية و تربوية و سياسية عما كان سائدا من قبل، فأدى ذلك الى سرعة انتشار الإسلام و تطبيق شرائعه في شتى مناحي الحياة .

و الحق ان هذا التغيير الجوهري السريع يعود بالدرجة الأولى الى سماحة الإسلام و يسره من جهة و اخلاص الشيخ عثمان و تفانيه في خدمة هذا الدين من جهة اخرى، حيث كرّس كل حياته و جهده في سبيل انجاح حركته و الدفع بها قدما الى ان كللت جهوده بتأسيس دولة اسلامية(*) ضمّت مساحات واسعة من منطقة غرب افريقيا، [1] تمتد اليوم من بحيرة تشاد شرقا حتى منحنى نهر النيجر غربا، و من الغابات الإستوائية الإفريقية جنوبا حتى الصحراء الكبرى شمالا، و بلغت فيما بين (1258هـ 1842م ، 1276هـ 1859م) 1500كم من الغرب الى الشرق ، و 500كم من الشمال الى الجنوب.[2]

إن هذا النجاح الرائع الذي حققه الشيخ عثمان في هذه الربوع الشاسعة من افريقيا جنوب الصحراء ، قد تولدت عنه اعباء جديدة و مسؤوليات جسيمة فكان عليه ان يقوم بإصلاح اداري مكثف و تنظيم الشؤون السياسية و المالية و الإجتماعية و الثقافية و الدينية ، و أن يقوم بتوحيد كل امارات بلاد الحوسا في اطار موحد و يشكل منها دولة واحدة .

---

(1) - توماس اورنولد : المرجع السابق، ص 362.

(*) - أنظر الشكل (5) ، ص88.

(2-) - Robert et Marianne Cornevin : O P cit .P .P 258-259

اعلان تأسيس الإمارة و تنظيماتها :

بعد أن تحقق للشيخ عثمان ما سبقت الإشارة اليه قام بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، و قسّم البلاد إلى عشرين ولاية و حمل لقب أمير المؤمنين.

و مما يدلّ على القدرات التنظيمية التي يتمتّع بها هذا الشّيخ، تنظيمه للعلاقات التي كانت تربط سوكوتو " Sokoto " و بعض الجماعات القبلية التي بايعته، مع إحتفاظ هذه الأخيرة بخصوصياتها مثل مجموعات قبائل الطوارق التي أقرّ لها بالحكم الذّاتي [1].

و لعلّ إجراء مقارنة بسيطة بين نظامي الحكم في دولتي الفولاني و الخلافة العبّاسية يوضّح بجلاء كيف أن المسلمين في غرب افريقيا كانوا متأثرين إلى حدّ كبير بالأنظمة العربية الإسلامية في المشرق إبّان العصور الإسلامية الزّاهية ؟ بل فقد تفوقوا في الشورى و توسيع نطاق الحكم نحو ديموقراطية أكثر من العبّاسيين أنفسهم كما سنرى.

فمن خلال التّنظيمات التي أقدم على تطبيقها الشّيخ عثمان في بلاده، نلاحظ وجود الشّبه الكبير بينها و بين النظم التي سادت الخلافة العبّاسية، فالدّولة العباسية اتّجهت إلى الأخذ بالنظام الإتّحادي و القناعة بمجرّد الإشراف على الأقاليم/و هو الأسلوب نفسه الذي سلكه الشّيخ عثمان، كما قبلت حكومة الفولاني ببعض المتغيّرات في قمّة هرم السّلطة، حيث تمّ الجمع بين الإمامة و الخلافة، و تحوّل الدّاعية الإمام إلى خليفة حاكم بيده الأمر، و هو نفس المنهج الذي كان متّبعا في الخلافة العبّاسية.

و الحق أن خلافة الفولاني و إن كانت قد إقتصرت على سلالة الشيخ عثمان لكن ولاية العهد كانت للأقدر و الأكفأ، و ليست وراثية مقصورة على الأبناء وحدهم، و هو ما كان يجري به العمل في الخلافة العبّاسية، خلاف ما كان سائدا عند بني أميّة.

كما أن الخليفة الإمام في دولة الفولاني بغرب افريقيا كان عام الولاية عام الإختصاص، يطبّق حكمه على سائر الأقليم و يمارس سلطته في كل مجال، و له مطلق الحرّية في تفويض من يشاء لما يشاء من المهام، و هذا ما كان رائجا عند خلفاء بني العبّاس، غير أنّ الخليفة العبّاسي اتّبع مبدأ إنتقاء الوزير ليتولى أمر تنفيذ أوامره كاملة غير منقوصة، بينما وزير خلافة الفولاني كان يتمتّع بسلطات و صلاحيات أوسع، و بما أن اختيار الخليفة العبّاسي كان يتمّ بين أهل الحل و العقد و أهل الشورى من أفراد البيت العبّاسي، فإن خلافة الفولاني كان فيها مجلس الإختيار يتكوّن من خارج أسرة الشّيخ عثمان، و كان للوزير الكلمة النّهائية و الفصل في هذا الإختيار. كما نجد الخلافة العباسية سارت على تعيين ولي العهد، كما في عهد بني أميّة، لكن في خلافة عثمان نجد تولّي الخليفة

---

(1) – أحمد محمّد كاني : المرجع السّابق، ص 94.

الجديد يتم بعد وفاة الخليفة الحاكم عن طريق مجلس الإختيار[1].

أما على مستوى التّسيير فقد استعان الخليفة الفولاني بمجلسين في تسيير شؤون الدّولة :

- ***الأوّل*** : مجلس إستشاري يضم أبرز أعوان الخليفة و أصفيائه و مساعديه في تأدية المهام المنوطة به.

- ***الثاني*** : مجلس تنفيذي يسهر على وضع مراسيم و تعليمات و أوامر الخليفة و نواهيه موضع التّنفيذ، و يضّم هذا الأخير الوزير و القاضي و المحتسب .

أمّا الخليفة فقد تحدّدت مهامه و اختصاصاته في المجالات **الآتية** :

1 - الإشراف على حقوق الرّعية و المحافظة عليها داخل المجتمع وفق ما تأمر به الشّريعة الإسلامية.

2 - السّهر على حماية حدود الدّولة الإقليمية و ممتلكاتها و تحصين المدن و تسويرها لصد هجومات الأعداء و الغزاة.

آراء الشّيخ عثمان الفقهية :

و كما كان للشيخ عثمان آراء في السياسة و شؤون الحكم و في أمور و قضايا المجتمع المختلفة، كانت له آراء فقهية أيضا، أثارت شيئا من الجدل مع بعض الفقهاء في عصره،و قد بيّن الشّيخ عثمان آراه الفقهية بإسهاب و وضوح مزيلا كل غموض في مؤلّفاته العديدة، ففي مؤلّفه "***إرشاد الأمّة***" يقرّر فيه أن دين الرحمٰن دين فطرة و يسر و ليس بدين عسر، و مبتغاه من وراء ذلك إسداء النصح للأمة و إرشادها إلى الفضائل و مكارم الأخلاق التي تقرّب من رضى الله تعالى، لا فتح الأبواب لتشجيع المعاصي و ترويجها، و التساهل في نشر الرّذائل، و ذلك ليقتدي الناس بسيرة سيد الخلق (ص) و السلف الصالح، و في إختيار السبل لبلوغ الغايات السامية التي لم يفصل فيها بنص شرعي قطعي الثبوت قطعي الدلالة، و فيه تطرّق أيضا إلى قضية تعدد المذاهب، و هل يجوز إعتمادها و الإفتاء بها ؟ و يتّضح موقفه في ذلك من قوله : [2] "***انه إذا تواجدت هذه المذاهب فيجوز الإفتاء بأي منها حتى لا يشق على الأمّة***" .

ويبدو في هذا الموقف تأثّره بتقي الدين ابن تيمية سابقا و الإمام محمد بن عبد الوهاب لاحقا.

و رغم رأي الشّيخ هذا فإنّه ظلّ طول حياته مالكيا، و يفتي النّاس بمذهب مالك بن أنس[3].

---

(1) - د/ عبد الله عبد الرّزاق ابراهيم : (حركة الشّيخ عثمان في غرب افريقيا و آثارها الدينية)، حوليات كلية الإنسانيات و العلوم الإجتماعية، المرجع السابق، ص 255.

(2) - أحمد محمد كاني : المرجع السّابق، ص 97.

(3) - د/ عبد الرحمن عمر الماحي : المرجع السابق، ص 141.

مواقف الشّيخ من القضايا الرّائجة في عصره :

لم يكن الشّيخ عثمان بعيدا عن القضايا التي كانت رائجة في عصره، و لم يغفلها و لم يغض الطرف عنها، بل كانت له مواقف منها و عالجها و أعطى رأيه فيها بوضوح و منها :

- ***موقفه من المهدية*** : تزامن ظهور دعوة الشّيخ عثمان مع بداية القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي. و هي الفترة التي توقع فيها الناس لا سيما في غرب افريقيا ظهور المهدي المنتظر، لذلك غلب على ظن الكثير منهم أن الشّيخ هو عينه المهدي المنتظر لما بدا عليه من علامات الصلاح و الوقار و الغيرة على الإسلام، لكن ابن فودي تصدى لهذا الإعتقاد بكل شجاعة و رفض هذا الإدّعاء رفضا قاطعا، مؤكّدا أن علامات المهدي لا تنطبق على شخصه و انّه ليس المهدي المنتظر.

و لم يكتف بنفي صفة المهدية عن نفسه شفاهة، بل راح يكتب الرّسائل في هذه المسألة مسفّها ما جاءت به العامة في هذه القضية، و أكّد أن المهدي لا يظهر في أي جزء من بلاد السودان، و قد أوضح هذا في كتابه "النبأ الهادي إلى أحوال المهدي "، و يقول الشّيخ عثمان في ذلك [1] : " ***و أعلموا أيضا إخواني أني لست بالإمام المهدي و لا أدّعيت المهدية قطّ، و إنّما يسمع ذلك من أفواه النّاس، و قد بالغت في تحذيرهم من ذلك، و قد صرّحت برد ذلك في تواليفي العربية و العجمية*** " .

و رغم ذلك كلّه فقد ساعدت مؤلّفات دان فودي في تحريك المشاعر و الأحاسيس الجيّاشة التي طالما ألهبت نفوس الأفارقة فأحيت بينهم تقبل فكرة المهدية و من ثم الإستعداد لها، و تركيز الشّيخ على فكرة المهدي المنتظر و إعطائها أهمية أكثر جعل النّاس يزدادون شوقا و تعلّقا بها.

موقف عثمان دان فودي من التصوّف و الجن :

كان الشّيخ عثمان على الطّريقة القادرية التي أسّسها الشّيخ عبد القادر الجيلاني [*] في القرن السادّس الهجري، الثاني عشر الميلادي و انتقلت إلى شمال قارة افريقيا ثم عمّتها في مراحل مختلفة، و الطّريقة القادرية كانت متميّزة عن غيرها من الطّرق الصوفية الأخرى لما إتّصفت به من مرونة و تعايش مع بقية الديانات الأخرى، حيث كان مؤسّسها يتميّع بسمعة كبيرة و كان لمذهبه صدى عميقا حتى في الأوساط المسيحية ،

---

(1) – أحمد محمد كاني : المرجع السابق، ص 101.

(*) – تنسب الطّريقة القادرية إلى الشّيخ محي الدين عبد القادر الجيلاني ابن أبي صالح موسى الحسني و لد سنة (470هـ ، 1077م) بقرية جيلان ببلاد فارس و كان من أكبر رجالات الإسلام حتى سمّي بقطب الأقطاب، إنتشرت طريقته في جميع أنحاء العالم الإسلامي، و يعرف أتباعها في المشرق و المغرب بأسم الفقراء، و قد جال الشّيخ عبد القادر في مختلف أنحاء العالم الإسلامي و استقرّ في بغداد و توفي بها سنه 561 هـ، 1166م)، أنظر د/ محمد عبد الله النقيرة : مرجع سابق، ص 159.

و كان يدعو للنّاس جميعا، و لعلّ هذا ما جعل الطّريقة تنتشر بسرعة و في كلّ مكان من آسيا و إفريقيا[1].

و لذا يبدو الأثر الصوفي واضحا بجلاء في سلوك و فكر الشّيخ عثمان، فهو لم يرفع السّيف في وجه الحكّام الوثنيين حتى أعيته الوسيلة السّلمية، هذا على مستوى السلوك ، أما على مستوى الفكر فسندركه من خلال ما قاله هو نفسه، فقد ذكر في نقاشاته حول دعوى المهدية و ما يتعلّق بها قائلا : " أنّ الرّسول (ص) قد كاشفه بقوله :[2] "***قف هنا فوقفت فبشّرني بقوله : أنا دليلك على طريق الدّين فلا تضلّون، فكان ذلك التّبشير خير لي من الدّنيا و ما فيها***"، كما تطرّق في حديثه عن مقامه في درجات الصوفية و مراتبها و انّه بلغ مقام أرباب الأحوال[*].

أما مسألة الجن فيرى الشّيخ عثمان أنّهم ظهروا له في مرحلة مبكرة من صباه ثم في مرحلة البلوغ و الشّباب،غير أنّه رفض الأخبار المتداولة بين العامة و تنكّر لها و التي مفادها أنّه طوّع الجن و أسلس قياده و تحكّم فيه و سخّره لخدمته لتحقيق أغراضه .

و خلاصة القول أن حركة عثمان بن فودي في غرب إفريقيا قطعت أشواطا بعيدة و حققت نجاحات هائلة في مسيرة الدّعوة الإسلامية و الإصلاحية في المنطقة، فقد وجدت الدّعوة آذانا صاغية و ذلك لما بذله الدّاعية المصلح من جهد و لما أتّصف به من أخلاق فاضلة و تأسي بالقيم النّبيلة التي دعا إليها الإسلام الحنيف مبتعدا عن القسوة و الغلظة و الخشونة مصداقا لقوله تعالى[3] : "***و لو كنت فضا غليظ اللقلب لانفضوا من حولك***".

بفضل هذا المنهج السّلمي و السّليم في آن واحد جمع النّاس حوله و تمكن من تهذيب نفوسهم و تربيتها تربية إسلامية، فقد تمكّن الشيخ عثمان من تطهير الدين الإسلامي و تنقيته من الأوحال و الأباطيل و الضلالات بين قبائل كانت مسلمة، كما وفّق إلى حدّ بعيد في نشر الإسلام بين قبائل كانت الوثنية ضاربة في أعماقها و معشّشة في أذهانها و ملازمة لسلوكاتها، و بذلك أحيا السّنن و أقبر البدع، و أنار الطّريق أمام المسلمين فهبّوا خلفه لإحياء مجد الإسلام و بعثه على أسس أمتن، و تمكّن عثمان بفضل هذه الحشود المؤمنة من بناء الدولة الإسلامية في المنطقة على أنقاض الإمبراطوريات الإسلامية التي عرفتها تلك الرّبوع في الأزمنة السّابقة.

و لا يمكن لأحد و لو كان جاحد فضل أن يجحد أفضال عثمان و أتباعه في بناء الدّولة الإسلامية و الوقوف

---

(1) - عبد الكريم بو صفصاف : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و علاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى (1931 - 1945)، المؤسسة الوطنية للإتّصال و النشر و الإشهار، رويبة، الجزائر، سنة 1996، ص ص 177-178.

(2) - أحمد محمّد كاني : المرجع السّابق، ص 103.

(*) - يقول عثمان عن نفسه أنّه لم يبلغ إلى مقام الأولياء الكمّل التي هي أعلى درجات الصوفية، و لكنّه بلغ مقام أرباب الأحوال الذي هو دون مقام أرباب المقامات الذي يلي مقام الأولياء الكمّل، أنظر أحمد محمد كاني، المرجع السابق، ص 102.

(3) - سورة آل عمران ، الآية 159.

في وجه قوى الغرب الصليبية التي جاءت لغزو المنطقة في إطار ما يسمى بالإستعمار الحديث و نقل الحضارة إلى إفريقيا.

و قد قيم الشّيخ حركته قبل وفاته بقليل ليعرف نقاط القوّة و الضّعف وسط سيل من الإتّهامات و الإنتقادات اللاذعة، و خصوصا من قبل شقيقه " عبد الله بن فودي " الذي عاب على الحركة الإصلاحية كونها لم تبلغ أهدافها المرجوّة و غاياتها المنشودة التي من أجلها رفعت لواء الجهاد، و خصوصا و أن البعض من الأتباع و لأغراض شخصية آنية و مآرب مادية سوّلت لهم أنفسهم الإنحراف بحركة الجهاد و توظيفها لتحقق لهم في نهاية المطاف منافع خاصة دون مراعاة لحدود الشّريعة و أحكامها.

و كان موقف الشّيخ مضادا و مخالفا لما جاء به أخوه، حيث رأى أنّه من المستحيل حمل النّاس جميعا على سلوك واحد قال تعالى[1] : " ***و لو شاء ربّك لجعل النّاس أمة واحدة*** "، لأن النّاس يختلفون إختلافا كبيرا في مقدار التقبّل و درجة الإستيعاب و التحكّم في النّفس و خاصة في إدراك كنه مضمون حركة الجهاد و الإصلاح، و يرى الشّيخ أن إيجابيات الجهاد قد بزّت سلبياته، و قد وضّح كلّ هذه القضايا في كتابه نجم الإخوان [2].

و الحق أن الحركة التي رفع الشّيخ عثمان لواءها تعتبر من الحركات الإصلاحية الرّائدة في عموم العالم الإسلامي بوجه عام و في غرب القارة الإفريقية بوجه خاص، و كان لنجاح الحركة بهذه القوّة و انتشارها على هذا النّطاق الواسع، و تشييدها لصرح دولة إسلامية قائمة على مبادئ الشّريعة الإسلامية الصّحيحة على غرار الدّولة الإسلامية التي أقامها المسلمون الأوائل في صدر الإسلام في زمن بلغ فيه العالم الإسلامي من التدهور و الإنحطاط درجة لم يبلغها من قبل. و كل هذا النّجاح الذي حققته الحركة يرجع الفضل فيه لصحّة الدّعوة و إيمان و اخلاص جهاد الشّيخ عثمان و من ورائه مؤازرة أعوانه و دعم أنصاره .

و قد تركت هذه الحركة الإصلاحية و الدعوية آثارها الفكرية و السّياسية و الإجتماعية و التربوية و الدينية في غرب إفريقيا، و مازالت معالم هذه الآثار قائمة بشموخ و بصماتها منقوشة في الأذهان-رغم محاولات التّشويه و المسخ و التضليل من قبل الكائدين من الأعداء و المستعمرين- شاهدا على أن الإسلام و المسلمين قد مرّوا من هناك ذات يوم و أقاموا دولة اسلامية عظيمة في العصر الحديث.

أثر الحركة :

لقد كان لهذه الحركة التي قام بها ابن فودي الأثر في تمهيد المسالك و أنارة السبل لظهور دعوات و حركات إصلاحية مماثلة لا في غرب إفريقيا و حسب، بل امتدّت إلى أبعد من ذلك، فشملت أرجاء فسيحة من وسط و شرق افريقيا.

---

(1) - سورة هود : الآية 118.

(2) - أحمد محمد كاني : المرجع السّابق، ص 103.

كما أحدثت الحركة انقلابا جذريا و كانت منعطفا تارخيا حاسما في توجيه حياة المجتمع الإفريقي بما أحدثته من ثورة فكرية و ثقافية و اجتماعية و أخلاقية أدّت إلى تغيّرات ذهنية في مفاهيم المجتمع[1]، فقد انتشرت المساجد و المدارس و المعاهد الدينية التي بفضلها انتشار التعليم و الوعي و الثّقافة و اللّغة العربية، و هذا كلّه بفضل جهود الشّيخ عثمان و الدّعاة المصلحين الذين تخرّجوا على يديه و فضّلوا العمل في هذا الحقل رغم صعوبته على القعود و الميل إلى الكسل و الرّكون إلى الدّعة و الرّاحة، فخرجوا يجوبون مدن البلاد و أريافها و قراها لنشر الدّعوة الإسلامية و إصلاح شؤون المجتمع و توعيته، و بذلك قوضت أركان الوثنية و تقلّصت مساحتها أمام دعاة التوحيد.

لقد ظهرت دولة شعب الفولاني الإسلامية في غرب إفريقيا و ما فتئت تنمو يوما بعد اليوم حتى غدت إمبراطورية مرهوبة الجانب، ينطلق من مآذن مساجد مدنها و قراها صوت الأذان خمس مرّات في اليوم مبدّدا ظلام الوثنية منيرا الطّريق إلى دين التّوحيد.

و يمكن حصر أسباب نجاح الشّيخ عثمان في تكوين دولته الإسلامية إلى ما يأتي :

- وحدة العنصر إذ أن ابن فودي إعتمد في تكوين دولته على قبائل الفولاني في الغالب الأعم .
- اعتماده على الدين الإسلامي الحنيف و رفع علم الجهاد من أجل نشر الإسلام بين قبائل عرفت بحماسها لهذا الدين.
- إنتشار الإسلام و بالأخص في شمال نيجيريا الحالية، ساهم في توثيق أواصر العلاقات بين الشّعوب و القبائل، و ترتب عن ذلك قلّة الحروب بين المدن و الأقاليم، فانتعشت التجارة و راجت السّلع و إزدهر الإقتصاد و أصبحت مدينة كانو " Kano " مركزا تجاريا هاما في المنطقة.
- قوّة شخصية القائد، فالمصلح ليس بطلا من أبطال الحروب و العسكرية،و لا زعيما من زعماء القبائل فحسب، بل كونه خليفة لأكبر طريقة صوفية و أوسعها انتشارا، فضلا عن كونه عالما من كبار العلماء العاملين و المفكّرين المسلمين في التّاريخ الحديث.
- إتّسام حكومة الشيخ بالعدل و الإستقرار، فتوافد عليه النّاس من جميع الجهات و إنضموا إلى حركته فكانت حركة شعبية متميّزة.
- حركةابن فودي كانت أشبه بثورة على الأوضاع و الذّهنيات الجامدة و الأوضاع الفاسدة في المجتمع و الإدارة و القضاء و تعليم المرأة،فنجح في زعزعة الوثنية و تحطيم أركانها و القضاء عليها، و تخلّص من البدع و الضلالات و العادات السيّئة التي لا صلة لها بالمجتمع الإسلامي.[2]

---

(1) توماس أورنولد : المرجع السّابق، ص 362.

(2) - د/ عبد الله عبد الرّازق ابراهيم : (حركة الشّيخ عثمان بن فودي الإصلاحية في غرب إفريقيا و آثارها الدينية)، حوليات كلية الإنسانيات و العلوم الإجتماعية، مرجع سابق، ص ص 152-153.

و لّما استقرّت الأوضاع في هذه الدّولة الإسلامية رأى الشيخ ان يتخلى عن زمام القيادة لبعض الكفاءات من أسرته ليتفرّغ للتدريس و الوعظ و الإرشاد و التأليف[1](*)، فنصّب نجله محمد بلو أميرا على البلاد الشرقيّة، و أخوه عبد الله بن فودي أميرا على البلاد الغربية و ذلك في عام 1227ه 1813 م [2].

انبرى كل من الأميرين يواصل نشاطه و جهاده في سبيل إعلاء كلمة الاسلام ونشرها بين النّاس، بينما انكبّ الشيخ عثمان على التأليف و التدريس و الوعظ و الارشاد لتكوين جيل صحيح العقيدة, شجاعا مؤمنا إيمانا كاملا بأنّ العبوديّة لا تكون إلاّ لله وحده، و إقرار العبوديّة لله وحده من أسمى قيم وأهداف التربية الاسلاميّة، و هذا ماكان يسعى اليه المصلح عثمان، واستمر يعمل على تجسيده الى ان وافته المنيّة و غادر الحياة في سنة (1232 هـ 1817 م)، عن عمر يناهز الثلاثة و الستين عاما. و بقيت هذه الدولة بعد وفاته قائمة حتى دخول الاستعمار الأوروبي المنطقة ، فواجهه خلفاؤه بقوّة و بسالة،الى ان تمكن من القضاء عليهم وتمّت قسمة البلاد بين النفوذيين الفرنسي و الانجليزي.

و لئن كانت الدولة قد سقطت فان جذوة الجهاد و الاسلام بقيت راسخة في اذهان الافارقة واستمروا مجاهدين ومقاومين الى ان ردّوا الغزاة على اعقابهم، وحقّقوا استقلالهم الذي ينعمون به، و خلدوا أسماء قادة الجهاد الاسلامي على مؤسساتهم مثل جامعة عثمان دان فودي ، و جامعة احمد بلو في شمال نيجيريا اليوم.

ولذلك حق للسيد دانيل Danil أحد الاداريين المستعمرين في بلاد الفولاني عندما وصفه قائلا[3] :

"عاش الشيخ خاتمة أعمال حياته، وجد الاسلام تحت النير فارتفع به الى عليين، و بعد ان كان الفولاني قطيعا من البدو أصبحوا الطبقة الحاكمة في امارات الهوسا، وكان رجلا مخلص العقيدة ذا ايمان ديني عميق و ثقته في الدعوة الالهيّة لا حدّ لها، و شخصيته تبعث الحياة في انصاره في ثقة شبيهة بثقته في نفسه، و عاداته البسيطة في حياته الزّاهرة خلقت تضاربا عميقا مع الضّخامة البربريّة التي تأثّر بها الحكّام الوثنيون، وهو وان لم يكن جنديا فهو يعزو نجاحه الى الله ".

و لهذه الشهادة التي جاء بها احد خصوم الشيخ عثمان و اعداء دينه كفيلة باعطاء صورة ناصعة عن تقوى الشيخ عثمان و ما حققه من انجازات عظيمة قبل وفاته.

---

(1) – د/ زاهر رياض : الممالك الاسلامية في غرب افريقيا، مرجع سابق، ص 297.

(*) – أنظر الملحق رقم (2).

(2) د/ محمّد احمد الحاج : (الشيخ عثمان و الحضارة العربيّة الاسلامية في الاقليم الشمالي لجمهورية نيجيريا الاتحاديّة)، ندوة العلماء الافارقة، مرجع سابق ص 342.

(3) – د/ زاهر رياض : الممالك الاسلامية في غرب افريقيا، المرجع السابق ص 297.

خاتمة الفصل :

بعد استعراضنا لحركة الشيخ عثمان و الأوضاع التي كانت تسود المنطقة قبل و خلال ظهور الحركة، يمكن ان نقول ان افريقيا الغربية التي وصلها الإسلام مبكرا قد تمكّن من نفوس المسلمين الذين صاروا بفضل اعتناقه عن قناعة سهروا على تطبيق شريعته في حياتهم اليومية، و تخلقوا بأخلاق القرآن الكريم و تأسوا في سلوكاتهم بتعاليم السنّة النبوية الشريفة، و اقتدوا بسيرة السلف الصالح، فأقبلوا على العلم و العمل، فظهر من بينهم علماء اجلاء و دعاة مصلحون زادوا في نشر الإسلام و توسيع رقعته و تعميق فهمه لدى الأفارقة، فانتشرت الخلاوي و الكتاتيب و المدارس و المساجد و المراكز العلمية و الثقافية، التي زادت في التمكين للدين و نشر اللغة العربية و آدابها، فظهرت بالمنطقة حضارات افريقية في طابعها عربية في لسانها اسلامية في روحانيتها، فقامت دول و ممالك و امبراطوريات اسلامية، لكن هذه الكيانات السياسية أتى عليها حين من الدهر تخلت فيه عن تمسكّها بالدين ففقدت هيبتها و امتد اليها الضعف و الوهن، فاندثرت كغيرها من الممالك و الدول في مختلف بقاع الأرض .

غير ان ما ميّز المنطقة انها حافظت على خصوصياتها و ثقافتها بفضل بعض القبائل و الأسر التي حافظت على تمسّكها بالإسلام و تعاليمه و الغيرة عليه و الأخذ بما يدعو اليه، فأعطى هذا دفعا قويا لظهور مصلحين في العصر الحديث يدعون الى اصلاح المجتمع و العودة به الى ما كان عليه أيام القوة و الإزدهار، فكانت دعوة الشيخ عثمان بن فودي شيخ الدعاة و رائدهم في منطقة افريقيا جنوب الصحراء الذي رفع راية الإصلاح و الجهاد .

و الواقع ان هناك عوامل كثيرة – اشرنا اليها سابقا – كانت قد ساهمت الى حد بعيد في إذكاء و بعث روح الجهاد الإسلامي الذي كان قد خبا لفترة، فكان له الدور الكبير في دفع حركة الإسلام من جديد في افريقيا الغربية، و بفضل ذلك تمكّنت الدعوات التي شهدتها الساحة الإفريقية من تبني هذا النهج في اصلاحها بعد ان اعيتها الوسائل الأخرى، و لا سيما بعد ان عاد الحكام الوثنيون الى سدّة الحكم و حكموا شعوبا اسلامية علاوة على ظهور طلائع الغزو الإستعماري الأوروبي، الأمر الذي يدعو الى القول ان مسلمي افريقيا كانوا يفهمون الإسلام فهما حقيقيا و يرفضون الخضوع لغير شريعة الإسلام ، و هذا الوضع كان ماثلا أمام الشيخ عثمان الذي تربى تربية دينية صحيحة، فعقد العزم منذ سن شبابه المبكّر على تغيير الوضع الذي آلت اليه البلاد .

و الحق ان ابن فودي ادرك ضرورة و حقيقة الإصلاح في زمن مبكر من حياته، فبدأ حركته بالدعوة الى الإسلام و تصحيحه بالموعظة الحسنة و الطرق السلمية، فعلّم النّاس القراءة و الكتابة و أمور دينهم الصحيحة المجردة عن البدع و الخرافة و السحر، و نصحهم بالدعوة اليها مبينا فضائلها التي لمسوها بأنفسهم،

فزاد الإقبال عليه و على دعوته التي رأوا فيها النجاة و الخلاص مما هم فيه من انحطاط نتيجة تفسّخ الأخلاق و شيوع الرذائل. و هنا نلمس مدى اخلاص الشيخ و قوة تأثيره و انجذاب النّاس نحوه و صوب دعوته .

هذا الوضع لم يعجب الحكّام الوثنيين الذين ناصبوا الدعوة العداء و قاموا بوضع العراقيل و الحواجز أمام الشيخ و اتباعه، و حاولوا التخلص من الدعوة مستعملين كل الوسائل – و هنا يظهر للعيان الصراع بين الخير و الشر – هذا السلوك زاد في فضح الحكّام و أظهر نواياهم السّيئة، كما نستطيع من خلال العرض ان نتبين ان اجراءات الحكام لم تفل من عضد الشيخ، اذ مضى في مواصلة العمل الذي شرع فيه بل زاد اصرارا و صمودا، و زاد انصاره عددا و قوة في العزيمة)لأنهم وجدوا في دعوته ما يحيي نفوسهم و يسموا بها، فاندفعوا خلفه مقبلين على الجهاد مقتنعين بوجوبه لمقاومة الحكام الضالين و الوثنيين الذين زادوا حنقا على الشيخ و اتباعه .

و هنا يمكن ان نقول ان الدعوة التي حملها الشيخ عثمان كانت ثورة على الأوضاع المزرية التي كان يعيشها المجتمع الذي تكمن فيه مبادئ الإسلام التي ادركها عثمان و عرف كيف يحرّكها، فبمجرد ان وضع المصلح يده عليها تشخّص للنّاس موطن الداء و عرفوا كيف يتّجهون إلى الدواء بقيادة زعيمهم، و كان هذا بمثابة الطوفان الذي عصف بالحكّام الوثنيين بعد ان اعلن عثمان الهجرة و رفع علم الجهاد .

و الواقع ان حركة الشيخ بيّنت انها عميقة الجذور بعيدة المرامي، اذ ليس المقصود من ورائها القضاء على الحكام فقط، بل كان يهدف الى ابعد من ذلك، فإلى جانب تصحيح عقيدة المسلمين في المنطقة و اعتناق الوثنيين الإسلام و كسبهم الى صفه و التوسيع من دائرته، كان يهدف الى انشاء دولة تقوم على أساس الشريعة الإسلامية.

و قد استطاع عثمان بفضل اخلاصه و حنكته من تذليل الصعاب و خلق جو من الشورى (الديمقراطية) التي دعا اليها الإسلام لمسناها من خلال التنظيمات التي اقامها لدولته التي بناها، فكانت الخلافة في دولته اقرب الى خلافة بني العباس و هذا يبرز التأثير العربي الإسلامي في دولته .

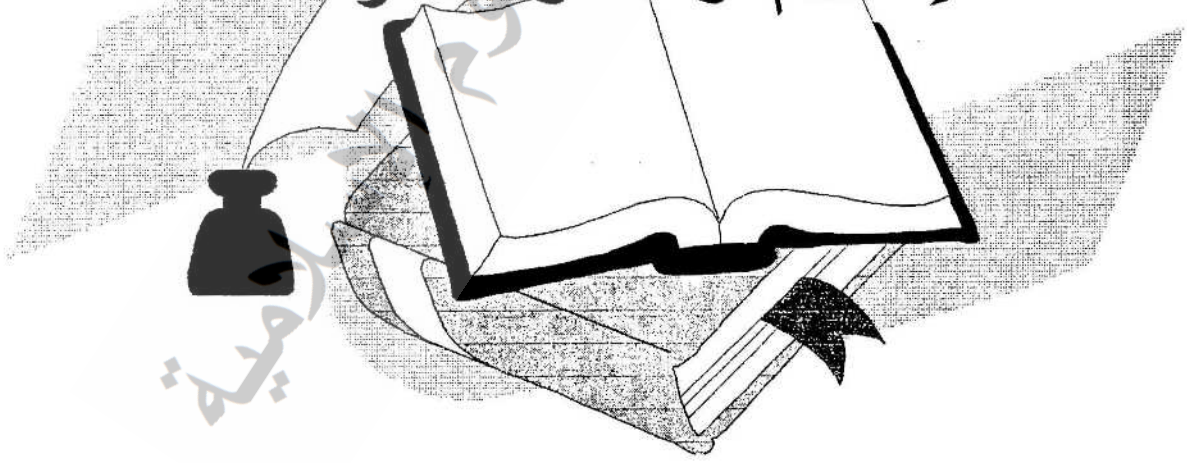
كما أكّد على انه لم يكن عالم دين فحسب، بل فإلى جانب تضلّعه في العلوم الدينية و غيرها، كان رجل سياسة و أحد أساطينها كما كان له دراية و معرفة بالفنون العسكرية، و بينت آثاره المكتوبة و مواقفه في الميدان انه لم يكن معتصبا لأرائه و لم يكن متزمّتا، فرغم كونه مالكيا متشددا لم يرفض العمل بالمذاهب الأخرى، بل فقد ذهب يدعو الى العمل بالإجتهاد لتحقيق طموحات المسلمين و ايجاد الحلول لمعضلاتهم في أمور دينهم و دنياهم .

لقد وفّق عثمان في تحقيق ما كان يصبو اليه فقد تمكّن من انشاء مجتمع اسلامي راشد يخضع لدولة تسوسه بموجب الشريعة التي يؤمن بها، كما استطاع ان يبذر فيه بذور صالحة و يهيء له ارضية نقية بفضل

الفصل الثالث ـــــــ

الفصل الرابع :

حركتا الشيخين : محمد الأمين الكانمي و أحمدو لوبو الماسيني و جهودهما في نشر الإسلام و مقاومة الوثنية



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بعد أن تعرضنا في الفصل السابق إلى الحركة الإسلامية الإصلاحية الرائدة التي قام بها الشيخ عثمان دان فودي في إفريقيا الغربية، و اصلاحاته الإجتماعية و الإقتصادية و الثقافية و السياسية. و ما قام به من دعوة للعودة إلى تعاليم الدين الإسلامي و نشره و تصحيح مفاهيمه داخل حدود بلده و خارجها، لم تبق دعوته سجينة هذا الإطار الجغرافي،بل تعدّته إلى الأقطار المجاورة و كانتلها آثار مباشرة و عميقة الجذور في مختلف المجتمعات و القبائل الإفريقية، فقد امتد نشاط حركته إلى السودان الأوسط مستهدفة تحرير المسلمين، و لاسيما سكّان إمبراطورية " كانم " الإسلامية التي خرج حكّامها عن تعاليم الإسلام،و رأى خلفاء عثمان ضرورة التصدي لهذا الوضع و اعلان الجهاد ضد هذه الدولة التي تدهورت أحوال الإسلام و المسلمين بها.

في هذا الجو المتعفّن ظهر مصلح في هذه البلاد تصدى للمفاسد و المنكرات التي شاعت في مجتمع "كانم برنو " و وقف في وجه دعاة الجهاد الذي حمله شعب الفولاني بزعامة خلفاء عثمان بن فودي ضد الدولة الكانمية.

بالإضافة إلى ظهور داعية آخر في بلاد السودان الغربي الذي كان له صلة وثيقة بالشيخ عثمان،و كان أحد أعوانه و مريديه، فقد ثار هذا المصلح أيضا على الأوضاع الفاسدة و المظالم التي حلّت بالمجتمع و خروج المسلمين عن تعالم الدين، على الحدود الغربية لدولة الفولاني و تلك هي بلاد " ماسينا " "Macina" فتلقى الدّعم المادي و المعنوي من قبل الشيخ عثمان و كلّلت هذه الدعوة الإصلاحية الجديدة بقيام دولة ماسينا الإسلامية.

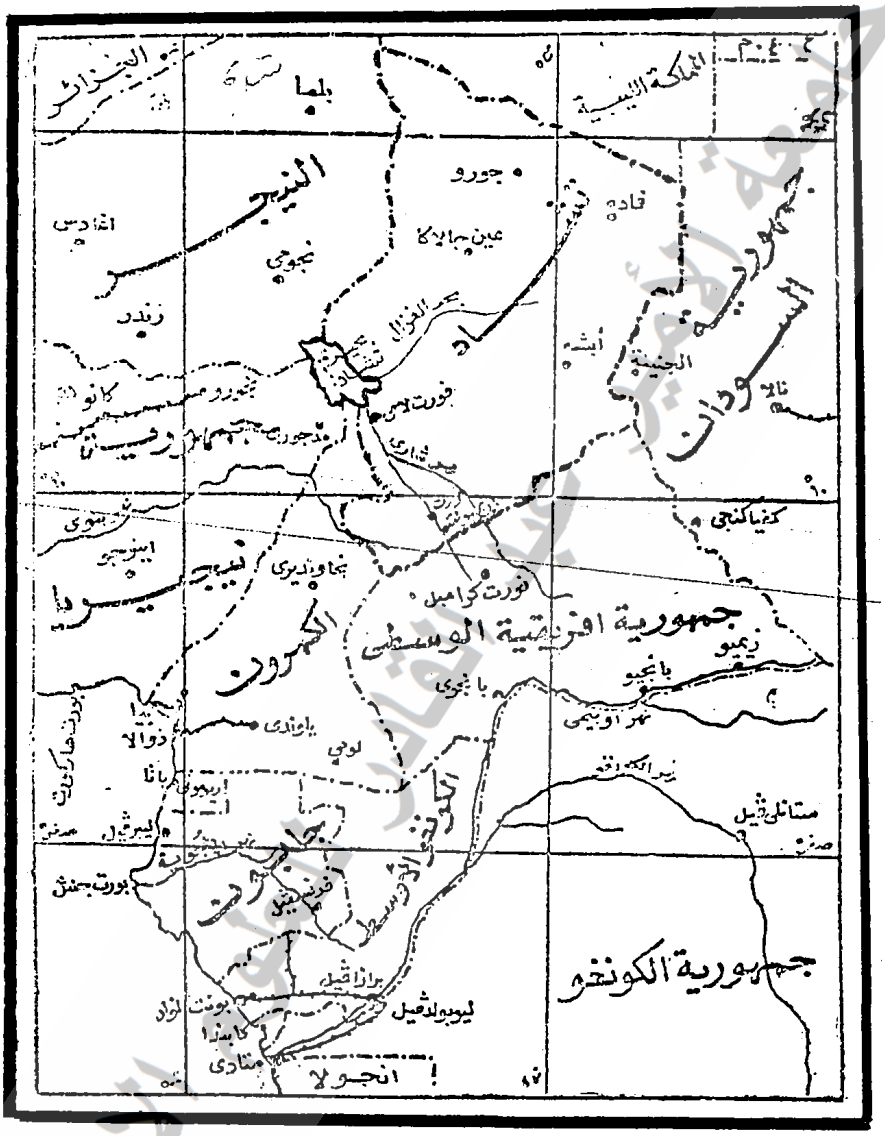
و سأتعرض في الجزء الأوّل من هذا الفصل لدراسة الحركة الأولى و أعرّج في الجزء الثاني من الفصل على دراسة الحركة الثانية.

أ - حركة محمد الأمين الكانمي في السودان الأوسط :

سنتناول بالدراسة في هذا الفصل حركة من الحركات الإصلاحية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري، النصف الأوّل من القرن التاسع عشر الميلادي التي عرفتها إفريقيا في إحدى أهم جهاتها و أكثرها إستراتجية و حساسية و أشدّها حيوية، لأنها النطاق الذي يربط شرقي القارة و غربيها من جهة و شمالي الصحراء الإفريقية الكبرى و جنوبيها من جهة ثانية، هذه المنطقة هي التي أطلق عليها قديما اسم السودان الأوسط، و يطلق عليها اليوم إسم بلاد " تشاد "(*) و ما جاورها،وهذه الدّعوة قامت لاصلاح أحوال المسلمين و تنقية الإسلام من الأدران التي علقت به من جراء الإنحطاط الفكري الذي بلغه المسلمون في تلك الإصقاع من جانب ،و نشر الإسلام بين بعض القبائل التي مازالت ترزخ تحت نير الوثنية من جانب آخر،

(*) أنظر الشكل رقم (6)، ص 119.

الشكل (6)



دولة تشاد عن د/ فليب رفلة : الجغرافية السياسية الإفريقية ص 530

علاوة على وقوف زعيم الحركة أمام الغزو " السوكوتي " الذي ما فتئ يهدد وحدة البلاد و إستقلالها، هذا المصلح هو الشيخ محمد الأمين الكانمي.

أوضاع السودان الأوسط قبل ظهور الحركة :

وصل المد الإسلامي الذي انطلق من شبه الجزيرة العربية إلى منطقة السودان الأوسط في القرن الأوّل الهجري، السادس الميلادي[1]، مع الطلائع الأولى لجيوش الفتح العربي الإسلامي بقيادة الصحابي الجليل " عقبة بن نافع الفهري " إلى إقليم " كوار " " Cawar " و ذلك في عام (46 هـ، 666 - 667م) و كان أول بلد من بلدان السودان يدخله الإسلام هي بلاد " كانم[*] برنو " " Barno Kanem "، حيث اعتنق سكّانها الدعوة الإسلامية و تمسّكوا بها و خاصة سكّان حاضرتها الأولى التي كانت تقع في البداية في الجهة الشمالية[**] قبل أن تنتقل الحاضرة إلى الجهة الغربية من البحيرة[2]. و بالرغم من قدم التأثير الإسلامي في المنطقة و انتشاره على نطاق واسع بين عامة الجماهير الشعبية،إلا أن حكام بلاد " كانم برنو " لم يعتنقوا الدين الإسلامي الحنيف إلا في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، غير أن الكتابات التاريخية تقول أن امبراطورية " كانم برنو " كانت مزدهرة منذ القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي حتى القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي[3].

و من هنا يمكن الوقوف على حقيقة هامة و هي أن حكّام " برنو " رغم عدم اعتناقهم الدين الجديد إلا أنّهم لم يحاربوه و لم يقفوا حائلا دون انتشاره في البلاد بين عامة الناس، لذلك فمنذ القرن الثامن الهجري، منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، شهدت الساحة انتشارا واسعا للإسلام في ربوع بلاد السودان الأوسط، و لاسيما بين معظم سكان مناطق " الكانم ".

و قد ذكر العلامة ابن خلدون في تاريخه[4] - عند تعرضه لذكر تاريخ و أخبار ملوك السودان المجاورين للمغرب الإسلامي - : "***أن منهم تاجره و يليهم الكانم و هم خلق عظيم و الإسلام غالب عليهم***"، و مما زاد في انتشار الإسلام و تعميق مبادئه و تجذرها في المجتمع، اعتناق حكام البلاد للدين

(*) - كانم : ورد اسمها في المراجع كما يأتي : كانم، غانم، قانم، كانبو. و تذهب بعض المراجع إلى أن الإسم مستمد من " برنوح "، انظر عباس محمود العقاد، موسوعة العقاد الإسلامية، م5، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1971، ص 356.

(1) - د/ مسعود بن عبد الله الكيلاني : (التواصل الإنساني و أثره في وحدة العقيدة بين شمال الصحراء و بلدان السودان الغربي)، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، عدد 13، طرابلس، الجماهرية الليبية، 1996، ص.ص 305،306.

(2) - Robert et marianne Cornevin : op.cit pp 163.164.

(**) - بحيرة تشاد تتربع على مساحة 25 ألف كم^2 قليلة العمق مياهها عذبة تشترك مع حدود كل من نيجريا و النيجر و الكامرون و تشاد. انظر د/ اسماعيل العربي : الصحراء الكبرى و شواطئها، مرجع سابق، ص 25.

(3) - د/ عبد الحي عبد الحق : (إنتشار الإسلام في السودان الأوسط)، ندوة العلماء الأفارقة، المرجع السابق، ص 116.

(4) - عبد الرحمن ابن خلدون : المصدر السابق، م6، ص412.

الإسلامي الحنيف و العمل بمقتضى أحكامه،فازدهر الإسلام و شاع نوره في عموم البلاد حتى عمّ أطرافها، و اهتم حكام " كانم برنو " بالعلم و اعتنوا به عناية فائقة فشجّعوا العلماء و حفّزوهم و حفوهم بالتقدير و الإحترام، و قاموا بتشييد المدارس و المساجد في مختلف أنحاء البلاد و سهروا عليها و وفّروا لها كل ما تحتاجه، و وثّقوا العلاقات الثقافية و الإقتصادية و الدبلوماسية مع الدول المجاورة، و ما لبثوا أن طوّروا هذه العلاقات و مدوا جسورها لتصل إلى دول المشرق و المغرب الإسلاميين، ثم اجتهدوا في توسيع الرّقعة الجغرافية للدولة الكانمية، و كان هذا مصحوبا بنشر الإسلام و ثقافته و اللغة العربية و آدابها.

و قد لعبت القوافل التجارية بالإضافة إلى قوافل الحج دورا بارزا في تمتين روابط الأخوة و الصداقة و توطيد العلاقات السياسية و الإقتصادية و الثقافية و الإجتماعية بين دولة " كانم برنو " من جهة،و الدول الإسلامية في المشرق و المغرب من جهة أخرى[1] لاسيما و انه من عادة سكان تلك الجهات من إفريقيا أن قوافل حجاجهم كان يقودها الملوك و يسهرون على رعايتها بأنفسهم، و كانت القافلة تضم جماهير غفيرة من الحجاج كما حدث مع الملك " منسى موسى " حاكم مالي، و " أسكيا الحاج محمد " ملك " سنغاي " و غيرهما[2].

و مما لاشك فيه أن رحلات الحج و ما يصاحبها من أنشطة، قد فتحت الأبواب على مصراعيها و أتاحت فرصا عديدة استغلّها حكام و سكان بلاد السودان الأوسط في الإطلاع و التعرف و الإستفادة من مختلف النشاطات العلمية و الفكرية و الإجتماعية و الإقتصادية، سواء في المغرب أو المشرق الإسلاميين.

و الحق أن هذه الروافد كان لها القسط الأوفر في تعميق الأثر الإسلامي و نشر الثقافة العربية الإسلامية و اللغة العربية بين الناس، خصوصا أن هذه القوافل سواء منها التجارية أو الحجاجية كانت تضم بين صفوفها العلماء و الدعاة و المعلمين الذين كانوا يحتكون بالسكان و يتّصلون بالأمراء و الملوك حيثما مرّوا، فزادت العلاقات متانة و استحكاما.

و الواقع أن الفضل الأكبر في ارساء دعائم هذه العلاقات و توثيقها مع البلاد العربية الإسلامية بالمشرق يعود إلى الملك " دونامة بابلمي " Donama Babalmi " (490هـ ، 1097م / 545هـ، 1150م)، أثناء رحلته إلى الحج ذهابا و إيابا مرّتين[3]، حيث اتّصل بالحكام و الملوك خاصة في مصر، و كان لهذا الإتصال أثره الإيجابي و العملي في ربط الصلات و استمرارها، و ذلك بتأسيس مدارس في مدينة القاهرة قصدها طلاب " البرنو " في ما بعد، كما أنشئ رواق خاص بالأزهر الشريف أفرد لطلبة هذا البلد أطلق عليه

---

(1) - Robert et Marianne Cornevin : op.cit. P 170.

(2) - د/ أحمد شلبي : المرجع السابق، ج6، ص 299.

(3) - Robert et Marianne Cornevin : op.cit. P170.

اسم " رواق برنو "، و قيل أنه مدرسة عليا خاصة بالكانميين[1]، و قد بلغت دولة الكانميين ذروة مجدها في القرن العاشر الهجري، حوالي النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي على عهد السلطان المجاهد "إدريس بن علي ألومة " " Aloma " الذي اهتم بتنظيم شؤون الدولة من جميع نواحيها و بذل جهودا معتبرة في محاولة اصلاحها بمقتضى تطبيق قوانين مستمدة من الشريعة الإسلامية السمحاء.

و قد ذكر " الشريف ابراهيم صالح الحسني " أن السلطان اهتم بشؤون البلاد اهتماما كبيرا و أعطى الأولية لتطوير الحالة الإقتصادية للدولة و اقامة نظام إسلامي شامل يكفل لجميع السكان العدالة الإجتماعية و تطبيق الشرع الإسلامي.

غير أن دوام الحال من المحال – كما يقال – فان الإزدهار الإقتصادي و القوة اللتين بلغتهما الدولة و نعمت في ظلّهما بالرخاء و الرفاه لم يستمرا طويلا، إذ سرعان ما أعقبهما الضعف الإقتصادي و الركود الفكري، فعمّ الفساد الإجتماعي و الإنحطاط الخلقي، و بدأ الوهن يستشري في أوصال الدولة البرنوية و ذلك منذ الربع الثاني من القرن العاشر الهجري، الربع الثاني من القرن السابع عشر الميلادي[2]، بعد وصول السلطان عمر بن قسّام (1036هـ، 1626م / 1055هـ، 1645 م)الذي اشتهر بالبأس و البطش و الشدّة، فقام بمحاربة العلم و العلماء الأمر الذي دفع إلى تشريد بعضهم، و قتل بعضهم الآخر، تلفيق التهم بغية التشهير بآخرين، و هذا بطبيعة الحال سيؤدي إلى المزيد من التدهور و الإنحطاط، إذ من الصعب بناء دولة على الجهل و يقوم بها أشباه المتعلّمين إن لم نقل هذا مستحيلا، و بلغ الضعف مداه في مطلع القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، عندما تخلى السلاطين عن الدين و استمرّوا في عزوفهم عن الحكم بمقتضى الشريعة الإسلامية، و وقوف بعض العلماء إلى جانبهم و السكوت على تصرفاتهم و غض البصر عن سلوكاتهم المنافية لتعاليم الإسلام إرضاءلشهوات الملوك و رغباتهم، فكانت النتيجة التدهور و الإنزلاق إلى أدنى درجات الإنحدار مما ساعد على ظهور دعاة و مصلحين على مسرح السودان الأوسط في محاولات منهم لإعادة المياه إلى مجاريها و اصلاح ما أفسده المفسدون و انقاذ المجتمع و الدولة مما حاق بهما من أخطار، و تصحيح الإسلام و تنقيته مما علق به من بدع و خرافات و أباطيل بسبب سياسة الملوك المنحرفة و تقاعس العلماء الذين ساروا بدورهم في ركابهم، و من بين هؤلاء الدعاة المصلحين الشيخ محمد الأمين الكانمي الذي برز كقوّة جديدة في المنطقة وقفت في وجه قوّات الفولاني الزاحفة على البلاد[3] على أيام سلطانها " محمد بن علي" الذي عجز عن صد هجماتهم، و هزمت جيوشه و سقطت العاصمة في يد خلفاء عثمان دان فودي

---

(1) – Robert et Marianne Cornevin : ibid. P170.

(2) – د/ حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق، ص 129.

(3) – د/ أحمد شلبي : المرجع السابق، ج6، ص 295.

سنة (1234هـ، 1818م)[1].

و بذلك يظهر الكانمي على الساحة السياسة كمنقذ للبلاد، و رغم ذلك لم تنفرد هذه الأسرة بالحكم إلا في عهد ابنه و خليفته، لأن محمد الأمين ظل يقنع بالسلطة الدينية و العملية مع ترك الإسم للأسرة السيفية التي كانت تحكم البلاد من قبل[2].

و من هنا يمكن القول أن الكانمي بسلوكه هذا بين أن هدفه الإصلاح و انقاذ البلاد لا غير،عكس ما وصف به من طرف بعض خصومه بأنّه كان متعطّشا للسلطة و الحكم.

نشأة الشيخ محمد الأمين الكانمي :

حياته و أعماله : ولد محمد الأمين المشهور بالكامني بمنطقة " فزان "[*] شمال شرق البلاد الليبية على أرجح الروايات[3]، تلقى تعليمه الأوّلي بمسقط رأسه، فحفظ القرآن الكريم و درس علوم الشريعة و اللغة العربية و آدابها، و لم يكتف بذلك فصمّم على الرحيل قاصدا الأزهر الشريف لمتابعة دراسته، و مكث به خمس سنوات يغترف العلوم و المعارف على يد شيوخه الأجلاء، متنقلا بين عمود و عمود، و من شيخ إلى آخر، و بعد أن شعر بالإرتواء قرر مغادرة مصر باتجاه بلاد الشام و زيارة أولى القبلتين و ثاني الحرمين الشريفين – القدس – و هناك جاور لمدة سنتين اثنتين احتك خلالهما بطلاب العلم و بالعلماء و الفقهاء من مختلف المذاهب و المشارب و استفاد منهم، فاكتسب شهرة واسعة في ميدان الثقافة الإسلامية[4].

في هذا المناخ العلمي و الديني باحدى أقدس بقاع الأرض تم له الإتصال بالحجاج و المعتمرين و الزّوار الذين كانوا يتوافدون على القدس، فساهمت هذه الإتصالات في صقل مواهبه و وسّعت من مداركه و زادته خبرة و بعد نظر، بما زوّدته من معلومات كانت خافية عليه،فاطلع عما يعانيه العالم الإسلامي، و ما يحدث بين جنباته فزاد في تعميق فكره و احساسه بالمسؤولية.

لم يكتف محمد الأمين بما حصّل عليه من علوم و معارف في بلاد الشام، فقرر مغادرة البلاد و شد الرحال ميمّما هذه المرة وجهه شطر جزيرة العرب مهبط الوحي الإلهي و بالضبط إلى البقاع المقدسة، فحطّ الرحال في الحرمين الشريفين و شرع في الدرس و التحصيل على يد علماء مكة و المدينة من جهة، و أداء

---

(1) – حسن أحمد محمود : المرجع السابق، ص 274.

(2) – د/ أحمد شلبي : المرجع السابق، ج6، ص 296.

* أنظر الشكل رقم 8 ص 165

(3) – د / محمد سعيد القشاط : جهاد الليبيين ضد فرنسا في الصحراء الكبرى (1854 – 1988م)، ط1، مركز الجهاد الليبي، طرابلس، 1989، ص 65.

(4) – د/ أمين اسير : افريقيا و العرب، ط1، دار الحقائق، بيروت، 1980، ص 24.

فريضة الحج و الإتصال بالناس من جهة ثانية.

و هناك طاب له المقام فجاور في مدينة الرسول (ص) لمدة عامين كاملين لم يغفل فيهما عن طلب العلم و العبادة و السعي لمجالسة العلماء و محاورتهم في مختلف الفروع العلمية، فزادت صلته و توثقت علاقاته بهم، فزادت معرفته بما يعانيه المسلمون. و لما شفي غليله من علوم المشرق، قرر الإنتقال إلى المغرب، فزار طرابلس الغرب و القيروان و عرّج على تلمسان و منها قصد مدينة فاس المغربية[1]، حيث أقام بها ردحا من الزمن يغترف من خزائن العلم و كنوزه و يتصل بالعلماء يستفيد من علمهم و خبراتهم في معالجة القضايا و سبل حلّها، و يختبر أحوال المسلمين و يطلع على مشاكلهم بنفسه.

بعد سنتين من الدرس و التدبر زاد فكره نضجا و اكتملت مواهبه و نما حسّه بعد تبحره في هذه العلوم العقلية و النقلية. بعدها غادر فاس متّجها صوب الجنوب الشرقي قاصدا مدينة " تمبكتو " " Tumboucto"

كان الشيخ " الكانمي " خلال هذه الرحلة الطويلة – نسبيا – التي تجاوزت خمسة عشر حولا منكبا على التعليم غير عابئ بما يعترض سبيله من مشاكل و عراقيل، باذلا قصارى جهوده في دراسة المذاهب الإسلامية جميعها و بالأخص مذهب إمام المدينة مالك بن أنس (93 هـ، 711م / 179هـ، 795م)، بالإضافة إلى الإطلاع على أنواع مختلفة من العلوم و المعارف العصرية.

بعد هذه السياحة العلمية و العملية المضنية في ربوع العالم الإسلامي مشرقه و مغربه و آدائه لمناسك الحج و احتكاكه بالناس على مختلف ألوانهم و مشاربهم و طبقاتهم، اكتسب خبرات و مهارات واسعة و اشتهر بين الناس عامتهم و خاصتهم كعالم له ثقته و إعتداده بنفسه، فقرر التوجه إلى السودان الأوسط.

و من خلال هذا الإختيار يمكن القول أن محمد الأمين كان يعرف الحالة التي كان عليها المجتمع في السودان الأوسط، و ما بلغه من تدهور و انحطاط، خاصة و أن الشيخ زار " تمبكتو "[2]. هذه الحالة التي تستدعي التهذيب و الإصلاح الفوري، لذلك إختار المنطقة ميدانا لحركته و محل إقامته مستقبلا.

قصد محمد الأمين منطقة بحيرة تشاد، و كله أمل في أن يقوم بدعوة إصلاحية لتنقية العقيدة الإسلامية في تلك النواحي من الشوائب و البدع و الخرافات التي علقت بها خلال القرون المتأخرة، و القضاء على الدجل و الفتن التي ما انفكّت تزداد يوما بعد يوم، حتى كادت تعصف بالمجتمع هناك، و تذهب بعض الروايات إلى القول أن سلطان " برنو " " محمد بن علي " هو الذي طلب منه ذلك[3]، و لعل ما مهّد له

---

(1) – الشيخ ابراهيم صالح : تاريخ الإسلام و حياة العرب في إمبراطورية كانم برنو،دار المعارف، مصر،بدون تاريخ، ص.ص.، 118،119.

(2) – الشيخ ابراهيم صالح : المرجع السابق، ص 119.

(3) –د/ حسين مؤنس : أطلس العالم الإسلامي، ط1، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1407هـ، 1987م، ص 387.

السبيل و ساقه إلى عرش مملكة " البرنو " الإسلامية، ما كان يتمتع به الشيخ من شهرة كبيرة و سمعة طيبة و ذكر حسن، بسبب تضلعه في العلوم المختلفة و تبحره في العديد من فنونها و أنواعها[1]، بالإضافة إلى ما عرف عنه من وقار و تقوى و صلاح، كما أشتهر بالغيرة و الجد و الإخلاص في سبيل الدعوة إلى الإسلام الصحيح و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، فقد كان يتمتع بشخصية قوية و صبر على الشّدائد و كان لا يخشى في الحق لومة اللائمين. فكثر أتباعه و تلاميذه الذين ينتمون إلى مختلف القبائل و البطون التي استوطنت حوض بحيرة تشاد و ما جاورها[2]. و بينما كان الشيخ يدعوا الناس و يصحح عقيدتهم و يصلح من أحوالهم لإعادتهم إلى جادة الإسلام الصحيح، حاقت بالبلاد المخاطر و حفّتها من كل جهة و دقّ ناقوس الخطر في كل ركن من أركانها، و وقع الحكام في حيرة من أمرهم.

في هذه الأثناء و في غمرة هذه الأحداث اتصل به حكّام " برنو " و استنجدوا به للدفاع عن سلطانهم و الذوذ عن حياض ملكهم المهدد من طرف حكام " سوكوتو " خلفاء عثمان دان فودي فلبى الطلب[3].

تولى محمد الأمين الكانمي الأمر و أنبرى في البداية للدفاع عن سلطان " برنو " ضد قوات (مجاهدي) سوكوتو. و بعد رد العدوان أعاد الحكام إلى مناصبهم و اكتفى بلقب الشيخ و أن كان هو السيد المطاع. و لما عجز السلاطين على تسيير البلاد، استدعي ثانية، ثم حاولوا التمرّد عليه فأقدم على حكم البلاد بنفسه[4].

و ما يمكن استخلاصه من نتائج في هذا الموطن أن الحالة في بلاد " البرنو " كانت متعفنة إلى درجة لا يمكن تصوّرها، و أن الحكام قد فقدوا واجب احترام و طاعة الرعية لهم، و بذلك فقدوا السيطرة عليهم بسبب ضعفهم و سياساتهم الظالمة البعيدة عن الإسلام و روحه، الأمر الذي جعل الناس يبتعدون عنهم، كما تبين أن الشيخ الكانمي كان يتمتع بثقة كبيرة و سلطة واسعة في أوساط المجتمع البرنوي، مما مكّنه من افتكاك السلطة من الحكام و حيازتها بسهولة و يسر دون إراقة للدماء، و كان ذلك سنة (1242هـ، 1826م)[5]، و اتخذ لنفسه عاصمة جديدة لحكم البلاد و صار منذ ذلك الحين هو السيد المطاع في البلاد.

---

(1) – د/ أحمد شلبي : المرجع السابق، م6، ص 295.

(2) – د/ حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق، ص 129.

(3) – حسن أحمد محمود : المرجع السابق، ص 274.

(4) – د/ أحمد شلبي : المرجع السابق، م6، ص 295.

(5) – حسن أحمد محمود : المرجع السابق، ص 274.

سياسة المصلح محمد الأمين و منجزاته :

كانت سياسة الشيخ محمد الأمين الكانمي في بداية الأمر مركّزة على حماية حدود الدولة و الوقوف في وجه قوات خلفاء الشيخ عثمان بن فودي و أنصاره، و التصدي لهم باعتبارهم خطرا خارجيا كبيرا على البلاد، و لاسيما و أنّهم في هذه الفترة شرعوا في غزو بلاد " البرنو " و تخطي حدودها بدعوى الجهاد، و قد عارض الكانمي هذه الدعوة و اتهم الفولاني باقبالهم على عرض الدنيا[1].

و الحق أنه بالرغم من الإمكانات الضعيفة و القوة المحدودة التي يتوفر عليها الكانمي، إلا أنه تمكن من صد هذه الهجومات " الصكتية "و الوقوف سدا في وجهها، فلم تستطع السيطرة على البلاد و عادت أدراجها، فاستعادت المملكة كيانها بعد أن كادت تضمحل[2]، و لما استتب له الأمر نسبيا وجّه اهتماماته إلى نشر الدعوة الإسلامية خارج حدود البلاد حتى بلغت جنوب دولة نيجيريا الحالية و بلاد الكاميرون.

لم تتوقف جهود الكانمي عند حد إيقاف هجومات خصومه، بل راح يبذل كل طاقاته و جهوده مسخّرا كل ما استجمع من قوّة في محاولة لإسترداد كل الأقاليم و الأراضي التي كانت تابعة لمملكة "برنو" سابقا، و ضمها لسلطانه. غير أن كل محاولاته في هذا الباب تبدّدت و باءت بالفشل إذ لم يفلح في استعادة كل ما فلت من يده و سلخ من المملكة البرنوية[3]، و من هنا يمكن أن نتبين القوة التي كانت عليها المملكة "الصكتية " من جهة، و مستوى دولة " برنو " على أيام الكانمي من جهة ثانية.

و لئن كان محمد الأمين قد أخفق في لم شمل الدولة و استعادة ما فقدته من الأملاك، فانّه استطاع أن يقف ندا في وجه خصومه رغم المدة القصيرة التي كان فيها على رأس السلطة رافعا للسيف مجادلا باللسان و القلم مجاهدي " سوكوتو " " Sokoto "، كما أنه أعاد إلى المملكة حكم الشريعة الإسلامية و أرسى قواعدها، و حكم الناس بموجبها، فأحيا السنن وبذلك تأجج نور الإسلام في النفوس بعد أن حاول أسلافه إخماده و القضاء عليه و اطفاء شعلته. و على الرغم من قصر فترة حكمه فقد ساس البلاد بنجاح من عاصمته الجديدة " كوكا " Cuca " التي كان قد شيّدها سنة (1230هـ، 1814م)[4].

---

(1) - د/ حسن أحمد محمود : المرجع السابق، ص 265.

(2) - د/ عبد الحي عبد الحق : (انتشار الإسلام في السودان الأوسط)، ندوة العلماء الأفارقة، المرجع السابق، ص 123.

(3) - د/ أحمد شلبي : المرجع السابق، ج6، ص 296.

(4) - د/ حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق، ص 129.

موقف الكانمي من الجهاد السوكوتي :

استنكر الشيخ محمد الأمين المنطق(الراديكالي)الذي سلكته جماعات الشيخ عثمان دان فودي متهما إياها بالشدّة و التسرّع و التطرّف المشين،و الخروج عن طاعة الإمام و إثارة الفتن و القلاقل و نشر الضلال و البدع باستباحة سفك دماء المسلمين الأبرياء، و ترويع أطفالهم و نسائهم و شيوخهم،و استحلال أعراضهم و أملاكهم بغير وجه حق،في سبيل ارضاء الطموحات الشخصية و النزوات النفسية و النزاعات العصبية التي أدانها الإسلام و مقتها و دعا إلى العزوف عنها و التخلص منها نهائيا، كما شكك الشيخ في شرعية الجهاد و مشروعيته (الحرب المقدسة)[1] حسب ما وصل اليه اجتهاده،فإن الأسباب التي تذرع بها مجاهدوا " سكوتو " " Sokoto " أسبابا لا ترتقي الى حد حمل السيف و استخدامه ، بيد انهم اتخذوا منها ذريعة لرفع راية الجهاد ضد مملكة " برنو " و هو لا يستدعي حقيقة جهادا في هذه البلاد الإسلامية، فالفساد السياسي و الإجتماعي و الإنحطاط الخلقي و الإستهتار بالقيم الإسلامية و الإنسانية ليس مقصورا و لا محصورا في ناحية ما من العالم الإسلامي الرحب، بل الفساد قد استشرى و عم جميع البلاد الإسلامية مغربها و مشرقها، بالرغم من التاريخ الطويل و عراقه رسوخ العقيدة الإسلامية في هذه الربوع الشاسعة منه ، لم يرضي هذا خصومه الذين رأوا ان تشمل حركتهم و جهادهم كل البلاد ، بما فيها بلاد "البرنو " ، فهذا منطق غريب الذي جاء به المصلح الكانمي. فمن وجهة نظرهم ان مسؤوليات العلماء المسلمين الذوذ عن الإسلام و حياضه و محاربة البدعة و الضلالة اينما وجدت و كيفما كانت ؟ و أن تقاعس علماء المغرب و المشرق و عدم قيامهم بواجبهم التكليفي هو حجة عليهم و ليس على مجاهدي " سوكوتو ". كما ان الضيم الإجتماعي و الفساد الأخلاقي و التسلط السياسي و الإستبداد المستمد من الرواسب العميقة للمجتمعات الإفريقية المتطرفة يتطلب تحكيم الشريعة الإسلامية، و اقامة الجهاد و حث النّاس و دفعهم اليه حتى تعلو راية الإسلام في ربوع البلاد و يعم العدل .

مراسلات الكانمي و محاوراته المجاهدين :

منذ ان وطئت أقدام الشيخ الأمين مملكة "كانم برنو " و هو يعمل دون كلل في حقل الدعوة و الإصلاح و تنقية الشريعة السمحاء مما علق بها من شوائب، و محاولة حقن دماء المسلمين الزكية التي أريقت دون وجه حق، و خاصة بعد تفاقم خطر الفولاني اتباع ابن فودي، فقد شرع الكانمي في مراسلة و محاورة المجاهدين في " سوكوتو " Sokoto " – انصار عثمان بن فودي –.و ممّا جاء في أول خطاب موجّه منه. إلى

---

(1)- W.july. Robert :Histoire des peuples d'afrique .Tome 2.nouveaux horizon S E 200,

المجاهدين مستنكرا عليهم أمر الجهاد بما يأتي قوله :[1] "... ***لما ساقتني المقادير لهذا الإقليم وجدت النار بينكم و بين أهل الوطن موقدة فسألت عن السبب، فقيل بغي، و قيل سنة، و تحيرنا في الأمر ....فقمنا مدافعين عن انفسنا متبرئين لله من سوء صنيعكم حين ضاقت علينا الأرض و لم نجد مقاما و لا مجالا .***"

لم يتوقف خطاب الشيخ عند هذا الحد بل راح يكبر و يستنكر على المجاهدين بعض الأعمال مستهجنا ما ترتب من مآسي و أحزان جراء الحرب بين المجاهدين و سكان برنو .

فيقول[2] :" ... ***فاخبرونا عن قتالكم و استرقاقكم أحرارنا، إن قلتم فعلنا ذلك لكفركم فإنا من الكفر براء، و هو بعيد عن ساحتنا، فإذا كانت اقامة الصلاة و إتاء الزّكاة و معرفة ا لله و صوم رمضان و عمارة المسجد كفر، فما الإسلام ؟ فهذه الأبنية التي أقمتم بها الجمعة كنائس ام بيع ام بيوت نيران؟ و إن كانت من غير شعائر الإسلام، فلم صليتم فيها حين ملكتم؟ هل ذلك الاّ اطلاق متناقض؟ أما عن المخالفات التي يرتكبها الأمراء و عامة النّاس من ركوب الى بعض الأماكن " المقدسة " بغرض التصدق و كشف رؤوس النساء و أخذ الرشوة و أكل مال اليتيم و الجور في الحكم، فإن هذه الأشياء مع تحريم مرتكبيها إلاّ انها لا تستدعي اقامة الجهاد .***"

و من هذه الرسالة الموجهة الى المجاهدين نلاحظ الأسلوب العلمي الواضح في الخطاب، و الديبلوماسية البعيدة عن المخاتلة و الخداع، و الحوار المرن الخالي من أية لهجة حادة او تحد للخصوم مخاطبا فيهم العقل و العاطفة معا، نافيا عن أهل برنو صفة الكفر، سائلا المعتدين على حقيقة الإسلام و كنهه. و باسلوب الإستفهام و العتاب يسأل المجاهدين و يستفسرهم عن إقامة الصلاة في أبنية أهل برنو إذا لم تكن مساجد و دور عبادة ؟.

و بأسلوب العالم المتدين العارف لحدود الشريعة و مقاصدها ينبه الى ضرورة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر بالتوجيه و الإصلاح دون ضرورة لحمل السيف و اقامة الجهاد .

فحسب رأي الكانمي فإن مثل هذه السلوكات و الأعمال بدع مذمومة يجب النهي عنها و استنكار فعلها، و الوقوف في وجهها و محاربتها لإستئصال شأفتها، على اعتبار انها من المفاسد و المظالم التي يمقتها الشرع، و ينهى عنها الإسلام، غير أنها لا ترقى لتكفير فاعلها .

و قد حاول الكانمي عقد مقارنة بين ما كان قائما من أوضاع اجتماعية و أخلاقية في مملكة "برنو " الإسلامية من جانب و ما كان في البلاد المصرية من جانب آخر بغية الكشف عن حقيقة هذه الأوضاع السائدة و معرفة ما إذا كانت بعض الإعتقادات قد بلغت درجة الكفر فعلا، كما يشيع أتباع عثمان دان

---

(1) – احمد محمد كاني : المرجع السابق .ص.89

(2) – أحمد محمد كاني :نفس المرجع، ص 90.

فودي، قائلا :[1] " ***و هذه دمياط مدينة عظيمة من مدائن الإسلام و هي مصر و الشام، و ذلك موضع العلم و الإسلام و بأرضها شجرة تفعل العامة عندها مثل فعل الأعاجم و لم يقم أحد من العلماء لقتالهم و لا أحد يكفّرهم*** ".

و يبدو أن هذه المواقف السلمية هي التي جعلت الكانمي يقيم علاقات طبيعية مع الدول الوثنية على اعتبار أن ممارسة الوثنية عن ضعف أو جهل لا يعتدّ بها، فالضعف نصيب كل البشر على حد قوله[2] و هذا يرفضه المجاهدون.

و كانت وجهة نظر " الكانمي " في هذا الموطن تخالف وجهات نظر المجاهدين،إذ أنه كان يرى أنه خليق بهم أن تتوقف دعوتهم على مجرّد الأمر بالمعروف و النهي عن المنكرات و اصلاح المفاسد و قطع ذابرها، لا تتجاوز حمل الناس و دفعهم لإستعمال العنف و القتال، و في هذا يقول [3] : " ***لو أمرتم بالمعروف و نهيتم عن المنكر و اعتزلتم الناس حين لم ينتهوا لكان أحسن من هذا الفعل*** ".

و لم يتوقف الشيخ عند هذه العتبة و لم يسكت على أعمال المجاهدين و أفعالهم، بل راح يجمع الأدلة و يسوق الأمثلة من المشرق، مضحضا حجج المجاهدين رادا دعواهم لضرورة الجهاد و حمل السلاح في وجه إخوانهم في الدين، و في رأيه أنه يوجد كبار العلماء في بلاد العالم الإسلامي الأخرى، فلا يجوز لأي كان أن ينادي بالجهاد ضد المعاصي و البدع في جميع الأمصار الإسلامية في المشرق و المغرب .

و هنا نرى أن الشيخ محمد الأمين الكانمي لا يبيح الإجتهاد في أمور الشريعة لكل الناس، بل قصرها على العلماء الكبار فقط، حتى لا تتسرب إلى الشريعة فتاوي أشباه العلماء و قاصري الفهم و ذوى الأغراض والنوايا السيئة و يقول : [4] " ***فهذه مصر مثل برنو و أعظم منها، كذلك الشام و جميع مدن الإسلام فيهن الرشوة و الجور و أكل مال اليتيم، و الظلم و البدع منذ زمن بني أمية إلى يومنا هذا، و لا يخلو زمن و لا بلد من نصيبه من البدع و المعاصي، فلو كفر الجميع بكل مؤلّفاتهم فكيف يستدلّون بأقوالهم و هم كفرة ...*** ".

و يمضي الشيخ محمد الأمين في رسالته إلى المجاهدين محاورا ليخلص إلى نتيجة فريدة و محدّدة لا غير. و هي أن شهوة الحكم و الوصول إلى سدّة الملك و بلوغ قمّته لاسواهما المحرّك الحقيقي و الدافع الرئيس للمجاهدين، و ليس هدفه ابتغاء القضاء على الكفر و على الخرافات و محو البدع و قير الضلالات و نشر العلم و المدنية و غرس فضائل الإسلام و قيمه النبيلة و حضارته بين الشعوب و الأمم، كما كان ينبغي

---

(1) – أحمد محمد كاني : نفس المكان.

(2) – د/ أمين اسير : المرجع السابق، ص 24.

(3) – محمد احمد كاني : المرجع السابق، نفس المكان.

(4) – محمد أحمد كاني : نفس المرجع، ص 91.

أن يفعلوا، و يقول : [1] " ... ***فيا عجبا منكم بعد أن كانت لكم التقدّمة في الدين و العلم، أحببتم الملك و رغبتم فيه و سولت لكم أنفسكم و تخليتم ما تخليتم و استدلتم بظواهر لا تنهض لكم دليلا و لا سيما و قد سمعنا عن سير الشيخ عثمان بن فودي و رأينا من مؤلّفاته ما يخالف فعلكم فإن كان هذا الأمر صدر من رأيه فلا حول و لا قوّة إلا با لله العلي العظيم ...***".

و هكذا فإن الكانمي يبرئ ساحة الشيخ عثمان دان فودي من أفعال خلفائه من بعده الذين أعلنوا الجهاد في غير موطنه و القتل في غير موضعه، كفّروا المسلمين في المنطقة لإرتكابهم بعض الحماقات في الدين، و حاول أن يحاجج خصومه بأدلة استنبطها من واقع العالم الإسلامي منذ عهد الأمويين حتى عصره، و اعتبر أن تكفير الناس لإرتكابهم بعض الذنوب هو مخالفة صريحة للإسلام نفسه، و مهما وقعت ما بين المسلمين من مفاسد فلا يمكن أن يقام عليهم الجهاد، و لكن يمكن اللجوء في ذلك إلى القيام بعمل إصلاحي يبين فيه للناس سبيل الرشاد و يدعوهم بالحسنى إلى ما فيه صلاح دينهم و دنياهم،بدلا من رفع السلاح في وجوههم، و البطش بهم.

و من هنا نرى أن الشيخ الأمين الكانمي لم يكن مؤيدا لدعوى مجاهدي " سوكوتو " "Sokoto" لذلك ذهب يسفه أقوالهم في أمر الجهاد، بل اعتبرها تطرّفا في الدين، فليس من الشريعة محاربة مسلم لمسلم و رفع السيف في وجهه، و اعتبر هذا فعلة شنيعة، و كبيرة من الكبائر التي حرّمها الإسلام قال تعالى : [2] " ***و لا تقتلوا النفس التي حرّم ا لله إلا بالحق ذالكم وصاكم به لعلّكم تعقلون*** ".

و كان يرى أن الدعوة تكون بأسلوب اللين و المرونة و بالموعظة الحسنة كما أمر بذلك القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة، قال تعالى : [3] " ***ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون*** ".

ردود مجاهدي سوكوتو " Sokoto " على الكانمي :

لم يتغاض المجاهدون في " سوكوتو " " Sokoto " و لم يسكتوا أو يتغافلوا عن هذه المحاكمة،و هذه التهم التي وجّهت إليهم و ألصقت بهم من قبل المصلح محمد الأمين الكانمي؛ فبأنبروا للرّد عليها بالإعتماد على ما رأوه من أحكام شرعية من وجهة نظرهم، محاولين بذلك تفنيد ما جاء به من أحكام و ردّها عنهم و إثبات بطلانها من وجهة النظر الشرعية، و ذلك لتبرير مشروعية الجهاد الذي يمارسونه ضد خصومهم في بلاد " برنو ".

---

(1) - د/ عبد الرحمن عمر الماحي : المرجع السابق، ص 150.

(2) - سورة الأنعام : الآية 151.

(3) - سورة آل عمران : الآية 104.

و مما جاء في ردودهم أن الجهاد الذي يقومون بـه منـــطقي و عمـل مشروع كتابـا و سنّة و أنّـه فرض عين كما ذكـر " محمد بيلو " في ردّه على رسالة الشيخ محمد الأمـين الكـــانمي حين قـال : [1] ***" أن المجاهدين لم يكفّروا عامة الناس في برنو و لا حكام برنو لكفرهم بالأصالة بل لأنهم والوا الكافرين من حكام بلاد " الهوسا "، " الحوصة " على المجاهدين المسلمين "***

و يبدو أن مجاهدي " سوكوتو " " Sokoto " اعتمدوا في جهاد سكـان المملكـة البرنويـة بنـاء علـى قوله تعالى : [2] ***" يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزء أو لعبا من الذين أوتو الكتاب من قبلكم و الكفار أولياء و اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ".***

و مما جاء في ردّهم على هذا الأمر : [3] ***" و يا عجبا منك " الكانمي " لو كنا نكفّر عامة المؤمنـين لم نتخذ مساجدهم لنا مساجد كما زعمت، فكلامك هذا متناقض ".***

كما نلاحظ في هذا الموطـن بـالذات أن المجـاهدين ردوا علـى كـلام الشيخ محمـد الأمـين و وصفـوه بالمتناقض، و هذا ما يؤكّد اعترافهم باسلام أهل " برنو "، لكنّهم ارتدوا لمولاتهم غير المسـلمين، و هـذه حجّـة على الكانمي و ليست له كما رأى المجاهدون.

لم يتوقف المجاهدون في " سوكوتو " " Sokoto " عند هذه الحدود بل مضوا في تثبيت التهم للشيخ الكانمي و الصاقها به، و القول بأنّه ابتعد عن العدل و جانب الصواب، و انّه غير منصف و لم ينظر إلى الواقـع كمـا يجب و لم يزن الأمر بميزان العقـل و الحق. لأنّه ينطلـق في أحكـامه من تصـوّرات و آراء شـخصية و منطلقات ذاتية تفتقر إلى الموضوعية، باعتبار أنه متحيز لجبهة دون أخرى في تقصيـه للحقـائق بـين الطرفـين المتنازعين.

ثم يضيف خصوم الكانمي بالقول : [4] ***" ... إلا أن جميـع ما ذكرتـه فينا مغالطات و مشاغبات اتخذتها ذريعة إلى الجرح و القدح على المسلمين و سولت لك نفسك و خيلت أن ذلك يستقيم لك حجّـة في مذهبك الفاسد و هيهات ذلك، و أن مـا سبق في قلبـك مـا سبق، و كـاتبت أمثالك فسـمعت منهـم مقالات غير لائقة إما لقصور بيانهم عن الحقيقة أو لسوء فهمك و الله تعالى أعلم "***

لم يغفل المجاهدون شاردة و لا واردة و لم يتوقّفوا عنـد حـد بـل استمروا في ردّهـم و تعقيبهـم علـى اتّهامات الشيخ الأمين فيما يتـعلّق بالتطلع إلى الحكم و حب السيطرة و التسلّـط الذي لا يتماشى و السلوك

---

(1) – أحمد محمد كاني : المرجع السابق، ص 92.

(2) – سورة المائدة : الآية 57.

(3) – أحمد محمد كاني : المرجع السابق، ص 91.

(4) – أحمد محمد كاني : نفس المرجع، ص 92.

القويم للعلـــماء، و لا يليق بشرفهم و كرامتهم، فيقولـون موجّهين خطابهم للشيخ الكـانمي : [1] "***كيف تشهد لنا بالعلم و الدين ثم تنسب إلينا الجهل و الفسق؟ و حينا أحببنا الملك أنتزع العلم منا و الدين حتى رجعنا إلى تسويلات النفوس و تخييلاتها***".

و واصل المجاهدون محاورتهم للشيخ و ردودهم عليه، إذ رفضوا كل ما جاء به من تبريرات و ضربـوا بها جانبا إذ ردوا كل مبرر أو عذر يتعذّر به لوجود بعـض العـادات و التقـاليد المشينة الموروثـة في المجتمعـات الإسلامية سواء في عمق القـارة أو في البـلاد الإسـلامية الأخـرى و لا تتماشى مـع روح التعـاليم الإسـلامية الصحيحة كتلك التي كانت رائجة في المملكة البرنوية يومئذ.

و مما جاء في ردّهم و أن قولك :[2] "***هذه دمياط*** ... " إلى آخـر القـول "***لم نسلّم و لم نقبل بأن العلماء لم يتعرّضوا لقتالهم، و لو يقولوا بكفرهم – فهذا عبد الرحمٰن بن يوسف الشـريف تعـرض للشـجرة التي بسجلماسة فقطعها و قال : أنها مثل " مناه " و تعلم أن مناه من الأوثان الجاهلية***".

و من خلال الدراسة يبـدو أن ردود مجـاهدي سـوكوتو " Sokoto " في خطـابهم الأول لم يشـتمل على كل النقاط و التهم التي وجّهت إليهم و ألصقت بهم من قبل الكانمي في رسالته الأولى إليهم، لذلك تحمّل المهمة " محمد بيلو بن عثمان دان فودي " و تبنى موقف المجاهدين، فوقف مدافعا عن آرائهم بكل ما لديه مـن قوة، و قضى في ردوده في نـــهاية الأمر بتكفير حكّـــام برنو لإرتدادهـــم عن الشرع و أحكامه مـن وجهـة نظره، و جاء في ردّه قائلا [3] : " ... ***و أعلم الكانمي أن سبب قتالنا لكـم لأنّكـم واليتـم كفـار " هـوس" (الهوسا) دوننا بغير تقية فهو مثلهم كتابا و سنّة و إجماعا، و لقيامكم أيضا على إذايـة المجـاورين لكـم مـن الجماعة التي ألجأتموهم إلى الهجرة، و بدأتموهم بالمقاتلـة تعصّبـا للـــوك " هـوس" و لا جـرم أن الرضـى بالكفر كفر، و تعلمون على هذا أن معرفة الله و اقامة الصلاة و صوم رمضـان و عمـارة المسـاجد لا يمنـع من قتالكم و لا ينفعكم في الدنيا و الآخرة بثبوت إرتدادكم، إن كان قد سبق لكم الإسلام الصحيح***".

و لم تنقطع المراسـلات النقديـة الهجوميـة بـين الكـانمي البـرنوي و مجـاهدي الفولانـي في "سـوكوتو" "Sokoto " بل تمادى الطرفان فيها لذلك عمّرت لفترة زمنية ليست بالقصيرة.

و في عام (1137هـ، 1824م)و بعد أن اعتلى الكانمي عرش برنو، خفت الصراع و حصل تقـارب و تفاهم بين الطرفين المتخاصمين،و وقع نوع من المصالحة بين الشـيخ " محمد الأمين الكـانمي " حـاكم برنـو و أمير المؤمنين خليفة عثمان دان فودي " محمد بيلو " و قد نصّت بنود الصلح على :

– اعتراف كل من الكانمي و أحمد بيلو بشرعية و استقلالية الطرف الاخر.

---

(1) – أحمد محمد كاني : المرجع السابق، ص 92.

(2) – أحمد محمد كاني : نفس المكان.

(3) – د/ عبد الرحمن عمر الماحي : المرجع السابق، ص 151.

– التعاون بين الطرفين فيما يخص مصلحة البلدين و الشعبين.

و يعد هذا الإتفاق الأوّل من نوعه بين البلدين على الصفاء الذي حصل من جهة،كما يعدّ اعترافا ضمنيا من طرف الكانمي بشرعية الجهاد السوكوتي و مشروعيته في بلاد " الهوسا " و ما يجاورها من المناطق، كما اعترف المجاهدون بالشيخ محمد الأمين حاكما مستقلا على بلاد " برنو ".

و بهذه الخطوات العملية و اجراءات المصالحة و الإتّفاق بين طرفي النزاع طويت صفحة من صفحات تاريخ الصراع و النزال بين إخوة في الدين ساد حقبة من الزمن في ربوع بلاد السودان الأوسط بين دعوتين اسلاميتين حديثتين اختلفتا من حيث المنهج و التفكير و أسلوب معالجة القضايا المطروحة على الساحة الإسلامية من زاوية الشريعة الإسلامية.

استمر السلام و الأمن و الهدوء و الإطمئنان مخيمين على ربوع البلاد، و تفرغ الكانمي من جهة و محمد بيلو من جهة أخرى إلى نشر الدعوة و ترسيخها [1].

و رغم قصر المدّة التي حكم فيها محمد الأمين الكانمي فانه استطاع أن يقيم نظاما يقوم على أساس نظام الشريعة الإسلامية، و قام بانجازات معتبرة، و قد زاره إثنان من الرحالة الإنجليز، و هما : "دان هام " Denham " و " كلابرتون " ClapperTon " قبل وفاته، و وصفا المملكة وصفا دقيقا[2]، و قد نعم السكان في عهده بالأمان و السلام، إلا أن وافاه الأجل في سنة (1251هـ، 1835م) فخلفه في الحكم و قيادة الدعوة بكر أنجاله " عمر " (1251هـ ، 1835م / 1298هـ، 1880م)، ثم تولى أخوه ابراهيم مدّة عام واحد، ثم الشيخ هاشم الذي انشغل عن شؤون الحكم فتدهورت أحوال الدولة و سقطت في يد " رابح الزبير" (1311هـ، 1893م)[3].

و الحق أن المملكة البرنوية عرفت في عهد " محمد الأمين " الإستقرار و الهدوء، إذ قام بتشييد المنشآت الثقافية و الدينية، و نظّم الشؤون الإدارية للدولة. فنعمت المملكة بإنتعاش إقتصادي، و نشطت التجارة و الحرف المختلفة في جميع أرجاء المملكة، كما شهدت المملكة إزدهارا ثقافيا كان له الأثر الكبير في تعميق الثقافة العربية الإسلامية في نفوس السكان الذين استمروا على الإسلام و مبادئه حتى قدوم داعية جديد إلى المنطقة، ذلك هو " رابح بن فضل الله " المشهور باسم " رابح الزبير " [4]، حيث انظم إليه مسلموا المنطقة و وقفوا إلى جانبه في محاربة الوثنية و القوات الفرنسية التي داهمت المنطقة في إطار ما يسمى بالإستعمار الحديث.

---

(1) – أحمد محمد كاني : المرجع السابق، ص 93.

(2) – د/ حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق، ص 129.

(3) – د/ أحمد شلبي : المرجع السابق، ج6، ص 296.

(4) – د/ امين اسير : المرجع السابق، ص 24.

و بعد استعراضنا لهذه الحركة يمكن القول أنّه بالرغم من المدة القصيرة التي عاشها الكانمي في بلاد تشاد التي وصلها بعد أن بلغت المنطقة انحطاطا خطيرا نتيجة تعفن الأوضاع السياسية و الإقتصادية و الإجتماعية و الثقافية، و عجز حكام البلاد على حفظ الأمن و القضاء على الفتن الداخلية التي كانت تثيرها القبائل المتعددة الأجناس المتنوعة المشارب و الثقافات المختلفة الديانات، خاصة و أن هؤلاء الحكام تميزوا بالضعف لإنصرافهم عن الإهتمام بشؤون الدولة و الحكم، فتشجّعت القبائل على الخروج عن طوع السلاطين، و بذلك انعدم الأمن فكسدت التجارة التي كانت رائجة في تلك الأصقاع من القارة، فتدهور حال السكان و انخفض مستوى معيشتهم، فكثرت أعمال السطو و النهب،و استهتر الناس بالقيم النبيلة، فانحطّت الأخلاق و شاعت الفوضى،و تفشّت الرذيلة في المجتمع، و انخفظ المستوى الثقافي فانتشرت الأمية و عمّ الجهل، و اختلط الصح بالباطل و صعب على الناس التمييز بينهما، فزادت حياتهم بؤسا و شقاء. في هذا الجو المتعفن وجد السحر و الشعوذة طريقهما إلى الأذهان فزادها تخريبا و مغالطة، و في هذا المناخ الكئيب تخلى معظم المسلمين عن دينهم،و حتى الذين قبضوا بحبله خالطت تعاليمه في أذهانهم بعض الأباطيل و الدجل، فتمسّك هؤلاء بأشياء مغلوطة و مارسوها.

في ظل هذه الأوضاع المتردية ظهر خطر خارجي آخر تمثل في خلفاء عثمان دان فودي الذين شنوا الغارات على حدود البلاد و هددوا بسقوطها متهمين سكان اميراطورية " كانم برنو " بالكفر و ارتدادهم عن الإسلام.

في هذا الوقت حل الكانمي بالبلاد داعية، فاستنجد به حكام البلاد بغية انقاذ الوطن مما حل به من أهوال و بالتالي استرجاع عروشهم، فلبى الكانمي النداء و عدّه واجبا و تقدّم نحو المجتمع يصلحه و نحو الدولة يحميها من العدوان، و لاحظنا كيف انبرى المصلح إلى مشاكل المجتمع و البلاد و كيف عالجهما، فتمكّن و في ظرف قياسي قصير من كسب المجتمع إلى صفّه، فقد صحح للمسلمين عقيدتهم التي دخلها الكثير من الزيف و التحريف و الغلو أحيانا و العزوف الكامل في آحايين أخرى، كما وفّق إلى نشر الإسلام بين قبائل كثيرة كانت ما تزال على الوثنية، كل هذا بفضل علمه و وعظه و تعليمه.

و بعد أن كسب ودّ الناس و ثقتهم به، إتّجه إلى العدوان الخارجي يواجهه، و نجح رغم قلّة الوسائل و ضعفها من تجنيد قوى البلد و الإستفادة منها و توظيفها بعقلانية، فمكّنه هذا من رد هجمات الأعداء، فأعاد للدولة مكانتها و هيبتها و بسط سلطانها على مساحات واسعة من البلاد، و خاصة بعد أن استردّ الكثير من الأقاليم التي سلخت منها.

و بروح العالم المصلح التقي يترك شؤون الحكم لذويه، لكن سرعان ما عاد إليه لعدم قدرة هؤلاء الحكام السيطرة على دفة الحكم و فرض احترامهم على الرعية، و واصل جهاده ضد حكام "سوكوتو "

عسكريا و فكريا، فقد رأينا تصديه في خطاباته لدعوى الفولاني استباحة دماء المسلمين و استحلال أملاكهم في بلاد " كانم برنو ". و بروح المفكّر العالم الفقيه راح يحاور " السوكوتيين ".بمرونة و يجادلهم و يرد ادّعاءاتهم، إلى أن تمكّن من افحامهم و زدّهم إلى جادة الحق، و أعاد المياه إلى مجاريها،و ربط علاقات الود بين الدولتين الإسلاميتين، فاستتب له الأمن و دانت له القبائل،و عاشت في ظل حكم الكانمي تنعم بالطمأنينة و السكينة و الهدوء.

و هكذا يمكننا القول أن الجهاد الذي قام به محمد الأمين الكانمي من أجل الحفاظ على " كانم برنو " قد أتى أكله في ظرف قصير، كما بين أن بذور الخير سرعان ما تنمو إذا وجدت من يرعاها و يهتم بها و يخلص لها، كما فعل الكانمي الذي انقذ البلاد و العباد، و مازالت سيرته مضرب المثل في السودان الأوسط و الغربي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ب - حركة الشيخ أحمدو لوبو الماسيني :

" AHMADOU LOUBOU EL MACINI " :

يتناول هذا القسم من الفصل حركة من الحركات الإصلاحية و الدّعوية قام بها المصلح " ***أحمدو لوبو الماسيني***"، و تهدف الى تغيير الأوضاع التي سادت منطقة ماسينا " Macina " شرق جمهورية مالي الحالية، خلال منتصف القرن الثالث عشر الهجري، النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي. ففي الوقت الذي كانت فيه دعوة و جهاد الشيخ عثمان دان فودي قائمة على اشدها في بلاد " الهوسا " رفض محمد الأمين الكانمي رفع راية الجهاد و اتباع نفس الأسلوب الذي سلكه الشيخ " عثمان " بالرغم من تجاور حدود بلديهما، غير ان تأثير دعوة " ابن فودي " لم تبق حبيسة مكان منبتها تتراوح تربة نموها و انطلاقها، بل فقد تخطّت موطن ظهورها و نشأتها و اتجهت غربا و زرعت بذورها و ضربت جذورها في عمق المنطقة فنمت و استوت على سوقها فاشتد عودها و تصلب، فأينعت ثم أزهرت و تفتّقت عن ميلاد ثمرة جديدة من ثمار الحركات الإصلاحية بإفريقيا جنوب الصحراء، تلك هي الدعوة الإسلامية الفولانية الأخرى بإقليم " MACINA " بأعالي نهر النيجر(*)، و قد تزعّمها أحد أبناء الفولاني المخلصين للعقيدة بتلك الجهات و يدعى "*أحمدو لوبو*"(**) و شملت هذه الحركة رقعة واسعة ضمت شمال شرق جمهورية مالي الحالية [1].

أصوله :

ينتمي أحمدو لوبو " شيخو " الى قبائل الفولاني، و قد تأثر تأثيرا بالغا بشيخ الدعاة المسلمين في القارة الإفريقية " عثمان بن فودي " و صار من أشد مؤيديه و أخلص أنصاره و شيعته في امارة جوبير " Goubir " منذ شبابه المبكّر، و هذه القبائل التي ينتمي اليها أحمدو استقرت لقرون طويلة بإقليم ماسينا "Macina " [2] الذي اشتهر بخصوبة تربته و غناها بالثروات الطبيعية، و هناك مارسوا نشاط حرفة الرعي، و تدريجيا تحول قسم منهم الى ممارسة مهنة الفلاحة،متأثّرين بقبائل أخرى كانت تمارس نفس هذا النشاط الأخير، و هذه القبائل الزراعية تنتمي في معظمها الى قبائل المندنجو " Mandingou "، و ظل الفولاني بمعزل عن قبائل المندنجو الذين كانوا يخضعون لجماعات الديالو " Dyalo " الذين كانوا يخضعون بدورهم

(*) – أنظر الشكل رقم (7)، ص 137.

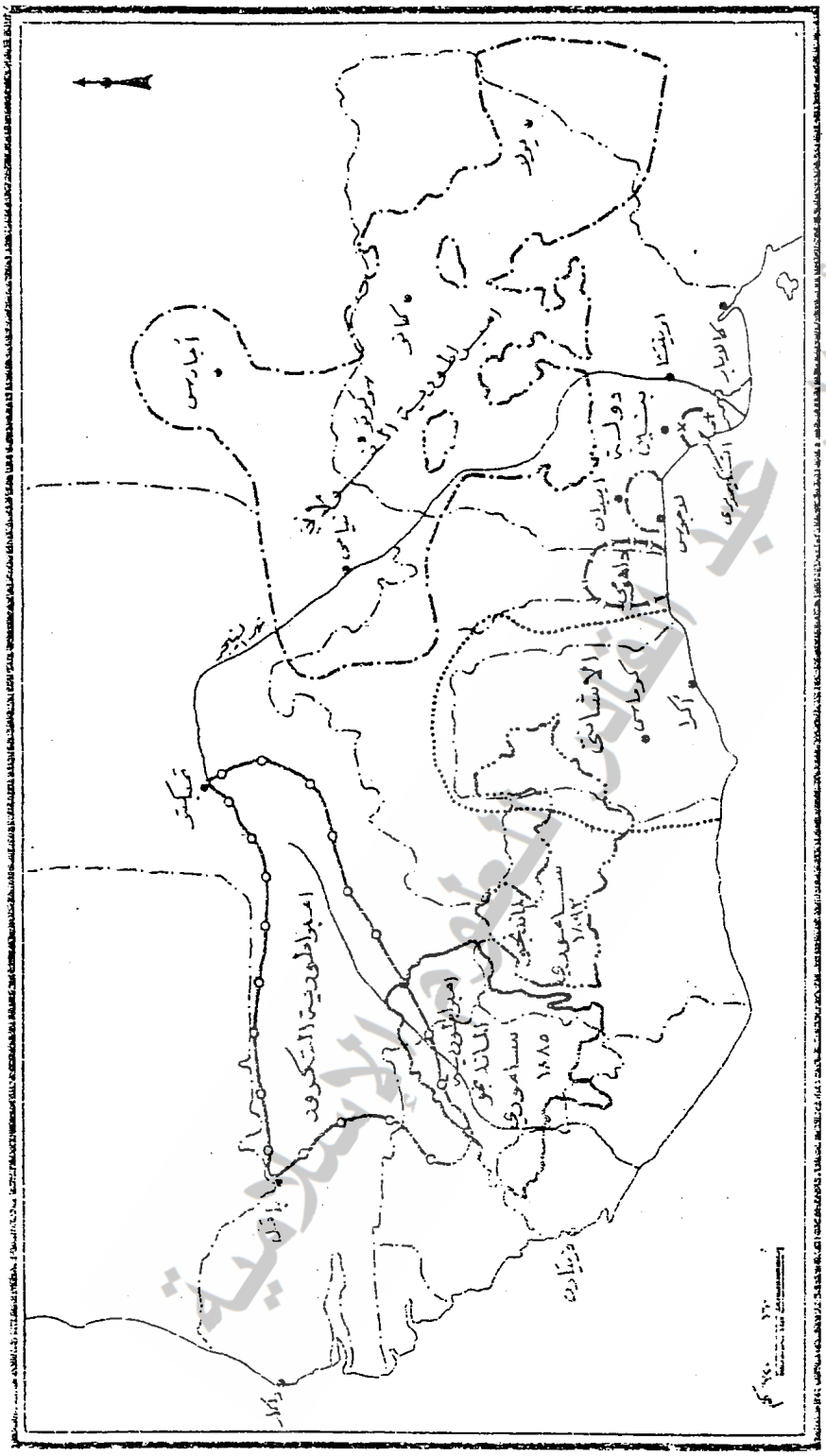
(**) – أحمدو لوبو و يدعى " شيخو " او" سيكو" و هذه الأخيرة تصحيف لكلمة شيخ في لهجة سكان المنطقة انظر د/ حسين مؤنس : اطلس العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 377.

(1) – د/ عبد القادر زبادية : الحضارة العربية و التأثير الأوروبي في افريقيا جنوب الصحراء، مرجع سابق، ص 92.

(2) – د/ احمد شلبي : المرجع السابق ، ج6 – ص 229.

(3) – فؤاد اقرم البستاني : المرجع السابق، المجلد 7 ، ص 307.

الشكل (7)



مناطق نفوذ التكرور و ساموري توري و الفولاني
عن د/ إلهام محمد علي دهني، ص 232

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لنفوذ أسيادهم من قبائل البمبارا " Bambara" في سيجو " Sigou" و كانت هذه القبائل سواء المندنجو أو الفولاني في اكثريتها تدين بالوثنية أو من اولئك الذين لم يؤثر الإسلام في نفوسهم و سلوكاتهم تأثيرا عميقا، و اتخذوا من شعائره طقوسا سطحية[3]، هذا فضلا على وجود جماعات كانت قد اعتنقت الإسلام و دانت به بفضل دعوات سابقة قام بها جماعة من دعاة سوكوتو " Sokoto " و فوتا جلون"Foutadjloun ".

في هذه المنطقة من افريقيا الغربية، و في هذا الجو الذي شكل لوحة من الفسيفساء تضم معتقدات متعددّة و مختلفة و متناقضة أحيانا، ظهر " أحمدو لوبو " و بدأ نشاطه الدعوي و الإصلاحي ضد جماعات " البمبارا " " Bambara "و " المندنجو " " Mandingou " .

حياته و أعماله :

هو أحمدو لوبو باري [1] بن أحمدو حمدو لوبو من قبيلة بؤول " Baoul " احدى عشائر الفولاني التي كانت منتشرة في السودان الغربي، هاجرت قبيلته الى المنطقة الواقعة بين نهري السنغال و النيجر، و استقر بها المقام في ماسينا " Macina " و انتبذت أسرة " أحمدو " محلا غير بعيد عن المدينة بقرية تدعى "يوغونسيرو" " Yougouncirou " .

ولد أحمدو في قرية يوغونسيرو بماسينا عام (1189هـ 1775م) و تتلمذ في صباه على يد معلمين و علماء اجلاء من مشايخ الطريقة القادرية من أسرته بمسقط رأسه، و لم يكتف بما حصّل عليه من علوم و معارف لم تشبع نهمه، فقرّر السفر و حط رحاله بمدينة " جنى " التي كانت من كبريات مراكز الثقافة العربية الإسلامية،و منارة من منارات العلوم المختلفة و المعارف المتنوعة في قارة افريقيا، و بذلك احتلت مكانة مرموقة في نفس العلماء و المتعلمين و صارت قبلة طلاب العلم في عموم افريقيا جنوب الصحراء و خصوصا في قسمها الغربي .

في مدارس هذه الحاضرة أقبل " أحمدو " على اغتراف العلوم و المعارف، فدرس علم التفسير و الفقه و أصوله، و علوم الحديث، و اللّغة العربية و آدابها، و التاريخ الإسلامي على يد علماء كبار كانوا يتزاحمون على منابر العلم و كراسي التدريس .

لمّا أكمل " أحمدو " دراسته و صقلت مواهبه و نما حسّه، أحس بالمسؤولية الملقاة على عاتقه كعالم و بواجبه كمسلم، و بحاجة المنطقة عموما و ماسينا " Macina " خصوصا لأمثاله، فلم يقصّر و سارع

---

(1) - د/ حسين مؤنس : اطلس العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 337.

لتلبية نداء الواجب و تحمّل المسؤولية [1].

و بمجرد عودته شرع في آداء رسالته التثقيفية معلما و داعـــيا الى الإسلام و نـشر فضائله و تربية الشباب تربية اسلامية صحيحة قائمة على مبادئ الشريعة، و تنقية العقيدة الإسلامية مما علق بها من شوائب لاتمت للدين الحنيف بصلة بين أفراد مجتمعه بمختلف طبقاتهم و مستوياتهم الإجتماعيـــة و الفكرية ساعيا الى اخراج أفراد هذا المجتمع و خاصة الإحيائيين منهم من غياهب ظلام الكـــفر و الجهالة الى نور الإسلام و عبادة الله الواحد الأحد [2].

إقتدى " أحمدو لوبو " في دعوته و اصلاحاته بأعمال التجديد التي كان قد دعا اليها الشيخ عثمان قبله،اذ تأثر به أثناء اقامته في بلاد الحوسا، و خاصة و انه كان جنديا ضمن قوّاته [3].

لما تمكّن " أحمدو لوبو " من احراز بعض النجاح في عمله، كسب انصارا جددا و اتباعا كثيرين الى صفه فتقدّم نحو " جنى " Djene غير ان المغاربة الذين كانوا يحكمون المنطقة منذ غزو المنصور الذهبي لها أوجوسوا خيفة من حركته و اتساع نفوذه، فوقفوا في وجهه و صدوه عنها، فانتقل إلى بلدة " سبيرة "[4] " Sibiyra " ، و هناك قعد للدعوة و التعلم،فزاد انصاره و مريدوه، فأحسّت سلطات ماسينا " Macina " بدورها بالخوف منه و استنجدت بحاكم سيجو " Sigou " و كان وثنيا ضد " أحمدو "، و استعانة المسلم بالوثني ضد مسلم آخر تبيح الجهاد [5]، و هذا ما اعتمد عليه " أحمدو " فأعلن ثورته على دولة ماسينا "Macina " و حقق انتصارات عسكرية باهرة،اذ تغلب عليها و أخضعها لنفوذه سنة (1225هـ ، 1810م)، و كنتيجة لهذا الفوز و الإنتصار الحاسم عظم في أعين النـّاس فتقرّبوا اليه و انضووا تحت لواء افراد عشيرته " بؤول " في المنطقة كلها [6].

لقيت هذه الإنتصارات العسكرية و المعنوية صدى واسعا في نفوس المسلمين في السودان الغربي عامة و في نفس شيخ الدعاة " عثمان بن فودي " بوجه خاص فأعجب به و توثّقت عرى الصداقة بين الرجلين و منحه هذا الأخير لقب الشيخ و نصّبه اميرا على منطقة ماسينا " Macina " [7].

لم يغتّر " أحمدو لوبو " بكرسي الإمارة و لم يثنه عن النشاط،بل راح يواصل عمله بكل حزم و حيوية فاستمرت بذلك دعوته في الإنتشار و حركته في الإتساع، و هبّت إليه القبائل تعضضه و تشد من أزره،

---

(1) – فؤاد افرم البستاني : المرجع السابق المجلد 7 – ص 307.

(2) – د/ عبد الله عبد الرازق ابراهيم : الحركات الإصلاحية في غرب افريقيا، مرجع سابق – ص 14.

(3) – د/ حسين مؤنس : اطلس التاريخ الإسلامي ، مرجع سابق – 377.

(4) – د/ احمد ابراهيم دياب : لمحات من التاريخ الإفريقي الحديث ، مرجع سابق – ص 210.

(5) – د/ أحمد ابراهيم دياب : نفس المرجع، ص 210.

(6) – فؤاد أفرم البستاني : المرجع السابق، م7 ،ص 307.

(7) – Robert et Marianne Cornevin : O P .cit. P. 260

و مرد هذا الإقبال الواسع و التأييد الخالص يعود إلى جملة من العوامل كان لها الأثر الإيجابي في دفع الداعية المصلح قدما نحو تحقيق المزيد من الإنتصارات و جني ثمار مجهوده و من هذه العوامل :

– شخصية أحمدو لوبو القوية و اخلاصه في الدعوة و اعتماده على الدين الإسلامي الحنيف .

– المؤازرة المادية و المعنوية التي لقيها من لدن الشيخ عثمان، و كذلك خلفائه من بعده بعد توليهم شؤون الحكم و الإدارة، اذ استمرت العلاقات وطيدة بين الطرفين و لم تتغير.

– تأثير الطرق الصوفية و خاصة " القادرية " التي اتبعها " أحمدو لوبو " اسوة بشيخه عثمان، فترتب عن ذلك التفاف القبائل المختلفة حوله و خاصة " الفولاني " و اخلاصهم في تأييده و مساندته .

– اعلان الجهاد ضد الوثنيين و تنفيذه عمليا ادى الى زيادة احترامه و علو مركزه بين المسلمين الذين اعتبروه مخلّصا ينقذهم من سيطرة و ظلم البمبارا الوثنيين[1].

لقد كان لهذه العوامل كلها دور أساسي في نجاح حركة " أحمدو لوبو " و تعميق جذورها في المجتمع .

و لما اشتد نفوذ الداعية و شعر بقوة الدعوة و تمكنها من النفوس حمل لقب أمير المؤمنين، و وثّق علاقاته الخارجية و بالخصوص مع " محمد بيلو " في سوكوتو " Sokoto . و بالرغم من هذه الصداقة فإنّه رفض التبعية لهذه الدولة و امتنع عن دفع الضرائب لها[2]، و هذا يبرز استقلالية الداعية و الحركة من الهيمنة الخارجية.

استمر " أحمدو لوبو " في نشاطه الدعوي و كثّف منه،فركّزت السلطات بدورها على مراقبته، و لما رأت تعاظم أمر الشيخ و زيادة اقبال النّاس عليه من مختلف النواحي و اعتناق المبادئ التي كان يدعو اليها و ينشرها بين النّاس، هالها الأمر و أدخل في نفسها الخوف و الفزع [3] فقامت على جناح السرعة لمعالجة الوضع، و قررت الوقوف عقبة كؤودا و سدا منيعا في وجه الدعوة لمنع انتشارها بكل الوسائل و بمختلف الطرق قبل ان يشتد أوارها و يزداد نطاقها اتساعا [4].

و الحق ان هذه القرارات لم تثن من عزم الشيخ بل فقد زادته قوة و صلابة في مواقفه،فواصل نضاله و جهاده في وجه أعداء الإسلام و سعاة كبت الأنفاس و الحريات، و حتى لا يدخل في مواجهات مباشرة مع خصومه اتّجه الى مكان يدعى روندي سيرو " Round Sirou " بالقرب من مدينة " جنّى " مصحوبا بالأنصار و الأتباع و التلاميذ الذين لبوا نداء الداعية و تمسكوا بلواء الدعوة و مبادئها.

---

(1) – د/ حسين مؤنس : اطلس التاريخ الإسلامي ، المرجع السابق – ص 377.

(2) – د/ الهام محمد علي ذهني : المرجع السابق، ص 47.

(3) – د/ عبد الله عبد الرازق ابراهيم : الحركات الإصلاحية في غرب افريقية، مرجع سابق، ص 15.

(4) – د/ عبد الله عبد الرازق ابراهيم : نفس المرجع – ص 14.

و في روندي سيرو " Round Sirou " تصدى للخصـــوم و أعـــداء الحركة و قام بين سكّانها معلّما واعظا و مرشدا مبينا حينا و مصححا لتعاليم الإسلام حينا آخر، فإزدادت شهرته اتساعا و ذاع صيته في جميع انحاء البلاد، و ارتفع عدد الوافدين عليه، فصار في مأمن على دعوته و قرر الإقدام على عمل حاسم .

اعلان الجهاد :

في هذا الوقت الذي شعر فيه بالقوة التي تؤازره و تشد من عضده، لم تكف السلطات عن مراقبته و مضايقته، فلم يجد بدا سوى المواجهة التي كانت بالنسبة اليه ضرورة لإعلان الجهاد في سبيل الله و التمكين لدينه في الأرض و انقاذ الوثنيين من عبادة الاوثان و تقديس الأشجار و الأضرحة و بعض المظاهر الطبيعية الأخرى، فضلا على الحكام الذين خرجوا عن تعاليم الإسلام الصحيحة [1]، و استبدوا بالعباد و حكموا بغير ما انزل الله، كما انّهم هؤلاء الحكام بالغفلة عن رواج العادات الدخيلة و تشجيعها و حماية التقاليد الإحيائية في مجتمعات اسلامية .

كما اعلن حربا ضروسا على العلماء و اشباههم و خصوصا المتقاعسين عن واجباتهم، أولئك الذين تخلوا عن الامر بالمعروف و النهي عن المنكر و تطبيق أحكام الشريعة، وعدّهم اعداءه الحقيقيين لكونهم أداة طيّعة لخدمة أسيادهم من الحكام البمبارا .

في خضم هذه الأحداث و الصراعات برز تحدي الشيخ للسلطات بعد أن أمر أتباعه بإغتيال ابن الحاكم أردو "Ardou " الذي قتل أحد اتباعه [2].

و في نفس الوقت كان الشيخ قد أرسل أخوين له سنة (1233هـ 1817م) الى "سوكوتو" لكسب التأييد و المساعدة [3] من محمد بيلو حاكم المنطقة، فعاد الأخوان في العام الموالي و هما يحملان اعلان و خطابات التأييد و المساندة لرفع راية الجهاد ضد كل من يقف في وجه الدعوة [4]، و أمام هذا الأمر زاد تحرّش السلطات به و كثّفوا في تشديد الخناق عليه.

لما شعر بتفاقم الخطر انتقل الى مدينة سوي " Soy " و هناك نظم قواته و أعدّ العدة و زحف على جنى [*]

---

(1) – د/ أحمد شلبي : المرجع السابق، المجلد 6 – ص 229.

(2) – د/ أحمد ابراهيم دياب : لمحات من التاريخ الإفريقي الحديث، المرجع السابق، ص 210.

(3 – Robert et marianne Cornevin : O P. cit . P .260

(4) – د/ عبد الله عبد الرازق ابراهيم : الحركات الإصلاحية في غرب افريقية، مرجع سابق، ص 209.

(*) – جنى " Djennie " مدينة على نهر النيجر الأعلى تأسست حوالي (494هـ 1100م) على أيام المرابطين ، اشتهرت بالعلم و التجارة خضعت لإمارة سيغو 1518م كما خضعت للحاج عمر ، دخلها الفرنسيون عام 1893م ، انظر : د/ حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ، مرجع سابق، ص 217 و عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين : مرجع سابق،ص ص 106-108.

التي طلبت الحماية و دخلها بعد حصار دام تسعة اشهر [1].

و في سنة (1231هـ 1815م) كان " أحمدو لوبو " قد أسّس عاصمة له سماها " **حمد / الله** " [2] (***حمد اللاي***) بلغة قومه.

ثم راحت قوات المصلح تجاهد في جهات البلاد المختلفة، و المدن تسقط الواحدة تلو الأخرى تباعا في يده،فسقطت بعد جنى" Djennie " ماسينا " Macina " و تمبوكتو " Tumboctou " "و كآرتا " "Kaarta"،و بعد صراع مرير اتسم بالحدّة و العنف مع حكام مدينة كوناري "Counary " التي تقع على الضفة اليمنى لنهر باني " Banie " و تمكّن من افتكاكها من خصومه و صارت من الأملاك التابعة لدولته .

و في الوقت نفسه الذي كان يقوم فيه بالجهاد، كان يولي الدعوة و الدولة اهتماما كبيرين، كما اعتنى بعاصمته عناية فائقة، فعمل على توسيعها و تنظيمها و تحصينها،و ضم اليها بعض الضياع و المساحات الزّراعية الواسعة، و جعلها وقفا على رجال الدعوة و العلماء العاملين و طلاب العلم و بعض المسلمين، كما انشأ بها المدارس و المراكز العلمية و المنشآت الدينية، فصارت مدينة " حمد الله" حاضرة اسلامية جديدة في منطقة غرب افريقيا، و ضمت هذه الدولة الفتية الرقعة الجغرافية التي تتربع عليها جمهوريتي مالي و بوركينافاصو الحاليتين [3].

و يتضح من خلال هذه الإنجازات سواء منها ما كان في المجال الدعوي أو الجهادي على ان " أحمدو لوبو " كان صادق النية مخلصا في عمله،فلم تلهه الإنتصارات عن أمر الدعوة الى الإسلام و نشره بين القبائل، كما دلّت انتصاراته على أنّه رجل عسكرية و جهاد، و لذلك كانت جيوشه تكلل بالنصر حيثما توجهت .

كما يبرز نشاطه في ميدان البناء و التشييد:على ان المصلح صاحب نظرة بعيدة، فقد كان رجلا سياسيا، اذ ربط علاقاته مع الخارج ثم توجّه للجهاد، و ما بناؤه لمدينة " حمد الله " و جعلها عاصمته إلاّ دليل على انه مقبل على مشروع سياسي في غاية الأهمية،و هو بناء دولة اسلامية عظيمة في غرب افريقيا كتلك التي أقامها عثمان دان فودي .

كما ان المنشآت التي أقامها في العاصمة و الأملاك التي أوقفها على العلم و العلماء تدل على نضجه و وعيه و اهتمامه بإصلاح المجتمع إصلاحا جذريا، فقد جسّد بمشروعه هذا قول الشاعر العربي :

بالعلم و المال يبني النّاس ملكهم *** لم يبن ملك على جهل و إقلال .

و بعد ان استتب الأمن و صار للشيخ أحمدو دولة فتية تحتاج الى رعاية خاصة، و اهتمام متزايد

---

(1) : فؤاد أفرم البستاني : المرجع السابق، المجلد 7 ، ص 307.

(2) : Robert et marianne Cornevin : O P. cit . P .260

(2) – د/ عبد الله عبد الرازق ابراهيم : الحركات الإصلاحية في غرب افريقية، مرجع سابق، ص 16.

و تنظيم في غاية الإحكام و الدّقة يتماشى و روح الـدعوة و يضمن استمراريتها مستقبلا، وضع لها أسـسا متينة تعتمد على مبادئ الشورى الإسلامية التي دعا اليها القرآن الكـريم،قال تعالى[1] : " ***و أمرهم شورى بينهم*** ".

فجمع العلماء و الأعيان و التجار من جميع المناطق التي ضمّتها الدولة و أعلن فيهم انه عازف عن تولي المسؤولية و احتكاره السلطة لنفسه، ثم طلب منهم استعمال الحيطة و الحذر و التحلي بالجدّية و اليقظة في اقبالهم على أي عمل، كما دعاهم الى توحيد الصف،و تآزر الجميع لإقامة إدارة حـازمـة و كفأة، و انشاء تنظيمات و مؤسسات تخضع لأحكام الشريعة،و خوّلها السهر على تسيير شؤون الرعية بما يتماشى و تعاليم الإسلام،لترقى بالمجتمع الى حياة أفضل و تخلصه من طغيان و جبروت إدارة الحكام السابقين [2].

و بناء على رغبة و طلب أمير المؤمنين تشكلت لجنة تتكون من مـائة عضو،انكبت على دراسة أحوال البلاد و الأوضاع السائدة بها دراسة مستفيضة و مفصّلة، و حصرت جميع المشاكل و اقترحت الحلول العملية المناسبة لها، و بعد شهور من العمل المضني و السهر المتواصل اعدّت اللجنة تقريرا شاملا و مفصلا تضمن مقترحاتها كتابيا و عرضتها على الأمير، الذي سهر هو بدوره على مراجعتها و دراستها بإمعان،ثم اعلن موافقته و قبوله لما جاء فيها[3].

و لعل هذا الدليل السابق يدفعنا الى القول ان " أحمدو لوبو " قد عبّر من خلاله على أنّه رجل عظيم و مخلص، كما ضرب مثلا أعلى للديمقراطية في ربوع القارة السمراء، فأحيا بذلك احدى ارقى القيم الإنسانية النبيلة التي دعا اليها الإسلام و حث على التمسك بها ألا و هي الشورى .

كما يمكن ان نعد هذا التقرير الصادر عن اللجنة المرجعية الأساسية لدستور أقام عليه أحمدو لوبو فيما بعد هياكل و مؤسسات و تنظيمات دولته المستقبلية .

تنظيمات دولة أحمدو لوبو :

بناء على ما سبق تم انشاء مؤسسات الدولة، و كانت كما يأتي :

- تأسيس المجالس :

لقد كوّن الشيخ أحمدو لوبو الماسيني مجلسا استشاريا يضم اربعين عضوا من كبار عقلاء البلاد و علمائها، و أوكل رئاسته الى أحد أكبر و أشهر العلماء فيه، و قد أضاف الى هؤلاء ستون

---

(1) – سورة الشورى : الآية 38.

(2) – د/ عبد الله عبد الرازق ابراهيم : الحركات الإصلاحية في غرب افريقية،مرجع سابق، ص 16

(3) – د/ عبد الرحمن عمر الماحي : المرجع السابق، ص 154.

شيخا من قدماء الشيوخ المجاهدين [1] و أطلق عليهم اسم المحكّمين، و يترأسه أحمدو شيخو نفسه بمعيّة اثنين من الأعضاء [2]، و اذا اختلفت الأراء داخل المجلس الكبير (المستشارون و المحكّمون) يختار أربعون عضوا بالقرعة من المحكّمين الستين، و يكون قرارهم في المسألة محل الخلاف نهائيا و غير قابل للطّعن والاستئناف و حسب النصوص التشريعة و بتفويض من الرئيس كان يتولى بعض الأعضاء السلطة المخولة للأمير.

و الجدير بالملاحظة ان أعضاء هذا المجلس يجب ان لا يقل سن العضو عن الاربعين سنة .

و من خلال هذا تبدو الديمقراطية الحقة في دولة أحمدو لوبو كما يتضح من هذه المؤسسة الدستورية التي انشأها افريقي مسلم في قلب الصحراء الإفريقية في منتصف القرن الثالث عشر الهجري، النصف الاول من القرن التاسع عشر الميلادي. تشبه و الى حد بعيد المؤسسات الدستورية التي انشأتها الدول الحديثة، و كان برلمان " أحمدو لوبو " يتشكل من غرفتين اثنتين .

و هكذا برهن المصلح أحمدو لوبو عن نيته الصادقة و اخلاصه في اقرار نظام الشورى و عدم استئثاره بكل السلطات، فرغم كونه أميرا للمؤمنين و المؤسس للدولة،غير انّه كان عضوا ضمن هذه المؤسسة .

و بناء على قرارات المجلس الإستشاري ظهرت التنظيمات الآتية :

- التنظيم الإداري :

اعتمد أحمد وّعلى مجلس الأربعين الذي يترأسه أحد العلماء الكبار المعروفين بسعة علمهم و رجاحة عقلهم و المشهود لهم بالكفاءة و النزاهة و العدل، فقسّم البلاد الى خمس إمارات على رأس كل إمارة أمير[3]، يكون على إلمام ودراية بالشّؤون العسكرية، و يساعده في الإدارة عالم معروف بكفاءته و تبحّره في العلوم يتمتع بالإستقلالية و بكامل السلطات و الصلاحيات القضائية، و يمكنه تقديم الأمير نفسه للمحاكمة أمام المجلس الإستشاري في العاصمة اذا اقتضى الامر ذلك .

أما عاصمة البلاد و حاضراتها الأولى،فقد أحاطها بسور لحمايتها من هجمات الأعداء تخترقه بوابات. أما وسط المدينة فقد شيد به المحكمة و السجن و السوق المركزي الذي كان يتوفر على كل اللوازم و السلع التي يحتاجها المواطن .

و قسمت المدينة اداريا الى خمس اقسام يشرف على ادارة كل قسم من هذه الأقسام مسؤول يدير القسم،و مركزه يعادل مرتبة القاضي .

---

(1) - د/ حسين مؤنس : أطلس العالم الإسلامي ، مرجع سابق، ص 377.

(2) - د/ احمد ابراهيم دياب : لمحات من التاريخ الإفريقي الحديث، مرجع سابق، ص 211.

(3) - فؤاد أفرم البستاني : المرجع السابق، المجلد 7 ، ص 307.

و يدل هذا التقسيم على ان المدينة كانت كبيرة و واسعة عامرة بالسكان ، و لولا ذلك لما تطلّب تقسيمها الى هذا العدد،و لما اسندت مهمة الإدارة الى شخص بهذا المستوى الرفيع .

- التنظيم القضائي :

كان القضاء في دولة احمد ولوبو اسلاميا اذ كان القضاة يتولون منصب القضاء و يستمدون احكامهم من الكتاب و السنة، و كان لهؤلاء القضاة مكانة رفيعة في المجتمع، اذ كان القضاة مستقلين استقلالا تاما عن الإدارة، حتى ان القاضي كان بإمكانه ان يقاضي الأمراء امام المجلس الإستشاري، اذا ما ثبتت ادانتهم او تورطهم في قضية من القضايا، او اخلالهم بالمهام الموكلة اليهم، او عدم قيامهم بواجباتهم على الوجه الأكمل .

و كان على رأس كل قسم من الأقسام السالف ذكرها لمدينة حمد الله قاض خاص يتولى ادارتها و يتولى الشؤون القضائية في القسم،و ينظر في الخصومات و النزاعات و يصدر الأحكام القضائية، و عيّن على رأس هؤلاء القضاة جميعا قاضي القضاة،و هو بمثابة وزير العدل في زمننا الحاضر .

و لعل ما يدل على اهمية القضاء و مكانته عند "***احمد ولوبو***" انّه شيّد لهذا الهيكل التنظيمي بناية خاصة (***المحكمة***) و جعلها تتوسط المدينة، و جعل السجن بجوارها. و هذا يدل أيضا على النظرة العملية في التنظيم و تسهيل أمر عرض المتهمين على القضاة بسرعة و تلافي نقلهم و تيسير مراقبتهم و التحكم فيهم من قبل الحراس، و من ثمّ الحرص على العدل و النظام لسلامة المجتمع.

- التنظيم الإقتصادي و الإجتماعي :

أقام "***احمد ولوبو***" نظاما اقتصاديا إسلاميا و ذلك بإنشاء بيت للمال و كانت تضم أموال الدولة، و كانت موارد هذا البيت تجمع من الزكوات [1] المتعددة و من الجزية و الخراج و الغنائم الحربية و المكوس و الغرامات التي كانت تفرض على مخالفي الشريعة الإسلامية، علاوة على بعض الغرامات التي كانت تفرض على القرى و المدن التي تحاول الإنشقاق عن الدولة،او محاولة التمرد على السلطان أو تعصي أوامره و ترفض تطبيقها ، اما الأموال فكانت لاتصرف إلاّ في حدود وجوهها الشرعية و في خدمات الصالح العام وبدون تبذير .

أما في مجال استقرار البدو، فقد اقتبس " أحمدو لوبو " من دولة الفولاني النظام الذي كان قد طبّقه "محمد بيلو" حيث انشأ قرى ثابتة و مستقرة تتوفر على كل المرافق و استصلاح الأراضي الزراعية التي صارت

---

(1) – د/ محمد ابراهيم دياب : لمحات من التاريخ الإفريقي الحديث، مرجع سابق، ص 211.

مصدرا اقتصاديا هاما، و بهذا ساعد على استقرار الجماعات البدوية،و جعل البدو الرحل منظمين تحت اشراف موظفين تابعين للدولة يسهرون على تنظيم هؤلاء البدو و رعايتهم، يوجهونهم حيث يتوفر الماء و الكلاء الغزير و المرتع الخصب و. بذلك استطاع أحمدو اخراج النّاس من حياة البداوة و الترحال الى حياة الأمن و الإستقرار[1].

كما يبدو من خلال هذه الإجراءات مدى اهتمام احمدو بالحياة الإقتصادية، اذ حوّل المجتمع البدوي الذي كان مصدر رزقه يعتمد على رعي الحيوان و الإنتجاع،الى مجتمع مستقر يعتمد في اقتصادياته على الفلاحة. كلّ هذا بفضل الإستصلاحات التي أدخلها على الأراضي التي حوّلها من اراضي بور موات غير منتجة، الى ارض يعتمد عليها السكان في معاشهم، فارتفع بذلك مستواهم الإقتصادي، و هكذا تمكن أحمدو من تغيير الحياة الإجتماعية و الإقتصادية لمجتمعه و سهل عليه تربيته و تعليمه،و تنقية عقيدته و تصحيحها من افكار مغلوطة علقت بها .

- ***النظام الضريبي*** :.

اكتفى أحمدو في دولته بتحصيل الضريبة من الفلاحين و الرعاة و من صيادي السمك و التجار، باعتبار هذه الحرف من مصادر الثروة و عماد دخلها في البلاد و مردودها وافر، و أعفى رجال الصّناعة و الحرف من هذه الضرائب كما حصل في "سوكوتو"، لأن هذه الأخيرة لا تعد من المصادر الأساسية للثروة و مردودها ضعيف .

و هنا يمكننا القول أنّ أحمدو لوبو نظر الى الواقع الإقتصادي لبلاده بعين عالم الإقتصاد فلم يفرض الضريبة إلاّ على ذوي الدخل القار، و اعفى من الضرائب النشاطات التي لا تدّر مدخولا كبيرا و ربحا و فيرا لأصحابها، و هكذا يظهر العدل في توزيع الأعباء من جهة، كما يشجع الإقبال على هذه النشاطات من جهة ثانية، كما يمكننا ان نقول ان اعفاء اصحاب هذه الحرّف من الضريبة ربما يهدف الى تدعيمها بشكل غير مباشر حتى يعطي دفعا جديدا للصناعة كما تفعل الكثير من الدول في وقتنا الراهن في حالة تشجيعها لبعض القطاعات دون اخرى،و بسبب هذه السياسة الحكيمة و الرشيدة في آن واحد عمرت البلاد و الطرق بالمتاجر و الورشات،و نشطت التجارة و الأسواق التي وجدها المستكشفون الأوروبيون عند قدومهم الى القارة في غاية التنظيم و الإزدهار[2].

---

(1) - د/ حسين مؤنس : اطلس التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ص 377

(2) - د/ حسين مؤنس : نفس المكان .

ان هذه السياسة التي انتهجها الداعية الإسلامي "***أحمد ولوبو***" يبدو انّه سبق بها غيره في عصره و في حدود القارة الإفريقية على الأقل، و ذلك بسهره على راحة النّاس، و رعايته للعدل و عدم ارهاق الرعية بالقوانين و الغرامات، و اهتمامه بجميع مناحي الحياة السياسية و الإقتصادية و الإجتماعية و الثقافية، فأحبه النّاس و اقبلوا عليه و اخلصوا له الطاعة. و بفضل ذلك سهل عليه مهمة الدفاع عن دولة ماسينا "Macina" الموحدة، فانتشر الأمن و عم الآمان و السلام ربوع البلاد.

- التنظيم العسكري :

انشأ" ***احمد ولوبو*** " نظاما عسكريا في غاية التّنظيم حيث كان ينتقي جنوده من بين اتباعه من ذوي البنية الجسدية السليمة المتميزة بالقدرة و الحيوية و النشاط [1]، و كان يسهر على تفقّده و مراقبته بإستمرار ليتأكد بنفسه و يطمئن على أحواله، يلبي احتياجاته و متطلباته و يرفع من معنوياته، فضلا على معاينة تدريباته المنتظمة التي تتماشى و ظروف العصر، كما سهر بنفسه على تسليح هذا الجيش ، فانتقى له الأسلحة النارية الحديثة التي كان يقتنيها من التجار الأوروبيين في غرب افريقيا .

و الحق ان "***أحمد ولوبو***" بإعتباره جنديا قديما في صفوف قوات عثمان دان فودي، فقد كان متداركا النقائص، و قد اكتسب من تنظيمات جيوش الداعية عثمان الكثير من الإنضباط مقلدا بعضها و مكيفا بعضها الآخر وفق متطلبات الظروف البيئية و استراتيجية الحروب و المعارك التي كان يخوضها هذا الجيش، لذلك حضي الجيش بثقة الأمير فأخلص في الدفاع عن البلاد و صيانة حدود الدولة و حمايتها من أي عدوان خارجي، و السهر على نشر الأمن في الداخل، فنعمت البلاد بالأمن و الإستقرار ، كما حققت هذه الجيوش انتصارات باهرة و الحقت الهزائم بالأعداء .

- ميدان التعليم و الثقافة :

باعتبار"احمدو لوبو"رجل علم بالدرجة الأولى فقد أولى هذا الجانب اهتمامه، فاهتم بالتعليم و الثقافة، لأنه كان يدرك ان اي بناء لا يصحبه تكوين الإنسان مآله الفشل و الإضمحلال، لذلك شرع في بناء المدارس و نشرها حتى زاد عددها في العاصمة "حمد ا لله "لوحدها عن ستمائه مدرسة ناهيك عما بناه في القرى و المدن الأخرى المنتشرة في طول البلاد و عرضها.

و كانت هذه المدارس عامرة بطلاب العلم و المعارف المتنوعة، كما كانت الى جانب اهتمامها بتعليم القرآن الكريم و العلوم الشرعية الإسلامية المختلفة كالتفسير و الحديث النبوي الشريف و التوحيد

---

(1) - د/ عبد الرحمن عمر الماحي : المرجع السابق، ص 153.

و أصول الدين، تسهر على تدريس علوم أخرى ، كعلوم اللّغة العربية من نحو و صرف و بلاغة و عروض و منطق ...إلخ ، و لذلك ازدهرت هذه العلوم في المنطقة .

و كان الشيخ أحمدو نفسه يجلس للتدريس فيلقي دروسا في القرآن الكريم و تفسير آياته و الحديث الشريف و السيرة النبوية العطرة و التاريخ الإسلامي، و كانت دروسه تستقطب الكثير من المشتغلين بهذه الحقول، كما كان الطلاب يتقاطرون عليه من مختلف اقاليم غرب افريقيا للإستماع الى دروسه و وعظه فيستفيدون من علمه الغزير و تجاربه الواسعة .

و فضلا عن ذلك قام أحمد ولوبو الماسيني بتشييد المساجد في كل الحواضر و القرى، و هذه المساجد كانت بمثابة منارات للعلم و العبادة، و كان الأمير يشرف بنفسه على مراقبة صيانتها و رعايتها ، و لم يقصر في اداء واجبه كإمام،فقد كان يؤم رعيته في صلاة الجمعة و الأعياد الدينية و المناسبات [1].

و لعل هذا ما يحملنا على الإعتقاد بأن " ***أحمد ولوبو*** " كان رجل دين و دنيا معا غير انّه انتهى في آخر حياته الى نسبة نفسه و عشيرته الى آل البيت و الإدعاء بأنه المهدي المنتظر[2]

- العلاقات الخارجية :

يبدو انّ احمدو كان دبلوماسيا مرنا فعلى الرغم من انه سليل جيش عثمان دان فودي و احد المعجبين به، إلاّ انّه رفض التبعية و دفع الضرائب لدولة سوكوتو ففترت العلاقات بين الدولتين، و رغم ذلك لم تنقطع،اذ سرعان ما أعاد توطيدها مع الخليفة " ***محمد بيلو*** " (1233هـ 1817م، 1251هـ 1837م) فتبادل معه الرسائل و السفراء ،كما زوده هذا الأخير ببعض كتب الشيخ عثمان . اذ تلقى أحمدو اربعة كتب من انجال الشيخ عثمان تتناول مواضيع سياسية توضح أساليب الحكم و تنظيم العلاقة بين الأمير و حكام الأقاليم ، و تعليمات خاصة بشؤون القضاء و بعض مصاحف القرآن الكريم. و حتى لا يبقى منعزلا و بمنآى عن العالم الخارجي فقد سعى الى ربط علاقاته مع الدول الإسلامية الأخرى، كما فعل مع الدولة العثمانية [3].

لم يتوقف أحمدو عن نشاطه الدعوي و الجهادي و تنظيم الدولة و حضور مجالس الدرس إلى ان وافته المنية عام (1260هـ ، 1844م)[*] عن عمر يناهز التاسعة و الستين..

---

(1) – د/ عبد الرحمن عمر الماحي : المرجع السابق، ص 155.

(2) – د/ أحمد شلبي : المرجع السابق، المجلد 6، ص 229.

(3) – فؤاد افرم البستاني : المرجع السابق، المجلد 7، ص 307.

(*) – تذهب بعض المراجع الى انه توفي سنة 1845م انظر : *Robert et Marianne Cornevin: OP cit P 260*

و بعد وفاة زعيم الحركة ثار السكان على ابنه " ***احمدو الثاني*** " غير ان هذا الأخير استطاع ان يعيد الإستقرار و الأمن عن طريق معاقبة المنشقين و الخارجين عن طاعة السلطان و الشرع باللين حينا و بالقوة في أحايين أخرى.(1)

و استمر في صراع المنشقين الى ان وافته المنية سنة (1269هـ 1860م) فتولى ابنه أحمدو الثالث الحكم فواجه بالإضافة الى المشاكل الداخلية التي ورثها عن سلفه " أحمدو الثاني " غز و الحاج عمر التكروري ، و لم يحالفه الحظ في الوقوف أمامه فاضطر الى التحالف مع البمبارا في سيجو " Sigou " ـ رغم العداوة بينهما ـ و جماعات الكونتا " Kounta " لكن هذه التحالفات لم تجده نفعا، اذ إكتسحت قوات الحاج عمر البلاد و دخلت العاصمة " ***حمد الله*** " عام (1277هـ ، 1868م)، و فر احمدو الثالث بإتجاه " تمبيكتو" "Tumb Ctou " و ادركته قوات خصمه " التكروري "(2) – الحاج عمر – الذي أمر بقتله .

و يبدو ان هذا الصراع كان صراعا صوفيا لإختلاف الطريقتين فأحمدو الثالث كان من اتباع الطريقة القادرية و الحاج عمر كان تيجانيا (*).

و بسقوط العاصمة " ***حمد الله*** " و قتل أحمدو الثالث انتهت دولة ماسينا " Macina " الإسلامية التي بناها المصلح " ***احمدو لوبو*** " في منطقة النيجر الأوسط و تمكنت من زعزعة أركان الوثنية و تقليصها بين شعب البمبارا الذي اعتنقت معظم قبائله الدين الإسلامي .

و بعد اختفاء هذه الدولة تدخل المنطقة ضمن حركة اصلاحية جديدة اخرى قادها داعية اسلامي آخر من ابناء التكرور.

و بعد ان استعرضنا الأوضاع التي كانت عليها منطقة غرب افريقيا و نشأة " ***احمد ولوبو الماسيني*** " و نشاطه الدعوي و الإصلاحي ، اتضح لنا ان هذا المصلح استطاع في ظرف قصير ان يحقق الكثير مما عجز عنه غيره ، فقد تسلّق سلم المجد و الفضل منذ ان كان صغيرا إذ تمكن ان يحصل من العلوم و المعارف قدرا لم يتيسر لغيره جمعه مما جعله يتبوء مكانة مرموقة في وسطه الإجتماعي و نال اعجاب و تقدير كل من عرفه و التقى به .

---

(1) – فؤاد افرم البستاني : المرجع السابق، المجلد 7، ص 307.

(2) – د/ محمد ابراهيم دياب : لمحات من التاريخ الإفريقي الحديث، مرجع سابق، ص 211.

(*) – التيجانية طريقة صوفية تنسب الى احمد بن محمد بن المختار بن احمد الشريف التيجاني ولد بعين ماضي بالجنوب الجزائري (1150هـ ، 1737م) درس بتلمسان و فاس حتى صار عالما بالأصول و الفروع ملمّ بالأدب و احد فقهاء المالكية المشهورين حج عام 1186هـ و عاد الى فاس ثم رحل الى توات فأخرج منها فإستقر بفاس منذ 1213هـ الى ان توفاه الأجل سنة (1230هـ ، 1815م) انظر : عادل نويهض : معجم اعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر ، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت 1400هـ ، 1980م، ص 62.

عرف أحمدو لوبو بغيرته على الإسلام و الذوذ عن حياضه، و خوفه على المسلمين مما تحدق بهم من اخطار و ويلات في عصر تلاشت فيه الممالك و الإمبراطوريات الإسلامية في افريقيا جنوب الصحراء التي كانت تقف في وجه الأخطار و التحديات التي تواجههم، و حز في نفسه ان يري المسلمين ضعفاء متفرقين و قد خالطت عقيدتهم الغراء شوائب غريبة ليست منها و لا تمت اليها بصلة، فابتعدوا عن جادة الشريعة ، فدفعه إيمانه العميق و اخلاصه الصادق و غيرته على الدين إلى نفض الغبار على هذه المفاسد ليبيّن زيفها. و اصلاح احوال المسلمين في تلك الأصقاع متأثرا بدعوة شيخ الدعاة – عثمان بن فودي – في غرب افريقيا في عصره .

انخرط أحمد وّ في صفوف جيش عثمان و اكتسب من ذلك خبرات و مهارات كثيرة في الدعوة و الإصلاح و الفنون العسكرية حتى نال احترام الشيخ عثمان نفسه، نتيجة علمه و شجاعته و مساهماته في نشر الدعوة و الإصلاح فعيّنه أميرا .

أتاحت هذه الفرصة للمصلح الشاب و فتحت له الباب لدخول عالم الإصلاح و البناء من بابه الواسع، فأقدم على الجهاد في سبيل الله بعزيمة قوية،فهذب و أصلح ما فسد من عقيدة المسلمين و أبعد عنها كل ما ليس منها، ثم اقبل على نشر الإسلام بين القبائل الوثنية فاعتنق الكثير منها الدين الإسلامي و صاروا بذلك مسلمين، فتوسّعت رقعة الإسلام في تلك الجهات بفضل دعوة " ***أحمدو لوبو*** "

لم تتوقف أعمال هذا المصلح على الدعوة و الإصلاح الإجتماعي، بل عمد الى بناء دولة اسلامية شهدت انجازاتها و ما خلفته من آثار على عظمتها. فقد تمكن من بناء جيش اسلامي عصري مدرب و مسلح، بواسطته فتح الكثير من البلاد و جمع شتاة قبائلها و شعوبها و خاصة من شعب الفولاني و صهرهم في بوتقة واحدة في ظل دولة اسلامية موحدة، كلّ ذلك بفضل تطبيق الإسلام و تعاليمه السّمحة عمليا .

كانت تنظيمات دولة ماسينا تستمد تشريعاتها من الكتاب و السنة النبوية، حيث طبّقت الشريعة الإسلامية في هذه الدولة الفتية التي استمرت ردحا من الزّمن. نعم سكانها في ظل حكم أحمد وّ بالعدل، فشعر النّاس بالأمن و الإستقرار، فاهتموا بشؤون حياتهم الدينية و الدنياوية، فازدهرت الحياة الإقتصادية و نشطت التجارة و الفلاحة و الرعي. و استقر البدو في قرى خاصة بهم، فنشطت الأسواق و عمرت بمختلف السلع، كما ازدهرت الحياة الإجتماعية و الثقافية، و شيّدت القرى و المدن التي عجت بالمدارس و المساجد فانتشر التعليم على نطاق واسع الأمر الذي ادهش المستكشفين الأوروبيين عند دخولهم الى افريقيا .

لذلك يمكن القول أنه بفضل الإسلام و دعاته ظهرت دول و ممالك اسلامية كبيرة مازال التاريخ يشهد على عظمتها و من خلالها على عظمة صانعها الإنسان الإفريقي المسلم، و لعلّ ما تركه هذا الإنسان من آثار مادية قائمة و ما خلفه من مخطوطات نادرة مدوّنة باللغة العربية و غيرها تتناول علوما مختلفة لها علاقة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

دعوته الجماهير العريضة التي كوّن منها قوة أضافها الى قوات حكام البلاد،فتمكن بذلك من رد العدوان الخارجي على الدولة و وحّدها و استرجع الكثير مما فقدته.

لم يكن محمد الامين رجل علم و حرب فقط،بل كان رجل سياسة مرن وظف العلم و القلم و السيف و الحرب،و استعمل الديبلوماسية و الفكر، و استطاع ان يقنع كما رأينا حكام "سوكوتو" بالعدول عن جهاد سكان برنو المسلمين، و اقام معهم علاقات طيبة بعد صراع مرير و دام،حتى استتب له الأمر في البلاد،و دانت له الجماهير بالإذعان و الطاعة، بعد ان عجز الحكام القدماء عن كسب طاعة الجماهير لهم .

و بفضل هذه الجهود أعاد الكانمي للإسلام نقاءه و رونقه فازدهرت المنطقة و انتشر فيها الأمن و الرخاء .

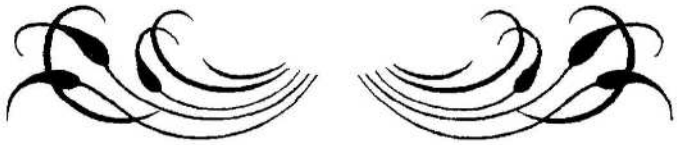
أما في منطقة غرب افريقيا فقد قامت فيها الحركة الثانية بزعامة " ***أحمدو لوبو الماسيني*** " التي عدت استمرارا لحركة شعب الحوصا،و استطاع هذا المصلح ان يقوم بحركة جهاد لتحرير الإسلام من البدع و الضلالات التي علقت به،و النهوض بالمسلمين من الجمود و الإنحطاط الفكري و الإجتماعي، فجاهد الوثنية و الحكام الذين يمثلونها،و اقام دولة اسلامية في المنطقة على غرار الدولة التي اقامها عثمان بن فودي ، و جعل لها حاضرة سماها " ***حمد ا لله*** " .

و اذا ما كان زعماء الحركات الإصلاحية و الوطنية في جنوب الصحراء او خارجها قد عبرت عن تمسكها بالحكم و رفضها التخلي عنه بشكل او بآخر، فإن هذا المصلح كان على العكس من ذلك،فبعد أن أقام الحكم في البلاد و شيده حتى علا صرحه بإنشاء المؤسسات و المجالس أعلن عزوفه عن تبوء سدّة الحكم و توليه المسؤوليات، فأعطى بذلك المثل الأعلى للمصلح الصادق و الديمقراطي الحق،فكان بذلك مثالا للمجاهد المسلم النزيه.

و بذلك كان لهذه المؤسسات و المجالس الحرية المطلقة في ادارة شؤون البلاد دون ضغوط،فقامت بدورها أحسن قيام .

و بهذه الطريقة استطاع أحمدو لوبو ان يلم شمل سكان منطقة "ماسينا" في "جمهورية مالي الحالية" في دولة واحدة يحكمها الشرع الإسلامي المستمد من القرآن و السنة النبوية الشريفة و عمل السلف الصالح.

و بذلك يمكن القول ان كلّ من محمد الأمين الكانمي و أحمد ولوبو الماسيني قد جددا للنّاس عقيدتهم وأحيا كل منهما السنن و طهّر الدين من ادران علقت به،و أنشآ دولة إسلامية اعطت دفعا جديدا للوجود الإسلامي و دوله في افريقيا جنوب الصحراء و لو لحين .



الفصل الخامس :

حركة الشيخ محمد بن علي السنوسي

و منهجه في الدعوة و التربية

و الإصلاح



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بعد أن تعرّضنا في الفصل السابق بشقّيه إلى حركتين إصلاحيتين في إقليمين مختلفين كان لهما دور في إحياء الإسلام و النفع بالمسلمين قدما في تصحيح العقيدة من جهة، و نحو تسنّم درجات الرقي و إنشاء الدول الحديثة و بعثها من جديد في ربوع إفريقيا من جهة ثانية، بالإضافة إلى ما حققته هاتين الحركتين في مجالات الدعوة و الإصلاح و الجهاد و إقامة الدول على المبادئ الإسلامية، و استطاعت أن تصمد لفترة زمنية معتبرة في وجه التحديات الداخلية و الخارجية. ولم تتوقف الدعوة و الحركة على هذين الإقليمين بل تجاوزتهما فظهرت دعوة أخرى أصلب عودا و أكثر عمقا و أبعد أثرا من كل الحركات التي سبقتها سنستعرضها فيما يأتي :

سأتناول بالدراسة في هذا الفصل حركة أصلاصية إسلامية في افريقيا تزعّمها رجل من رجالات الدعوة و الإصلاح في العصر الحديث. هذه الحركة ليست كباقي الحركات السابقة و حتى اللاحقة التي تندرج ضمن الدراسة،و ذلك للخصوصيات التي ميّزتها من جهة،و لكون صاحبها قد أدى دورا بارزا في اصلاح المجتمع الإسلامي و كانت دعوته أكثر اتّساعا.

و إذا كان صاحب هذه الدعوة جزائري المولد و النشأة، فإن صدى حركته و أعماله لم تبق حبيسة القطر تتراوح مكانها – مقتصرة على موطن مسقط الرأس – كمعظم الحركات،حيث راحت تنتشر في عموم البلاد العربية و الإسلامية، بل تخطّتها مخترقة كل الحواجز الدينية و الإجتماعية و السياسية التي غشيت المجتمعات الإفريقية التي ظلت ترزح تحت نير الوثنية ردحا من الزمن، و أنارت لها سبيل التوحيد و الطريق إلى الله و ترك ما سواه من مظاهر الشّرك المختلفة من جهة،و نشر الإسلام و ثقافته بين القبائل الوثنية في إفريقيا من جهة أخرى. و قد كان صاحب الحركة عالما تقيا و مصلحا مجدّدا فعلا على كلّ الأصعدة و المستويات الروحية و المادية خاصة في مجاهل القارة السمراء. و صاحب هذه الحركة الإصلاحية الإسلامية الحديثة هو " ***الإمام الشيخ محمد بن علي السنوسي*** " المستغانمي الجزائري.

ليبيا قبل ظهور الحركة السنوسية :

كانت ليبيا قبل دخول المسلمين تخضع للنّفوذ البزنطي، و دخلت تحت لواء الخلافة الإسلامية في عهد والي مصر " ***عمرو بن العاص*** " بعد تحريرها، و خضعت للحكم الإسلامي بأقسامها الثلاثة الرئيسية برقة، فزان، طرابلس، [1] و كغيرها من أقطار العالم الإسلامي تعرّضت للهجمات الصليبية، فقد هاجمها النورمنديون

(*) – السنوسي : حمل هذا اللقب الذي كان يحمله جدّه من قبل تبرّكا بالإمام العلامة محمد بن يوسف السنوسي عالم تلمسان و صاحبها في عصره. فعرفت به هذه العائلة فيما بعد. إنظر عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، ج4، ط7، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1415 هـ، 1994م، ص 265.

(1) – ابن تغري بردي : النجوم الزّاهرة في تاريخ مصر و القاهرة، ج1، المؤسسة المصرية العامة 1383 هـ، 1963 م، ص 76.

الفصل الخامس ـــــــ

2 – الدور الثاني : العهد القرمنلي : 1123 هـ، 1711 م – 1251 هـ، 1835 م :

ساعدت الإضطرابات الداخلية على وصول أحمد القرمانلي أحد قادة الجيش إلى سدّة الحكم بمبايعة الشعب له في عام (1123 هـ، 1711 م) و بموافقة السلطان بعد لأي.

قام أحمد القرمانلي بإصلاحات مشهودة، فقد طهّر الجيش من العناصر المشاغبة، و عمل على توحيد البلاد و نشر الأمن في ربوعها، و تقوية الأسطول البحري و تحصين المدن، علاوة على تنظيم التجارة و الإهتمام بطرق القوافل [1].

و إذا كان أبناء أحمد القرمانلي قد سلكوا نهج أبيهم بعد وفاته فإن أمراء الفترة الأخيرة مالوا إلى الإنحراف، فضعفت الدولة و أصيبت بهزائم بحرية متكرّرة و وقعت البلاد في ضائقة مالية على عهد الأمير " ***يوسف باشا*** مما اسفر في النهائة عن زوال الحكم القرمانلي و عودة الحكم العثماني المباشر للبلاد [2].

و الحق أن الحكم العثماني في ليبيا تركّز في المناطق الساحلية فقط و لم يتوغّل إلى دواخل البلاد الليبية.

العهد العثماني الثاني : (1251هـ، 1835 م – 1331 هـ، 1912 م) :

إستغلت الدولة العثمانية ضعف الأسرة القرمانلية و أرسلت حملة سيطرت من خلالها على الحكم عام (1251 هـ، 1835 م)، و صارت ليبيا ولاية عثمانية تابعة للسلطان مباشرة.[3]

و قد امتاز العهد العثماني الثاني الذي امتد حتى الإحتلال الإيطالي بكثرة الولاة و السرعة في تبديلهم فتولّد عن ذلك عدم الإستقرار [4]. و كان هذا الإضطراب ثغرة سهلّت للمستعمرين الإيطاليين المرور إلى ليبيا.

في هذا الجو المتميّز بالفوضى و الإضطراب ظهر ***محمد بن على السنوسي*** كداعية و مصلح في البلاد الليبية يحاول بناء مجتمع إسلامي جديد يقف في وجه الإستعمار الأجنبي المتربص ببلاد المسلمين[5].

---

(1)– مجموعة من الأساتذة : موسوعة السياسة، مرجع سابق، ص 553.

(2) – مصطفى حامد رحومة : المقاومة الليبية التركية ضد الغزو الإيطالي أكتوبر 1911 أكتوبر 1912، المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية، حلب، سوريا، 1988 م، ص،ص 26-27.

(3) – د/ جلال يحي : تاريخ المغرب الكبير من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، ج3، ص 668.

(4) – مصطفى حامد رحومة : المرجع السابق، ص،ص 29-30.

(5) – محمد أسعد طلس : تاريخ الأمّة العربية عصر الإنبعاث، دار الأندلس للطباعة، بيروت، 1563، ص 92.

حياة الشيخ محمد بن علي السنوسي :

تعريف الحركة :

الحركة السنوسية، حركة اصلاحية و أخوّة اسلامية حديثة مست مختلف النواحي الدينية و العلمية و السياسية و الإجتماعية و الفكرية و الصوفية، و الطريقة يتّبعها من شاء من المسلمين و يكفيه قراءة فاتحة الكتاب على العهد [1].

حياته و آثاره :

ولد ***محمد بن علي السنوسي*** في محلة الواسطة بقرية طرش "***يَلَل***" الحالية على ضفتي وادي الشلف و نهر مينا [2] بإقليم الخطّاطبة في بلدة مستغانم بالجزائر [3] في يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأوّل سنة (1202 هـ الثاني و العشرون من شهر ديسمبر 1787 م) على أرجح الروايات[*].

اشتهرت أسرته بالإضافة إلى عراقة النسب [**] بالعلم و الفضل و التقوى و التمسّك بالدين و المحافظة على التقاليد العربية الإسلامية.

نشأ محمد بن علي يتيما، فقد توفي والده في عنفوان شبابه و هو لم يتجاوز الخامسة و العشرين من عمره، و كان معروفا بين قومه بالصلاح و الورع و التقوى و دماثة الخلق [4] إلى جانب براعته الفائقة في فنّ الرماية و الدّقة في التسديد و إصابة الهدف علاوة على مهاراته في فنون الفروسية و انتقاء الخيل و ترويضها.

توفي هذا الوالد و الطّفل لم يبلغ سن الفطام بعد، فكفلته و أشرفت على تربيته و تعليمه عمّته فاطمة الزهراء[5] و كانت من فضليات نساء زمنها، إذ كانت على جانب كبير من التقوى و العلم و الصلاح منقطعة لفعل الخير متفرّغة للوعظ و التوجيه و التعليم، و لم تكن حلقات دروسها و تعليمها مقصورة على النساء فحسب، بل يحضر مجالسها الرجال فتبوأت بذلك مكانة مرموقة بين نساء عصرها،بل و فاقتهن علما و عملا.

---

(1) – عبّاس محمود العقاد : الإسلام في القرن العشرين حاضره و مستقبله، المكتبة العصرية، بيروت، 1979، ص 86.

(2) – عبد الرحمن الجيلالي : المرجع السابق، ج4، ص 265.

(*) – ذهب الضابط الفرنسي كورني "CORNET " إلى القول أن محمد بن علي السنوسي ولد سنة 1796 م أنظر: Capitaine cornet: au Tchad trois ans chez les Senoussiste les ouaddaiens et les kirdis, librairie plon, Paris, 1911, P. 93.

كما ذكر اسماعيل العربي ان السنوسي من دوار أولاد سيدي يوسف، أنظر : الصحراء الكبرى و شواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 223.

(**) – انظر نسب الترجمة في الملحق رقم (3).

(3) – د/ حسين مؤنس : أطلس التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ص 453.

(4) – عبد الرحمن الجيلالي : المرجع السابق، ص 265.

(5) – محمد الطيب بن إدريس الأشهب : السنوسي الكبير، مطبعة محمد عاطف، طرابلس، دون تاريخ، ص 9.

أظهر السيد محمد بن علي منذ نعومة اظافره سلوكا و ممارسات لفتت أنظار أقاربه و اهتمام أفراد أسرته، فتنبّأت له السيدة فاطمة جدّته لأبيه بأن يكون له في المستقبل شأن عظيم.

في هذا الجو العلمي و المناخ الديني و البئة الإسلامية شبّ المصلح، إذ تذكر الروايات أن السنوسي لم يكن كغيره من الأطفال الآخرين يميل للّهو و المرح و الحبور، بل فقد كان ميالا للإنزواء و البعد عن الجلبة و الصخب [1] محبّا للوحدة و الإنفراد، يقضي الساعات الطوال في التفكير و التدبر. و قد أبدى السنوسي منذ طفولته الأولى شغفا و حبا شديدين لتعلم العلوم الإسلامية [2] و الإغتراف من مناهلها الصافية و ينابيعها المختلفة فدرس في مستغانم القرآن الكريم حتى حفظه و أجاد ترتيله فتفتقت مواهبه و زاد حماسه و طموحه لترقي درجات العلم و الفضل و الشّرف، فعمد إلى دراسة اللّغة العربية و آدابها،و الفقه و أصوله،و تفسير القرآن و أحكامه،و الحديث النبوي الشريف.و التاريخ الإسلامي عامة و السيرة العطرة و التصوّف و إشراقاته خاصة، و كان من أبرز أساتذته في مستغانم الشيخ الجليل : أبو راس المعسكري (1751 – 1823) [*].

و الحق أن هذه الدراسات لم تشف غليله، فإنتقل إلى مدينة " مازونة " لإستكمال تعليمه،فتتلمذ[3] على يد الشيخ أبي طالب المازوني و محمد بن علي الشريف.

و قد زادته هذه الدراسة و الإتّصال بالعلماء و الفقهاء اهتماما بأحوال المسلمين عامة،و العالم الإسلامي بوجه خاص، و ما بلغه من تخلّف و انحطاط مفرطين، و الرغبة في النهوض به و استعادة مجده التليد، فقد كان يعيب على العلماء و الأئمة و الفقهاء،و يلوم الشيوخ عزوفهم عن الإرشاد و انصرافهم عن الدعوة و العمل على اصلاح أحوال المجتمع الإسلامي، منشغلين بشؤونهم الخاصة، و ما يتعلّق بحاجاتهم الشخصية،و ركونهم إلى الراحة و قعودهم عن الحركة و النشاط غير مبالين بإصلاح أحوال الأمّة الإسلامية و ارشاد أبنائها إلى هدف واحد و نحو مستقبل زاهر[4]،و كلّما أمعن في التفكير و التدبّر في مصير الأمّة الإسلامية و ما بلغته من انحطاط و تدهور، انجلت له الحقائق التي تدفع إلى المزيد من الطلب و الإنكباب على الدراسة و السهر على التحصيل بشغف و نهم عظيمين.

أمام هذه الرغبة الجامحة لم يكتف السنوسي بما حصّله من علوم داخل البلد، فقرّر الهجرة و الإنتقال

---

(1) – محمد فؤاد شكري : السنوسية دين و دولة ، دار الفكر العربي، القاهرة، 1948، ص،ص 13-14.

(2) – Capitaine Cornet : O.P cit, P. 92.

(3) – د/ عبد الرحمن عمر الماحي : المرجع السابق، ص 219.

(*) – الشيخ محمد بوراس بن أحمد بن ناصر الراشدي الناصري : كان إماما في المعقول و المنقول و كان مرجعا في الفروع و الأصول، أخذ العلم في الحواضر الإسلامية، القاهرة، تونس و فاس كان يدعى في زمنه الحافظ له تآليف كثيرة، توفي 1238 هـ و قد جاوز التسعين، صلى عليه 1500 نفس، دفن بمعسكر على شاطئ النهر الفاصل بين داخل البلد و قرية بابا علي، أنظر د/ أبو القاسم سعد الله : أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، القسم الأوّل، ط2، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1401 هـ، 1981 م، ص،ص 83-105، و تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16 – 20)، ج2،ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 390، و ما بعدها.

(4) – محمد فؤاد شكري : المرجع السابق، ص 14.

هذه المرّة إلى مدينة فاس [1] التي كانت حينها احدى حواضر العالم الإسلامي بإعتبارها منارة من منارات العلوم و المعارف، و مصدر اشعاع فكري و ثقافي في المغرب الإسلامي بفضل العلماء الأجلاء الذين كانوا يتزاحمون على منابر العلم في تلك المدينة.

مكث السنوسي بفاس مدّة سبع سنوات (1822 – 1829 م) [2] و هناك تتلمذ على يد مجموعة من الأساتذة المشهود لهم بالكفاءة العلمية، مثل حمودة بن الحاج، حمدون بن عبد الرحمن، و الطيب بن كيران، محمد بن الزّروالي و العربي بن أحمد الشرقاوي.

و ظل هناك يغترف العلوم و ينقب في المؤلّفات و الأسفار إلى أن حصل على إجازة في العلوم التي درسها و نال المشيخة الكبرى، فعيّن مدرّسا بالجامع الكبير.

لمع نجم الشيخ و ذاع صيته في المنطقة فأقبل عليه طلاب العلم و المعرفة يجلسون إلى دروسه التي كان يلقيها في الجامع، و هناك اتضحت معالم شخصيته و برزت قدراتها الفائقة و تأثيرها البالغ،فأرتسمت سبل تطلّعاته و تحددت أهدافه.

كانت مواعظ الشيخ و توجيهاته و انتقاداته لأحوال المسلمين مثار فزع و ريبة من قبل السلطات المغربية التي أحسّت بالخطر الداهم من آثار دروس الشيخ،و اعتبرتها سلاحا مدمّرا يهدّد سلطانها فشدّدت عليه الرّقابة

أمام هذا الحصار الشّديد من قبل حكّام البلاد، لم يجد السنوسي بدا سوى الرحيل و مغادرة المغرب الأقصى، و كان ذلك سنة (1245 هـ، 1829 م)[3] و لم يعد إلى مسقط رأسه مستغانم بل اتجه صوب الجنوب، و ذلك لبث دعوته و نشر رسالته بين القبائل المجاورة ، كما انه كان يسعى لزيارة الزّوايا الشهيرة المتناثرة عبر الجنوب بغية الإطلاع عليها و دراسة طرائقها بنفسه عن كثب،و التعرف على شيوخها و مقدميها و توثيق العلاقة بهم،و لما بلغ منطقة "***عين ماضي***" قرب مدينة الأغواط بالجنوب الجزائري اتصل بشيوخ الطريقة التيجانية و اطلع على اورادها و اذكارها ، ثم انتقل الى مدينة الأغواط نفسها و مكث بها ردحا من الزّمن مدرسا واعظا مرشدا، و ذلك لما لهذه المدينة من اهمية باعتبارها بوابة الصحراء الكبرى[4] تلتقي فيها القوافل القادمة من مختلف ارجاء البلاد و خارجها، و منها رحل الى الجلفة ثم انتقل الى بوسعادة ، و في هذه الأثناء احتل الفرنسيون الجزائر .

---

(1) – Capitaine Cornet : OP. CIT, P. 93.

(2) – جريدة النصر عدد 56 قسنطينة، الجزائر، بتاريخ 29 ديسمبر 1998.

(1) – د/ عمار هلال : العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية ، فيما بين القرنين التاسع عشر و العشرين، (14/13) ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995 – ص 462 .

(2) – د/ اسماعيل العربي : الصحراء الكبرى و شواطئها ، المرجع السابق – ص ص 150-151 .

الفصل الخامس ـــــــ

و قد عرف الشيخ منذ البداية بإستقلال شخصيته و اعتداده برأيه و بعده عن التقليد، بالإضافة إلى نفوره من السلطات و عدم تزلّفه الحكام و تقرّبه من ولاة الامور و تملّقهم. الأمر الذي أثار خشية شيوخ و مخاوف علماء عصره الذين كانت تربطهم بالسلطات الحاكمة و شائج، لذلك كان مقامه بمصر مثار ريبة و شكوك، فواجهته جراء ذلك صعوبات جمّة خاصة بعد ان شرع في إلقاء الدروس و المحاضرات و نشر الدعوة التي لم تجد صداها بين علماء الازهر و لم تصادف هواهم، فعارضوه معارضة شديدة، و لم يقف الخطب عند هذا الحدّ بل تعدى عتبة المعارضة الى حد اتهامه بالتزمت و التطرف لآرائه و مروق افكاره و التعصب لتعاليمه،فتحرشوا به و وقف له احدهم بالمرصاد، و دعا النّاس الى الإبتعاد عنه و حاول قتله بإعتباره مبتدعا في الدين، كان هذا هو الشيخ عليش الذي وقف في وجه الإمام محمد عبده فيما بعد[1] و قد وصفه " ***بأنه خرق الدين و اتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين*** "[2].

و اذا كان هذا موقف طائفة من العلماء،فإن البعض الآخر أثنى عليه و أشاد بسعة علمه و علو مقامه و شهدوا له بالفضل و الشرف و حسن الخلق، فقد ذكر الرحالة التونسي المشهور " محمد بن عثمان الحشائشي" (1855–1915م) قال عندما مرّ السنوسي بالأزهر نظر إليه أحد المدرّسين متفرّسا، ثم قام يخاطب الحضور من العلماء قائلا [3] : " ***انصتوا أيها العلماء لقد حلّ بين أظهركم إمام الأمة المحمّدية و نبراس الشريعة المطهرة و شمس المعارف الإلهية*** ".

و مما لا شك فيه أن هذا الحصار و التضييق على الشيخ و المعارضة الشديدة لإفكاره و التشنيع به و بآرائه و وصفه بالمروق الديني و الخروج عن تعاليم الإسلام الصحيحة قد ضايقه، و لم يتوقّف الأمر عند معارضة الأفكار بل تجاوزه إلى شخص المصلح نفسه و محاولة الغدر به و تصفيته جسديا، فتضايق أشدّ المضايقة مما كان يدبر له في الخفاء و العلانية، الأمر الذي جعله يفكّر في مغادرة مصر بعد ان أحدث فيها ثورة على الأفكار التقليدية البالية.

و فعلا لم يطل المقام بصاحب الترجمة في القاهرة إذ لم يلبث أن غادرها متجها قبلة الحجاز – بغيته منذ خروجه من بلاد المغرب – لأداء مناسك الحج. و لقد لعبت هذه الزيارة إلى البقاع المقدّسة دورا لا يستهان به في إبراز الدعوة السنوسية و ذلك لوجود شخص الداعية نفسه بالمدينة المقدّسة التي يرحل إليها المسلمون من كلّ فجّ عميق في مواسيم الحج و العمرة. فكان الداعية يتّصل بالعلماء و الفقهاء

---

(1) – د/ عبد الكريم بوصفصاف : الأبعاد الثقافية و الإجتماعية و السياسية في حركتي محمد عبده و عبد الحميد بن باديس 1845 – 1940 م، دراسة تاريخية و فكرية مقارنة، ج1، رسالة دكتوراه غير منشورة لدى الباحث، ص 151.

(2) – محمد عبده : الإسلام دين العلم و المدنية، تحقيق و تعليق طاهر الطناجي، دار الهلال، ص،ص 126–127.

(3) – محمد الطيّب بن إدريس الأشهب : المرجع السابق، ص 17.

المسلمين و زعماء القبائل و رؤساء الوفود يحاورهم و يناقشهم و يختبر من خلالهم أحوال النّاس آلامهم و آمالهم، و عند الإطمئنان اليهم في حال احساسه بصدق نواياهم، و شعوره بإخلاصهم و نيّتهم الصادقة في خدمة الإسلام و المسلمين يتحدّث إليهم في سعيه و يدعوهم إلى التآزر و الوحدة لتنظيم الصفوف و رصّها و تمتين روابط الأخوّة بين جميع المسلمين في مشرق الأرض و مغربها.

و في أثناء تواجده بمكّة المكرّمة التقى بالشيخ " أحمد بن ادريس الفاسي " [*] (1173 – 1253 هـ) و كان هذا الأخير رئيسا لإحدى الطرق الصوفية [1]، توثقت عرى الصداقة و الإخاء بين الداعيتين و مكثا على هذا الحال زمنا في الحجاز إلى أن قرّر ابن ادريس الرحيل عن مكّة المكرّمة إلى اليمن، و كان خروجه بسبب مخالفة منهجه في التدريس للمنهج الذي توارثه علماء مكّة منذ أزمان بعيدة، لذا نفروا منه و وصفوه بالمبتدع المارق، إضافة إلى تعنيف الحكومة له،لاسيما و ان العلماء المخالفين لمنهجه تحرّشوا به و أثاروا مخاوف ولاة الأمور، و أغاروا صدورهم عليه، فشدّدوا الضغط عيله فغادر مكّة مكرها. و كان لهذا وقع مؤثر في نفس السنوسي و حزن لفراقه استاذه، بعدها اتّجهت الأنظار إلى السنوسي نفسه [2].

و يتّضح من جرّاء هذه المضايقات و الخناق الشديدين الذين أحاطا بالشيخ من كل جانب أن زمرة الأعداء ما فتئت تنمو و تزداد يوما بعد يوم،و لاسيما من قبل العلماء الحاسدين و الحكّام المستبدّين الحانقين على كل دعوة أو حركة إصلاحية تدعوا إلى التجديد. لذا فإن أيام سنوسي باتت معدودة بالبلاد، و هكذا لم يبق أمامه إلا مغادرة الحجاز و الإلتحاق بأستاذه في اليمن رغم بوادر النجاح التي بدأ يحرزها.

أقام الإمام هناك باليمن إلى جوار أستاذه إلى غاية وفاة هذا الأخير حوالي عام (1251 هـ، 1835م)[**] و نتيجة هذه المعاشرة اكتسب السنوسي خبرة واسعة في مجالي الدعوة و التبليغ، و زادت صلته وثوقا بأتباع أستاذه، الذين طلبوا منه الإقامة بين ظهرانيهم.

و الواقع أن السنوسي بالرّغم من تشبث أهل اليمن و تعلّقهم به و إلحاحهم على بقائه خليفة لأستاذه لما كان يتمتّع به من ثقة،و لما له من خبرة و دراية بشؤون الدعوة، غير أنّه رغب عن البقاء في بلاد اليمن و فضّل العودة إلى البقاع المقدّسة للشروع في نشر طريقته.

(*) – أحمد بن ادريس الفاسي : ولد حوالي 1173 هـ و نال شهرة واسعة في بلاده، انتقل إلى مكّة سنة 1212 هـ، 1797 م ثم انتقل إلى اليمن حيث توفى هناك 1151 هـ، 1835 م، ورث الطريقة الخادرية عن أستاذه و مواطنه عبد العزيز الدباغ، الذي ولد سنة 1090 هـ، 1683 م بالمغرب الأقصى، نال الفاسي شهرة كبيرة في الحجاز و اليمن و تتلمذ على يده عدد من العلماء و الدعاة و منهم محمد بن علي السنوسي، أنظر عبد الكريم بوصفصاف : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و علاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى 1931 - 1945 م، المؤسسة الوطنية للإتّصال و النشر و الإشهار، رويبة، الجزائر، 1996، ص 184.

(1) – محمد أبو القاسم حاج حمد : السودان المأزق التاريخي و آفاق المستقبل، ط1، دار الكلمة للنشر، بيروت، 1980، ص 110.

(2) – محمد أسعد طلّس : المرجع السابق، ص 92.

(**) – اختلفت الروايات في تاريخ وفاة ابن إدريس و هي محصورة فيما بين 1835 – 1837 م.

تأسيس الطريقة :

عاد السنوسي إلى مكّة المكرّمة بعد انضمام الأغلبية الساحقة من اتباع ابن إدريس إليه، و أنشأ أوّل زاوية في جبل أبي قبيس (*) بمكّة (1253 هـ، 1837 م) [1]، و تعد هذه الزّاوية اللّبنة الأولى و الأساس الذي شيّدت عليه صروح الدّعوة السنوسية، و بداية عهد جديد لها، حيث شرع الشيخ في القاء الدروس و المواعظ و نشر تعاليم دعوته [2].

و الحق أن السنوسية هي فرع من الطريقة الخاذرية التي انشأها الشيخ ***عبد العزيز الدباغ*** الذي اشتهر بتقواه و ورعه و كثرة عبادته، فورث العهد من الشيخ ***الخذير*** و بعد موت الدباغ خلفه ***محمد بن ادريس الفاسي***، و بعد وفاة هذا الأخير انقسم أتباعه إلى فريقين مختلفين، و بذلك خرجت الطريقة الخاذرية من كنف الأسرة المؤسسة، و اسندت إدارة احدى الفرعين إلى محمد بن علي السنوسي[3].

بدأت الحركة تنموا شيئا فشيئا بفضل ما أوتي صاحبها من علم و تمسّك بالعقيدة الإسلامية السّمحة دون تشدد،فلقيت بذلك إقبالا كبيرا من طرف المريدين و الأتباع في ربوع الواحات الصحراوية. و فوق ذلك كان لطيف المعشر يعامل النّاس معاملة انسانية حسنة،فجمع حوله جموعا غفيرة من التلاميذ و الإخوان الأوفياء، فزاد مقامه ارتفاعا و نجمه سطوعا، الأمر الذي أقلق شيوخ مكّة و علمائها،و اغار صدورهم عليه، كما أن السلطات أوجست خفية من حركته و اتّساع نفوذه و كثرة من حوله، و خاصة أن الشيخ بقي على صلة بأبناء أستاذه ابن إدريس في " ***صبيا*** " بأرض اليمن، و هي أرض وهابية (**) و العداء كان على اشدّه بين الحكومة و الأشراف بمكّة و بين الوهابيين [4].

---

(1) – د/ حسين مؤنس : تاريخ المغرب و حضارته، العصر الحديث للنشر و التوزيع، ط1، 1412 هـ، 1992 م، ص 441.

(*) – أبي قبيس : جبل بغرب مكّة يعتقد أنّه المكان الذي يضم مقابر آدم و حوّاء و ابنهما الثالث شيث، أنظر : هامش عبد الكريم بو الصفصاف : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و علاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى (1931 – 1945)، مرجع سابق – ص 185.

(2) – د/ عبد الرحمن عمر الماحي : المرجع السابق، ص 220.

(3) – عبد الكريم بوالصفاصف : جمعية الاعلماء المسلمين الجزائريين و علاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى (1931 – 1945)، المرجع السابق، ص 184.

(**) – الوهابية : نسبة إلى حركة محمد بن عبد الوهاب التميمي ولد في أوائل القرن 12 هـ و أوائل القرن 17 و توفي سنة 1202 هـ، 1787 م، تلقى تعليمه في مسقط رأسه و ساح في البلاد العربية و الإسلامية درس الفقه الحنبلي و تأثّر بإبن تيمية، عاد إلى نجد و أعلن حركته التي تقوم على الكتاب و السّنة، و كل ما لا صلة له بهما يعدّ بدعة، لقي المذهب معارضة شديدة من قبل العثمانيين لكنّه لم تكد تأتي سنة 1924 م حتى أصبحت الجزيرة العربية تدين بالمذهب الوهابي الذي قامت عليه المملكة العربية السعودية، أنظر محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكرالعربي، ص 608 و ما بعدها، و كذا أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1990 م، ص 11 و ما بعدها.

(4) – محمد ابو القاسم حاج حمد : المرجع السابق، ص 101.

انتقاله إلى برقه(*) :

كان من بين أتباع السنوسي في الحجاز عدد من مسلمي طرابلس الغرب الذين رغّبوه في الهجرة إلى ديارهم و الإقامة بينهم. و لمّا اطمأنّ الشيخ على استواء دعوته في شبه الجزيرة و استقامة عودها قرّر مغادرة الحجاز و العودة إلى مسقط رأسه الجزائر و ذلك عام (1256 هـ، 1840 م)، و كان قد أرسل أهله بمعية بعض صحبه و اتباعه بحرا إلى مدينة قابس، بينما سلك هو مع بقية الأتباع طريق البر فمرّ " بينبع " و " العقبة " فالقاهرة، حيث كان الخديوي عباس قد بنى له زاوية عند الباب الجديد فلم ينزل بها[1]. و قد حلّ بطرابلس الغرب في شهر جمادى الثانية سنة (1257 هـ، أوت 1840 م) فاستقبله واليها التركي " ***علي باشا اسقر*** " و منها قصد مدينة قابس حيث التقى بأهله هناك[2].

و لاشك أن اختيار السنوسي لهذا المسلك عن ركوب البحر مع باقي أفراد الأسرة في رحلة العودة مرده إلى الإتصال بالنّاس و نشر أفكاره و بث دعوته و شرح مبادئها بينهم،و الإطلاع على أحوال المسلمين بنفسه عن كثب،لتشخيص أمراضهم و عللهم عسى أن يجد لهم العلاج الشافي و البلسم المناسب.لأنّه كان يشعر بعبئ حمل هموم العالم الإسلامي، و يفكّر في اصلاحه، كما عمل على رأب الصدوع و اصلاح ذات البين بين القبائل المتناحرة أثناء مروره بينها.

و من مدينة قابس تعرّف السنوسي على الأحوال التي كان عليها مسقط رأسه و وطنه الجزائر، و ما تعانيه من ويلات و أهوال جرّاء السياسة الإستعمارية الإستطانية، فحال ذلك دون دخوله أرض الوطن، فغيّر وجهته و قرّر العودة من حيث أتى. ذلك أن الأمير عبد القادر الجزائري في حربه مع الفرنسيين هدّم زاوية الطريقة التيجانية "***بعين ماضي***" بسبب تعاونها مع المحتلّين. و كان السنوسي ينتمي إلى هذه الطريقة فخشي على أتباعه إذا ما توجّهوا جنوبا. أما شمال البلاد فإنّ الفرنسيين كانوا قد سيطروا عليه و بسطوا نفوذهم على أديمه، و بذلك فلا يمكن دخوله لاسيما أن الإستعماريين قد علموا بعودة السنوسي و بخطورة دعوته، فاستنفروا قوّاتهم و رصدوا عيونهم على الحدود الشرقية في محاولة للقبض عليه[3].

لهذه الأسباب و غيرها اكتفى الشيخ بتوجيه بعض رفاقه من مدينة قابس إلى الجزائر يحملون تعاليمه و أفكاره بالإضافة إلى بعض المساعدات المالية يوجهها للمجاهدين[4].

(*) – أنظر الشكل رقم (8)، ص 165.

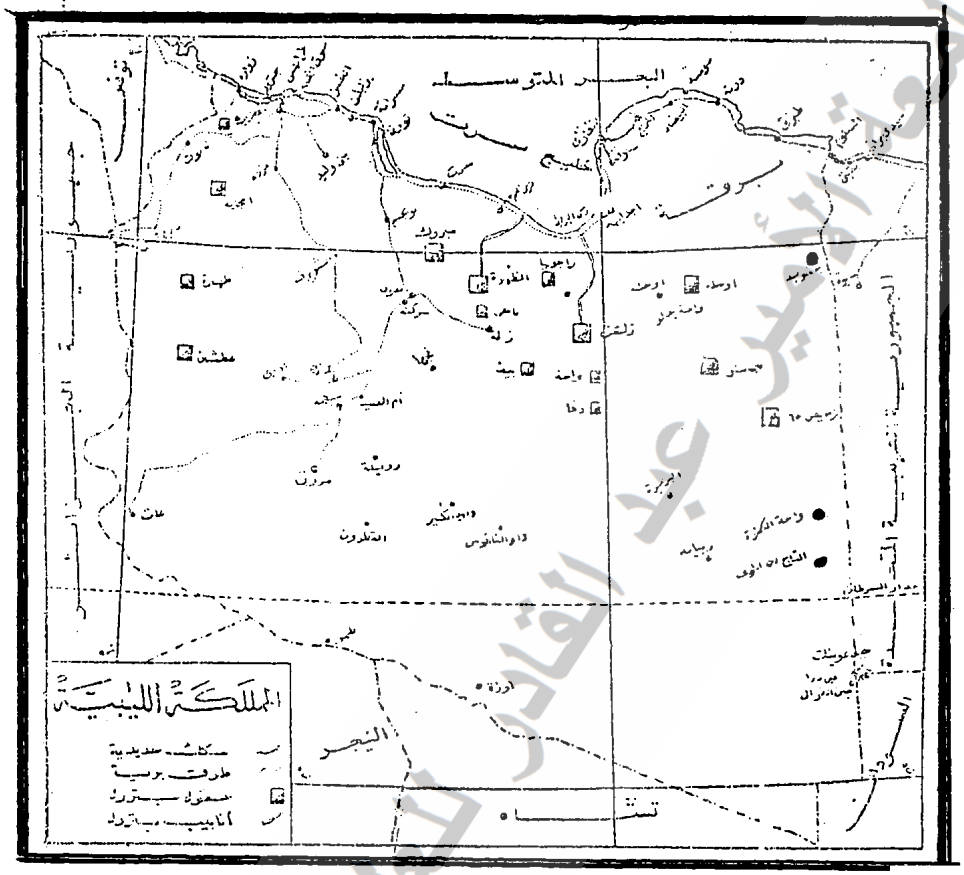
(1) – بطرس البستاني : دائرة المعارف، المجلّد 10، المرجع السابق، ص 147.

(2) – محمد فؤاد شكري : المرجع السابق، ص 21.

(3) – د/ عبد الرحمن عمر الماحي : المرجع السابق، ص،ص 220– 221.

(4) – محمد الطيب بن إدريس الأشهب : المرجع السابق، ص، ص13–14.

الشكل (8)



المملكة الليبية و تظهر بها مراكز السنوسية

عن د/ فليب رفلة : الجغرافية السياسية الإفريقية ص 371

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

و بعد تفكير ملي و تدبّر، قرّر العودة إلى برقة[*] التي كانت دعوته قد سبقته إليها و هو لم يزل بعد في الحجاز، فتلقاه أهلها بالتّرحاب و أكرموا وفادته و صحبه، و رغّبوه في الإقامة بين ظهرانيهم بعد أن حبّبوا له المقام بينهم[1] فأقام السنوسي في برقة و اتّخذ منها مركزا لنشر الدعوة و مبادئها و الإعداد لبناء الإمارة السنوسية و كان لذلك أهمية قصوى في نشر الطريقة [2].

مبادئ الحركة السنوسية :

تقوم الطريقة السنوسية على المبادئ الآتية :

1 – العودة بالإسلام إلى صفائه الأوّل كما كان على عهد الرسول صلى الله عليه و سلّم و الخلفاء الرّاشدين و السّلف الصّالح.

2 – الإعتماد على الكتاب و السّنة و اعتبارهما المصدرين الوحيدين للشريعة الإسلامية، و هي في هذا متأثّرة بأراء تقي الدين ابن تيمية [**] و محمد بن عبد الوهّاب التميمي التي درسها السنوسي الكبير أثناء مقامه بالحجاز.

3 – فتح باب الإجتهاد في الإسلام على مصرعيه أمام العلماء، لأن غلق بابه كان سببا في تسرّب البدع و الضلالات إلى تعاليمه.

4 – تطهير الدين الإسلامي الحنيف مما علق به من بدع و خرافات و أباطيل، و توحيد المذاهب في العالم الإسلامي على وحدة حقيقية [3].

5 –إيمان السنوسية بما تدعيه الصوفية من الرؤيا و الإتّصال و الكشف.

6 – حصر الإمامة في قريش.

7 – المهدوية : ظهرت فكرة الإيمان بها عند السنوسيين في عهد الخليفة محمد المهدي السنوسي و قال

(*) – برقة : مدينة أطلق اسمها على الإقليم كلّه، حلّت في العهد العربي محل باركيه BARKE التي انشأت عام 551ق.م، و في عام 21 هـ فتحها عمرو بن العاص و صالح أهلها على خراج قدره 3 آلاف دينار من الذهب، ثم اتّخذها المسلمون ولاية. أثنى عليها الجغرافيون العرب، ابن حوقل – البكري– و الإدريسي، انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان، المجلّد 1، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ص 339.

(1) – محمد الطيب بن إدريس الأشهب : المرجع السابق، ص 19.

(2) – د/ جلال يحي : المغرب الكبير، ج3، الدار القومية للطباعة و النشر، القاهرة، بدون تاريخ، ص 70.

(**) – هو تقي الدين أحمد بن تيمية : 661 – 728 هـ ولد بحران في سوريا نشأ في أسرة علمية حفظ القرآن الكريم صغيرا، سمع الحديث عن كبار المشايخ، إتّجه إلى الفقه الحنبلي، كما اعتنى بعلوم العربية جلس للتدريس بدمشق و نال شهرة واسعة انتقل بين مصر و الشام و صادفته محن كثيرة، دعا إلى العمل بالإجتهاد، توفي في 20 شوّال 728 هـ، أنظر : محمد ابو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، ص 600 و ما بعدها.

(3) – د/ ضيف الله محمد الأخضر : محاضرات في النهضة العربية الحديثة، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1981، ص 72.

بها علماؤهم و عامتهم و لم تكن هذه الفكرة معروفة عندهم من قبل[1]، غير أن المهدي نفسه لم يكن يعترف بها[*].

8 – الإبتعاد عن الزهد المفرط و الخمول و الإستجداء التي كانت الطابع الغالب على الطرق الصوفية، على اعتبار أن هذه الصفات ليست من الإسلام في شيئ [2].

و من خلال هذه المبادئ يتّضح نبل الأهداف التي تسعى الحركة إلى تحقيقها في مسارها الإصلاحي، في فترة لم تكن بالسهلة و الميسورة نظرا لما كان يحيط بالمسلمين من أخطار تحفّ بهم من جميع الجهات، لذا كان يجب اختيار زمان و مكان الإنطلاق بكل حيطة و بكامل الحذر الشديد، و هذا ما اهتدى إليه السنوسي و أقبل على تنفيذه و زاد من فعالية الحركة.

و الحق أن شخصية السنوسي القوية الجذّابة ، و مواعظه المؤثّرة،و صدق نيّته و غيرته على الدين الإسلامي و ما لحق بالمسلمين من تدهور و انحطاط في جميع نواحي حياتهم زادته شعبية و اقبالا،و لاسيما و أن التكالب الإستعماري الصليبي على العالم الإسلامي قد تفاقم خطره، إذ بدأت مقاطعاته تتهاوى بين إيديهم الواحدة تلو الأخرى و حكوماته غافلة عما يحدق بها من أخطار بالرّغم من توافر أسباب القوّة و المنعة لكنّها غير مستغلّة،و بعيدة عن التوظيف.

لذلك كانت دعوة محمد بن علي السنوسي بمثابة رد فعل للتحدي الضخم الذي واجه العالم الإسلامي، و كانت فكرته ترمي إلى عمل يجمع بين التربية و الإصلاح و مواجهة هذا الغزو الغربي الزّاحف، فكانت محاولاته إيجاد عمل جماعي متكامل. فلقيت دعوته هذه صدى في نفوس المسلمين لما رأوا في مبادئها من سمو و نبل،و في شخصيته من صدق ، فأقبلوا على دعوته سالكين طريقته، خصوصا و أن هذه الطريقة لم تشق على اتباعها و لم ترغمهم على ترك الطرق الأخرى، و أمام هذه الإستجابة و هذا الإقبال أقدم السنوسي على أهم خطوة عملية و تمثّلت في إنشاء المراكز لتحقيق الأهداف التي يصبو إليها و يرغب في تحقيقها،و التي انشأ من أجلها طريقته.

نشأة الحركة و بناء الزوايا :

لم يكن انتقاء السنوسي برقة للإقامة اعتباطا أو مجرّد صدفة أو ميل شخصي، بل وقع اختياره لها لجملة من العوامل الوجيهة و أهمّها :

1 – بعد منطقة برقة عن نفوذ العثمانيين الذين كانوا يحكمون البلاد منذ القرن العاشر الهجري،

---

(1) – عبد الكريم بوصفصاف : جمعية العلماء المسلمين و علاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى (1931 – 1945)، المرجع السابق، ص 186.

(*) – أنظر الفصل السابع من هذا البحث.

(2) – د/ أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي و الحضارة الإسلامية، ج4، مكتبة النهضة المصرية، ط7، 1984، ص 404.

السادس عشر الميلادي. لكن سلطانهم لم يتعد الشريط الساحلي و بعض المدن و الموانئ و التجمّعات السكانية. اما الدّاخل فكان يخضع لنفوذ شيوخ القبائل التي عانى الأتراك أشدّ المعاناة في محاولاتهم لإخضاعها.

2 – الموقع الإستراتيجي الحساس للناحية،إذ أن منطقة الجبل الأخضر كانت تتميز بخصوبة أراضيها و وفرة انتاجها و انفتاحها على العالم الخارجي الذي تتصل به عبر كل من مدينتي بنغازي و درنة و منائيهما.

3 – توقّع الشيخ الإقبال على دعوته بسبب انتشار الجهل و الأمّية و الفراغ الروحي المنتشر بين القبائل و انصراف النّاس عن دينهم إلى الإهتمام بأمور دنياهم. و بسبب بعد قبضة يد الحكومة عليهم. إذ لم يكن لهم رادع و لا منقذ من الإنحطاط الأخلاقي و التدهور الإجتماعي. لذا كان أهل هذه الأمصار أشدّ الشعوب حاجة إلى الدعوة و الإرشاد و الإصلاح.

4 – حيوية المنطقة لكونها مركز التقاء القوافل التجارية المارة نحو طرابلس غربا و مصر شرقا و فزّان و برنو و وداي جنوبا في تلك الآونة.

5 – اقبال سكّان تلك البقاع على تعاليم الدّعوة و الإنقياد لها و لمبادئها دون مقاومة أو رفض[1].

فبعد عودة السنوسي استقر في مدينة بنغازي التي وصلها عن طريق "***العقيلة***" و أمر بعض اخوانه المرافقين له ببناء زاوية بالجبل الأخضر، و بذلك أقاموا أوّل زاوية لهم بإفريقيا بالقرب من قرية رفاعة جنوب برقة على ضفّة وادي البرد في ليبيا بجوار ضريح الصحابي الجليل رويفع بن ثابت الأنصاري[2]. و ذلك عام (1259 هـ، 1843 م) و عرفت بإسم البيضاء [*].

تعدّ البيضاء من أهم و اشهر الزّوايا المشيّدة حتى يومنا هذا بعد زاوية أبي قبيس بمكّة بإعتبارها مركز اشعاع ثقافي و حضاري و منطلق الحركة السنوسية، إذ انتشر خبر وجود شخص الداعية المصلح بها. فعمّت دعوته و انتشرت بين النّاس بيسر و باقصى سرعة في وقت كانت فيه صحراء برقة تتخبّط في دياجير الظلام و ترزح تحت نير الجهالة التي ضربت اطنابها في أعماق المجتمع الليبي و استفحل خطرها و تفاقم بين مختلف فئات السّكان، حتى أن بعض القبائل وصّفت بالوثنية رغم انتمائها للإسلام [3].

و لقد اختير للبيضاء موقعا استراتيجيا هاما و منيعا فقد كان موقعها حصينا صعب المنال، و السبيل إليه أصعب. لذلك كانت مهمّة الإخوان المدافعين عنها ميسورة.

---

(1) – محمد فؤاد شكري : المرجع السابق،ص ص 24-27.

(2) – د/ حسين مؤنس : تاريخ المغرب و حضارته، المرجع السابق، ص 445.

(*) – البيضاء تقع بالجبل الأخضر قرب شحات، و هي قرية مبنية على خربة " *سيرنا* " عاصمة برقة فيها آثار من أيام اليونان و من قبلهم و من بعدهم و هي تقع على مرتفع عال كان موقعها أبدع ما خلق الله في أرضه لحة نظر و حسن هواء و طيب نجعة، انظر : لوثروب ستودارد ترجمة ، عجاج نويهض حاضر العالم الإسلامي، المجلّد1، ج2، ص 141.

(3) – محمد بن إدريس الأشهب : المرجع السابق، ص 19.

و بعد أن اكتمل بناء الزّاوية انتقل الشيخ و اتباعه إليها،و مكث بها مدّة من الزّمن وفق فيها لإكمال نصف دينه.فتزوّج من ابنة أحمد فرج الله الفيتوري و كان ذلك سنة (1259 هـ، 1843 م) ، و رزق منها بمحمد المهدي عام (1260 هـ ، نوفمبر 1844 م) و بمحمد الشّريف في رمضان عام (1262 هـ، أوت 1846 م) [1].

تميّزت هذه المرحلة بحركية المصلح و نشاطه في الدّعوة إلى تعاليم دين الإسلام الحنيف،و نشر الطريقة السنوسية، و إرشاد اهل البلاد إلى قواعد الإسلام الصحيحة،و يزرع في نفوسهم بذور الخير و الصلاح و يحثهم على الإتحاد و التآزر و نبذ الفرقة و التباغض و الحسد الذي شاع بينهم،محببا الى نفوسهم فعل الخير و قيم العدل، و ينهاهم عن الفواحش ما ظهر منها و ما بطن، و الإنقطاع عن المحرّمات و الإبتعاد عن المنكر و تجنّب الرذائل، و التّمسّك بمكارم الأخلاق و فضائلها، كما نصّت على ذلك الشريعة الإسلامية.

أمام هذه الحيوية و النشاط الدؤوبين الذين لم يتسلل إليهما الفتور و الكلل تعمّقت جذور الدّعوة و أثمرت و أقبل الناس عليها فصلحت أحوالهم في هذه الجهات من البلاد، فأطمأن النّاس على أرواحهم و أعراضهم و أرزاقهم و أملاكهم، واتّسع نطاق ساحة الدّعوة بإضطراد وذاع صيتها بين النّاس فتعلّقوا بالشيخ و بدعوته آملين من وراء ذلك إصلاح أمور دينهم و دنياهم، و هكذا عمل الشّيخ السنوسي على نشر طريقته في أكثر بقاع البلاد الليبية و خارجها [2].

أمام هذا النّجاح الباهر الذي حقّقه هذا الدّاعية المصلح أدركت السّلطات العثمانية ما لهذه الحركة الإصلاحية من خطورة على مصالحها فأخذت تفكّر في احتوائها و تسخيرها في سبيل الإستفادة منها لإخماد نيران القلاقل و الفتن التي ما فتئت تتفاقم لحظة بعد أخرى منذ ان شرعت هذه السّلطات في فرض سلطانها على ليبيا، لذلك فبمجرّد نزول الشيخ بمدينة طرابلس الغرب لقيه الوالي العثماني " علي أسقر باشا " بحفاوة بالغة و خصّه بإستقبال حار و أكرام ظاهر. ثم أعلن إعتناق مبادئه و انخرط في سلك الطريقة، فكان هذا الفعل اقرار واضح و صريح لا لبس فيه بالمركز الذي تكنّه السّلطة للسيد السنوسي.

و بعد إستقرار الشيخ عرض عليه الوالي اعتراف العثمانيين بحاجتهم الماسة إليه لإصلاح الرّوابط التي ما انفكت تفتر بين الدّولة و الرّعية و تتلاشى يوما بعد يوم، فأسدى المصلح النصح و المعروف، و لطّف الأجواء بين السّلطة و الجماهير بما يخدم مصلحة السلم و اجتماع كلمة الأمّة الإسلامية،و كان هذا ايذانا بإعتراف العثمانيين بالإمارة الواقعة للسّيد السنوسي، فتنازلت الدّولة للسادة السنوسية على دواخل البلاد الليبية

---

(1) – محمد فؤاد شكري : المرجع السابق، ص 28.

(2) – لوثروب ستودارد : ترجمة عجاج نويهض : المرجع السابق، م1، ج2، ص 141.

و اطلقت يدهم فيها [1].

و بينما الدّعوة تسير في طريقها المرسوم لها غادر الشّيخ البلاد في أواخر عام (1263 هـ، 1846 م) متوجّها إلى الحجّ للمرّة الثالثة، فمكث بالحجاز ثمانية أعوام ، و هناك لحق به ولداه بناء على طلبه.

و الحقّ أن السنوسي اثناء مقامه بالأراضي المقدّسة لم يكن بعيدا عن مجال الدّعوة بل كان يتتبع سيرها في ليبيا عن بعد، كما أنّه كان يتّصل بالمسلمين في مواسم الحجّ و يعرض عليهم مبادئ الحركة، ينبّه الغافل، و يوقظ النائم، و يرشد الضال، فزاد اتباعه و انتشرت دعوته في ربوع العالم الإسلامي، فراح الأتباع ينشئون الزّوايا في الشرق و الغرب و يتلقّون التعاليم من الزّاوية الأم.

و في أواخر سنة (1270 هـ، 1854 م) غادر الحجاز متوجّها إلى برقة التي بلغها في غرة شهر ربيع الأوّل (1271 هـ،22 نوفمبر 1854 م) [2]. و قد وجد السنوسي عند حلوله ببرقة الزّوايا قد زاد عددها و صارت أكثر تنظيما، و بدأت في تخريج بواكير الأفواج و الدّفعات الأولى من الدّعاة و المعلّمين، ممّا أثار مخاوف و رهبة السّلطات العثمانية [3] التي صارت تخشاه و لا تأمن جانبه و لا سيما في الجهات و المناطق التي شيّدت فيها الزّوايا، خصوصا و أن الشيخ كان يجمع بين إتّجاهي الصوفية الداعية، و الصوفية المجاهدة [4]، فالطريقة السنوسية تأخذ من التصوّف ما يطهّر النفوس و يهذّبها و من الفقه ما ينير العقول [5] ، لذلك لم يتوقف الخوف و الرهبة على السلطات بل تسلل الى نفوس العلماء فثاروا ضده في مختلف الحواضر الإسلامية، في محاولة لإبطال دعوته و تسفيه آرائه، كل ذلك لعمله بالإجتهاد و فتح الباب أمام المجتهدين،إذ مزج بين المذاهب الإسلامية و دعا إلى تحرير الفكر من التقليد الأعمى [6].

و أمام إزدياد مخاوف العثمانيين من استفحال خطر البيضاء من جهة و ما كان المصلح يطمح إليه لترسيخ أمر الدّعوة و التّمكّن لها من جهة أخرى، إذ كان يرى ضرورة انشاء زاوية جديدة تكون بمثابة جامعة للتعليم العالي و التكوين على غرار الأزهر، و الزّيتونة[*] ، و القرويين. و ذلك لتأهيل و إعداد الطّلاب المتخرّجين لتحمّل أعباء رسالة الدعوة و التّبليغ و إرشاد النّاس و تبصيرهم بما يدعو إليه كتاب الله و سنّة رسوله .

---

(1) – محمد الطّيب بن إدريس الأشهب : المرجع السابق، ص ص 31-34.

(2) – محمد الطّيب بن إدريس الأشهب : نفس المرجع ، ص ص 34-36.

(3) – د/ حسين مؤنس : تاريخ المغرب و حضارته، المرجع السابق ص 443.

(4) – د/ عبد العظيم رمضان : الغزوة الإستعمارية للعالم العربي و حركات المقاومة، دار المعارف، القاهرة، دون تاريخ، ص 192.

(5) – انور الجندي : الإستعمار السياسي و الإجتماعي و الثقافي، ط1، دار المعرفة، 1970، ص276.

(6) – أنور الجندي : نفس المرجع، ص 280.

(*) – جامع الزّيتونة : أسّسه عبد الله بن الحبحاب عام 114 هـ، و يقول النويري أن أحمد بن محمد بن الأغلب أمر ببنائه عام 248 هـ، 863 م، و أتمّه أخوه زيادة الله ، و النقوش تحمل سنة بنائه و كان ذلك في سنة 250 هـ، أنظر د/ عبد العزيز سالم : المغرب الكبير في العصر الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص ص 436-437.

و الحقّ أن الحركة السنوسية تميّزت بخصوصية فريدة، فقد كانت تجمع بين المذهبين البرهاني و الإشراقي للوصول إلى الكمال الأسمى، فاتّخذت من الطريقة البرهانية لاتّباع الأوامر و الإبتعاد عن النواهي و اجتنابها و الإقتباس من العلوم الشّرعية.

أما الطريقة الإشراقية فكانت تسعى من خلالها إلى تصفية النّفس من الأكدار و تنقيتهاو توجيهها نحو الحق حتى تبلغ المعرفة و الأسرار دون تعلّم و لا تعليم بل من باب "***إتّقوا الله يعلّمكم الله***" [1].

بقي أمر انشاء المعهد العالي و مكانه يشغل بال الشّيخ مدّة.و بعد تفكير و دراسة وقع إختياره على موقع الجغبوب[*] لتكون مقرّا لهذه الزّاوية الجامعة ، و كان اختيار واحة الجغبوب[**] اختيارا موفّقا لجملة من الأسباب :

1 – تقبل القبائل المختلفة للدّعوة السنوسية و الإنصياع لتعاليمها و طاعة أوامر شيوخها و توجيهاتهم.

2 – عدم ملكية الواحة لأية قبيلة من القبائل المتعدّدة ، الأمر الذي يجنّب الشّيخ الوقوع في مشاكل قد تنجم عن تنافس القبائل و تطاولها على بعضها البعض من جهة،و سعي كل قبيلة الى شرف انشاء زاوية مماثلة على اراضيها من جهة اخرى ، و هذا الأمر لا يستطيع السنوسي تلبيته و تحقيقه في تلك الظّروف لعدم توفر العلماء و الدعاة الذين تحتاج إليهم الزّوايا،خاصة أن المنطقة كانت تضم عددا هائلا من القبائل المختلفة المشارب و الأعراق.

و الحقّ أن اجراء مثل هذا من قبل السنوسي ينمّ عن بعد نظر و براعة في لم شمل القبائل و بداية صهرها في بوتقة واحدة،و ربطها بمركز واحد يجعل تهذيبها و توحيدها و التحكّم فيها أمرا ميسورا.

3 – وقوع منطقة الجغبوب جغرافيا على أبواب الصحراء، التي حاد الكثير من سكّانها و ابتعد البعض الآخر منهم عن الإسلام الصحيح.

4 – بعد المنطقة عن الحضر و العمران و مراكز اللّهو، الأمر الذي يهيئ المناخ المناسب للطلبة و يجعلهم يهتمّون بتحصيل العلوم و التركيز عليها و العبادة دون سواهما.

و هناك مقولة قديمة تقول "***الصحراء حديقة الله في أرضه، و قد نزع منها جلّ شأنه كلّ حياة مصطنعة لتظل المكان الوحيد الذي يعبد فيه على حقيقته***" [2].

5 – كانت الواحة خالية من أي أثر للسّكان. هذا الوضع يسمح للداعية محمد بن علي و يتيح له

---

(1) – عبد الكريم بوصفصاف : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و علاقتها بالحركات الأخرى 1931 – 1945، المرجع السابق، ص 187.

(*) – كانت جغبوب واحة يأوي إليها الدعار و اللّصوص و لا تجسر القوافل أن تمرّ بها من جرّاء العبث في أنحائها، فلمّا اختارها السنوسي مقرّا له صارت مهد أمان و مركز عبادة و معلم هداية، أنظر : لوثروب : حاضر العالم الإسلامي، المرجع السابق، م1، ج2، ص 141.

(**) – أنظر شكل رقم (8)، ص165.

(2) – فرج محمود فرج : أقليم توات خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1967، ص 108.

انتقاء السّكان الذين يرغب في توطينهم حتى يكوّن بيئة مواتيـة و صالحـة يستأنس بهـا الطّلبـة،و يركـن إليهـا الدعاة.

6 – بعد الموقع عن أن تمتد إليه يد السّلطات العثمانية من ناحية، و تحرّش الأروبيين عامة و الطليان بوجه خاص من ناحية أخرى.

7 – الموقع الإستراتيجي للجغبوب حيث كان طريقا وملتقى للقوافل التجارية التي تربط بين دول البحر الأبيض المتوسّط، و مراكز التجارة بالسودانين الأوسط و الغربي بالإضافة إلى كون الواحة مسلكا للبقاع المقدّسة يمرّ عبره الحجّاج و المعتمرون من سكان افريقيا الغربية لأداء مناسكهم [1]. و بقيت الجغبوب مركزا للحركة حتى دمرها الإيطاليون و نسفوا معهدها عام (1926 م) [2].

و منذ الشّروع في وضع اللّبنات الأولى لزاوية الجغبوب أولاها السيّد اهتماما كبيرا و رعاية فائقة فزاد عمرانها و اتّسع و صارت جنّة بفضل ما بذل من حفر للآبار و استخراج للمياه الجوفية و غرس الأشجار و الثّمار، فخرج إليها في نهائة شهر محرّم سنة (1273 هـ، 30 سبتمبر 1856 م) و أرسل إلى ولديه للإلتحاق به بالمركز الجديد و كان له ما أراد.

و في هذه الأثناء كانت وطأة المرض تزداد على الشيخ يوما بعد آخر إلى أن وافته المنية يوم الأربعاء بعد شروق شمس يوم 9 من شهر صفر سنة (1277 هـ، 1859 م.) و دفن يوم الجمعة بعد الظّهر بالجغبوب و أقيمت عليه قبّة صغيرة توسّعت و ارتفعت فيما بعد[3].

و هكذا انتهى رجل كان الملوك يخشونه كونه رجل علم و عمل،لذلك كان السلاطين يخافونه من سلطان القسطنطينية حتى دار فور [4] و خلفه في الزعامة ابنه البكر محمد المهدي.

و الحق أن الشيخ محمد بن علي السنوسي نجح في وضع قطار حركته الإصلاحية على السّكة و وجّهه قبل أن تمتد إليه يد المنون، فقد استطاع نشر دعوته في ربوع واسعة من البلاد العربية و الإسلامية و ذلك بفضل سياسته الحكيمة،سواء على مستوى الدّعوة التي تميّزت بالمرونة و اللّين و البعد عن التّزمت و وضوح المبادئ و بساطتها، أو على مستوى نشاط المراكز المتمثلة في الزّوايا التي كان قد شيّدها في مناطق كثيرة فتمكّنت المبادئ السنوسية في النفوس و صارت كمغنطيس فجذبت إليها النّاس و حمتهم و علّمتهم و ثقفتهم و هذّبت من طباعهم. كما كانت ملاذ كل ضال أو مستجير يتلقى العون و المساعدة و يشعر فيها بالآمان**والطمأنينة**و بفضل حيوية هذه الزّوايا و نشاطها تحوّلت إلى مراكز حضارية في أعماق الصحراء

---

(1) – محمد فؤاد شكري : المرجع السابق، ص ص 36-39.

(2) – د/ عمّار هلال : المرجع السابق، ص 459.

(3) – أحمد صدقي الدجاني : الحركة السنوسية نشأتها و نموّها في القرن التاسع عشر، دار الكتاب، القاهرة، 1988، ص 179.

(4) – عباس محمود العقاد : المرجع السابق، ص 90.

كانت بمثابة عواصم مقاطعات و ملتقى التجّار و العلماء و الوفود. و بذلك أستطاع محمد بن علي السنوسي من فرض سلطان الطريقة على الدّولة العثمانية نفسها، فاعترفت بسلطة الحركة السنوسية على المناطق التي عجزت هي نفسها عن بلوغها، و هذا يدل دلالة واضحة على ما بلغته الطّريقة من قوّة و مركز، إذا أصبح يفوق سطوة و نفوذ الخلافة العثمانية نفسها، حيث أصبحت الزّوايا عبارة عن مؤسسات حكومية تنظم شؤون الرّعية في المجالات السياسية و الإقتصادية و الإجتماعية و الثقافية، و من هنا يمكن أن نقول أن السنوسية طريقة اهتمت بالروحيات و الماديات معا و في آن واحد وفق مبادئ الشّريعة الإسلامية. و تمكّنت بمرونتها و سمّو أهدافها من كسب ثقة الدّولة العثمانية و صداقة الدّولة المصرية، فلم تدخل في مواجهات عسكرية و حافظت بسبب ذلك على وحدة المسلمين و لو لفترة ليست بالطّويلة.

و من هنا يمكن أن نقرّر أن محمد بن علي السنوسي قبل انتقاله إلى جوار ربّه كان قد أسّس إمارة معترفا بها تتمتّع بنفوذ كبير و بإستقلالية شبه مطلقة عن الدّولة العثمانية، و بذلك يكون قد ترك السّبيل ممهّدا للخليفة من بعده.

استراتجية بناء الزّوايا و تنظيمها :

بعد ان رأى المصلح محمد بن علي السنوسي تردي أحوال المسلمين و تعفن أوضاعهم و ما أصاب بلادهم من تدهور و انحطاط على كل الأصعدة من تثبيط للهمم و خور في عزائم الحكام و الحكوميين و تداعي مقومات الأمة العربية و الإسلامية، لا سيما اثر سقوط بعض ممتلكاتها بيد بعض الدول الأروبية التي ظهرت على مسرح الإستعمار الحديث و سقوط بعض ثغورها الحيوية بين مخالب الرأسمالية المتنامية التي راحت تسعى لإلتهام ما يمكن التهامه من تراث المسلمين و العرب و السيطرة على البلاد، و كان المسلمون و الحال هذه لا يقوون على دفع الشرور و لا حتى مجرد التفكير و التطلّع الى وسائل دفعها، بيد أن الدول الأروبية المسيحسية استكملت كل قواها عدّة و عددا و شرعت في تمزيق الدولة الإسلامية المتمثلة في الخلافة العثمانية[1].

أمام هذا الخطب الفادح و الخطر الداهم، أدرك الشيخ منذ البداية أن لا سبيل الى دفع هذه الشرور و المخاطر الا بالنهوض بالمجتمع و تعليم المسلمين و توجيههم، فرأى من الضروري بناء مراكز اصلاحية لتؤدي هذا الدوروتتمثل في الزّوايا؛ فانتقى لها مواقع استراتجية سواء للدفاع عنها وقت الغزو و الغارة او لبسط و تيسير سبل الإتصال بها لنشر الدعوةو التعليم.

---

(1) – محمد الطيب بن ادريس الأشهب : المرجع السابق، – ص 33.

الفصل الخامس ـــــــ

زاوية باستقلالها الداخلي، إذ لا يجوز لشيخ الزّاوية ان يتعدى هذه الحدود أو يتدخل في أي شأن من شؤون الزّوايا المجاورة، و تتكفل كل زّاوية بحماية من يستجير بها و يلتجئ اليها، و يتولى المسؤولون النظر في حال المستجير أو الحكم عليه بما تنص عليه أحكام الدين، أو ما يتفق عليه بموجب التقاليد و الأعراف ما لم تتناقض مع روح الشريعة الإسلامية.

- تقوم القبيلة صاحبة الأمر ببناء المسجد و المدرسة و بيت الشيخ، و على أفرادها التطوع للعمل بيوم واحد للبناء، و أثناء عمليتي الحرث و البذر، و الحصاد و جني المحاصيل المختلفة[1]، و من هنا يتبين لنا بوضوح ان الزّوايا السنوسية لم تكن مراكز عبادة و صوامع رهبان فحسب،بل كانت عبارة عن إمارة تقوم بجميع الشؤون الدينية و الحياتية اليومية للمواطن،و تكفل له كل احتياجاته في نظام بديع،فضلال عن رعايتها و اهتمامها بكل فئات المجتمع. و اذا كانت الدول الحديثة تفتخر بما أنجزته في الميادين السياسية و الإجتماعية و الثقافية و الإنسانية، فإن الحركة السنوسية بزّتها في هذه المجالات و كان لها فضل السبق في انشاء بيوت خاصة بالفقراء و المحتاجين و العجزة و تكفلت بهم، هذا علاوة على مراعاتها لحرمة الحدود و عدم تدخل الزّوايا في شؤون بعضها البعض.

2 - المنشآت المجاورة :

تقام حول الزّاوية منشآت عمرانية أخرى مجاورة يشيّدها الأثرياء يأوون اليها في فصل الصيف او في حالة ضعفهم و شيخوختهم، و يقوم النازحون الجدد الى الزّاوية ببناء مساكنهم الخاصة و لا يحق لهم بيعها،و من يغادر منهم فلشيخ الزّاوية إحلال غيره بالمحل،و لصاحبه الأولوية في استرجاعه و استعماله متى عاد.

و بفضل هذا النظام المحكم و البسيط في آن واحد و الذي يكفل لكل مواطن حقوقه، مال البدو و الرّحل إلى التوطّن و الإستقرار و استأنسوا دون إكراه أو ضغط.

3- نظام المؤسسات الدينية و التربوية :

باعتبار المسجد و المدرسة من المؤسسات الرئيسة في الزّاوية فقد إهتمّت السنوسية بهما فالأوّل تقام به الصّلاة (عماد الدين) فقد أسندت إمامة الصلوات الخمس إلى معلّم الأطفال،أما الجمعة و المناسبات فهي من واجبات شيخ الزّاوية، إلى جانب ما يقوم به من دروس الوعظ و الإرشاد

---

(1) - محمد الطّيب بن ادريس الأشهب : المرجع السابق، ص ص 28-29.

و الإصلاح، و كما كان لسكّان الزّاوية حقوقا عليهم واجبات. و من الشّروط التي يخضع لها السّكان المجاورون لهذه المراكز إقام الصّلاة و حضورها بالمسجد.

أما المدرسة فالسّكان مجبرون على تقديم أبنائهم للمدارس، و لا يحق لهم سحبهم و فصلهم إلا إذا غادروا الزّاوية [1].

و الحقّ أن هذا الإجراء يدل دلالة واضحة على أنّ الحركة السنوسية قد اهتمّت فعلا بالإصلاح التربوي و الإجتماعي و الإقتصادي و الديني و الأخلاقي، و قاومت الجهل و الأمّية التي تفشّت في المجتمعات العربية و الإسلامية، لذلك سارعت إلى سنّ قوانين إجبارية التعليم على كل أطفال المسلمين المجاورين للزّاوية السنوسية، و هي بذلك تجسّد أحد مبادئ الدين الإسلامي الدّاعي إلى التعلم و التّفقّه في أمور الدين و الدّنيا، فأوّل آية نزلت من القرآن تدعو إلى ذلك قال تعالى[2] "***إقرأ باسم ربك الذي خلق***" علاوة على ما نصّت عليه الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة : "***العلم فريضة على كل مسلم***" [3] و قوله (ص)[4] : "***اطلبوا العلم و لو في الصين***".

و هكذا نستنتج أن إجبارية التعليم ليست من وضع الأروبيين، بل هي عريقة في الإسلام و أن الحركة السنوسية مارستها و كانت تطبّقها في القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر ميلادي في ليبيا قبل إحتكاكها بالحركة الإستعمارية في الوطن العربي.

4 - حرم الزّاوية و ممتلكاتها :

تتوفر كل زاوية على مساحة جغرافية تعدّ حرما آمنا يؤمن كل من استجار به و يحضر أن يشهر السّلاح، أو يطلق الرّصاص على تخوّمه[*]، و يمنع أن ترفع الأصوات داخل حدوده، كما تتبع الزّاوية أرض فلاحية و آبار للمياه يستغلان في الزّراعة و السّقي، كما يكون للسّكان المجاورين حق أستغلال قطعة أرض من ممتلكات الزّاوية. و للفقراء الحق في التّمتع بمساعدات من مردود الممتلكات الموقوفة على الزّوايا [5].

و من هنا يظهر الفهم الجّيد و التطبيق الصارم لسياسة الحياد الذي يتمتع به حرم الزّاوية، و هذا يبرز لنا حقيقة جلية لا غبار عليها المكانة التي بلغها نظام الزّوايا و مدى احترامها لحقوق الإنسان

---

(1) – محمد الطّيب بن ادريس الأشهب : المرجع السابق، ص ص 28-29.

(2) – سورة العلق، الآية 1.

(3) – أبو حامد الغزالي : احياء علوم الدين، كتاب العلم، دار الكتاب العربي، بيروت، دون تاريخ، ص 24.

(4) – أبو حامد الغزالي : نفس المصدر، ص 15.

(*) – أصدر السّلطان عبد المجيد سنة 1856 م (فرمانا)، ينصّ على أنّ الزّوايا حرم آمن، أنظر : محمد بن إدريس الأشهب، المرجع السابق، ص 50.

(5) – محمد بن إدريس الأشهب : المرجع السابق، ص 29.

و كرامتـه و تقديسها لهذا الحق. و ما يزيد في أهمية هذا المبدأ أنّه نابع من صميم الذات و عن قناعة. لا عـن قرار مفروض فرضا دوليا كما هو الشّأن بالنسبة للدول الكبرى في ذلك الوقت الـتي تتمتـع بهـذا الحق، كمـا يظهر حرص الحركة الشّديد على ضرورة استفادة جميـع السّكان مـن ثـروات الزّوايـا بالإضافـة الى اهتمامهـا بالفلاحة و اعتمادها أسلوب الزّراعة المسقية.

أمّا عن كيفية حيازة الزّوايا على العقارات فيتم بأحدى الطّرق الآتية :

أ – عن طريق الإبتياع من ملاك الأرض الشّرعيين.

ب – استصلاح أراضي البور، و ترميم الآبار الخربة و تجديدها ، و استخراج المياه الجوفـية و إحياء أراضي الموات بناء على قوله (ص)[1] " ***من أحيا أرضا ميتة فهي له*** ".

جـ – عن طريق الهبات و التّبرّعات من قبل الأثرياء و الملاك.

د – تنازل المتخاصمين عن الأراضي محل النّزاع سواء بين الجماعات أو الأفراد.

5 – سلطة إدارة الزّاوية :

تتكوّن السّلطة المديرة للزّوايا من الشّيخ الذي عادة ما يكون المسؤول الأوّل فيهـا، و مـن مجلس يتكوّن من الوكيل و شيوخ و أعيان القبائل المرتبطة بالزّاوية، و من وجـهاء القوم المجـاورين، و تتمثـل مهام هذا المجلس في معالجة القضايا المعلّقة و إيجاد الحلول المناسبة لها، إذ يقـوم بفـض النزاعـات و انهـاء الخصومات و البتّ فيها بما يتّفق مع أحكام الشّريعة الإسلامية[2].

و يمكننا أن نلمس من هذا النظام البديع الذي يعتمدّ على المجالس، و اشراك مختلف الفئات و الطّبقات الإجتماعية فيها المسحة الديمقراطية أو الشورية التي نصّ عليـها القرآن الكريم قال تعالى[3]: " ***و أمرهم شورى بينهم*** " و تسعى الدّول الحديثة اليوم إلى تطبيقها في مجتمعاتها.

و نظرا لإعتماد الزّوايا السنوسية في سيرها على الـشيوخ، فلم تترك لهم الحبل على الغارب و السّـلطة المطلقة في التسيير، بل قيّـدتها بنصوص و تشريعات قـانونية حدّدت بموجبها صلاحيـات هؤلاء الشـيوخ و حقوقهم و تتمثل فيما يأتي :

واجبات شيوخ الزّوايا و حقوقهم :

1) – **تعيين الموظّفين و الخدم** : لشيخ الزّاوية الحق في إنتقاء و تعيـين المـعلّمين، و تثبيت

---

(1) – سنن أبي داود، ج3، كتاب الخرّاج و الجزية و الفيئ، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1992، ص 175.

(2) – محمد بن إدريس الأشهب، المرجع السابق، ص 30.

(3) – سورة الشورى : الآية 38.

المؤذن، و اختيار الخدم و تحديد المرتّبات التي يتقاضونها، و تسدد هذه الأجور من خزينة الزّاوية.

2) **إستقبال الضيوف** : و هي أيضا من واجبات شيخ الزّاوية، كما يحضّر الطّعام الكافي لعشرة اشخاص يوميا في موعدي الغذاء و العشاء لمن يحتمل حلولهم ضيوفا على الزّاوية في أي وقت من الأوقات، و يباح له النّحر لهؤلاء الوافدين إذا ما تجاوز عددهم الخمسة، و يحضر عليه أن يضيف أقاربه و معارفه على حساب ميزانية الزّاوية.

و من هنا يتّضح أن الزّوايا السنوسية كانت تعجّ بالنّشاط و الحركة و كانت مقصد الرّسميين الذين يزورونها بإستمرار كما يبين كرم الضيافة و اليسر المادي.

3) **الإدارة** : يشرف شيخ الزاوية إشرافا مباشرا على سير إدارة الزّاوية، إذ يسهر على السّير الحسن لأشغالها و نظامها، و حقوق العمال و الخدم بما فيها التغذية، حيث كان من حقّهم مثلا أكل اللّحم مرّة كل جمعة.

4) **الإشراف على الموارد** : يشرف شيخ الزّاوية على المداخيل فيراقب جميع موارد الزّاوية التي تتكوّن من المحاصيل الزّراعية،و تربية المواشي،و الهبات و الزّكاة الشّرعية، فيحتفظ بما يغطي نفقات الزّاوية و يكفل إحتياجاتها سنويا،و يرسل بالباقي إلى المركز الرئيس.

5) **حق الملكية** : لشيخ الزّاوية الحرية في تعاطي الأعمال الفلاحية و امتلاك المواشي و غيرها للأنفاق منها على أحواله و شؤونه الخاصة، كما له الحق في الإختصاص بعشرّ محصولات الزّاوية،و ذلك مقابل ما يؤديه من واجب.[1]

6) **الزّواج** : لشيخ الزّاوية الحق في الزّواج بعد أن يخطر الجهات العليا المختصة، للحصول على الموافقة،و ذلك من أجل اختيار النسب و التكافؤ، و الزّاوية ملزمة بالسهر على ترتيبات و نفقات هذا الزّواج، و الإنفاق على هذه الزّوجة و ابنائها[*].

7) **الكسوة** [**] : للشيخ الحق في الكسوة من موارد الزّاوية على أن لا تكون من الملبوسات الفاخرة " كالجوخ " أو المحرّمة شرعا كالحرير، كما يحق له شراء سلاحه و فرسه الخاصين.

8) **الرقابة** : في نهاية كل سنة يرفع شيخ الزّاوية كشفا دقيقا و تقريرا مفصلا إلى السلطات العليا المختصة يبيّن فيهما جميع الموارد و النفقات و ما حققه من انجازات و ما قام به من نشاطات من جهة، و عن مشاريعه المستقبلة من جهة أخرى.

---

(1) – محمد بن إدريس الأشهب : المرجع السابق، ص،ص 30-31.

(*) – تتكفّل الزّاوية بالزّوجة الأولى و أبنائها فقط، أما في حالة تكرار الزّواج و تعدد الزّوجات فالزّاوية غير ملزمة بذلك.

(**) – الكسوة : تتكوّن من عشر بذل، و كل بذلة تتكون من قميص و سروال و غطاء رأس و حذاء و برنس.

كما يقوم شيخ الزّاوية بين الفينة و الأخرى بزيارة المركز الرئيس. و هـذه الزّيـــارة تكـون غالبـا سـنوية و لا تتـأخّر عن سـنتين في الظروف العادية، و يصحب الشّيخ في زيارته هذه الكثير من أعيان الزّاويـة و وجهائهـا و شيوخ قبائلها [1].

و من خلال هذه التنظيمات الدقيقة و الكفاءة العالية في إدارتها،تتضح عبقريـة السنوسي و حزمـه إذ استطاع أن يلمّ شمل القبائل المتنـاثرة في فيـافي الصحـراء و جمعهـا في نطـاق الزّوايـا الـتي تكفـل لأتباعهـا كـل احتياجات الحياة اليومية،و فرض اجبارية التعليم لمن بلغ سنّ الدراسة،و كافح الفقر و الأميـة، و نشـر التعليـم، كما أن الزّوايا كانت بالإضافة إلى دورها الإجتماعي و الثقافي و السّياسي تساهم في الإقتصاد،بفضل تشـجيع فلاحة الأراضي و تنشيط التجارة و خلق ورشات الصناعات الخفيفة. لذلك لم تكن الزّوايا مجرّد مكان للعبادة و تجمّع الفقراء و المساكين و العجزة، و لكنّها كانت تشكّل نواة دولة قائمة بذاتـها. و بذلك حق لأتباعها أن يتباهوا على غيرهـم من أتباع الطرق الأخـرى كـون طريقتـهم طريقـة صوفيـة عاملـة و مسـتوى معيشـة سكّانها مرتفعا و أوضاعها الإقتصادية لا تدعو للقلق.

و بهذه التنظيمات المحكمة النسيج و البديعة التنسيق، كانت الزاوية تصرّف أمورهـا و تسيّر شؤونها بدقّة متناهية، فتتلقى المساعدات المادية و الأدبية و العون بسخاء من طرف السّـكان الذيـن كـانوا يدينـون لهـا بالطاعة و يكنّون لها الولاء و التقدير و لا يساورهم أدنى شك في وكلائها،إذ كانوا يتمتّعون بكـامل الثّقـة لمـا اتّصفوا به من نزاهة و صدق و حسن تدبير و كفـاءة في التسيير. و بذلـك كـانت الزّوايـا بمثابـة مؤسسـات حكومية منظّمـة الإحكـام تتمتع بكـامـل السّلطـــات و الصلاحيـات السياسية و الإداريـة و القضائيـة و الإجتماعية و الثقافية، و هي صلة الوصل بين جميع السّكان بالرّغم من تنوّع انتماءاتهم القبلية،فقد صهرتهـم و وحدتهم السّلطة الروحية في الزّاوية [2].

و بهذا برهنت الزّوايا السنوسية على قدرتها و كفاءتها في قيادة المجتمع و إصلاحه و بالرّغم من انّهـا طريقة صوفـية فقد استطاعت أن تنهض بالسّكـان. و نتيجة لأهمـية هذه المراكز و فعاليتها فقد زاد عددهـا و انتشر في مختلف أقطار العالم الإسلامي حتى بلغ قلب افريقيا و شرق آسيا.

منهج السنوسي في الإصلاح :

لقد شغل بال محمد بن علي السنوسي في وقت مبكّر من حياته ما وصله العالم الإسلامي مـن ضعف سياسي و اقتصادي و انحطاط ثقافي و انحلال أخلاقي، فقد إستشرى الفساد في جسم الأمّة الإسلامية

---

(1) - محمد بن إدريس الأشهب : المرجع السابق، ص 32.

(2)- توماس أورنولد : المرجع السابق، ص 371.

و ظهر في سلوك الحكومات الإستبدادية التي كانت تحكم مختلف أقطار البلاد الإسلامية في المشرق و المغرب، و تهيمن على مقدّرات المسلمين حتى صار المنتسب إلى الدين الإسلامي مسبّة له بعد ما كان في وقت مفخرة.

و استهدفت بلاد المسلمين و تكالبت عليها القوى الإستعمارية الزّاحفة من أوروبا الغربية و مورست على المسلمين الحروب بمختلف ألوانها و أشكالها الصليبية و العسكرية و الإقتصادية و الإجتماعية و الثقافية هذا من جهة، و من جهة أخرى فقد اثّر في نفس الداعية المصلح النجاحات التي حققها النصارى بمختلف مذاهبهم و ولوجهم في عمق المجتمعات الوثنية في القارة السمراء[1].

و كان السنوسي يرى أن ضعف الدّولة العثمانية قد فتح الباب على مصرعيه لأطماع الدول الأروبية التي أصبحت تطلق على الخلافة العثمانية أسم "***الرّجل المريض.***" و قد وصف الشيخ السنوسي نفسه ما آل إليه العالم الإسلامي فقال جوابا عن سؤال أحد اساتذته فيما تفكّر ؟ فقال [2] "***إنني أفكّر في حالة العالم الإسلامي الذي أصبح لا يعدو أن يكون قطيعا من الغنم لا راعي لها، و ذلك على الرّغم من وجود سلاطينه و أمرائه و مشائخ طرقه و علمائه ...، إن العالم الإسلامي لا يزال مفتقرا إلى مرشد حقيقي يكون هدفه سوق العالم الإسلامي إلى غاية واحدة و غرض واحد ... إن المقاطعات و البلاد المعمورة تذهب من أيدي المسلمين في كلّ وقت و بسرعة البرق، فالإسلام في حالة التدهور المخيف***".

و من هذا النّص يتّضح مدى وعي السنوسي و إدراكه للحالة المزرية التي أصبح عليها العالم الإسلامي مشرقه و مغربه، فهو يرى أن البلاد الإسلامية تزخر بعلمائها و أمرائها و سلاطينها و ثرواتها و لكن هذه القوى كلّها في نظره قد تعطّلت وظائفها و شلّت ميكانيزماتها في مواجهة الخطر الخارجي الذي كان يداهمها من قبل أعدائها المتربّصين بها، فالعالم الإسلامي في نظر السنوسي يحتاج إلى مرشدين مدبّرين و مفكرين قادرين و لو كانوا قلّة قليلة يأخذون بيده و ينقذونه من حال التدهور الذي وصل إليه بسبب ضعف ولاة الأمور فيه و تقاعسهم عن أداء واجباتهم، فالعلماء و المسؤولون كثيرون و لكنّهم (.... **غثاء كغثاء السّيل** ...)[3].

و من هنا فإنّ هذه الصيحة تعد ناقوس خطر و إنذار لإنقاذ الأمّة.

بعد أن استعرض السنوسي حال العالم الإسلامي انجلت أمام عينة حقيقة الفوضى و الإنحطاط اللذين بلغهما و ما يحف به من مخاطر تكاد تعصف به،و حاجته إلى مصلح و خطّة للإصلاح، و بعد أن فكّر و دبّر

---

(1) – أنور الجندي : المرجع السابق، ص 276.

(2) – محمد الطيب بن إدريس الأشهب : المرجع السابق، ص 12.

(3) – سنن إبي داود ، الجزء 4، كتاب الملاحم، مرجع سابق، ص 100، رقم الحديث، 4297.

اهتدى إلى وضع خطّة في الإصلاح،وركّز في المرحلة الأولى من مراحل نشاطه على الدّعوة و التعليم بهدف نشر العلم و المعرفة بين أفراد المجتمع ليكونه على أسس علمية سليمة و مبادئ أخلاقية تنسجم مع دعوته الإصلاحية، ليتمكّن من الوقوف في وجه الإعداء و المتربّصين و التصدي لهم.

و كان يرى أن تعليم النّاس شيئ مقدّس كلّفه ا لله بأدائه و عبّر عن ذلك في الرّسالة التي وجّهها إلى أهل وجنقة (*) جاء فيها : " ***إنّه قد طلب منا أناس أن نبعث معهم بعض أخواننا يذكّرون عباد ا لله و يعلّمونهم ما فرض ا لله و رسوله عليهم و يهدونهم إلى سبيل الرّشاد و عرفنا على ذلك لكون هذه الوظيفة هي التي أقامنا ا لله عليها تنبه الغافل و نعلّم الجاهل و نرشد الضال*** " [1].

و كانت نظرة السنوسي و خطّته في الإصلاح شاملة لمختلف مناحي الحياة،و تركّزت على :

1 – الغاء الحدود الجغرافية التي تقسّم العالم الإسلامي و تفصل بين أقاليمه ، فالدّعوة الإصلاحية يجب ان تكون شاملة تضم كل أصقاع العالم أو معظمها قدر الإمكان .

2 – على الدعوة الإسلامية ان تعتني بنشر الإسلام بين الوثنيين قبل ان يسبقهم المبشرون المسحيون الذين يسعون جاهدين لذلك، و يؤكد هذا احد الفرنسيين في افريقيا " Ernest Mercier" إذ يقول[2] "***من المعلوم ان الإسلام هو أكبر عدو لنا في افريقيا*** "

3 – الدعوة الى الدين الإسلامي الصحيح بالإعتماد رأسا على كتاب الله و سنّة رسوله الكريم، و الإستفادة من المذاهب الإسلامية المختلفة في ما ييسّر حياتهم و يجلب لهم المنافع و يحقق لهم المصالح، و العمل على تنقية الشريعة من البدع و الضلالات التي لحقت بها .

4 – الإبتعاد عن الغلو في الزّهد و الإفراط في التقتير و التقشف،و الركون الى الخمول و الإستجداء الذي كان الطابع الغالب على الطرق الصوفية في عصره، و ذلك لأن الإسلام برئ من هذه الصفات [3]، قال تعالى[4] " ***و ابتغ فيما آتاك ا لله الدار الآخرة و لا تنس نصيبك من الدنيا و احسن كما احسن ا لله اليك***".

5 – البعد عن الغلو في تقديس الأموات مهما كان مقامهم، و المشايخ الأحياء مهما بلغت درجاتهم، فالسنوسية لا تبيح لأتباعها ان يذكروا ميتا عند قبره إلا بالدّعاء له و الترحم عليه .

(*) – وجنقة : واحة في أعماق الصحراء الإفريقية إلى الجنوب من واداي.

(1) – أحمد صدقي الدجاني : المرجع السابق، ص 164.

(2) – Ernest Mercier : La France Dans l' Afrique centrale en 1891, Imprimerie Adolphe Graham Constantine, 1893, P. 12.

(3) – توماس اورنولد : المرجع السابق، ص 371.

(4) – سورة القصص : الآية 77.

(5) – عباس محمود العقاد : المرجع السابق – ص 88

6 – لا تمنع السنوسية اتباعها من اللياذ بالمقامات و زيارة الأضرحة للتبرك بها، و ذلك انّها أنشأت عند مقامات المرابطين منذ العهد الاندلسي اذ ارادت تجديدها دون ان يحسّ سكّان الصحراء بإقتحامها و التهجم عليها . و كانت وسيلة السنوسي لتجسيد هذه الإصلاحات و تنفيذها هي الزّوايا .

و الحق ان السنوسية لم تكن مذهبا و لا نحلة كما انها ليست نقيضا لمذهب من المذاهب الإسلامية، انما هي أخوة في الله [1] و لم يقتصر اهتمامها على الجانب التعبدي، بل كانت طريقة صوفية و حركة اصلاحية جمعت بين النظرة الوهابية في الإصلاح الديني و محاسن الطرق الصوفية "[2].

لذا كانت شروط الإنضمام في سلكها بسيطة ميسورة فلا يشترط فيمن يريد الإنتساب إلى الطريقة سوى قراءة الفاتحة على العهد[3].

ثم الشروع في حفظ القرآن و قراءة الحديث الشريف و دراسة الفقه، و يقوم الأخوان بختم القرآن مرة في كلّ شهر،اذ يجتمعون لتلاوة جزء منه بعد صلاتي الصبح و المغرب، و هم لا يجتمعون الا على قراءة القرآن.

و الطريقة السنوسية ليست لها مراتب غير السن، و أقدمية الإنخراط في السلك، أمّا درجات اتباعها فأعلاها الخواص ثم الإخوان و بعدها المنتسبون، و لا فرق بين هذه الدرجات إلا في التحصيل العلمي و الإخلاص و حسن السيرة و خدمة الصالح العام، و لا يشترط في بلوغ درجاتها العليا أفراد معيّنين من العائلة السنوسية،انما يكون من جميع المسلمين الذين تتوفر فيهم الشروط السالفة الذكر .

و لإتباع الطريقة آداب و تقاليد مرعية يلتزم بها الأخوان و يتقيدون بها، منها ان المنتسب إلى الطريقة لا يسافر حتى يستأذن من شيخ الزّاوية،و هذا بدوره يستأذن في حالة سفره من شيخ الطريقة أو من ينوب عنه، و كذا في حالة الزّواج، كما كانت لهم تقاليد محكمة يتبعونها في معاقبة المسيء من الأتباع أو حتى من أهالي المنطقة و يعرف بالهجر و المقاطعة، فلا يكلّمه و لا يجالسه و لا يتعامل أو يتصاهر معه أحد حتى يبدى توبته و يقلع عما كان سببا في هجرانه، و لا يتم رفع العقوبة على المسيء الا بإشهار من شيخ الطريقة أو شيخ الزّاوية .

و لم يقتصر نشاط السنوسي على العبادة او تشييد الزّوايا بل اهتم بنشر العلم و الثقافة العربية الإسلامية بين النّاس. كما حثّ النّاس و شجّعهم على ممارسة النشاطات الزّراعية و اتقان فنونها[4] و التجارة

---

(1) – عباس محمود العقاد : نفس المكان .

(2) – عبد الكريم بو صفصاف : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و علاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى 1931، 1945 المرجع السابق – ص ص 185-186

(3) – عباس محمود العقاد : مرجع سابق – ص 88 .

(4) – محمد ابو القاسم حاج حمد : المرجع السابق – ص ص 110-111 .

و معرفة طرقها و سبل نجاحها، و الصناعة و التّمكن من دقائقها و أسرارها. كما دعت الحركة الى إتقان فن الرماية، و الفروسية و مختلف التقنيات العسكرية، امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم[1] " ***علموا أولادكم السباحة و الرماية و ركوب الخيل*** "

كما ربطت بين الأفراد و القبائل التي كان شغلها الشاغل الأخذ بالثأر، و شن الغارات، و ذلك ان الأسرة القرمنلية ابتداء من حكم يوسف[*] إنصرفت الى العمل في البحر المتوسط و انفصلوا عن الدولة العثمانية، فأصبحت ليبيا في القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي مثلا للدولة غير النظامية المنصرفة عن التنظيم حتى سلخت منها فزّان و خضعت لحكم الكانميين.

و لما جاء السنوسيون انشأوا الزّوايا في " ***فزان*** " و " ***كوار*** " و نواحي الصحراء، و تمكنت هذه الزّوايا من كسب ثقة النّاس و هو ما زاد الدين الإسلامي و الثقافة العربية انتشارا و الأمن استتبابا، و كان للحركة السنوسية الفضل في عودة " ***فزان*** " و ربطها عضويا و سياسيا بليبيا[2]. و بفضل هذه الجهود التي اجتهد السادة السنوسية في بثها، نضجت عقلية اتباعها و ثمت نتيجة تشرّبها الإسلام النقي الصافي و رسوخ تعاليمه في النفوس، و ترتب عن ذلك شعور بالسيادة و الانفة و الترفع عن الدنايا، و عدم الرضى الاّ في كنف العيش الكريم، عازفين على الخضوع و الإمتثال لأية قوة مهما كانت. فمهد هذا السبيل لإنشاء الإمارة السنوسية[3].

و هكذا بات امام السنوسيين بعد ان استقامت لهم الأوضاع، و انساق خلفهم خلق كثير في ليبيا و خارجها، و أصبح لديهم العديد من الزّوايا المنتشرة في مختلف الأنحاء، صار النّاس يدينون لهم بالطاعة و الولاء، و توثّقت علاقاتهم بجيرانهم حتى صاروا قوّة معتبرة بفضل التنظيمات التي أقاموها و النظام الذي ابتدعوه، فلم يبق أمامهم سوى لم الشّمل و توحيد جميع جهود الزّوايا و توثيقها بما يكفل لهم الإعلان عن قيام الإمارة السنوسية.

---

(1) - **احمد الهاشمي : مختار الأحاديث النبوية والحكم المحمدية . دار الفكر بيروت. بدون تاريخ ص 68**

(*) – يوسف القرمنلي تولى الحكم بعد نزاعات و حروب بين الأسرة و حل محل اخيه احمد باك (1210هـ 1797م) حصل من السلطان سليم على فرمان بولاية طرابلس قام بإصلاحات في البلاد و أكمال تحصيناتها، أرغم دولة السويد على أداء ضريبة لطرابلس 1799م، تحالف مع نابليون ضد البرتغال اللذي كان أسطولها يرمي طرابلس بالمدافع، دخل في نزاع مع الولم أ (U S A) تعاونت عليه الدول الأوروبية لمساعدة اخيه الذي كان واليا على برقة، و توالت الثورات الداخلية، و استقلت عنه فزّان و ثار عليه سكّان طرابلس فعزل و توفي مكانه الأمير محمد من الأسرة، فلم يرض عنه النّاس و استغلت الدولة العثمانية الأمر مستعينة بالإنجليز سنة (1251هـ - 1835م) و استردّت ليبيا .

(2) – د عبد اللوي صالح الخرير : « نظرة تحليلية لأبعاد سياسة يوسف باشا القرمنلي الأقتصادية على العلاقات الإجتماعية في النصف الأول من القرن 19 » المجلة التاريخية المغربية السنة 12 العدد 37-38 جوان 1985، ص 79

(3) – د/ حسين مؤنس : تاريخ المغرب و حضارته ، مرجع سابق – ص ص 443-444.

اعلان الإمارة السنوسية :

بعد ان استقام الامر للحركة السنوسية و استقرّت دعوتها الإصلاحية على العمل بالمنهجين الإصلاحي و الصوفي اقدم السنوسيون على اعلان امارتهم في ليبيا و شرعوا في وضع هياكلها و بناء قواعدها التي تجمع بين الدّين و الدولة و ارتكزوا في ذلك على الأسس الآتية :

1 - الأساس الديني :

قامت الحركة على قواعد و أسس دينية و مرد ذلك الى نشأة الداعية الأولى، فقد نشأ و تربى تربية دينية، و تشرب من منابع الإسلام الصافية، فبعد دراسة مستفيضة و شاملة للعلوم و المعارف الإسلامية اهتدى الى طريقه يريد من خلالها اصلاح أحوال المسلمين الدينية و الدنيوية، و إحياء روح الدين الإسلامي الحنيف و بعثه من جديد صافيا نقيا لا تشوبه شائبة.

2 - الأساس الإجتماعي :

أما الأساس الثاني للسنوسية فهي الزّاوية التي عرفت في العالم الإسلامي منذ قرون خلت، و اشتهر أهلها بالإنقطاع للعبادة و التفرغ للذكر، معرضين عن زخرف الدنيا و ملذاتها، و كثيرا ما كان الخلاف و النزاع ينشب بين الزّوايا حتى ظهرت الحركات الإصلاحية الحديثة و منها السنوسية التي عمدت إلى وضع تنظيم جديد يتماشى مع تعاليم الإسلام و تطورات العصر، اذ ان الزّوايا السنوسية لم تقتصر على الشؤون التعبّدية،بل اعتنت بشؤون الدنيا و الدين[1] مصداقا لقول صلى الله عليه وسلم[2] : "***اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، و اعمل لآخرتك كأنك تموت غدا***".و قد قام السنوسيون بدعوة النّاس إلى اتباع الإسلام على قاعدة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و تعليم القرآن الكريم، فإستقامت أحوال هذه الشعوب و القبائل و تهذّبت طباعها و كفّت عن طلب الرزق بالسلب و النهب و السطو على ممتلكات الغير و قطع الطرق[3]، و نستطيع ان نتبيّن ما آلت اليه أوضاع أتباع الطريقة السنوسية و كيف سمت نفوسهم و ترفعت، و يمكن أن ندرك ذلك من قول الشاعر ابن مقرب[4] من بحر المتقارب :

فكم من حريم قد اباحوا و اجحفوا *** بمال غني لا يخافون عاديا

فأرشدهم للرّشد من حل بينهم *** فما زال مهديا و لا زال هاديا

وكم بدوي في الفلاة خلف نوقه *** يجول على الأعقاب اشعث حافيا

---

(1) - انور الجندي : المرجع السابق، ص 280.

(2) - احمد الهاشمي : المرجع السابق، ص 52.

(3) - محمد فؤاد شكري : المرجع السابق، ص ص 48-49.

(4) - عباس محمود العقاد : المرجع السابق، ص 87.

تلقاه في مهد الضلالة هاديا *** فأصبح نجما في الهداية عاليا

وكم من جهول اسود اللون خلقه *** كساه لباس العلم ابيض صافيا

و مما سبق يتضح جليا ان عمل الزّاوية السنوسية لم يتوقف عند عتبة الوعظ و الإرشاد، كما انها لم تكن أديرة و بيع و صوامع للرهبان و المنقطعين للذكر و التعبد، المتقاعسين عن أمور الدنيا و مشاغلها، مثل غيرها من الزّوايا التي وصف المنتسبون اليها بالدراويش، بل فقد لعبت هذه الزّوايا بأتباعها و مريديها دورا بارزا في تجسيد جوهر الإسلام بإعتباره دين عملي فأقاموا بذلك الإمارة السنوسية [1].

3 - الأساس السياسي :

برز العمل السياسي جليا في هذه الحركة الإصلاحية الصوفية بعد ظهور السيد السنوسي على مسرح العالم الإسلامي و اتصال الدولة العثمانية به عن طريق واليها " ***بطرابلس الغرب*** ". و ليس غريبا ان يعترف الأتراك بهذه الإمارة في بلد كان يدور في فلكهم منذ القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي لأنه كان يساير سياستهم العامة التي سلكوها إزاء الشعب العربي في هذه الربوع للحفاظ على وجودهم و الإبقاء على نفوذهم. فقد رأو أنّه من صالحهم الإستمرار على معايشة و وفاق هذه الإمارات العربية التي لم يكن بوسعهم القضاء على كيانها و محو آثارها ما دامت تنضوي تحت لواء الخلافة و تدين لها بالطاعة و الولاء، و هذا الموقف اتخذته الدولة العثمانية مع امارات شبه الجزيرة العربية [*].

و بناء على ما سبق فإن اعتراف آل عثمان بالإمارة السنوسية لا يتنافى و لا يتناقض مع السياسة المنتهجة بل يضمن مصلحة خلافتهم. و علاوة على ما ذكر فإن الحركة السنوسية بدأت كدعوة و ما لبث ان اشتد عودها و استوى، فعم نفوذها و انتشر سلطانها بفضل الزّوايا المشيدة في ربوع واسعة من العالم الإسلامي فضلا عما كان يتمتع به شيوخها من إحترام و تقدير و سمعة طيبة و سلطان قوي مكّن من توطيد أركان الإمارة و ترسيخ اقدامها، حيث تمت لها السيطرة على أتباع الدعوة و مريديها، فكانت هذه الزّوايا و بما كانت عليه من تنظيم عبارة عن مؤسسات حكومية[2].

و هذا التنظيم و النفوذ القويين جعل الحركة اكثر قدرة و اشّد سيطرة على تأمين و سير طرق القوافل التجارية من و إلى أواسط الصحراء الكبرى في القارة الإفريقية[3] بالإضافة الى رعاية قوافل الحجاج، فلم تكن

---

(1) – محمد فؤاد شكري : المرجع السابق – ص 50.

(*) – آل سعود – و آل الرشيد في حائل – و آل الصباح في الكويت.

(2) – محمد فؤاد شكري : نفس المرجع – ص 51.

(3) – محمد ابو القاسم حاج حمد : المرجع السابق، ص 111.

هذه القوافل لتشعر بالأمن و السلام الاّ اذا كانت تحمل محرّرات السنوسية التي كانت بمثابة جوزات سفر و تأشيرات مرور، لما لهذه المحررات من قدسية و تقدير في نفوس القبائل التي كانت تعمل بمقتضى هذه الوثائق، مع العلم ان قبائل هذه الربوع لم يسبق لها الخضوع لأي قوة او سلطان، و بفضل هذا اصبحت القبائل التي كانت قبلئذ مصدر قلق و خوف تسلب و تنهب و تقطع الطرق و تسفك الدماء دون وازع، هي القوة المؤمنة الحامية التي تسهر على الأمن و الإستقرار[1]، و تجتمع كل هذه القوى في قبضة شيخ الزّاوية الرئيسة في الجغبوب التي غدت بمثابة منارة و مركز إداري للدعوة و أعظم مركز ثقافي في شمال افريقيا بعد القاهرة و تونس [2].

و صارت واحة الجغبوب بعد ان كانت صحراء قاحلة حاضرة للإمارة، و كان شيخها محلّ التبجيل و التقدير حتى صارت أوامره و نواهيه واجبة الطاعة و التنفيذ.

و هكذا أصبحت الجغبوب بإعتبارها العاصمة محل نشاط واسع في مختلف المجالات، و موضع تقاطر التقارير و الرسائل تأتيها الوفود من كل حدب و صوب، كما تصدر منها الأوامر و القرارات، و من هنا أصبح في مقدور الحركة السنوسية جمع العدد الكبير من المجاهدين من مختلف القبائل،و ذلك لجمعها بين رايتي الدعوة و الجهاد في آن واحد[3]. أما في ما يتعلق بمنصب الخلافة فقد اعتمدت السنوسية الاسلوب الوراثي في اختيار الخليفة، و مرجعية ذلك الوصية التي خلّفها المؤسس،و التي تقضي بإسناد رئاسة الدعوة إلى الإبن الأكبر من الأسرة، و بذلك صار نظام حكم الإمارة السنوسية قائما على الوراثة في الرئاسة ثم تتم المبايعة بعد ذلك[4].

غير ان عباس محمود العقاد ذكر على أنه بعد وفاة مؤسس الطريقة محمد بن علي السنوسي خلفه ابن اخيه السيد احمد الشريف[5].

كان الشيخ السنوسي على علم و دراية تامة بما يدور حوله بخلاف اغلبية رؤساء الطرق الصوفية الأخرى، اذا كان خبيرا بأحوال السياسة العالمية عامة،و ما يعيشه المسلمون بوجه خاص، فقد شعر بالضعف المستمر و الإنهيار المؤكد للخلافة الإسلامية ممثلة في آل عثمان، كما لم يخف عليه تكالب الدول الإستعمارية على العالم الإسلامي لا بغرض استغلاله و استنزاف ثرواته فحسب، بل هدفهم تقويض أركان الإسلام و استعباد المسلمين، و مباشرة الحروب الصليبية مجدّدا، كما هاله أمر تقدم النصارى و تغلغلهم في القارة

---

(1) – محمد فؤاد شكري : المرجع السابق، ص 51 .

(2) – د/ احمد شلبي : المرجع السابق، ج4 ، ص ص 406-407.

(3) – د/ حسين مؤنس : تاريخ المغرب و حضاراته ، مرجع سابق – ص 443.

(4) – محمد فؤاد شكري : المرجع السابق – ص 55.

(5) – عباس محمود العقاد : مرجع سابق – ص 55.

الإفريقية عموما و في الجزائر على وجه الخصوص لذلك استمر في بناء الزّوايا في قلب الصحراء لتكون ملاذا لأتباعه في حال شن هجوم أجنبي من الخارج كما كان يتوقع [1].

و انطلاقا مما سبق يمكن القول ان السنوسي كان يرمي الى بناء مجتمع متشبع بالتعاليم الإسلامية يعي أفراده الإسلام حق الوعي و تربط بينهم شريعته السمحة، حتى يكون هذا المجتمع قادرا على التصدي و مواجهة الأعداء و احباط مخططاتهم مهما كانت اتجاهاتهم و انتماءاتهم الجنسية و مشاربهم الدينية. و يتضح من خلال هذا كله أنه انتهى برأيه الى انه للنجاح في هذا المسعى لابد ان يتوّج بإصلاح أمر السلطة و تنظيمها و الحسم في مسألة الخلافة.

و لما فرغ الشيخ السنوسي من اعداد المجتمع الذي تصوره،و وضع القيادة التي ستتولى الإشراف عليه و توجيهه، تأكد من ان هذه التنظيمات ستفضي في النهاية إلى انتشال العالم الإسلامي من الوضع المزري الذي آل اليه، و يبدو ذلك من خلال نظرته الشمولية اذ ان العالم الإسلامي يشكل أمة واحدة، و ما اقتصار دعوته على مناطق معينة الاّ ضرورة تقتضيها ظروف قاهرة.

و من خلال هذه الإنجازات يتضّح ان السنوسي كان يتمتع بقدرات فائقة في الإدارة و التنظيم فقد ربط بين الزّوايا و وثق علاقاتها ببعضها البعض،و بينها و بين الجماهير الشعبية،و نظمها تنظيما محكما في غاية الدقة،تتمتع بحريتها و استقلالها،وتباشر مختلف الأنشطة الدينية و الدنيوية على حدّ سواء، و كان نشاط الزّوايا متماثلا كما في ليبيا او خارجها.

مذهب السنوسي و آراؤه :

لمعرفة مذهب محمد بن علي السنوسي و آراءه الفكرية و حركته الإصلاحية لابد من الإطلاع على انتاجه الفكري و تصفح مؤلفاته التي يصعب حصرها بدقة، ذلك ان بعضها لا يزال مخطوطا و بعضها حقق و طبع بينما ضاع بعضها لآخر، فقد عبثت بها أيدي الإستعمار الغاشم،كما شارك في هذا العبث عدد غير قليل من محترفي سرقة الآثار و النفائس[2].

فقد ذكر بعضهم [*] انها تربو عن الخمسة و الثلاثون مؤلفا تضم مسائل فقهية و صوفية[3] و يرى السنوسي في هذه الأخيرة – الصوفية – انها وسيلة لإرتقاء بالنفس و السمو بها و التغلب على شهواتها

---

(1) – د/ اسماعيل العربي : الصحراء الكبرى و شواطئها، مرجع سابق،ص 225.

(2) – محمد الطيب بن ادريس الأشهب : المرجع السابق، ص 4.

(*) – ذكر اسماعيل باشا البغدادي في كتابه هداية العارفين في اسماء المؤلّفين اكثر من 35 مؤلفا بين كتاب و رسالة ذكر عناوينها و نسبها الى السنوسي و معظمها مسائل فقهية و صوفية. أنظر: د/عبدالرحمن عمر الماحي ،المرجع السابق ص 225.

(3) – د/ عبد الرحمن عمر الماحي : المرجع السابق، ص 225.

الجامحة، و قد سبب الإفراط في التطرف لبعض المتصوفة الى الإتيان بهرطقات و كانت لهم شطحات ليست من الدين الإسلامي في شيء، و قد تصدى السنوسي لبعضها بالنقد الصريح مفنّدا دعوى اصحابها، كما أن السنوسي بالرغم من كونه مالكي المذهب الاّ انه لم يتقيد بما جاء في المذهب الواحد، بل فتح باب الإجتهاد على مصرعيه أمام الفقهاء [1] و بسط في شروط المجتهد[*] غير انه شدد في نقده للطائفتين.

الأولى و تضم بعض الفقهاء من غلاة العمل بالمذهب الواحد دون سواه، فالسنوسي يستنكف من هذا و لا يرى ضرورة التقليد الحرفي بل يرفضه.

أما الطائفة الثانية و تجمع بعض الدخلاء على الصوفية الذين لا يقيمون وزنا للعلوم الشرعية،و كان نقده لهذه الأخيرة أشّد .

أما أراء السنوسي الصوفية فقد كان يصدّق بما يدعيه المتصوفة من الرؤية الصالحة و الكشف و الإتصال،و هو يؤمن بالصوفية كما يؤمن بالكتاب و السنة،و يرد على المنكرين بمثل هذا الجمع في كتابه المسائل العشر ، فالصوفي عند السنوسي يؤمن بالكتاب و السنة و يتقيد بهما.

و أما اراء السنوسي الفقهية فقد احتلت جانبا كبيرا من الأهمية، اذ اعتبرت جريئة و رائدة في حينها مقارنة بعهد الجمود الذي عاشه الرجل، الأمر الذي أوغر صدور معارضيه فناصبوه خصومة و عداء شديدين و حاولو ا اغتياله.

لم يترك السنوسي آراءه و افكاره مدونة بين دفات الكتب و على صفحات الرسائل، بل عمد إلى غرسها في النفوس و ترسيخها في الأذهان و تجسيدها على أرض الواقع المعيش ما استطاع الى ذلك سبيلا. فقد تبلورت أفكاره و نمت و تكيفت مع ظروف العصر لأنه راح في دعوته بعيدا عن أسلوب العنف و مظاهر الترهيب سالكا مسلك الترغيب و الإقناع وفق ما يقتضيه الكتاب و السنة النبوية الشريفة[2] قال تعالى[3] : ***"ادع الى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة و جادلهم بالتي هي احسن ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله و هو اعلم بالمهتدين"*** و راح السنوسي جادا يغوص في اعماق المجتمع الذي يسهر على دعوته و اصلاحه ليتمكن من هدايته الى الإسلام و جادة الحق و ابعاده عن التمادي في ظلمات الجهل و غياهب الأمية و الضلال لإزالة كل ما لصق بالعقيدة من خرافات و شوائب و محو آثارها لإحياء مجد الإسلام و بعث تعاليمه السامية من جديد.

---

(1) – انور الجندي : المرجع السابق – ص 280.

(*) – شروط الإجتهاد المطلقة هي معرفة الكتاب و السنة النبوية و العلم بالعربية، و معرفة مواقع الإجماع و القياس، و على دراية بأصول الفقه، و ان يكون الإجتهاد في الظنيات و ما لا نص فيه أو نص يحتمل التأويل، انظر محمود شلتوت : الفتاوى،ط 12، دار الشروق بيروت، 1403هـ 1983م – ص ص 44-45. و كذلك : محمد ابو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية، مرجع سابق ص ص 321-329.

(2) – توماس اورنولد : المرجع السابق، ص.ص 370- 371.

(3) – سورة النحل : الآية، 125.

و لا غرو في ان الحركة السنوسية قد اكتسحت ميدانا واسعا،و احرزت نجاحا لا نظير له في ميادين الإصلاح على المستويين الديني و الدنيوي في جميع الإتجاهات التي بلغتها بصورة أدهشت معاصريها و هي تطبق في كل عمل تقوم به نصوص القرآن الكريم روحا و معنى؛ و اذا كان السنوسي قد نجح في مهادنة الدولة العثمانية و كسب ودها، فقد فرض احترامه على موظفيها خاصة في ليبيا اذ تعدى حدود المجاملات و تبادل التهاني و الهدايا حتى بلغ حدود التعاون الفعلي. و من أعماله الدالة على ادراكه لمرامي دعوته فقد اشترى العبيد من عمق افريقيا و سهر علي تعليمهم و اعدادهم ثم اعتقهم و ردهم الى أهاليهم لنشر الإسلام و الدعوة بين ذويهم[1].

أما فيما يتعلق بموقفه من العلوم العصرية فيتجلى بوضوح من خلال توجيهه لطلابه و مريديه عندما سألوه عن تزويدهم بمعارف الكيمياء قال : "***الكيمياء تحت سكة المحراث***"، كما كان يشجّع اتباعه و يدفعهم الى استخلاص المعارف و كسب المهارات في الحرف و الصناعات بقوله[2] : "***يكفيكم من الدين حسن النية و القيام بالفرائض الشرعية و ليس غيركم بأفضل منكم***"، و لذلك فقد أنشأ مصانع عديدة و في صناعات مختلفة منها مصانع البارود[3] و من هنا يبدو ان الرجل كان ضد الجمود و التحجّر الفكري،بل كان يماشي الزّمن متفتحا على المستجدّات و ما وصلته الصناعة و المخترعات خارج حدود العالم الإسلامي.

و بعد ان تعرضت لشخصية محمد بن علي السنوسي، و سلطت بعض الأضواء الكاشفة على جوانب غير يسيرة من حياته و سيرته و أفكاره و آرائه، نخلص الى القول ان هذا الرجل ساهم مساهمة واضحة و فعالة في نشر الإسلام و تعاليمه بين القبائل الوثنية التي كانت تنتشر في ربوع شاسعة من افريقيا و خاصة في عمق الصحراء و جنوبها و إخراجها من عبادة الأوثان الى نور الإيمان، و بفضل ذلك تمكن من نشر اللغة العربية و الثقافة الإسلامية التي زادت في رقي الإنسان الإفريقي و رفعته درجات في الميدان الحضاري، و تخلى عن كثير من مظاهر التخلف و الإنحطاط، كما لعب دورا كبيرا في نشر العلم و المعارف بين تلك المجتمعات، و ذلك بفضل الزّوايا التي انشأها و المدارس التي اعدها، كما كان للرجل باع كبير في تخرج العديد من طلبة العلم و الدعاة و العلماء الذين لم يبخلوا بدورهم في التعليم و نشر الدعوة الإسلامية، و الى جانب كسب الوثنيين و ادخالهم في الإسلام، فقد تمكّن من اصلاح أحوال المسلمين الذين تخلى الكثير منهم عن تعاليم الدّين الصحيحة،فصحّح لهم عقيدتهم و هذّب اخلاقهم،فقضى بذلك على البدعة و الخرافة، و نظّم المجتمع و صهره في بوتقة واحدة داخل الزّوايا بفضل القوانين و التشريعات التي سنّها، فتحول

---

(1) – محمد ابو القاسم حاج حمد : المرجع السابق، ص 111.

(2) – احمد صدقي الدجاني : المرجع السابق، ص 161.

(3) – د/ عمار هلال : المرجع السابق، ص 459.

المجتمع البـــدوي الذي الف حياة التنقل و الترحال، إلى حياة الإستقرار و ممارسة الأنشطة الإقتصادية المختلفة من زراعة و صـــناعـــة و تجارة، فظهرت تجمّعات سكانية في المناطق الصحـــراوية و اســـتتبّ الأمـــــن و نعـــم النّـــاس بالهـــدوء و سارت القوافل التجارية و غيرها في آمان لم تعرفه من قبل.

و نتيجة لكل مـا سبق يمكننـا القـول ان محمـد بـن علـي السنوسـي كـان عالمـا و مصلـحا منـــاوئا للجـــهـــل و الأمية و عدوا للتخلّف و البدعة و ضد الأفكار العقيمة و التحجّر الذهني و خصمـــا عنيـدا لكـل متقاعس كسول عن امر الدنيا و الدين من المسلمين. و رغم الصعاب التي واجهته و حركته، فإنّه لم يستســـلم بل استمر في مواصلة عمله الإصلاحي الذي شرع فيه دون ككل او ملل غـير عـابيء بمـا يواجهـه حتـى وفـاه الأجل، بعد أن كان قد أمّن لدعوته الإستمرار و مهّد لها السبـيل و أعـدّ لهـا رجـالا تشـبّعوا بمبـادئ الحركـة، فقاموا للذّود عنها لا يخشـــون في ذلك لومة لائـم، لذلك استمـــرت الحركة بقيادة الخليفة الأول تسير بقـوّة و ثبات.

الحركة السنوسية في عهد محمد المهدي :

لم تتكس الحركة السنوســية و لم تتوقف بل استمرت تنتشر فلم تتـــأثر بموت مؤسسـها و رائدهـا الأول، فقد تواصل سيرها و ربما زاد حيوية و نشاطا أكثر و بعزيمة أقوى و اشد صلابة من ذي قبل و خاصة في ربوع افريقيا جنوب الصحراء، و كلّ هذا يعود لصحة الدعوة و سلامتها، و بعدها عن المنافسة و الصراعـات الداخلية بين الأتباع و المريدين من جهة، و قوة شخصية الخليفة من جهة أخرى، فمن هو الخليفة ؟

الخليفة هو السيد ***محمد المهدي*** الإبن البكر للمؤسس الرّائد ، ولد "***بماسة***" بالجبل الأخضر في شـهر ذي القعدة من عام (1260هـ، نوفمبر 1844م) تلقى مبادئ العلم و التربية في مسقط رأسـه، ثـم هـاجر في ريعان شبابه و هو ابن السبع سنين و نيف الى الديار المقدسة بالحجاز، درس في زاوية ابي قبيس على يد كبار شيوخ السنوسية، و بعد ان حصّل ما حصّل من العلوم و المعـارف أرسـل الى زاويـة الجغبـوب في شـهر ربيـع الأول من عام (1274هـ 1857م) ، و بعد سنتين من قدومه الى محل اقامة عائلتـه توفـى والـده، فـاهتم بـه شيوخ السنوسية و سهروا على الإعتناء به و تعليمه و ارشاده بمعية اخيه الأصغر محمـد الشـريف[1]، و بـالرغم من صغر سنه – خمسة عشر سنة – لم تغره الإمارة و لم ينسق خلف شهوة الملك و تبـوّء سـدّته و الإنصـراف عن الدرس و مواصلة التعليم، فقد اظهر الخليفة منذ صباه المبكر شغفه بالعلم على غـرار والـده، كمـا وصـف بالذكاء و التديّن. كان يقوم الليـل و يصوم النـــهـار، و اوقاته معمورة بالذكر و العبادة، كما كان على

---

(1) – د/ محمد ابراهيم ابو سليم : الحركة الفكرية في المهدية، ط 2 دار الجيل بيروت لبنان، 1981 – ص 10.

جانب كبير من مكارم الأخلاق لم يتسلل الكبر اليه رغم مكانته و حداثة سنّه فقد كان يلقي ابن عمه باشا مبتسما في وجهه مرحبا به مهما كانت درجته في الفضل و في السن [1].

و بفضل هذه السجايا و الصفات المحمودة سرعان ما أحبّه النّاس و احتل من نفوسهم موقعا و مكانة عظيمة سواء بين الإخوان أو مؤيدي الطرقة و مريدها .

و بهذا الصدد يمكن ان نقول ان حسن سيرة الخليفة و ما كان يتمتع به من ذكاء و دماثة خلق من جهة، و اخلاص الأتباع للحركة و مبادئها و للأسرة بصورة عامة و شخص الخليفة خاصة من جهة ثانية، هو الذي جعل الإمارة تبقى بين يدي شاب في مقتبل العمر، في وقت كان بإمكانهم ابعاده و الإطاحة به و الإستلاء على الإمارة.

و لاشك أنّ موقفا مشرفا مثل هذا يفسّر تفسيرا واضحا ما بلغه السنوسيون من نضج سياسي و سلوك حضاري و عزوف عن الوصول الى سدّة الحكم بطرق غير مشروعة حتى و لو تيسّر لهم ذلك، و هذا يدل دلالة واضحة على التأثير الحسن الذي بلغته الدعوة في مجتمع كان من قبل لا يقيم لمثل هذه القيم وزنا و لا يعيرها أدنى انتباه .

لم يشذّ المهدي و لم يخرج عن النهج الذي سلكه والده من قبل في الدعوة، فقد عرف معلما داعيا الى الإصلاح يأمر بالمعروف و ينهي عن المنكر وفق تعاليم الإسلام، و بفضل ذلك زادت صلابة اركان الإمارة و توطّدت و اشتد عودها في القطر الليبي، و استقام لها الامر فيما جاوره من الأقاليم، و قد ساعد على هذا جملة من الأسباب نوردها فيما يأتي :

– تهيئة الأرضية فالطريق كان ممهدا من قبل بفضل مساعي السنوسي الكبير و اعوانه من شيوخ الزّوايا المتناثرة في مختلف الجيهات .

– شخص الخليفة نفسه اذا كان يتمتع بشخصية قوية جذابة زاد منها حسن سيرته و معاملاته و تقواه.

– طول الفترة الزّمنية التي استغرقها حكمه على رأس الإمارة، اذ بلغت حوالي أربعين سنة.

– اعتقاد القبائل المختلفة بمهدوية الخليفة و ما يكنّونه له من تقديس.

و كانت هذه الحقبة من التاريخ التي اعتلى فيها الخليفة سدّة الإمارة مواتية، اذ نعمت فيها المنطقة ببعض الهدوء فساد الأمن و الإستقرا ، فاستغل محمد المهدي هذا الهدوء لمواصلة نشر الدعوة و توسيع مساحتها بكل حزم و حيوية شباب، حتى وصلت أعماق الصحراء و أطرافها، فقد بلغت بحيرة بلاد تشاد

---

(1) – محمد فؤاد شكري : المرجع السابق – ص 27 و ما بعدها

و ما جاورها من المناطق التي نبتت فيها امارات اسلامية قديمة، فتمكنت الدعوة من قلوب القبائل الزنجية التي كانت على الوثنية او من أولئك المسلمين الذين لم يتمكن الإسلام من نفوسهم من قبل، و كان لنشر الدعوة و مبادئ الطريقة لابد من انشاء الزّوايا التي لم يتوقف المهدي و أعوانه عن انشائها، و قد اختلفت المراجع في ذكر عددها، فقد ذهب توماس اورنولد[1] ان الزّوايا بلغ عددها 121 زاوية، أما بريتشارد "PRITCHARD " في كتاب سنوسي برقة فقد ذكر 146 مدينة و قرية فيها زوايا للطريقة السنوسية[2]، و هو ما اكده الأستاذ عبد الكريم بو الصفصاف و فصله اذ يقول[3] ان الزّوايا كانت موزعة كما يأتي :

برقة 45 زاوية، مصر 21، الجزائر 17، طرابلس الغرب 28، فزان 15، الكفرة 06، السودان 14، فيما ذهبت مراجع اخرى الى ان الزّوايا بلغت ثلاثمائة (300) زاوية موزعة فيما بين ليبيا و تشاد و السودان و مصر علاوة على الزّوايا الكائنة بالجزائر و الحجاز[4].

و قد كانت هذه الزّوايا تضم في نظام بديع الإحكام رائع التنظيم الاف الأشخاص من جنسيات، و قوميات، و الوان متباينة، لا يشعر أي منها بالظلم و الغبن و التمييز[5]، و هذه الزّوايا كلها و بدون استثناء تتلقى التعليمات و الأوامر في جميع المسائل الدينية و الدنيوية من الزّاوية الام في واحة جغبوب.

و بفضل موقع هذه الزّوايا و هيكلتها و وزنها، كانت عبارة عن سفارات او قنصليات ساهمت في توثيق العلاقات و الروابط بين السنوسية و الممالك الإسلامية في كل من " ***واداي*** " و " ***كانم*** " و غيرهما، كما حرص المهدي كل الحرص على اتباع خطى والده في سياسته اتجاه الدولة العثمانية حيث عمل من أجل الحفاظ على وحدة الصف و خدمة مصلحة المسلمين بتوطيد عرى الصداقة و التعاون معها[6]، و لم يخف هذا العمل الجليل عن الأعين بل فقد اثار بث الدعوة و مبادئها و ايقاظ الامة من غفلتها انتباه القريب و البعيد، كما شدّ انتباه تشييد الزّوايا و سر اقبال النّاس عليها و التفاف الأهالي حولها فضول الأصدقاء و ريبة الأعداء، فقد هال هذا الأمر سلطان القسطنطينية عبد الحميد الثاني (1876-1909م)

---

(1) : توماس اورنولد : المرجع السابق ، ص 371.

(2) : عباس محمود العقاد : المرجع السابق، ص 87.

(3) – عبد الكريم بو صفصاف : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و علاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى، 1931 – 1945، مرجع سابق، ص 185.

(4) – د/ ضيف ا لله محمد الأخضر : المرجع السابق، ص 70.

(5) – توماس اورنولد : المرجع السابق، ص 371 .

(6) – محمد فؤاد شكري : المرجع السابق – ص 59.

فشكّل و فد ا رفيع المستوى(*) أوفده الى مقر المهدي بالجغبوب ليكتشف حاله و يستجلي حقيقة الأمر[1] و يتضّح ان الوفد لم يجد ما يعيب الحركة او يدين زعيمها الأمر الذي نجّاهما من عقاب الأتراك و انتقامهم، أما الأعداء من الدول المسيحية الإستعمارية فقد حسبت للأمر حسابه و قلّبته على جميع وجوهه ثم راحت تحاول التقرب اليه بأنواع الوسائل و التزلّف بأصناف الهدايا و الألطاف، غير أن المهدي عزف عن ربط أي علاقة مهما كانت مع الدول الأروبية التي كانت تسعى بكل ما اوتيت من قوة و وسائل لأجل الحصول على مواطئ اقدام لها في تلك الربوع لتشرع في نفث سمومها و بذر أفكارها و توسيع نفوذها [2].

و من هنا نستنتج ان محمد المهدي كان يدرك الأبعاد و الخلفيات السياسية لتقرب هذه الدول و ما تنطلي عليه من عواقب و خيمة قال تعالى[3] : " ***و لن ترضى عنك اليهود و لا النصارى حتى تتبع ملّتهم*** ".

انجازاته :

أما ما يتعلق بالإنجازات المادية فلم يكن ليغيب عن محمد المهدي ما للعمل من دور اجابيي في بناء الإمارات و الممالك و الدول، فقد ادرك منذ ان نضج فكره ان العمل وسيلة للإرتقاء و التطور، فالإسلام نفسه دعوة الى العمل، و الكثير من الآيات القرآنية تقرن في دعوتها بين الإيمان و العمل لمن أراد الفوز، لذلك حرص المهدي على ان تكون الزّوايا الى جانب نشاطها الدعوي و الإصلاحي ورشات للحرّف و الصناعات المختلفة، و كثيرا ما كان يباشر الشغل بنفسه مع الصّناع و أصحاب الحرف و يقول[4] و هو يشتغل : " ***يظن اهل الأوريقات و السبيحات انهم يسبقوننا عند الله، لا و الله ما يسبقوننا*** ." لذا فلا غرابة ان تكون السنوسية قد اعتنت بميدان الشغل و أولته الأهمية القصوى سواء في عهد المؤسس أو الخليفة .

فقد أنشأ السنوسيون الى جانب دور العبادة و التدريس مرافق أخرى ضرورية لسد حاجيات السكان و تأمين معاشهم، فأنشاوا خزانات للمياه و صهاريج لحفظ ماء المطر (سدود)، و اشرفوا على تنظيف مياه الصرف و تطهيرها، كما اقاموا معملا خاصا لتقطير الماء العذب، و استصلحوا الأراضي و سهروا على زراعتها .

(*) – كان من بين اعضاء الوفد ، صادق بك المؤيد من آل العظم في دمشق و احد حجاب السلطان قال عما لقوه في الجغبوب : " ان السيد السنوسي لم يكن الاّ داعيا و مرشدا، و انه دائما يدعو الله بتأييد الدولة العثمانية و توفيق الحضرة السلطانية " انظر لوثروب.س : حاضر العالم الإسلامي، م 2، ج 3، ص 142.

(1) – لوثروب ستودارد : المرجع السابق، ص 142.

(2) – انور الجندي : المرجع السابق، ص ص 277-278.

(3) – سورة البقرة : الآية 120.

(4) – محمد فؤاد شكري : المرجع السابق، ص 59.

و يتضح من هذه المنجزات السابقة ان السنوسيين بلغوا درجة من التّقدم و الرقي، اذ وصلوا حدّ تقطير الماء و تطهير مياه الصرف، و بناء السدود و استغلالها في مجال الري، و هذا يدل دلالة واضحة على عنايتهم بالصحة العامة، و الزراعة المروية في هذا الوقت المبكر نسبيا.

كما استخرجوا مادة الجير و أقاموا مصانع لصنع اللّبن لبناء المنشاءات العمرانية، و المصانع المختلفة، فقد شيدوا مخازن لحفظ المؤونة و الغلال. كما نصّبوا الطواحين منها ما يدار بقوة الرياح أو بالدّواب، علاوة على معاصر الزيتون (*) و مصانع دباغة الجلود، و وراشات لصنع الأحذية و السروج و الحياكة، و صناعة الحصر، و مصانع الزّجاج، و لم تتوقف اهتماماتهم عند هذا الحدّ، بل امتدت الى البحث و التنقيب على مصادر البارود و صناعاته، و انشاء معامل الحدادة، و ورشات تصليح الأسلحة[1]

كما أنشئ بالجغبوب مكتبة عامرة بالكتب القيمة المختلفة التي تتناول مختلف العلوم[2]، و تعد هذه المكتبة من مفاخر انجازات الحركة السنوسية، اذ انّها كانت تعد في طليعة المكتبات العالمية في وقتها، يجد فيها الطلبة و الأساتذة و العلماء و المعلّمون كل مبتغاهم، و كانت تضم قسما كبيرا من المخطوطات النفيسة و النادرة.

و لم يترك السادة السنوسية و على رأسهم الإمام الأكبر بلدا اسلاميا الا و اقتنى منه الكتب، فمن "الاستانة " و بلاد الشام و الحجاز و مصر و تونس و مراكش و غيرها من البلاد الأخرى يقتانون المناسب و الجديد لإثراء المكتبة[3]، و قد زاد عدد الكتب على الثمانية آلاف كتاب[4]

كما نضموا قوافل الحج و سهروا على تأمين الطرق و تنظيم التجارة فأزدهر الإقتصاد .

هذه الإنجازات كلها تمّ قسم منها في عهد المؤسس و أكمل الباقي في عهد الخليفة، و نظرا لما للعمل و العامل من قيمة و أهمية في نظر الحركة السنوسية، فقد قسم السنوسيون أيام الأسبوع بين طلب العلم و السعي للرزق فيما عدا يوم الجمعة، فمثلا العامل الأمي من حقه التمتّع ببعض الوقت يتفرغ فيه لحظور مجالس الدرس الشفوي و الوعظ و الإرشاد و التوجيه، ليكون على علم و دراية بواجباته الدينية و الدنيوية .

أما طالب العلم فعليه بأداء ما أنيط به من اشغال مثل تنظيف محل الإقامة، و مكان الدراسة مساء يومي الإثنين و الخميس و يستوي في ذلك الجميع، و تقوم الزّاوية برعاية شؤون طلباتها و عمالها و تتكفل بكل احتياجاتهم .

(*) – الزيتون كان يجلب من واحة " سيوة " التي كانت تشتهر بزراعة اشجار الزيتون و غيرها، و هي واحة تقع بجنوب غرب مصر ، انظر : د/اسماعيل العربي : الصحراء الكبرى و شواطئها، مرجع سابق، ص ص 128-129

(1) – د/ عمار هلال : المرجع السابق – ص 459.

(2) – محمد الطيب بن ادريس الأشهب : المرجع السابق، ص 47.

(3) – انور الجندي : المرجع السابق، ص 276.

(4) –د/ ابراهيم امام : اصول الاعلام الإسلامي، دار الفكر العربي بيروت، بدون تاريخ، ص 158.

و الحق ان الحركة السنوسية جديرة بأن ينوّه بها النقابيون في هذا الجانب، اذ حملت على عاتقها مهمة الدفاع عن حقوق العمال، و بذلك تعد سبّاقة في هذا المضمار، إذ تعد نواة لما يسمي بالنقبات العمالية حديثا، و بذلك يبدو انها لم تتعرض للهزات الإقتصادية و الإضطرابات العمّالية .

و لم يستثن السنوسيون من برنامجهم الإصلاحي تمرين الطلبة على الرماية و تدريبهم على مختلف الفنون العسكرية و القيام ببعض الرياضات مثل رياضة " ***الباصة*** "(*) و " ***طق الكرة*** "(**) (1)

الخليفة و فكرة المهدية :

في هذا الظرف الذي كان يقوم فيه محمد المهدي بأعمال مختلفة و على جميع الجبهات، شاع عنه انه المهدي المنتظر الذي يملأ الدنيا عدلا بعد أن ملئت جورا، و عمّ الإعتقاد بين النّاس بمهديته حتى ظهر في السودان العربي من ادعى انه مهدي الزّمان و هو " ***محمد أحمد*** " الذي حاول عقد صلات طيبة بالخليفة و عينه في منصب الخليفة الرّاشدي الثالث، لكن المهدي يرفض ذلك رفضا قاطعا و موقفه هذا يوضح رفضه للمهدية(2).

انتقال الخليفة الى الكفرة(***):

نتيجة لظروف استراتيجية و مستجدّات سياسية على الساحة قرر السيد محمد المهدي مغادرة الجغبوب و التوجه صوب واحة الكفرة بالجنوب اللّيبي في يوم 22 شوال (1213هـ 18 افريل 1895م)، و الكفرة واحة فسيحة في جوف الصحراء تقطنها قبيلة زوية " Zouya " و قد اختلفت الأقوال في أسباب ترك الشيخ للجغبوب و تحوله عن مركزه الذي يضم ضريح والده،و اختياره البعد و الإنزواء في الكفرة بموقعها القصي، فقد قال بعضهم ان ذلك يعود الى وجود الإنجليز بمصر و استئثارهم بها منذ حوالي (1300هـ 1882م) فانزعج السنوسي من هذا الحضور الأجنبي بجواره فأندفع الى جوف الصحراء، و قال آخرون أنه استاء من سلوك الموظفين الأتراك و معاملاتهم الإستفزازية عند ولوج الزّوايا و تفتيشها بحثا عن السلاح، لأن الدولة تتوجس خيفة ادعائه الخلافة و الخروج عنها، الى جانب تحرش الإطاليين بليبيا و تربصهم بها استعدادا لغزوها، هذا علاوة على قرب الكفرة من السودان الغربي هذه الأرض كانت السنوسية ترنو اليها بغية نشر

(*) – الباصة : ينقسم فيها اللّاعبون الى فريقين و ترمي الباصة (الكرة) بينهم بأعلى ما يمكن قدفها في الجو و يتبارى اللاّعبون و كل من استطاع ان يتلقّفها يعيد رميها محددا، انظر : محمد الطيب بن ادريس الأشهب، مرجع سابق، ص 49.

(**) – طق الكرة : و تجري لعبتها بين فريقين كل منهما يرميها بعصاه الى اتجاه الفريق الآخر و يحاول الفريق المضاد اعادتها على رماتها بكل حماس كي لا تصل الى الهدف المعين و هي تشبه لعبة ما يسمي في الجزائر الكرة التي يلعبها سكان القرى في موسم الربيع انظر بن ادريس الأشهب مرجع سابق ص 49

(1) : محمد الطيب بن ادريس الأشهب : المرجع السابق، ص 47.

(2) : د/ نعوم شقير : المصدر السابق، ص 707 – 708

(***) – أنظر الشكل رقم (8)، ص 165.

الطريقة بها منذ أمد بعيد من ظهورها[1].

و قد زاد الإهتمام بهذه المناطق و تضاعف،لا سيما في عهد محمد المهدي لظهور أخطار جديدة حفّت بالمنطقة بعضها نجم عن تسرب بعثات التبشير المسيحية و نشاط التجار الإنجليز، و محاولة الفرنسيين بقواتهم التسلّل الى السودان الأوسط و بسط نفوذهم و فرض سلطانهم على الممالك الإسلامية هذا من جهة، و من جهة أخرى ظهور " ***رابح الزبير*** "،و تأسيسه لسلطنة على انقاض مملكة " ***البرنو***".

و اثناء انتقال الشيخ الى الكفرة و اقامته بها زادت قوة السنوسيين في افريقيا جنوب الصحراء، و الواقع ان المنطقة عرفت الدعوة في وقت مبكر، و كان لجماعاتها نفوذ على ما ذكر الرحالة الفرنسي فورنو " Fourneau "[2] الأمر الذي ساهم في توطيد العلاقات بالممالك الإسلامية في تلك الربوع، و ساعده على الوقوف في مواجهة الأخطار،فتوثقت الصلات و الروابط اكثر،و نشطت الحركة التجارية و تضاعف عدد المسافرين و التجار ، فوجد دعاة الطريقة السنوسية بغيتهم في هذه القوافل فصحبوها و ساروا في ركابها حتى ولجوا دواخل القارة و وقف دعاتهم في وجه المبشّرين المسحيين و أعاقوا نشاطهم و بدّدوا أحلامهم و مكّنوا لسلطان السنوسية في الكثير من أقاليم تلك الربوع، فشعر الفرنسيون بالخطر يهددهم و مصالحهم ليس في افريقيا جنوب الصحراء فحسب بل في انحاء كثيرة من البلاد العربية و الإسلامية،و قد كتب أحدهم عن السنوسية قائلا : " ***السنوسيون هم أعداؤنا الحقيقيون، و لا يمكن ان نستخف بهم ، و لكن الأحسن ان نراقبهم عن كثب في كل نشاطاتهم و تحركاتهم*** "[3]

كما عبّرت السلطة الفرنسية عن قلقها و مخاوفها من امتداد المهدية الى الجزائر، و اتهام السنوسيين بأنهم وراء ذلك [4].

و الحق ان الدعوة السنوسية كانت نشيطة في افريقيا و كان دعاتها يجوبون الصحراء و يبثّون الدعوة ضد الإحتلال الفرنسي،و كان لهم دور في تشجيع الثورات كثورة بوعمامة مثلا[5]

و اثناء مقام محمد المهدي بواحة الكفرة لم يتوقف عن نشاطه بل ازداد حيوية في بث دعوته و أفكاره بتلك النواحي و تمكن من نشر الإسلام في أواسط افريقيا عن طريق كل من " ***وادای*** " و "***برنو***" و "***كانم***" و "***ادمرا***" و "***الدهومي***"[*] و غيرها [6]، و بسبب تواجد المهدي في

---

(1) – لوثروب ستودارد : المرجع السابق، م 1 ،ج 2 ، ص ص 141-142.

(2) – Ernest Mercier :O P.cit., P. 11

(3) – Deporter :L'aquestion du Touate au sahra Algerien ,Alger, 1891, P. 40.

(4) – بيار بوايي : (الإدارة الجزائرية و التهديد المهدي 1882– 1885)، المجلة التاريخية المغربية، عدد12، جويلية 1978، ص 226.

(5) – د/ يحي بوعزيز :المرجع السابق، ص 248.

(*) – الداهومي : جمهورية، بنين الحالية.

(6) – د/ نعوم شقير : المصدر السابق، ص 151.

الكـــفرة من جانب و كون الحركة عملية من جانب آخـر، ازداد النشـاط و توسـع العمـران و نمـت الثقافـة فارتفت عقول النّاس و سمت نفوسهم، اذ أسس الخليفة بهذه الواحة زاوية عظيمة أطلق عليها اسـم "***التـاج***" و جعل منها مقرا له، كما بنى زوايا أخرى في واحات "***الوجنقات***" "***ون***"، و "***قرو***"، و "***عين جلك***"، "***بئر علالي***"[1] و غيرها، و بذلك انتشرت الثقافـة و عـم الوعـي و عمـرت الواحـات و استيقظ النّـاس مـن غفلتهم و لذلك شغل أفكار الإستعمار و جذب انظاره و خاصة الفرنسي منه.

المواجهة مع الفرنسيين :

أمام تقدم النشاط الإستعماري الفرنسي الذي ازداد خصوصا بعد حرب السبعين في اروبا،ليشـتد بعـد عقد مؤتمر برلين في ما بين (1884-1885م)، في المنطقة، قرر المهدي التقـدم الى "***قـرو***" ـ جنـوب الكفـرة ـ حتى يكون قريبا من حلبة الصراع الفرنسي السنوسي ـ ليتمكن من دراسة الوضع عن قرب و وضع الترتيبات اللاّزمة و الإشراف بنفسه عن كثب و للإستعداد لمواجهة الزحف الفرنسي القادم من بحيرة تشاد .

فبعـد مقتـل الداعيـة المجـاهد رابـح الزبـير في ربيـع (1317هـ افريـل 1900م)[*] علـى يـد القـوات الفرنسية، تقدمت هذه القوات نحو بئر علالي، حيث كان السنوسيون قد جمعـوا حاميـة كبـيرة مـن المجـاهدين يقودها احمد الشريف ابن اخ المهدي بمساعدة شيخ زاوية الواحة "***محمـد البرانـي***" و علـى مشـارفها اسـتعد الطرفان للنزال.

خاض السنوسيون معركة حامية الوطيـس أبـدوا فيهـا مقاومـة باسـلة و شـجاعة نـادرة،غـير انهـم لم يصمدوا طويلا أمام الفرنسيين المزودين بالدخائر و بمختلف أسلحة الدّمار الحديثة و الجيوش النظامية، و بذلك سقطت زاوية بئر العلالي في ايدي الفرنسيين عام 1902م[2] و واصلوا بسط سيطرتهم منـذئد علـى المنطقـة، و استمر الصدام سنوات عديدة بعد ذلك بين الطرفين في السودان الأوسط عموما و بلاد تشاد خصوصا.

و في هذه الأثناء تشتدّ وطأة المـرض علـى السـيد المهـدي فيلتحـق بـالرفيق الأعلـى في يـوم 24 صفـر (1320هـ ، 2 جوان 1902) بزاوية "***قرو***" فخلفه في رئاسة الحركة السيد احمد الشريف [3].

و منذ هـذا التـاريخ توقـف نمـو الحركـة و تقلـص نفوذهـا، اذ وجهـت نشـاطها وفـق مـا تتطـلبه الظـروف و المستجدات التي عاشتها الساحة مؤخرا،و نقصد الحروب السنوسية الفرنسية الإيطالية، بالإضافة

---

(1) – لوثروب ستودارد : المرجع السابق، م2، ج3، ص 143.

(**) – انظر الفصل التاسع من هذا البحث.

(2) – د/ شوقي الجمل و آخر : تاريخ افريقيا الحديث و المعاصر، المرجع السابق، ص 81.

(3) – لوثروب ستودارد : المرجع السابق، م2، ج3، ص 144.

إلى استفزازات الإنجليز في السودان المصري[1].

و هكذا يمكن القول ان المهدي السنوسي بالرغم من انه وجد السبيل الى رئاسة الطريقة ممهدا بفضل مساعي والده و المخلصين من شيوخ الحركة، الاّ ان الظروف التي تولى فيها أمر الرئاسة كانت جد صعبة اذ حاقت الأخطار بالإمارة من كل جانب،لكن رغم حداثة سنه و قلة تجربته الاّ ان ذكاءه و اخلاصه و بذله الجهود مكّنه من المضي قدما في النهج الذي رسمه المؤسس الأول، فتمكن من اتمام ما بدأه والده فأصلح احوال المسلمين ليس في القطر الليبي وحده، بل فقد تخطى حدوده و راح بعيدا في تبليغ رسالة الإسلام الى عمق القارة الإفريقية، و عمق في نفوس الأفارقة مبادئ الإسلام و اللغة العربية و ثقافتها، و حلّ الكثير من المشاكل التي كانت تواجههم بفضل الزّوايا التي شيدها في تلك الربوع.

و رغم تعدد جبهات الجهاد و تشعبهاءفإنّه وفق الى حد بعيد في التصدي لتقدم بعثات التبشير بالمسيحية بين القبائل الإفريقية و شل نشاطها و عطل مفعولها، و لم تتوقف أعماله عند هذا الحدّ بل فقد امتشق سيفه و اعد جنده و رفع راية الجهاد ضد الغزو الإستعماري المدمّر الزّاحف على القارة، و لم يهادنه رغم قوته و جبروته الى ان وفاه اجله. غير ان شعلة الجهاد لم تخمد إذ رفعها خلفاؤه و استمروا في مقارعة الإستعمار في جبهات متعددة حتى كان منهم الشهيد عمر المختار، و ما شهادات الأروبيين إلاّ دليل على ذلك فالسيد دوفريجين " Defriguen " يقول[2] : "***ان السنوسية هي المسؤولة عن جميع اعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر،و هي المدبّرة لجميع نكبات فرنسا في الشمال الإفريقي و في السنغال*** " .

و يضيف قائلا[3]"***ان السنوسية هي أخطر أعداء نفوذنا (نحن الفرنسيين) ... و العقبة في سبيل توسعنا الإقتصادي و السياسي داخل افريقية و هي عائق في طرق اهدافنا في القارة الواقعة شمال خط الإستواء*** " .

لذلك و بناء على هذه الشهادة فلا شك ان السنوسية تختلف كثيرا عن الحركات الصوفية الأخرى اذ زاوجت بين نشاطين أساسيين، نشر الإسلام و مقاومة النفوذ الأجنبي بالسلاح من مواقع اجتماعية و ثقافية و عسكرية و هي الزّوايا.

---

(1) - د/ زاهر رياض : استعمار افريقيا، مرجع سابق، ص 159.

(2) - انور الجندي : المرجع السابق، ص 278.

(3) **انور الجندي : نفس المكان**

زوايا السنوسية

أولا : الزوايا المشيدة في عهد المؤسس

بعد استعراضنا لنشأة الحركة السنوسية و التطورات التي عرفتها على مختلف الأصعدة داخل القطر الليبي و خارجه سواء على مستوى نشر الدعوة الإسلامية و التمكين لها بين القبائل الوثنية، أو إصلاح أحوال المسلمين و تصحيح عقيدتهم و دفعهم إلى ممارسة العمل للرفع من مستوى معيشتهم و الرقي بحاجياتهم الإقتصادية و الإجتماعية، علاوة على تشييدهم للمنشآت العمرانية المتمثلة في الزوايا و لواحقها، سواء تلك التي أنشئت في عهد المؤسس أو خليفته.

هذا إلى جانب تكوين جيوش غفيرة من الطلبة و المعلمين، و اعداد مجموعة كبيرة من الدعاة و العلماء المصلحين، زيادة على ما خلّفه السنوسي الكبير من مؤلفات فكرية ضمنها أفكاره و آراءه في شؤون الدنيا و الدين. كما تطرقت إلى المشاكل و العراقيل التي واجهتها مسيرة الحركة منذ ظهورها و نموها و انتشارها على الساحة العربية و الإسلامية، و تمكّنها بفضل ما كانت تتميز به من مرونة و ما تتمتع به من تسامح في تخطي الكثير من العقبات و التخلص من المعوقات التي وقفت سدا منيعا في طريقها في محاولة صدّها عن مواصلة تحقيق أهدافها المرسومة لها، إلى غاية نضجها و تبلورها و بلوغها مصاف الحركات الإصلاحية الرائدة في العالم.

أما هذا الجزء من الفصل فقد خصصته للتعريف بالزوايا السنوسية المنتشرة عبر كثير من البلاد العربية و الإسلامية التي تمكّنت من وضع اليد عليها محددا موقعها الجغرافي، كما أشير فيه إلى شيوخها و مقدّميها، و قد قسّمته إلى قسمين : قسم خاص بالزوايا التي تم انشاؤها في عهد الإمام الأكبر "محمد بن علي السنوسي "، ثم أردفته بأسماء الزوايا التي أسست في عهد ابنه و خليفته الإمام الثاني السيد محمد المهدي و هذه الزوايا هي :

أ - زوايا الحجاز :

1 - زاوية جبل أبي قبيس بمكّة المكرمة : و هي باكورة الزوايا السنوسية تأسست عام (1253هـ، 1837م)[1]، و أول شيوخها هو العلامة السيد عبد الله التواتي. و من بين من تولى مشيختها بعده مصطفى الغماري، حامد غانم المكاوي، علي حامد، الشارف حامد و الصادق السنوسي حامد.

2 - زاوية المدينة المنوّرة : أنشئت سنة (1266هـ، 1848م)، و كان أوّل من تولى مشيختها السيد محمد بن الشفيع، محمد الغماري، محمد عبد الله الزوي، و عبد السلام فركاش. و لا يقل دور هذه الزاوية عن سابقتها في نشر الدعوة السنوسية و التعريف بها، و خصوصا في مواسم الحج إذ كان شيوخها يتّصلون بالزوار و يعرضون عليهم مبادئ الطريقة .

---

(1) - د/ عبد العظيم رمضان : المرجع السابق، ص 192.

3- زاوية جدّة (الحجاز) : و قد قامت بدورها أحسن قيام منذ نشاتها في التعريف بمبادئ الطريقة و كسب الأنصار و المريدين، و اشتهرت بفضل موقعها الإستراتيجي. إذ كانت جدّة مركز الأنشطة التجارية و محط رحال الحجاج و المعتمرين في مقدمهم إلى الحجاز و مغادرتهم إياه بعد أداء مناسك الحج و العمرة، فاحتلت بذلك الزاوية شهرة داخل البلاد و خارجها.

4 - زاوية الطائف : (الحجاز)

5 - زاوية منى : (الحجاز)

6 - زاوية بدر : (الحجاز)

ب - زوايا القطر الليبي :

1 - الزاوية البيضاء : (برقة) تم بناؤها سنة (1257هـ، 1841م)، و تعد المركز الرئيس للزوايا في ليبيا، و أول من تولى رئاستها السيد محمد بن محمد الفيلالي، و من بين من تولى مشيختها السادة حمدان بن بركة الفيتوري، حسين الغرياني، محمد بن ابراهيم الغماري، العلمي الغماري و محمد العلمي الغماري.

و حازت البيضاء شهرة كبيرة و علا نجمها ليس في شمال إفريقيا فحسب، و ذلك للدور الذي لعبته في ارساء دعائم نشر الدعوة و مبائ الطريقة و تعليم الناس و تهذيبهم.

2 - زاوية مارة : (برقة) و أول شيوخها العلامة السيد عمر الأشهب، و كذا كل من محمد علي أبو سيف، أحمد بن ادريس الأشهب، عبد الله ابو سيف.

3 - زاوية درنة : (برقة) و اول من اعتلى مشيختها العلامة السيد عمر الأشهب، و كذا مفتاح خوجة و عبد الرحمن العوال.

4 - زاوية الجوف : (واحة كفرة)(*) و قد قام ببنائها و عمارتها السادة الحاج مصطفى ابو شايدة و الحاج محمد ابو خليفة و عقيلة الحليق، بتكليف من الإمام الأكبر، و لم يبخلوا بجهودهم في تأسيسها، و ذلك بعد ان تم اجلاء قبائل " زوية " العربية، اذ كان يتناوب على المنطقة قبائل ثلاثة كل تدعى ملكيتها، قبائل "التبو " من شمال السودان. و قبائل " الجهمة " من مصر، و قبيلة " زوية " من برقة، و كانت الكفرة يومئذ مأوى للفجار و الدعارة و ركنا حصينا للنصوص و قطاع الطريق، لذلك شكلت خطرا على عابري السبيل و قوافل التجارة و الحج، حتى انشئت بها الزّاوية السنوسية، فصارت ملجأ كل ضال،و استتب بها الأمن و صارت دار سلام و مركز هداية و علم و عرفان، فأثارت بذلك قريحة الشعراء. و في وصفها قال الشاعر محمد بن عبد الله السني قصيدة جاء فيها :

طابت وطاب بها المأوى لذى شجن *** دار السلامة للإسلام مهتجر

(*) - انظر الشكل، 8 ص16.5.

تأوي الوفـــود لها من كـــل ناحية *** مأوى الحجيج إذا ما جاء يعتمر

و من خلال هذه الأبيات يتضح ان الواحة اصبحت دار هجرة و سلام،و صارت عامرة بصنف آخر من النّاس يخالف ذلك الذي كان يعمرها من قبل، و تقاطر عليها النّاس من كل حدب و صوب حتى شبه الشاعر الزّائرين لها بحجاج البقاع المقدسة و معتمريها، و أول من عين على مشيختها السيد الفاضل عمر ابو حواء الفضيل، و كذلك كل من عبد الهادي الفضيل و محمد عمر الفضيل.

5 – زاوية قفنطة : (برقة) و أول شيوخها المختار بن عمور، و استمرت المشيخة في عقبه.

6 – زاوية شحات : (برقة) تم بناؤها عام (1261هـ 1845م) و أول شيوخها مصطفى الدردفي و رافع بدر فركاش و غيرهما.

7 – زاوية العرقوب : (برقة) و أول من عين على مشيختها و الأشراف عليها الشيخ محمد الجبالي .

8 – زاوية مسوس (*) : (برقة) و أول شيوخها السيد أحمد علي ابو سيف و في (1271هـ، 1854م) تولاها كل من عمر الأشهب، السنوسي الأشهب، و محمد يحي و غيرهم.

9 – زاوية الطلمون : (برقة) أول شيوخها مصطفى المحجوب، ثم علي المحجوب، ثم أحمد محمد المحجوب.

10 – زاوية القصور : (برقة) و تولى مشيختها محمد المبخوث التواتي، ثم السيد محمد مقرب حدوث، فالشهيد عمر المختار.

11 – زاوية المرج : (برقة) أول شيوخها احمد بن سعد ثم علي العابدي، ثم محمد السكوري، ثم محمد بن عبد الله التواتي، ثم عمران السكوري فابنه احمد.

12 – زاوية بنغازي : (برقة) أول شيوخها عبد الله التواتي، ثم عبد الرحيم بن أحمد المحجوب، و كذلك محمد ابو القاسم العيساوي، فصالح العوامي ثم أحمد أبو القاسم العيساوي.

13 – زاوية مرزق : (فزان) أول شيوخها أحمد أبو القاسم التواتي.

14 – زاوية واو : (فزان) أول من باشر مشيختها السيد أحمد ابو القاسم التواتي، كما تولى مشيختها بالوكالة محمد بن الشفيع، ثم أسندت الى محمد علي بن عمر الأشهب، ثم نجله نجم الدين.

15 – زاوية زويلة : (فزان) كانت تحت اشراف أحمد ابو القاسم التواتي.

16 – زاوية هون : (واحة الجفرة) و كان أول شيوخها أحمد بن علي بن عبيد.

17 – زاوية مزدة : (طرابلس) أول من تولى مشيختها هو عبد الله السني و تواصلت المشيخة في عقبه.

(*) – أول من تولى زاوية مسوس هو الشيخ فهيد العافوري بالنيابة عن السيد أحمد علي أبو سيف.

18 – زاوية طبقة : (طرابلس) أول شيوخها محمد الأزهري و استمرت في عائلته.

19 – زاوية الغزيات : (برقة) تأسست عام (1270هـ،1853م)، تولى مشيختها عمر جالو. و عدّل الشيخ السنوسي اسمها تيمنا " العزيات "، فاستقام حالها و عرفت منذئذ بهذا الإسم، و هي عبارة عن قصر قديم رممه الشيخ و أقام به نحو سنتين يدعو النّاس لسلوك الطريقة[1].

20 – زاوية المخيلي : (برقة) أول شيوخها السيد الحسين الحلاني و استمرت المشيخة في اسرته.

21 – زاوية تازربو : (واحات الكفرة) تولى مشيختها عدد من الشيوخ منهم محمد المدني.

22 – زاوية ربيانة : (واحات الكفرة) أول من تولى مشيختها حسين يازامة و استمرت رئاستها وراثية في عقبه.

23 – زاوية دريانة : (برقة) أول شيوخها هو ابراهيم الغماري، ثم استمرت في أسرته إذ خلفه نجله الحسن ثم حفيذه محمد الحسن الغماري.

24 – زاوية سوكنة : (واحات الجفرة).

25 – زاوية الرجبان : (طرابلس) أول شيوخها ابو القاسم العيساوي و استمرت المشيخة في أسرته.

26 – زاوية تونين غدامس : (طرابلس) أول من تولى مشيختها الشريف الغدامسي.

27 – زاوية طلميثة : (برقة) تعاقب على مشيختها عدد من الشيوخ منهم محمد الكليلي.

28 – زاوية توكرة : (برقة) من بين من ترأسها عبد الله الجيلاني، عبد الله الفضيل و يونس الموهوب و غيرهم.

29 – زاوية أم ركبة : (برقة) من بين من قام على مشيختها علي بن عبد الله.

30 – زاوية الفايدية :(برقة) أول شيوخها اسماعيل الفزاني و استمرت المشيخة في عقبه.

31 – زاوية الجغبوب : (برقة) و تعد من أهم الزوايا بعد البيضاء (أم الزوايا)[2] و قد تم التعريف بها سابقا.

32 – زاوية ترت : (برقة) أول شيوخها عبد القادر الفزاني و استمرت المشيخة في نسله

33 – زاوية دفنة : (برقة) أول من تولى مشيختها حسين الغرياني و دامت المشيخة في عقبه.

34 – زاوية أم الرزم : (برقة) أول شيوخها المرتضى فركاش، ثم ابنه المرتضى الثاني، فالأمين فركاش ثم محمد الأمين فركاش.

35 – زاوية مصراتة (طرابلس) : و أول شيوخها خليفة شنتيخ.

---

(1) – بطرس البستاني : (دائرة المعارف)، مرجع سابق، المجلد 10. ص.147

(2) – د/ عبد العظيم رمضان : المرجع السابق، ص 192.

36 – زاوية زليتن : (طرابلس).

37 – زاوية زلة : (طرابلس).

جـ زوايا القطر المصري:

1 – زاوية سيوة: (مصر) أول شيوخها هو العلامة أبو القاسم التواتي، ثم خلفه شيوخ آخرون.

2 – زاوية الزيتون : سيوة (مصر) لم يعين عليها شيوخ بل كانت تابعة لمشيخة أحمد أبو القاسم التواتي شيخ الزّاوية السالفة الذكر.

3 – زاوية الواحات البحرية : (مصر) أول من كان على رأس مشيختها محمد السكوري، و قد نال شهرة واسعة في الوجه البحري بالقطر المصري.

4 – زاوية الداخلة : (مصر) أول من أشرف على مشيختها حسين الموهوب الدرسي

5 – زاوية حوش عيسى : (مصر)

6 – زاوية الفيوم : (مصر) .

7 – زاوية أم الرخم : (مصر).

8 – زاوية النجيلة : (مصر)

9 – زاوية الحقنة : (مصر).

10 – زاوية باب الحديد القاهرة : (مصر) [1]

د – زوايا القطر التونسي :

1 – زاوية الجريد : (تونس) و أول شيوخها احمد بن صادق[2] .

و نستشف من الكتبات التي تعرضت بالحديث الى الحركة السنوسية في القطر التونسي ان الزّوايا كانت كثيرة و خاصة في الجنوب،إذ في حديثها عن هذه المراكز كانت تستعمل صيغة الجمع، لذلك فاننا نستبعد وجود زاوية واحدة خاصة و نحن نعلم مرور السنوسي نفسه في الجنوب التونسي، و هذه الزواية السابقة هي التي أنشئت في حياة مؤسس الطريقة الأول، غير انه مما لا يرقى الشك اليه ان الزّوايا التي تأسست في هذا العهد تتجاوز هذا العدد بكثير، بناء على الأرقام التي اشرنا اليها سابقا (300 زاوية). و حتى و ان كانت هذه فقط فهي ليست بالقليلة .

و بعد ان اتينا على الزوايا السنوسية في عهد المؤسس سنتطرق فيما يأتي إلى الزّوايا التي تأسست في عهد الخليفة .

---

(1) – بطرس البستاني : دائرة المعارف، المجلد 10، دار المعرفة، بيروت بدون تاريخ، ص.147

(2) محمد الطيب بن ادريس الأشهب : المرجع السابق، ص.ص 33،36.

ثانيا - الزوايا المشيدة في عهد الخليفة محمد المهدي :

أ - زوايا القطر الليبي :

1 - زاوية الحنية : (برقة) تولى رئاستها شيوخ كثيرون منهم أحمد ابو القاسم العيساوي.

2 - زاوية الحمامة : (برقة) و من ابرز شيوخها السنوسي الغماري .

3 - زاوية طرابلس : (المدينة) و تعد من الزوايا الهامة بالمنطقة أنشئت عام (1300هـ، 1881م) أول شيوخها عبد الوهاب ابو القاسم العيساوي و محمد أحمد العيساوي، ثم ابو القاسم عبد الوهاب.

4 - زاوية الحرابا : (طرابلس) .

5 - زاوية غدامس : أول شيوخها هو محمد الحبيب.

6 - زاوية خشم رزيق : (برقة) أول شيوخها الحبيب بن جلول

7 - زاوية ميراد مسعود : (برقة) و تعاقب على مشيختها سعيد الفحاصي ، محمد أبو زيد، محمد أبو نجوى الفحاصي ، و محمد الهاشمي .

8 - زاوية القصرين : (برقة) من بين أبرز شيوخها محمد العربي .

9 - زاوية سرت : (خليج سدرة) و اول من ترأسها السيد محمد بن الشفيع .

10 - زاوية النوافلية : و أول شيوخها أحمد بن ادريس الأشهب ، ثم نجله محمد علي.

11 - زاوية غات : (فزان).

12 - زاوية أم الجرفان : (برقة) و من بين شيوخها الشيخ الجليل محمد الشارف.

13 - زاوية أم حفين (برقة) : و من بين شيوخها محمد أبو فارس و ابنه سعد.

14 - زاوية مرتوبة (برقة) : و أبرز شيوخها سعيد فركاش، ابنه عبد الله، ثم الشريف الغزالي.

15 - زاوية العرق : (واحة جالو) أول شيوخها محمد جنينة .

16 - زاوية الليه : (واحة جالو) أول شيوخها عبد الله التواتي ثم نجله عبد الرحمن.

17 - زاوية بزيمة : (واحة الكفرة) أبرز شيوخها احمد فكرون.

18 - زاوية الهواري : (الكفرة) و من الذين تعاقبوا على مشيختها الفضيل السنوسي.

19 - زاوية التاج(*) : (الكفرة) و هي المركز الرئيس بعد الجغبوب، أنشأها السيد محمد المهدي سنة (1313هـ1895م) و رحل اليها و ترك شقيقه بالجغبوب، و تعد التاج من أهم الزوايا التي انشأها المهدي، و بعد اتمام بنائها استهوت افئدة الشعراء فجادت قرائحهم بقصائد خلدت هذا المركز و صاحبه، و فيها قال الشاعر و الأديب مقرب حدوث البرعصي :

(*) انظر الشكل 8، ص 165.

الا يا حداة العيس حثوا الى التاج *** لنغنم مرأى مشرق الوجه والتاج

وجدوا لإسعادي وجدوا لطيبتي *** مالي سوى تقبيل يمناه من حاج

فكم نازح نال المنى من حدائكم *** مطابا تخوض الآل والمظلم الداجي

فيا زاجريها في الدياجي نواجيا *** سيحمد دلاج السرى المدلج الناجي

و فيها أيضا قال أحمد بن ادريس الأشهب يمدح المهدي :

ولبسك للتاج القديم محقق *** كما أن سكنى "التاج" جاءك بالأمر

20 – زاوية جخرة : (برقة) و من أشهر من تولى رئاسة مشيختها عبد الكريم صالح.

21 – زاوية ام شخنب : (برقة) و كان أول شيخ لها هو الأديب محمد بن علي المولى ثم ابنه محمد عابد.

22 – زاوية اسقفة : (برقة) و أول شيخ لها هو محمد الغماري.

23 – زاوية القطفية : (برقة) أبرز رؤسائها عبد اللطيف النعاس و نجله محمد الزروالي ثم عبد الله الفضيل.

24 – زاوية النيان : (برقة) و أول شيوخها العربي الغماري.

25 – زاوية مرادة : (برقة) و أول شيوخها محمد الرويغي و الشارف الغرياني.

26 – زاوية اوجلة : (واحة اوجلة) و تعاقب عليها محمد بن سبيع ثم أبو القاسم بن سبيع.

27 – زاوية المرازيق : (برقة).

28 – زاوية أنتلات : (برقة) أبرز شيوخها العربي الغماري.

29 – زاوية قرى بربى : و من شيوخها عبد الله الكليلي.

ب – زوايا القطر المصري :

1 – زاوية القصر : (الواحات مصر).

2 – زاوية منديشة : (الواحات مصر).

3 – زاوية الفرافرة : (مصر).

4 – زاوية القلمون : (الواحات مصر).

5 – زاوية شماس : (الصحراء الغربية مصر).

6 – زاوية المثان : (الصحراء الغربية مصر).

جمعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

7- زاوية البراني : (الصحراء الغربية مصر).

8 - زاوية فوكة : (الصحراء الغربية مصر).

9 - زاوية النجيلة : (الصحراء الغربية مصر).

10 - زاوية اقرمي سيوة : (مصر).

11 - زاوية السيوح سيوة : (مصر).

جـ - زوايا الحجاز :

1 - زاوية الودنة : (الحجاز).

2 - زاوية العيص : (الحجاز).

3 - زاوية الحسينية : (الحجاز).

4 - زاوية ينبع البحر : (الحجاز).

5 - زاوية رابغ : (الحجاز).

6 - زاوية السريانية : (الحجاز).

7 - زاوية القارعة : (الحجاز).

د - زوايا تشاد :

1 - زاوية الوجنقة الكبرى : (تشاد).

2 - زاوية الوجنقة الصغرى : (تشاد).

3 - زاوية بئر العلالي : (تشاد).

4 - زاوية قرو (تشاد) : و من اشهر شيوخها محمد السني .

5 - زاوية عين جلك أو " كلك" (تشاد) : و اول شيوخها عبد الله طوير.

هـ - زوايا نجيريا :

1 - زاوية كانو (*) : (شمال نجيريا).

2 - زاوية زاريا (*).

(*) - أنظر الشكل رقم (5)، ص 88.

و - زوايا السودان العربي :

- زاوية الفاشر [*] : (السودان) و من أشهر شيوخها " أبو بكر الغدامسي ".

ي - زوايا القطر الجزائري :

1 - زاوية مستغانم : (الجزائر) أوّل شيوخها " أحمد بن تكوك " و استمرت الرئاسة في أسرته [1].

2 - زاوية تيديكلت : (منطقة توات) جنوب الجزائر.

3 - زاوية عين صالح : (الجزائر).

4 - زاوية مازونة : (الجزائر).

5 - زاوية المجاهر [2].

و رغم قلّة عدد الزوايا التي تمكّنت من حصرها في الجزائر فإن نشاط الحركة السنوسية قد زاد في البلاد لاسيما بعد وصول بعض الشخصيات الجزائرية لمناصب قيادية عليا في صفوف الحركة، ففي مطالع القرن الرابع عشر الهجري، نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وصل الشيخ محمد التواتي إلى منصب قاض و كاتب للشيخ محمد المهدي السنوسي و المشرف على الزاوية السنوسية حينئذ بواحة جغبوب. و وصول السيد محمد البسكري" إلى منصب وزير للسنوسي. و من هنا فلا شك أن زوايا السنوسية بالجزائر كانت أكثر مما ذكرنا.

و الحق أن الحركة السنوسية لم يقتصر دورها على خارج القطر الجزائري بل فقد لعبت دورا في التربية و الإصلاح و خاصة في جنوب البلاد، فقد نظّمت القبائل و وحدتها، الأمر الذي أشعر فرنسا بالخطر يهدد مصالحها التبشيرية و الإستعمارية في الصحراء، مما دفعها إلى توجيه التهم للمشرفين على زاوية عين صالح و وصفهم بالأعداء الخطيرين، و حذر الضابط " ديبورتر " " Deporter" من التقدم السريع الذي أحرزوه في الجنوب، و رأى ضرورة مراقبة السنوسيين عن كثب[3]، و من هنا يتّضح أن الزوايا السنوسية كانت تشكّل خطرا حقيقيا على الوجود الأجنبي كما يتضح أن هذه الزوايا كانت متواجدة على الساحة الجزائرية بالرغم من أن السنوسية لما شرعت في بناء بواكر هذه المراكز كانت البلاد قد بدأت تخضع للإستعمار الفرنسي، و الجدير بالإشارة أن الزوايا السنوسية كانت كلها منارات إشعاع و مراكز للحركة تقوم بالدعوة

(*) - أنظر الشكل رقم (11)، ص

(1) - محمد الطيب بن إدريس الأشهب : المرجع السابق، ص.ص 36، 39.

(2) - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج4، ص 270.

(3) - Deporter : op.cit.p 40

و الإرشاد و التربية و الإصلاح و حل المشاكل، غير أنها كانت تتلقى الأوامر من زاوية رئيسة تمثل مركز القيادة، و قد تغيرت هذه المراكز لمرات عديدة لظروف سبقت الإشادرة إليها، و في ما يأتي نحدد هذه المراكز حسب الأهمية و التسلسل الزمني في تولي القيادة و الرئاسة :

- الزوايا الرئيسة :

- زاوية أبي قبيس : (مكّة) أول زاوية تولت الرئاسةباعتبارها أوّل مركز للحركة و لوجود شخص الإمام المؤسس بها.

- زاوية البيضاء : و قد تولت الرئاسة العامة منذ انتقال المركز إليها و ذلك عام (1257هـ، 1841م) حتى سنة (1262هـ، 1845م)، و هي المدة التي أقامها محمد بن علي بها، ثم انتقلت الرئاسة العامة للمرة الثانية إلى " أبي قبيس " بعد انتقال الشيخ إلى هناك، حيث مكث إلى غاية (1269هـ، 1852/ 1853م)، و في هذا الوقت اقتصر رئاسة البيضاء على الزوايا القائمة في ليبيا.

- زاوية الجغبوب : انتقلت إليها الرئاسة بانتقال الإمام إليها و اتخاذها مقرا له، و قد استمرت من (1273هـ، 1856م) إلى غاية (1312هـ، 1894/ 1895م).

- زاوية التاج : و قد تولت الرئاسة بعد وفاة الإمام المؤسس، بانتقال الخليفة محمد المهدي إليها و دامت حتى عام (1317هـ، 1899م).

- زاوية قرو (تشاد) : و قد انتقلت إليها الرئاسة بانتقال شخص الخليفة محمد المهدي و استمرت حتى عام (1321هـ، 1902م).

و الملاحظ أن الجغبوب بقيت محتفظة بطابعها المميز و مركزها الخاص و ذلك لإحتوائها على أحد أكبر منجزات الحركة، و المتمثل في المعهد العالي الذي شيد بها هذا من جهة، و لضمّها ضريح الإمام المؤسس الذي يكن له كل أتباع الطريقة الإحترام و التقدير إلى حد التقديس عند بعضهم من جهة أخرى، لكل ذلك بقيت هذه الأخيرة محل اهتمام كبير من قبل الأسرة والأتباع و قد صدق الشاعر العربي إذ يقول :

كم من منزل يألفه الفتى *** وحنينه أبدا لأوّل منزل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خاتمة الفصل :

و بعد استعراضنا الحركة السنوسية التي قادها المصلح الجزائري محمد بن علي السنوسي و ابنه المهدي من بعده، و التي كانت من ابرز الحركات الإصلاحية الإسلامية في العصر الحديث لمزجها بين التصوف والإصلاح، إذ كانت منذ انطلاقتها الأولى دعوة توحيد و تنظيم إجتماعي و تربوي جانب أخطاء و انحرافات الطرق الصوفية، و بذلك استطاعت هذه الحركة أن تكوّن جيلا قادرا، قاد حركة تصحيح الدين الإسلامي و نشره داخل إفريقيا و خارجها، و بناء دولة مزجت بين تعاليم الإسلام و تطورات العصر،فاستقامت أحوال المجتمع البدوي الإفريقي واندفع للعمل و الإنتاج في جو يسوده التعاون و التآخي بفضل ما غرسته الحركة فيه من رو ح الإسلام الحنيف فاستقام سلوكه،و حققت بذلك الحركة نموا اقتصاديا و رقيا اجتماعيا ملحوظا، كما كانت هذه الدعوة منذ بدايتها رد فعل إيجابي لمعالجة الأحوال المتردية داخل المجتمعات الإسلامية من جهة، و النهوض بالإسلام و دفع المسلمين لمقاومة التحدي الإستعماري الأروبي الزاحف على العالم الإسلامي من جهة ثانية.

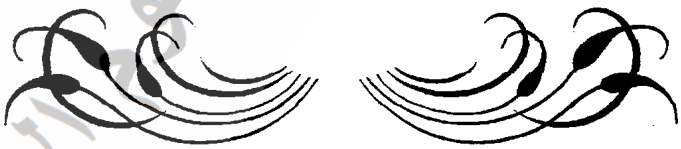
و تبدو السنوسية متميزة عن حركات التوحيد و الإصلاح الأخرى، فقد وجهت هذه الأخيرة عنايتها إلى التربية أولا، و لم تتجه إلى العمل السياسي إلا بعد وقت ليس بالقصير. و بمزجها بين التوحيد و التصوف و التربية، تمكّنت من بناء الشخصية الإسلامية في عصرها بفضل أخذها من فقه العلوم الإسلامية ما يفتّح الأذهان و يبصر العقول، و من الصوفية ما يروّض النفوس و يهذّبها فتزداد صلابة، و من التربية ما يجسّد الأثنين فيظهرهما على أرض الواقع، و من هنا وفّقت إلى الوقوف أمام حركة التبشير و الغزو و ظلت تقارعهما في كل مكان،خاصة لما عمدت إلى شراء العبيد و تكوينهم و تحريرهم بعد ذلك، و هذا ما أحدث انقلابا خطيرا على الوثنية في افريقيا، و كان انبعاثا لصالح الإسلام و المسلمين، و بفضل ذلك زادت الزوايا السنوسية انتشارا حتى بلغت جوف الصحراء الإفريقية، فكانت بمثابة سفارات و مراكز سياسية و اقتصادية و اجتماعية و ثقافية لاسيما في عهد محمد المهدي.

و من المعروف عن السنوسي الكبير حرصه الشديد منذ انطلاق دعوته على اقامة وحدة اسلامية متكاملة، فتعامل مع دولة الخلافة بمرونة و بكل حيطة و حذر، و لما كان هذا هدفه الأساسي فقد طرح التعصب و رفض العمل بالمذهب الواحد، و مزج بين المذاهب السنية الإسلامية،و أضاف إليها ما استنبطه من الشريعة بفضل اجتهاده،و شكّل من هذا الرصيد منهجا واحدا كان مرآة تنعكس عليها المذاهب العديدة، و بذلك اعتبر السنوسيون مذهبهم هو حوصلة المذاهب الإسلامية السابقة، و بهذا حرر المصلح الفكر الإسلامي من الجمود و التقليد المطلق و التسليم العاجز و تطهير السنة النبوية الشريفة من دخيل القول و أساطير الجهال و شطحات الطرق الصوفية المنحرفة الزاعمة بأن الدين الإسلامي دين الزهد و البعد عن الدنيا،و ليس من شأنه و اهتماماته المادة.

و هكذا نبّه السنوسي الإنسان المسلم إلى خطر التواكل الذي دفعه إلى الإعتماد على غـــيره في رزقـه، و بهذه الوخزة استعاد المسلم حيويته و زاد تمسّكا بالإسلام، حيث وجـد فيـه الحلـول لمعضلاتـه المتجـدد ة في الزمان و المكان.

و يبدو أن السنوسي قد استفاد من دروس الحركات الإصلاحيـة السـابقة فتجنّـب أخطاءهـا و سـلك سلوكا سلميا بعيـدا عـن العنـف لتحقيـق أهدافـه بالإعتمـاد علـى التربيـة العلميـة و التطبيـق العملـي للشـريعة الإسلامية، لذلك كانت حركته عميقة الجذور ثابتة المبادئ واسعة الإنتشار، إذ لم يكتـف في دعوتـه بـالتوحيد إنّما توغّل في عمق المجتمع الإفريقي و مسّ جوانبه المختلفة المعنوية و المادية لإيمانه الراسخ بأن الإســـلام ديـن و دولة.

و بذلك يمكن القول أن حركة المصلح " محمد بن علي " مدرسة نموذجية لتجديد الإسلام و بعثه، مما أعطى لحركته ميزة خاصة أقلقت الدول الأروبية المسيحية التي أوجست خيفة منهـا،فـأخذت ترقبهـا هـذا مـن ناحية، كما جعلت منها حركة تحتل صدارة الحركات الإصلاحية الإسلامية من ناحيـة أخـرى،لكونهـا دعـوة بسيطة و مرنة تتماشى مع الفطرة السليمة للإنسان المسلم و بعيـدة عـن العنـف و الجمـود و التطـرف، لذلـك كانت مصدر إلهام و قدوة للحركات الإصلاحية الإسلامية التي أعقبتها.



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل السادس :

حركتا الشيخين الحاج عمر تال و ماباجاخوبا و جهودهما في نشر الإســـلام و مقاومة الاستعمار



الشكل (9أ)



الحاج عمر تال

صورة الحاج عمر

عن د/ عامر صمب، الأدب السنغالي العربي، ج2، ص 423

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بعد تعرضنا في الفصل السابق للحركة السنوسية والدور الذي قامت بـــه في نشـــر الإســـلام وتصحيح فاهيمه في أذهان الناس، ومنهج السنوسي وخليفته من بعده في الإصلاح والتجديد الذي جمع بين مناهج الصوفية والمنهج العملي الذي يدعو إليه الإسلام، فأخرج الصوفية من الانعـــزال والزهـــد المفرطين، كما رأينا دور دعاة الحركة في التعليم والتوعية والتنظيم والتوجيه والإصلاح، حتى كللت كل هذه المجهودات بإنشاء الزوايا السنوسية، التي لعبت دورا كبيرا في توسيع قاعدة انتشار الإسلام في عمق القارة الإفريقية، ومقاومة التخلف والوثنية والتبشير والاستعمار.وقد برهن الشيخ السنوســـي بآرائـــه وعمله وإنجازاته على أن الإسلام دين ودولة.

وقد كان لدور الدعوة السنوسية والدعوات التي سبقت وخاصة دعوة الشيخ "عثمان" الأثـــر البالغ في ظهور الحركات الإصلاحية الإسلامية الأخرى، ولاسيما في إفريقيا الغربية، وذلـــك لوقـــوع المنطقة في النطاق الجغرافي الذي ظهرت على أديمه دعوة الشيخ عثمان.

وسأتطرق في هذا الفصل إلى حركتين إصلاحيتين إسلاميتين قامتا في غرب القارة، وقد قسمت الفصل إلى جزأين سأتطرق في الجزء الأول منه إلى حركة الحاج عمر بن سعيد الفوتي، وجهوده في نشر الإسلام وإصلاح أحوال المسلمين، علاوة على إنشائه للدولة ومقاومة الاستعمار بمعية ابنـــه "أحمـــدو شيخو".

أما الجزء الثاني من الفصل فسأسلط فيه الأضواء على حركة مغمورة هـــي حركـــة الشـــيخ ماباجاخوبا "Mabagakhouba"المشهور بمابا، الذي قام بمهمة الاصلاح ونشر الإسلام وتنقيته مما علق به من شوائب في عمق الغرب الإفريقي وإصلاح أحوال المسلمين هناك.

أ- حركة الحاج عمر تال بن سعيد الفوتي (1221هـ/1797م/1280هـ/1864م):

رأينا في فصل سابق أن حركة عثمان بن فودي قد ذاع صيتها وانتشر في أصقاع واسعة مـــن غرب إفريقيا، وأسفرت هذه الحركة الإصلاحية عن إنشاء دولة إسلامية قامت على كواهل الأفارقـــة المسلمين الذين اتبعوا الشيخ عثمان وتبنوا حركته في الجهاد والإصلاح، من أجل توسيع رقعة الإســـلام إلى المناطق التي ظلت بعيدة عن تأثيره وبلوغ الرسالة إلى حدوده.

أما في هذا الجزء من الفصل فسأعالج حركة أخرى بالمنطقة تلك هي حركة الحاج عمر بـــن سعيد الفوتي المشهور بـــ"تال" "Tal" وابنه أحمدو شيخو في الإصلاح ونشر الدعوة الإســـلامية بـــين الناس،وهذه الحركة هي استمرار لحركة عثمان دان فودي، وقد بدأ الحاج عمر نشاطه الدعوي مـــن خارج بلاده مباشرة بعد عودته من البقاع المقدسة ودخوله السودان الأوسط، وزاد نشاطه الدعـــوي

والحركي بعد دخوله إلى بلاده الفوتاتور "Foutatour" وذلك للأوضاع المتردية التي كان يعيشها الإسلام في المنطقة حيث نسي المسلمون مبادئ الدين الصحيحة، واتبعوا الأهواء فتفرقت بهم السبل وحادوا عن جادة الدين.

والحق أن الإسلام لم يكن غريبا عن المنطقة أودخيلا عليها أو حديث عهد بها، بل فقد انتقل إلى المنطقة من الشمال الإفريقي منذ القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي، وقد زاد في انتشاره وتوسع رقعته الدعوة التي حملها عبد الله ياسين وجماعته إلى منطقة السنغال وذلك خلال القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي.

وتعد الدعوة التي قام بها عبد الله بن ياسين نواة لقيام دولة إسلامية كبيرة هي دولة المرابطين التي كان أثرها كبيرا في نشر الإسلام في الصحراء وجنوبها، حتى أتى على المنطقة حين من الدهر، تخلى الناس فيها عن هذا الدين وأخلطوا به ما ليس منه، فجاء الداعية عمر تال إلى المنطقة ليجدد للناس دينهم ويصلح أحوالهم. فمن هو عمر تال؟.

حياته وأعماله :

كانت ولادته على حسب الروايات المتداولة في غرة شهر رمضان سنة 1211هـ/28 فيفري 1797م في قرية هلوار "ALOAR" ببلاد فوتاتورو "FOUTATOURO" بالغرب من كدى "KOUDDI" شرق مدينة بودور (*)"BUDOR" على الحدود السنغالية الموريطانية، وصار من أكبر المحاربين السنغاليين.(1)

وسعيد تال من شعب تكولور "TOCOULOR" من طبقة توروبي (الأشراف) وكان هذا الوالد من علماء السودان الغربي، اشتهر بالتقوى وسعة العلم والمعرفة وخاصة في العلوم الإسلامية، ولعب دورا مشهودا في الدعوة إلى الإسلام ونشره في حوض السنغال.

أما أم الداعية عمر تال فهي آدم سخنة(**)، وهي بدورها تنتمي إلى أسرة شريفة، وهكذا كان عمر سليل أسرة الأشراف من جهة الأب والأم.

(*) أنظر الشكل رقم 4، ص50.

(1) ٧- UYRVOY, X, op.-cit.p.110.

(**)- آدم سخنة: أي الشيخة آدم ومن السودانيات من كن إسمهن آدم، ومن هن الحسين، أنظر: د.عامر صنب، الأدب السينيغالي العربي، ج1، (ش.و.ن.ت) الجزائر 1398هـ/1978م، ص46.

تلقى عمر التعليم الأولي على يد والده فحفظ القرآن الكريم، وتعلم اللغة العربية قراءة وكتابة وتعرف على آدابها وبلاغتها، ثم أقبل على العلوم الدينية فتزود بزاد غير يسير من علوم التفسير والحديث كما درس التاريخ الإسلامي.

ولاشك أن هذا التعليم قد أثر فيه تأثيرا بالغا مما جعله في المستقبل أحد أبطاله الكبار

لم يكتف الحاج عمر بما درس على يد والده في مسقط رأسه، فانتقل إلى جامعة "بر" "BIR" للدراسة، فأخذ علوم التوحيد على يد علماء " ولاته " بموريتانيا، ثم دخل سلك الطريقة التيجانية التي كانت منتشرة في تلك الأصقاع على يد الشيخ "عبد الكريم الفوتاجلوني" الذي أخذ الطريقة بدوره على يد السيد أحمد بن محمد الشماخ[1] وقيل على يد محمد السقالي وذلك منذ (1231هـ/1815م)[2] وفي عام 1826 على أرجح الروايات[*] قام برحلة إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج[3] عن طريق شمال إفريقيا، فزار مدينة فاس وتلمسان والقيروان وبرقة ومكة المكرمة والمدينة المنورة.

ولاشك أن مروره بهذه الحواضر والتقائه بعلمائها قد زاد من علمه واتساع مداركه وسعة أفقه وفي أثناء وجوده بالبقاع المقدسة تعرف على خليفة ومندوب الطريقة التيجانية بالشرق "الشيخ محمد الغالي" ولازمه لفترة طويلة نسبيا حتى ترسخت في ذهنه تعاليم الطريقة وتوثقت العلاقة بينهما وازدادت رسوخا، فمنحه الشيخ إجازته وعينه شيخا مقيما وخليفة للطريقة التجانية على كامل الغرب الإفريقي[4].

كما تذكر بعض الروايات أنه التقى بالبقاع المقدسة بالشيخ "محمد بن علي السنوسي المستغانمي الجزائري" وتعلم منه الطريقة الخلوتية

وفي أثناء طواف الشيخ "عمر" ومروره بالحواضر الإسلامية بالحجاز احتك بعلمائها وأخذ عنهم العلوم والمعارف، فأتقن اللغة العربية وآدابها وأجاد كتابتها.

كما زار سوريا وبيت المقدس ونال فيهما من التقدير والاحترام ما يليق بعالم جليل[5]، ومما لا شك فيه أن مروره بهذه الحواضر وإقامته في الحرمين الشريفين كان لهما أثر لا يمحى في نفسه، فاشتد نشاطه لدينه وعزز إيمانه به وازداد حماسه لنشره وتصحيح مفاهيمه في الأذهان، وفي طريق عودته من الحج أقام أياما في القاهرة حيث تابع دروسا في الازهر الشريف[6] وهناك واجهته مشاكل عديدة في بعض المسائل الفقهية والإعتقادية من قبل علماء الأزهر.الذين لم يوافقوه في كثير من آرائه الفقهية

---

(1)- Robert et Marianne, Cornevin: Op – Cit p.168.

(2)- نعيم قداح: المرجع السابق، ص119.

(*) - تذكر هذه الروايات تواريخ مختلفة، ويؤكد الحاج عمر نفسه سنة 1826م، في ديباجه قصيده الذي مطلعه:
يقول قوتي ذاك الأفقر ... الكردي بن سعيد عمر
أنظر: د/ عامر صمب " الادب السنغالي العربي " ج1، ش.و.ن.ت الجزائر 1398هـ –1978م، ص60.

(3)- Gosset,(p.et r) Histoire Militaire de la Frique Occidontale Francaise, Imprimerie Nationale 1931, p37.

(4)- GOSSET (p.et,r) المرجع السابق, pp 37-38.

(5)- د/.عبد الرحمن عمر الماحي: المرجع السابق، 158.

(6)- د/ اسماعيل العربي: " الصحراء الكبرى وشواطئها "، المرجع السابق،ص172.

ويؤكد هذا القول الدكتور عامر صمب بقوله[1] **"وفي القاهرة بارز علماء الأزهر في التوحيد وعلوم الدين ونصره الله عليهم"**.

وعند مغادرته مصر قافلا إلى بلاده زار دولة البرنو الإسلامية في عهد الشيخ "محمد الأمين الكنمي"ومكث بها ثلاث سنوات معلما وداعية يدعو الناس إلى تعاليم الإسلام الصحيحة، فلقيت دعوته هوى جامحا واستجابة كبيرة، فكسب أتباعا كثيرين الأمر الذي أثار مخاوف ورعب محمد الكنمي نفسه فدخل معه في خصام ونزاع شديدين[2] حتى بلغ الأمر بهذا الأخير إلى التفكير في كيفية التخلص منه وتدبير محاولة اغتياله والقضاء عليه نهائيا، فاضطر إلى ترك برنو ومغادرتها ناجيا بنفسه وذلك عام 1249هـ/1833م اتجه الحاج عمر بعد خروجه من برنو صوب سكوتو، حيث لقي استقبالا حارا و حفاوة بالغة فأقام بها حوالي ثماني سنوات توطدت خلالها العلاقة بينه وبين أمير البلاد "محمد بيلو بن عثمان دان فودي "[3]. وأثمرت هذه العلاقة بالمصاهرة حيث تزوج الحاج عمر ابنة الأمير مريم[*]، وذكر أحد أحفاذه وهو إبراهيم محمدون في كتابه "جولات سودانية" أن جده تزوج عدة زوجات عائشة، الباتول، هوصا، ماريا، وبلغت ذريته خمسة وعشرون ذكرا وخمسة وعشرون بنتا.

وذهب البعض إلى القول أن محمد بلو قد زوجه إمرأتين[4]، إحداهما أنجبت حليو "Halibou" الذي حكم دنجويري " Dengouiryie" والثانية أنجبت أحمدو الذي ولد بسكوتو عام 1249هـ/1833م[5] وصارخليفة لأبيه فيما بعد .

وفي أثناء إقامته في هذه المدينة الأخيرة لم يتوقف عن نشاطه بل استمر في تبليغ دعوته ونشر أفكاره، فجمع حوله الأنصار حتى بلغوا أكثر من ألف (1000) شخص[6]، هذا النجاح والنشاط جراه إلى الدخول في نزاعات وصراعات مع العلماء والفقهاء[**]. رغم ما كان يتمتع به من حماية وحصانة من طرف أمير المؤمنين محمد بلو.

وبعد وفاة الأمير الصهر سنة 1253هـ/1837م فقد الحاج عمر السند والتأييد اللذين كان يتمتع بهما، فلم يجد بدا سوى الرحيل ومغادرة البلاد ميمما وجهه شطر فوتافورو "السنغال"، وفي طريق عودته إلى بلاده عرج على دولة ماسينا "Macina"، وأقام بها زمن حكم الشيخ أحمدو لوبو الماسيني 1198هـ-1775م/1261هـ-1895م وفي عاصمتها حمدا لله رزقه الله بإبنه الحبيب[7].

---

(1)- د/ عامر صمب: المرجع السابق، ص 47-48.

(2)-د/ عبد القادر زبادية: الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية، جنوب الصحراء، المرجع السابق، ص93.

(3)- دائرة المعارف الإسلامية، م5، ص532.

(*)- اختلفت المراجع في ذكر اسم هذه الزوجة نفسها، فمنها من ذكر اسم مريم ومنها من ذكر اسم عائشة.

(4) - Maurice de la fosse: "Afrique occidentale Francaise", Libririe, Plon, PARIS.1931.P134.

(5) - Y urvoy: op-cit, p111.

(6) Robert et Marianne, Cornevin: op-cit, p161

(**)- يبدو أن الصراع بينه وبين الفقهاء كان بسبب انتشار الطريقة القادرية في المنطقة، بينما الحاج عمر كان تيجانيا.

(7)- د/ عامر صمب: المرجع السابق، ص48.

واصل الحاج عمر عمله ونشاطه في ماسينا دون أن تفتر قواه وتخر عزيمته، واستمر في الدعـــوة إلى الإسلام وكسب الأنصار والمؤيدين، غير أن الحـــظ لم يحالفـــه في هنـــاك، فعـــدل إلى ســـيجو "Sigou"عاصمة مملكة شعوب البمبارا الوثنية، ومنها واصل نشاطه الدعوي والإصلاحي في أوســـاط الجماهير التي طبعت في أذهانها المعتقدات الوثنية وتجذرت بها المفاهيم الخرافية، فدفعت تصرفاته هذه إلى حنق حاكم البلاد جيفولو (*) "Guifoulou" و غضبه الشديد عليه، فأمر بسجنه وإبعاده عن البـــلاد[1]، وقد تمكن منه الحاج عمر فيما بعد وقتله ونشر الإسلام في بلده[2]. وبعد أن أمضى مـــدة في الســـجن أخلي سبيله فاتجه إلى فوتاجلون غينيا حاليا وهناك استقبله حاكمها إلمام عمر (الامام) اســـتقبالا يليـــق بشخصه، وأكرم مثواه،وبسخاء الكريم أقطعه من أراضيه بعض الضيـــاع في ديـــاجوكو "Diagoucou" بالقرب من تمبو "Timbou" حيث حط رحاله وشرع الحاج عمر في بناء رباط للعبادة والنشاط الدعوي والإصلاحي، وما لبث أن تسامع السكان بهذا الرباط فتقاطر عليه الناس من كل حدب وصوب وبمرور الوقت صار مركزا تشع منه أنوار الهداية ومنبعا للثقافة العربية الإسلامية والنشاط التجاري، وبذلـــك صار للشيخ أتباع وأنصار كثيرون وهبوا أنفسهم وما يملكون للدعوة الإسلامية[3].

بعد أن استقربه المقام واطمأن إلى أنصاره انبرى إلى التأليف فوضع الكثير من المؤلفـــات بعـــد ذلك اتجه لزيارة مسقط رأسه، فاستقبل استقبال الأبطال الفاتحين لما ناله من شهرة ولمـــا حقـــق مـــن انتصارات وكان لهذا وقع في النفوس وأثر في القلوب فزاد الأنصار والأتباع حوله.

وعند عودة الشيخ إلى قاعدته "فوتاجلون" فزع ملكها الفايحي "ALFA YAHYA" من عرمـــرم جيش الحاج عمر، ونظرت إليه السلطات نظرة تشوبها الريبة والحذر، كما تلقت الحكومات المبادئ التي كان يدعو إليها بالرفض خاصة، بعدما أنشأ المراكز في كل من "بدور" "BUDOR" و"بـــاقل" "Bakel" و"دمبور" "DEMBURE" وكون قوة من التكرور[4].

لم يهدأ بال الحاج عمر و لم يدر بخلده الميل في يوم من الأيام إلى الراحة والكسل والتقاعس عن أداء واجبه، بل كان كل همه منصبا على الدعوة والإصلاح وكيفية بناء دولة إسلامية قويـــة، لذلـــك فبمجرد أن استقرت له الأوضاع وشعر بقوته وإخلاص اتبـــاعه في حوالي سنة (1263هـــ/1846م) شرع في تكوين جيش نظامي، كان يوظف أفراده من أنصـــاره التيجانيين المنتمين إلى قبائل التكرور

(*)- جيفولو: ذكر في بعض المراجع باسم طيفولو، أنظر عبد القادر زبادية، نفس المكان.

(1)- د/ عبد القادر زبادية: الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا العربية، المرجع السابق، ص94.

(2)- نعيم قداح: المرجع السابق، ص120.

(3)- د/ حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص135.

(4)- د/ عبد الله عبد الرزاق ابراهيم: الحركات الإصلاحية في غرب إفريقيا، مرجع سابق، ص21.

"TOUCOLOR" ليخوض بهم غمار الجهاد في سبيل الله [1].

وبفضل تمكنه من وضع يده على مناجم الذهب الغنية في بوريه "Bourie" تمكن من الإنفاق بسخاء ويسر على جيوشه وتدعيمها بالأسلحة النارية الحديثة، التي تحصل عليها عن طريق الوسطاء الأوروبيين وخاصة من التجار الإنجليز في سيراليون وغامبيا[2].

لم يكن الحاج عمر بمعزل عما كان يجري في العالم من حوله من تطورات، بل فقد كان على دراية بما بلغته الحضارة الأوروبية الغربية من تقدم وإبداع في مجالي الأسلحة و وضع الخطط الحربية، والتدريب على الفنون القتالية الحديثة، لذلك عمد الحاج عمر بن سعيد الفوتي إلى إنشاء قوة عسكرية بلغ عددها ثلاثون ألف جندي[3] عهد بتدريبها إلى عناصر تتمتع بخبرات عالية بفنون التدريب العسكري الحديث من أبناء التكرور، الذين أمضوا سنوات طويلة في إفريقية الغربية، لاسيما في بلاد السنغال رفقة الجيوش الإستعمارية الفرنسية مثل "سامباندیه" " SAMBANADIAYE" الذي قضى ما يربو على العقدين من حياته في خدمة هذه القوات الاستعمارية الدخيلة على القارة الإفريقية.

وبفضل خبرة ومهارة هؤلاء العسكريين القدماء ودهاء الحاج عمر وإيمانه بشرعية قضيته وإخلاص جيوشه له ولدعوته زادت انتصاراته، وذاع صيته في عموم غرب القارة الإفريقية، فأثار هذا حفيظة ومخاوف الإستعمار وأحقاده على المسلمين الأفارقة في المنطقة، واستعد للمواجهة وشن حربا قذرة ضدهم،و لما أحس الشيخ بالعداوة والحقد الصليبي الدفين لكل حركة إسلامية أو تحريرية وطنية، غادر قاعدته دياجوكو "DIAGOUKO" وتوجه صوب دنجويري "DINGUIRYE" ومن هناك بدأ يعد العدة ويستعد لخوض مرحلة جديدة من تاريخ الحركة.

ويمكن تقسيم مسيرة الدعوة الإصلاحية التي تزعمها المصلح إلى مرحلتين متمايزتين.

مراحل الدعوة والحركة :

المرحلة الأولى: انطلاق الدعوة (1249هـ-1833م/1265هـ-1848م):

تبدأ هذه المرحلة منذ عودة الحاج عمر من البقاع المقدسة[*]، بعد أداء فريضة الحج عام (1249هـ/1833م)[4] وتستمر إلى عام (1256هـ/1848م) وفي هذه الفترة بدأ يدعو الناس إلى

---

(1)- د/ عبد القادر زبادية: الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، المرجع السابق، ص94.

(2)- د/ اسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983م، ص173.

(3)- د/ إسماعيل العربي: نفس المرجع، نفس المكان.

(*)- دام وجوده خارج البلد من 1820-1838م، أنظر: حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مرجع سابق، ص136.

(4) Gosset (p. et . r) op-cit, p37

مبادئ الإسلام الصحيحة وتعاليمه السمحة، واعظا ومرشدا وخطيبا بينهم، حاثا على إصلاح وتقويم ما فسد من الدين وما اعوج من القيم الإسلامية النبيلة في المجتمع يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر هذا من جهة،ومن جهة أخرى فقد طفق يدعو الناس إلى إصلاح أمورهم الدنيوية بما يتماشى مع الشريعة والقيم الإنسانية الرفيعة.

وفي المقابل شرع في إنشاء المدارس والمراكز التعليمية يبثها في مختلف المناطق التي أقبلت على الدعوة و قد أشرف على بناء وإحياء الكثير منها بنفسه، فوجد الناس فيها ضالتهم فتلقوا مبادئ القراءة والكتابة و التربية الإسلامية الصحيحة، وبعض المعارف العربية الإسلامية، وتلك هي غاية الحاج عمر و لم تشغله هذه الأعباء الجسيمة عن الكتابة والتأليف فقد شهدت المرحلة أيضا وضع بعض الكتب والمراجع القيمة في مختلف العلوم و المعارف.

وخلاصة القول أن هذه المرحلة من عمل الشيخ كانت اللبنة الأولى التي شيد عليها صروح دولته المستقبلية، بعد أن أقنع الناس بضرورة العودة إلى مفاهيم الإسلام الصحيح وترك البدع والخرافات التي عمت المنطقة بفعل المشعوذين والدجالين، الذين كانوا يظهرون من حين لآخر في البيئات التي يكون فيها سلطان العلم قليلا وإيمان الناس بالإسلام ضعيفا.

المرحلة الثانية : إعلان الجهاد والثورة (1265هـ-1849م/1218هـ-1864م):

أما في هذه المرحلة فقد شن الشيخ حربا عوانا على المحتلين الأجانب الذين زحفوا على غرب إفريقيا[1]،بغية تحقيق أهداف متعددة ومتنوعة اقتصادية وسياسية ودينية صليبية وثقافية واجتماعية،ناهيك عن أغراض أخرى دنيئة خفية، وقد اعتمد الشيخ في هذه المرة على جيش من المتصوفة المسلمين في المنطقة واعتبر المؤرخون الغربيون حركته الجهادية حربا مقدسة ضد المسيحيين[2] القادمين من وراء البحار إلى إفريقيا،ويتضح من قرار إعلانه الحرب على الأجانب المحتلين كما كان على أهبة المواجهة وعلى جانب كبير من الاستعداد والقوة .

انطلاق الجهاد :

منذ عام 1265هـ/1849م ومن قاعدته الجديدة في دانجويري "DINGUIRYE"[*] شرع في تقويم العمل الذي قام به في بناء المجتمع الجديد الذي كان قد أقامه على مبادئ الشريعة الإسلامية، وبعد أن تبين له أن هذه التعاليم تمكنت من العقول وترسخت في النفوس، أقدم على إنشاء حصن حصين للمدينة وأعد

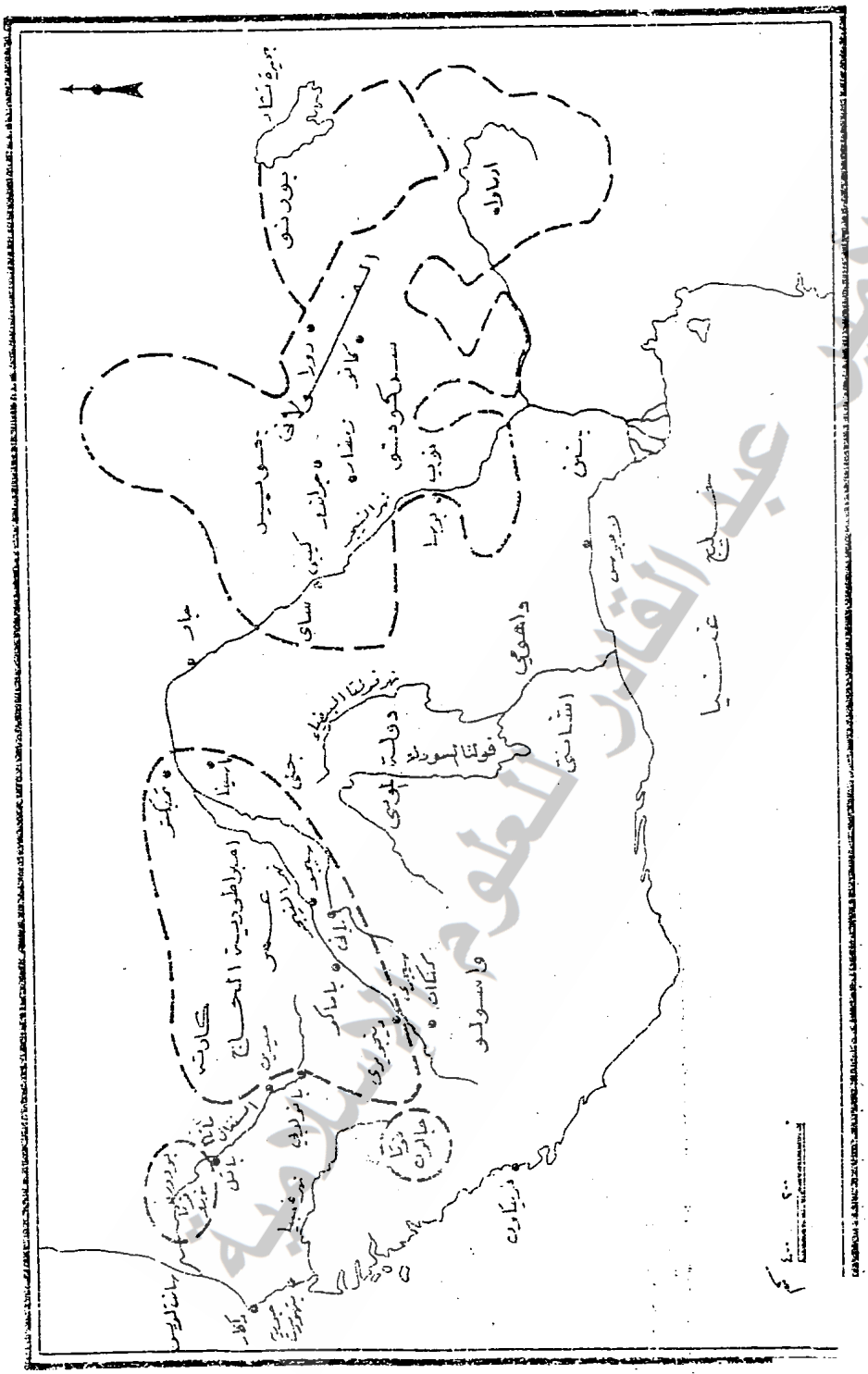
---

(1)- د.عامر صمب: المرجع السابق، ص48.

(2)- Gosset (p.et.r) :op-cit, p37

(*) انظر الشكل رقم 9، ص 220.

الشكل (9)



مبراطورية الحاج عمر

هام محمد علي ذهني، ص 233

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جيشا مسلحا بالأسلحة النارية والبنادق الحديثة التي اشتراها من التجار الأجانب[1] وجمع معظم كتائبه من فوتاتورو، وبعد أن تأكد من الاستعداد المعنوي والمادي لقواته المسلحة دعا بعد ذلك إلى جهاد الكفار، بعد رفضهم قبول الدعوة سليما، فهاجم مراكز الماندنجو "MANDINGOU" الماليين، وقراهم فأغار على بامبوك "BAMBOUK" ونجح في إخضاعها وبسط سيطرته عليها دون عناء شديد، واستمر يغزو المدن ويشدد الحصار عليها وهي تسقط بيده الواحدة تلو الأخرى بما فيها عاصمة قبائل البمبارا نيورو "NIORO" بإقليم "KAARTA" التي لم تبد مقاومة شديدة أمام قواته، فدخلها ظافرا سنة 1271هـ/1854م، و لم تكن إمارة البمبارا بمفردها التي وقفت في سبيل هذا المصلح وانتهى أمرها بالانكسار، بل كان هناك الكثير مثلها وكان هم عمر منصرفا إلى نشر الدعوة، لذلك فبمجرد سقوط المدينة دعا أهلها إلى اعتناق الإسلام و تطبيقه في حياتهم فاستجابوا لدعوته[2].

ومن أجل استئصال الوثنية وإنقاذ الناس من ضلال الشرك الذي يعيشون فيه ورفع علم الإسلام عاليا دعا المصلح حكومة مسينا "MACINA" التي كان على رأسها حكام مسلمون للتعاون معه على القيام بشن حملات على قبائل إمارة سيجو "SIGOU" الوثنية، غير أن هذه الحكومة رفضت العرض و لم تستجب لطلبه، فوجه نشاطه نحو الغرب لمهاجمة بعض الإمارات السنغالية على ساحل الأطلنطي، وتمكن من إضعاف قوتها وتقليص نفوذها، وقوض أركان بعضها، وهناك يصطدم بالاستعمار الفرنسي الذي يقف أمامه وجها لوجه.

والواقع أن دعوة الجهاد التي أعلنها الحاج عمر ضد الوثنيين المشركين في غرب إفريقيا كانت متزامنة مع التغلغل الاستعماري البغيض في المنطقة، لذلك اصطدمت الحركة الدعوية بالنشاط الاستعماري الفرنسي الذي بدأ يبسط نفوذه في غرب إفريقيا على يد "فيدر هوب" "L . Faideherb"، ولذلك ينظر إلى جهاد الحاج عمر على أنه حركة وطنية إفريقية ضد التواجد الإستعماري الدخيل، وأكبر وجه إفريقي مقاوم في النصف الأول من القرن التاسع عشر[3].

ويجمع المؤرخون على أن ليون فيدرهرب "L. Faideherb"هو أول حاكم فرنسي مكن فرنسا الاستعمارية من تحقيق أطماعها، وتجسيد أحلامها في غرب القارة الإفريقية، فبعد أن تم تنصيبه كحاكم عام للسنغال عام 1271هـ/1854م، شرع في رسم سياسة جديدة للتعامل مع القوى الوطنية "السلام أو القتال" عوض سياسة التهدئة التي طبقتها فرنسا واستمرت تمارسها حتى قدومه.

---

(1)- د/حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق،ص 136-137.

(2)- د/حسن إبراهيم حسن، نفس المرجع، ص137.

(3)- نعيم قداح: المرجع السابق، ص119.

وكانت عيون الحاكم الجديد ترنو إلى كسب عطف ورضى حكومته، ونفسه تهفو لتكوين إمبراطورية فرنسية تمتد من أراضي السنغال جنوبا إلى دول شمال إفريقيا المطلة على البحر الأبيض المتوسط شمالا، تجسيدا لرغبة حكومة نابليون الثالث 1848م/1870م، التي كانت لها أطماع توسعية في القارة، ولما كانت سياسة فيدرهرب ترتكز على مبدأ السلام أو الحرب، فقد جرته إلى الدخول في صراع ومنازعات مع القوى الوطنية المخلصة وخاصة الإسلامية منها في المنطقة[1].

فقد واجه هذا الحاكم مشاكل عويصة مع قبائل الترارزة في موريتانيا، ودخل في حروب مع زعيمهم محمد الحبيب[2]، الذي كانت له علاقات وصلات بالحاج عمر من جهة والشيخ ماباجاخوبا من جهة ثانية. حيث دعاهما إلى الاتحاد والوقوف صفا لمواجهة الفرنسيين المسيحيين، غير أن تفطن فيدهرب لهذا الموقف الجديد بين القيادات الإسلامية دفعه للإتصال بمحمد الحبيب ووقع معه معاهدة عام 1274هـ/ ماي 1858م، اعترف فيها هذا الأخير بقبول الحماية الفرنسية مقابل أن تدفع له فرنسا مقدارا ماليا سنويا، وبموجب ذلك اطمأنت فرنسا على الحدود الشمالية لبلاد السنغال، وتفرغت للحاج عمر وحركته[3].

وهنا يمكن القول أن الاتفاق الموقع بين زعيم الترارزة والفرنسيين طعنة في ظهر حركة الحاج عمر من جهة،ودعما وموالاة للفرنسيين الاستعماريين من جهة أخرى، والقرآن الهادي لا يترك دون بيان ما يترتب على تلك الموالاة، قال تعالى[4]:" ***يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين***".

كانت العلاقة بين الفرنسيين والحاج عمر في أول الأمر عادية إلى حد ما بسبب تركيز هذا الأخير على مقاومة الوثنيين ونشر الإسلام بينهم[5]، ففي عام 1264هـ/1847م قابل ديجرامون "DEGRAMONT" ومدير الشؤون الخارجية لمستعمرة السنغال "كاي" "KAY" وبحضور بول هول "PauL HOLLE" و أعلن خلال المقابلة أنه يريد تصفية الأجواء السياسية مع الفرنسيين على أن يبيعوا له الأسلحة وأن يدفعوا الضرائب مقابل ممارسة التجارة بحرية، وفي الفترة الواقعة بين 1269هـ/1852م وبين 1271هـ/1854م صار للحاج نفوذ كبير في المنطقة ضم جميع المسلمين حتى وصل إلى غامبيا وأثار أهاليها ضد البريطانيين ونضم حملة لمهاجمة "بيتهورست" "BITHHORST" الإنجليزي، غير أن تدخل القوات الفرنسية أنقذ الموقف.

---

(1) Robert, Cornevin, op-cit,p p228

(2) Maurice de lafosse , op-cit, p128-129.

(3) Robert, Cornevin, op-cit, p273.

(4)- سورة المائدة، الآية 51.

(5)- نعيم قداح: المرجع السابق، ص121.

وعلى إثر ذلك أدرك الفرنسيون قوة وخطورة الحاج عمر، و لم تبق خافية عليهم خاصة بعد المحاولات التي أبداها المسلمون في الإتحاد معه للوقوف في وجه العدو المشرك، فعمد "فيدرهرب" إلى التحالف مع أعداء غريمه من قبائل البمبارا الوثنيين مقدما لهم الدعم والمساعدة[1]، ولذلك فالقرآن الهادي يوجه المسلمين لمثل هذه المواطن ، فقد جاء في الآية قوله تعالى[2]:"***ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم؛ قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير***".

والواقع أنه منذ سنة 1273هـ ومطالع 1857م والحاج عمر ما يزال على علاقة طيبة بالفرنسيين رغم تلاعبهم، ولكن سرعان ما تغيرت هذه العلاقة عندما طالبهم بالالتزام بوعودهم وتزويده بالأسلحة الحديثة فردوا طلبه خوفا من تصاعد قواته، وعمدوا إلى تسليح أعدائه البمبارا. أمام هذا الموقف الذي يكشف عن الغدر والخيانة وعدم الوفاء بالعهود، أقدم أنصاره يغيرون على المراكز الفرنسية ويهددون نشاطاتهم التجارية ودعا اتباعه في سان لويس " Saint Louis" إلى الكف عن التعاون مع الفرنسيين واصفا إياهم بالخونة، كما أرسل إلى "فيدرهرب" يأمره بالامتناع عن إقامة أي منشآت فرنسية مهما كانت نوعيتها فوق الأراضي الواقعة تحت نفوذه.

ونتيجة لتحالف الفرنسيين الغزاة مع أعداء الحركة الإصلاحية من قبائل البمبارا الوثنيين في الداخل أقدم الحاج عمر على عرقلة النشاطات التجارية الفرنسية، وقام يطرد التجار الفرنسيين من أراضيه الممتدة بين منطقة "باقل" "B AKEL" و"بدور" "BOUDOR" وهاجم "خاسو" "KHASSOU" التي سبق أن وقعت تحت الحماية الفرنسية، وبنى فيها فيدرهرب قاعدة حربية حصينة، أوكل مهمة إدارتها والإشراف عليها إلى مواطنه "بول هول" "PAUL .HOLLE"، حاصر الحاج عمر القاعدة والحامية الفرنسية بداخلها من حوالي منتصف ربيع الى منتصف صيف سنة 1273هـ/1857م، وصبرت الحامية الفرنسية على الحصار إلى أن نفذت المؤونة والذخيرة، وحاول بول هول "Paul holle" نسف الحصن بمن فيه دون الإستسلام لقوات الحاج عمر[3].

في هذه الأثناء كان فيدر هرب ينتظر موسم هطول الأمطار بالسنغال ليسهل عليه إلحاق الهزيمة بقوات الحاج عمر، لأن الأوحال تحول دون تحقيق النصر للمجاهدين بسبب ضعف أسلحتهم الحديثة وفعلا سقط المطر ووقعت المعركة بين الطرفين المتنازعين و كان النصر فيها حليف الفرنسيين، وبعد الهزيمة عاد الحاج عمر عام 1275هـ/1858م إلى فوتاتورو، وجمع إليه من المقاتلين قوة بلغت الأربعين ألف رجل[4].

---

(1)- د/ إلهام محمد علي ذهبي: المرجع السابق، ص93.
(2)- سورة البقرة، الآية 120.
(3)- دائرة المعارف الإسلامية، المجلد 5، ص432، والمجلد 7، ص230.
(4)- د/ عامر صمب: المرجع السابق، ص49.

وأمام تزايد النفوذ الفرنسي وتقدم مده، وجه الحاج عمر نشاطه هذه المرة نحو أعالي نهر النيجر وبعد أن نضم جيشه وتفقد عدته سار إلى البمبارا الوثنيين حلفاء فرنسا في سيجو " SIGOU " وتمكن من الإستلاء عليها في مطلع ربيع سنة 1277هـ/1861م[1]، وعين عليها ابنه أحمد وشيخو، ثم قصد مسينا وعرج على عاصمتها "حمدا لله" ودخلها في يوم 16 ماي 1862م[2]، وفر ملكها أحمدو أحمدو حفيد الشيخ أحمدو لوبوناجيا بنفسه.

وعند عودة فيدرهرب إلى السنغال سنة 1279هـ/1863م خلال عهدته الثانية لحكم المنطقة هاله الأمر، إذ وجد إمبراطورية التكرور قد بلغت من الرحابة والقوة ما تحسد عليه، ورأى في ذلك خطرا يهدد بنسف الوجود الفرنسي في منطقة غرب إفريقيا جميعها، فأمر ضابط البحرية أوجين ماج "EUGENE MAGE" بالتوجه في بعثة إلى سيجو سنة 1279هـ، يوم 28 من شهر فيفري 1863م[*] غير أن البعثة لم تتمكن من مقابلة الحاج عمر واستقبلها ابنه أحمدو.

وفي الوقت الذي كانت فيه البعثة في سيجو، كان الحاج عمر يقوم بحملة على "تمبكتو" لكنه لم يتمكن من دخولها وانهزم في "غندم" "GHOUNDOUM" فرجع إلى "حمدا لله" غير أن قائده "الفاعمر" تمكن من دخولها، وعند عودته منها لحقه "بالب" "BALOUBOU" خال أحمدو وملك "ماسينا" و"سيديا" "Sidia" ابن أحمد البكاي[**]، حامي تمبكتو وقتلاه، وتقدما الإثنان ليحاصرا الحاج عمر في "حمدا لله" فوقف في وجه الأعداء صامدا مدة ثمانية أشهر، ولما لم تصله نجدات "تيجاني" ابن أخيه وأحد قواده، أضرم الشيخ النار في المدينة سنة 1280هـ/فيفري 1864م وغادرها، تاركا سبيلها، فجد الأعداء في طلبه فاحتمى بكهف من كهوف "دغمبيري"(3) "DEGHEBIRY"، وفي اليوم الثاني عشر من نفس الشهر سمع الأعداء انفجارا مدويا في الكهف، و منذئذ توقفت مقاومة وجه إفريقي كبير صدق فيه قوله تعالى(4) ***"و لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون "***

---

(1)- د/ إسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها، مرجع سابق، ص173.

(2)-د/ اسماعيل العربي، نفس المكان.

(*)- كان سعي هذه البعثة التي وافق عليها "شاسلوب" وزير البحرية لتدعيم سياسة وتجارة فرنسا في المنطقة والربط بين الممتلكات الفرنسية في أعالي السنغال وأعالي النيجر، وخاصة بمدينة "بماكو" كما كان سعي فيدرهرب حثيثا لهذه البعثة، وذلك للربط بين السنغال والنيجر على أن يتم ربطهما مستقبلا بالجزائر، أنظر: إلهام محمد علي ذهيني : المرجع السابق ص64. و:

- Robert et Marionne Cornevin, Op-Cit, p228.

(**)- أحمد البكائي بن محمد من قبيلة كنته التواتية في الجنوب الجزائري، سكن أجداده الأوائل في منطقة "أزواد" خلال القرن 17، وتبوأوا مركز الزعامة الدينية على الطريقة القادرية منذ أيام جده الشيخ المختار الكنتي، توفي 1811م، وهو مؤسس زاوية أزواد شمال تمبكتو مع نهاية القرن 18م خلفه إبنه الذي توفي سنة 1826م، فخلفه أحمدو الذي سكن تمبكتو واتخذها مركزا للتعليم وخلف أخاه في زعامة كنتة في 1833م إلتقى بالرحالة "بارث"، حاول لم شمله ومحاربة الفرنسيين عندما احتلوا ورقلة 1854م، محاول الإستنجاد بالإنجليز فلم ينجدوه، إلى أن وقعت القارة تحت النفوذ الإستعماري. انظر زبادية الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية.المرجع السابق، ص ص 92-93.

(3) د/ عامر صمب: المرجع السابق،ص51.

(4) - سورة آل عمران الآية 169.

وكغيره من العظماء اختلفت الروايات في سبب موته فبعضها يقول أنه انتحر(*)، وبعضها يقول أن الملائكة رفعته إلى السماء وأخرى وهي الأرجح تقول أنه اختنق بفعل الدخان الذي أحدثته أسلحة الأعداء.

ويمكن القول أن الحاج عمر بعد أن أعيته الوسائل والأساليب السياسية على ما يبدو، انتهج غمار (الحرب المقدسة)، كما أنه لم يجد صعوبة كبيرة في بسط سلطان زعامته التيجانية إلى أقصى حدود إفريقيا الغربية، لكنه لما اندفع نحو الشرق اصطدم بمقاومة القادريين بزعامة أحمد البكائي وخليفة أمير ماسينا كحاجز قاهر وسد منيع أمام أهدافه، وبذلك استمر الصراع بين التيجانية والقادريين مدة عقدين من الزمن، فكانت الأحداث بالغة الأثر على السكان، فقد قال أحدهم أن العظم قد أفرغ من اللحم(1)، وإذا قدر للحاج عمر الموت على يد القادريين عن عمر يناهز السبعين عاما، كانت حافلة بالأعمال والبطولات ومآثره خارقة، وإذا ما كانت حياته قد انتهت فإن دعوته وإصلاحاته ما زالت حية عالقة بالأذهان متأججة في نفوس الأفارقة المسلمين(**)، أما جهاده فلم يتوقف واستمر بقيادة ابنه أحمدو الذي تولى الحكم بعده، وهكذا انتهى عظيم من عظماء رجال الدعوة والإصلاح في منطقة غرب إفريقيا. وإذا نظر المرء نظرة تقيمية للدولة الجديدة(***) التي أنشأها الداعية المصلح عمر بن سعيد الفوتي في بلاد التكرور، يجد أنها حققت نتائج ملموسة فقد استطاعت هذه الدولة لم شمل المسلمين داخل حدودها كما وثقت روابط الوحدة والأخوة بين كل مسلمي غرب إفريقيا، علاوة على أنها كانت أكثر مركزية من دولة ستوكوتو ودولة أحمدو لوبو في ماسينا، هذا فضلا عن قيامها بنشر الإسلام و تصحيح مفاهيمه بين السكان.

وتتميز الحركة الإصلاحية التي قام بها الحاج عمر عن غيرها من الحركات أن هذا الاخير، الحاج عمر لم ينطلق كغيره من زاوية ضيقة لا تتجاوز حدود بلده الأصلي، بل انطلق من خارج هذا الوطن وكان من أسباب نجاح دعوته في المنطقة وجود النصارى المسيحيين وتغلغلهم في منطقة تشربت الإسلام وتأثرت به إلى حد كبير منذ زمن بعيد، وزخرت بظهور عدد من الدعاة والمصلحين المسلمين منذ العصور الإسلامية المبكرة، حيث قام التكارارة بزعامة عثمان دان فودي وخلفاؤه والحاج عمر الفوتي ببعثها من جديد خلال القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي(2).

(*)- يستبعد انتحار رجل مؤمن كالحاج عمر، كما تستبعد رواية رفع الملائكة له، فموته كانت بفعل الإنفجار.

(1)- انظر: عبد القادر زبادية: الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، مرجع سابق، ص94.

(**)- اندهش فيدرهرب للتأثير الذي أحدثه الحاج عمر، فكلف أبو المقداد بكتابة تقرير دقيق ومفصل عن الحاج عمر وأسباب التفاف الناس حوله، وأبو المقداد (1880/1826م) واحد من الأفارقة الذين عملوا في خدمة حكام السنغال، وأوعز في تقريره أن أسباب التفاف الناس حول الداعية يعود إلى أداء فريضة الحج وحفظه القرآن الكريم، وإجادته اللغة العربية، وكان رأيه إتاحة الفرصة لعدد من الأفارقة، آداء هذه الشعيرة فتزول بذلك هيبة الحاج عمر ونشر التقرير في مجلة "R evue Martime et Coloniele 1861"، أنظر:

- Robert, Cornevin, Histoire de la Frique des Origines Anos jours, L. Payot, Paris 1956, p228.

(***) أنظر الشكل رقم 9، ص220.

(2)-صادق يلي: استطلاع عن بلاد السنيغال، مجلة العربي، ع.436، الكويت مارس 1995، ص36.

وما خروج الحاج عمر من وطنه وطوافه في العالم الإسلامي ثم عودته إلى مسقط رأسه سوى محاولة منه لكسب المزيد من الأنصار، وتأييد العلماء والفقهاء له في إقباله على تنقية الدين الإسلامي وتصحيح العقيدة مما لحق بها من شوائب غريبة في أوساط المجتمع الإفريقي، حيث لقيت الحركة استجابة وتأييدا واسعين في الأوساط العامة والخاصة و بين السلاطين المسلمين، وتميزت حركته بكونها حركة تجديد وإصلاح وتطهير الدين من البدع والضلالات التي علقت به من جهة، ومواجهة الاستعمار الغربي النصراني من جهة ثانية.

ولقد واجه جنوده القوى الأوروبية المدربة والمدججة بأحدث الأسلحة وأفتكها ببسالة نادرة ورغم قلة الأسلحة والذخيرة تمكنت قوات الشيخ عمر من تكبيد الفرنسيين خسائر فادحة، فأجبروا على مداراته وعقد الاتفاقيات معه، ومع ابنه أحمدو شيخو الذي واصل رسالة أبيه بعد وفاته إلا أن الدولة قد سقطت تحت ضربات الفرنسيين من جهة، وأنصار القادرية من جهة أخرى[1].

ولعل ما يؤخذ على الحاج عمر سياسة القوة والعنف اللتين تميز بهما ضد أعدائه وخصومه، وإذا لم تكن التنظيمات التي اعتمدها في دولته متينة وشديدة الإحكام، إلا أن رعاياه كانوا يهابونه ويطيعون أوامره نتيجة شجاعته ويجلونه لعلمه وورعه وتقواه، وإذا كان لم يتمكن من وضع نظام دقيق محكم ومتين لدولته، فقد يعود ذلك إلى انشغاله بأمر الجهاد ونشر الدعوة الإسلامية بين الناس[2].

لذلك فبمجرد أن أسلمت روحه إلى بارئها شق البمبارا عصا الطاعة وخرجوا على خليفته أحمدو كما انشق عليه أخواه حلبو ومختار، وانظما إلى الأعداء الفرنسيين الذين اكتسح نفوذهم البلاد[3].

إنتاجه الفكري :

إذا كانت الكتابة والتأليف تقتضي لصاحبهما توفر الوقت والجهد والهدوء النفسي، فلا غرو أن نجد الحاج عمر قد اقتطع من أوقاته الثمينة والعامرة بالجهاد، تفرغ خلالها للعلم وكرسها للتأليف لذلك استطاع أن يخلف للأجيال مؤلفات عديدة في مجالات مختلفة، من العلوم والمعارف دلت على سعة علمه وثراء ثقافته بالرغم من انشغاله بالدعوة والحروب مع أعدائه في الداخل والخارج، ومن أهم هذه المؤلفات:

1- في التوحيد: "سيوف السعير - سفينة السعادة- تذكرة المسترشدين- أرجوزة في العقائد "

2- في الفقه: "كتاب التقييد في خواص الحزب الشافعي".

3-في الدعوة: "عاديات المذنبين وكتاب المقاصد السنية".

---

(1)-د/ عبد الرحمن عمر الماحي: المرجع السابق، ص162.

(2)-د/ عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، الحركات الإصلاحية في غرب إفريقيا ، مرجع سابق، ص.27.

(3)- د/ عبد الرحمن عمر الماحي: مرجع سابق، ص.162.

4- في التصوف: " كتاب رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم، وكتاب الفلاح المبين وكتاب النصح المبين ورسالة الأجوبة في الطريقة التيجانية".

5- في الأدب : ترك بعض القصائد الشعرية مازال يتداولها الناس في غرب إفريقا، وبعضها لا يزال مخطوطا وموزعا بين المكتبات العامة، والبعض الآخر لدى بعض الناس المهتمين بالأدب".

6- الرسائل : له مراسلات في السياسة والدعوة والفقه دل أسلوبها وأفكارها على عبقرية الشيخ عمر وآدابه في المعاملة وتمسكه الشديد بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة[1].

وخلاصة القول في هذا المجال الأخير أن معظم هذه المؤلفات ما زال مخطوطا تزخر به المكتبات العامة والخاصة في المنطقة، ومنها من امتدت إليه يد الاختلاس والسرقات من قبل الاستعمار ونقل إلى ما وراء البحار، ومنها ما يعاني الرطوبة والتلف لقلة العناية به وانعدام إمكانات الحفظ، وأملنا أن يقوم المهتمون في العالم الإسلامي والعربي بجمع هذه المخطوطات وتحقيقها وخاصة أنها منسوخة بالخط العربي وتتناول قضايا تتعلق بالإسلام والمسلمين، قد تطلعنا على كنوز من حياتهم ما تزال خافية الى يومنا هذا.

استمرار نشاط الحركة في عهد الخليفة أحمدو :

إذا كان الحاج عمر قد توفي فإن جدوة المقاومة لم تخمد بل استمرت متأججة نشيطة يقودها نجله وخليفته من بعده، لقد خلف أحمدو شيخو والده الذي سبق أن عينه خليفة على الدولة الإسلامية الفتية في "الفوتاتورو" قبل وفاته، وعهد إليه بإدارة مملكة البمبارا في العاصمة "سيجو" عام 1279هـ/1862م، كما حمل لقب خليفة التيجانية في السودان الغربي، وقد واجهته مشاكل كثيرة وكان عليه منذ البداية أن يتصدى لها ليدعم سيطرته ونفوذه على تركة والده، كما كان عليه أن يواصل إصلاحات أبيه وأن يكافح ويجاهد الفرنسيين الزاحفين على بلاده من جهة الغرب، ونظرا لنشاطه وحمله لقب أمير المؤمنين، زاده هذا اللقب مكانة واحتراما بين قبائل التكرور[2]، وتقول مراجع أخرى أنه كان مكروها من قبل مواطنيه[3].

مولده و نشأته :

ولد أحمدو شيخو في سوكوتو[*] عام 1249هـ/1833م، من أم تكرورية تنتمي إلى بيت ضليع في العلم عريق في الحكم، وهي السيدة مريم حفيذة عثمان بن فودي بنت خليفته محمد بلوامبر سوكوتو وعالمها الجليل.

---

(1) د/ عامرصمب: المرجع السابق، ص 52-53.
(2)- فؤاد أفرم البستاني: دائرة المعارف، م7، بيروت 1967م ، ص285.
(3)- د/حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص137.
(*)- أنظر الشكل رقم 5، ص88.

نشأ أحمدو في كنف والده فأنشأه تنشئة إسلامية(1)، فأخذ عنه مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم في صغره على يد شيوخ الطريقة التيجانية، ثم تفرغ لدراسة العلوم الإسلامية من فقه وأصول وتفسير وحديث على يد علماء أجلاء في البلاد.

ومنذ ريعان شبابه شرع والده في إعداده وتكوينه لتحمل المسؤولية وتولى شؤون الدولة الإسلامية التي أنشأها، و لم تكن المهمة التي أسندت إلى أحمدو سهلة ميسورة، فقد كانت البلاد التي ورثها عن أبيه فضلا عن اتساعها وتنوع عناصرها مقسمة إلى أربع مجموعات(2).

– المجموعة الأولى: وعاصمتها "سيجو" والتي اتخذ منها أحمدو حاضرة لدولته وتضم مناطق شاسعة من الضفة الشمالية لنهر النيجر وأجزاء من مملكة البمبارا حول العاصمة،كما ضمت الأراضي الواقعة بين كل من نهري النيجر وباني "Bani".

– المجموعة الثانية: وتمتد من جنوب غرب مراكش "المملكة المغربية" والضفة اليمنى لأواسط نهر السنيغال، أما حدودها الجنوبية فتصل إلى كل من نهر السنغال و الباخوى و الباؤولي، و معظم سكانها من قبائل السراكولي و البمبارا و الكاجورا، و تضم هذه المجموعة منطقتين هامتين هما: منطقة كونيا كاري "Konia Kary"التي كان يحكمها شقيق أحمدو باسيرو "Bassirou"، ومنطقة نيورو "Nioro" التي كانت تحت حكم شقيق أحمدو الآخر منتاجا "MONTAGA"، وقد انفصلت المجموعة الأولى عن المجموعة الثانية(3).

– المجموعة الثالثة: وتمتد من نهر باخوي ونهر باؤولي حتى نهر النيجر،أي أراضي جنوب أعالي النيجر كما تضم الأراضي الواقعة في شمال "فوتا جلون"(*)، و دينجوري "Dinguiey" عند أعالي نهر النيجر(4).

وإذا كانت المواصلات قد انقطعت بين نيورو و سيجو فإنها انقطعت كذلك بين هذه الأخيرة والمجموعة الثالثة، وذلك نتيجة سيطرة قبائل البمبارا الوثنية على الطرق المؤدية إلى نهر باؤولي.

– المجموعة الرابعة: استقل بها أجيبو "Aguibou" أحد أشقاء أحمدو، وتضم هذه الأخيرة "دينجويري" الواقعة في أعالي نهر النيجر(5).

---

(1) - URVOY.Y, op-cit, p111.

(2)– فؤاد أفرم البستاني: المرجع السابق، م7، ص285.

(3) - Meniaud, Jacques: Les Pionniers du soudan. Tome 1 Paris 1931, P 124

(*)– ذكر د/بايول وهو ضابط برتبة ملازم بأن كلمة فوتاجلون حسب الروايات الشعبية جاءت من اتحاد جماعة جالونكاس "jALonkas" الوثنية مع الفولا المسلمين الذين عملوا على نشر الإسلام في المنطقة، فنتج عن الاتحاد تسمية المنطقة فوتاجلون. أنظر د/ إلهام محمد علي 1ذهبي، المرجع السابق.

(4) د/ عبد الله عبد الرازق ابراهيم: الحركات الاصلاحية في غرب إفريقيا في القرن التاسع عشر ، المرجع السابق، ص23.

(5) - Menaud, J. OP-CIT, tom 1. P128.

وبالإضافة إلى مشاكل انقسام المملكة بين أفراد الأسرة واجهت أحمدو مشاكل أخرى أشـــق وأعنف مع البمبارا الذين كان والده قد أخضعهم، ولكنهم تمردوا ونشروا الرعب بين السكان، وقـلموا بقطع المواصلات بين القرى والمدن، ولاسيما بين "كارتة" "Kaarta " وسيجو، ورفضوا اعتناق الإسـلام رغم اهتمام أحمدو بهذا الأمر، وتشجيع الدعاة على القيام به، في أوساط هذه القبائل الوثنية، وفضلا عن ذلك منافسة أشقائه وأقربائه ومحاولاتهم الخروج عنه.

ورغم المحاولات التي أبداها أحمدو والجهود التي بذلها من أجل النهضة بهـــذه الدولـــة، إلا أن الضعف قد امتد إليها فلم تبلغ ما بلغته في عهد الحاج عمر[1]، ومرد ضعف إمبراطوريـــة التكـــرور إلى عوامل متعددة منها ما هو طبيعي ومنها ما هو ناتج عن الغزو الأجنبي والمواجهة مع الفرنسيين.

وبالرغم من محاولات الإتفاق وعقد الهدنة بين الطرفين، إلا أنها كانت مفرغة مـــن محتواهـــا وكانت مجرد كسب للوقت، إذ سرعان ما انقض الفرنسيون على المنطقة.

لم يستسلم الوطنيون وعلى رأسهم أحمدو الذي اندفع للمقاومة فأنشأ مجموعة من الحصـون في نيورو وديالا "DAYALA" واستطاع الصمود ولو مؤقتا في وجه التقدم الفرنسي، وقد يعزى الفضـل في تأخير التوغل الأجنبي في البلاد، إلى هذه الحصون وصمود أحمدو مع قواته، والمتتبع لعلاقة الفرنســـيين بالتوكلور تكشف أن تلك العلاقة أدت في النهاية إلى تدمير إمبراطورية هؤلاء الأخيرين.

كما يلاحظ أن محاولات الاتفاق السلمي بين الطرفين وإقرارها كان ضروريا لهما، ففرنســـا كانت تسعى لبسط سلطانها في مجال التجارة على المنطقة، بينما كان أحمدو يتطلـــع لنشـــر الإســـلام وإصلاح أحوال المسلمين ومجاهدة الوثنية وفرض سيطرته على الأراضي التابعة لدولتـــه والاســـتعداد للمواجهة.

هذا الوضع دفع فيدرهرب إلى إرسال بعثة إلى سيجو قادها "ماج" "M AGE" صحبة الطبيـــب "كينتان" "quintin" في شتاء سنة 1279هـــ/1863م، حينها كان الحاج عمر ما يزال على قيد الحياة، لكن التكرور قبضوا على البعثة التي مكثت مدة ثم شرع في المفاوضات التي أسفرت عن عقد معاهدة إعترفت فيها فرنسا بسلطة أحمدو على الأراضي التي يسيطر عليها والسماح للتكرور بممارسة النشاط التجـاري في سان لويس "Saint Louis"[*]، ووعد "ماج" "Mage" تسليم أحمدو إثنا عشرة مدفعا، مقابل الـترخيص للفرنسيين بحرية التجارة في المنطقة[2].

بقي أحمدو مصرا على رفضه بناء الحصون الفرنسية فوق أراضيه، ولكن فرنسا لم تحترم بنود الإتفاقيـــة ورفض القائد فالير "VALLIR" الذي خلف فيدر هرب تسليم المدافع مما أدى إلى تفاقم حدة التوتر

---

(1)-د.فؤاد أفرم البستاني: دائرة المعارف، م7، مرجع سابق، ص.295.

(*) سان لويس: أسسها الفرنسيون سنة 1626م على شاطئ الاطلسي. انظر محمد سعيد القشاط: جهاد الليبيين ضد فرنسا في الصحـــراء الكبرى (1854-1988)، ط1، مشورات مركز دراسات شؤون الصحراء. طرابلس الجماهيرية الليبية 1989، ص9.

(2) - Maurice Delafosse: Op-Cit, p p 144.145.

لاسيما بعد مجيء بيـــردي ليل "P. De lille" 1293هـــ/1869م الذي ضاعف تدعيمه للبمبـــارا خصـــوم أحمدو.

كان رد هذا الأخير سريعا إذ عمد إلى عرقلة التجارة الفرنسية وتهديد التجار ومحاولة الاتصـــال بالإنجليز،وإزاء هذا الوضع قام الرحالة "سوليية" "SOULIETTE" بزيارة احمدو الذي أحسن اســـتقباله ولكنه أعرب له عن استيائه من معاملة مواطنيه الذين نكثوا عهودهم معه وخذلوه، وامتنعوا عن تسليمه المدافع حسب الاتفاق،كما أعرب له عن فكرة تحالفه مع بريطانيا ونيته في إقامة علاقات تجاريـــة مـــع مستعمراتها وهو ما تم فعلا بين الطرفين(*).

إذ في عام 1293هـــ/1876م زار سيجو - الحاكم البريطاني في غـــــامبيا- الســـيد "كوبـــر" "Cooper" وذلك لعقد اتفاقيات تجارية، وفتح طرق التجارة أمام البريطانيين، كما اتصل أحمدو بحـــاكم سيراليون وعقد معه اتفاقيات مماثلة، وفي عام 1297هـــ/1879م زار سيراليون حوالي ألف (1000) تـــاجر من سيجو فراجت بذلك السلع البريطانية، وأمام هذه الإجراءات كلفت فرنســـا القـــائد "جـــاليني" "Gallieni" بمراقبة النشاط البريطاني في منطقة النيجر، وفي عام 1297هـــ/1880م كلف نفس القائد بعقـــد اتفاق مع أحمدو، وأثناء توجهه إلى سيجو هاجمه البمبارا وقتلوا معظم من كان معه، خوفا من تحالفه مع التكرور ضدهم، فلجأ إلى "نانجو" "NANGO" التي لا تبعد عن العاصمة إلا بحوالي خمســـة و ثلاثـــون 35كلم ومكث فيها حتى ربيع عام (1299هـــ/1881م) ويبدو أن بقاء جاليني طول هذه الفترة كان تحـــت الرقابة المشددة، وذلك لخوف التكرور منه لاتصاله بالمبارا من جهة، وتحذيـــر الحـــاكم البريطـــاني في سيراليون لأحمدو من جهة اخرى وذلك للحيلولة دون وقوع اتفاق بينهما.

غير أن جاليني "GALLIENI" تمكن خلال هذه الرحلة من عقد اتفاقية مع أحمـــــدو، في عـــام (1298هـــ/3 نوفمبر 1880م)، عرفت باتفاقية "نانجو" "Nango"(1)، وكان الهدف من وراء هذه المعـــاهدة هو مد خط سكة حديدية ليصل بين نهري السنيغال والنيجر، والسماح للتجار الفرنسيين بمزاولة التجارة في بلاده.

غير أن أحمدو رفض منح أي إمتياز للفرنسيين ويتضح هذا من قول سيدو "SI DOU" مستشـــار أحمدو لجاليني "Gallieni" حيث أوضح له بأن ثقة التكرور بالفرنسيين أصبحت معدومة لتدخلـــــهم في الشؤون الداخلية ونكثهم العهود(**).

والجدير بالملاحظة أن معاهدة نانجو لم تحض بالقبول من دي ليل "DELILLE" حاكم السنغال

(*)- سولية رحالة فرنسي زار أحمدو واتصل بحكام الأقاليم ووصل سيجو في 19-10-1878م، ودافع عن أحمدو وأوضح أن التكرور ليسوا متوحشين بل أنهم مسلمون متقدمون لهم فنون وصناعات متطورة،انظر:إلهام محمد علي ذهيني، المرجع السابق، ص134.

(1)- Hanotaux Gabriel: le PORTAGE DE L'afrique noite, tome 4, libririe, Plon paris 1909, p175.

(**)- تشير المراجع إلى أن معاهدة نانجو "NANGO"، اختلفت مواد نصوصها بين اللغة العربية والفرنسية، فـــالنص العـــربي يشـــير إلى السماح للتجار الفرنسيين بمزاولة نشاطهم التجاري بحرية، بينما النص الفرنسي يشير إلى قبول الحماية، أنظر:
Maurice Delafosse: Afrique Occidental Française, op-cit, p.176.

لأنها تمت قبل موافقة البرلمان الفرنسي عليها، كما أن اختلاف نصوص هذه المعاهدة بين مـــا جـــاء في النص العربي والنص الفرنسي أدت إلى زيادة حدة التوتر بين الطرفين[1].

وبعد صدور مرسوم إنشاء وظيفة القائد الأعلى لاعالي النهر في سنة 1298هـــ/6 سبتمبر 1880م وهو بداية لتنظيم عسكري جديد عين على رأسه جوستاف بوري ديبور "G. B.DEBORTES" في هـــذا الوقت كان أكبر زعيمين إسلاميين وهما أحمدو شيخو وساموري توري رغم العداء المستحكم بينـــهما وعدم اتحادهما قد أقلقا السلطات الإستعمارية وزرعا في نفسها الرعب والخوف، إضافـــة إلى زعمـــاء آخرين من أمثال على بوري "A. BOURI"[2].

أمام هذا الوضع تحركت القوات الإستعمارية التي نظمها ديبور في محورين رئيسيين، اتجه الأول صوب الأراضي التي يسيطر عليها ساموري، والثاني باتجاه المناطق التي يسيطر عليها أحمدو، وقد قـــام بحملته الأولى عام (1298هـــ/19 مارس 1881م) بوضع مخططات للسيطرة وإخضاع المنطقة كلها، كمـــا قام بمد خطوط السكة والتيليغراف ومحاصرة حصون وقرى التكرور، بعد الاستيلاء على عدة منـــاطق مثل "كيتا" "Kita" على الرغم من التعهد الفرنسي بعدم غزو الأراضي الخاضعة لســـيادة أحمـــدو، في معاهدة "نابخو" السالفة الذكر، مما اضطر أحمدو لإرسال بعثة(*) إلى سان لويس "S. LOUIS" لكـــن دون جدوى[3]، وهذا دليل آخر على التزام أحمدو بالعهود والمواثيق وجنوحه للسلم لقوله تعالى[4]:"***أوفـــوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا***".

والواقع أن "ديبور" بعد الحملة الأولى عاد إلى سان لويس في صيف نفس العام، وكتب تقريـــرا إلى السلطات في فرنسا دعا فيه إلى استخدام القوة لاحتلال السودان الغربي وإخضاعـــــه، وأن فكـــرة التوغل السلمي المعتمدة فيه حتى الآن خرافة.

وبعد عودته من سان لويس أعد حملته الثانية (1299هـــ-1881م/1300هـــ-1882م) الـــتي قررتها وزارة البحرية، وكان هدفها الوصول إلى باماكو "BAMACO" لفرض السيطرة علـــى المنطقـــة وتدعيم المراكز الفرنسية المتواجدة خاصة في بافولابي "B AFOLABI" وكيتا،وتمكن ديبور من ذلك رغم معارضة الحاكم العام للسنغال[4] كنار "KANARD"، وهذا الأخير كان يرى وقف العمليات العســـكرية والتخفيف من إرهاق الخزينة وتخفيض نفقات المستعمرة، وكذلك لإنتشار الأمراض[5]، فأبعد عن منصبه وعين بدله "فالون" "VALON"، واقتصر نجاح هذه الحملة على دعم المراكز الفرنسية في المنـــاطق المذكورة، وإزاحة أحد معارضي سياسة القوة "كنار".

---

(1) Meniaud.J, Op-Cit, Tome 1.pp 338-339.

(2) Urvoy.Y, Op-Cit, p110.

(*)- البعثة كانت بقيادة أبو بكر سعادة، أنظر: - M. Delafosse: Op-cit. P177.

(3)- د/ عبد الرحمن عمر الماحي: المرجع السابق، ص.160.

(4)- سورة الإسراء، الآية، 34.

(5) M. Delafosse: Op-cit. P180.

أما الحملة الثانية فكانت في (1299هـ-1882م/1301هـ1883م) وكان الغرض منها إنشاء حصن في باماكو على النيجر،فأتاح هذا للفرنسيين التوغل في داخل البلاد، وترتب عن إنشائه دخول بعض زعماء القبائل في طاعة فرنسا كما تضررت مصالح أحمدو حيث تسبب الحصن في قطع المواصلات بين "باماكو" و "سيجو" الأمر الذي دفع أحمدو للإستعداد للجهاد ومحاربة الفرنسيين، كما أدرك سلموري مدى خطورة هذا الحصن واعتبره تهديدا مباشرا له فاستعد للأمر[1].

ونتيجة لهذا أرسل مونتاجا "Montaga" شقيق أحمدو خطابا إلى ديبور حمله فيه مسؤولية التحالف مع البمبارا وتدمير البلاد، غير أن الأخير تمكن من تحقيق أهدافه حيث رسم السيطرة الفرنسية على المنطقة المحصورة بين مدينتي باماكو على النيجر ومدين "Médine" على نهر السنغال[2]، ولما عين بواليف "Boileve" خلفا لديبور أوقف العمليات العسكرية فيما بين سنتي 1301هـ 1883م، 1302هـ 1884م وذلك بسبب الخسائر المادية والبشرية، وصدرت التعليمات بالاكتفاء بتمويل المراكز ومد الطرق إلى باماكو[3]، وإقامة الحصون في المناطق الاستراتيجية الهامة لتكون نقطة انطلاق للحصون الباقية[4].

وأمام هذا الوضع زادت صعوبة أحمدو وتقلص نشاطه في نشر الإسلام بين البمبارا الوثنيين إذ تركزت جهوده على مواجهة الفرنسيين، فاضطر إلى نقل عاصمته "سيغو" الواقعة قرب "باماكو" إلى نيورو عاصمة كارتا، واتخذها مركزا لجهاده، ومنذ هذه الفترة زاد توتر العلاقات بين الفرنسيين وأحمدو وخصوصا بعد مؤتمر برلين 1884-1885م، الذي نصت بعض بنوده على ضرورة إعلام أي دولة تحتل أي جزء من إفريقيا بقية الدول، على أن يتبع الإعلام بإحتلال فعلي، فانطلقت فرنسا تلتهم القارة بنهم وشهية مفرطة، و لم يعد يكفها بناء الحصون والمراكز، بل صارت تفرض سلطانها وسيطرتها عسكريا[5].

وفي هذه الفترة خلف كومب "Combes" زميله بواليف (1302هـ 1884-1303هـ 1885م) في الوقت الذي كان أحمدو قد نقل عاصمته إلى نيورو وبدأ يهدد الفرنسيين، كما هاجم البمبارا وحقق بعض الإنتصارات، وقد تزامن هذا بظهور موجة احتجاج في باريس " Paris "بالاكتفاء بمستعمرة السنغال والإنسحاب من السودان الغربي، غير أن الضابطين الفرنسيين "أرشينار" "Archinard" ومونتي "Montel" تصديا للأمر وتمكنا من إقناع البرلمان الفرنسي بالعدول عن هذا الرأي[6].

ولما عين فراي "Frey" قائدا لأعالي النهر وجه اهتمامه للتصدي لأحد رموز المقاومة الوطنية محمدو لامين الذي سنتعرض له في فصل لاحق.

(*)- أمراض وأوبئة عديدة على رأسها الحمى الصفراء التي فتكت بالعديد من الأوروبيين.

(1) Miniaud ,J,;op-cit, tome 1, pp.163-178.

(2) Guernier,eugeunne'AfriqueOccidentale,tome1,L.PayotPARIS.1929.p.58

(3) Hanotaux, g,;op-cit, tome4; p180.

(4) Miniaud ,J,;op-cit, tome 1, pp.194-195

(5) Guernier,eugeunne;op-cit,tome1,p58.

(6) Miniaud. J : Op-Cit P246

ولذلك تميز الوضع بالمهادنة والهدوء بين التكرور والفرنسيين، غير أن هؤلاء أبقوا على علاقاتهم الودية بالمبارا وتزويدهم سرا بالأسلحة، رغم معارضة أحمدو واحتجاجاته المتكررة[1]، هذه الفترة استغلها أحمدو لتنظيم نفسه، فجدد نشاطه الدعوى في محاولة لكسب المؤيدين والأنصار، وفي عام 1304هـ/1886م تولى القائد الفرنسي "غاليني" "Gallieni" القيادة وركز اهتمامه للقضاء على زعماء الجهاد الإسلامي في المنطقة، محمدو لامين وساموري توري فهادن أحمدو مؤقتا وعقد معه معاهدة "جوري" "Gouri" سنة 1304 هـ 12ماي 1887م، تم بمقتضاها وضع بلاد أحمدو تحت الحماية الفرنسية وسمح للفرنسيين بالملاحة في نهر النيجر وبناء المنشآت[2]، وفي نفس الوقت حصلوا على معاهدة ممثالة من الأمير أجيبو "Aguibou" شقيق أحمدو[3].

ونتيجة لذلك تمكن "جالين" من القضاء النهائي على محمدو لامين وإلقاء القبض على ابنه سويبو "Soybou"وخضعت المنطقة للفرنسيين، وقسمت إلى عدة مناطق حكمها ضباط فرنسيون تابعون للقائد الأعلى في السودان الغربي، وهذه المراكز هي: باقل "BAKEL"، ميدين "MEDINE"، بافولابي "BAFOLABI"، كيتا "KITA"، باماكو "BAMAKO"، ريسيجري " RESEGUERI" واتخذت مدينة كايس "KAYS"مقرا لقيادة العمليات العسكرية(4)، ورغم هذا لم تفتر عزيمة أحمدو وصمد يواجه التحدي الإستعماري واستمر يجمع شتات قواته لرأب صدوعها وتنظيم المقاومة من جديد، وفي هذه الأثناء تم تعيين لويس آرشينار "Louis Archinard"خلفا لجاليني في الفترة ما بين 1303هـ 1888م/ 1306هـ 1890م، ثم غادر المنطقة عائدا إلى فرنسا ومنها قفل عائدا ثانية في عام 1310هـ 1892م/ 1311هـ 1893م، وكله عزم على القضاء على المقاومة الوطنية والقضاء على الحركة الإسلامية بزعامة أحمدو، وهو بذلك يخالف سياسة سلفه جاليني الذي كان يؤمن بالإبقاء على العلاقات الحسنة والودية مع التكرور.

ورغم تحذير حاكم السنيغال بضرورة عدم إستخدام القوة إلا أن آرشينار أصر على التمسك برأيه وقرر القضاء على الإمبراطورية التكرورية(5).

والواقع أن آرشينار عند وصوله إلى السودان وجد الفرنسيين يسيطرون على المناطق الممتدة بين كايس على نهر السنيغال حتى نهر النيجر، غير أنهم لم يستطيعوا فرض سلطانهم على شمال وجنوب هذه المنطقة بسبب وجود قيادات إسلامية مناوئة، ففي ذلك الوقت كانت الدولة الإسلامية التكرورية تعاني من الإنقسامات في الإدارة، ففي الشمال كان أحمدو يحكم كارتا

---

(1) Miniaud J ;IBID p.246.
(2) Hanotaux, g;op-cit, tome4; p182
(3)- د/ عبد الرحمن عمر الماحي: المرجع السابق، ص161.
(4) Miniaud ,J;op-cit,, tome 1, p.302.
(5) Hanotaux, g; op-cit, tome1; p401

من نيورو وابنه مدني يحكم سيغو على نهر النيجر، ويحكم ابن عمه تيجاني ماسينا من كانديـاجرا "Kandiagara" ويحكم أخوه أجيبو منطقة دونجويري "Danguiraye".

أما ساموري فقد كان يواصل عملياته العسكرية ويكثف من هجماته على القوات الفرنسية الغازية في أعالي نهر النيجر[1]، ورغم هذه العمليات الحربية فقد كانت المنطقة عند وصول آرشينار تتمتع ببعض الهدوء، لكن بوصول هذا الأخير وقضائه على محمدو لامين تطلع الفرنسيون إلى إبتلاع أراضي أحمدو لتحقيق حلمهم الإستعماري في إنشاء إمبراطورية إستعمارية واسعة في إفريقيا.

شن آرشينار الحملات العسكرية العنيفة التي أثارت الرعب والفزع في نفوس الناس،وقطع المواصلات بين أجزاء الدولة الإسلامية، واستمر يواصل حملاته حتى تمكن من دخول سيغو في سنة 1306هـأفريل 1889م، وترتب عن سقوطها بداية إنهيار الدولة الإسلامية[*]، وخوفا توافد زعماء المناطق المجاورة للمدينة وأعلنوا دخولهم في طاعة الفرنسيين المستعمرين[2]، ورغم الخسائر التي تكبدها أحمدو إلا أنه استبسل في المقاومة ورفض الخضوع للأجانب الدخلاء، واستمر مجاهدا يجمع شتاة جيشه ويكافح ويحرز الإنتصارات، وأمام الضغط إنسحب شمالا فواصلت القوات الإستعمارية تعقبه وتمكنت بعد معارك طاحنة من إفتكاك عدة حصون من يد أحمدو،فانسحب إلى مدينة نيورو التي أضحت هدفا للقوات الإستعمارية الغازية، حتى تمكنت من دخولها بعد مشقة سنة 1308هـ/جانفي 1891م فغادرها أحمدو متجها صوب مدينة ماسينا، حيث أخذ يعد العدة وينظم الصفوف ويستعد مجددا لمواجهة جبروت قوى الشر الفرنسية.

أما آرشينار فقد استعان بالمبارا واتصل بآجيبو شقيق أحمدو وعينه خليفة مكان أخيه في سيجو سنة 1310هـ أفريل 1893م[3]، وقوبل هذا التنصيب الذي تم على يد الفرنسيين باستياء بالغ ورفض جماعي من قبل زعماء التكرور، أما أحمدو فقد لجأ إلى القبائل المجاورة بين باندیا غارا "Bandia gara" وهمبوري "Hambori"، وفي هذه الأثناء كان النقيب بلاشير "Blachir" المكلف بمراقبة المنطقة يواصل ضغوطه على خلفاء أحمدو فاتجه هذا الأخير إلى منطقة ساي "Say"عبر نهر النيجر وتمركز في دونقا "Dounga"قرب نيامي "Niami" حيث التقى هناك بأحد حلفائه القدامى علي بوري "Ali Bouri"، وفي هذه المناطق استقبل والقوات المرافقة له بحفاوة بالغة[4]، غير أن الفرنسيين لم يتركوه فاتجه نحو سوكوتو

---

(1) Hanotaux, g; op-cit, tome4; p183

(*) انظر الشكل رقم 10، ص235.

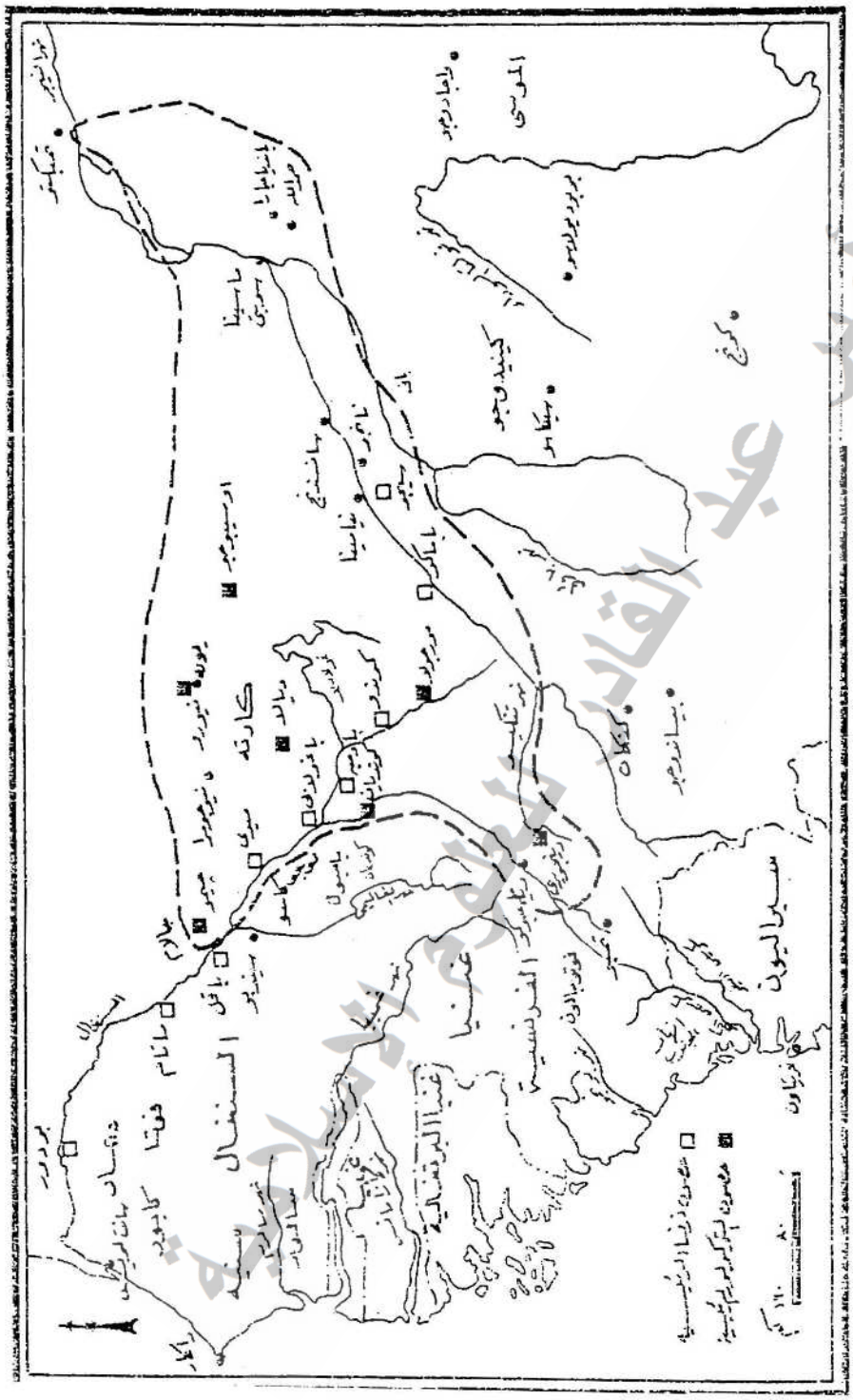
(2) Miniaud ,J ; tome 1,op-cit p.431.

(3) Urvoy. ; Op-Cit, p112.

Urvoy. ; Ibid, p112. 4)

(**)- تذكر بعض الروايات أنه مات قبل بلوغه مدينة سوكوتو.

الشكل (10)



إمبراطورية التكرور في عهد أحمدو شيخو

عن د/ إلهام محمد علي دهني، ص 234

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عام 1316هـ/1898م حيث توفي بها(**)، عن عمر يناهز الخامسة والستين سنة[1]، وبقي ابنه محمد باسيرو "Basirou" الذي منحه خليفة سوكوتو قرية سماها

دار السلام واستقر بها مع جيشه، وقد اعترف باسيرو بجميل الخليفة وصنيعه معه، فقدم له المساعدات لمقاومة القوات الإنجليزية التي اجتاحت دولة سوكوتو[2].

وهكذا تم القضاء على الدولة الإسلامية التكرورية التي أنشأها الحاج عمر سنة 1316هـ/1898م بعد القضاء على قواته العسكرية وخروج قائدها إلى "سوكوتو" وسقوط العاصمة ماسينا في يد الفرنسيين[3] ورغم سيطرة فرنسا على المنطقة وضبط حدودها، إلا أنها لم تستطع أن تفكك شخصية الإفريقي المسلم وتفصله عن العروبة والإسلام الذي طالما تمسك بهما وبقيت الحركة نموذجا يحتدى به.

ويمكن أن نخلص بعد هذا العرض الوجيز إلى أن الحركة الإصلاحية التي قام بها عثمان بن فودي لم تبق داخل حدود بلاده حبيسة، بل راحت إلى أبعد من ذلك، وانتشرت في مناطق واسعة إذ بلغت بلاد غانا وساحل العاج وكوت ديفوار وغينيا، وغامبيا، و كان من ثمار هذه الدعوة حركة العالم المجاهد الحاج عمر تال الذي رفع راية الدعوة إلى الإسلام والإصلاح، وقد كان طموحه كبيرا فاستطاع أن يجمع علوما كثيرة في غرب إفريقيا أكملها أثناء زيارته للحواضر الإسلامية في المغرب والمشرق، والتقائه بزعماء الطرق الصوفية، فتقلد منذ سن مبكرة منصب خليفة الطريقة التيجانية في بلاد السودان.

حضي الحاج عمر بتقدير علماء المشرق وخاصة في بلاد الشام، إذ اعترفوا به عالما واسع الأفق ومفكرا يتمتع باستقلال الشخصية، وكان للزاد العلمي والثروة اللغوية والأساليب الأدبية المؤثرة التي حصلها والقدرة الخطابية التي تمكن منها فضلا على قوة شخصيته، هذه العوامل أحاطته بهالة من التقديس والإكبار، فأتاح له كل هذا استقبالا رائعا في كل المناطق التي مر بها.

لقد التقى الحاج عمر بصفوة من زعماء الحركات الإصلاحية والدعوية والعلماء في عصره مباشرة بعد عودته من البقاع المقدسة، وفي كل لقاء أو اتصال برهن فيه على مدى قوة هذه الشخصيته وفرض احترامها على كل من يلتقي به أو يستقبله أو فيما يباشره من عمل.

وقد لاحظنا ذلك من خلال سلسلة لقاءاته فقد استقبله سلطان واداي شرق بلاد تشاد بالترحاب وقدم له العون والمساعدة، كما نال احترام وتقدير حاكم مملكة "كانم برنو" الشيخ محمد الأمين الكانمي، الذي استقبله بحفاوة وسمح له بممارسة النشاط الدعوي والإصلاحي، فأثار النجاح الذي حققه مخاوفه، فدبر له المكائد حتى أخرجه من البلاد.

لم يحفل الحاج عمر بما يقع له في سبيل دعوته فاتجه كما رأينا إلى سوكوتو، وحفه سلطانها

---

(1) Urvoy. ;Ibid, p117.

(2)- د/ عبد الله عبد الرازق ابراهيم: الحركات الاصلاحيةفي غرب افريقياني القرن 19، المرجع السابق، ص5.

(3) صادق يلبي:"السنغال" مجلة العربي، العدد 436، المرجع السابق ، ص36.

محمد بلو بن عثمان بن فودي في بلاطه ببالغ الإحترام والتوفير، وسمح له بممارسة نشاطه العلمي والدعوي في المملكة وقربه إليه وأثمرت هذه العلاقة الحميمية بمصاهرة بين الرجلين، كما دلت مناقشاته وآراءه والحوار الذي أجراه في سوكوتو مع علماء وفقهاء المملكة وخلافه معهم على باعه الطويل في مجال العلوم والمعارف.

وما استقبال أحمدو لوبو الماسيني للحاج عمر في حمدا لله بشديد الحذر والخوف من شعبيته إلا دليل آخر على قوة هذه الشخصية وثورتيها على الأوضاع القائمة، وهذا كما لاحظنا قد فتح الباب على مصرعيه للصراع الخفي الذي ما فتئ يظهر بين المسلمين التقليديين المتمسكين بزمام السلطةوبين الحاج عمر الذي كانت نظرته أوسع إذ كان يرمي الى جمع شمل المسلمين في المنطقة تحت راية واحدة تعلوها راية الإسلام الصحيح، بهذه الأعمال أثار الحاج عمر ريبة الحكام الوثنيين في البلاد، فعمد حاكم سيغو إلى إلقاء القبض عليه و سجنه. كل هذه التجارب والمعاناة التي مر بها، جعلت منه شخصية فذة في السودان الغربي نظر إليها السكان نظرة التوقير والإحترام فاندفعوا إليها وألتفوا حولها.

لقد استطاع الحاج عمر كسب أئمة الفوتاجلون "Foutadjlon" الذين رحبوا بمقدمة وبإقامته بين ظهرانيهم لما رأوا فيه من علم وكفاءة وإخلاص، فاستأنسوا لدعوته وانساقوا وراءه، لذلك أتيح للحاج عمر وبيسر تجنيد أتباعه وجمع صفوفهم وتنظيمهم وتوجيههم للعمل المثمر .

ومنذ استقراره بالمنطقة نظم طريقته وكون جيشا من الأتباع والمريدين، ووضح أهدافه ومبادئه التي تعتمد على نشر الإسلام وتنقيته ومقاومة الوثنية، والوقوف في وجه الإستعمار وأعوانه وإحياء مجد الإسلام كما كان في العصور الوسطى في البلاد الإسلامية.

قام بسياحة في البلاد ونشر عيونه وترصد الأوضاع السائدة بين بني قومه والفرنسيين، فلاحظ أن الحكام الوثنيين قد ارتضوا نظام الإستعمار، وأن هذا الأخير قد تمركز في المنطقة بقوة لذلك لم يواجهه وأوهمه بدبلوماسيته المرنة أنه يهادنه، فكسب ثقة الفرنسيين مؤقتا،ودل هذا على حنكته السياسية وذكائه وبعد نظره.

لقد استطاع الحاج عمر بث دعوته ونشر الإسلام بين الوثنيين بطوائفهم المختلفة، ومكن للطريقة التيجانية التي كان خليفتها فانتشرت مبادئه، ولقيت استجابة في النفوس التي كانت تتطلع إلى قيادة تسير خلفها لرفع الظلم ومقاومة الإستعمار، وبفضل هذه الدعوة الإسلامية بزعامته الطريقة التيجانية تخلت القبائل الإفريقية على تكتلاتها وعصبياتها نسبيا وبذلك كان الإسلام هو الذي أعطى صورة الوحدة السياسية والاجتماعية والدينية التي عبرت عن التطور الجديد الذي سارت في إطاره حركة الحاج عمر ومن بعده أبناءه.

ولقد استطاع الحاج عمر رغم المصاعب والمشاكل من إقامة نظام أصبح بموجبه الاتصال بين المسلمين جميعا، ميسورا دون حواجز فاتصل العامة بالشيوخ اتصالا مباشرا،وبذلك كانت حركته شعبية

إلى حد كبير، قطعت تلك الحواجز التي كانت ضرورية بين الحاكم والمحكوم وبين شيخ الطريقة والجماهير وبين التصوف والعمل.

لقد مزج الحاج عمر في طريقته بين الدين والدنيا مزجا رائعا، فتهيأت له سبل الوصول إلى السلطة السياسية والقيادة العسكرية والريادة العلمية ليخرج البلاد من محنتها.

إن وجود عدوين متحالفين ضد حركة الحاج عمر، الاستعمار من جهة والوثنيين من جهة أخرى،وانشغال صاحب الحركة بالجهاد على هذه الجبهات من جهة ثالثة،هو الذي حال دون إقامة تنظيمات قوية للدولة التي أنشأها.

وإذا كان الحاج عمر قد رفع راية الجهاد ضد خصمين متعاونين وانتهى شهيدا في سبيل نشر الإسلام وعقيدته بين الوثنيين من جانب ومكافحة الاستعمار من جانب آخر، فإن انتقاله إلى العالم الآخر لم يخمد نار جذوه الجهاد، بل تواصلت مستمرة كما كانت في عهده أوأشد، غير أن خليفته من بعده أحمدو شيخو – رغم كفاءته – وجد صعوبة كبيرة في السيطرة على زمام الحكم، الذي خلفه والده فقد توسعت الشقاقات بين أبناء الحاج عمر من ناحية،وزيادة توغل الاستعمار من ناحية أخرى في المنطقة،و وصول قادة عسكريين استعماريين، تختلف نظرهم إلى الحركات الإصلاحية الإسلامية والوطنية عن نظرة وسياسة أسلافهم، لذلك انقضوا على المملكة مستغلين خلافات العائلة الحاكمة، ووقوف الوثنيين من أبناء البلاد الى جانبهم ورغم ذلك فقد أبلى احمدو بلاء حسنا في مكافحة الوثنية والاستعمار.

ولئن كان الحاج عمر وأبناؤه من بعده، لم يتمكنوا من إقامة دولة إسلامية قوية في إفريقيا جنوب الصحراء في العصر الحديث على غرار تلك الدول والإمبراطوريات الإسلامية التي قامت في المنطقة في العصور الوسطى، فإن الحاج عمر كان من أكبر المهدين لمن جاء بعده من الأفارقة الغيورين على حريتهم ودينهم، فقاوموا على غراره الإستعمار البغيض بجميع جنسياته، لأن الحاج عمر كان يمثل النموذج الطموح للانسان الافريقي، وقد استطاع بقوة نفوذه وشخصيته المتميزة أن يقوي روابط وحدة القارة السمراء ويصهر أتباعه المنتمين إلى قبائل مختلفة. وما زال ذكر الحاج عمر تال وابنه أحمدو شيخو كما كان يثير الرعب والخوف في نفوس الوثنيين والخونة والمستعمرين، يثير اليوم الإعجاب والإحترام والتقدير في نفوس الوطنيين في عموم إفريقيا.

ب- حركة الشيخ ماباجا خوبا " Mabaga Khouba "1281هـ/1867هـ :

سأتناول في هذا القسم حركة إصلاحية ودعوة من الدعوات الجهادية التي عرفتها منطقة السودان الغربي، هذه الحركة قامت لإصلاح أحوال المجتمع والعودة به إلى الإسلام الصحيح الخال من أي اثر دخيل على التعاليم الاسلامية عن قصد بغية التشويه أو عن غير قصد نتيجة الجهل والإنحراف عن جادة عقيدة التوحيد، بالإضافة إلى نشر الإسلام بين القبائل التي مازالت ترزخ تحت نير الوثنية، وقد صاحب هذين الهدفين مقاومة القوات الإستعمارية الغاشمة، التي اندفعت نحو القارة،وتزعم هذه الحركة أحد أبناء المنطقة التقاة الأشاوس المشهور بـ مابا " Maba".

أوضاع المنطقة قبل ظهور الحركة :

ظهرت حركة الشيخ ماباجا خوبا الإصلاحية على تخوم حدود بلاد السنغال كسائر الحركات الإصلاحية والدعوية الأخرى في إفريقيا الغربية والوسطى بعد حركتي عثمان دان فودي والحاج عمر تال وغيرهما..

لقد ظل المسلمون عبر القرون يقومون بحركة الجهاد وينشرون الدعوة الإسلامية لإصلاح أحوال المجتمع، و لم يسكتوا عن الظلم ومرتكبيه و لم يهادنوا أهله أو يستكينوا إليهم، كيف ما كانت أصولهم وجنسياتهم؟ وكم ثاروا على حكام من بني جلدتهم انحرفوا عن جادة الشرع؟، وكم قاوموا حكاما غير مسلمين رفضوا الإنصياع لنداء الحق واعتناق الإسلام؟.

إذا كان هذا حالهم مع حكام من بني جلدتهم وعلى دينهم، فما بالك والحكام كفرة ودخلاء على المنطقة؟، وهذا ما داهم القارة في القرون الأخيرة، فبعد انتشار المد الاستعماري الأوروبي لمختلف أنحاء المعمورة، كان تركيزه على القارة الإفريقية خاصة منذ مطالع القرنين الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، حيث راح الإستعمار الفرنسي يبسط نفوذه على هذه الربوع مستعملا مختلف الطرق والوسائل المادية والمعنوية، وكانت منطقة أنهار الجنوب وخاصة السنغال من بين المناطق التي خضعت للنفوذ الفرنسي الذي استغل ضعف وغفلة الحكام المحليين ليهيمن على كل مقدراتها ويستغلها أبشع استغلال[1].

ومنذ عام 1271هـ 1854م عين الجنرال الفرنسي ليون فيدرهرب "Léon Faidherb"حاكما لإقليم السنغال، وكان من أشد المتحسين لتحقيق أطماع ورغبات حكومته فبذل كل ما في وسعه لتثبيت التواجد الفرنسي في المنطقة وتمهيد السبيل والتمكين لخليفته بنية لابراد "Pinet Laprade"[2].

---

(1)- زاهر رياض: استعمار إفريقيا، مرجع سابق، ص157.
(2)- زاهر رياض: المرجع نفسه،ص 158.

لما تولى هذا الأخير القيادة في بلاد السنغال كان الأفارقة حينها أشتاتا متفرقين بسبب ابتعادهم عن الإسلام الذي كان يجمع شملهم، ويؤلف بينهم ويستنهض هممهم. وركنوا إلى الرذيلة وآمنوا بالبدع والخرفات وانساقوا وراء الشهوات، وتهافتوا على العادات والتقاليد الدخيلة على المجتمع الإفريقي فازدادوا فقرا وتدهورا على كل الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخلقية، وتسابقوا على شرب الخمور ولعب القمار وممارسة البغاء أناء الليل وأطراف النهار، وحتى على قارعة الطريق وأمام أعين المارة،وتقاعسوا عن العمل والكسب،فتفشت بينهم البطالة والأمراض الاجتماعية والنفسية والبدنية على حد سواء.

يبدو أن هذه التأثيرات السلبية المتنوعة التي أصابت المجتمعات الإفريقية في القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، ما زالت تعاني منها شعوب كثيرة في القارة السمراء، و لم تستطع التخلص منها بسبب ابتعادها عن الديانات السماوية لاسيما الإسلام والمسيحية.

في هذا المناخ الاجتماعي المتدهور أقدم لابراد " Laprade " على تنفيذ سياسته الاستعمارية دون أن يجد مقاومة في طريقه،فقام بإبرام سلسلة من المعاهدات والإتفاقيات مع زعماء القبائل وقادة العشائر في المنطقة، مما سمح له بإقامة العديد من المراكز العسكرية في المناطق الإستراتيجية الحساسة، وبذلك استطاع تثبيت دعائم حكم الإستعمار الفرنسي في غرب إفريقيا[1].

وإذا كان حكام المنطقة الضعاف وقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذا المد الغربي الجارف،فإن المسلمين الذين ما انفكت أحوالهم تزداد سوء استشعروا الخطر الذي كان يحدق بهم ويحوطهم من كل جانب فتطلعوا إلى البحث عن قيادات قوية ومخلصة تنقذهم من الحالة التي آلت إليها البلاد، لاسيما وانهم كانوا يسمعون عن جهاد الحاج عمر الذي يعتبر أحد زعماء التغيير الاجتماعي والسياسي لإفريقيا الصحراوية[2].

كسب "لابراد" بفضل هذه السياسة الحكيمة سمعة كبيرة باتت تنمو يوما بعد يوم في الوسط العسكري الاستعماري، فاهتم به السياسيون اهتماما فائقا وعدوه من أبرز حكام هذه المنطقة نظرا للأعباء الجسيمة التي تحملها، وللدور الذي لعبه في بسط النفوذ الاستعماري الفرنسي في غرب القارة السمراء، فعد بذلك المؤسس الفعلي لمستعمرة ما يسمى بأنهار الجنوب.

كانت سياسة "لابراد" هذه تهدف إلى كبت أنفاس سكان المنطقة وضمان استمرارية خضوع مستعمرة السنيغال من جهة ومنافسة نشاط التجار الأروبيين بصفة عامة، والإنجليز بوجه خاص من جهة أخرى لاسيما في سيراليون، وعند مصبات أنهار الجنوب، كما ركز على منطقتي سين وسالوم[*] "Sin" "Saloum" المتاخمتين لحدود السنغال اللتين حاول سلفه إخضاعهما إلا أن ظهور أحد المجاهدين

---

(1)- د.إلهام محمد علي ذهني: المرجع السابق، ص100.

(2) Eu gene Mage, Voyage au Soudan occidentale, 1863-1866, Edition Karthela, Paris,1880, p.88

(*) أنظر الشكل رقم 10، ص235.

من رجالات الحركة الإصلاحية والدعوة الإسلامية في المنطقة حالت دون تحقيق هدفه بالشكل المنشود،هذا الداعية المصلح هو الشيخ ماباجا خوبا "Mabaga Khouba"(*).

حياة مابا وأعماله :

إن شح المصادر والمراجع التي تتناول إفريقيا عموما وحركة هذا الداعية المصلح خصوصا اضطرني إلى التماس المعلومات الضئيلة من مختلف المصادر والمراجع التي لا تشفي نهم الباحث وغليله في هذا الموضوع لأن هذه المصادر والمراجع لم تشر إلى هذا المصلح وسيرته الجهادية إلا إشارات طفيفة لا تنير درب الباحث، ولا تسلط الأضواء الكاشفة عن الجوانب المستترة التي قد تكون هامة في حياة وحركة هذه الشخصية، فهي وإن تطرقت لبعض أعمال الرجل فقد أهملت التفاصيل الضافية عن حياته في مرحلة الطفولة والشباب، بل فقد أهملت أسرته تمام الإهمال و لم تذكرها ولو بكلمة واحدة، مما جعلني أتحرك بصعوبة كبيرة في التأريخ لهذا الداعية الإصلاحي.

اختلف مابا إلى مدارس المنطقة التي ولد فيها كغيره من شباب عصره، فتعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وتعلم اللغة العربية والعلوم الإسلامية المختلفة، ولما انتهى من التحصيل برز كعالم صالح له مكانته في المجتمع، وبفضل تكوينه وغيرته على الدين شرع في الدعوة إلى الإسلام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في بلاده بين القبائل المتعددة والعشائر المختلفة.

والحقيقة أن ما كان يقوم به ماباجا خوبا من إصلاح وتربية في أوساط الشعوب الإفريقية المتعددة المشارب المتنوعة المعتقدات والمتفاوتة المستويات لم يكن سهلا ميسورا بسبب العقبات التي كانت تقف سدا في طريقه من جهة، والصدود الذي يلاقيه من قبل القبائل والأفراد ولاسيما الوثنيين منهم من جهة أخرى،و قد تصدى المصلح لهذه الصعوبات بصبر شديد،وقابل النفور والشرود بالمزيد من التقرب والتودد إلى الناس ومعاملتهم بالحسنى، وكان هذا مثار اهتمام وتقدير من قبل العلماء ورجال الدعوة والإصلاح المعاصرين خاصة. ويبدو هذا بجلاء من خلال رأي المصلح الكبير الحاج عمر بن سعيد الفوتي الذي توسم في مترجمنا الخير والصلاح ورجاحة العقل في وقت مبكر(1).

وما لبثت حركة المصلح أن اتسعت وتعمقت مبادئها في المنطقة وسمع بها القاصي، وانخرط في صفوفها الداني، وزادت من رعب المتخوفين والمتخاذلين،ومن هنا وقف منها المصلح السالف الذكر ـــ الحاج عمر ـــ موقف المؤيد والمساند للشيخ مابا معترفا بفضله وإنجازاته في مجالات الدعوة والإصلاح والمقاومة.

شب مابا في كنف اسرة متدينة ،لكن في جو اجتماعي فاسد وبيئة متعفنة بسبب ما ظهر من آفات وانحراف عن الدين الإسلامي الحنيف، واستهتار بقيمه السمحة ومثله النبيلة، ولعل أوضح صورة

(*) وردت في راجع أخرى بالشكل الآتي : Mabaga Kouba

(1) د/ عبد الرحمن عمر الماحي: المرجع السابق، ص164.

للعهد الذي ظهر فيه هذا المصلح مابا ماأورده أحمد بن القاضي أبي بكر بن يوسف بن إبراهيم التمبتكي في مخطوط صغير(*) رفعه سنة 1215هـ 1800م الى الباي حمودة باشا الذي حكم في الفترة المحصورة بين سنتي 1196هـ 1782م، 1229هـ 1814م، والذي اشتهرت فترة حكمه بزيادة النشاط الزراعي والتجاري وازدهار الصناعات والعمران مع تفاقم الأمراض والأوبئة[1].

قدم فيه صورة عامة عن الأساليب الغريبة التي كان يعيشها أهالي السودان الذين انتقلوا إلى تونس حول ما يتصل بأخلاقهم وسلوكهم، وكيف أنهم تخلوا عن اتباع الدين الإسلامي وعبدوا الأصنام حتى أنهم كانوا يجتمعون في دروبها مطامير وأصنام وآلات مثل دار "كوفة" التي تضم حسب اعتقادهم سلطان آلهتهم "شركندو" وهو صنم،و"شرك كوار" وهذا الأخير دون سابقيه في الرتبة،وكانوا يجتمعون في هذه الدار في شهر شعبان، كما يجتمع الحجاج في بيت الله الحرام في موسم الحج، ولهم كثير من الأصنام يقدمون لها الذبائح والقرابين وما إلى ذلك من مظاهر الشرك المختلفة[2]، كما كانوا يركعون ويسجدون أمام قبر شاغر يزعمون أنه يضم بين جنباته إمرأة يدعونها "أمنا"[3]، وقد انتقدهم التمبكتي في هذا المخطوط نقدا جارحا مسفها آرائهم وشنع بسلوكاتهم وفساد أخلاقهم واخلالهم بالأمن، وقد أكد على أنهم كانوا يتبعون طرقا وثنية، ومن هنا فإن المطلع على هذا المخطوط يتضح له بجلاء ما كان عليه أهل السودان، ليس فقط في بلادهم بل وفي البلاد التونسية، من شرك وبدع وخرافات ، وإذا كان هذا حالهم في تونس حيث يعيشون في وسط إسلامي صرف، فكيف وهم يعيشون في جنوب الصحراء؟،

هذا بوجه عام الوضع الذي ظهر فيه الشيخ مابا كمصلح ديني إجتماعي، ترى كيف جابه تلك العقول الجامدة والأخلاق الفاسدة؟.

نعم، لقد انبرى ماباجا خوبا لإصلاح المجتمع وإنقاذه من الإنحطاط الأخلاقي والاجتماعي والروحي الذي وصل إليه في تلك المرحلة لاسيما وأنه العالم العارف بأحكام الشريعة التي تحض على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد أورد التنبكتاوي السالف ذكره حديثا نسبه إلى الرسول (ص) ***"إذا ظهرت الفتن وسكت العالم فعليه لعنة الله"***[4].

والحق أن هذا لم يكن ليغيب عن ذهن مابا ولا ليغفل عنه فسارع لنشر الدعوة والإصلاح وإخماد نار البدعة والفتنة وغيرهما، و لم يتوقف الخطب عند هذه البوائق بل تجاوزها، فإلى جانب الإنحطاط الأخلاقي والفكري، فقد كانت العصبية القبلية والروح العشائرية والنظرة الضيقة تمزق المجتمع

(*) أنظر الملحق رقم 4.

(1)- د/ الإمام رشاد:(سياسة حمودة باشا في المجال التجاري)، المجلة المغربية، ع2، مطبعة الإتحاد العام التونسي للشغل تونس، جويلية 1974م، ص ص 83-84.

(2)- د/ عبد الجليل التميمي: الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس وليبيا ووسط وغرب إفريقيا، خلال العصر الحديث، مطبعة الإتحاد العام التونسي للشغل 1981م، ص ص.42-44.

(3)- د/ عبد الجليل التميمي: نفس المرجع، ص47.

(4)- د. عبد الجليل التميمي: المرجع نفسه، ص54.

وتعصف بوحدته الدينية والسياسية والفكرية، حيث تجبرت بعض الفيئات المتنفذة في المجتمع لقربها من الحكام الذين أهملوا شؤون الرعية وجعلوا بينهم وبين رعاياهم وسطاء من طائفة "تبدو"(*)، فاستبدت هذه الأخيرة بالضعفاء من العامة، و لم يكن ذلك كله ليغيب عن فكر مابا ونظره.

قامت دعوة الشيخ كرد فعل معاكس لما كان يتعرض له سكان المنطقة عموما والمسلمين خصوصا، من ظلم وتعسف من قبل طائفة "تيدو" الوثنية التي كانت منتشرة في بلاد السنغال، ولها ارتباطات وثيقة الصلة بالسلطات الحاكمة، وكانت تقوم بمختلف الأعمال الوحشية المستهجنة المتميزة بالغرابة والبعيدة عن كل سلوك إنساني وحضاري، لقد كانت هذه الطائفة تعيش على السلب والنهب والتعدي على الحرمات والسطو على ممتلكات الناس وثرواتهم والتصرف فيها بمطلق الحرية، دون وازع ديني أو رادع قانوني ولا حتى مجرد الشعور بالذنب، بل راحوا ينشطون في هذه الممارسات ويتباهون بها، فزاد هذا من سوء وضع حال الرعية التي باتت تفكر في إيجاد وسيلة ناجعة لإخراجها من الوضع الذي آلت إليه، وإنقاذ حالها الذي ما انفك يزداد تدهورا[1].

أمام هذا الوضع المتدهور على كل الأصعدة الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية فما عسى ماباجا خوبا أن يفعل؟، وهو لا يحوز من الوسائل المادية ولا يملك من المعدات العسكرية ما يقاوم به مظاهر وحال التدهور والانحطاط اللذين وصل إليهما المجتمع في إفريقيا جنوب الصحراء، سوى إلقاء الدروس والمحاضرات وخطب الوعظ والإرشاد ودعوة الناس بالحسنى إلى سبيل الرشاد، معتمدا في ذلك على النص القرآني والسنة النبوية الشريفة، فزاد إقبال الناس عليه وذاع صيته في البلاد وحظيت دعوته بقبول حسن من قبل الجماهير، فتنبأ له الحاج عمر بمستقبل زاهر وباركه[2].

استمر ظلم تيدو وازداد تفاقما و لم يتوقف الخطب عند تلك الحدود التي بلغها، بل زاد الأمر سوء وخاصة عندما اعتلى سدة الحكم في البلاد "داودمبا" "Daoud Méba" أحد ملوك هذه الطائفة فتضاعف ظلم هذه الفئة في المجتمع، وساندها في ذلك الملك، حتى بلغ الظلم والإستبداد مداهما وفاقا حدود التصور والمعقول، إذ راح الملك وحاشيته يفرضون الضرائب المرهقة التي تجاوزت الحدود المقبولة يثقلون بها كواهل الناس وهم عاجزون عن الوفاء بدفعها، كما عمد إلى مصادرة الحريات العامة للجماهير، والزج بالزعماء والأعيان منهم في غياهب السجون، وإزهاق الأرواح البريئة لمعارضيه وحتى في من يساوره الشك في نفوره أو تبرمه من سياسته دون دليل، واستفحل خطر هذا الحاكم المتجبر بمرور الوقت ودفعته الدناءة والجبروت إلى الحد الذي جعله يسن القوانين ويضع التشريعات ويصدر

(*)- تيدو: هذه الكلمة معناها الكفر والخبث والخشونة والوحشية والنفاق والدناءة، وهي تعني في المنطقة قبائل الولوف، وتعطي معنى سونينكي عند قبائل مندنكي، ويبدو أنها صفة لكل شعب يتصف بالمواصفات السالفة. انظر د/ عبد الرحمن عمر الماحي، المرجع السابق، ص163.

(1)-د. عبد الرحمن عمر الماحي: المرجع السابق، ص163.

(2)- المرجع نفسه، ص.164.

المراسيم والقرارات، يضيق بموجبها الخناق على الناس ليحد من ممارسة حياتهم الطبيعية الخاصة، وبلغ به الانحطاط إلى حرمان الرعية من الزواج وبناء الأسر وإنجاب الأطفال واستخدام الملح في الطعام، ومنع الرجل من ارتداء السروال، وقد استند في ذلك إلى أسس واهية واعتبارات لا أساس لها من الصحة والصدق، ولم ترق إلى أدنى حدود المعقول وترفضها الفطرة السليمة، إذ كان الملك يرى أن هذه الأمور ليس للعامة حظ أو نصيب فيها، بل هي مقصورة على ملوك البلاد وأمرائها وأعيانها دون سواهم، لم يتوقف ظلمهوقهر دوادمبا عند هذه الحدود، بل راح ولأدنى الأسباب وأتفهها يدك البنايات ويدمر القرى ويخرب الممتلكات ويلحق الأضرار بالزرع والنسل ويضع العراقيل أمام الرعية، ويختلق لها المشاكل والمشاق دون رحمة ولا شفقة[1]، ومن هنا يمكننا أن نتصور مبلغ المعاناة التي بلغها المجتمع الذي كان يعيش فيه الشيخ ماما كما يبرز لنا بوضوح المستوى الذي بلغه الظلم والتعسف في استعمال السلطة من جهة، والبون الشاسع بين القوانين التي سنها الحاكم وسهر على تطبيقها بعناية فائقة بمعية أعوانه الوثنيين على المسلمين، وبين مبادئ الشريعة الإسلامية، التي يؤمن بها المجتمع كل هذا لاشك أنه قد ساهم بقدر كبير في النفور من السلطان والاقتراب ما أمكن من المصلح والانخراط في صفوف الحركة، لما كانت تدعو إليه من مبادئ سامية مستمدة من روح الدين الإسلامي الحنيف.

ومما سبق يمكننا القول أن داودمبا بسياسته هذه قد جنى على نفسه وألحق الضرر بملكه وعرضه للخطر، وحق فيه قوله تعالى[2] : **"يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، فاعتبروا يأولى الأبصار"**.

تمادى الملك في سياسته التعسفية وزاد من إيذائه للناس والتشديد عليهم، إذ كان يقوم بين الفينة والأخرى بجولات سياحية وأسفار للاستجمام والقنص داخل حدود البلاد، وعندما يحل والوفد المرافق له بالقرى يكره أهلها ويجبرهم على توفير شروط الإقامة والراحة التامة للضيوف، وهي مكلفة بالنسبة لهم ولا ترقى إليها إمكاناتهم المادية، كما أن الحاكم لم يعر البلاد أدنى اهتمام، ولم يبد أي استعداد لخدمتها، أو محاولة إنقاذها مما حاق بها من أخطار وما بلغته من انحطاط وتخلف، وما حل بها من مجاعة وأمراض فتاكة ولم يلتفت إلى أية محاولة إصلاحية لإنقاذ المجتمع والنهوض به وتعليمه وإخراجه من دياجير الجهل والأمية لينعم بنور العلم والمدنية ومن ثم القضاء على الآفات الاجتماعية المختلفة.

ومما زاد في الطين بلة تطاوله على المخلصين من رجال الدعوة والإصلاح والوقوف في سبيلهم في زمن بدأت فيه طلائع القوات الاستعمارية الأوروبية تزحف على البلاد، التي تترك حدودها دون تحصين ومراقبة، و كل هذا زاد من تبرم الرعية بسياسته وتجذر في نفسهاالكره للحاكم ودفعها إلى التفكير في وسيلة للتخلص منه وإزاحة الثقل الذي ناء عليها بكلكله، وهكذا حق لنا أن نطبق على هذا

---

(1)- د. عبد الرحمن عمر الماحي: نفس المرجع ، ص ص163- 164.
(2)- سورة الحشر، الآية 2.

الحاكم المتسلط المستبد قوله تعالى[1] "***وإذا أردنا أنه نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها، فحق عليهم القول فدمرناها تدميرا***" وأمام هذا الطغيان والتعسف المفرطين والاستعباد للجماهير العريضة من قبل طائفة تيدو المدعوم من قبل الحكام، وما انطلت عليه سياستهم من تأييد أو سكوت عن هذه المظالم.

في هذا المناخ الذي عاشه مابا وشاهده بأم عينه ظهرت دعوته الإصلاحية لإنقاذ الناس في بلاد السنغال وما جاورها مما لحق بهم من ظلم وإجحاف، وصار بيت الشيخ ومحل إقامته ملجأ كل مظلوم وكل مستضعف.

وأمام تفاقم ضغط الحكام وطائفة تيدو الموالية لهم من جهة والإستعمار الغربي من جهة ثانية ازداد إقبال الناس والتفافهم حول الشيخ مابا، إذ لم يرض المسلمون بهذا الظلم والذل المهينين، وبهذا الطغيان والجبروت المشين، وعز عنهم الهوان فقاموا للذود عن الحق وحماية الناس ومحاولة وضع حد لهذه الوحشية والممارسات ألا إنسانية فصارت المواجهة بين الحكام وأنصار مابا أمرا محتوما ولا مبرر لتلافيه.

وفي الوقت نفسه الذي كان فيه الحكام يتمادون في سياسة الضغط والإضطهاد، كان مابا يدعو الناس إلى اعتناق الإسلام ويبث فيهم من روحه السمحة ويلقنهم مبادئ القراءة والكتابة، ويسعى إلى تنقية العقيدة الإسلامية مما لحق بها من شوائب علقت بها في تلك الأصقاع في وسط ما زالت فيه الوثنية عالقة في أذهان الناس ومتفشية بينهم[2].

و مما لا شك فيه أن هذا النشاط والحركية التي ميزت المصلح في هذا الظرف بالذات قد أعطت نتائجها، إذ نمت الحركة نموا سريعا واتسعت رقعتها وتعمقت جذورها في صميم المجتمع، فازدادت صلابة، أمام ارتفاع عدد أنصار الشيخ مابا ومؤيديه، وتنامي قواته التي أعدها ازداد رعب الملوك وخوف الحكام ووقفوا أمام دعوته، فغدت المواجهة أمرا لا مفر منه، وبدأت المناوشات بين الجانبين وما انفكت أن تحولت إلى صراع عنيف تميز بالشدة والمرارة خاصة أن الحاكم زاد تطاوله على المصلح ومن ورائه اتباعه واستمر في غيه وظلمه للناس جميعا والمسلمين بصفة خاصة.

إعلان الجهاد:

رغم دعوة الشيخ الحكام إلى إصلاح أحوال الرعية والذود عن حدود الوطن الذي بدأ يتعرض للغزو الاجنبي ، إلا أن هؤلاء الحكام لم يكفوا عن إيذاء المسلمين وظلمهم، وغضوا أبصارهم وغفلوا عن الإستعمار الذي استمر يتوغل داخل البلاد.

---

(1)- سورة الإسراء. الآية، 16.

(2)-د/ عبد الرحمن عمر الماحي: المرجع السابق، ص ص 163-164.

في هذا الظرف الصعب والخطير لم يجد الشيخ بدا سوى رص الصفوف وإعلان الجهاد، ورفع رايته في سبيل الله ضد ظلم الحكام من جهة، ومجاهدة الوثنيين والاستعمار من جهة أخرى.

والجدير بالإشارة في هذا الموطن أن الشيخ مابا، الذي لاشك أنه قد تشبع منذ صباه بالثقافة الإسلامية ومعارفها المختلفة،واحتكاكه بالحركات الإصلاحية الإسلامية ورجالها سواء عن بعد أو قرب، قد أثر فيه أيما تأثير وخصوصا حركة الجهاد التي خاض غمارها الداعية والمصلح المجاهد "عمر تال" من قبل،فضلا عما وصلته الحالة في البلاد من تدهور، كل هذا شجعه عن المضي قدما في سبيل الدعوة إلى الإصلاح وسمح له برفع علم الجهاد،ومما زاد في ذيوع صيت مابا وعلو همته في منطقة غرب إفريقيا أن الحاج عمر كان قد التقى به في عام 1264هـ/1848م، وأعجب بذكائه ونشاطه وما يتوفر عليه من طموح، فتوسم فيه الخير والصلاح ورسم الداعية وقال له[1]:"***ستصبح في مستقبل قريب بإذن الله من المجاهدين، وستكون وبالا على كفرة المشرق والمغرب، أعلن الجهاد وستكون "سين" "Sin" آخر هدف لك، لأن سرير "سين" وإن كانوا وثنيين فإنهم شرفاء ونشطون، لذلك فهم يستحقون الإحترام***".

وهكذا يمضي الشيخ مابا في نشاطه الدعوي يلقي الدروس والمحاضرات والمواعظ التي توجه الخاصة وتنير الطريق أمام العامة، معتمدا في ذلك على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فزاد إقبال الناس عليه لما رأوا في شخصه المرشد المخلص والمنقذ الصادق، فذاع خبره وزادت شهرته اتساعا في عموم البلاد،وانتهز الحاج عمر الفرصة و لم يتركها تفلت من يده وراح يعلن سنة 1266هـ/1850م أن الشيخ مابا هو نائبه في منطقة "سان غامبيا"،فقوى ذلك من عضد الشيخ وزاد في نجاحه، وتكاثر أتباعه بشكل ملفت للنظر، مما أحدث خوفا وفزعا في الأوساط الفرنسية وشعروا بالخطر يهددهم ويحد من أطماعهم في المنطقة[2].

والحق أن هذا التحالف الذي وقع بين الرجلين يدل دلالة واضحة على أنهما كانا على وعي تام بما يهدد المنطقة من أخطار داخلية وخارجية، كما يوضح النضج السياسي الرفيع المستوى الذي بلغه كل واحد منهما بابتعاده عن العصبية القبلية وترفعه عن المصالح الشخصية من أجل مصلحة الوطن وخدمة المسلمين هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذا الموقف ينفي تلك الصورة القاتمة والتزمت اللذين ألصقت صورتهما بالحاج عمر.

ويمكن أن نستنتج من هذا الموقف الاحتمالات الآتية:

---

(1)-د/ عبد الرحمن عمر الماحي: المرجع السابق، ص.164.

(2)- د/ إلهام محمد علي ذهني: المرجع السابق، ص.100.

الأول: هو أن يكون الشيخ مابا قد اعتنق الطريقة التيجانية وانخرط في سلكها ودخل بذلك في فلك الحاج عمر، الأمر الذي جعل هذا الأخير يرضى عنه ويؤيده.

والثاني: وهو أن يكون الحاج عمر تال نفسه قد تخلى عن عصبيته للطريقة التيجانية التي كان قد أعطاها دفعا كبيرا وفلسفة جديدة فزادت انتشارا حتى عرفت بالعمرية[1]، مما دفع إلى التقارب والتحالف بين الرجلين.

والاحتمال الثالث: قد يكون الرجلان قد بلغا درجة عليا من التسامح والمرونة في هذه المسائل وتركا الصراع للتفرغ لمواجهة الغزو الاستعماري الأوروبي.

وفي هذه الأثناء استتب الأمر للمسلمين وزاد نشاط الشيخ الدعوي، وانبرى لبناء المساجد والزوايا والكتاتيب القرآنية يبثها في مختلف القرى، فكانت مراكز إشعاع وثقافة ونشر للمعرفة، وتمكين للدين الإسلامي الحنيف واللغة العربية والتاريخ الإسلامي، فعمرت البلاد وشعر الناس بالأمن والإستقرار بفضل سهر الشيخ على مصالحهم والوقوف في وجه الحكام للحيلولة دون إبذائهم.

و لم تقتصر حركة الشيخ الإصلاحية على بلاد السنغال بل امتد نشاطه الى المناطق المجاورة حتى مس منطقة ريب "Rip"، وتمكن من توحيد أقاليمها وقام بقتل ملكها الوثني الذي رفض الخضوع للدعوة سنة (1278هـ/1861م) وأسس مدينة نيورو "Niourou"، و لم يتوقف عند هذا الحد، بل واصل زحفه مجاهدا في سبيل الله حتى بلغ منطقتي "باؤول" و "سالوم" ينشر الإسلام ويدعو إلى الوحدة وتحريض الناس على التمرد والثورة على المستعمرين الأوروبيين الدخلاء.

لم يتوقف تهديد الرجل عند المصالح الفرنسية فحسب، بل تجاوزه ليشمل المصالح البريطانية وأنشطتها التجارية في غامبيا ولاسيما في الضفة اليمنى لنهرها، فاستاء دراسي "Darcy" الحاكم البريطاني للمنطقة من الإضطرابات المزلزلة التي أحدثها "مابا" وأنصاره، خاصة وأنهم طوقوا بعض القرى التي كانت تخضع لسيطرة النفوذ البريطاني، وهاجموا بعضها الآخر مثل قريتي نيومي "Niumi" وآسان "Essan" في عام 1279هـ آخر شهر ماي سنة 1862م، اللتين كان يقطنهما السنونكة الوثنيين[2].

حاولت بريطانيا تقديم مساعدات مادية وعسكرية لنجده السكان، وحاول دارسي "Darcy" عقد مصالحة بين السوننكة والشيخ مابا، ولكن محاولته باءت بفشل ذريع، فعرض الأمر على حكومته مقترحا إشهار وضع المنطقة تحت حمايتها، لكن اقتراحه لم يحض بالقبول من حكومة "لندن" ورفض في سنة 1279هـ/16 جوان 1862م[3].

---

(1)- نعيم قداح: المرجع السابق، ص ص 118-121.

(2)- د/ الهام محمد علي ذهني: ص ص 101-102.

(3)- د/ الهام محمد علي ذهني: نفس المكان.

لم ييأس دارسي و لم تفتر عزيمته فعاود الكرة ثانية، واتصل بمابا والسنونكة، في محاولـــة منـــه للمصالحة والقضاء على الفوضى حسب رأيه، ويتعهد مابا في سنة 1279هـــ/فيفـــري 1863م، بعـــدم التدخل في المناطق التي شملها النفوذ الإنجليزي وخاصة قرية نيومي التي كانت محل نزاع بين الســـنونكة والمصلح.

بعد ذلك يتفرغ الشيخ للدعوة وتنظيم الجهاد ومحاربة قبائل السرير والولوف(*) الوثنيتين اللتـــين ظلتا تثيران الرعب والخوف الذي امتد إلى مناطق النفوذ الفرنسي، فعمد الفرنسيون إلى عقد معـــاهدة معه في سنة 1280هـــ/منتصف شهر أفريل 1864م، معترفين له بالسيادة على منطقة سالوم(1).

وأمام تركيز مابا لنشاطه ضد السرير والولوف انتهز السوننكة الفرصة وهاجموه، فانسحب إلى بلاد التكرور سنة 1282هـــ/1865م على عهد أحمدو شيخو(2) وألحقوا به خسائر، غير أن هذا لم يثن من عزيمته واستمر يدعو ويجاهد السرير لنشر الإسلام.

وإذا كان الانجليز قد هادنوه والتزموا بالمعاهدات، فإن القوات الفرنسيةقد استمرت في الحروب تكبدت خسائر جسيمة بعد معارك فاشلة في المنطقة فأبرقت إلى القائد "لابـــراد" "La Prade" تـــأمره بضرورة التعجيل بإيقاف النشاطات العسكرية والعمليات الحربية، التي كان يقوم بها في منطقة غـــرب إفريقيا وذلك نتيجة للخسائر الفادحة في الأوراح والأموال والمعدات إذ لم تعد الخزينة الفرنسية تتحمـــل تلك الأعباء(3).

وجملة القول أن الشيخ مابا قد لعب دورا كبيرا في بعث الإسلام من جديد في إفريقيا عمومـــا ومنطقة غربها خصوصا، و بالرغم من أنه لم يتمكن من تكوين دولة إسلامية في المنطقة، فقد عمل على نشر الإسلام بين القبائل الوثنية ونقى الأذهان مما علق بها من شوائب وأفكار غريبة وخرافات باطلـــة رغم الفترة الزمنية القصيرة -نسبيا- التي رفع فيها راية الجهاد فقد تمكن من الوقوف في وجه أعتى قوتين استعماريتين "فرنسا، بريطانيا" اللتين كانتا عدوا مشتركا ضده في المنطقة، واجبرهمـــا علـــى توحيـــد جهودهما والوقوف صفا في وجهه لشعورهما بالخطر الذي يهدد مصالحهما في إفريقيا.

هذا علاوة على مواجهة الاخوة الأعداء من بني جلدته حتى تمكن السنونكة من قتله بمنطقـــة سومب "Somb" وهو يخوض معاركه ضد قبائل السرير والولوف الوثنيتين، وقد اختلفت المراجـــع في تاريخ استشهاده غير أن المراجع الفرنسية تؤكد أن قواتها تمكـــنت من محاصرته بين ديوخو "Diokhou"

(*)- إن السرير والولوف ما كان لهم لينتصروا على الشيخ "مابا" لولا تقديم المساعدات من قبل القوات الأجنبية الفرنسية والإنجليزية.

(1)- د/ إلهام محمد علي ذهيني: نفس المرجع ، ص ص.101-102.

(2)- Gosset (P.et r) Histoire Militaire de Lafrique Occidentale Française, Impremerie Nationale 1931, p.146

(3) Gosset (p.et r) Ibid P146.

و ماروت "Marot" وقضت عليه صحبة أحد أبنائه في سنة 1384هـ/18 جويلية 1867م بقيادة أربعة ضباط مدججين بالأسلحة الفتاكة[1].

وهكذا يكون الشيخ مابا قد ساهم إلى جانب المصلحين المسلمين الأفارقة الآخرين في جنوب الصحراء في إحياء الإسلام وبعث الثقافة العربية بين شعوب السودان الغربي والأوسط والشرقي من جديد، خلال أكثر من عشرين عاما من الجهاد، ومقاومة الوثنيين والمستعمرين الغربيين وبذلك يكون قد حقق ما كان قد توسمه فيه الحاج عمر و لم تخب فراسته في شجاعة وذكاء مابا وتضحياته في سبيل نشر الدعوة بين الوثنيين وبعث ما اندثر من قيم الإسلام في المناطق التي انضوى أهلها تحت لوائه منذ أزمنة، فكان مثالا يحتدى لكثير من القيادات الإسلامية التي عملت على دربه، الأمر الذي جعل السنغال بلدا من بلدان الإسلام ونسبة المسلمين فيه مرتفعة إذ تبلغ 94% [2] وإذا كان ماباجا خوبا قد خر شهيدا في ميدان الشرف مجاهدا فإن أنجاله من بعده لم يقصروا فقد واصلوا رسالته في الجهاد والكفاح ونشر الإسلام.

---

(1) -Gosset(p.et.r) op-cit,pp.148-149

(2) صادق يلي: (السنغال)، مجلة العربي، العدد 436، المرجع السابق،ص36.

خاتمة الفصل :

بعد تطرقنا في الدراسة والبحث لحركتي الحاج عمر بن سعيد الفوتي، والشيخ ماباجا خوبا اتضح لنا ما يأتي:

- سوء الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في ذلك الحين، إذ تخلى المسلمون في البلاد عن تعاليم الدين الإسلامي الحنيف في منطقة عرفت تاريخا حافلا وازدهارا إسلاميا لا مثيل له في ربوع القارة الإفريقية، لاسيما في تلك الجهات التي ظهرت فيها إمبراطوريات ودول وممالك إسلامية بلغت شأوا كبيرا من التقدم ودرجة عالية من الرقي الحضاري، وبتخلي الحكام عن الحكم بالشريعة الإسلامية ابتعد السكان عن الدين فعم التخلف وساد الانحطاط وتدهورت القيم والأخلاق، وحلت الرذيلة محل الفضيلة وتفشت الأمية وانتشر الجهل على نطاق واسع.

كل ما سبق فتح الباب على مصراعيه لعودة الوثنية فوجد بعض معتنقيها الطريق ممهدا للوصول إلى مراكز السلطة، وتبوأ سدة الحكم والإدارة وزاد هذا المظهر في تدهور حالة الإسلام والمسلمين في وقت زادت فيه الأطماع في القارة شراهة والصراع شراسة، إذ بدأ توغل الأوروبيين إلى عمق القارة تحت غطاء الكشوفات الجغرافية ثم تطور إلى أطماع استعمارية، في هذا الجو المتعفن المليء بالأوحال ظهرت قيادات وزعامات وطنية إسلامية رفعت راية المقاومة والإصلاح والجهاد لتنقية الدين من البدع والأباطيل التي علقت به، ومحاربة الشعوذة والسحر وتصحيح العقيدة وتجديد الإسلام والوقوف في وجه الغزو الأجنبي.

- ظهور الحركتين في وقت واحد وفي ظروف متشابهة سمح بانتشار دعوتهما انتشارا واسعا ضم رقعة جغرافية واسعة من غرب القارة.

- اعتماد الحركتين على الدين الإسلامي ومبادئه في الدعوة إلى الإصلاح ونشر الإسلام بين الوثنيين .

- تشبع كل من الداعيتين بالإسلام خاصة وأن كلا منهما تلقى زادا علميا ومعرفيا رصينا أهله لمباشرة الدعوة والإصلاح وبروزه كعالم لاسيما الحاج عمر، الذي اشتغل كثيرا في هذا الحقل منذ وقت مبكر.

- انطلاق الحاج عمر في الدعوة والإصلاح من خارج حدود بلاده، إذ مارس هذا النشاط أثناء وجوده في البقاع المقدسة ثم في بلاد كانم، برنو، وفي إمارة سوكوتو وغيرهما قبل عودته إلى بلاده ومسقط رأسه، أما الشيخ مابا فلم تتح له مثل هذه السياحات، لذلك فإن حركته كانت محلية ولعل ذلك ما جعلها أقل شهرة وانتشارا من حركة الحاج عمر.

– جمع الحاج عمر إلى كونه عالما دينيا انتسابه إلى الطريقة التيجانية، التي انخـــرط في ســـلكها وعين خليفة لها على عموم غرب القارة، وهو ما يزال بعد بالحجاز، فأعطاها فلسفة ونفسا جديديـــن وبث فيها من روحه حتى عرفت في غرب إفريقيا بالعمرية نسبة إليه، وقد حاول فرض الطريقة بـــالقوة بالمنطقة فدخل في صراع عنيف مع القادريين،بينما عرف عن مابا بأنه عالم ديني كبير، و لم يثبت عنـــه الانتساب إلى أي طريقة من الطرق الصوفية رغم العلاقة الوطيدة التي كانت تربطه بالحاج عمر الـــذي كان راضيا عنه كل الرضى وتفرس فيه منذ أمد بعيد أنه سيكون له شأن عظيم، كما لم يدخـــل في أي صراع مع أية طريقة أخرى،وتميزت حركة الحاج عمر بكونها تحمل طابع العنف والقسوة سواء ضـــد أعدائها الداخليين أو الخارجيين بينما لم تحمل حركة مابا هذه الصفات رغم الصرامة التي تميز بها مابـــا أثناء حمله لعلم الجهاد ضد المحتلين.

– ضم الحاج عمر في شخصه صفات العالم لجمعه العلوم والمعارف وصفة السياسي المجاهد لما اكتسبه من خبرة عسكرية من خلال خوضه غمار الجهاد والحروب المتواصلة واحتكاكه بالآخرين فبرز فيهم جيمعا، فقد أثبتت خططه الحربية والمعارك التي خاضها والسياسة التي ســـلكها مـــع الأصدقـــاء والأعداء على أنه رجل عسكرية وديبلوماسية فذة، كما دل إنتاجه الفكري على أنه رجل علم وقلم من الطراز الأول، رغم الأعباء الجسام التي كان يحملها وإنشغاله بالجهاد وبناء الدولة، وهذا ما يدفعنـــا إلى القول أنه رغم المكانة التي بلغها الشيخ مابا في مجال العلم والدعوة والإصلاح والجهاد، لم تبلغ الدرجـــة التي وصلها الحاج عمر.

– تمكن الحاج عمر من تأسيس دولة إسلامية في المنطقة وأقام لها تنظيمات،غير أن الشيخ "مابـــا" لم يصل هذه الدرجة فحركته كانت حركة إصلاحية داخل المجتمع رغم القوات العسكرية. التي أنشأها والجهاد الذي قام به.

انتهاء حركة الشيخ "مابا" بعد استشهاده في ميدان الوغى مباشرة. ورغم ما قام به أنجاله فيما بعد إلا أن حركته تمكن منها الاستعمار وقضى عليها وأخضع الأراضي التي كان يسيطر عليها لنفوذه،بينمـــا استمرت حركة الحاج عمر تقارع الاستعمار وتدوخه في جهات كثيرة من المنطقة رغـــم استشـــهاده وانقسام مملكته نتيجة الصراع على السلطة بين أبناء البيت الحاكم، وتواصلت الحركة ممثلة في شـــخص النجل أحمدو الذي استطاع أن يمد في عمر الدولة أمدا رغم أنه لم يكن في مستوى والده الحاج عمـــر تال.

– ورغم ما قيل ويقال عن هذه الحركات الإصلاحية الإسلامية التي شهدتها إفريقيـــا عمومـــا وجنوب صحرائها خصوصا استطاعت قدر الإمكان أن تعيد للدين الإسلامي نقـــاءه وتطـــهره مـــن الشوائب والأدران التي علقت به وترسخت في أذهان الناس بالإضافة إلى نشره بين الوثنيين الذيـــن لم يدخلوا الإسلام قط، كما تمكنت من انتشال الناس وانقاذهم من الفوضى والكسل ودفعهم إلى العمـــل

فضلا على بعث دول إسلامية في ربوع إفريقيا جنوب الصحراء وقفت في وجه المستعمرين الأجـــانب الزاحفين على القارة وقامت بمقاومة بطولية شهد لها الأعداء قبل الأصدقاء، ورغم فشل هذه الحركـات الإصلاحية من إنقاذ القارة وسكانها من براثن الغزاة فإنها لقنت الغاصبين دروسا لن ينسوها أبدا،كمـــا كانت بالنسبة للأفارقة أبناء البلاد مصابيح أنارت لهم طريق الكفاح والنضال من أجل الحريـــة، كمـــا كانت لهم اللقاح ضد الخضوع للفيروس الدخيل فاستلهموا منها الدروس والعـــبر و لم يســـتكينوا و لم يهدأوا حتى حصلوا على استقلالهم ونالوا حريتهم فيما بعد.

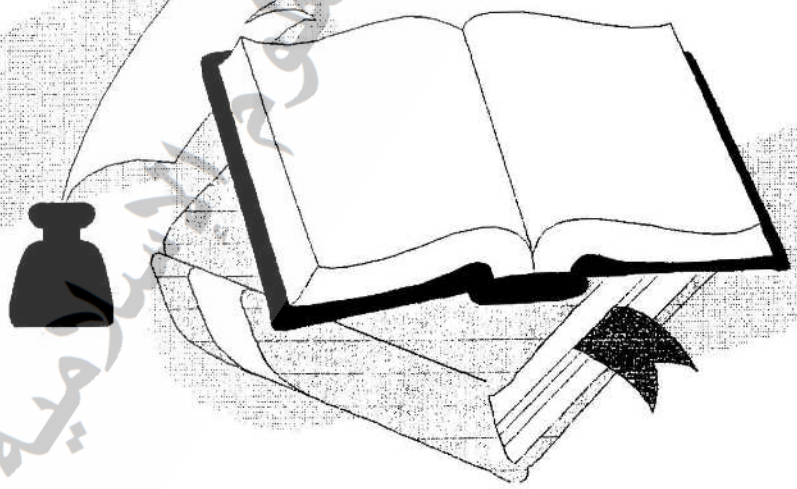


جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل السابع :

حركة الشيخ محمد أحمد المهدي في السودان

و نشاطه الدعوي و الإصلاحي



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الشكل (11أ)



محمد أحمد المهدي السوداني

عن د/ عبد الودود ابراهيم شلبي، الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ،

جامعة أم القرى للعلوم الإسلامية

الفصل السابع ـــــــ

الفصل السابع ـــــــ

الفصل السابع ـــــــ

وفي هذا الوقت أرادت الثقافة المسيحية القبطية من مصر السيطرة واحتواء هذه الممالك،غير أن العرب المسلمين لم يمهلوا هذا الجهد وانسابوا إلى شرق السودان ووسطه وشماله مهاجرين وفاتحين، وكان أول اتصال بين العرب المسلمين وبلاد النوبا في عهد الخليفة عمر بن الخطاب حين حاولوا فتحها لكنهم لم يتمكنوا فعقدوا مع أهلها صلحا، سرعان ما نقض فغزاهم والي مصر "عبد الله بن سعد بن أبي سرح" سنة 31هـ/651م، وزادت هجرة العرب إلى السودان بعد وصول الأتراك العثمانيين إلى الحكم ودخول السلطان سليم مصر 923هـ/1517م، واستمرت هذه الهجرات تتفاعل بثقافاتها مع الثقافات السودانية المتعددة، ولما كانت سنة 910-911هـ/1504-1505م تشكل حلف قبلي بين "العبدلاب" من عرب القواسمة من جهينة مع قادة قبائل الفونج(*)، وأسسوا مملكة الفونج التي ضمت أراضي ما بين النيلين وعاصمتها "سنار"(1)، وما لبث الفونج أن أسقطوا مملكة علوة المسيحية ودخلوا عاصمتها سوبا(2).

وقد اعتنقت قبائل الفونج الإسلام على عهد مؤسس المملكة عمارة دونقس "Amara Dounka" وبالرغم من اعتناق الفونج الإسلام فإنه ظل شكليا بين الشعوب السودانية إذ لم يؤثر في حياتهم، وبالرغم من أن حكام السلطنة الزرقاء، حوالي 910هـ-1504م/1236هـ-1821م قد سيطروا على القبائل المختلفة في السودان حتى بلغوا الشلال الثالث شمال البلاد السودانية، ومرتفعات البحر الأحمر شرقا، وكردفان غرب النيل(**)، كما بلغت حدودهم جنوبا إلى دائرة عرض 12° شمال خط الإستواء(3).

وهذه المساحة الواسعة التي خضعت لهذا الحكم السياسي العربي الإسلامي، لم يكن في مقدوره السيطرة الفعلية على النزعات القبلية والإقليمية ليصهرها في إطار موحد ومتجانس، ويشكل منها وحدة وطنية مركزية تسهر على حماية حدود الدولة الإقليمية.

لقد كان زمام السلطة في مملكة الفونج-رغم وجود الدولة-قائما على الولاءات الإقليمية والعصبيات القبلية، لذلك كانت الفوضى ضاربة أطنابها، إذ لم تظهر سلطة الحكومة المركزية قوية وواضحة لتتمكن من ردع الجماعات القبلية شبه المستقلة من الإغارة على بعضها البعض، والإستلاء على ثرواتها ونعمها، وذلك لقوة شكيمة هذه القبائل وجبروتها.

(*)- الفونج: يدعي بعضهم الأصل العربي الأموي فروا من العباسيين جاءوا إلى الحبشة ثم عبروا إلى السودان، وقيل جاءوا من برنو وترجعهم الروايات الحديثة إلى أصول زنجية، كانوا يحكمون وسط السودان من 1505-1821م في الوقت الذي كان يحكم فيه مشائخ العبدلاب شمال السودان من عاصمتهم قرة شمال الخرطوم، أنظر: حسن إبراهيم حسن: إنتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ط2، مكتبة النهضة، مصر 1964م، ص.154 وما بعدها.

(1) - Robert Cornevin; Op-Cit -p.173.

(2)- د. محمد أبو القاسم حاج حمد: المرجع السابق، ص.18.

(**) نظر الشكل 11، ص257.

(3) Robert,Cornevin,op-cit, pp 173-174.

الفصل السابع ـــــــ

وإلى جانب الممالك السالفة ظهرت مملكة تقلى"Takla" أو التروج "Touroug"(*) حوالي سنة 998هـ/1570م، في الجزء الجنوبي بين مملكتي "الفونج" شرقا و"الفور" غربا حيث جبال النوبة، وكان لموقع المملكة الجغرافي بين دولتين قويتين جعلها عرضة للغزو والإجتياح المتتالي، حتى أنهكت وتفرق سكانها سبايا وعبيدا بين جيرانها،وإلى الشمال من "تقلى" ظهرت سلطنة المسبعات(**) في وسط وشمال "كرد فان" على حدود مملكتي الفور والفونج، وتعد هذه المنطقة بموقعها المتوسط مسرحا لنشاط قبائل عديدة، لذلك كانت محل صراع القوى المحيطة.

أما شرق البلاد موطن قبائل البجة فقد غزتها قبائل العبدلاب حتى وصلت مدنية سواكن عام 912هـ/1506م وأخضعوهم لسلطانهم، وتزاوج أمراء العبدلاب مع بعض قبائل البجة فوثقت هذه المصاهرة الروابط بين الطرفين، فساد بذلك استقرار نسبي في المنطقة.

ومن خلال هذه اللمحة الموجزة عن التطورات التاريخية والسياسية في بلاد السودان عبر ثلاثة قرون يتضح الوضع العام الذي كان يعيشه هذا القطر الإفريقي العربي، فقد طغت عليه الحياة القبلية بأفقها الضيق وعصبياتها المقيتة التي يسودها طابع التشدد، علاوة على الإقليمية الرهيبة التي طغى فيها التمزق والصراع العنيف،أكثر من الوحدة والانسجام، فتفاقمت الحروب والصراعات، فازداد الوضع الإقتصادي والاجتماعي تدهورا، وانحطت القيم وانتشر الجهل والأمية بسبب قلة المدارس والكتاتيب القرآنية،بالرغم من ظهوربعض الكيانات السياسية، إلا أنها لم تهتم ببناء المدارس،فلم تشتهر أي مدرسة علم ولا حتى كتاتيب وخلاوي القرآن الكريم، وسلك الناس سلوكات مخالفة للشريعة حتى تعذر على قبائل غرب السودان النطق بالشهادتين، كما ذكر الرحالة محمد بن عمر التونسي في كتابه تشحيذ الأذهان(1).

في ظل هذا المناخ تسربت الطرق الصوفية المتنوعة إلى السودان، فوجد سكانه فيها الملاذ لأنها كونت علاقة بين الصوفية والروحية الإفريقية، وبفضل هذه الصوفية تمكن الإسلام من إختراق المجتمع السوداني الإفريقي وكسبه إلى صفه.

في خضم هذه الحالة التي كان يعيشها البلد من أقصاه إلى أقصاه، كانت مصر قد شهدت تغييرا كبيرا بعد وصول محمد علي إلى هرم السلطة فيها، فبدأ يخطط لتوسيع رقعتها والإستعداد للإنفصال عن الخلافة العثمانية فوجه طرفه نحو السودان.

(*)- التروج: اختلفت المراجع في تاريخ ظهورها إلا أنه كان فيما بين 1539-1570م. انظر: محمد ابو القاسم حاج حمد: المرجع السابق ص13 وما بعدها

(**)- المسبعات: قبائل فوارية نافست كثيرا من أجل الوصول إلى حكم دارفور وحاولا خلق مملكة لهم في كردفان ليتخذوها قاعدة للهجوم على دارفور، وعندما زاد نفوذهم هناك تدخل الفونج سنة 1747 فهزموا مرتين واستطاعوا أخيرا بقيادة الشيخ محمد أبو لكيلك زعيم الهنج الانتصار على المسبعات وظل هذا الاخير حاكما لكردفان مدة أربعة عشر عاما. أنظر: محمد أبو القاسم حاج حمد: السودان المأزق التاريخي وآفاق المستقبل، دار الكلمة، بيروت، لبنان، ط1، 1980، ص.136.

(1)-محمد ابو القاسم حاج حمد: المرجع السابق، ص23.

السودان في عهد محمد علي باشا

في الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجري،مطلع القرن التاسع عشر الميلادي،عين محمد علي واليا على مصر من قبل الأتراك (1221هـ/1805م، ومهما كانت آراء المختصين في حكم محمد علي فإن الرجل استطاع بذكائه ودهائه السياسي أن يبسط نفوذه وسيطرته على الحكم، وقام ببعض الإصلاحات في البلاد ثم اتجه إلى السودان يوجه الحملة تلو الأخرى، ففي سنة 1236هـ/1821م أرسل محمد علي باشا أول حملة عسكرية لفتح السودان، وقد وضع نصب عينيه جملة من الأهداف يسعى لتحقيقهاوفي أسرع وقت ممكن ليطمئن على دولته مستقبلا، وليضمن لها المزيد من المداخيل، ويمكن إجمال أسباب دخول محمد علي السودان فيما يأتي:

1- محاولة استئصال شأفة المماليك أعداءه الخطيرين بعد أن لجأ بعضهم إلى الجنوب عقب مذبحة القلعة(*).

2- التخلص من المتاعب التي سببها له الجنود المرتزقة في الداخل.

3- الإستلاء على مناجم إقليم سنار(**)، الشهير بمناجم الذهب.

4- اكتشاف منابع النيل وتوسيع نطاق الزراعة والتجارة(1).

5- استغاثة زعماء بعض القبائل بمحمد علي لترجيح مواقفهم ضد بعضهم بعضا(2).

ونتيجة لحملة محمد علي على السودان توسعت حدوده وانضم جنوبه الذي كان محط اهتمام الوالي المصري، وقد صار السودان منذ 1255هـ-1839م تابعا لمصر، وقد فرض الوجود المصري في السودان نوعا من الوحدة السياسية باستثناء سلطنة دارفور في أقصى جهات الجنوب الغربي التي ظلت مستقلة.

(*)- مذبحة القلعة وقعت سنة 1811م وفيها وجه "محمد علي"الدعوة إلى كبار رجال الدولة وإلى زعماء المماليك ليحضروا إلى القلعة للإحتفال بتقليد ابنه "طوسون" قيادة الحملة على الوهابيين، وكان من بين المدعوين 500 من فرسان المماليك، وهناك هاجمهم جند محمد علي فقتلوهم، كما طلب من جنوده في جميع الأقاليم قتل كل من يجدونه من المماليك. أنظر، عبد العزيز نوار وآخر: تاريخ مصر الحديث، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1406هـ/1982م، ص.52.

(**)- سنار: عاصمة مملكة الفونج، أسسها عمارة دونقس أول ملوك الفونج (1504-1534) وذلك سنة 1505م، أنظر:حسن إبراهيم حسن، إنتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مكتبة النهضة المصرية، ط2، 1964م، ص.155.

(1)- نعوم شقير: المصدر السابق، ص ص.491-402.

(2)- محمد أبو القاسم حاج محمد: المرجع السابق ص.29.

وبموجب هذه الإهتمامات تم إرسال حملات متكررة للكشف عن منابع النيل من جهة، والمعادن الثمينة من جهة أخرى، وما عدا ذلك فقد شهدت سنوات (1255هـ-1839م/1317هـ-1899م) التي خضع فيها السودان لمصر سوى الاستغلال الفاحش والاستنزاف الشامل للثروات المادية والبشرية.

ويلخص هذا الوضع ما أورده الدكتور مكي شبيكة في وصف حال السودان خلال حكم أسرة محمد علي إذ يقول[1]: "قد أحدث العهد التركي في السودان مدى ستين سنة تغيرات في المجتمع السوداني أبرزها مركزية الإدارة، حيث خضعت كل البلاد..لحكم واحد أزال إلى حد كبير المنافسات القبلية، وأصبح السودان قطرا موحدا،وتأثر كبار السودانيين الذين اتصلوا بالحكام الأتراك في المدن الكبيرة بطباعهم وعاداتهم في الأكل واللبس، أما القرى والبوادي فلم يعرف أهلها عن الأتراك غير الضرائب المرهقة واستخدام السوط، وأدوات التعذيب لجبايتها، ولم يتبينوا في التركي الرابطة الدينية التي تربطهم به، ولم يحسوا في أنفسهم أثر النفوذ الديني لسلطان تركيا وخليفة المسلمين".

ومن هنا يتضح الحال الذي كان عليه السودان في الفترة التي ظهر فيها المهدي، وما كان يعانيه السودانيون من آلام ومآسي ما جعلهم يترقبون أي طيف أو دعوة تساعدهم في تغيير أوضاعهم وإصلاح أحوالهم[2]، لذلك فبمجرد أن سمعوا بدعوة محمد أحمد سارعوا إلى اعتناقها وانخرطوا في حركتها زرافات ووحدانا، خاصة قبائل الغرب التي كانت أكثر استعدادا لتلقي هذه الفكرة والدفاع عنها والموت في سبيلها وسنوضح أسباب ذلك فيما بعد.

ظروف نشأة محمد أحمد المهدي :

كان السودان منذ حملة محمد علي باشا (1237هـ/1821م) تابعا لمصر، ويتولى الحكم فيه موظفون يعينون من قبل الحكومة المصرية، ولم يكن هؤلاء الموظفون في مستوى المسؤولية المنوطة بهم، وقصروا في أداء واجباتهم، فساء حال البلاد، وعم الجهل والفساد، وتدهور حال المسلمين فابتعدوا عن الإسلام،فكان لابد من تطهير الدين من شوائب الأعاجم وبدع الجهال، وإقامة الشريعة الإسلامية نقية كما كانت في بلاد المسلمين وكما جاء بها الرسول "ص".

وفي هذا الوقت كان سكان السودان ناقمين على الوضع والحكومة معا، خاصة بعد أن خضعت مصر لسلطة الإحتلال البريطاني، واستأثر السودان باهتمام الإنجليز وذلك لأسباب عديدة ارتبطت بالمهمة التي أخذوا على عاتقهم القيام بها، من حيث إعادة تنظيم الحياة السياسية والمالية والإقتصادية بما يحقق مصالحهم الإستعمارية.

---

(1)-د. مكي شبيكة: تاريخ شعوب وادي النيل مصر والسودان في القرن التاسع عشر، دار الثقافة، بيروت لبنان، 1965م، ص.640.

(2)- د. محمد إبراهيم أبو سليم: الحركة الفكرية في المهدية، ط2، دار الجيل، بيروت 1981م، ص.17.

الفصل السابع ـــــــ

مولده :

الراجح أنه من مواليد يوم السابع والعشرين من شهر رجب سنة 1260هـ/الثاني عشر أوت 1844م من أسرة الأشراف(1)، وكانت هذه الأسرة بالإضافة إلى عراقة النسب نالت شهرة علمية محلية اكتسبتها بفضل أحد رجالها البارزين وهو السيد حاج الشريف الذي اشتهر في البلاد بعلمه وتقواه، فقصده الناس للإستفادة من فكره وثقافته والاقتداء بأخلاقه وقد عمر طويلا(2).

كان والد محمد أحمد نجارا ماهرا في صناعة السفن وبناء المراكب، وقد ضاق به العيش في دنقلة فهاجر بأسرته إلى كرري ـ على بعد خمسة كلم شمال مدينة أم درمان(*) ـ في أواسط السودان بحثا عن الأخشاب ليوسع في صناعته وسعيا وراء إغراءات العمل والكسب الوفير، لكن الأجل لم يمهله طويلا.

توفي والد محمد أحمد بكرري ودفن بها(3)، وترك خلفه خمسة أطفال:محمد، محمد أحمد، حامد عبد الله(**)، وبنتا اسمها نور الشام ، وما لبث أن توفيت والدته بعد عام من وفاة رب الأسرة وفي تلك الأثناء بلغ محمد أحمد سن التعليم، ومن هنا يظهر أن ظروف الحياة بالنسبة لهذا الشاب لن تكون سهلة ميسورة،إذ أنه سيواجه الحياة بمفرده يتيم الوالدين، أعزل من السلاح بين إخوة يكافحون بصعوبة من أجل توفير لقمة العيش لأسرهم، وخصوصا أن المترجم له قد أبدى امتعاضا ونفورا من تعلم حرفة والده وإخوته من بعده . وراح يتطلع إلى شيء آخر تضلع فيه جده من قبل ذلك هو ميدان العلم الرحب.

تعليمه :

كان هذا الطفل على العكس من إخوته فقد مال بالفطرة للعلم منذ صغره وأظهر شغفه به، فذهب الى خلوة الشيخ الهاشمي بالقرب من كرري ومكث بها سبع سنوات، حفظ خلالها القرآن الكريم وجوده.ولما تمكن من ذلك انتقل إلى خلوة الشيخ "محمود الشنقيطي" وفيها تتلمذ على يد "الأمين الصويلح" في مسجد

---

(1)- عبد الرحمان الرافعي: مصر والسودان في أوائل عهد الإحتلال، تاريخ مصر القومي 1882-1892م الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة 1966م، ص.114.

(2)- محمد إبراهيم أو سليم: المرجع السابق، ص.12.

(*)- أم درمان: من أكبر مدن السودان من حيث الإتساع وعدد السكان، برزت عام 1885م حين اختارها المهدي عاصمة واستمرت كذلك حتى 1898 حينما انتقلت ثانية الى الخرطوم، وتوجد بها قبة المهدي ، أنظر: موسوعة المعارف الحديثة للدول العربية، ج1، الدار العربية للموسوعات 1390هـ/1970م، ص.35.

(3)- د. مكي شبيكة: المرجع السابق، ص.641.

(**)- ترك هذا الأخير في بطن أمه، ولما ولد سمي باسم والده على عادة أهل السودان في مثل هذه الحالات.

"ودعيسى"(1)، ثم انتقل إلى الشيخ محمد الضكير عبد الله خوجلي(*) الذي عرف فيما بعد بالشيخ محمد الخير في الغبش بضواحي بربر(2).

أتقن محمد أحمد مبادئ اللغة العربية من نحو وصرف وعروض وبلاغة، كما تمكن من علوم الفقه والتوحيد والتصوف في ظرف قياسي، فقد كان مميزا بين أقرانه منذ الصبا بالذكاء وشدة الحفظ، والتمسك بأداء الفروض والواجبات الدينية، والولاء الخالص للأستاذ،وهنا يمكن أن نضع أيدينا على أثر التعليم الإسلامي في نفس محمد أحمد مبكرا، إذ عزف عن اللهو وهاجره وابتعد عن زخارف الحياة، ومال إلى الصلاح والزهد في الدنيا وملذاتها، وهو ما يزال بعد في ريعان الشباب، وإن دل هذا على شيء إنما يدل على أن الشاب سيسلك سبيلا غير سبيل أقرانه في مجتمع السودان الذي كان مليئا بالمعتقدات والعادات والتقاليد التي تدفع إلى الإغراء وتشجع البعد عن الذين أكثر مما تدعو إليه.

أظهر محمد أحمد مبكرا تبرمه من علماء الدين الموالين للسلطة، والذين لا يرفضون لها طلبا، وقبول الرواتب والهدايا منها، وقد كان شيخه محمد الخير يتقاضى مرتبا من الحكومة المصرية تدفعه له شهريا،كما تمده ببعض العون والمساعدة، شأنها في ذلك مع غيره من الفقهاء والمشايخ في ذلك العصر.

لم يستسغ التلميذ هذا الراتب الذي يتقاضاه الأستاذ، وكان من وجهة نظره حرام، لأنه يجمع بين الفقراء والمساكين قهرا وعدوانا وبطرق غير مشروعة لا يقبلها الدين ولا ترضاها فطرة الإنسان السليمة وبوسائل لا تتماشى والشرع المنصوص عليه في القرآن والسنة(3).

كبح محمد أحمد جماح نفسه،ومنع يده من أن تمتد إلى طعام من مصدر غير شرعي من وجهة نظره، حتى يؤدي به الأمر إلى البقاء على الطوى والاكتفاء بما يسد الرمق لمدة، مترقبا رسالة من أهله وما يدفعون له من نقود لرد غائله الجوع والحاجة، وكان إذا ما وصله المال من الأهل والفاه يزيد عن حاجاته الضرورية، يؤثر أن يتصدق به على الفقراء والمعوزين، وذوى الحاجة من الناس، مصداقا لقوله تعالى(4):" **والذين تبوءو الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة، مما أوتوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**".

---

(1)- د. مكي شبيكة: المرجع السابق، ص.642.

(*)- عدل المهدي اسمه الى محمد الخير تبركا، وقد عرف بهذا الاسم فيما بعد في منشورات المهدية.

(2)- محجوب زبادة: الإسلام في السودان، دار المعارف، القاهرة،1960م، ص.111.

(3)- د. عبد الودود إبراهيم شلبي: المرجع السابق، ص.28.

(4)- سورة الحشر، الآية.9.

بينما يكتفي هو بالقليل إذ كان يعتمد على نفسه في الكسب فيخرج إلى الغابات يجمع الحطب ويبيعه في السوق، فيقتات باليسير من ثمنه ويتصدق بالباقي على الفقراء والمحتاجين، وإذا ما تعذر عليه الخروج للاحتطاب يتوجه إلى النيل لصيد السمك ليقتات منه، وكان يتجنب وضع طعم في سنارته ليخدع به هذه الكائنات، وإن كان الله قد قدر للناس معاشهم فليكن بالضرورة بالطرق المشروعة البعيدة عن أساليب النصب والاحتيال.

يستمر محمد أحمد على هذا المنوال إلى أن يكشف سره ويعلم الأستاذ الوقور بقصة تلميذه وعدم جلوسه إلى مائدته، وخبر عزوفه عن طعامه، فيستدعيه دون إزعاج شاملا إياه بعطفه ورعايته ليستجلي منه حقيقة الأمر، ولما علمه عرض عليه قائلا(1):" **يا بني..إنني ورثت عن آبائي هذه الساقية وتلك الأرض والجارية والعبد، وإني لأقتات وأهلي منها..وإنك لتوليني فضل لو أنك شاركتني القليل مما لدي**".

وقبل التلميذ العرض بعد إطراق وتفكير والحاح من قبل الأستاذ بشرط أن يؤدي مقابل ذلك عملا، يعاون العبد ويساعد الجارية، ويقوم بفلاحة الأرض والسهر عليها وجني محاصيلها، و لم يكن محمد أحمد حينها قد بلغ سن العشرين.

والحق أن محمد أحمد بذل جهدا معتبرا في سبيل بلوغ مرامه، إذ أنه كان يزاوج بين تحصيل العلم والعمل، فقد حرص كل الحرص على وقته ونجح في تنظيمه، فكان بمجرد أن ينهي أشغاله يتجه إلى مجلس العلم والدرس، فيكون بذلك قد وفر مصدر عيشه وأمن غذاء فكره في آن واحد.

وبهذا جمع محمد أحمد من العلوم العقلية والنقلية ما لم يتوفر لأحد من أقرانه، فقد كان على دراية ومعرفة دقيقة بالعلوم العربية والإسلامية المختلفة، بالإضافة إلى الفلسفة والعلوم الطبيعية والمنطق، وقد قال:"السراج(*) **في التعريف بهذا المصلح(2) كان للمهدي إلمام كبير بالسنة وعلم الحقائق، وكان يميل كثيرا لمذهب الشافعي رضي الله عنه كما أنه كان فقيها بارعا وأصوليا متمكنا، محدثا، ومفسرا وأديبا وكاتبا شجاعا وواعظا**"، وبعد أن أتم محمد أحمد دروسه على يد الشيخ محمد الخير تاقت نفسه للتصوف.

التصوف في حياة المهدي :

لقد كان لنشأة محمد أحمد الخاصة من جهة،وسلوكاته مع شيخه محمد الخير من جهة ثانية، هي التي أضفت عليه هالة من التوقير والإحترام من قبل الخاصة، والشهرة في أوساط العامة في المنطقة، استغلها

---

(1)- د/ عبد الودود إبراهيم شلبي: المرجع السابق، ص.22

(*)- هو محمد بن عبد المجيد بن محمد السراج، صاحب كتاب "شقائق النعمان في حياة المهدي ووقائع السودان".

(2)-د/عبد الودود إبراهيم شلبي: نفس المرجع، ص،ص 22-23.

وراح يعمق فيها ويزيد، كما أن فكر محمد أحمد الثاقب ونفسه التواقة للمزيد من البحث والتقصي للحصول على هذه المعرفة- التصوف- وسبرا غوارها دفعته إلى الغوص، وإمعان النظر في مختلف روافد ومنابع هذه الثقافة التي تنتشر في الوسط السوداني في ذلك الوقت، كيف لا؟ ومحمد أحمد من ذلك النوع من البشر الشديد الحساسية، يتأثر بالحياة التي يعيشها مجتمعه وبثقافته، خاصة أن المجتمع في ذلك الوقت قد تمكنت منه الطرق الصوفية، ولعبت في أوساطه دورا لا يمكن الاستهانة به.

اتجه محمد أحمد إلى محيطه فوجده زاخرا بالطرق الصوفية المختلفة وشيوخها، فكان لابد أن ينتظم في إحدى هذه الطرق، ووجد السبيل ممهدا أمامه لينخرط في سلك الطريقة السمانية لقربها منه وميله نحوها.

والحق أن الطرق الصوفية انتشرت في السودان منذ عهد الفونج وكان لها الأثر الكبير في المجتمع السوداني وزاد مفعولها واتساعها في عهد محمد علي باشا[1]، وقد دخلت الطريقة السمانية السودان سنة 1215هـ/1800م على يد الشيخ أحمد الطيب تلميذ محمد بن عبد الكريم السماني، وانتشرت هذه الطريقة على نطاق واسع وخاصة بين قبائل الكواهلة وغيرهم من عرب شبه الجزيرة العربية[2]، وقد أخذ المصلح السوداني الطريقة على يد الشيخ محمد شريف نور الدائم (*)حفيذ الشيخ الطيب صاحب الطريقة السمانية، وكان قطبا بارزامن أقطاب الطريقة، وكانت شهرة محمد أحمد قد سبقته إلى أستاذه الذي كان مقيما بأم مرحي بالجزيرة، وذلك سنة 1277هـ/1861م[3].

انخرط في سلك الطريقة السمانية بعد أن أخذ العهد، فأقام عند محمد شريف سبع سنوات منقطعا عن حياة الدنيا ومفاتنها متفرغا للعبادة والصلاة، و لم يطل به الأمد حتى أظهر من الزهد والتقشف ما ميزه عن بقية التلاميذ والمريدين، حتى أنه كان ملازما لأستاذه في حله وترحاله، ساهرا على خدماته حريصا على تنفيذ ما يكلف به بأمانة ودقة، ومن فرط أدبه وتقواه أنه كان إذا جلس أمام أستاذه جلس منكس الرأس خافظا بصره إلا إذا هم بالكلام، وإذا وقف لصلاة قام خاشعا متذرعا لله[4].

---

(1)- محجوب زيادة: المرجع السابق، ص.111.

(2)- د. عبد الودود إبراهيم شلبي: المرجع السابق، ص.23، أنظر: محمد عبد الله النقيرة، المرجع السابق، ص.165.

(*)- محمد شريف نور الدائم، حفيد الشيخ أحمد الطيب ود البصير، اتصل به المهدي وأخذ عنه الطريقة، ثم اختلف معه فطرده، ومن ثم لحق بمنافسه القرشي، وعندما بدأت المهدية وقف ضدها يناوئ الثورة، أسلم لها بعد سقوط الخرطوم، وعامله المهدي معاملة حسنة، وفي العهد الثنائي نال كثيرا من الجزاء، توفي سنة 1908م بمحلة الشيخ الطيب، أنظر: د.محمد إبراهيم أبو سليم: الحركة الفكرية في المهدية، ط2، دار الجيل، بيروت، 1981،ص.6.

(3)- د. نعوم شقير: المصدر السابق، ص.638.

(4) نعوم شقير: نفس المكان.

كبر شأن التلميذ في عين أستاذه وبمرور الزمن أجله وقربه ورقاه في سلم الطريقة لما رأى فيه من علم وإخلاص، فنصبه شيخا للطريقة سنة 1292هـ/1876م، ورفع له راية وسمح له بالتجول حيث شاء لنشر الطريقة وإعطاء العهود وقبول الأتباع والمريدين، وهذه درجة رفيعة وعالية في مدارج الطرق الصوفية(1).

والحق أن هذا التعيين لم يكن هبة و لم ينطلق من فراغ، إنما ناله عن جدارة واستحقاق، وهذا يبين المكانة التي بلغها التلميذ، والنجاح الذي أحرزه وهو ما يزال في هذه السن، سواء في مجال العلم أو في المواظبة على خدمة الطريقة والإخلاص لها ولأتباعها، لذلك يمنحه شيخه كل هذه الثقة ويتنازل له عن صلاحيات قبول الأتباع والمريدين سلوك الطريقة، وهذه الدرجة في سلم الصوفية لا يرقى إليها إلا النادر من الإخوان الأصفياء.

وتذكر بعض الروايات أن محمد احمد قد انتسب إلى هذه الطريقة قبل رحيله إلى "بربر" غير أن الدلائل التي تؤكد هذا أو تكذبه ليست متوفرة لدينا، بيد أن محمد أحمد الذي تلقى الطريقة على حفيد الشيخ الطيب محمد الشريف، لم يقحم نفسه في الصراع و لم يؤثر عليه التصدع الذي حدث في الطريقة على يد كل من الشيخين القرشي ود الزين(*) والطيب البصير اللذين اخذا الطريقة مباشرة عن احمد الطيب ود البشير، كما أن علاقة المصاهرة بين أسرتي الشيخين من جهة وأخذهما الطريقة من منبع واحد من جهة ثانية، جعل الصراع بين الطائفتين يمر هادئا بلا عنف، وهذا ما مكن "محمد أحمد" من النجاح والمرور من فرع إلى فرع بسهولة ويسر فيما بعد(2).

وفي عام 1286هـ/1871م شد إخوة محمد أحمد الرحال إلى جزيرة "أبا"(**) الغنية بأشجارها الكبيرة الصالحة لبناء السفن والمراكب، فرحل معهم(3)، وهناك في الجزيرة بنا جامعا للعبادة وشق لنفسه غارا وأنشأ خلوة لتعليم الناس، فقصده سكان تلك الجزيرة، و لم يمض من الوقت إلا قليله حتى اشتهر خبره وذاع بين الناس، فكثر تلاميذه وأتباعه وتحلقوا حوله يغترفون من علمه، فتخرج على يديه من هذه الخلوة نفر غير قليل من الدعاة والمعملين، وثلة من العلماء كان لهم باع طويل وأثر بالغ في الدعوة المهدية فيما بعد(4).

---

(1)- د. عبد الرحمان عمر الماحي: المرجع السابق، ص175.

(*)- هو القرشي ود الزين أحد زعماء السمانية المنافسين للشيخ محمدشريف، وكان له فرع خاص وهو من الذين تلقوا الطريقة من الشيخ أحمد الطيب ود البشير، وهذا الأخير من أهل المدينة المنورة، وهو الذي أدخل السمانية إلى السودان، وقد كانت مشكلة القرشي أن فرعه كان مهددا بسبب خلفه لأن إبنه عبد الرحمان كان صغيرا، وقد وجد في محمد أحمد الذي وفد إليه بعد خصومة شديدة مع الشيخ محمد شريف خصم القرشي، فقبله في الطريقة وأكرمه وزوجه ابنته النعمة التي رزق منها بإبنه على المهدي وتوفي القرشي في أواخر سنة 1297هـ/1880م أنظر: محمد إبراهيم أبو سليم، المرجع السابق، ص.7.

(**)- "أبا": تبعد عن الخرطوم بحوالي 150 ميلا، أنظر: د. عبد الرحمان الرافعي، مرجع سابق، ص.115.

(2)- د. محمد إبراهيم أبو سليم، المرجع السابق، ص.14.

(3)- د. عبد الرحمان الرافعي: المرجع السابق، ص.126.

(4)- د.محمد ابراهيم ابوسليم: المرجع السابق،ص14.

الفصل السابع ـــــــ

لمع بريق محمد أحمد وأخذ الناس يتناقلون أخباره وينشرونها في كل مكان، وتسامع الناس في ربوع السودان أن واليا جديدا من أولياء الله يقيم بجزيرة "أبا" فما كان على ربابنة السفن والمراكب العابرة للنيل إلا التوقف والرسو عند شواطئ الجزيرة لرؤية شخص الوالي الصالح لحظة للحصول على الرضا ونوال البركة منه حسب دعواهم(1). وما لبث أن اجتمع حوله الناس من مختلف القبائل ومنحوه الولاء الخالص والطاعة التامة وخاصة سكان الجزيرة.

في هذه الأثناء انتقل أستاذه "محمد شريف" إلى القادرية على النيل الأبيض، فلم يتوان "محمد أحمد" ولم يقصر في زياراته لاسيما في المواسم والأعياد، ليقدم له واجب الطاعة والإحترام، وقد بالغ في ذلك حتى أنه قبل الدخول عليه كان "يضع التراب على رأسه والشعبة(*) في رقبته وفروة الضأن على صلبه تشبيها بالعبد في حالة ذله"(2)، ولكن أستاذه كان يزيح عنه كل ذلك ويلبسه أفخر الثياب، فيقيم أياما يستمع إلى دروسه ومواعظه وتوجيهاته.

ولا شك أن كل هذه السلوكات من طرف التلميذ كانت لها وقع في النفوس وتهيئة لكسب المزيد من الأتباع والأنصار والإستعداد للقيام بأمر جلل، وفي إحدى زياراته كلم أستاذه عن ثروات وخيرات البلاد التي يقيم فيها ويسر العيش بها، وزين له العيش والرحلة إليها، فلم يمانع وانتقل إلى العراذيب بالقرب من "أبا" وذلك عام 1288هـ/1872م وكانت العراذيب (الأراديب) رغم غناها الوافر وخصبها الشديد بلا زراعة وخالية من السكان، فأقام بها وعمرها فأزدهرت الحياة بها، ومارس السكان الأنشطة الإقتصادية من زراعة وحرف مختلفة، وساعدهم ذلك على رفع مستواهم المعيشي وحضور الدروس.

عاش الشيخ على صفاء وود تامين مع تلميذه، وكان من نتائج اجتماعهما أن تمكن نفوذ السمانية في منطقة الأبيض، وبالأخص نفوذ محمد أحمد الذي بز نفوذ شيخه وبلغت شهرته مكانة عالية في نفوس السودانيين لا لكونه داعية للإسلام ومصلحا لأحوال المسلمين،ولا لنقاء عقيدته فقط، بل لإعتقاد الناس فيه شخصيا(3)، ولم يلبث الصفاء والود بين الأستاذ والتلميذ أن تحول إلى جفاء ونفور،وظهر الخلاف وتفاقم وازداد البون شساعة بين الرجلين، وصار من البديهي طرد التلميذ من الطريقة، وقد اختلفت الآراء في أسباب شطب محمد أحمد من الطريقة، فقد ردها أستاذه إلى إدعاء تلميذه أنه المهدي المنتظر(4)، بينماذهب

---

(1)- د. مكي شبيكة، المرجع السابق، ص642.

(*)- الشعبة: بكسر الشين المشددة، وسكون العين وفتح الباء، خشبة طويلة تتفرغ إلى فرعين على شكل رقم سبعة في الأرقام الهندية، " "V" توضع في عنق العبد الآبق أو المجرم، أنظر، عبد الودود إبراهيم شلبي، مرجع سابق، ص.24.

(2)- د. عبد الودود إبراهيم شلبي: المرجع السابق، ص ص 24-25.

(3)- د. محمد إبراهيم أبو سليم: المرجع السابق، ص.14.

(4)- د. نعوم شقير: المصدر السابق، ص ص 639-641.

آخرون "توفيق محمد البكري، محمد إبراهيم أبو سليم" إلى القول أن السبب المباشر للطرد مرده إلى الخلاف الذي دب بين الرجلين على أثر حفل أقامه محمد شريف، بمناسبة ختان أنجاله حضره جمع غفير من المدعوين نقرت فيه الدفوف ورقصت النساء متبرجات واختلطن بالرجال،وكل ما يصاحب ذلك من اللهو والمجـــون وشرب الخمور.

استنكر محمد أحمد هذه الأفعال وأعلن أنها بدعة وفساد،وأن الإسلام يمنع هذا بل ليحرمه، وطلـب من أتباعه ومريديه ألا يشتركوا فيه قائلا(1): **"إن الشريعة تمنع الرقص والغناء والشراب والمجون، وليـس في وسع أحد إجازتها ولو كان صاحب طريقة".**

أما كارل بروكلمان(2) فيضيف إلى الأسباب السالفة أن محمد أحمد قد اختلف مع شيخه بعـد أن حلل هذا الأخير لأتباع طريقته الميسر والرقص.

بيد أن أنصار محمد أحمد يسفهون هذه الآراء،ويروون رواية أخرى لتعليـــل القطيعـــة واتســـاع الخلاف، إذ يردونه إلى الحقد والحسد بسبب إنصراف الناس عن محمد شريف وعزوفهم عنه وميلـــهم إلى تلميذه، فقد رأى الشيخ بأم عينيه إقبال الناس على محمد أحمد إقبالا فاق تصوره، فلم تهضمه نفســـــه و لم يستسغه عقله، فساءه ذلك وأثر في نفسه، فشرع يعمل على الحط من قيمته للتقليل من نفوذه، ونصب لـــه الشيخ "رضوان" أحد حلفائه ندا في "قوز العلوب" غرب "أبا" ودعا الناس إلى اتباع هذا الشيخ بدل محمـد أحمد منافسه.

والحق أن هذه الأسباب تبدو وجيهة ومعقولة في طرد "محمد أحمد" من سلك الطريقة من وجهة نظر أصحابها على الأقل، ما عدا ذلك الشطط الذي راح إليه بروكلمان، إذ من غير المعقول أن يدعو رجـلا في مقام محمد شريف إلى إجازه وتحليل ما حرم الله ونهى عنه، فقد يكون الشيخ قد غض البصر عن الرقـــص والإختلاط، لكن أن يصدر فتوى يحلل بموجبها شرب المسكر ولعب الميسر فهذا مالا نتوقعه، بناء على قوله تعالى(3):**"يا أيها الدين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والألزام رجس من عمل الشيطان فـاجتنبوه لعلكم تعلمون".**

استنكر محمد أحمد فعل أستاذه ووصفه بالشنيع، وزاد النفور بينه وبين الشيخ "رضوان" وانتهى إلى المواجهة والعراك، حتى جرح محمد أحمد وزج بأتباع خصمه في السجن(4).

---

(1)-د.محمد إبراهيم أبو سليم: المرجع السابق، ص.15.

(2)- كارل بروكلمان: المرجع السابق، ص.641.

(3)- سورة المائدة: الآية 90.

(4)- د. نعوم شقير: المصدر السابق، ص.641.

ومنذ ذلك الحين زاد حنق التلميذ على أستاذه وفتر حبه واحترامه له وسقط في عينه، في حين أدرك الأستاذ أنه أصبح دون تلميذه نفرا وتقوى وتعقلا، لاسيما وأن محمد شريف كان يستقبل النساء في مجلسه ويسمح لهن بالإقتراب منه وتقبيل يده، وهذا لا شك من العيوب التي أثارت حفيظة محمد أحمد، فندد بهذا السلوك المشين، كما جاهر بمعارضته لما وقع من أفعال في حفل الختان،وهذا يتفق مع ما حدث له هو نفسه في ليلة زفافه، حيث اجتمع الأهل والأصدقاء واختلطت النساء والرجال لإحياء الليلة بالرقص والاغاني فقام اليهم زاجرا ومنعهم، ويذكرنا هذا الموقف الذي وقفه محمد أحمد بذلك الذي سبق أن وقفه من شيخه السابق محمد الخير.

كان قد بلغ مسامع الشيخ تنديد التلميذ بالأفعال المنسوبة إليه، وتطاوله عليه، فاتخذ من ذلك ذريعة للانتقام منه، فاستدعاه للمثول أمامه ووبخه توبيخا قاسيا، وقال له(1):" **إذهب فقد صدق فيك المثل القائل الدنقلاوي شيطان مجلد في جلد إنسان**".

عاد محمد أحمد لأستاذه مرارا يطلب العفو معلنا توبته،فوقف منه موقف الصدود و لم يصفح عنه ونظرا لتعلق مترجمنا بالطريقة السمانية وأصولها ومبادئها، وربما كان له أيضا حلفاء وتلامذة يدعون لها في الأقاليم المختلفة ويلقنون أتباعها الأوراد والراتب، لذا لم يكن من السهل عليه التخلي عنها.

وسواء كان هذا السبب أو ذاك في إقصاء التلميذ الوفي للطريقة،فإنه استطاع اجتياز هذه المحنة الصعبة وواصل تبعيته للطريقة بفضل الشيخ "القرشي ود الزين"، الذي كان يقيم "بالحلويين" على النيل الأزرق، وهو أحد المشائخ المناوئين لمحمد شريف، فجدد له العهد رغم احتجاج الشيخ السابق الذي أشلع أن فصل التلميذ كان نتيجة خروجه عن الشريعة والسنة النبوية الشريفة، و لم يتوقف محمد شريف عند هذا الحد بل راح يراسل القرشي معاتبا إياه قبول العاق في سلك الطريقة، فرد عليه قائلا(2):"**إني رأيت محمد أحمد مستحقا ومنع المستحق ظلم**".

تعلق محمد أحمدْ بشيخه الجديد وبلغ من نفسه مبلغا عظيما، وزاد الشيخ في تعزيز هذه الرابطة التي ما انفكت تتبلور مع الأيام أن زوجه ابنته "النعمة"(3) .وخلف المهدي أطفالا(*)

والواقع أن ظروف البيئة والميقات اللتين نشآ فيهما محمد أحمد جعلت منه ذلك الشخص الذي يهيئ نفسه ويعدها لأمر عظيم، خصوصا وأن السودان في تلك الآونة كان مرتعا للطرق والفكر الصوفيين والمؤلفات التي تبشر بالمهدي وزمن ظهوره.

---

(1)- د. نعوم شقير: المصدر السابق، ص.462.
(2)- نعوم شقير، نفس المكان.
(3)-د.محمد إبراهيم أبو سليم: المرجع السابق، ص.16.
(*)- أنظر الملحق رقم 7.

الفصل السابع ـــــــ

الفصل السابع ـــــــ

وكان مضمون هذه الأساطير يصور آمال المضطهدين وأحلامهم، وكان الشيعة أسبق الفرق الإسلامية تمسكا بهذه الفكرة والعمل لها لفترة طويلة، وتتلمذ عليهم المتصوفة وأخذوا عنهم الفكرة وصاغوها في قوالب تتفق واتجاهاتهم ومشاربهم، ومن أشهر المتصوفة الذين تناولوا هذا الموضوع -المهدي المنظر- محي الدين بن عربي(*)، الذي تكلم عنه في كتابه الفتوحات المكية، ثم خصص له مؤلفا صغيرا بعنوان "عنقاء مغرب" ملأه بالتنبؤات وكانت كتابات وآراء بن عربي متداولة في السودان على نطاق واسع واتخذها المعارضون والمؤيدون لمهدية مهدي السودان، أسانيد لتأكيد أو رد المهدية.

أما أهل السنة فيرون أن المهدي المنتظر مصلحا دينيا يعيد للإسلام نقاءه الأول، غير أنهم لا يتطرفون في رأيهم ولا يشتطون فيه شطط المتصوفة والشيعة، وقد عرف السودانيون المسلمون كغيرهم فكرة المهدي المنتظر وكانوا في الانتظار، وقد عمق هذه الفكرة في بلادهم مصدران هامان: الأول يتمثل في المصادر الإسلامية، وما جاءت به الطرق الصوفية،والمصدر الثاني أثر جهاد شعب "الفولاني" بزعامة "عثمان دان فودي"، وما تركه هذا الأخير بمعية ابنه "محمد بلو" من مؤلفات بشرت كلها بقدوم المهدي المنتظر.

كان السودان كغيره من بلاد المسلمين تروج فيه فكرة المهدية وظهور المهدي والمؤلفات التي تتناول الموضوع منتشرة ومعروفة، وكل المجتمع كان يترقب ظهور المهدي المخلص والمطهر و لم تكن هذه الأفكار خافية على محمد أحمد(1).

ويبدو مما سبق، أن الظروف كانت مهيأة والمناخ مناسب في بلاد السودان لتقبل مثل هذه الفكرة فلم يتوان محمد أحمد و لم يتأخر في استغلال هذه الفرص، ليعلن عن ظهوره كمصلح ومنقذ.

ظهور المهدي في السودان :

كان السودان يعج بفكرة ظهور المهدي والمصنفات التي تناولت الموضوع شائعة ومطروقة وكل المجتمع كان في انتظار ظهوره، وكان محمد أحمد خير من يعلم باعتباره عالما وصوفيا، غير أن أغلب الروايات ترجح أن الشيخ القرشي هو الذي نبه ذهن محمد أحمد وهيأ نفسه لتقبل هذه الفكرة، فبعد بلوغه سن التسعين وقبل موافاته الأجل بقليل ذكر أن زمن المهدي المنتظر قد حل أوانه، وقال عن المهدي المنتظر(2)، أديته بنتي وفرسي وأنا موعود أن فرسي ده يركبه المهدي.

(*)- هو محي الدين محمد بن علي بن عربي المتوفى سنة 638هـ/1240م-1241م، من كبار المتصوفة كان عالما متبحرا في أراء الشعية فنقل آراءهم إلى التصوف، وقد نظم دولة للأولياء تقوم على القطب والإبدال والأوتاد، وقد أخذ هذه الفكرة عن الإسماعلية تعرض للمهدية وفصلها في كتابه "عنقاء مغرب" وكذلك في الفتوحات المكية. أنظر: موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب الذين عرفوا بالعربية، دار الكتب العلمية، ط1، 2005، ص 35.

(1)- محمد إبراهيم أبو سليم: المرجع السابق، ص ص 3-4.

(2)- د.محمد إبراهيم أبو سليم، المرجع نفسه، ص.16.

ويظهر من هدا القول أن الشيخ كان يشير بهذا الأمر إلى تلميذه وهو صهره،وهو الذي كان يركبه فرسه بعد أن عجز الشيخ عن امتطائها، ولاشك أن هذا توجيه غير مباشر وتنبيه لمحمد أحمد لتقمص هـــذا الدور.

وفي معرض حديث هذا الشيخ عن المهدية يذكر في موضع آخر، قوله عن المهدي(1) " الذي يشيد على ضريحي قبة، ويختن أولادي هو المهدي المنتظر"، و لم يلبث أن توفي الشيخ القرشي في أواخـــر ســـنة 1297هـــ/1880م ولما سمع الصهر بوفاة حماه خرج من مكان إقامته وافدا على الحلويين حيث كـــان يقيـــم شيخه، وذلك في مطلع سنة 1298هـــ/1880م، يصحبه في ذلك جمع غفير من تلامذته، وشرع في تشـــييد القبة على ضريح صهره وأستاذه باللبن الأخضر، وما هي إلا أيام قلائل وأعد العدة لختن أنجال شيخه.

وهنا يبدو أن محمد أحمد بإقدامه على هذه الخطوة قد رتب للأمر وشـــرع في تنفيـــذه عمليـــا واستعدادا لليوم الموعود، ومما زاد في بروز مكانة الرجل شغور منصب رئاسة المشيخة بعد وفـــاة الشـــيخ وعرض تولي مهامها على شخصه.

والحق أن هذا الأمر قد اختلف فيه الرواة، فمنهم من يرى أن الشيخ قد أوصى بها صراحة لمحمـــد أحمد متفاديا أولاده، ويرى آخرون أن أنصاره هم الذين قلدوه أمرها نظرا للمكانة التي كان يتمتـــع بهـــا بينهم، والحضوة التي نالها من نفس أستاذهم من جانب، ولمقدرته وكفاءته من جانب آخره ووافقهم علـــى ذلك جل ذرية الأستاذ وورثته، لاسيما وأن أسرة وطائفة الشيخ القرشي كانت قلقة ومحتارة حيال خلافـــة الشيخ، وبالأخص وأن الإبن البكر في الذكور "عبد الرحمان" كان صغيرا، والمهمة تحتاج شخصا كبـــيرا في السن ناضج العقل مقتدرا، وهذه الصفات لا يفتقر إليها محمد أحمد، فهيأته لينال رئاســـة المشـــيخة عـــن جدارة.

إذن فالعوامل النفسية والداخلية كانت مهيأة ومعدة من قبل، هذا على المستوى الداخلي، أما على المستوى الخارجي ففي تلك الأثناء وفد على البلاد رجل من أقصى غرب البلاد، غريب الـــزي واللهجـــة تومض عيناه بذكاء حاد، فسأله محمد أحمد قائلا:" **من أنت؟**".

فقال(2): أنا عبد الله محمد طورشين من قبيلة التعايشة البقارة، وقد سمعت بصلاحـــك في ديـــار الغرب، فجئت إليك لآخذ الطريقة عنك، و لم يتوقف عند هذا الحد بل راح يقول"وكان لي والد صالح من أهل الكشف، وقد قال لي قبل وفاته أنك ستقابل المهدي وتكون وزيره وقد أخبرني بعلامات المهدي

---

(1)- د. عبد الودود إبراهيم شلبي: المرجع السابق، ص.29.

(2)-د. محمد إبراهيم أو سليم: المرجع السابق، ص ص 6-7.

الفصل السابع ـــــــ

في هذه الأثناء لاحظ محمد أحمد بعينيه وجد الناس عامتهم وخاصتهم وتذمرهم من سلطة الحكومة وسمع بأذنيه طعنهم في سياستها، وشعر برغبتهم في التخلص من الضيم الذي حل على رؤوسهم ونـاء بكلكله على صدورهم، وقد تركت هذه الزيارة بصماتها في نفوس الناس.

وفي طريق عودته من إقليم "كردفان" عرج على بعض القبائل عارضا عليهم دعوته، فوجد عند زعمائها ورؤسائها قبولا واستحسانا لما يدعو إليه.

ويتضح أن محمد احمد كان واعيا وبعيد النظر، و لم يكن غافلا عن خصوصيات المجتمع السوداني الثقافية لذلك اتجه إلى الغرب، لأن قبائل تلك الجهات كانت أكثر استعدادا وتقبلا لفكرة المهدي المنتظر لكونها أكثر تخلفا، بحكم انعزالها الجغرافي وبعدها عن مراكز الحضارة وحداثتها بالإسلام، لذلك وقع اختياره عليها كمركز لحشد حشوده وانطلاق حركته، على عكس قبائل الوسط والشمال التي كانت تتمتع بخصوصية أكثر نضجا، لأن إسلامها راسخ ثم أنها على صلة بمراكز الحضارة الإسلامية، زيادة على احتكاكها ومعايشتها لطرق صوفية متعددة، وتأثرها بأفواج الفقهاء والعلماء الذين هاجروا إلى تلك الجهات يجعل لها خلفية ثقافية يمكن أن ترفض من خلالها فكرة المهدي والمهدية، أو على الأقل لا تجد لها استجابة واسعة وقبول حسن، غير أنها كانت مستعدة لإيجاد القائد المخلص(1).

إذن كان الناس في بلاد السودان على أهبة الاستعداد لتصديق هذه الدعوى واحتضانها نظرا لمـآل إليه الإسلام من جهة وتدهور أحوال المسلمين وغيرهم من جهة أخرى، وإقبال الإدارة التركية في تلك الأثناء على احتكار التجارة واستتراف ثروات البلاد(2)، التي أصبحت شحيحة مما دفع بمئات العائلات إلى هجر العمل الفلاحي وترك سواقي عجلات الري الخشبية، المعتمدة على جهد الحيوان كقوة ساحبة لاستخراج المياه، وترك النشاطات الأخرى بسبب فرض الضرائب المرهقة التي أثقلت كواهل الأهالي، وفوق هذا توزيعها توزيعا غير عادل، علاوة على ذلك جبايتها بأساليب بعيدة كل البعد عن السلوكات الإنسانية الحضارية، إذ كانت هذه الضرائب تجبى بأقسى ما يمكن من القوة والعنف(3).

وفي هذا الوقت كان القرن الثالث عشر الهجري، قد أشرف على النهاية، وقد سرى بين الناس خبر شيوع نهاية القرن بظهور شخصية المنقذ والمخلص المدعو السيد المهدي.

---

(1)- محمد أبو القاسم حاج حمد: المرجع السابق، ص ص 38-39.

(2)- عبد الرحمان الرافعي: المرجع السابق، ص.110.

(3)- محمد أبو القاسم حاج حمد، المرجع السابق، ص.30.

إشهار محمد أحمد المهدية

لقد درس محمد أحمد التصوف ونبغ فيه وسلك طريقه، فقد نقب بين أسفار الكتب والمتون، وسبر أغوارها، واطلع على المصادر اطلاع بحث وتدقيق عن كنه المهدي وجوهره، والصفات التي يتصف بها والعلامات التي تميزه، وإرهاصات زمانه، والوسائل التي توجهه وتتحكم في سلوكاته وتصرفاته مع تطبيقها على نفسه وأحواله الشخصية، ولما استوفى الغرض المطلوب من أبحاثه وتحرياته، شرع في إشهار دعواه التي قام بها في بداية الأمر سرا.

وقد اختلفت المصادر في تاريخ إعلان دعوته فقد ذهب بعضهم اعتمادا على قول منسوب إلى أستاذه وشيخه محمد شريف، وهو أن محمد أحمد لما كثر أتباعه وزاد مريدوه اغتر وكبرت نفسه في نظره وسولت له أنه المهدي المنتظر، فأسر يدعواه إلى شيخه، ورغب أن يكون أمين سره ووزيره، ويجعل أمره بيده(1)، وذلك سنة (1295هـ/1878م) فقام إليه الشيخ ناهيا زاجرا مرارا فتمادى و لم ينته، فعقد له مجلسا في جزيرة "أبا" ضم كبراء القوم وشيوخ القبائل وأعيانها وعرض عليه الرجوع عن ضلاله وغيه، مقابل أن يشاطره مناصفة ما يملك من ثروة، وأشهد الحضور على ذلك.

خرج محمد أحمد من المجلس لاستشارة أصحابه حسب دعواه و لم يعد، ومنذ ذلك الوقت حرض الشيخ محمد شريف أصحابه وأمرهم بضربه أينما صادفوه أو قابلوه؟ ونصح الحكام بإلقاء القبض عليه وحبسه(2) علّه يرتدع ويتوب إلى رشده، فيطوقون بذلك الخطر قبل أن يستفحل وينتشر.

غير أن الحاكم رفض اعتقاله باعتباره صاحب "الخضر" وقد سجل محمد شريف هذا الأمر بقصيدة من نظمه، قيل أنها كانت بإيعاز من عبد القادر باشا حلمي حاكم السودان وذلك سنة 1299هـ/1882م يكذب فيها دعوى تلميذه نجاء فيها.

لقد جاء في عام "زع" لموضع *** على جبل السلطان في شاطئ البحر
يروم الصراط المستقيم على يدي *** فبايعته عهدا على النهي والأمر
فقال أنا المهدي فقلت له اسقم *** فهذا مقام في الطريق لمن يدري
فقم بي لنصر الدين نقتل من عصى *** فأنت لك الكرسي ولي دول الغير
فقلت له: دع ما نويت فإنه *** فالله شر قد يجر إلى الخسر

---

(1)- محمد أبو القاسم حاج حمد: المرجع السابق، ص.78.

(2) - C.Brockel Mann; Op-Cit, p342.

ومنذ ذلك النادي أبي وأبيه *** وأفتيت فيه بالضلال وبالكفر

وكنت نصحت القيمقام بحبسه *** فما جاء من غير دع "صاحب الخضر"

وقد أكد هذا الشيخ لنعوم شقير شفاهة عندما التقى به بعد فتح "ام درمان" سنة 1316هـ-1898م(1) بينما تذهب بعض الروايات الى القول بأن محمد احمد قد بدا في مراسلة اصدقائه الأقربين في سلك السمانية منذ شهر ذي القعدة 1297هـ/1878م إذ بعث بخطاب(*) في هذا الموضوع إلى محمد ود البصير في الجزيرة كما أرسل بخطاب في نفس الشهر إلى إخوته في الجزيرة يطلب منهم ترك العمل والإقبال عليه، للقيام بأمر هام.(2)

ومن خلال تصفح هذه الرسائل تبين لنا بوضوح تام أن محمد أحمد عزم على القيام بأمر جلل إذ تبينت له بشائره وإشاراته مما يجعلنا نجزم أنه أمر المهدية.

ويذهب آخرون إلى القول بأن أول من أسره بسر المهدية كان عبد الله التعايشي باعتباره أقرب المقربين إليه، وذلك في شهر ربيع الثاني سنة 1298هـ/1881م ثم استمر الأمر تكتنفه السرية يمتد من الأقرب الى الاقرب من تلاميذته وأصفيائه(3).

وسواء كانت الرواية الأولى أصح أم الثانية أم غيرهما، فإن أمر المهدية قد غدا واقعا وصار من لا يعلمه يتوقعه،إذأ صبح قاب قوسين أو أدنى من الإعلان عنه صراحة، وأن صاحب الأمر أفشى سره.

وقد قال الشاعر العربي:

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه *** فصدر الذي أودعت السر أضيق.

ومن هنا يبدو أن الأمر لن يستمر في طي السرية زمنا طويلا، إذ لم يلبث أن مزق حجب الخفاء ليظهر، ففي الفاتح من شهر شعبان عام 1298هـ/29 جوان 1881م خرجت الدعوة من طي الكتمان والسرية إلى الإعلان والجهر(4).

وقد بدأ "المهدي" في دعوته بمخاطبة أصحابه من الفقهاء والأعيان ومشائخ الطرق الصوفية والقبائل ورؤساء العشائر، مصرحا بدعواه جاهرا بها، فقد حثهم على القيام معه لنصرة دين الله وهجرة أماكن إقامتهم وإقبالهم عليه لمبايعته على القيام بأمر الجهاد في سبيل الله، قائلا(5):" ***أنه قد رأى النبي "ص"***

---

(1)-د/ نعوم شقير: المرجع السابق، ص ص 639-641.
(*)- أنظر الخطابين عند مكي شبيكة: ص ص 654-646.
(2)- د. مكي شبيكة: المرجع السابق، ص ص 445-446.
(3)- د. نعوم شقير: المصدر السابق، ص664.
(4)- د. نعوم شقير: المصدر السابق، ص.464، وعبد الرحمان الرافعي: المرجع السابق، ص.116.
(5)- د. نعوم شقير: نفس المصدر، ص .465، ومابعدها.

الفصل السابع ـــــــ

الفصل السابع ـــــــ

بعد أن اكتسب محمد أحمد صفة المهدية، قام بزيارة ثانية "لكردفان" والتقى بالزعماء ورؤساء القبائل وأعيانها والعلماء والفقهاء، وجدد صلاته بهم ووثق العلاقة بينه وبين الجماهير العريضة التي انهكتها الأغلال وسحقها الطغيان فتزايد السخط وبلغت النقمة حدا لا يطاق، وفي أثناء عودته عرج على "قدير" واختار أن تكون دار هجرته مستقبلا، وهذا ما يمكن استخلاصه من حديث "عبد الله التعايشي" بعد توليه الخلافة إذ قال(1): " إن الغرض من هذه السياحة لم تكن نشر الدعوة فحسب، بل كان القصد منها كشف البلاد التي تصلح للهيجان وشن الغارة بعد إشهار دعواه".

ويبدو أنه منذ تلك الزيارة وقع انتقاؤه "لقدير" لتكون مركزا لهجرته لذلك عرج عليها هذه المرة متخذا قراره النهائي بأن تكون دار هجرته في القريب العاجل.

وبعد عودته إلى "أبا" أقدم على الخطوة العملية في الدعوة بإعلانه الجهاد في سبيل الله، وشرع في الكتابة لأتباعه وأنصاره يدعوهم للتجمع في الجزيرة، وجعل من شهر رمضان المبارك سنة 1298هـ/1881م موعدا لهذا التجمع، وكان غرضه من وراء ذلك الهجرة إلى قدير بعد عيد الفطر مباشرة.

لم يكن اختيار المهدي لهذا الميقاة عشوائيا، بل كان عن دراسة وتبصر، فقد اختار هذه الفترة لأنها موسم تساقط الأمطار الذي يعيق استمرار متابعة قوات الحكومة له، وشل مطاردتها لأتباعه، وفي نفس الوقت يؤمن لأنصاره كفايتهم من المياه أينما حلوا وارتحلوا(2).

الهجرة إلى قدير:

كان محمد شريف نور الدائم قد أبلغ "رؤوف باشا(*)" حاكم عموم السودان بما أقدم عليه محمد أحمد، لكن رؤوف لم يعر الأمر اهتماما ورده إلى العداوة المستحكمة بينهما، إلى أن تأكد له أمر المنشورات بعد أن وقع أحدها في يده، فكتب إلى المهدي مستفسرا عن أمر المنشورات مستخلصا له عذرا بقوله(3): "***لعل بعض العداة كتب هذه المنشورات ونسبها إليكم***" فأجابه: بأن المنشورات صادرة عنه(**)، فجمع رؤوف العلماء واطلعهم على ما كان، فالتمس له بعضهم الأعذار، غير أنهم حكموا بوجوب القبض عليه فانتدب رؤوف باشا لذلك "أبو السعود العقاد" وجهز له حملة قادها هذا الأخير بنفسه حتى بلغت جزيرة "أبا" صبيحة يوم الجمعة 16 رمضان 1298هـ/12 أوت 1881م.

---

(1)- د. نعوم شقير: المصدر السابق، ص.644.

(2)- د. محمد إبراهيم أبو سليم: المرجع السابق، ص.19.

(*)- محمد رؤوف باشا لواء الجيش المصري، قيل أن اباه نوبي، وأمه حبشية ولد سنة 1831م تقلد عدة مناصب حتى وصل مديرا لدرر 1875م/1878م، خلف غرودون على حكم السودان 1880م، انتصر المهدي على قواته عدة مرات، فصل عن منصبه سنة 1882 فخلفه عبد القادر حلمي باشا . حضر محاكمة احمد عرابي، أنظر، محمد إبراهيم أبو سليم: نفس المرجع، ص.20.

(3)- نعوم شقير: المصدر السابق: ص.655.

** انظر الملحق رقم (6)

الفصل السابع ـــــــ

ما كاد المهدي يستقر في "قدير" حتى واجهه راشد دايمن(*)، بحملة منيت بهزيمة نكراء في سنة 1298هـ/ ديسمبر1881م، كما واجه حملة بقيادة "يوسف حسن الشلالي"(**) يوم الإثنين 12 رجب 1299هـ/29 ماي 1882م، انتهت بالفشل وعرفت هذه الموقعة في التاريخ بواقعة "قدير" الثانية(1).

أدهشت هذه الانتصارات المحققة والمتتالية جماهير السودان،وبالقدر الذي رفعت من مكانة المهدي وأنصاره،حطت من قيمة ومكانة السلطات الحاكمة، فلم يبق للعامة شك في مهديته، فتقاطر عليه الأهالي من كل حدب وصوب وخاصة سكان الأرياف والبوادي، كما جاءه التجار واللصوص والعلماء والفقهاء والأعيان ،كل يرى فيه ضالته ويجد فيه الملجأ والملاذ.

والحق أن هذه الظروف التي سبقت ظهور الدعوة المهدية ونشأة صاحبها وما رافقه من أحداث وتطورات من جهة، والإنكسارات التي منيت بها الحملات الحكومية من جهة ثانية،أضحت خوارق بالنسبة لجماهير السودان، أضفت على محمد أحمد هالة من التقديس والاحترام وكسته بجلباب المهدي المنتظر فاستعد للجهاد وبناء دولته المنشودة.

الجهاد و بناء الدولة:

بعد النجاح الذي أحرزه محمد أحمد في التمهيد لإرساء دعائم الدعوة وهجرته إلى "قدير" وادعائه المهدية وتصديق الناس دعواه، شرع في بناء الدولة، يقول ابن عربي(2):" المهدي والسيف أخوان"، لكن المهدي لم يكن في حاجة إلى هذا القول لأن الأسباب قد توفرت للمهدي، ليعلن الجهاد والثورة.

أسباب الجهاد و الثورة :

1- سوء الحالة الإقتصادية للجماهير واحتكار الدولة للنشاط التجاري ومنع تجارة الرقيق.

2- العنف الذي مارسته الحكومة على يد إسماعيل باشا عند فتحه سنار، وتنكيله بالملك "نمر".

3- الضرائب المرهقة وتوزيعها توزيعا غير عادل، وجمعها بالقوة وبأقسى ما يمكن(3).

(*)- راشد أيمن مدير فاشودة "كودوك" استأذن رؤوف باشا في مهاجمة المهدي فلم يأذن له غير أنه صمم على مهاجمة المهدي دون استئذان لما علم بضيقه، فهاجمه ومني بالهزيمة، أنظر، محمد إبراهيم أبو سليم: المرجع السابق. ص 22

(1)- د. محمد إبراهيم أبو سليم، المرجع السابق، ص.22.

(2)- د. عبد الودود إبراهيم شلبي: المرجع السابق، ص161.

(3)- د. نعوم شقير: المصدر السابق، ص ص 631-632.

4- قيام الثورة العرابية بمصر بعد أن أخذ عرابي فتوى من علماء الأزهر بجواز مقاتلة الـــوالي والخروج عليه.

5- رفض السودانيين الخضوع والولاء للأجانب الذين تقلـــــدوا الوظـــائف في الســـودان وإصدارهم أوامر تتنافى مع الدين(1).

6- تأثير الحركات الإسلامية، حركة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، والحركة الوهابيـــة، والحركة السنوسية(2).

وإذا كان السودانيون على أهبة الاستعداد في تغيير هذه الأوضاع التي حلت بالبلاد، وكـــانوا ينتظرون فقط البطل المخلص، فالمهدي ومباشرة بعد زيارته لكردفان وإبلاغ السلطات عنه، طلـــب "رؤوف باشا" من المهدي المثول أمام الحكومة لرد التهم الموجهة إليه، فرفض هذا الأخير الشـــخوص الى الخرطوم(*) وبدأ يعد للجهاد والثورة ضد الكفار(3). فعد هذا عصيانا وتمردا وبدايـــــة للثـــورة وجهاداللأجانب الدخلاء.

وما اقدام رؤوف على تأديب الرجل بحملة "أبي السعود العقاد(**) الفاشلة"ومحاولة ثنيه عـــن عزمه ومبادرة راشد أيمن التي منيت بهيزمة نكراء، إلا محاولة من الحكومة للقضاء على الثورة قبيـــــل استفحالها وفي هذه الأثناء نظم المهدي صفوفه وأطلق على أتباعه إسم الأنصار، وتصـــــدى لحملـــة الشلالي(***)، حتى أبادها كما رأينا سابقا.

وبعدها سقط إقليم كردفان في أيدي المجاهدين في سنة 1301هـــ/7 جانفي 1883م، وقد مكن الإستلاء على الأبيض عاصمة الإقليم من السيطرة على غرب السودان بعد أن قطع المهدي وأنصـــاره المواصلات(4) بين الإقليم والخرطوم(5)، ومن هنا يبدأ الجهاد والثورة على الأوضاع والحكومة معا.

---

(1)- د. جلال يحي: الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية في السودان، مرجع سابق، ص.9.

(2)- الشاطر بصيلي عبد الجليل: معالم تاريخ وادي النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر للميلاد، دار المعـــارف، القـــاهرة، 1955م، ص.164 وما بعدها.

(*)- الخرطوم: كلمة مركبة من "كار" و"توم" وتعني ملتقى التوأمين، أنظر محمد أبو القاسم حاج حمد، المرجع السابق، ص.80.

(3)- كارل بروكلمان: ترجمة منير البعلبكي وآخر، تاريخ الشعوب الإسلامية، مرجع سابق، ص.646.

(**)- محمد ابو السعود العقاد: مصري الاصل حل بالسودان تاجرا مع قريبه محمد احمد اعقاد "صاحب شركة العقاد" وبعد وفـــاةهذا الاخير خلفه في ادارة الشركة سنة 1870، تصادم مع بيكر وغرودون لسياستهما الرامية الى محاربة الرق. صـــار معاونـــا لحـــاكم دار الحكومة ثم تولى حسلباتها في عام 1878، واجه المهدي وهزم. مات مسموما سنة 1881م.

(***)- هو يوسف حسن الشلالي: ولد بالخرطوم عمل في صفوف الجيش ورقي إلى رتبة لواء، في 1879م قاد الحملة الثانيـــة ضـــد المهدي، وقتل ومن معه في الواقعة سنة 1882م، أنظر، محمد إبراهيم أبوسليم: المرجع السابق، ص.22.

(4)- جلال يحي: الثورة المهدية..، مرجع سابق، ص.27.

(5)- د. جلال يحي : المرجع نفسه، ص.51.

الفصل السابع ـــــــ

الشكل (12)



هيكس باشا Hiks Bacha

عن د/ نعوم شقير، جغرافية و تاريخ السودان، 713

جامعة الأمير

لمهاجمة الخرطوم وكان "عثمان دقنة" قائد المهدي في شـــرق البـــلاد منـــذ عـــام 1298هـــ-جويليـــة 1881م/1302هـــ- أكتوبر 1884م، يخضع المنطقة لنفوذ الحركة، وفي أثناء الإستعداد لدخول الخرطوم جـرت مراسلات بين المهدي وغرودون(1)، ولم يتوصل من خلالها الطرفان إلى نتيجة، وفي يوم 9 ربيـــع الآخـــر 1302هـــ/26 جانفي 1885م سقطت الخرطوم في يد المجاهدين بعد مقتل غرودون(*)، ولم تمهل المنية المهدي طويلا بعد ذلك، وتنتقل روحه إلى بارئها في يوم 8 رمضان 1302هـــ/22 جوان 1885م في ظروف لم يكـــن قد شكا فيها مرضا، ومن ثم سرت شائعات مفادها أن إحدى محضياته قد دست له السم،وهو ما كذبتـــه جل المصادر، والاحتمال الأقوى أن وافته كانت طبيعية وينسبها "سلاطين باشا" لإصابته بحمى(التيفـــوس) غير أن ما تجدر الإشارة إليه أن سلاطين باشا النمساوي، ماذا كان يفعل هناك وهو قادر على الفرار؟.

إن قرار إخلاء السودان لا يخفي عليه ما للمهدي من خطورة ، فكان لابد من ربط خطة الإخـلاء بالقضاء على المهدي، ومن هنا فـــ "اسلاطين" محل شك وريبة خصوصا وهو طبيب(2).

وإذا كان المهدي قد انتهى فإن حركته استمرت من بعده بزعامة الخليفة عبد الله التعايشي(3)، الذي واجـه القوات الإيطالية والحبشية بالإضافة إلى القوات المصرية والإنجليزية في عدة مواقع انتهت في النهاية بانهزامـه واستشهاده في معركة "دي بيكيرات" في عام 1316هـــ/24 نوفمبر 1898م(4) وأقدمت القوات الغازية علـى تخريب بيته بأم درمان، كما عمد الإنجليز إلى نبش قبر محمد أحمد المهدي(**) وأخذ رأسه(5)، وهذا دليـل آخر على الحقد الدفين الذي يكنه المسيحيون للإسلام والمسلمين، فحتى رفاة الرجل في قبره لم تسلم مـــن العبث وبذلك توقف جهاد الحركة.

---

(1)- د. عبد الودود إبراهيم شلبي: المرجع السابق، ص.205 وما بعدها.

(*)- أنظر الشكل 13، ص289.

(2)- محمد أبو القاسم حاج حمد: المرجع السابق، ص ص 41-43.

(3) Georges Hardy: Politique Colonial et Partage de la terre on xix et xx, siecles Edition, Alben Michal, PARIS, 1937, p233.

(4)- محمد إبراهيم أبو سليم: المرجع السابق، ص.38.

(**)- أنظر الشكل رقم 14، ص290.

(5)- لمزيد من التفاصيل: أنظر: -د. نعوم شقير، المصدر السابق.

-د.نشيكيمة: المرجع السابق.

-د. حلال يحي: الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية في السودان.

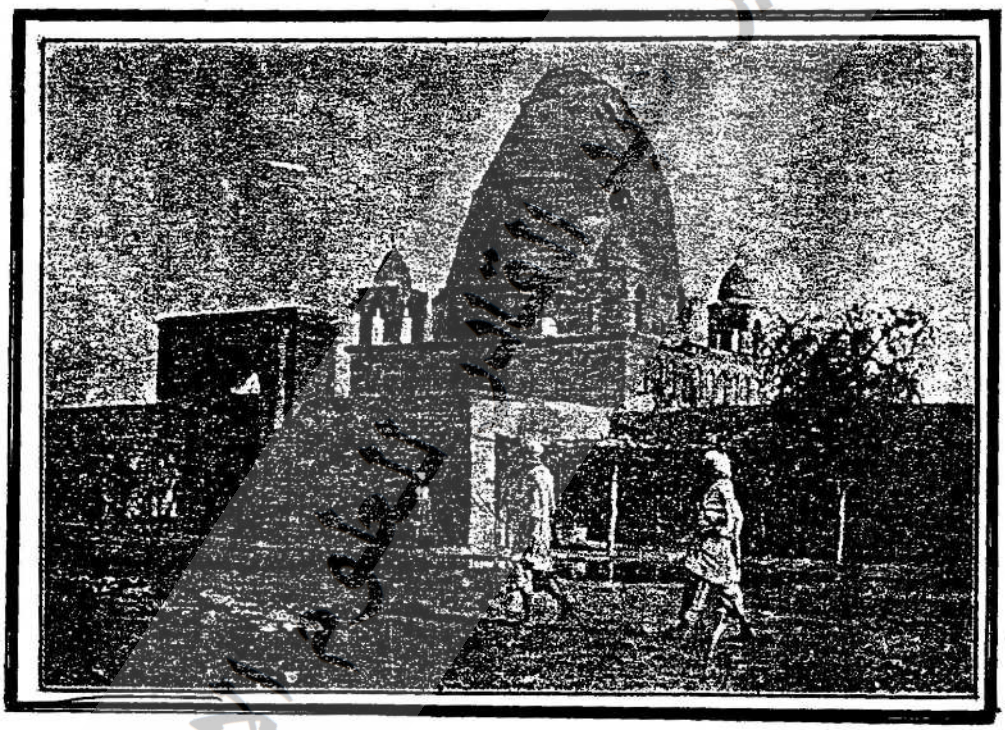
الشكل (13)



غرودون باشا Grodqn Bacha

عن د/ نعوم شقير، جغرافية و تاريخ السودان،ص 759

الشكل (14)



قبة المهدي بعد واقعة أم درمان

عن د/ نعوم شقير، جغرافية و تاريخ السودان، ،

جامعة الأمير للعلوم الإسلامية

الفصل السابع ـــــــ

ولاشك أن اختياره لهذه المهمة ليس على أساس هذه العلاقة، بل كان لإخلاصه ونزاهته وكفاءته الفائقة وما يدل على ذلك نجاحه في حسن إدارة أموال الحركة وتصريفها، وفي 1303هـ/فيفري 1885م سك النقود باسم الدولة، وكتب على العملة المضروبة في الوجه الأول "ضرب في الهجرة سنة 1302هـ وعلى الوجه الثاني "بأمر من المهدي" وكانت النقود المضروبة من الذهب والفضة والنحاس(1).

2- **القضاء:** نظرا لأهمية القضاء وخاصة في إقامة الحدود ونشر العدل بين الناس وتطبيق تعاليم الدين في القصاص والسرقة والزنا(2)، فقد اهتم المهدي بهذا الجهاز وعهد بمهمته إلى ذوي الإختصاص والقدرة،وعين على راسه "أحمد جبارة"(*)، وهو من علماء الأزهر الشريف، ومنحه لقب قاضي الإسلام ودونه قضاة ونواب كثيرون، ويهتم القضاة بالمسائل الشرعية الأهلية، ويبتون في فصل النزاعات والخلافات ويراعون في ذلك الأحكام الشرعية الإسلامية، وأما النواب فمهمتهم الإشراف والسهر والحكم في الغنائم وكل ما يتعلق بحقوق بيت المال(3).

3-**نظام الجند:** باعتبار الجيش إحدى الدعائم الأساسية لقيام الدولة والسهر على إستمراريتها وأمنها لما يوفره من استقرار وأمن في الداخل وحماية الحدود وصد غارات الأعداء،ولاسيما بالنسبة لرجل كمحمد أحمد داعية مقبل على الجهاد، لذا بدأ اهتمامه مبكرا بهذا الجانب، فمنذ خروجه من جزيرة "أبا" عين خلفاء له، وجعلهم أربعة بعدد الخلفاء الراشدين يتولون الأمر من بعده، وأولهم "عبد الله التعايشي" مكان أبي بكر الصديق، والثاني "علي ود حلو" واحتل مركز الخليفة الفاروق عمر، أما الكرسي الثالث فقد خص به محمد المهدي السنوسي وهو خليفة سيدنا عثمان، والرابع فقد عين فيه "محمد شريف" مكان علي بن أبي طالب كرم الله وجهه(4).

أما الجيش فقد قسمه إلى ثلاث وحدات كبيرة وعقد لكل خليفة على وحدة من وحداته، وعقد لكل منها راية،وكانت راية الوحدة الأولى هي الراية السوداء التي عرفت عندهم بالراية الزرقاء، وتتكون من قبائل السودان الغربي، وعين على رأسها عبد الله التعايشي، وعقد للخليفة علي ود حلو على قبائل دغيم وكنانة والحسنات وغيرهم، وجعل لهم الراية الخضراء كما عين الخليفة محمد شريف علي أنصار السودان الأوسط وخصهم بالراية الحمراء وكان من عزمه أن يحضى السنوسي بالراية الصفراء، أما الراية البيضاء فهي راية القيادة العليا وكان يحملها أخوه محمد عبد الله، وقد جعل لكل خليفة نائبا ينوب عنه

---

(1)- د. نعوم شقير: نفس المصدر ، ص.668.
(2) - أنور الجندي: المرجع السابق، 283.
(*)- أحمد جبارة: قدمت أسرته مع الجيوش المصرية إلى السودان مع جيش إسماعيل باشا واستقرت به، انظم إلى المهدي بعد إشهار الدعوة عين قاضيا للإسلام في قدير واستشهد في واقعة الأبيض الأولى 1299هـ/1882م، أنظر: محمد إبراهيم أبو سليم: المرجع السابق ص 23
(3)- د.نعوم شقير: المصدر السابق، ص930.
(4)- د. نعوم شقير: المصدر السابق، ص668.

الفصل السابع ـــــــ

وكانت الرسائل في البداية تطوى على شكل مظروف ثم استخدمت بعد ذلك المظاريف، وتأثرت آداب الكتابة في المهدية بما كان سائدا في البلاد منذ عهد الفونج،بالإضافة إلى أثر الإدارة المصرية والتركية وقد أقدم المهدي على منع محاكاة الترك في الإدارة، وحث على إستعمال الرسم الإملائي الذي اتبع في المصحف(1).

6- **العلم والثقافة**: رغم اهتمام المهدي بالعلم وتشجيعه على تحصيله فإن منشآته كانت قليلة وتتمثل في الخلاوي التي افتتحها لتعليم الصبيان وحتى أبناء الأسرى، وكان لشيخ الخلوة مقام كبير عند المهدي لا يضاهيه إلا مركز أمير الجهة(2).

غير أن هذه الحركة عرفت تدهورا كبيرا بعد وفاة المهدي إذ أوصدت ابواب المدارس التي أسست في العهد التركي على النمط الحديث في عهد الخليفة، ونتيجة لاهتمام المهدي بالعلم وتشجيعه فقد برز عدد من العلماء في العلوم الدينية مثل الحسن سعد العبادي، كما ازدهرت الحركة الأدبية وظهر في هذه الفترة شعراء مرموقون،وكان للطباعة دور بارز في نشر الثقافة، إذ استخدم المهدي المطبعة الحجرية، التي روجت الثقافة عامة وطبع منشورات المهدي خاصة، أما أهم مراكز الثقافة المهدية فقد تركزت في أم درمان وقرية أفافيت في شرق السودان والمركز الثالث في دنقلة(3).

من خلال هذه الأعمال والمواقف يظهر أن المصلح السوداني كانت نظرته عميقة الجذور بعيدة الأفق في معالجته لهذه القضايا، فإذا كان التوثيق حديثا حتى بالنسبة للدول العصرية فإن المهدي قد تفطن إليه منذ وقت مبكر، وأولاه قدرا من العناية والأهمية، لذلك خصص له: قسما خاصا في ديوان الإنشاء واهتم بطريقة حفظ الوثائق، كما ربط البريد بهذا الديوان وأسند إليه ما يسمى في وقتنا بالإستخبارات حتى يكون على علم ودراية بما يجري في البلاد، وذلك لتلافي الخطر قبل وقوعه.

كما تظهر استقلالية شخصية المهدي من خلال مواقفه من آداب الكتابة فقد ترك آثار بصماته فيها شاهدة على غيرة خصوصيته بإصداره أمر الرسم الإملائي الخاص به والمرتبط بالمصحف الشريف.

7- **الزراعة**: اهتم محمد أحمد بالفلاحة وشجع المزارعين على العمل والإنتاج مراعيا حقوق جميع الناس، وبالرغم من تأكيده على الحقوق الشرعية لملاك الأراضي فإنه أعاب عليهم وأنكر ما يأخذونه من المنتفعين ويفوق قدر أجرة كراء الأرض.

8- **التجارة**: اهتم المهدي بها وحث الناس على ممارستها، وأقدم على وضع يده على مرافئ السفن وافتكها من أصحابها، كما وضع يده على النشاطات التي تدر أرباحا طائلة باعتبارها ملكا عاما(4)، وفي

---

(1)- د. محمد إبراهيم أبو سليم: المرجع السابق، ص.51.
(2)- د.محمد إبراهيم أبو سليم: نفس المرجع، ص 52.
(3) -د. محمد إبراهيم أبو سليم: نفس المرجع: ص ص.53-54.
(4) -د. محمد إبراهيم أبو سليم: نفس المكان.

هذه النقطة يبدو الشبه بين ما قام به المهدي في زمانه، وما قامت به النظم الإشتراكية فيما بعد، وإذا كانت هذه من محاسن الإشتراكية فإن فضل السبق يعود للمهدي.

والحق أن هذه التنظيمات التي أقامها المهدي، أعطت لدولته نمطا عصريا يتماشى مع ما كان يسود في الدول المتقدمة في ذلك الوقت، رغم أن المهدي لم يتخط حدود السودان و لم يحتك بعد بهذه الدول وهذا يدل دلالة واضحة على أن المصلح السوداني رغم انعزاله الجغرافي،فإنه لم يكن كذلك فكريا وحضاريا لذلك استطاع أن ينشئ دولة إسلامية الروح وعصرية الطابع.

الموقف من مهدية محمد أحمد :

بعد أن سلطنا بعض الأضواء الكاشفة عن نشأة المهدي والتطورات التي مرت بدعوته ونشاط حركته في الجهاد وبناء الدولة، نناقش فيما يلي دعوى المهدي السوداني.

إن المهدي المرتقب كما تصفه الأحاديث المتداولة يملأ الدنيا عدلا بعد أن ملأت جورا وظلما وفجورا، ويهنأ به ساكن السماء و مقيم الأرض، فهو يولد من نسل أبناء فاطمة الزهراء بنت الرسول"ص"من ولد الحسن أو الحسين، ويظهر على رأسه ملك ينادي ويشير "إن هذا هو المهدي فاتبعوه"(1).

ويكون لإرهاصات مهديته آيتان لم تظهرا منذ ان خلق الله السموات والأرض يخسف القمر في غرة شهر رمضان ويتبعه كسوف الشمس في النصف الثاني منه، ومولده يكون بأرض الحجاز بالمدينة المنورة ومهاجرته نحو بيت المقدس بفلسطين، ويظهر بمكة المكرمة بين صلاتي المغرب والعشاء، ومعه راية خاتم الأنبياء "ص" وبردته وسيفه، وتكون مبايعته بين الركن والمقام وعلى يديه يكون النصر،وتفتح مدينة القسطنطينية وغيرها من كبريات المدن(2)، ووجهه منير كأنه كوكب ذري وهو في اسمه وخلقه يشبه الرسول "ص" وعلى يديه تنعم الأمة بنعم لم ترها من قبل، فالمهدي يحثي المال بيديه حثيا حتى وأنه لو لم يبق من الدنيا إلا يوما واحدا لأطال الله ذلك اليوم حتى يظهر ويلي(3).

وهنا يمكن طرح التساؤل الآتي: هل تحقق شيء مما سبق على أرض الواقع؟.

وللتأكيد على ما سبق عرضه سنورد جملة من الأقوال والرسائل التي صدرت في هذا الأمر، لنستجلي الأمر. لقد ذكر محمد أحمد في حضرة وقعت له حسب دعواه في ليلة الأربعاء غرة شهر شعبان سنة 1298

---

(1)- د. عبد الودود إبراهيم شلبي: المرجع السابق، ص.233.

(2)- د. محمد إبراهيم أبو سليم: المرجع السابق، ص.41.

(3)-د. محمد إبراهيم أبو سليم: المرجع نفسه، ص.42.

هـ/1878م أن الرسول "ص" طلب من عزرائيل قائلا(1):" ***من هذه الليلة المذكورة إصحب المهدي ولا تفارقه، ثم تلا لنا أي النبي "ص" جميع الأحوال إلى دخول مكة ومنازعة أهلها، ومبايعة الضعفاء والغرباء أولا ثم مبايعة الشريف ملك مكة وجميع أشرافها معه***".

ومن قوله هذا يتبين أن المهدي تلقى المهدية من النبي "ص" الذي أمر عزرائيل بعدم مفارقة المهدي حتى يبايعه حكام الحجاز وأشرافها، و لم يتوقف خطابه على العامة ورجال الإصلاح بل تعداهم إلى السلطات العليا، فقد وجه رسالة إلى خديوي مصر يقول فيها(2) "***وبشرني سيد الوجود "ص" بالنصر على من يعاديني وبأن من يقصدني بعداوة يخذله الله في الدارين، وقلدني سيف النصر وأخبرني بأني أملك جميع الأرض وها أنا قادم اليك بجنود الله عن قريب، ولابد من وقوعك في قبضتنا ولو كنت في بروج مشيدة***".

ويبدو من خلال هذا الخطاب الصريح الواضح والجريء في آن واحد، أن صاحبه واثق من نفسه وأنه المهدي الموعود كما يبدو تهديده للحاكم بشكل علني صريح ومباشر، وأن الحاكم ليس بمنأى عن سطوته ولو كان متحصنا في بروج منيعة.

كما بعث بخطاب آخر إلى محمد المهدي السنوسي يخبره فيه أنه من وزرائه وخلفائه وأنه يحتل كرسي الخليفة الثالث حسب ما أخبره النبي، ومن خلال المنشورات الصادرة عنه وعن خليفته من بعده والتي تمكنت من الإطلاع عليها، تشير كلها على أن الرجل هو المهدي(3).

إذن حسب النصوص الصادرة عن المدعي تؤكد صفة مهديته، لنترك النصوص جانبا ونلجأ إلى المهدي نفسه، فسيد الأدلة هو الاعتراف والإقرار، فقد اعترف محمد أحمد صراحة بأنه سيبلغ الحجاز وأن ملك مكة وأشرافها سيبايعونه والمبايعة تعني الإعتراف بمهديته كما قال، أنه سيملك الأرض وأن النبي أنبأه بخلفائه وحددهم، وأن السيد السنوسي سيكون من وزرائه وخلفائه، وقد خصه بالكرسي الثالث حسب رسالة بعث بها إليه، كما اعترف للخديوي بأنه سيزحف على مصر وأنه بلا شك سيطهرها وينجيه عن عرشه، ومكمن الخطر في هذا الإقرار، أن محمد أحمد حسب قوله أنه لا يقوم بشيء بمحض إرادته، إنما يتلقى الأوامر وينفذها بإخلاص بناء على توجيهات سيد الوجود، إذن فأساس مهدية محمد أحمد قائمة على هذه الصلة، فإذا ثبت بالحجة والبرهان أن هذه التنبؤات لم تتحقق وهذه التوقعات لم تتجسد على أرض الواقع المعيش، فلا مناص من ارتقاء الشك إلى كنه مهدية محمد أحمد ويصبح بذلك هذا السند هشا وبالأحرى منهارا.

---

(1)- د. عبد الودود ابراهيم شلبي: المرجع السابق،ص235.
(2)- د. عبد الودود ابراهيم شلبي: نفس المرجع، ص235 ومابعده.
(3)- د. مكي شبيكة: المرجع السابق، 655.

إن مولد المهدي كما تصفه الروايات بالمدينة المنورة، ومحمد أحمد من مواليد "دنقلة" بالسودان والمهدي محياه ككوكب ذري،بينما محمد أحمد انطلت على وجهه مسحة سكان السودان السمراء،والمهدي يخرج بعد أن يخسف القمر في غرة شهر رمضان وكسوف الشمس بعد صيام نصفه، بينما رأينا محمد أحمد أعلن مهديته في الفاتح من شهر شعبان، وهل شهر رمضان بعد ذلك من غير خسوف ولا كسوف والمهدي مهاجرته بيت المقدس ومبايعته ما بين الركن والمقام عند صلاة العشاء، يصحب معه راية وبردة الرسول "ص" وسيفه، ويبايعه الغرباء وملك مكة وإشرافها، كما يقول المهدي نفسه وقد باغتته منيته قبل أن يهاجر ويرى بيت المقدس ومكة المكرمة، والمهدي المنتظر يحثي الأموال حثيا، وتنعم الأمة في عهده بحياة لم ير مثلها أبدا، و لم يكن الأمر كذلك مع محمد أحمد، فقد عاش طول حياته متقشفا زاهدا بعيدا عن كل ترف، والمهدي يصلحه الله في ليلة وإن لم يكن كذلك، وقد عرف عن محمد أحمد أنه نشأ وشب صالحا ورعا وكان في تقواه صارما وفي زهده متشددا.

والمهدي موعود بفتح القسطنطينية والحواضر الكبرى، وقد توفي المهدي قبل أن يزحف على مصر ويخلع الخديوي من منصبه ويريح المصريين من شقاء ظلمه، كما أنه موعود بملك العالم، كما أورد هو نفسه نقلا عن النبي "ص" وقد عاش ومات محمد أحمد قبل أن يتخطى حدود بلده السودان، كما أنه يقول أن السنوسي سيكون من وزرائه وخليفة من خلفائه حسب ما أعلمه به النبي "ص" ومات المهدي دون أن يتحقق من هذه الأقوال والنبؤات شيئا، و لم يحفل السنوسي برسالته و لم يكلف نفسه حتى عناء الرد عليها(1).

كانت وفاة المهدي مفاجئة قبل أن يجسد ما كان قد تنبأ به ووعد بتحقيقه مثارا للشكوك المكبوتة في أمره وصحة دعواه، وقد أحس بذلك أقرب المقربين إليه وأخلص تلاميذه، وكان أول رد فعل معاكس لإخماد هذه الظنون المنشور الصادر بتوقيع خلفائه، الذين يعلنون فيه مبايعة التعايشي خليفة، ومما ورد.

"..... كما أن النبي "ص" لما انتقل قام بالأمر بعده خلفاؤه وأصحابه حتى ينصر الله دينه، ويفتح على أيديهم من المدائن ما لم يفتحه الله في زمن المهدي عليه السلام"(2).

ورغم صدور هذا المنشور فإن الشكوك قد سرت في نفوس الناس وانتشرت انتشار الدخان في سماء اللهيب، وكان رد الشيخ "الكردفاني" أكثر وضوحا في تعبيره عن رفض دعوى المهدي.

والحق أن هذا الرفض لمهدية محمد أحمد لم يكن بعد وفاته فقط، بل فقد وقف منه موقف المناوئ الرافض عدد غير قليل من العلماء في حياته كما فعل القاضي ميرغني في مملكة "تقلى"، الذي جاهر ببطلان الدعوى في وجه المهدي فسيق إلى الإعدام، كما رفضها آخرون من أمثال العالم "طه" والشيخ دفع الله وديفري من الجنوب(3).

---

(1) -د. نعوم شقير: المصدر السابق، ص ص 707 - 708.
(2)-د. عبد الرحمن عمر الماحي: المرجع السابق، ص190.
(3)- محمد أبو القاسم حاج حمد: المرجع السابق، ص38.

الفصل السابع ـــــــ

وقد حفظ محمد أحمد للتعايشي هذا الصنيع و لم يبخل عليه، إذ عينه وريثا للحركة والخلافة معـــا وأوصى به خيرا، لقد بدأ محمد احمد حركته بالدعوة ثم تطورت إلى الجهاد وإنشاء الدولة، ومن خلال هذا التصور نلاحظ تأثير رجالات الدعوة وحركات الإصلاح المعاصرة في فكر وأسلوب الحركة المهدية.

التيارات الفكرية المؤثرة في فكر محمد أحمد:

لقد كان تأثير الفكر السلفي واضحا في الحركة المهدية، ولاشك أن المهدي قد تأثر إلى حد كبـــير بهذا الفكر، لاسيما أنه كان قد قرأ الكثير عن ابن تيمية 661هـــ - 728هـــ من جهة، ثم قرأ وسمـــع عـــن الحركات الإسلامية التي شهدها العالم الإسلامي، سواء تلك التي سبقته أو كانت معاصرة له، والتي شربت كلها من كأس ابن تيمية، لذلك نلاحظ هذا الفكر في مجال الممارسة التطبيقية واضحا في المهدية ومتأثرا إلى أبعد الحدود.

فقد استمد محمد أحمد من حركة محمد بن عبد الوهاب، الدعوة إلى العقيدة الإسلامية الصحيحـــة كما كانت على عهد الرسول "ص" والسلف الصالح، وذلك بالرجوع إلى الكتاب والسنة النبوية والتوجـــه بالعبادة والدعاء إلى الله وحده، وكل من نحى منحى غير هذا فقد أشرك(1).

كما سلك مسلك الوهابية في اعتبار الأقطار التي لاتؤمن بدعوته أقطار غير إسلامية، لأن النـــاس بظهوره ومبايعته يدخلون الإسلام من جديد، لذلك استخدم القلم والسيف لقبولهما(2).

وإذا كانت الوهابية قد حرمت زيارة المقامات والأضرحة واللياذ بها، لأنها مظهر من مظاهر الشرك من جهة، وتثير الفرقة بين الناس من جهة أخرى(3)، فإن المهدي ذهب إلى إلغاء الطرق الصوفية في البلاد.

وإذا كانت الوهابية قد كللت بالنصر فكرا وعقيدة، فإن الحركة المهدية خلصت في النهاية لتصبـــح حزبا سياسيا دينيا فيما بعد(4).

كما يبدو تأثير الحركة السنوسية البالغ في الفكر والحركة المهدية من خلال الممارسة فـــإذا كـــان السنوسي قد تخلى عن أسلوب القوة والعنف والتعصب، فهو لم يعلن تمرده على الخلافة والحكام وانصـــرف إلى البناء والتربية، وكان منهجه تخليص المجتمع الإسلامي من الفرقة والبغضاء، وكان يرى أن سبب الخلاف والضعف تعدد المذاهب لذلك ألغى التعصب لإحداها، ودعا إلى ترك باب الإجتهاد مفتوحا للعلماء(5) فإن المهدي قد وقف موقف السنوسي وأقر برفع المذاهب لتطهير الأرض من الخلاف ليبقى الدين الخالص.

---

(1)- أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 1990، ص ص 12-13.
(2)- أحمد أمين: المرجع نفسه، ص22.
(3)- أحمد أمين: المرجع نفسه، ص.15.
(4)- د.عبد الودود شلبي: المرجع السابق، ص276.
(5)- عباس محمود العقاد: المرجع السابق، ص.83.

وكما دعا السنوسي إلى الهجرة ـــ ومن قبله عثمان بن فودي ـــ فقد كانت الهجرة من أصـــول الحركة المهدية والابتعاد عن مخالطة الأشرار والفجار، فقد دعا إليها المهدي في إحدى مناشيره قائلا(1):

" وقد أمرني سيد الوجود "ص" بمكاتبة المسلمين وبدعوتهم إلى الهجرة إلى محل يكون فيه قـــوام الدين وإصلاح أمر الدارين".

كما اقتبس المهدي من السنوسي طريقة التعاون في العمل، وأقبل على الإستلاء على مرافئ السفن وغيرها من المرافق المربحة، وإذا كان السنوسي قد طبق هذه طواعية وتبرعا فإن المهدي طبقها بطريقة ثورية.

كما يتضح من تأثر المهدية بالسنوسية تطلع وسعى صاحب الحركة لإجتذاب السنوسي إلى صفـــه كما نلاحظ تأثر الحركة المهدية بدعوة جمال الدين الأفغاني (1254هـــ-1839م/1314هـــ-1897م إذ كـــان يرى ضرورة الوقوف ضد الغزو الأجنبي وتدميره، و لم يكن عداؤه للإستبداد أقل شراســـة مـــن عدائـــه للإستعمار(2)، و لم يكن المهدي في هذا بأقل عداوة من الأفغاني ومحمد عبده وغيرهما، وقد ظهر هذا بشكل جلي في منشورات المهدي وأفعاله كما ظهرت في خطابات التعايشي التي وجهها إلى كل من الخديـــوي توفيق، والسلطان عبد الحميد وفيكتوريا ملكة بريطانيا.

ومن هذه المقارنة البسيطة يظهر مدى تأثر الحركة المهدية بهذه التيارات والروافد، وقـــد تمكنـــت بخصوصياتها من فرض نفسها ولو لفترة قصيرة، لكن يبقى الفارق الجوهري بينه وبين غيره ادعاؤه المهديـــة وثبوت بطلانها.

إن محمد أحمد بدأ حركته بالدعوة إلى الإصلاح، ثم انطلق في الجهاد بالوسائل التقليدية البســـيطة ولكن قدراته الفائقة في إثارة الجماهير والهاب عواطفها بالحماس المحرك لنفوسها مكنه في كل مواجهة مـــع السلطة، إحراز النصر والإستلاء على الأسلحة، فتمكن بذلك وهو "الدرويـــش" المتصـــوف أن يـــدوخ جنرالات بريطانيا العظمى، ويلحق بهم الهزائم المتكررة ويكبدهم الخسائر الفادحة.

لقد وفق المهدي إلى حد بعيد في استخدام الاسلام كعقيدة للإصلاح استخداما مناسبا، إذ مـــزج بين روحانيته وفعالية تطبيقه عمليا في الحياة فانتصر، ونجحت حركته بفضل حملها راية المبـــادئ والقيـــم الإسلامية المعادية للجمود الفكري والتعصب متأثرة بالحركات الإصلاحية الإسلامية التي سبقتها، فـــأخذت من حركة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، كما اقتبست من الوهابية وتأثرت إلى أقصى الحدود بالحركـــة السنوسية، لذلك اتسمت بالإيجابية عموما في مختلف المجالات.

لقد لفت المهدي الأنظار وحرك مشاعر وأحاسيس المسلمين حيثما وجدوا لما أحسوا به من صدق نوايا الحركة في إصلاح أحوالهم المتردية والأخذ بأيديهم والارتقاء بهم وتخليصهم مما هم فيه، فأقبلت عليـــه الوفود من جميع البلاد الإسلامية مؤيدة، سواء منها من كان مؤمنا بالمهدي المنتظر أو المهدي المنتصر، وهذا يعبر عن اشتراك المسلمين جميعا في المآسي والأتراح، وفي الآمال المعقودة للتوجه نحو إقامة الدولة الإسـلامية العالمية التي ينشدها جميع المسلمين في جميع أنحاء المعمورة.

---

(1)-د.عبد الودود ابراهيم شلبي: المرجع السابق، ص65.
(2)- احمد امين: المرجع السابق، ص94، ومابعدها.

خاتمة الفصل:

وخلاصة القول أن السودان العربي هذا البلد الإفريقي الواسع المساحة قد بدأ تاريخه منذ أزمنة موغلة في القدم عكس ما ظل الإستعمار يروج له بأن تاريخ إفريقيا قد بدأ من الغزو الأوروبي للقارة لكن الواقع كذب ذلك، فالسودان مثلا ظهرت به حضارات عريقة كحضارة "كوش" و"مروى" وغيرهما، والتي ما زالت آثارها قائمة تحاكي مثيلاتها من الحضارات في أصقاع أخرى خارج القارة، كما ربطت علاقاتها مع الشعوب الإفريقية المجاورة كالمصريين وشعوب غرب إفريقيا، وقد أثرت هذه الحضارة إلى حد بعيد في الإنسان الإفريقي، وبعد تلاشي هذه الحضارات ظهرت ممالك صغيرة "نوباتا – المقره –علوة" وحاولت مصر القبطية السيطرة على هذه الممالك واحتوائها وتنصيرها، غير أن العرب المسلمين لم يمهلوا هذا المسعى وحالوا دون تحقيقه، خاصة وأن القبائل العربية كانت قد بدأت تتسلل إلى السودان منذ وقت مبكر.

وبمجيء الإسلام زادت الهجرات العربية الإسلامية واستقرت في المنطقة وامتزجت ثقافتها بالثقافة السودانية، وبذلك أعطت لها الطابع الإسلامي، وقد اعتنق السودانيون الإسلام عن طواعية بفضل الدعاة والمعلمين والعلماء الذين جابوا مختلف أجزائه.

وقد لعبت الطرق الصوفية المتعددة الدور الأكبر في نشر الإسلام وشيوع ثقافته على نطاق واسع فظل السودانيون المسلمون على صلة وثيقة بالدول الإسلامية وخاصة المجاورة،إلى أن دخله المصريون في عهد محمد علي، و لم تلق جيوشه مقاومة بل استقبلت بالترحاب،ويبدو أن هذا الإستقبال قد يعود إلى تجانس الثقافة والدين بين البلدين.

كما اتضح من خلال استعراضنا للتاريخ السوداني أن البلد ظلت تتقاسمه الدول والممالك وعاش بين مد وجزر إلى أن حل به المصريون الذين يرجع إليهم الفضل في إعطاء الحدود السياسية له.

غير أن تدهور الأحوال في مصر وتخلى أحفاذ محمد علي على أداء دورهم وانشغالهم عن شؤون الحكم، اضطربت الحالة في السودان، وخاصة بعد زيادة ثقل الضرائب وإرهاق الأهالي بها، علاوة على جمعها بقسوة، ووقوع مصر نفسها تحت نفوذ الأجانب.

تبين أن هذه الأوضاع فتحت الباب واسعا أمام ظهور زعامات استهدفت تغيير الوضع وإصلاحه في السودان، فقد استغلت وجد الشعب وتطلعه للتغيير فكان ظهور الحركة المهدية في السودان بزعامة محمد احمد المهدي.

استطاع المهدي أن يستقطب الناس حوله، لاسيما أنه جمع بين التقوى والعلم والزهد، كما جمعت حركته بين طابع العمل السياسي والاجتماعي، وذلك حين أعلن الدعوة إلى الجهاد الإسلامي للتخلص من

النفوذ الأجنبي وتحرير مفهوم الإسلام وتخليصه من البدع والخرافات والأباطيل التي ضربت أطنابها داخل مجتمعه، وبذلك تمكن محمد أحمد المهدي من كسب القبائل السودانية إلى صفة متناسية ما كان بينها.

وبذلك يمكن أن نقول أن الحركة المهدية هي التي جمعت بين القبائل السودانية المختلفة وصهرتها في بوتقة واحدة وخلصتها من الصراعات والحروب التي كانت قائمة بينها،خاصة وأن الحركة قامت على الجهاد، واستشرفت إنشاء مجتمع إسلامي وحكومة إسلامية تحكم الناس بالعدل، وتراعي حقوقهم على أساس مفهوم الإسلام الصحيح، وبذلك استطاعت دعوة المهدي أن تواجه الحملات التي شنتها قوات الحكومة ومن ورائها قوات بريطانيا، وتمكنت من القضاء عليها وسحقها، رغم ضعف الوسائل والإمكانات.

لقد واجهت الدعوة مقاومة شديدة من طرف الإستعمار الدخيل الزاحف، غير أنها صمدت في وجهه فارضة نفسها عليه، وألحقت به خسائر فادحة لمدة ليست بالقصيرة، فقد تحولت من دعوة للتصحيح إلى حركة للإصلاح والتغيير، وبفضل إيمانها الصادق وإخلاص أتباعها للداعية واعتقادهم فيه من الإنتصار في جميع المعارك التي قادها جهابذة المستعمرين وأساطين عسكريتهم الذين تخرجوا من كبريات الكليات العسكرية من أمثال"غرودون" "Grodon" وهيكس "Hiks" وغيرهما.

و لم تكن حركة المهدي ذات نظرة محلية بل كانت أوسع من ذلك، فقد تطلع إلى العالم الإسلامي وإلى خارجه، فأرسل الخطابات إلى ملكة انجلترا والسلطان عبد الحميد الثاني، وإلى ملك الحبشة ومحمد المهدي السنوسي، وإلى قبائل نجد والحجاز وقريش والى أهل المدينة المنورة وأهل مصر، وبدأ تنفيذ خطته العملية بالزحف لإنقاذ مصر من النفوذ الإنجليزي بعد فشل ثورة عرابي، وقد وجدت الحركة تأييدا كبيرا من قبل الدعاة والعلماء المسلمين في ذلك الوقت، وقد نالت التأييد والمساندة من قبل محمد عبده وجمال الدين الأفغاني.

وقد قامت دعوته على نظرية شمولية متكاملة ضمنها مناشيره وبياناته المتعددة التي تؤكد كلها على أن مقصده من وراء هذه الحركة سوى أحياء الدين وإظهار أثر الأنبياء والمرسلين ولا يريد من وراء ذلك ملكا ولا مالا وجاها.

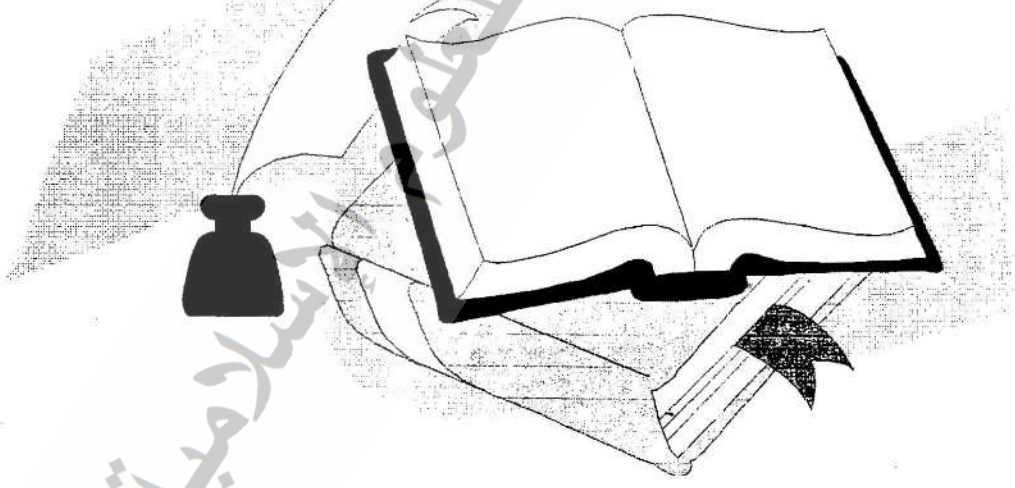
كما اتضح أن مرجعية الحركة هي الكتاب والسنة وحدهما، والاعتماد على النفس والإتكال على الله.

وقد نجحت حركة محمد أحمد المهدي في المجالات السياسية والاجتماعية وبذلك حمل المهدي راية المفاهيم الإسلامية الصحيحة المتحررة من تزمت سلبيات التصوف وانعزاله، وحرر الفقه من جبرية زهاده فاتسمت حركته بالإيجاب، فقد طرح العمل بالمذاهب ورأي المشايخ،وصهر الطرق الصوفية بطوائفها المختلفة في طريقة واحدة، وكانت حجته في ذلك ضرورة الرجوع رأسا إلى الكتاب والسنة دون شروح

الفصل السابع ـــــــ

الفصل الثامن :

حركتا الشيخين محمدو لامين و رابح بن فضل الله و جهودهما في تصحيح الإسلام و محاربة الاستعمار



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بعد أن تعرضنا في الفصل السابق إلى الحركة المهدية وعرفنا تاريخ هذا البلد العريق وحياة الداعية محمد أحمد بن عبد الله المهدي، وما تميزت به والنشاط الدعوي والإصلاحي الذي قام بـــه في الســودان العربي، ورفعه راية الجهاد الإسلامي ضد الإستبداد المحلي والتدخل الإستعماري الأجنبي في البـــلاد، ومـــا حققه من انتصارات جعلت الناس يعتقدون في شخصه أنه المهدي المنتظر، كما تطرقت إلى هذا الإدعـــاء بالنقد وحاولت الرد عليه والحكم ببطلانه،وتناولت المؤثرات الفكرية التي أثرت في فكر المصلح محمد أحمـد المهدي والنتائج التي ترتبت عن الدعوة والحركة.

وسأحاول في هذا الفصل التطرق إلى حركتين من الحركات الإصلاحية والجهادية التي شـــهدتها منطقة إفريقيا جنوب الصحراء خلال مطالع القرن الثالث عشر الهجري، أواخر القرن التاسع عشر الميلادي تزعمها كل من الداعية محمدو لامين في سنغمبيا "Sengambia" بإفريقيا الغربية، ورابـــح بـــن فضـــل الله المعروف بـــ "رابح الزبير" في السودان الأوسط "حول بحيرة تشاد".

وقد قسمت الفصل إلى قسمين، وسأركز الدراسة في القسم الأول من الفصل على الحركـة الأولى التي ظهرت في غرب إفريقيا بزعامة الشيخ "محمدو لامين"، باعتبارها زمنيا أسبق نسبيا، وسأتعرض فيها إلى حياة المصلح وجهاده ضد الغزو الإستعماري، ونشاطه في مجالي الدعوة والإصلاح ومقاومـــة الإســـتعمار الأوروبي في القارة الإفريقية،والنتائج التي ترتبت عن هذه الحركة.

وسأتعرض في القسم الثاني من الفصل الى حركة الداعية المجاهد " رابح بن فضل لله " وجـهوده في الدعوة والاصلاح ونشر الاسلام ومقاومة الاستعمار في السودان الاوسط عموما ومنطقة تشاد خصوصا .

أ - حركة الشيخ محمدو لمين:

قام بهذه الحركة الإصلاحية شعب من شعوب منطقة غرب إفريقيا المتحسمة للإسلام، ذلك هـــو شعب قبائل "السراكولي" تحت قيادة أحد الزعماء المسلمين الأشد خطورة على الإستعمار(1) والمتحمسين للإصلاح الثائرين على التخلف والجمود الرافضين للوثنية والتعاليم الدخيلة علـــى الإســـلام والمنـــاوئين للإستعمار الأجنبي لإفريقيا عموما وسنغمبيا "S engambia" على وجه الخصوص في زمنه.

وقد تميزت الفترة الزمنية التي بدأت فيها الإرهاصات الأولى للحركة بظهور أحداث جديدة داخلية وأخرى خارجية، كان لهما دور بارز في توجيه الأحداث التاريخية في المنطقة، وقد رأيت أنه لا مناص مـــن التعرض لها لإعطاء صورة واضحة عن الأوضاع التي كانت تسودها على اعتبار أنها تمثل الأرضيـــة الـــتي انطلقت منها الدعوة ووجهت سيرها.

---

(1) Maurice Delafosse, Op-Cit. p168.

إذ ظهرت الحركة في فترة ما بعد الحرب السبعينية في أوروبا، وكما لا يخفى فإن هـــذه الحـــرب كانت لها انعكاسات كبيرة وعميقة الجذور في تغيير موازين القوى في العالم عامـــة، وتوجيـــه الحركـــة الإستعمارية خارج أوروبا بشكل خاص،لاسيما بالنسبة لفرنسا وبوجه التحديد في غربي القارة الإفريقية.

منطقة غرب إفريقيا بعد حرب 1287هـ، 1870م:

كانت هذه الفترة وما بعدها فترة حرجة بالنسبة لفرنسا فقد هاجمها الألمان بزعامـــة بســـمارك "B ISSMARK" وألحقت بها هزيمة كبيرة، فتحطم كبرياؤها على صخرة بورسيا الناشئة، وبـــأن ضعفـــها وغرورها خصوصا بعد سلخ منطقتي الألزاس واللورين وتقدم القوات الألمانية إلى العاصمة "باريس" بعـــد موقعة سيدان "SIDAN" ووقوع الإمبراطور نابليون الثالث أسيرا في يد الألمان، فلم تلبـــث أن استســـلمت العاصمة الفرنسية لجيش بروسيا وتوقفت الحرب(1).

كان لهذا الوضع الذي آلت إليه فرنسا أثره السيئ على النفوذ الفرنسي في غرب إفريقيـــا، فقـــد هجرت المنشآت الفرنسية وانسحبت الفرق العسكرية المتواجدة بها من مناطق عديدة، وتقلـــص نفوذهـــا السابق بالمنطقة، غير أنه لم يتلاش كلية، وذلك بفضل بقاء بعض التجار الفرنسيين واستمرارهم في ممارســة الأنشطة الاقتصادية المختلفة في تلك الأصقاع، غير أن هذا الوضع لم يدم إلا قليلا، إذ سرعان ما تغير نظام الحكم وبموجب ذلك نهضت من كبوتها(2).

ويعتبر عصر الجمهورية الفرنسية الثالثة (1870م/1914م) (*) من أزهى عصور فرنسا الإســـتعمارية خصوصا في إفريقيا، فبعد أن توقفت سياسة الهيمنة والظلم الإستعماري عقب الحرب السبعينية مباشـــرة،لم تلبث فرنسا أن ضمدت جراحها وعادت إلى سياستها القديمة سنة 1297هـ/1879م، تدفعها الرغبة الجامحـــة في تعويض ما فقدته من أراضي في أوروبا، وكان صـــاحب هـــذه السياســـة الجديـــدة جـــول فـــيري "J ules Ferry"(3).

في ظل هذه الأوضاع كانت أحوال هذه الشعوب الإفريقية تزداد تدهورا وانحطاطا، وتخلى فيـــها الكثير من الناس عن فضائل الأخلاق وممارسة الشعائر الدينية التي خالطها الكثير من الخرافـــة الممزوجـــة بالشعوذة والسحر.

(*)- أنظر الشكل رقم4، ص50.

(1)-د. عبد العزيز سليمان نوار: التاريخ المعاصر أوروبا من الحرب البروسية حتى الحرب العالمية الأولى، مكتبـــة النهضـــة المصريـــة القـــاهرة 1979م، ص ص 220-221.

(2) Guernier,Eugeune: op cit.... p234-235.

(**)- الجمهورية الأولى ما بين 1792-1799م، الجمهورية الثانية 1848-1851م.

(3)- صلاح العقاد: مغرب الإستعمار الفرنسي، بدون مكان ولاسنة الطبع، ص.54

لم تكن هذه الأوضاع بعيدة أو لتخفى عن زعماء المقاومة الإسلامية من أمثال "محمدو لامين" هذا الذي كان يتألم حينها من البعد عن الأهل ومسقط الرأس ومرارة الأسر في ظلام سجون "أحمدو شيخو" من جهة، وما تعانيه البلاد من تأخر وبؤس من جهة ثانية، حيث تفاقمت أخطار الوثنية بسبب ابتعاد الناس عن تعاليم الدين الإسلامي الصحيحة. لاسيما وأن الإستعمار عامة والفرنسي منه بوجه خاص، اصطحب معه عند مجيئه إلى القارة الكثير من المبشرين الذين دأبوا بأساليبهم الدنيئة ووسائلهم المتعددة في تشكيك ضعفاء النفوس من المسلمين في دينهم خصوصا حديثي العهد بالإسلام، ولأن المسلم كما يقول "المستر بلس"(1) "إن الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في طريق تقدم التبشير بالنصرانية في إفريقيا، والمسلم فقط هو العدو اللذوذ لنا..... بل أن هذا الخصم المعارض هو الشيخ أو الدرويش".

والحق أن ما زاد في تكالب الفرنسيين على الاستعمار ظهور خلاف في وجهات النظر بلغ حد الصراع بين الساسة، ففي الوقت الذي كان فيه جورج كليمنصو "George clemenseau"(*) يرى ضرورة الإنتقام من ألمانيا، كان جول فيري يرى عكس ذلك، فقد رأى هذا الأخير أن التوسع الإستعماري سيرفع من الناحية السياسية والمعنوية والنفسية للفرنسيين من جانب، ويعيد للدولة هيبتها من جانب آخر، غير أن تمسك الفرنسيين برد ما سلخ منهم في أوروبا دفعهم إلى اعتبار تشتت قواتهم في إفريقيا، يحول دون رغبتهم وطالبوا بتركيز الجيوش في البلاد للوقوف ضد ألمانيا(2).

كما ظهرت آراء أخرى تشجع الإستعمار في القارة الإفريقية، لتوجه أنظار الشعب الفرنسي إلى خارج القارة الأوروبية، وفكرة الإنتقام وشجع هذا الإتجاه بسمارك "B ISMARK" لإثارة العداوة بين إنجلترا وفرنسا، ولصرف أنظار الفرنسيين عن الثأر والإنتقام من ألمانيا(3).

ويؤكد هذا بعض الكتاب الفرنسيين الذين قالوا بأنه بعد سنة 1287هـ/1870م اتسعت السياسة

---

(1) المرشاتليه: ترجمة وتلخيص محب الدين الخطيب ومساعد اليافي، ط4، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1405هـ/1985م، ص25-26.

(*)- جورج كليمنصو: رئيس وزراء، اشتهر بلقب النمر ولد بإقليم لافنديه 1841م، اشتغل صحفيا في الحرب الأهلية الأمريكية، عضو بمجلس النواب 1876م وبمجلس الشيوخ 1902م، تولى رئاسة الوزارة 1906-1909م، أصدر تشريع فصل الكنيسة عن الدولة، عاد إلى الوزارة إبان الحرب العالمية الأولى، 1917م، ترأس مؤتمر الصلح 1919م في فيرساي، انصرف عن السياسة إلى التحرير الصحفي والتأليف ومات 1921م، أنظر: موسوعة السياسة تأليف مجموعة من الأساتذة، ج 4، ص 138.

(2)- د. عبد العزيز سليمان نوار: المرجع السابق، ص.49.

(3)- شوقي الجمل: تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها، مرجع سابق، ص497.

الإستعمارية الفرنسية على نطاق واسع، وشاع بين الناس أن اتساع الدولة خارج حدودها الأصلية يعد شرطا رئيسا لإستمراريتها،فزادت المنافسة الدولية وتكون لدى الناس شكل ونمط للكفاح،فمن لا يتقدم يتقهقر ومن يتقهقر يجرفه الطوفان(1).

وهكذا صارت إفريقيا ضحية للتنافس نتيجة هذه الآراء الإستعمارية، وخاصة بالنسبة لإفريقية الغربية إذ بعد تعيين جول فيري على رأس الحكومة أعلن في خريف سنة 1299هـ/1881م، بأن انتشار التصنيع غير موازين القوى الداخلية في أوربا، تولد عنها مشاكل عويصة يستعصى حلها بسهولة، لذلك كان لابد من البحث عن أسواق لتصريف الإنتاج والحصول على المواد الأولية، فكانت إفريقيا القارة البكر التي مازالت ثرواتها لم تستغل بعد(2).

وجدت هذه السياسة ترحيبا في برلمان فرنسا فراحت تضعها حير التنفيذ، فلقت معارضة شديدة من قبل إيطاليا خاصة في شمال إفريقيا وبالضبط في تونس، لكنها تمكنت من هذه الأخيرة بفضل تأييد ألمانيا وانجلترا(3).

وبذلك تمكنت فرنسا من تحقيق أطماعها في القارة، وكونت إمبراطورية في إفريقيا(4)، وأطلقت على مستعمراتها في غرب القارة اسم إفريقيا الغربية الفرنسية، وتضم مجموعة من الدول(5).

وفي خضم هذه الأحداث والتطورات كانت هناك حركات دعوية وجهادية في إفريقية تقوم بالدعوة إلى الإسلام بين قبائل خربت أذهانها الأساطير والبدع والوثنية، ونزلت بها من عليا الإنسانية إلى الدرك الأسفل من التخلف والإنحدار، فسادت بذلك الأفكار الخرافية والإنهزامية، حتى أن أحد الملوك الوثنيين قال:" للإنتصار على الإستعمار لابد أن يذبح ديكا وحمارا وعبدا أسود"(6)، هذا بالإضافة إلى تنقية بعض الشوائب التي علقت بأذهان المسلمين حتى عدوها من الإسلام وهي ليست منه في شيء، وخاصة بين أولئك الذين اعتنقوا الإسلام حديثا، ناهيك عن مواجهة المد الإستعماري الأوربي في القارة من جهة أخرى.

كل هذا كان ماثلا وشاهدا أمام أنظار ومسامع أحد قادة الدعوة الإسلامية في المنطقة وهو قابع في سجنه، ذلك هو داعية ومصلح شعب الساركولي محمدو لامين، فمن هذا هو المصلح؟.

---

(1)- على إبراهيم عبده: المنافسة الدولة في أعالي النيل، مكتبة النهضة، القاهرة 1958م، ص.50.

(2)- محمد عبد العزيز إسحاق: نهضة إفريقيا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1391هـ/1971م، ص.74.

(3)- د. شوقي الجمل: المغرب الكبير في العصر الحديث، القاهرة 1977، ص ص 302-303.

(4)- أحمد عزت عبد الكريم: دراسات في تاريخ العرب الحديث، بيروت، 1970م، ص.398.

(5)- د. شوقي الجمل وعبد الله إبراهيم، المرجع السابق، ص.79.

(6)- د. فيليب رفلة: المرجع السابق، ص.49.

حياته و نشأته :

ولد محمدو لامين في بلدة "غوند يورو"(*) "Goundiouro" في سنغمبيا "Sainguambia"بإفريقية الغربية، بدأ دراسته منذ صباه الأول، فقد اختلف إلى مدارس المدينة تلميذا صغيرا، فتعلم مبادئ القراءة والكتابة، وتلقى تعليما دينيا حفظ القرآن الكريم، وتعلم بعض العلوم الإسلامية واللغة العربية وآدابها في مسقط رأسه، وقد لقي من العناية والرعاية ما كان يحسد عليه، فقد كان والده من الوجهاء والأعيان كما كان يحتل منصب قاضي المدينة.

لم تكن هذه المدينة كغيرها من مدن تلك البلاد التي كانت تعاني التهميش، وتفشي الأمية والتخلف والفقر، بل كانت تنعم ببعض الإزدهار إذ تعد من أهم المراكز الدينية، توافد عليها المدرسون والأساتذة وقصدها الشيوخ والعلماء، كما ظهر بها عدد من المرابطين، فكثر بذلك عدد المشتغلين بالعلوم الدينية، فنالت بذلك شهرة في المنطقة حتى عدت من المدن المقدسة لها هيبتها ومكانتها خاصة في نفوس المسلمين من سكان تلك الأصقاع الإفريقية ولاسيما بين قبائل "الساراكولي".

كانت بداية تعليمه على يد والده، ثم قصد بعض المدارس والمراكز الأخرى بالمدينة ونال حظه منها، و لم يكتف محمدو لامين بهذه العلوم التي أخذها عن شيوخ المنطقة، و لم تشف غليله من العلم فتاقت نفسه للرحيل ومتابعة الدراسة والبحث والاتصال بالعلماء الكبار خارج حدود البلاد والاحتكاك بهم والتعرف عليهم عن كثب، ومحاورتهم للإستفادة من علومهم وتجاربهم وأساليب وطرق دعواتهم الإصلاحية فاتجه إلى فوتاتورو "Foutatoro" التي اشتهرت يومئذ بالعلوم العقلية والنقلية وتعدد المشائخ وأصحاب الطرق الصوفية والدعاة المصلحين(1).

وبعد اتصاله المباشر بالشيوخ والأستاذة واحتكاكه بهم عن كثب، جمع ما استطاع من العلوم والمعارف،فاتسعت مداركه وصقلت مواهبه، ولما شعر باستقامة عوده واستواء نفسه، قرر الرحيل إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج ومناسك العمرة(2).

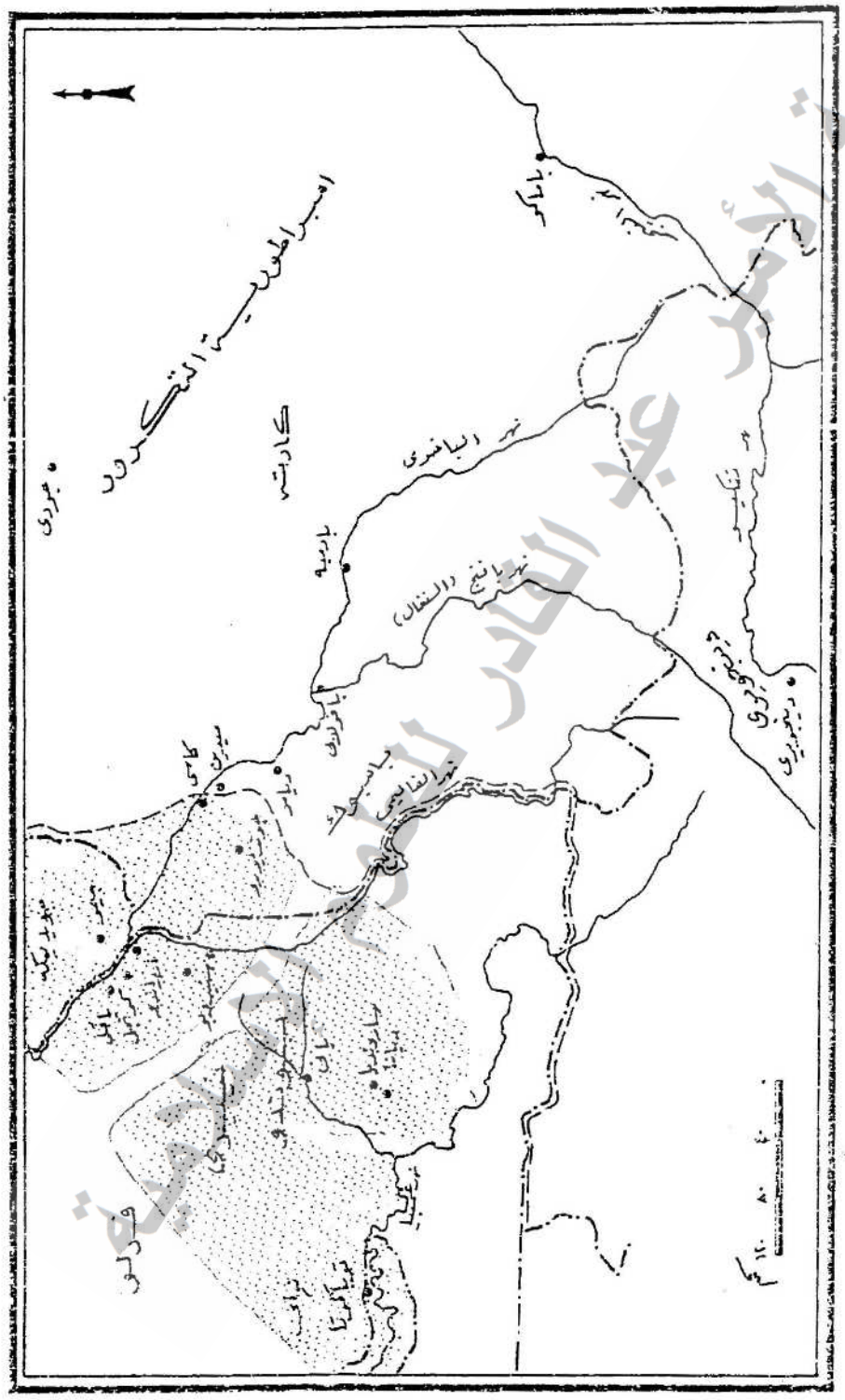
وفي أثناء مقامه بالبقاع المقدسة لم يقتصر نشاطه على أداء الشعائر الدينية والنوافل والزيارات، بل راح يتعقب أثر العلماء وينقب على مجالس العلم ويغشاها،ويتصل بالعلماء ويتعرف إليهم ويجلس في حلقاتهم مستمعا، يحاورهم ويناقشهم بروح العالم المتمكن في أمور الدنيا والدين دون انفعال أو تعصب لرأي أو مذهب، ودلت مناقشاته ومحاوراته على سعة علمه ومرونة فكره وعمق فهمه وابتعاده عن

(*)- أنظر الشكل رقم 15، ص:310.

(1)-إلهام محمد علي ذهني: المرجع السابق، ص109.

(2)- Maurice Delafosse, Op-Cit, p168.

الشكل (15)



مناطق نفوذ محمدو لامين زغيم السارا كولي
عن د/ إلهام محمد علي ذهني، ص 235

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

التمسك بآرائه والتعصب لها، وبعد أن حس باكتمال شخصيته قرر العودة إلى وطنه، وبينما كان في طريقه إلى بلده ومسقط رأسه يحذوه الأمل لرؤية أهله وعشيرته من شعب الساركولي، وكله عزم وتصميم على العمل دون هوادة من أجل تغيير أوضاع البلاد وتقويم أحوال الناس، والنهوض بهم مما هم فيه من جهل وتخلف،وإخراجهم من ظلام الوثنية إلى نور الإسلام والإيمان والعلم والمدنية، وبناء دولة أو بالأحرى إمبراطورية من شعب الساركولي، على غرار تلك التي أقامها الحاج عمر من شعب التكرور.

لم يكن "محمدو" يعلم ما تخفيه له الأقدار وما تخبئه الأيام، ففي أثناء عودته إلى بلده وقع في قبضة قوات أحمدو شيخو خليفة عمر تال(1)، زعيم التكرور وذلك سنة 1295هـ- 1878م و لم ينج من أسرهم وحملوه أسوة بغيره من الناس، فمكث بالأسر مدة طويلة دامت سبع سنوات (1302هـ/1885م)،كانت له فيها معايشة مؤلمة مع قساوة الحياة وشظف العيش،فخضعت نفسه لمحك التجربة الفعلية لما لم يألفه، فذاق مرارة الحبس ومعاناة البؤس وحرمان الحرية فجرب معنى الشقاء، فاكتسب من ذلك الصبر والجلد، وفي أثناء ذلك خلد إلى نفسه يستعرض ما مضى من الأيام والسنين وهو يسمع بأذنيه ويشاهد بعينيه ما بلغته إمبراطورية التكرور من قوة واتساع وبأس سلطان، وكل هذا كان يعمق من أسى الرجل ويزيد في كدره. كما لاحظ إلى جانب ذلك النقائص التي كانت تعاني منها هذه الإمبراطورية، ومن خلال هذه النقائص والتغيرات كان يرى سقوط هذه الدولة وشيكا ويطمح إلى فك القيد عنه وإطلاق سراحه(2).

كان محمدو أثناء إقامته في الأسر يتصل بالأسرى أمثاله، ويحاول تعليمهم وتوجيههم وإرشادهم إلى طريق الحق، وكلما كان يلقي وثنيا يدعوه إلى الإسلام وترك الوثنية، غير أن نشاطه الدعوي بين الأسرى لم يكن له تأثير بالغ،إذ لم يكن الرجل حرا في هذا المسعى، فقد كان ينظر إلى اجتماع الأسرى واتصالهم ببعضهم البعض وتوثيق علاقاتهم، نظرة يشوبها الشك والحذر من قبل التكارورة أنصار أحمدو شيخو ولاشك أن محمدو كان يتأسف على هذه الأيام والاعوام التي قضاها في الاسر، وكم حز في نفسه ما فاته من وقت كان خليقا به أن يعد فيه شعبا وأرضا لإنطلاق الدولة التي كان ينشد إقامتها منذ زمن، ومن هنا كان لهذا الأسر الأثر الكبير بعد ذلك في فتور العلاقات وتوترها بين الشيخ "محمدو لامين" و"أحمدو شيخو".

وفي عام 1303هـ/1885م فك أسر "محمدو" وأطلق سراحه فلم يتوان أو يتأخر، وأسرع بالعودة إلى بلاده وكله عزم وتصميم على إنشاء إمبراطورية من قبائل "الساركولي" المنتشرة في منطقة غرب إفريقيا التي كان ينظر إليها بنوع من الإحتقار والتقزز وعدم الرضا، و لم تنل مكانتها من الاحترام وحظها في الحكم والسيادة سابقا، لتحل محل إمبراطورية التكارورة التي شيدها الحاج عمر تال، واستمرت من بعده بقيادة أبنائه.

---

(1) Morice De Lafosse: Ibid. P 168

(2) د. الهام محمد علي ذهني: المرجع السابق، ص109.

والحق أن هذا ليس بالأمر الهين واليسير بالنسبة للمصلح، إذ يبدو جليا ومنذ الإنطاق أنه سيواجه ثلاثة قوى في المنطقة، تختلف من حيث القوة والضعف، الأوليتين منها محلية، وتتمثل في القبائل الوثنية والثانية هي قبائل التكارزة تحت زعامة غريمه القديم أحمدو شيخو، والثالثة وتمثلها قوات أجنبية دخيلة هي قوات الإحتلال الفرنسية(1).

ورغم هذه الخطورة التي تواجهه فإنه لم يعرها أدنى اعتبار وفضل الجهاد وإعلان الدعوة على القعود، لإدراكه قوله تعالى(2) "***لايستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم: فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما***". وبذلك بدأ في تدليل الصعوبات والإستعداد للدخول في مغامرة الجهاد للفوز بإحدى الحسنيين.

ظهور الحركة و إعلان الجهاد :

ظهرت حركة المصلح محمدو لامين زعيم قبائل "الساراكولي" في منطقة سنغمبيا بعد انعقاد مؤتمر برلين 1884م/1885م، ففي أعقاب هذه الفترة نشط الفرنسيون في مجال إستعمار غرب إفريقيا، وكانت نقطة الإنطلاق في هذه السياسة، هي منطقة السنغال باعتبارها المستعمرة الرئيسة في المنطقة(3)، وكان من البديهي للتوغل إلى داخل القارة لابد من فرض السيطرة وإحكامها على هذه المستعمرة الاستراتيجية، لكن بدا أنه ليس من الميسور على فرنسا ذلك، إذ واجهت مقاومة شرسة وعنيفة في آن واحد، من طرف القوى الوطنية المتمركزة في تلك الجهات، وتتمثل في كل من الزعيم "لات ديور" "L atediour"(*)، زعيم منطقة "كايور" "Cayour" الغنية بثرواتها الفلاحية، و"على بوري" "ALI BOURI"(**) زعيم قبائل الولوف "Olouf" الصعبة المراس ومحمدو لامين زعيم الساراكولي .

عاد "محمدو" إلى البلاد وبدأ يدعو الناس إلى تعاليم الإسلام الحنيف ومبادئه السمحة الصحيحة في أوساط القبائل، ويأمرهم بالإبتعاد عن خرافات ودجل الوثنية والسحرة والإيمان بالتوحيد، كما أقبل على تعليم الناس مبادئ القراءة والكتابة، فوجد آذانا صاغية وقلوب متفتحة ونفوسا متعطشة للعلم وتغيير الوضع

---

(1)- د. إلهام محمد علي ذهني: نفس المكان، ص.109.

(2)- سورة النساء، الآية 95.

(3)- د. شوقي الجمل وعبد الله إبراهيم: المرجع السابق، ص79.

(*)- لات ديور: ولد عام 1842م في بيئة وثنية، لكنه تلقى تعليما دينيا على يد أحد المرابطين "بابكر" ثم انتقل إلى ساحات وهناك افتك الحكم من "ماديودو" وحاكم كايور 1862م، وقف في وجه الفرنسيين الذين ألقوا عليه القبض ونفوه 1864-1868م، ولما عاد جمع حوله الأنصار وتحالف مع التوارزة في موريطانيا واستمر في المقاومة إلى أن قتل على يد الفرنسيين 1886م. انظر د. إلهام محمد علي ذهني. المرجع السابق.

(**)- علي بوري: ولد سنة 1842م، تعلم في كايور، وعمل في صفوف قوات ماباجا خوبا وحارب معه الفرنسيين، ثم شكل قوة من قبائل الولوف وأعلن نفسه ملكا واتخذ من مدينة نانغ يانغ "Nang Yang" عاصمة له قبل الحماية الفرنسية، ثم انقلب عليها وتحالف مع أحمدو شيخو ضد الفرنسيين الذين تمكنوا منه وقتلوه بعد مطاردته إلى داهومي "بنين الحالية"، أنظر: إلهام محمد علي ذهني، المرجع السابق ص.105.

الذي بلغته المنطقة، فشجعه هذا وضاعف من نشاطه وكثف منه، واستمر يلتقي بالأنصار والأتباع،فينفث فيهم من روح الدعوة ماستطاع الىذلك سبيلا،ويحثهم على المضي قدما لبلوغ الهدف المنشود دون خشية فيلقي الدروس والمواعظ ويجتمع بالجماهير يرشدها ويوجهها، وينبهها للمخاطر التي تحف بها من كل جانب.

ومما يسر له سبل التفاف الناس حوله ولاسيما قبائل الساراكولي عشيرته تلك المعاناة التي كانوا يعيشونها والمعاملة السيئة التي يتلقونها من قبل الحكومات والدول التي شهدتها تلك الربوع من جهة، ووجود القوات الأجنبية الغازية من جهة أخرى، علاوة على طموحهم في إقامة مملكة بل إمبراطورية على غرار التكارزة، و لم يلبث المصلح كثيرا حتى اجتمعحوله خلق كثيرون شكل منهم نواة عسكرية أولاها عناية فائقة وسهر على تنظيمها وتدريبها وتزويدها بالأسلحة الحديثة.

أمام هذه القوة التي صارت تنمو يوما بعد يوم وتزداد عددا وعدة. وشدة وصلابة،وأعناقها مشرئبة تتطلع في شوق لرؤية مولودها البكر بعد مخاض عسير، فكان لامناص من المواجهة وخاصة مع الفرنسيين(1).

وفعلا كان الإصطدام بين القوات الإسلامية بزعامة"محمدو لامين"والفرنسيين، ولكنها كانت منذ مطالع القرن الثالث عشر الهجري،أواخر ثمانينات القرن التاسع عشر الميلادي، عبارة عن مناوشات خفيفة قام خلالها الساركولي بشن حملات على مواقع البعثات الإستكشافية الفرنسية.

والحق أن"محمدو"منذ إطلاق سراحه اتخذ سياسة خاصة بالنسبة للمدن المجاورة لقرى عشيرته وللقوى الوطنية المتواجدة على الساحة، إذ عمد إلى مهادنتها وإرسال الرسل والخطابات يدعوها إلى تفهم الوضع الذي صارت إليه البلاد طالبا منهم الدخول في طاعته،بعد أن بدأت المواجهة مع الأجانب الأعداء الحقيقيين.

وفي هذه الأثناء أعلن عن حقيقة نواياه التي اعلنها في الناس وتتمثل في:

- التمسك بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف.
- أعداد الجيوش وتزويدها بما تحتاج إليه من عدة وذخيرة لمواجهة المحتلين، وطلب من أتباعه أن يقاوموا الدخلاء بكل ما يملكون من قوةبأسلحة خفيفة أو ثقيلة، وما يملكون مصداقا لقوله تعالى(2):

" وأعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون"

- الإعلان عن رفع علم الجهاد في سبيل الله ومحاربة الكفار لقوله تعالى(3):" **يا أيها الذين آمنوا**

---

(1) Deschmp Hubert: Histoire Generale de L'afrique Noire. Tome 2. Edition Berger Levrault Paris 1947 P 71

(2)- سورة الأنفال: الآية 60.

(3)- سورة الانفال: الاية 15.

إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيز إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير".

- توثيق علاقات حسن الجوار وخصوصا [illegible] مع حكام فوتاتورو.

ذاع صيت "محمدو لامين" في المنطقة بعد هذا الإعلان الصريح الذي لا غموض ولا لبس فيه والذي يعبر في الوقت نفسه عن طموحات المسلمين وحتى غير المسلمين الذين كانت نفوسهم تقشعر وتتقزز من المستعمرين الأجانب، وبذلك تقاطر عليه الناس من المدن والقرى يعلنون ولاءهم وتبعيتهم له.

وفي عام 1304هـ/1886م، لم يبق "محمدو" داعية وزعيم حركة إصلاحية فحسب، بل فقد أعلن من قرية سيندويو "Sindouyou" على نهر فالمي "Valmi"(*) غير البعيدة عن مدينة مدين "Medinne" نفسه مهدي الزمان، وقد جاء لتلخيص الأمة من الضلال وتنقيتها من الأدران وإعادة الإسلام في المنطقة إلى مجده الأول كما كان على عهد الرسول "ص" والخلفاء الراشدين من بعده، فانضمت إليه مناطق وقبائل كثيرة وأعلنت تأييدها له والدخول تحت طاعته، لاسيما وأن "محمدو" قد أعد للأمر عدته، حيث نشر الإشاعات وبث الخوف في نفوس السكان معلنا بينهم أن "أحمدو شيخو" يتربص بالمنطقة عازما على مهاجمتها في آجال غير بعيدة(1).

و لم يقف "محمدو" عند هذه العتبة فقط بل تجاوزها متحديا "أحمدو شيخو" إذ قام بإرسال أحد أبنائه الى مدينة "غوري" "Gouri" التي كانت من ممتلكات "أحمدو شيخو"، فدخلها ودعا سكانها إلى الثورة والعصيان والتمرد على حاكمها الذي زعم أنه كان يهادن الأجانب الكفار، ثم ما لبث أن أعلن نفسه زعيما عليها وحرض السكان على الثورة وجهاد الفرنسيين(2).

المواجهة مع الفرنسيين:

يتضح مما سبق أن "محمدو لامين" قد أعد عدته وهيأ نفسه ماديا ومعنويا لمواجهة الأعداء سواء كانوا مواطنيه في الداخل أو من الخارج، وهذا ما جعله يهتم في هذه المرحلة من الدعوة بأمر الجهاد والحرب، إذ لم يبق له فسحة من الوقت يكرسها للإهتمام بشؤون الدولة الأخرى إلا ما كان منها ضروريا.

لقد بدأت المواجهات العلنية المسلحة والعنيفة في آن واحد بين المصلح والفرنسيين في 1303هـ/1886م،عندما تخطى حدود إقليم باقل "Bakel"، وتقدم ببسالة لمحاصرة الحصن الفرنسي بالإقليم وتمكن من بسط نفوذه على قرى وبعض مدن المنطقة، بما فيها مراكز استراتيجية، وكانت الدعوة إلى

(*) أنظر الشكل رقم 15، ص310.

(1) Hanotaux, G.Lepartage De L'afrique Noire, Tome4, Paris 1909, p182.

(2) Meniaud, Jacques; les Pionniers du Soudan, Tome1 paris, 1931, p200

الإسلام تسير جنبا إلى جنب مع قوات الفتح. وبهذه الانتصارات المحققة شعر الفرنسيون بقوة الحركة وخطورتها على وجودهم في المنطقة كلها،فما كان على القوات الإستعمارية الفرنسية سوى الاستعداد لمواجهة القوات الوطنية بقيادة "محمدو لامين" وبدأ الصراع الفعلي بين طرفي النزاع(1).

لم ترفع القوات الوطنية حصارها على الحصن بل راحت تتحدى الفرنسيين حتى تمكنت من دخوله عنوة بعد معارك عنيفة، و لم تتراجع عنه إلا بعد أن وصلته الفرق الفرنسية.وحصار حصن باقل من طرف محمدو.ويذكرنا هذا بالحصار الذي قام به "الحاج عمر" من قبل على حصن "مدين".

ولعل أسلوب المحاصرة هذا،لجأت إليه القوى الوطنية في إفريقيا الغربية كرد فعل مضاد لما تقوم به القوات الغازية لتوغلها في القارة، واستراتيجية حربية لبذر الرعب في أوساط المستعمرين الأوروبيين والقضاء عليهم قبل أن يستفحل خطرهم.

لم يتخل "محمدو" عن المقاومة والكفاح ونشر الدعوة بين القبائل، فقد أقض مضاجع الفرنسيين و لم يتركهم في مأمن على مصالحهم وأرواحهم، وراح هذه المرة يضرب مصالح في غاية الأهمية والحيوية، فقد حاول قطع الإتصال بين باقل "Bakel" وكايس "Kayess" لمنع المدد والمؤونة عن الحصن لإضعافه، غير أن محاولاته فشلت بعد إرسال الفرنسيين للضابط "فري" "Frey" إلى باقل على رأس قوات مسلحة، فواجهتها القوات الوطنية بشجاعة وصمود(2).

لم تتوقف الحرب بل اتسع نطاقها،حيث كانت هذه المرة في القرى التابعة للمصلح وأمام مدينة كونجل "Kounguel" على مقربة من باقل، ولجأت القوات الوطنية إلى قطع المواصلات بين هذه الأخيرة و"ماتام "Matem" للحيلولة دون وصول نجدات للقوات الأجنبية، التي قام المصلح بالهجوم عليها مستعملا السهام المسمومة، فألحق بالأعداء هزائم لا قبل لهم بها

وأدت انتصاراته إلى زيادة شهرته وارتفاع مكانته،فأقبل عليه الناس وبايعوه وانظموا إلى صفوف الحركة وانخرطوا ضمن قواته قسما مقام "الساركولي" وزادت حماستهم لنشر الإسلام، بعد ان تعمق الايمان في نفوسهم فزاد تحبيبهم للعمل الاسلامي وتوسيع الدعوة(3).

والحق أن هذا الإقبال على شخص المصلح لم يكن من قبيل الإعجاب بالبطولة والشجاعة، أو لما حققه من نجاح، ولكن كان نتيجة إخلاصه وسهره على إقامة العدل وإصلاح ذات البين بين القبائل والعشائر وحل مشاكلها بالطرق السلمية، علاوة على السياسة الفرنسية القاسية التي زادت في نفور --

---

(1) Deschamps, Hubert; Op-Cit, p71.

(2)- د. إلهام محمد علي ذهيني: المرجع السابق، ص، ص 110-111.

(3)- د. إلهام محمد علي ذهيني: نفس المرجع، ص.111.

"الساركولي" وابتعادهم عن الدخلاء،بسبب اعتمادهم على القوة والعنف البعيدين عن كل سلوك إنساني أو أسلوب حضاري، ومرد ذلك إلى الحقد الصليبي الدفين الذي استمر في نفوس الفرنسيين عموما وأساطين عسكريتهم خصوصا، إذ ترك انهزامهم أمام المسلمين في الحروب الصليبية وطردهم من المشرق العربي عقد نفسية وعقائدية وعسكرية،فحاولوا الإنتقام من الإسلام والمسلمين حيثما وجدوا(1).

وبالرغم من قوة الفرنسيين فإن تنامي القوة الإسلامية العسكرية"للساراكولي" أربك ساسة فرنسا وقادتها العسكريين، ومما زاد في حرجهم نشاط حركة"محمدو لامين"وانتشار نفوذها وبسط سلطانها على مساحات واسعة،وإثبات وجودها بما حققته من انتصارات وإصلاحات داخل المجتمعات الإفريقية، وفي نفس الوقت عزل القوات الفرنسية عن قاعدتها الخلفية سان لويس "S. Louis" وحرمانها من الإمدادات،وزاد في مضاعفة هذه الصعوبة انخفاض منسوب مياه السنغال،فأعاق بذلك سير السفن في ذلك الموسم من العام.

لم ييأس الداعية و لم تفتر عزيمته بالرغم من أن الإستعمار قد ناء بكلكله على القارة،وزاد ضغطه على الحركات الوطنية والإسلامية،وخاصة حركة"محمدو"، فقد توجه هذه المرة إلى "باقل" ثانية، وراح يحاصرها فأضطر قائد القوات الفرنسية"فراي" إلى التخلي عن أي نشاط عسكري في تلك الجهات، وركز على إنقاذ الحصن والعمل دون سقوطه والإستلاء عليه من قبل قوات الجهاد الإسلامي، لاسيما أن الحصن شهد فرار العديد من سكانه وانظموا إلى زعيم الحركة الذي كان قد اتخذ من "ديافونو" "Diafouno" و"غويديمكة" "Guidimka" قواعد خلفية ومراكز انطلاق لشن هجوماته على القوات الاستعمارية، و لم تتمكن القوات الوطنية من اسقاط الحصن فعمدت القوات الفرنسية الى شن هجومات مضادة ودخلت المدينة الثانية واحرقتها، فكان رد فعل زعيم الحركة سريعا و لم يمهل قوات"فراي" لتنعم بانتصارها،وقام بتطويق المركز الفرنسي في "سيندوبو" "S idoubou" وإحراقه وتنفيذ حكم الإعدام في عمر كاندا "Omar Kanda" الحاكم العميل المعين من قبل الفرنسيين من قبل(2).

وأمام تأزم الأوضاع تحول"محمدو" إلى مرتفعات "غمبيا"، وهناك أقدم على تنظيم حركته وتوجيهها إلى هدفها المنشود الذي أسس من أجله، وهو نشر الإسلام وتصحيحه،فبنى حصنا في "ديانا" "Dayana" التي تبعد عن السنغال بنحو مائتي كم، وشرع يدعو قبائل"السرير" "S irir" الوثنية إلى الإسلام،وأمام عناد هذه القبائل وإصرارها على عدم ترك الوثنية شدد عليهم قبضته محاولا إجبارهم على اعتناق الإسلام.

استطاع محمدو لامين إحراز الإنتصارت بفضل سياسته المبنية على القوة حينا والمرونة أحرى، حتى نمت قواته فأدخلت الذعر في نفوس الفرنسيين الذين هبوا الى مراكزهم يحصنونها، وأمام هذا الواقع المذهل أقدمت فرنسا على تغيير القيادة.

---

(1)- محمد عبد العزيز إسحاق: المرجع السابق، ص85.
(2)- د. إلهام محمد علي ذهيني: المرجع السابق، ص ص 112-114.

عين جاليني "Gallieni" خلفا لـــ"فري" كقائد على القوات الفرنسية في الســـودان الغـــربي، في خريف سنة 1304هـــ/1886م وكان أكثر دهاء وأبعد نظرا من سلفه، حيث مال إلى مهادنة طرف وطـــني للقضاء على آخر، فعمد إلى الإتصال "بساموري" و"أحمدو شيخو" "زعيمي" "المنذبخو" و"التكرور" على التوالي، قبل التفرغ "لمحمدو" فقد خشي من تفهمها للموقف واتحادهما مع هذا الاخير، أو على الأقل تقديم المساعدة لـــه فعقد معاهدة مع الأول لتأمين ظهر قواته عند تقدمه في سنغمبيا من أي هجوم(1).

واتفق مع الثاني –أحمدو شيخو– على أن يتعاونا ضد زعيم "الساراكولي" "محمدو لامين"، باعتباره القاســـم المشترك الأعظم في عداوتهما، لذلك "ركز أحمدو شيخو" على مهاجمة مراكز مواطنه "محمدو" مثل ديـــافونو "DIAFONOU" و"غويديمكة" اللتين كانتا مركزا لـــ "سويبو" "Soybou" ابن "محمدو لامين" واستمرت المعارك العنيفة بين "الساراكولي" و"التكرور" من خريف سنة 1304هـــ/1886م إلى منتصف ربيع سنة 1305هـــ/1887م تم خلالها "لأحمدو" من إلحاق الهزيمة بـــ"الساراكولي" في "نجوري" غير أن القوات الرئيسة لهـــؤلاء الأخـــيرين كانت مع زعيمها في "ديانا" وحاول "سويبو" الالتحاق بقوات ابيه المعسكرة قرب أرونـــدو "Aroundou" في مواجهة القوات الفرنسية بقيادة "جاليني" فألقي عليه القبض، وتم إعدامه دون رحمة، في هذا الوقت كـــان "محمدو" صحبة جيوشه في "سنغمبيا" يسيطر على مناطق نهري الفالمي "Valmey" وبامبوك "Bambouk"(2).

وهكذا يمكن القول أن سياسة الضابط "جاليني" قد أتت أكلها وبدأت تحقق مبتغاها، وهذا أمام غفلة وقصر نظر القيادات الوطنية وعدم اتفاقها واتحادها للوقوف صفا واحدا في وجـــه التقـــدم الإســـتعماري الصليبي وصده.

لم يتوقف "جاليني" عن مطاردة زعيم "الساراكولي" والتوغل إلى الداخل عن طريق اعداده الحمـــلات وتجهيزها، فقد جهز حملتين متزامنتين ومختلفتين في مسلكهما: فلم يفلح، فعاد لضمها واتجه بهما إلى مركـــز "محمدو" في "ديانا" فألفاه قد غادرها ليقصد إلى غامبيا(3).

ولعل أهم ما حققه "جاليني" في الحملتين السابقتين اللتين أضرها "أحمدو" من نتائج هـــو معرفتـــه لجغرافية المنطقة وإمكانياتها الإقتصادية، والإطلاع على أحوال السكان، وعقده لسلسلة من المعاهدات مـــع زعماء القبائل ورؤساء العشائر.

لم يتوقف "جالني" عن متابعة خصمه "محمدو لامين" بل استمر يتابعه حتى وهو في "غامبيا" "بعـــد أن استولى على مناطق كثيرة كانت من ممتلكات المصلح، وكلف الضابط "فورني" "Fournet" بتعقبـــه حـــتى القضاء عليه، فلجأ "محمدو" إلى أحد ملوك المنطقة طالبا حمايته، لكن جبن هذا الملك وخوفه من الفرنســـيين دفعاه إلى إلقاء القبض عليه، وأعدمه في سنة 1305هـــ/10 ديسمبر 1887م، في جنوب مدينة نيـــاني "Niani"

---

(1) Gosset (pet.r); Op-Cit, p127-129.
(2) Deschmps et Hubert: Histoire de Generale de L'afrique Noire, Op-Cit, p:281-285.
(3) Meniaud-jaques; Op-Cit, Tome1, p 282-284.

وأحضرت للفرنسيين، فأسرعت أقاليم "غامبيا" إلى قبول الحماية الفرنسية رهبة لا رغبة(1).وبموت "محمدو لامين" تنتهي المقاومة البطولية العنيفة،ويخلوا الجو للمستعمرين الأوروبيين في بلاد السنغال، فبسط الفرنسيون نفوذهم الإستعماري عليه.

وخلاصة القول أن هذه الحركة التي ظهرت في غرب إفريقيا وكانت متزامنة مع حركات إصلاحية إسلامية أخرى في المنطقة، مثل حركة "الحاج عمر تال" التي استمرت يقودها ابنه "أحمدو شيخو" وحركة "ساموري توري".

وهذه الحركة التي قادها "محمدو لامين" استطاعت الى حد بعيد التوفيق في تحقيق الكثير من النتائج التي وضعتها نصب عينيها منذ انطلاقها، فقد كان هم صاحبها هو تغيير الأوضاع السائدة في المنطقة والنهوض بها مما آلت إليه من تدهور اقتصادي واجتماعي وانحطاط ثقافي وأخلاقي وضعف سياسي، وخاصة بين قبائل "الساراكولي" التي كانت تعيش على هامش الحياة الحضارية، و لم تنل حظها في بناء الدول والإمبراطوريات التي ظهرت واضمحلت في تلك الربوع من القارة.

استطاع "محمدو لامين" تحقيق انجازات عظيمة قياسا بالفترة الزمنية التي ظهر فيها،والمعاناة التي عاشها سواء في مجاهدته لتحصيل العلوم وطوافه الأصقاع لجمعه، أو في سجون مواطنه وغريمه – أحمدو شيخو– ورغم ذلك فقد تمكن وفي فترة وجيزة من نشر الإسلام بين طوائف وقبائل كثيرة كانت على الوثنية فاعتنقت الإسلام وطبقت مبادئه،علاوة على تحرير فكر "الساراكولي" المسلمين من البدع والخرافات وانقاذهم من شرور السحر والشعوذة التي سيطرت على عقول الكثير منهم، وهذا بفضل التوعية والتوجيه ونشر التعليم في أوساط الجماهير الشعبية بتشجيع من زعيم الحركة نفسه، إذ كان هو بدوره يقوم بهذه المهمة النبيلة في بلاده وحتى قبل عودته إليها.

وبفضل إخلاص "محمدو لامين" وكفاءاته وتفانيه في خدمة الدعوة والحركة،لاحظنا أنه تمكن من لم شمل شتاة القبائل وكون منها قوة عسكرية لعبت دورا أساسيا في نشر الإسلام وبالتالي اللغة العربية،هذا من جهة، ووقفت في وجه الإستعمار الأوروبي الدخيل على القارة الإفريقية وألحقت به الهزائم المتكررة من جهة ثانية،الأمر الذي اضطر فرنسا في الكثير من المرات إلى تغيير أسلوب سياستها في المنطقة ناهيك عن تبديل القيادات.

وإذا كان "محمدو لامين" لم يوفق إلى تكوين الإمبراطورية التي كان ينشدها ويسعى لتحقيقها وتجسيدها على أرض الواقع كما كان يحلم بها، فإن ذلك لا يعود لضعف في شخصيته أو لتقصير في أداء واجبه أو تقاعسه كسلا، إنما لتغير الظروف والاحوال وتظافر جهود الخصوم المحليين من ناحية والاعداء الأجانب من ناحية ثانية، ورغم ذلك فقد استطاع أن يقاوم ويجاهد على أكثر من صعيد، قد خل بذلك التاريخ الإفريقي من

---

(1) Hanotaux Gabriel; Op-Cit. Tome4. p182.

بابه العريض بفضل اصلاحاته وقيادته المقاومة البطولية التي خاضها دون هـــوادة للحيلولـــة دون دخول الأجانب إلى القارة،كما أنه لم يثق في الأجانب و لم يعقد معهمأية معاهدة مثل ما فعل غيره.

وإذا كان"محمدو لامين" لم يقع في فخ عقد المعاهدات المبرمة مع الأجانب، فإن غيره من الزعامـات لم يكن في مستواه على الأقل من الناحية السياسية، لذلك وجد الضابط الفرنسي "جاليني" ضالته، فاستغل ضعف خصومه سياسيا فعبر من خلال ذلك عن ذكائه ودهائه السياسي وحنكته العسكرية، أمـام غفلـة زعماء الحركات الإصلاحية الإسلامية الذين يبدو وأن المصالح الشخصية قد غلبت علىارواحهم الوطنيـــة كما أعمتهم العصبية القبلية عن تلك الحقيقة التي لا يمكن أن تخفى على عاقل، وبذلك اهتدى "جاليني" إلى أسلوب فرق تسد، فتخلص من الزعماء المحليين بعد سعيه إلى قطع الاتصال بينهم، حتى يحول دون تكتلـهم ليسهل عليه القضاء عليهم بأقل تكلفة، وتمكن من ذلك وقضى على المقاومة الوطنية في المنطقة.

وفي الاخير يمكن القول أنه بفضل"محمدو لامين" وامتثاله من الوطنيين الذين وقفوا في وجه التغلغـل الأوروبي في القارة السمراء، أوقفوا الزحف ولو لمدة لكنهم بذروا الاشواك في طريق هذا الغازي الدخيـل، فلم يجد الأرض مفروشة بالورود أو الاستقبال بالترحاب، كما كان يعتقد بل لقي مقاومة شرسـة قلمـا عرف التاريخ مثيلا لها وخاصة من طرف مسلمي القارة.

ب - حركة رابح بن فضل الله :

سنتعرض الآن إلى دعوة من الدعوات الإصلاحية الإسلامية التي قامت في بلاد السودان الأوسـط وبالتحديد في بلاد تشاد، وقد تعرضنا فيما سبق عند الحديث عن حركة"محمد الأمين الكانمي" في النصـف الأول من القرن الثالث عشر الهجري، النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي إلى المنطقة، ورأينـا الأحوال التي كان عليها الوضع في بلاد"كانم برنو"وعايشنا الحوار الذي دار بين الفلاني "ومحمـد الأمـين" والنهاية التي انتهى إليها.

فبعد وفاة محمد الأمين (1251هـ/1835م) تولى الحكم من بعده ابنه"عمر"، لكن أمر البلاد لم يسـتمر على ما كان عليه، إذ سرعان ما دبت الخلافات بين أبناء الأسرة الحاكمة، وتدهورت أحـوال المملكـة واشتدت عليها الأطماع من الخارج، وتخلى الناس عن دين التوحيد، وظهرت البدع والخرافات وانتشـرت أعمال السحر والشعوذة وضرب الرمل،واختلطت بتعاليم الدين الإسلامي السمحة، وصار من الصعوبـة بمكان على العامة التمييز بين الصحيح والخطأ.

في ظل هذه الأوضاع الفاسدة ظهر خطر خارجي، لم يكن هذه المرة من طرف قبـائل الفـلاني الإفريقية بزعامة خلفاء "عثمان دان فودي" كما كان في عهد"الكانمي"، بل كان خطر هذه المرة دخيـل وغريب عن القارة الإفريقية، ويتمثل في الإستعمار الأوروبي وخصوصاالفرنسي منه، الذي كان يتقدم متسللا

نحو المنطقة من الجنوب، فدق السنوسيون ناقوس الخطر، وهبوا لمقاومته ولولاهم لأطبق الفرنسيون على البلاد دون مقاومة.

في هذا الظرف العصيب ظهر داعية ومصلح جديد على أديم شمال البلاد يدعوا إلى إصلاح أحوال البلاد والعباد،والعودة بالمجتمع التشادي المسلم إلى ما كان عليه،وبعث مجده التليد وإقامة دولة عصرية تستمد تنظيماتها وقوانينها من الشريعة الإسلامية على أنقاض دولة "كانم برنو"،ذلك هو المصلح المعروف باسم رابح الزبير(*).

حياته : هو رابح بن فضل الله بطل من أبطال المسلمين في العصر الحديث، وداعية وقائد إفريقي مشهور قيل أنه عربي من سنار(1).

ولد رابح عام 1230هـ/1815م في إحدى قرى السودان النيلي تدعى "حلفاية الملوك" مديرية الخرطوم، وفي صغره التحق بكتاب القرية للتعلم على عادة أقرانه عندما يبلغون تلك السن، فتعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم على يد الشيخ "هاشم" أحد فقهاء القرية المشهود لهم بالعلم والفضل لم يكتف الشاب رابح بما حصل من علوم ومعارف،ولم يستقر له بال فتاقت نفسه للهجرة والسفر .

وفي سن العشرين من عمره غادر مسقط رأسه،إذ سافر إلى مصر وحط رحاله بالقاهرة،وهناك اطلع على ما وصلت إليه أوضاع العالم الإسلامي من تدهور، ولاحظ عن كثب بأم عينيه الأخطار التي تحيط به وهي تزداد تفاقما بـ متقدمة في ثبات للاجهاز عليه وتمزيقه،فحز ذلك في نفسه كثيرا.

لم يتجه رابح لمراكز العلم ليكمل راسته كغيره من الدعاة والمصلحين، ولكنه انخرط في سلك الجندية والتحق بخدمة جيش الخديوي(**) إسماعيل باشا الذي تولى الحكم في الفترة ما بين سنتي (1280هـ-1863م/1297هـ-1879م)، وبفضل إنخراطه في صفوف القوات المسلحة المصرية نال حظا وافرا من التدريب وأجاد حمل السلاح واستعماله، وأتقن الفنون العسكرية المختلفة التي كانت سائدة في عصره، وبينما كان منهمكا في إحدى المناورات العسكرية التي يقيمها الجيش بين الفينة والأخرى لأجل اكتساب المهارة القتالية، أصيب في يده اليمنى فشوهت له هذه الحادثة "بنصره"، ولما جاءت الإصلاحات العسكرية أبعد عن الخدمة في الجيش المصري، فاضطر للعودة إلى بلده بعد أن وصلته أخبار وفاة والده(2).

ولاشك أن الأحداث التي عاشها بنفسه وعايشها في مصر أثناء تواجده بها في تلك الحقبة من الزمن، قد أثرت في نفسه تأثيرا بالغا، فلا يمكن لرجل مثل رابح أن يكون بمنأى عن تلك الأحداث المثيرة أو

(*)- اختلفت المراجع في ذكر إسمه، فقد ذكرت اسم: رابح، رباح، ربيح ورابيح.

(1)- مصطفى مؤمن: قسمات العالم الإسلامي: مرجع سابق، ص57.

(**)- الخديوية: لقب إيراني يعني بين التبعية والإستقلال منحه السلطان عبد العزيز لإسماعيل باشا حاكم مصر، أنظر: أبو القاسم حاج حمد: المرجع السابق، ص.35.

(2) سعد الدين الزبير: امبراطورية رابح الزبير، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1953، ص45.

غافلا عنها، فقد كان الداعية الإسلامي الكبير "جمال الدين الأفغاني(*)" (1255هـ-1839م/1315هـ-1897م) في نفس الفترة يحاضر ويلقي الدروس وينشر الصحف، ولاشك أن "رابح" قد قرأ الكتب والمقالات المنشورة في الصحف والمجلات، واطلع على ما كان يجري في عالمه الإسلامي من خلال تلك الكتابات التي كانت تتعرض بالنقد اللاذع للأوضاع الجد مزرية التي كان يعيشها المسلمون في أصقاع العالم الإسلامي، ومن هذه الصحف الوقائع المصرية، ومصر والتجارة،ومجلة أبو نضارة(**).

وهذه الأخيرة وجهت انتقاداتها اللاذعة للوضع السائد خاصة في مصر وعلى رأسه الخديوي إسماعيل باشا(1).

وفي تلك الأثناء التي عاد فيها "رابح" إلى بلاده ومسقط رأسه السودان كان الصراع على أشده في بحر الغزال ودار فور التي كان يحكمها "الزبير رحمة باشا"(***)، تحت إشراف الإيالة المصرية، وهذه المناطق اشتهرت بثرواتها الطبيعية، وخاصة العاج وريش النعام والأبنوس، فأسس فيها عدد من كبار التجار مناطق نفوذ واسعة، ومارسوا الأعمال التجارية التي درت عليهم أرباحا طائلة واشتهر من بين هؤلاء التجار "الزبير باشا" رحمة.

انظم "رابح" عند وصوله إلى بحر الغزال لخدمة "الزبير" بناء على رغبة هذا الأخير، فبرهن على إخلاصه في خدمة سيده، وأظهر كفاءاته وقدراته القتالية، فأحرز بذلك على رتبة قيادية في الجيش الذي انظم إليه مؤخرا وأخذ لقب "رابح الزبير"(2)، وبعد أن خاض معارك ضارية بجانب "الزبير" في دار فور وبحر الغزال بالسودان(3)، وقد اختلفت الأقوال في نسب "رابح"(****)والراجح أنه كان ابنا لأحد زعماء القبائل في

(*)- نزل جمال الدين مصر أول مرة في رمضان (1287هـ/1870م) وحل بها ثانية في 1 محرم 1288هـ/22 مارس 1871م، ص.116.
أنظر: محمد عبده: جمال الدين الأفغاني ورسالة الرد على الدهريين، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر بدون تاريخ، وأحمد أمين:زعماء الإصلاح في العصر الحديث.

(**)- مجلة هزلية أسسها الكاتب الإسرائيلي يعقوب صنوع وجمال الدين الأفغاني، تعرضت بالنقد للسياسة المصرية.

(1)- أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 1990م، ص.89.

(***)- باشا مصري وحاكم سوداني: ولد في جزيرة واوسي عام 1831م من عائلة تقول أنها تعود في الأصل إلى الزبير بن عبد المطلب، مارس التجارة مع ابن عمه محمد عبد القادر، سافر عام 1865م إلى بحر الغزال ولمع نجمه في تجارة العاج والرقيق في النيل الأبيض، وسع نشاطه وجمع حوله الكثير من الرجال، حارب الملوك واتخذ عاصمة له سميت دم الزبير، سيطر على دارفور عام 1874م، عين من طرف الخديوي حاكما على شيكا وبحر الغزال بالسودان، سافر إلى القاهرة عام 1875م، ثم منع من مغادرة مصر، وفي عام 1885م، اعتقلته السلطات بتهمة تعاونه مع المهدي السوداني، ونفي إلى جبل طارق، ثم أفرج عنه سنة 1887م، فعاد إلى القاهرة ثم سمح له بالعودة إلى أملاكه والسودان عام 1899م فعاد إلى الخرطوم إلى أن توافه الأجل. **انظر: محمد ابراهيم ابوسليم ،الحركة الفكرية في المهدية، مرجع سابق ص 6**

(2)- لثروب ستودارد: المرجع السابق، م2، ج3، ص.62.

(3)- د. عبد الرحمان عمر الماحي: المرجع السابق، ص.209.

(****)-ذهبت بعض المراجع إلى أن رابح كان في طفولته عبدا للزبير باشا، وذهبت أخرى إلى القول أن رابح هو إبن الزبير باشا،ومنها كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية، المرجع السابق، ص.650.

بحر الغزال، ونشأ نشأة عسكرية وشارك والده في الحروب التي خاضها ضد القبائل المجاورة حتى لقي الوالد حتفه(1).

وما انفك الأمر يستقر "لرابح" ويبتسم له الحظ حتى أمرت السلطات المصرية بتنحية "الزبير" من منصبه، بعد الخلافات التي وقعت بينه وبين اسماعيل أيوب حاكم عموم السودان، فاستدعيا إلى القاهرة عام 1292هـ/1875م، وذلك لمواجهة خصومهما وطلب منهما الخديوي البقاء مع منح "الزبير" لقب بك.

ظل سليمان الزبير ممثلا لوالده في أملاكه بالسودان، وعند تولي "غرودون" أمر السودان خلفا لإسماعيل أيوب عين سليمان نائبا لوالده، وبعد سعى بعض الوشاة عزله "غرودون" فاتهم سليمان الحكومة بالظلم وتمرد عليها في عام 1295هـ، 1878م فعين غرودون رومولوجيسي "R. Gessi" الايطالي لقيادة حملة ضد ضد سليمان باشا.

حاول "جيسي" منذ البداية صد سليمان وإبعاد فكرة الجهاد ضد السلطة عن ذهنه حتى أقنعه في النهاية، غير أن "رابح" باعتباره أحد القادة العسكريين المحنكين والمقربين من "الزبير" رفض فكرة الإستسلام "لجيسي" الإيطالي، وحذر "سليمان الزبير" من كيد العواقب التي تنجم عن هذا الإستسلام، لكن هذا الأخير لم يستمع لنصائحه و لم يستجب لرأيه، وأقدم على إبرام اتفاق الإستسلام، وكانت نظرة "رابح" هي الصائبة، ونفذ "جيسي" حكم الإعدام في "سليمان" ومن معه من القادة، دون محاكمة في سنة 1296هـ/15 جويلية 1879م(2).

لم يلق "رابح" السلاح و لم يستسلم كما فعل غيره من جنود الأمير وانسحب إلى الجنوب الغربي من بلاد السودان وتبعه كثير من الضباط أمثاله الذين كانوا في جيش "الزبير" وابنه "سليمان"، فحشد ثمانية "بيارق" في كل بيرق عدد من الجنود يتراوح بين مائة وعشرين إلى مائة وثلاثين جنديا مسلحا، وكان ذلك في سنة 1296هـ/1879م وكانت هذه الفئة من الأتباع هي نواة جيش "رابح" مستقبلا(3).

ونظرا لوعي القادة(*) الأتباع وإخلاصهم ولتفادي التنافس والإنشقاق وتلافي أي خلاف من ناحية ولما يتمتع به "رابح" من قدرات عالية وكفاءات في التنظيم والقيادة من ناحية ثانية، قرر هؤلاء الأنصار منحه لقب أمير(4).

---

(1)- سعد الدين الزبير: المرجع السابق، ص.22.

(2)- د. عبد الرحمان عمر الماحي: تشاد من الإستعمار إلى الإستقلال، المرجع السابق، ص.116.

(3)- لوثروب ستودارد: المرجع السابق، م2، ج3، ص.62.

(*)- القادة هم: أرباب بابكر حسن الوكيل الفقيه محمد الكبير، الفقيه محمد الصغير، الصديق عثمان بن شاكر، توكولوما، موسى الحيهان، أحمد بن فقيه، الحاج نور الدين، بن شافي، سليمان بن جبير، أحمد بن سليمان، دور فاكا، عيد، حمدان، عبد الباقي، عبد الله ميري. انظر د. عبد الرحمن عمر الماحي: تشاد من الإستعمار إلى الإستقلال.

(4)- الموسوعة العسكرية: المرجع السابق، ص.450.

إعلان الإمارة:

لم يستقر "رابح" غرب السودان بل انسحب إلى منطقة بإفريقيا الوسطى، وكان معه ألف جندي من رجالة المدربين والمسلحين بالأسلحة النارية والبنادق(1) (*)، وهناك أقام حينا من الدهر ليستريح ويسترجع تاريخ حياته وما تعاقب عليه من أحداث والدور الذي ينتظره في مستقبل الأيام، وبعد تفكير وتدبر عميقين اهتدى إلى سبيله فقد أدرك رسالته وما تتطلبه من جهد وجهاد،وما ينتظره من أعباء جسام في سبيل النهوض بالأمة الإسلامية وتوجيهها لإعادة بعثها من جديد،لاسيما وأنه لاحظ بأم عينيه وعاش بنفسه غدر الأجانب المسيحيين وعدم وفائهم.

كما شاهد تخلي المسلمين عن تعاليم دينهم الحنيف،وهو الرباط الذي يجمعهم ويوحدهم فيؤلف بين قلوبهم وينقذهم مما يحدق بهم من أخطار وما يحوطهم من ويلات، قال تعالى(2) ***"واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها"***.

أمام هذا الوضع المأساوي والمؤسف في آن واحد، قرر "رابح" ومن عمق السودان الأوسط إعلان دعوته لنشر الإسلام بين القبائل التي ما زالت على الوثنية، وتصحيح عقيدة المسلمين ودعوة الجميع إلى التآلف والتمسك بتعاليم الدين الصحيحة ورفع راية الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته وتطبيق شريعته وراح "رابح" ينتقل من بلدة إلى بلدة ومن منطقة إلى أخرى يدعو الناس وينشر الإسلام ويجمع الأنصار وينظم الأتباع ويعقد العلاقات ويوثقها مع رؤساء القبائل وزعماء العشائر.

وفي عام (1298هـ/1881م) ذهب "رابح" إلى مناطق "كايا" "Kaya" و"دار روفاي" "Dar Rofai" و"بان جاسو" "Bangassou"(**) يخوض المعارك ضد سلاطين هذه المناطق، وقد أحرز إنتصارات باهرة،ولم يكتف رابحا بما حقق من نصر ولم يكل ولم تفتر عزيمته وواصل جهوده واستمر يجوب الأصقاع يعلم وينذر داعيا إلى الله،وفي الفترة المحصورة بين سنتي 1300هـ/1882م -1302هـ/1884م لم يستقر به المقام في مكان واحد بل أقام في كل من "أبي "Obei"وبومباري "Boumbari"وجريبنجي"Gribangui" في إقليم دار بندا" "Dar Banda"وفي الأخير استقر به المقام في غوندا "Gounda" بإفريقية الوسطى(3).

---

(1)- د.نعوم شقير: المصدر السابق، ص.617.

(*)- العدد الذي ذكره شقير يتطابق مع العدد الذي ذكره لوثروب ستودارد الذي أشرنا إليه سابقا، في حين تذكر مراجع أخرى أعدادا لا ترقى حتى إلى نصف العدد المذكور.

(2)- سورة آل عمران: الآية 103.

(**)- أنظر الشكل رقم 16، ص.324.

(3)- د. عبد الرحمن عمر الماحي: الدعوة الاسلاميةفي افريقيا الواقع والمستقبل، المرجع سابق، ص.209.

الشكل (16)



الطريق الذي سلكه رابح إلى المنطقة

عن د/ عبد الرحمن عمر الماحي: تشاد من الاستعمار إلى الإستقلال، ص

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والحق أن القائد في أثناء تنقله لم يكن غافلا على أمر دعوة الناس وتصحيح عقيدتهم ينبه الغافل ويرشد الضال ويكسب الأنصار إلى جانبه، وفي هذه البلدة الأخيرة أقام معسكرا للتدريب على غرار المعسكرات التي شاهدها وتدرب فيها بمصر، وشرع في تعليم أتباعه وتدريبهم على الفنون العسكرية،وقد كثف تدرياته لمن التحق بالحركة حديثا و لم ينل حضه من التمرين والتدريب وإتقان الفنون العسكرية والمهارة القتالية.

و لم يقتصر التدريب على النواحي العسكرية المحظة واستخدام الأسلحة بل تعداه إلى جوانب نفسية وروحية، فبث في نفوسهم من روح الإسلام ما يزيد في دفعهم إلى رفع راية الدين الإسلامي خفاقة ونشر الإسلام في المناطق المجاورة(1).

ولإدراك "رابح" ما للقوة العسكرية من أهمية في الجهاد ونشر الإسلام من جهة وبناء الدولة ومقاومة الغزو الأجنبي من جهة أخرى، لذلك جمع أنصاره وأحسن تدريبهم وتكيوهم،وشكل منهم قوة عسكرية مدربة لا يمكن الإستهانة بها، حقق بفضلها انتصارات كثيرة على المدن والقرى التي هاجمها،إذ لم تبد أمام قواته مقاومة كبيرة و لم تصمد طويلا، فراحت تعقد معه المعاهدات وتدفع له الفدية المطلوبة لإسترضائه وكسب وده والخضوع له.

وبمرور الوقت نمت قوات "رابح" وتعاظمت فزاد طموحه وكثف من هجوماته العسكرية ووسع نطاقها على بقية المناطق، وما كاد عام1302هـ/1884م، ينتهي حتى تمت له السيطرة على "دار كوتي" "Dar Kouti"و "دار رونغا" "Dar Rounga" وأقام في "شا" "Cha"،وهناك رتب أموره وقام بالهجوم والدعوة في المناطق الواقعة بين سلامات "Salamat"وأوبانغي "Oubangui"، و لم يلبث أن بسط نفوذه على المناطق المجاورة لبحيرة "أبرو" "Abrou"،فزادت دعوته نشاطا وانتشارا في ربوع السودان الأوسط، وأمام هذه الإنتصارات الواسعة سمع الناس البعيد منهم والقريب بأخبار "رابح" وانتصارته الساحقة وما حققه من إنجازات في بلاد الجنوب، فأرسل إليه محمد أحمد المهدي السيدين زين الدين وشرف الدين، يدعوانه إلى الإنضمام إلى صفوف الدعوة المهدية.

وقد اختلفت المراجع في أمر قبول الدعوة،فمنها من يرى عدم امتثال "رابح" لأمر المهدي استنادا إلى موقف شيخ الطريقة السنوسية الذي رمى المهدي بالزندقة(2)، بينما يرى بعضها الآخر أن "رابح" لم يمانع وتقبل العرض وشرع في التوجه بقواته نحو بلاد السودان،غير أن هذا التحرك لم يكتب له الوصول إلى حيث أراد صاحبه،فما كاد "رابح" يصل الحدود الجنوبية "لدار فور" حتى بلغته أنباء وفاة المهدي في صيف 1302هـ1885م، وتولي عبد الله التعايشي أمر الخلافة، فعدل "رابح" عن قراره ورجع أدراجه إلى دار كوتي

---

(1)- د. عبد الرحمان عمر الماحي: تشاد من الإستعمار إلى الاستقلال، مرجع سابق، ص.117.
(2)- كارل بروكلمان:المرجع السابق، ص.650.

و لم يتصل به الخليفة بعد وفاة المهدي لسوء التفاهم بين الرجلين(*)، غير أن مراجع أخرى تذكر أن "رابـــح" كان من المتمسكين بالمهدية وما يستدلون به على ذلك انتشار راتب المهدية بين أنصاره، كمـــا أن قواتـــه كانت تحمل راية المهدية(1).

والحق أننا لم نعثر على أخبار تدل على موقف "رابح" المعادي لمحمد أحمد المهدي أو للمهدية ذاتهـــا. و لم تتوقف أعمال "رابح" العسكرية والدعوية بل واصل نشاطه لاسيما بين قبائل الجولا "Goula" في جرينجي "Gribangui" وفورت كرامبيل "Fort Krampel" وبحر مـــأمون، واستمر في اتجاهه صوب الشمال عـــابرا نهـــر شاري "Charie" وأقام ببلدة دانزي "Danzi" ووثق علاقاته مع زعيم قبيلة السلامات الشيخ "الجدي" الذي كان حانقا على القائد شرف الدين الذي كان يحكم المنطقة تحت إشراف مملكة وداي وهاجما هـــذا الأخـــير ودارت معركة "أم التيمان" وانتهت بانسحاب "رابح" وقتل الشيخ "الجدي" فثار ابنه وطلـــب الحمايـــة مـــن الفرنسيين الذين كانوا قد قدموا إلى منطقة نهر "شاري"(**) (2)

إشهار الدعوة و إعلان الجهاد :

ضد الممالك و الإمارات الوثنية :

بعد معركة أم التيمان أشهر "رابح" دعوته وأعلن جهاده ضد القبائل التي تقيم على ضفـــاف نهـــر شاري الأوسط باعتبارها قبائل أحيائية لا تدين بالإسلام، وحفاظا على استمرار الدعوة ونشـــر الإســـلام خاصة في الفترة المحصورة بين 1306هـــ/1888م -1307هـــ/1889م جعل بلاد شاري هدفا لجهاده وغزواتـــه وحقق انتصارات باهرة، فاضطر السلطان خليفة سلطان منطقة "بوا" "Boua" إلى اللجوء إلى مدينة "بوسو" "Boussou" فاستقبله سلطان "الباقرمي" واتفقا على التعاون للوقوف في وجه الدعوة والداعية "رابـــح"، وفي سنة 1308هـــ/1890م رجع "رابح" إلى دار كوتي(***) وقضى على حاكمها "كابرو" "Kabrou" الذي اســـتمر في دفع الغرامة لملك وداي خلافا لأوامره، ونصب حفيده "محمد السنوسي" على كل من دار كـــوتي ودار رونفا وحذره من دفع أي ضريبة لوداي وزوده ببعض السلاح قبل أن يغادر المنطقة صوب الغرب وهذا

(*)- يمكن رد عدم اتصال الخليفة برابح إلى موقف هذا الأخير منه عندما عارض إطلاق سراحه وتمسك بالحكم عليه بالإعدام عندما وقـــع في أسر الزبير، رحمة أثناء حربه مع قبائل الرزيقات السودانية. أنظر: أبو القاسم حاج حمد، السودان المأزوم الماضي وآفاق المستقبل، ...

(1)- نعوم شقير: المرجع السابق، ص.117. - سعد الدين الزبير: المرجع السابق، ص.45 وما بعدها.

(**)- شاري: أكبر الأنهار التي تغذي بحيرة تشاد ينحدر من جبال المنطقة الإستوائية طوله حوالي 1200كم أنظر: إسماعيل العـــربي: الصحـــراء الكبرى وشواطئها، مرجع سابق، ص.25.

(2)- لوثروب ستودارد: المرجع السابق، م2، ج3، ص.62.

(***)- أنظر الشكل رقم 16، ص324.

يكون "رابحا" قد أمن ظهره وضمن اتصالاته مع بحر الغزال(1). ومن دار كوتي استمر ينشر الدعوة ويخطط للمستقبل، ثم ما لبث أن دخل بلدة "بوسو" على نهر شاري سنة 1311هـ/1893م وهناك تلقى رسالة من سلطان باقرمي يطلب فيها عقد الأمان (أنظر الملحق*). ولم يطل المقام "برابح" واتجه نحو مدينة بانجلاما "Bangalama" وتمكن من دخولها رغم المقاومة الباسلة التي أبداها الباقرميين بقيادة السلطان "عبد الرحمان جاورانج الثاني"، الذي انسحب إلى مدينة مانجافا "Manguafa" فلحق به "رابح" وحاصره حصارا محكما إضطره إلى طلب النجدة من السلطان "يوسف" سلطان مملكة واداي الذي لبى الطلب وشكل جيشا عين على رأسه القائد "حجر كبير"، فاتخذ "رابح" جميع التدابير للحيلولة دون وصول النجدة ونجح في ذلك وقضى على القيادة، ففر الجنود نحو مدينة "ماسينا" واستمر حصار المدينة التي سقطت بعد خمسة أشهر من المقاومة الباسلة تمكن خلالها "جاورانج الثاني" من الفرار رفقة بعض مقاتليه متجها صوب مدينة أوبانغي شاري، واستنجد بالمستعمرين هناك.

والواقع أن ما نلاحظه على هذه الحركة التي قادها "رابح" سرعة التحرك من جهة والقوة التي بلغتها من جهة ثانية، إذ لم تتمكن الإمارات والممالك التي كانت قائمة في المنطقة من الصمود في وجهها ومقاومتها، وهذا يدل على ما بلغته هذه الجيوش من قوة وبأس، وذلك لا شك مرده إلى الإيمان بالقضية والتدريب المكثف والأسلحة النارية وكفاءة "رابح" في إدارة هذه القوات وقيادتها.

كما يتضح لنا مدى استجابة وسرعة قوات الكفر المعادية للحركة من مؤازرة بعضها البعض من جهة، كما تبرز مدى غفلة حكام وأمراء هذه البلاد، ولاسيما الوثنيين منهم من جهة أخرى، إذ بمجرد عجزهم عن الحفاظ على عروشهم سرعان ما يلتجئون إلى القوات الإستعمارية الأجنبية والإستنجاد بها مقابل الإبقاء على عروشهم حتى ولو كان على حساب المصلحة العليا للوطن.

وأثناء حصار مدينة مانجافا "Mangafa" كانت لرابح نشاطات سياسية استقبل خلالها "مالم حياتو"(*). إبن أمير سوكوتو، الذي استفاد "رابح" من علمه وخدماته كثيرا، كما زراه "صالح" سلطان "كرنك لوجون" "Karnek Legoune"، علاوة على مراسلة بعض الملوك والأمراء له، هذا بالاضافة الى نشاطه في مجالي نشر الدعوة وتصحيح الاسلام كما عمد إلى نشر الوعي بين الناس وتنبيههم لما يحيط بهم

---

(1)- د. عبد الرحمان عمر الماحي: تشاد من الإستعمار إلى الإستقلال مرجع سابق، ص.119.

* أنظر الملحق رقم.5.

(*)- هو حياتو بن سعيد بن محمد بلو بن عثمان دان فودي: من كبار علماء نيجريا والمتحمسين للحركات الإصلاحية الإسلامية، آمن بمهدي السودان وتبادل معه ومع خليفته الخطابات عول على الهجرة إليه، ولما علم حياتو بقدوم رابح فضل الله إلى برنو انضم إليه وانضوى تحت لوائه، وعند انشغال رابح بحرب الفرنسيين كان حياتو قد انضم إلى جبريل الفلاني الذي ادعى المهدية، ولم يلبث أن عقد حلفا معه للقضاء على رابح غير أن هذا الأخير عجل بهما وتمكن من قتل حياتو بينما فر جبريل هاربا وكان قتله سنة 1899م، أنظر: هامش د. محمد إبراهيم أبو سليم، مرجع سابق، ص4.

ومن هذه المراسلات والزيارات التي أدت إلى توثيق العلاقات بين"رابح"وبين بعض حكام الممالك المجاورة، يمكن القول أن"رابح" لم يكن رجل حرب وعسكرية فقط، بل كان رجل ديبلوماسية مرن، إذ بفضل هذه الإتصالات زادت سمعة الرجل انتشارا ونفوذه اتساعا بكسبه الكثير من القيادات المجاورة،الامر الذي سمح له فيما بعد بالإنطلاق لتحقيق أهدافه والسيطرة على كل منطقة بحيرة تشاد(1).

غادر رابح مدينة مانجافا التي تحولت إلى أنقاض بعد أن خسر في حصارها أحد أشهر رجاله وأكبر مساعديه وهو "حسن الوكيل"،ثم توجه صوب "كرنك لوجون" وقام بحصارها فسقطت بيده بعد مفاوضات مع سلطانها "صالح"، ثم توجه بعد ذلك إلى كسرى "Koussri" وجولفي "Golfy" وماره"Marra" فسقطت كلها بيده.

عين"رابح"العقيد "عثمان بن شاكر"حاكما لأراضي كرنك لوجون، وتحت قيادته خمسة الوية وطلب منه السهر على تنظيم إدارة البلاد وتحقيق الأمن والإستقرار، ومنحه سلطاتٍواسعة، أما السلطان "صالح"فقد اتهم بمساعدة الاجانب والتآمر على سلامة البلاد،اذ اكتشفت مراسلاته السرية مع سلطان "باقرمي"،فعدت هذه خيانة عظمى عقوبتها الموت، وبذلك نفذ فيه حكم الإعدام علنا حتى يكون عبرة لمن تسول له نفسه التفكير والإقدام على خيانة الوطن(2).

وبعد أن دانت له الممالك الوثنية والإحيائية واعتنق الكثير من الناس الإسلام، توجه إلى مقاومة الفساد الذي انتشر في دولة "كانم برنو" حول بحيرة تشاد(*).

ضد إمبراطورية كانم برنو :

بعد أن أخضع رابح مدينة "كرنك لوجون" وعين عليها"عثمان بن شاكر"غادر المدينة باتجاه الشمال الغربي صوب العاصمة البرنوية "كيكوة" "Kikouia" التي تبعد عنه بحوالي 275كلم، والكانم تقع إلى الشمال الشرقي من بحيرة تشاد(3)، وهذه المنطقة كانت تشكل مع إقليمي "وادي" و"دار فور" كانت كلها في الماضي البعيد إقليما واحدا قامت فيه حضارة ذات شأن كبير(4).

وكانت السلطة مطلقة في يد سلطان البرنو ويساعده في إدارة شؤون الرعية وحكم البلاد وزير يفوض سلطاته لموظفين تابعين له، يحملون ألقاب "مالا" و"كشلا"،وكانوا يتولون قيادة الجيوش زمن الحرب والغزو، ويشرفون على جباية الضرائب من السكان عند استتباب الأمن والسلم، وإلى جانبهما منصب آخر يتولاه "الكيقما" ووظيفته السهر على توفير الأمن وحفظه وهو بمثابة وزير الداخلية في عصرنا اليوم.

---

(1) W.July Robert: Op-Cit , p63

(2)- د. عبد الرحمان عمر الماحي: تشاد من الإستعمار إلى الإستقلال، مرجع سابق، ص ص 120- 122.

(*)- أنظر شكل رقم 17، ص329.

(3)- د. حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص130.

(4)- د. حسن مؤنس: الإسلام الفاتح: مرجع سابق، ص140.

الشكل (17)



مناطق نفوذ رابح في الفترة ما بين 1893-1900م

عن د/ عبد الرحمن عمر الماحي: تشاد من الاستعمار إلى الاستقلال، ص 196

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وفي هذه الفترة كان الإنحلال الخلقي والرذائل قد تفشت في أوساط الرعية بما فيهم الأجاود والأعيان والأمراء، وشمل الإنحلال جميع أنحاء البلاد، رغم المساعي والمحاولات المبذولة من قبل السلطات "محمد هاشم" الذي اشتهر بالتقوى والصلاح، غير أنه عجز عن وضع حد نهائي ولا حتى التخفيف من حدة هذا الفساد المنتشر بسبب انصراف الناس عن الدين وابتعادهم عن الفضيلة وانغماسهم في حياة اللهو والمجون، الأمر الذي دفع "كارل بروكلمان" إلى القول(1) :"**إن أهلها - أي كانم - قد نسوا منذ زمن طويل الحرب**".

في هذا الوقت الذي انتشر فيه الفساد والإنحلال وعمت الفوضى البلاد ومالت إلى الضعف، وصلها "رابح" بقواته،فلقيه جيش برنو تحت قيادة "محمد طاهر" و"مالا كريم" فتغلب "رابح" على هذه القوة وتمكن من أسر "محمد طاهر" القائد الأعلى مع بعض رجاله وتفرق الباقون(2).

ولما بلغت أنباء الهزيمة العاصمة "كيكوة"(*) وعلم السلطان "محمد هاشم" بقدوم "رابح" قاصدا عاصمته خرج لملاقاته بنفسه فلم يحالفه النصر، ودخلت قوات "رابح" "كيكوة" في يوم السبت 1310هـ/09 ماي 1893م، فأقبل الناس على رابح مستسلمين يقدمون له الولاء ويقسمون له يمين الطاعة.

لم يقم "رابح" بالعاصمة "كيكوة" بناء على نصائح المستشارين والوزراء من جهة،وقلة المياه من جهة ثانية، فانتقل إلى بلدة ديكوة(**)، إلى الجنوب الغربي من بحيرة تشاد حتى يكون على مقربة من مخازن الغلال والمؤونة في "البلقى" "Elbalki".

وبإقامة "رابح" في ديكوة تحولت من قرية صغيرة المساحة قليلة السكان والعمران إلى عاصمة كبيرة عامرة بالناس والبنيان(3).

غير أن السلاطين الذين حاربهم "رابح" لم يتركوه يهنأ ويتفرغ لتنظيم الدولة، ولم يتخلوا عن فكرة الحرب، لذلك كثيرا ما أثاروا المشاكل والقتل وشنوا عليه الهجومات المتكررة والمباغتة أحيانا.

ففي سنة 1312هـ/1894م قام "شياري"(***) ابن أخ محمد هاشم بحرب ضد "رابح" إلا أنه لم يوفق وألقي عليه القبض وأعدم، غير أنه أثار الرعب والفزع في أوساط السكان والجنود.

---

(1)- كارل بروكلمان: المرجع السابق، ص653.
(2)- لوثروب ستودارد: المرجع السابق، م2، ج3، ص63.
(*)- كيكوة: تذكرها بعض المراجع باسم كوكا أو كوكة.
(**)- ديكوة: يقول عنها بروكلمان كانت في مطلع القرن التاسع عشر عاصمة برنوية لفترة ومنية قصيرة، أنظر: تاريخ الشعوب الإسلامية، مرجع سابق، ص652.
(3)- د. عبد الرحمان عمر الماحي: تشاد من الإستعمار إلى الإستقلال، مرجع سابق، ص123.
(***) هو الذي قتل عمه محمد هاشم سلطان برنو وسلمه لرابح ونصب نفسه سلطانا، ولما انهزم أمام رابح أسر وحكم عليه بالاعدام، وهذا الشخص هو الذي ذكره لوثروب ستودارد في كتابه "حاضر العالم الاسلامي" باسم أبو خياري، انظر لوثروب، المرجع السابق، م2، ج3، ص63.

كما ثار عليه في نفس العام صهره "مالم حياتو" وحاول الإطاحة به، فلقى مصرعه أثناء المحاولة وتفرق أتباعه، كما لقي مقاومة شديدة من طرف الشيخ "أبو قنطور" وهو أحد زعماء الدين،فكانت الهزيمة من نصيب هذا الزعيم و لم يظفر بشيء أمام جيش "رابح"(1) المدرب والمسلح.

وما كادت الأمور تستقر حتى ذهب "رابح" يبسط سيطرته وسلطانه على "برنو" ورفض سلطان مدينة "زندر" "Zender" الإعتراف "برابح" ودفع الضرائب والإتاوات له بدل سلطان "برنو"،فقاتله وانتصر عليه، وفي عام 1313هـ/1895م وما بعدها قام بشن حملات على إمارتي "زندر" "Zender"و"ماندرا" "Mandara"وخاض معارك كثيرة وعادت جيوشه مكللة بأكاليل النصر محملة بالغنائم والسبايا.

والحق أن "رابح" أثناء تنقلاته وحروبه لم يكن بغافل عن نشر الدعوة الإسلامية بين سكان القرى والمدن التي يمر بها، فقد كان يلتقي بالناس ويدعوهم إلى التمسك بالدين الإسلامي ويصحح لهم مفاهيمه ويشجعهم على العلم وبناء الخلاوي للتعليم.

وبينما الأمور تسير في اتجاه صالح الزعيم "رابح" والحظ يبتسم له وهو منشغل يفكر في إقامة دولة إسلامية عظيمة تستمد مبادئها من الشريعة الإسلامية وتبسط سلطانها على منطقة السودان الأوسط، في هذه الأثناء ظهر له عدو جديد وغريب على مسرح القارة الإفريقية(2)، بدأ يتغلغل ويتزعم كوكبة الممثلين فرنسا زعيمة الكاثوليكية، وفي هذا الظرف الجديد والعصيب في آن واحد،لم يغفل "رابح" عنه بل راح يستعد للأمر والمواجهة،وهذه طبيعة كل وطني وكل مصلح غيور على وطنه ودينه وشعبه.

ضد الإستعمار الأوروبي:

بعد أن سيطر "رابح" على أراضي واسعة عمد إلى إجراء تنظيمات لها ليسهل عليه حكمها وإدراتها ثم استعد لمواجهة التغلغل الأوروبي بوجه عام،والفرنسي على وجه الخصوص، الزاحف على القارة التي ما زالت تعيش على الماضي،والحقيقة أن إفريقيا في القرون السابقة على الدخول الإستعماري كانت تبدو وكأنها ساكنة تقريبا، وتعتمد على نظم اقتصادية بالية، بينما زاد النشاط الإقتصادي في أوروبا بفضل انتقالها إلى النظام الرأسمالي خصوصا الجزء الغربي منها، بفضل استغلال إمكاناتها المادية والبشرية، بالإضافة إلى استغلال موارد الدول الأخرى وبرزت الإحتكارات الرأسمالية خصوصا في أوروبا الغربية(3).

---

(1)- لوثروب ستودارد: المرجع السابق، م2، ج3، ص.63.

(2)- لوثروب ستودارد: نفس المكان.

(3)- د. والتر رودني: ترجمة أحمد القصير، اوروبا والتخلف في افريقيا، الكويت 1401هـ-1988م، ص195.

كان هذا النمو الإقتصادي مصحوبا بنمو الروح العسكرية الإستعمارية والتسابق للسيطرة على أنحاء واسعة من أراضي العالم عموما وإفريقيا خصوصا، وكانت فرنسا أكثر الدول نشاطا في هذا الميدان غير أن النشاط الإستعماري الفرنسي في سياسة مد النفوذ إلى داخل القارة لم يستمر على نفس الوتيرة،فقد أصيب بنكسة على إثر هزيمة فرنسا في الحرب السبعينية.

وبعد مؤتمر برلين 1302هـ/1884م-1303هـ/1885م الذي أباح سياسة السيطرة والضم فاستغلت فرنسا الظرف وعمدت إلى عقد معاهدات مع القبائل،كما فعلت مع السلطان أحمدو في الأراضي الممتدة ما بين نهري السنغال والنيجر، وذلك سنة 1305هـ1887م(1) واستمرت فرنسا في مد نفوذها في محاولة منها الربط بين مستعمراتها الشمالية والجنوبية من جهة والشرقية والغربية من جهة ثانية، فكان لوجود المصلح الإسلامي "رابح بن فضل الله" في المنطقة أعظم قوة إلى جانب السنوسيين وقفت في وجه القوات الزاحفة وحالت دون تحقيق رغبات الفرنسيين(2).

وكعادتها عمدت فرنسا إلى سياسة فرق تسد،ووجدت من زعماء القبائل والسلاطين الذين سيطر "رابح"على ممتلكاتهم ما يساعدها على إثارة المشاكل له، ففي عام 1308هـ-9هـ/1891م) تأسس في "كارنو" "Carno" بإفريقيا الوسطى مركز فرنسي خرجت منه البعثات المختلفة نحو حوض بحيرة تشاد أشهرها تلك التي قادها "إميل جانتي" "Emile Gentille" خليفة "بول كرامبل" "Paul Crampelle"وعقد سلسلة من المعاهدات مع زعماء القبائل والسلاطين.

لم يكن "رابح" يعلم بما يحدث وعندما بلغته أخبار التغلغل هاجم "ماسينا" وألقى القبض على الأمراء والوزراء الذين حضروا توقيع المعاهدات وأخذهم كأسرى إلى ديكوة بعد إدانتهم بالتعاون مع الأجانب والتآمر ضد مصالح الوطن والمسلمين.

وبعد النجاح الذي حققه "جانتي" عاد إلى فرنسا وعين النقيب بيريتوني "B retonnit" الذي واصل عمل نشاط البعثة الاستطلاعية في المنطقة(3).

وفي 1317هـ/جوان 1899م، وصلت أخبار إلى الزعيم "رابح" مفادها أن الفرنسيين جهزوا له قوة للقضاء عليه قبل أن يستفحل خطره، وفي نفس الشهر والسنة السابقتين وصل بريتوني إلى "كوكاكة" "Coukaka"والتقى بالسلطان العميل "جاو رانج الثاني" حليف الفرنسيين فقصدهما "رابح" والحق بهما هزيمة منكرة في "توجيباو" "Touguibaou" في 1317هـ/17 جويلية 1899م(4).

---

(1)- د. زاهر رياض: استعمار إفريقيا، مرجع سابق، ص.158.

(2)- د. شوقي الجمل وعبد الله إبراهيم: المرجع السابق، ص.81.

(3)- لوثروب ستودارد: المرجع السابق، م2، ج3، ص63.

(4)- لوثروب ستودارد: نفس المكان.

وهكذا تمكنت قوات"رابح"الإسلامية المقدرة بحوالي ثمانية آلاف مجاهد من تحقيق النصر على القوة الفرنسية وأعوانها المقدرة بحوالي سبعين ألف محارب مدججة بمختلف الأسلحة(1)،وسقط في المعركة القائد "بريتوني" والملازمان "براون" "Brawon" و"دوران" "Douron"والمترجم الجزائري "شبيكة" وتم أسر أسرة السلطان "جاورنج الثاني" الذي نجا من الموت وفر إلى "كوكاكة" ينتظر مع رجاله قدوم القوات الفرنسية من إفريقيا الوسطى(2)، وقد صدق في قوات"رابح"قوله تعالى(3)" **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**"، وبعد هذه المعركة استقر"رابح"في "كونو" "Kouno"غير أن إقامته بها لم تدم طويلا فقد قطع "جانتي" إجازته بأمر من "جيلان" "GUILLON"وزير المستعمرات الفرنسية، وعاد من فرنسا لإنقاذ الموقف وأعطى أوامره للضابط "روبيلوت" "ROBILLOT" بأن عليه محو عار "توجباو"(4).

قام الفرنسيون بالهجوم على"رابح"في خريف سنة 1317هـ/27 أكتوبر 1899م و لم يتمكنوا من افتكاك المدينة التي أبدت مقاومة عنيفة ثلاثة أيام، بعدها تيقن المصلح من استحاله الإنتصار على الأعداء فانسحب بشرف وأخلى المدينة واتجه إلى "لوجون" "LOGONNE"ثم "ديكوه" "DIKOUA"(5) ومباشرة بعد وصوله الى هذه الأخيرة شرع في حشد جيوشه لمواجهة الفرنسيين الذين استمروا يلاحقونه دون جدوى وأمام استحالة تحقيق نصر حاسم على هذا المصلح والمجاهد الكبير لما أبداه من شجاعة وبسالة وطول نفس فلم يجد القائد الفرنسي "جانتي" من حل سوى مراجعة الحكومة الفرنسية وطالب بإمدادات فصدرت الاوامر بذلك(6)، فزحفت قوات من الجزائر بقيادة كل من العميد "جرو" "Guerou" ولامي "Lamy" وأخرى من النيجر بقيادة الملازمين جوالاند "Geoualand" وماني "MANIER" وعند مدينة "جولفي" التقت الحملتان الفرنسيتان في سنة 1317هـ/مارس 1900م وهاجمتا مدينة "كوسري" "KOUSSRIE" وتم قتل حاكمها "بشارة خراج" وتم أسر عدد من المجاهدين، ثم وصل"جانتي"وانضم إلى الحملتين، وفي"لختة" "LAKHTA"على بعد ستة كيلومترات من مدينة كسرى، أقام"رابحا"معسكره ودارت رحى الحرب بينه وبين القوات الإستعمارية الغازية بقيادة"لامي"، وفي سنة 1317هـ/22 أفريل 1900 انكسر"رابح"وسقط شهيدا على الساعة الحادية عشر من نفس اليوم والسنة(7)، على أديم وطنه، وقدرت قوات"رابح"في المعركة بحوالي خمسة آلاف (5000) منهم الفين (2000) مسلحين بالبنادق و ست مائة (600) فارس و ثلاثة (3) مدافع وقوات العدو، الف ومائتي (1200) عسكري مسلح و اربعة (4) مدافع(8).

---

(1)- دائرة المعارف الإسلامية: م10، ص.18.
(2)- د.عبد الرحمان عمر الماحي: تشاد من الإستعمار إلى الإستقلال، مرجع سابق، ص ص134-136.
(3)- سورة البقرة، الآية 249.
(4)- سعد الدين الزبير: المرجع السابق، ص.199.
(5)- د. عبد الرحمان عمر الماحي: الدعوة الإسلامية في إفريقيا الواقع والمستقبل، مرجع سابق، ص217.
(6)- لوثروب ستودارد، المرجع السابق، م2، ج3، ص63.
(7) Y. URVOY: Op-Cit , P320.
(8)- د. نعوم شقير: المصدر السابق، ص617.

بعد أن تم التركيز عليه من قبل القوات الغازية باعتباره داعية ومجاهدا وزعيما دينيا،يمثل أكبر قوة معنوية لجيشه في ساحة المعركة، لكن رجاله قتلوا من الفرنسيين عددا كبيرا على رأسهم القائد "لامي" وآخر يدعى كوانته(1) "Couantat".

ورغم استشهاد الزعيم وانكسار بعض قواته، فإن الجو لم يخل للفرنسيين، فقد واصل المقاومة ابنيه "فضل الله" و"نيابي" في الباقرمي إلى غاية سنة 1320هـ/1902م فقد استمر ابنه فضل الله يقاتل الفرنسيين واسترد "دكوة"(2) غير أنه استشهد هو الآخر، لكن المقاومة لم تنتهي،بل استمرت في تشاد إلى غاية سنة 1329هـ/1911م(3)، والجدير بالذكر أن الفرنسيين قد سعوا الى مفاوضة فضل الله،ولكنه رفض وقطع رؤوس مبعوثيهم إليه وحاول التفاوض مع السلطات البريطانية في النيجر الأدنى، ولكن عند عودته إلى بلاده قتل في بلدة "فوجيه" "FOUGUIA"في أراضي المستعمرة الإنجليزية(4).

ورغم ذلك فإن المقاومة لم تخمد فقد واصل بعض القادة الوطنيين الجهاد إلى أن تمكنت القوات الإستعمارية الفرنسية من إخضاع المنطقة إلى نفوذها بعد انسحاب السنوسيين الذين كانوا قد بسطوا نفوذهم على هذه المناطق لمواجهة الغزو الإيطالي في ليبيا، فاستطاعت فرنسا أن تسيطر على غرب إفريقيا ووسطها وأن تؤسس إفريقيا الغربية الفرنسية، وإفريقيا الإستوائية الفرنسية بعد الحرب العالمية الأولى(5).

والحق أن الفرنسيين على الرغم من قضائهم على أبناء"رابح"وأتباعه وإخماد المقاومة سنة 1329هـ/1911م فإن روح المقاومة استمرت متأججة في نفوس الجماهير الشعبية التشادية، ولم ترض عن الإستقلال بديلا حتى حصلت عليه سنة 1380هـ/1960م وما زال التشاديون المسلمون متمسكين بدينهم وبلغتهم العربية بالرغم من الظروف القاسية التي يلاقيها هؤلاء، وخاصة أن النصارى التشاديين هم المسيطرين على الحياة الإقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، وذلك لتلقيهم الدعم المادي والمعنوي من قبل الدول النصرانية والإرساليات والجمعيات الدينية الكاثوليكية والبروستاتة والشركات الإستثمارية فتمكنوا من فرض اللغة الفرنسية إلى جانب اللغة العربية لغة رسمية للدولة(6)

ورغم هذه المحن فإن الإسلام ما زال في تقدم في البلاد والعربية ما زالت تنافس الفرنسية.

---

(1)- د. عبد الرحمان عمر الماحي: تشاد من الإستعمار إلى الإستقلال، مرجع سابق، ص154.

(2)- مصطفى مؤمن: المرجع السابق، ص57.

(3) Beslires, G: La Sanoûsi. Librairie La Rose. Paris 1925. pp.189.190

(4)- لوثروب ستودارد: المرجع السابق، م2، ج3، ص64.

(5)- د. شوقي الجمل وعبد الله ابراهيم: المرجع السابق، ص ص: 81-82.

(6)- د. عبد الرحمن عمر الماحي: الدعوة الاسلامية في افريقيا الواقع والمستقبل، مرجع سابق، ص ص 80-84.

تنظيم الدولة:

لم يكن "رابحا" من الأسر المترفة ذات الغنى الواسع، و لم ينشأ نشأة أبناء الأغنياء المترفين بل نشأ نشأة بسيطة اكتسب منها خبرات وتجارب استمد منها الحزم والعزم والإعتماد على النفس،كما تعلم منها الشجاعة والجلد فتمرن على تحمل المشاق والصعاب منذ شبابه.

وإذا كانت بعض الكتابات تنسبه إلى بعض الأسر الملكية وأنه ابن ملك(1)، فإن المصلح لم يعش عيشة أبناء الملوك ينعم برفاه العيش ورغده بل راح يصنع تاريخه بنفسه.

تبلورت شخصيته "رابح" وبدأت تبرز بعد استقلاله عن سليمان بن الزبير باشا، فظهر وكأنه مغامر جريء بيد أنه وجد نفسه وجها لوجه أمام مهام ومسؤوليات جسام، فقد أصبح السيد الأول والزعيم المطاع، فكان عليه أن يقدر هذه الثقة الممنوحة لشخصه ويقدر حجمها ويفكر فيها بوعي، خاصة بعد أن تمت مبايعته بالإمارة من طرف أنصاره مباشرة بعد مغادرته "دم الزبير"، فحملوه بذلك تقرير مصائرهم وتحديد مستقبلهم، فشعر بثقل المسؤولية الملقاة على كاهله مبكرا.

ضحى "رابح" بكل ما يملك وبرهن على إخلاصه وكفاءاته فكسب ثقة أنصاره وطاعتهم رغم الظروف الصعبة التي كانوا يعيشونها في المنطقة، فقد عدل "رابح" عن سيرته السابقة وهذبها وأخذ يفكر في بناء ملك عريض، و لم يخف عليه أن بناء الدولة يتطلب وضع أسس وقواعد متينة، وكلما كان البناء شاهقا كلما تطلب أسسا أعمق وأرضية أشد صلابة واستغرق الإعداد وقتا واستنفذ جهدا، و لم يتوان "رابح" إذ أقبل على لم شمل القبائل وإنشاء دولة تستمد تشريعاتها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وذلك ليؤمن لنفسه ملكا ولأتباعه الإستقرار وهذا يتطلب تنظيمات محكمة.

والحق أن التنظيمات التي وضعها المصلح تدل على أن الرجل ليس مصلحا دينيا ورجل حرب فحسب ولكنه كان رجل سياسة وإدارة وقانون وإقتصاد ومالية أيضا،ومن أهم تنظيماته دولته :

التنظيمات الإدارية:

- التقسيم الإداري:

ظل "رابح" يحمل لقب أمير المؤمنين الذي منح له منذ خروجه من دم الزبير سنة 1297هـ/1880م ورغم أنه كان يتصف بالقوة والعنف والإستبداد ورفضه المعارضة والإنتقاد،فقد خلص الناس من الحكم الأرستقراطي(2) وحكم المناطق التي دانت له وخضعت لسلطانه في الفترة المحصورة بين 1310هـ،11هـ-

---

(1)- سعد الدين الزبير: المرجع السابق، ص22.
(2)- د. أمين أسير: إفريقيا والعرب، ط1، دار الحقائق، بيروت 1980م، ص.25.

الفصل الثامن ـــــــ

الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر" (1).

كما يعاقب معاقري الخمور ويتم تنفيذ أحكام الشريعة وفق الكتاب والسنة،كما ينفذ حكم الإعدام في مرتكب جريمة القتل العمدي مصداقا لقوله تعالى(2) :" ***وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص"*** .

وقد تمتع القضاة بالحرية في ممارسة أعمالهم فلا يخضعون لأي ضغط،وأحكامهم تنفذ على الجناة فورا خلال الجلسات، والأحكام القضائية ثابتة لا مجال فيها للطعن والإستئناف، و لم يتدخل"رابح"في شؤون القضاء والقضاة إلا نادرا.

التنظيمات المالية و التجارية:

كانت الخزينة العامة "بيت المال" تتلقى مواردها المالية من الضرائب المفروضة على المناطق،بالإضافة إلى الزكوات،والأموال المصادرة،وأموال المتهمين بالخيانة ومعاقرة الخمر، وتناول المخدرات،والجزية المفروضة على الأشخاص، وكان الأطفال والشيوخ والنساء والفقراء معفون منها، ونظرا لعدم تمكن الموارد المالية من تغطية نفقات الدولة ولاسيما العسكرية منها، عمد"رابح"إلى شن غارات السبي ومارس تجارة الرقيق خاصة مع الليبيين، وكانت طرابلس الغرب عادة سوقا رائجة لغنائمه(3)، خاصة بعد أن أمست طرق القوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى بعد وصول الفرنسيين إلى تمبكتو سنة 1311هـ/1894م كاسدة،ومما زاد في كسادها غارات قبائل الطوراق(4)، لذلك صارت المبادلات التجارية تتم محليا مع التجار الوافدين حيث كانت تتم مقايضة السلع المحلية بالسلع الأجنبية وفي مقدمتها الأسلحة والمعدات الحربية(5).

وما يمكن نقوله في هذا الجانب أن الفترة التي عاشها"رابح"في بلاد"تشاد" كانت كلها صراع وحروب،و لم تشهد فترات أمن وسلام يمكن أن يمارس فيها السكان الأنشطة الإقتصادية المختلفة ويتبادلون المنافع مع الخارج عن طريق التجارة،بالإضافة إلى المطالب العسكرية الكثيرة لذلك،نراه يلجأ إلى ممارسات يمقتها الإسلام.

التنظيمات العسكرية:

باعتبار المصلح جنديا محترفا فقد استطاع تكوين جيش قوي تمكن من اكتساب الفنون العسكرية والمهارات القتالية، ويعود ذلك إلى التدريب المستمر الذي كان يتلقاه في المعسكرات علاوة على ما اكتسبه في ميدان الوغى من خلال خوضه المعارك منذ خروجه من دنم الزبير.

---

(1)- سورة النور: الآية 2.
(2)- سورة المائدة، الآية45.
(3)- إبراهيم صالح بن يونس: تاريخ الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم برنو، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، بدون تاريخ، ص ص 166-170.
(4)- كارل بروكلمان: المرجع السابق، ص.653.
(5)- الموسوعة العسكرية: مرجع سابق، م3، ص450.

أما أسلحة هذه القوة فهي حديثة مقارنة مع الأسلحة التي كانت تمتلكها السلطنات والممالك المحلية، الأمر الذي جعل قوات هذه الكيانات السياسية لا تصمد أمام جيوش "رابح"، وقد استطاع "رابحا" بسياسته الحكيمة زيادة عدد الجنود العاملين ضمن قواته عندما عرض على المساجين إطلاق سراحهم ومنحهم الحرية مقابل الإنضمام إلى جيوشه، لذلك فمنذ تسعينات القرن التاسع عشر كان المجاهد المصلح قد تمكن من بناء قوة عسكرية تضم ثمانية آلاف مقاتل بالإضافة إلى الأسلحة النارية والمدافع(1)، أما التدريب فقد أولاه المصلح أهمية قصوى،ويقوم بتدريب هذه القوات ممرنين اشتهروا بالقدرة والكفاءة ويتلقى الجندي في جيش "رابح" تدريبات شاقة، وتتكون القوات من الفرسان والرماة يشرف عليهم ضباط يتقلدون رتبا عسكرية، ويتولى قيادة هذه الجيوش الأمير نفسه، أو يوكل المهمة إلى أحد أبنائه أو أتباعه المخلصين أثناء وقوع المعارك.

اختيار الراية:

لم يهمل "رابح" هذا التقليد وتمسك به منذ مبايعته أميرا، أما رايته فلم تتغير إلا عام 1307هـ/1890م فقبل هذا التاريخ كانت رايته هي راية "الزبير باشا رحمة" التي تتميز بتعدد ألوانها، أما بعد هذا التاريخ فقد رفع راية مستوحاة من راية المهدي وهي تتشكل من لونين "أحمر وأسود"(2) ومكتوب عليها "لا إله إلا الله محمد رسول الله، محمد أحمد المهدي خليفة رسول الله"(3).

إنجازاته في الدعوة و الإصلاح:

رغم المساعي التي كانت تواجه المنطقة عامة وشخص الداعية بصورة خاصة، وذلك نتيجة الصراعات والحروب بينه وبين السكان المحليين والقبائل المختلفة من جهة، وبينه وبين الاستعمار من جهة اخرى.، فضلا على قصر مدة حكمه الا أنه نجح في اقامة بعض التنظيمات والاصلاحات وحتى وان لم تقم بدورها كما يجب و لم تؤد الى تغيير جوهري ملحوظ او نهضة كبيرة،وقد كان له الفضل الكبير والشرف في نشر الاسلام وجر قبائل وثنية كبيرة مثل قبائل السارا كابا "SARACABA" والبندة "BANDA" والكيلاي "KILAY" وغيرها، الى اعتناق الاسلام والتأثر بالمسلمين في حياتهم، كما يرجع له الفضل في القضاء على الكثير من الصراعات الدموية، التي كانت قائمة في المنطقة بين القبائل المتعددة، إذ تمكن من إصلاح ذات البين بينها ولاسيما بين قبيلتي بني مسعد والسلامات اللتين كان العداء مستحكما بينهما، إذ قام باستدعاء زعماء القبيلتين وأعيانهما وأنصار كل منهما إلى العاصمة ديكوة وتم الصلح بين الجميع،حيث أقسموا اليمين على العيش في وئام وسلام،وتم ذلك عام 1312هـ/1894م، كما تمكن من صهر القبائل المتصارعة في السودان الأوسط في دولة واحدة، تطبق فيها أحكام الشريعة الإسلامية وذلك منذ السنة المذكورة سابقا، وما زال ذكر الداعية "رابح" يثير الفخر في وسط إفريقيا وخاصة بين مسلمي بلاد تشاد(4).

---

(1)- دائرة المعارف الاسلامية، م10، ص18.
(2)- د. نعوم شقير: المصدر السابق، ص617.
(3)- محجوب زيادة: الإسلام في السودان، دار المعارف، مصر 1960م، ص109.
(4)- مصطفى مؤمن: المرجع السابق، ص57.

ورغم المصاعب التي كانت تواجهها المنطقة عامة وشخص الداعية بصورة خاصة، وذلك نتيجة الصراعات والحروب بينه وبين السكان المحليين والقبائل المختلفة من جهة، وبينه وبين الإستعمار من جهة أخرى وقصر مدة حكمه،إلا أنه استطاع أن يقيم بعض التنظيمات والإصلاحات حتى وإن لم تقم بدورها كما يجب، ولم تؤدّ إلى نهضة كبيرة،فقد كان له الفضل الكبير والشرف في نشر الإسلام وجر قبائل وثنية كثيرة كالساراكابا والبندة الكبلاي وغيرها، إلى إعتناق الإسلام والتأثر بحياة المسلمين في حياتهم.

ويمكننا أن نستنتج من خلال هذه التنظيمات القدرات التي يتمتع بها"رابح"في بناء الدولة ومدى اهتمامه وسهره على إقامتها على أسس متينة حتى يضمن بقاءها واستمراريتها،كما تظهر الكفاءة التنظيمية التي يتمتع بها من خلال المؤسسات الإدارية الإستشارية التي وضعها والقوانين التي استنبطها من الشريعة الإسلامية وطبقها في مجتمعه تدل دلالة واضحة على تمسكه العميق بالدين الإسلامي وإدراكه أن الإسلام دين عمل ومساواة يكفل للرعية الحماية ويوفر الانضباط والعيش للجميع في سلام، ولقد وصف"الأمير رابح"بالإستبداد والشدة وعدم تقبله النقد، ولئن كان قد وصف بهذه الأوصاف والنعوت في بداية الأمر فقد يكون هذا صحيحا، لأن الرجل نشأ نشأة عسكرية تميزت بالقسوة، أو ربما المرحلة تتطلب ذلك الأسلوب من الصرامة والدقة في تطبيق الأوامر وتنفيذها، لكن بمجرد أن دانت له البلاد تخلى عن هذا النمط من السياسة وأنشأ المجالس التي منحها الديمقراطية الكاملة والحرية التامة، وابتعد عن التدخل في تسييرها وهذا ما يبعد الشبهات عنه.

لذلك يمكن القول أن"رابح بن فضل الله "جاء لإنقاذ المجتمع في وقت كانت المنطقة في أمس الحاجة إليه في ظرف حفت فيه الأخطار بالبلاد من كل جانب، فالمجتمع كان غارقا في بحار الرذيلة لإختفاء المبادئ والمثل العليا حتى صار العدل يساوم ويباع كالسلع، والرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع، علاوة على تقدم الإستعمار الأوروبي نحو المنطقة.

بعد أن استعرضنا الأوضاع في السودان الأوسط بوجه عام والحركات الإصلاحية بوجه خاص ولاسيما الحركة التي قام بها المصلح رابح بن فضل الله، لتصحيح عقيدة الناس في البلاد اتضح لنا أن الدين الإسلامي قديم وعريق في تلك الأصقاع من القارة.

إذ يعود تاريخ ظهور الدين الجديد في السودان الأوسط إلى زمن بعيد، إذ وصلت الطلائع الأولى للمسلمين إلى ضواحي "كوار" تشاد حاليا، وذلك منذ النصف الأول من القرن الأول الهجري،السابع الميلادي، وبالضبط إلى سنة 46هـ/666م، وكانت المنطقة وبالأخص ضواحي بحيرة تشاد ملتقى طرق القوافل التجارية العابرة للصحراء من المغرب العربي باتجاه الجنوب والعكس، ومن غرب إفريقيا إلى شرقها لأداء فريضة الحج والعودة منه، علاوة على الهجرات العربية المتلاحقة نحو البحيرة وزيادة على ذلك الجهود التي بذلها العلماء والدعاة، وكان لهذا كله الأثر الكبير في نشر الإسلام بالسودان الأوسط وماجاوره إذ

ظهرت بالمنطقة ممالك إسلامية قديمة، لعبت دورا كبيرا في نشر الإسلام بالمناطق المحيطة،ورغم الإنتشار الواسع للإسلام فقد بقي الكثير من القبائل على الوثنية وبعضها يدين بالإحيائية،لذلك كثيرا ما تخلى المسلمون عن دينهم وانساقوا وراء هذه الشعوب التي لا تدين بالإسلام، وفي كثير من الحالات أخلط المسلمون بين طقوس الوثنية والإحيائية، هذا فضلا عن إمتزاج عادات السحر والشعوذة بالتعاليم الإسلامية الصحيحة، فانحطت بذلك الأخلاق وانتشرت الفاحشة، والرذيلة في أوساط المجتمع وحاد المسلمون عن جادة الإسلام. كل هذا أدى إلى ظهور بعض العلماء والدعاة والمصلحين الذين بذلوا كل ما في وسعهم لإصلاح المجتمع ونفض الغبار عن حقائق الإسلام ورد الغزاة الطامعين، فكان وقوف الشيخ "محمد الأمين الكانمي" سابقا في وجه الأخطار والتحديات الداخلية المتمثلة في الإنشقاقات والأسقام الاجتماعية، فتمكن من القضاء على الكثير من البدع والخرافات والزيغ الذي أصاب الناس في عقيدتهم، كما تصدى للعدوان الخارجي، المتمثل في جيرانه من قبائل الفلاني فأوقفه، لكن سرعان ما ظهرت المفاسد والعلل من جديد وعجز الحكام من إصلاح أحوال البلد وسكانه، فضربت الفوضى أطنابها إلى أن برز مصلح جريء جديد على مسرح السودان الأوسط قادم من خارج بلاد التشاد هو "رابح بن فضل الله."[1]

لما وصل هذا الداعية المصلح إلى بلاد تشاد وجدها في وضع يرثى له، ضعف سياسي وتدهور اقتصادي واجتماعي، وانحلال أخلاقي وصراع قبلي وخروج عن الدين وضعف السلطة الحاكمة نتيجة الإنشقاقات، يضاف إليها تحرش المستعمرين الأوروبيين الدخلاء على القارة.

خاض "رابح" منذ دخوله البلاد سلسلة من المعارك على مختلف الجبهات، فقد أجرى حروبا طاحنة مع حكام الإمارات ومع القبائل الموالية لها، واستطاع إخضاع الكثير منها لسلطانه، غير أن أهم عمل قام به الرجل هو إصلاح أحوال المجتمع التشادي وتنقية عقيدته من الشوائب التي علقت بها، وأحيا فيه الغيرة على ماضيه وإعادته إلى الإسلام وتعاليمه الصحيحة وحقق نتائج جد معتبرة،إذ أقبل الناس على حفظ القرآن والاهتمام بالعلوم الإسلامية واللغة العربية، وإنشاء دولة لها انظمتها ومؤسساتها وتقاليدها في الحكم والإدارة.

كما تمكن "رابح" من الوقوف في وجه الإستعمار الأوروبي الغاشم الذي زحف على القارة وأعطاه درسا في البطولة والشجاعة، كما تصدى لحركات التنصير بمختلف مذاهبها، فكان مثالا يقتدي به كل مصلح ومجاهد ومناضل من أجل الإصلاح والدفاع عن الحرية وكرامة الوطن، وبفضل هذه الحركات الإصلاحية الإسلامية ونشاط العلماء والدعاة، وميل الشعب التشادي إلى الإسلام ترسخت العقيدة واللغة العربية والثقافة الإسلامية، فلم يرض هذا الجمهور التخلي عن الدين واللغة،واستمر يكافح من أجل جعلها لغة رسمية للدولة الحديثة رغم مناوءة الفئة المسيحية المتنفذة في السلطة،وبفضل هذا النشاط والإقبال على الإسلام فإن نسبة المسلمين في البلاد تبلغ حوالي 85 %[1].

(1)- د. عبد الرحمن عمر الماحي: الدعوة الاسلامية في افريقية الواقع والمستقبل، مرجع سابق، ص79.

خاتمة الفصل:

بعد معالجتنا لحركتي الشيخ "محمدو لامين" في السودان الغربي وبالتحديد في منطقة سنغمبيا، "ورابح ابن فضل الله "المعروف "برابح الزبير" بالسودان الأوسط بلاد تشاد حاليا وبالتحديد حول بحيرتها بالذات اتضح لنا ما يأتي:

أن المصلحين تأثرا تأثيرا بالغا بالأوضاع التي كان يعيشها المجتمع الذي عاش فيه كل واحد منهما، فقد لاحظ "محمدو لامين" منذ صباه ما وصله مجتمعه في "سنغمبيا" من تدهور على أكثر من صعيد، فقد تفشت الأمية بين الناس وقل المتعلمون، ولاسيما خارج المراكز الحضارية، فعم الجهل وانتشر الدجل وانحطت الأخلاق، ووجد المشعوذون والسحرة الطريق لنفث أفكارهم المضللة بين أفراد الشعب وشجعوا على انتشار الخرافة والبدع وسلوك طريق الرذيلة.

كما لاحظ "رابح بن فضل الله" الجهل والتخلف اللذين حلا في أوساط المجتمع السوداني وبالأخص في منطقة سنار التي ولد فيها، وما حمله هذا الثنائي المدمر من أفكار مسمومة انتشرت كالنار في الهشيم بين أفراد المجتمع السوداني المسلم، وأدت إلى الإبتعاد به عن تعاليم الإسلام الخالية من أي أثر للتفكير الخرافي الساذج، وبداية ظهور وإحياء المعتقدات الوثنية التي كان قد سبق أن شن عليها المهدي حربا عوانا.

هذه الظروف نبهت كلا من المصلحين إلى خطورتها لاسيما وأنهما تلقيا تعليما دينيا صحيحا منذ صغرهما، وتشرب كل منهما التعاليم الإسلامية الصافية كما وردت في الكتاب والسنة النبوية، وهذا ما زاد في شعورهما وإدراكهما لبعد الناس عن تعاليم الإسلام النقية كما وردت على يد الرسول "ص" والصحابة والسلف الصالح، الأمر الذي حز في نفسيهما وشعرا بالمسؤولية، ولعل هذا ما دفع بهما إلى خوض غمار الإصلاح وتغيير حال المسلمين الفاسدة.

المعاناة التي عاشها كل واحد منهما في مرحلة الصبا والشباب قبل نضج وتبلور شخصيتهما فقد قاسى "محمدو لامين" الأمرين في شبابه رغم يسر حاله، فقد تنقل كثيرا في سبيل تحصيل العلوم والمعارف وجمعها، والتي زادت في تعميق شعوره بالمسؤولية، وبعد أن ارتسمت أمامه معالم الطريق وقع في أسر قوات "أحمدو شيخو" الذي حال بينه وبين ممارسة نشاطه الدعوي والإصلاحي إذ عانى مرارة الأسر مدة ليست بالقصيرة.

بينما كانت معاناة "رابح الزبير" منذ صباه مما كان يلاحظه من انحطاط وفرقة بين القبائل والعشائر رغم عدم بعد الحركة المهدية التي وحدت السودان، ثم زادت معاناته عندما بلغ مصر وانخراطه في جيش الخديوي، ثم تسريحه من الجيش واعفاءه من الخدمة وعودته إلى السودان للعمل تحت راية "الزبير باشا رحمة"

عمل كل من الرجلين في مجال الإصلاح والجهاد،وأظهر كل منهما كفاءة عالية ومقدرة كبيرة وإذا ما بدا الأمر طبيعيا بالنسبة "لرابح بن فضل الله" باعتباره عسكريا محترفا، فالأمر ليس كذلك بالنسبة "لمحمدو" الذي كان بعيدا عن المجال العسكري، غير أن حب الوطن والغيرة علي مقدساته أكسبت الأول ميلا إلى الدعوة فنجح فيها، إلى جانب نجاحه العسكري،ومنحت الثاني قوة في الدعوة إلى جانب ميل إلى القوة العسكرية فأجاد فيها،وحدث التكامل في الجانبين.

تمكن كل من "محمدو لامين" و"رابح بن فضل الله" رغم أنهما لم يكونا من خريجي المدارس الحربية الحديثة،إلا أنهما أثبتا جدارتهما في هذا الميدان، إذ وقف كل منهما ندا عنيدا للضباط الأوروبيين المتخرجين من كبريات الكليات العسكرية، وأثبتا في كثير من المواقع أنهما أحسن خبرة ومهارة وأشد قدرة وكفاءة وأكثر شجاعة وإقدام منهم.

من خلال الحركة التي قام بها "رابح بن فضل الله" تبين أن رابطة الإسلام أكثر من أي رابطة أخرى تربط الشعوب الإفريقية، "فرابح" رغم أنه من خارج حدود السودان الأوسط، إلا أن غيرته على الإسلام والمسلمين دفعته إلى خوض غمار الدعوة والإصلاح والجهاد في المنطقة، وقيادة سكانها وامتثال السكان لدعوته والسير خلفه ضاربين بالعصبية القبلية والوطنية الضيقة عرض الحائط،وتكررت بذلك تجربة "محمد الأمين الكانمي" من قبل.

إن الثقة المتبادلة بين المصلحين وقواتهما من جهة ووقوف الجماهير إلى جانبهما صفا من جهة ثانية، جعل من الصعب بل من المستحيل على أي ضابط أوروبي بمفرده رغم ما معه من قوات مسلحة الدخول في معارك ضد القوات الوطنية،إذ معظم المعارك التي وقعت كانت القوة الأجنبية يقودها أكثر من ضابط.

ـ رغم الإمكانات المحدودة إن لم نقل المنعدمة التي انطلق بها كل من "رابح بن فضل" و"محمدو لامين" إلا أنهما استطاعا وكل في حدود بلده من محاولة إنشاء دولة إسلامية في وقت ضيق وفي ظروف جد صعبة غير انها وفقت للوقوف في وجه قوات الدول الإستعمارية الكبرى ولو لردح من الزمن،تكافح الفساد الداخلي والغزو الإستعماري وهذا ما زاد من قيمة الحركتين وتسجيل إسمهما في التاريخ الإفريقي الإسلامي المعاصر بأحرف من ذهب.

رغم فشل هاتين الحركتين الإصلاحيتين الإسلاميتين من تحقيق ما كانتا تصبوان إليه وهو منع الإستعمار من دخول بلديهما،إلا أنهما رسما طريقا للحركات التحريرية الوطنية الإفريقية التي جاءت بعدهما واستلهمت من نظالاتهما ومقاومتهما للإستعمار، حتى تمكنت في النهاية من تحقيق النصر وافتكاك الاستقلال من براثن الغاصبين وتحرير الشعوب من نير الإستعمار الأوروبي الغاشم.

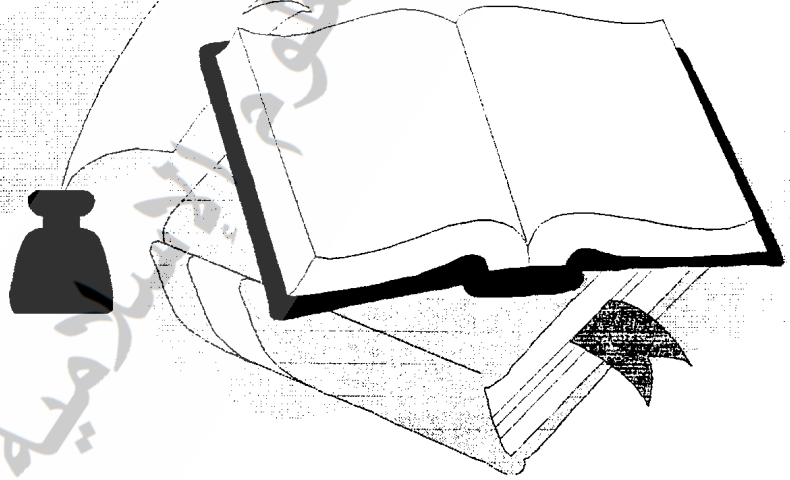
و بالرغم من أن المسلمين في هذه البلاد لم يصلوا بعد إلى مبتغاهم رغم أنهم يشكلون في معظم الأحايين الأغلبية الساحقة من المجتمع الإفريقي إلا أن المستقبل سيكون لهم بفضل الإقبال الدائم و المتزايد على هذا الدين، لاسيما بعد أن قام المسلمون في الآونة الأخيرة ببعض النشاطات و ما قام به الدعاة المسلمون خاصة من علماء الأزهر و بعض العلماء و الدعاة المسلمين بتشجيع من المملكة العربية السعودية فضلا عما قامت به منظمة المؤتمر الإسلامي من تشجيع خصوصا في مجالي الدعوة و التعليم، إذ أنها أشرفت على تأسيس عدد الكثير من المدارس و المعاهد و على رأسها جامعة الملك فيصل الإسلامية بمدينة نجامينا و تكثيف برامج اللغة العربية و العلوم الإسلامية في المدارس الأهلية الموازية للمدارس الحكومية في الجمهورية التشادية.

و بذلك زاد فهم المسلمين للإسلام و تعمق في هذا البلاد إضافة إلى نمو وعيهم و تبلوره فالتفوا حول الدعاة فزاد تمسكهم بدينهم أكثر و شكّلوا الجمعيات و النوادي و زادوا في بناء المساجد و المدارس القرآنية التي يقصدها الصبية دون سن الدراسة القانونية و بذلك يمكن أن نؤكد أن المستقبل في هذه البلاد للإسلام.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل التاسع :

حركتا الشيخين ساموري توري و محمد بن عبد الله حسن و جهادهما ضد الغزو الاستعماري و الحفاظ على الإسلام



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية



SAMORY.

رأينا في الفصل الثامن حركتين إصلاحيتين في مطلع القرن الرابع عشر الهجري، نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وقد أحدثتا يقظة عامة في السودان الغربي والسودان الأوسط، وشملت كل مظاهر الحياة في المنطقة السياسية والاقتصادية الاجتماعية والثقافية، وقد جاءت هذه اليقظة العامة نتيجة شعور السكان الموزعين في السودانين الغربي والأوسط بسوء الأحوال وإحساسهم بالفساد الذي آل إليه حال البلاد والعباد وذلك لابتعادهم عن الإسلام الذي كان يحفظهم ويجمع شملهم ويوحدهم في كيانات سياسية تسهر على تنظيمهم وحمايتهم من العدوان الخارجي والغزو الأجنبي، ورغم النهاية المؤلمة لحياتين الحركتين بالنسبة للمسلمين إلا أن ذلك لم يقف حائلا دون ظهور حركات إسلامية أخرى في جنوب الصحراء.

أما هذا الفصل فيتناول حركتين إصلاحيتين إسلاميتين حديثتين في إفريقيا، الأولى في غرب القارة والثانية بشرقها، وتزعم الحركة الأولى سامورى توري "Samory Toure" والثانية تزعمها محمد بن عبد الله حسن والحركتان تهدفان إلى إصلاح أحوال المجتمع الإفريقي المتدهورة على مختلف الأصعدة.

وسأتطرق في الجزء الأول من الفصل إلى الحركة التي قام بها الزعيم سامورى في غرب القارة وأسلط الأضواء على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي كانت تعيشها المنطقة في العصر الحديث، بعد فترة تعمقت فيها بالازدهار والرقي وشهدت ظهور ممالك وإمبراطوريات واسعة كانت قائمة على مبادئ الإسلام، غير أن هذه الأوضاع لم تستمر طويلا إذ سقطت هذه الممالك وتدهور حال الناس فتخلى المسلمون عن دينهم الصحيح من جهة وظهور الغزو الاستعماري من جهة أخرى، الأمر الذي أدى إلى بروز حركة إصلاحية إسلامية جديدة في هذه المنطقة.

وقد حاولت من خلال هذا البحث إماطة اللثام عن بعض جوانبها وتتبع مراحلها المختلفة ..

أما الجزء الثاني من الفصل، فسأتعرض فيه إلى الحركة الثانية التي ظهرت في منطقة جلد هلالة وحسلسة ودخلها الإسلام مبكرا وطبع أهلها بثقافته التي استمرت تنمو وتزدهر يوما بعد يوم نتيجة لقربها من بلابيع الإسلام ومراكز حضارته، تلك هي بلاد الصومال التي تتربع على منطقة القرن الإفريقي.. وتحاول العصر الحديث سلادت المنطقة ظروف أخرى، وحفت بها الأخطار من كل جانب، من قبل القوى الأجنبية المتعددة فظهرت حركة إصلاحية إسلامية تهدف إلى إخراج المنطقة وسكانها من الحال الذي آلوا إليه، لاسيما وأن الحركة تغشيها الدين وأحاط بها

ضباب أضفى عليها غموضا كبيرا،سأحاول في هدا البحث إزاحة ما أحاط بها من غموض وضبابية ومحاولات التشويه التي أرادت النيل منها، وأبين دوافع ظهور هده الحركة والتعريف بصاحبها وجهاده ضد التخلف والانحطاط والاستعمار الأجنبي الدخيل، وإنشاء الدولة الإسلامية.

أ – حركة الشيخ ساموري توري Samory Touré

يعد ساموري توري من بين الزعماء والدعاة ورجال الإصلاح والسياسة الأفارقة، الذين رفعوا راية الجهاد ضد التخلف والوثنية من جهة، والاستعمار الأوروبي الحديث للقارة الإفريقية ولاسيما الفرنسي منه من جهة أخرى. وإذا كان الأفارقة المعاصرون يعتبرون ساموري توري من المناضلين والزعماء الأبطال العاملين الذين كرسوا حياتهم ووهبوا أنفسهم حتى الرمق الاخير من حياتهم من أجل تحرير إفريقيا وتطهيرها من الأجنبي الدخيل[1]، فإن المستعمرين الفرنسيين قد وصفوه بالتسلط والظلم والتعطش لسفك الدماء.

حياته:

ولد الشيخ ساموري توري بوادي الباولي في منطقة "بيساندوجون(*)" "B issondgou" في الجنوب الشرقي من "كنكان" "Kankan" في أعالي حوض "ميلو"milou في اقصى جنوب غرب" غينيا الحالية"،وينتمي إلى قبائل الديولا"Diyola" المسلمة. أما أمه فتنتمي إلى قبائل المزارعين المحليين[2].

وقد اختلفت الروايات في تاريخ مولده،والراجح أنها كانت فيما بين سنتي 1246هـ/1830م-1251هـ/1835م[3]، وكغيره من شباب عصره التحق بمراكز التعليم الأولي فتلقى منذ صباه مبادئ القراءة والكتابة وألم ببعض معارف العلوم الإسلامية على يد والده "لافيا توري" "La fia Touré " الذي كان قد جمع بين التعليم وحرفتي التجارة والرعي[4]، ثم أكمل دراسته على يد بعض شيوخ بلدته الذين اشتهروا بالعلم، وفي خلال هذه الفترة من حياته لم تسمح له ظروفه الاقتصادية بالتفرغ للدراسة والعلم، فراح يزاوج بينهما وبين النشاط التجاري،حيث كان يقوم بنقل البضائع بين الأسواق،وقد وصف أثناء مزاولته التجارة أنه كان يتدفق حيوية ونشاطا وإخلاصا في معاملاته[5]، وفي أثناء ذلك قام برحلات وسياحات عديدة في منطقة غرب إفريقيا وكان لهذه الرحلات الأثر العميق في تكوين شخصية الشاب "ساموري" إذ

---

(1)- الموسوعة السياسية،مرجع سابق الجزء3، ص.99.

(*)- أنظر الشكل رقم 18. ص348.

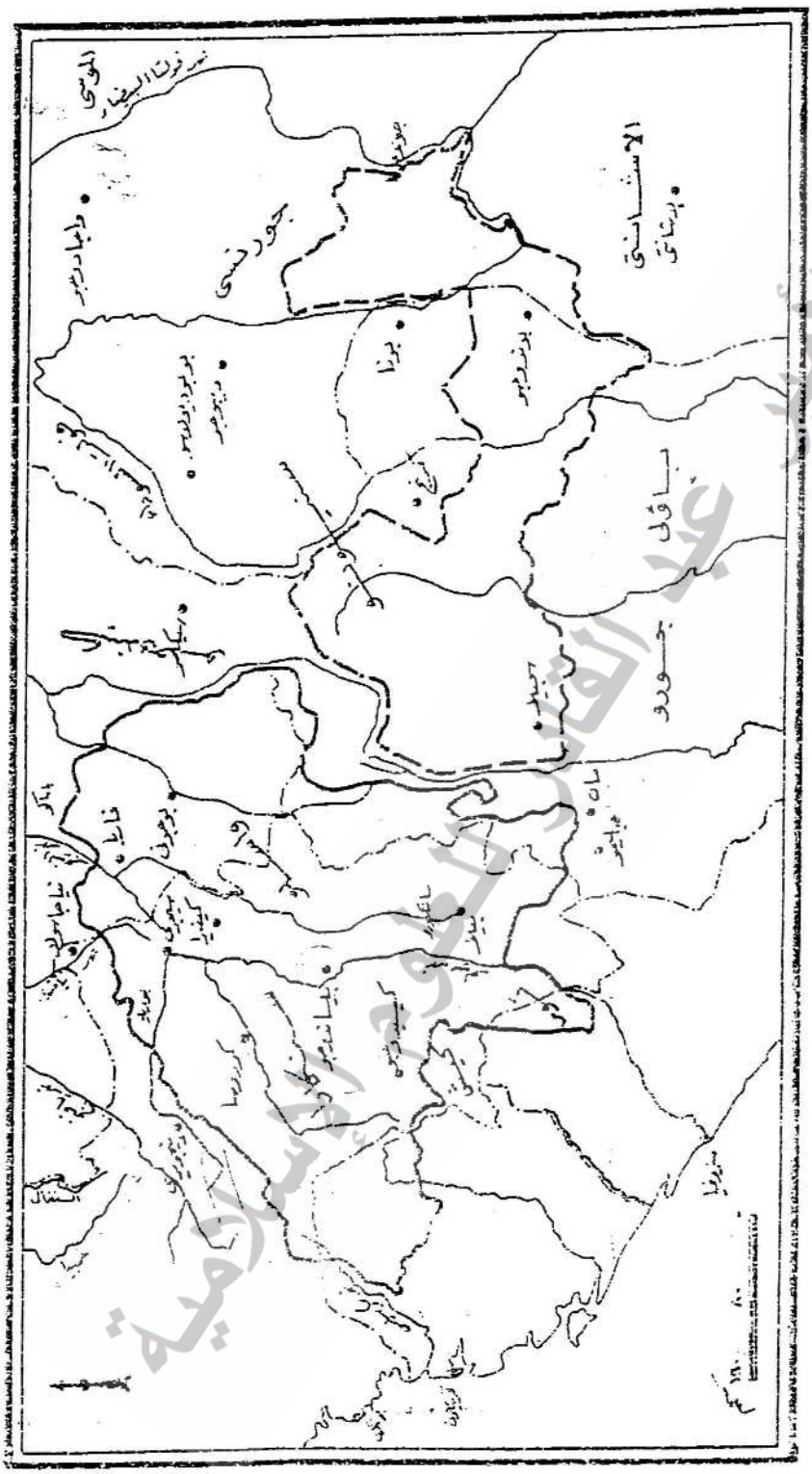
(2)- د. أمين أسير: المرجع السابق، ص.25.

(3)-د. عبد الله حشيمة:في أفريقيا السوداء .المطبعة الكاثوليكية. بيروت،لبنان.1962 .ص.157

(4)- د. أمين أسير: المرجع السابق، ص.25.

(5) George H, Op-Cit, P201.

الشكل (18)



مناطق نفوذ ساموري توري زعيم قبائل الماندينجو

عن د/ إلهام محمد علي ذهني، ص 235

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لم تكن هذه الرحلات بالنسبة له مجرد زيارات سياحية للنزهة والاستجمام والمتعة،بقدر ما كانت فرصة للكسب والإطلاع والدراسة والبحث والإحتكاك عن كثب بالعلماء والدعاة وشيوخ الزوايا التي كانت تعج بها منطقة غرب إفريقيا.

تأثر "ساموري" بالدعوات الإصلاحية التي عرفتها المنطقة، فزادت في حماسته وفي صقل مواهبه ونمو أفكاره وتبلو شخصيته، التي زادتها المحن صقلا وصلابة وتمرينا على مواجهة الشدائد والصعاب ، وصبرا على تحمل المشاق والأتعاب وكيفية المعالجة و التصدي لها منذ شبابه، فنشأ بذلك صلبا عنيدا،وبينما كان غائبا في إحدى رحلاته التجارية بعد موت والده، اختطفت أمه من قبل مجموعة من المقاتلين التابعين "لصوري إبراهيم" "SORY ibrahim"،وهذا الأخير كان شيخا لإحدى الزوايا في المنطقة،وزعيم من الزعماء الأفارقة في "سوزيرام" "Suzeram"(*) بإقليم "سنانكورو" "Sanankoro" قرب "واسولو"(**) "Ouassoulou"[1] ولما بلغه الخبر أحس المترجم له بألم شديد وشعر بمسؤولية ثقيلة،خصوصا وأنه عرف بالصلاح والتقوى وطاعة الأهل والبر بالوالدين وصلة الرحم.

عاد فورا من هذه الرحلة،وقصد رأسا معسكر "إبراهيم صوري"، يحاول إنقاذ والدته من الأسر، فلم يتمكن بوسائله الخاصة،فراح يترجاه أن يقبله أسيرا بدل أمه فلم يفلح في ذلك، وقوبل طلبه بالرفض في البداية، وبعد تكرار المحاولة والمساعي أعطاه "إبراهيم صوري" بصيص أمل في تحرير أمه من الأسر إذا قبل ساموري بالدخول في خدمة جيشه ويشتغل لحسابه في الحروب.

ويبدو من خلال هذا العرض أن الشاب كان يتمتع بصفات قلما توجد في غيره، إذ لاحظ عليه صوري قوة الشخصية وصلابة الإرادة، لذلك قدم له هذا العرض الذي بين فيما بعد أنه لم يكن مخطئ في تقديره واختياره.

قبل "ساموري توري" الدخول في خدمة قوات صوري على مضض، وبقي فيها مدة من الزمن[2] ورغم اختلاف المراجع في المدة التي قضاها الشاب في خدمة هذا الجيش إلا أنها تبغت عن السبع سنين،برز خلالها كجندي شجاع ومقاتل بارع سرعان ما ترقى إلى رتبة قائد متميز بالانضباط والبراعة في النزال وحسن إدارة المعارك الضارية، فأدخل بذلك الرعب في قلوب خصومه[3].

---

(1) Gosset (P.et.r) :Op-Cit. P296.

(*)- تذكر المراجع إسم هذا الزعيم بأسماء مختلفة "سيزيا" أو "سزيه" كما تذكره باسم إبراهيمة صوري.

(**)- أنظر الشكل رقم 18. ص348.

(2) Gosset (P.et.r): Ibid, P296.

(3) George.H: Op-Cit. P201.

وبالرغم من الامتعاض وعدم الرضى الذي كان يشعر به "ساموري" في الخدمة العسكرية لحساب غيره، إلا أن هذه الخدمة أكسبت الرجل خبرات ومهارات بالفنون العسكرية المختلفة ورسم الخطط الحربية للمعارك: وممارسة الأساليب القتالية، علاوة على إطلاعه على الشؤون التنظيمية والسياسية، حتى أصبح على دراية ومعرفة دقيقة بها، فتعلم الإنضباط والصرامة في المواقف الحاسمة. (1)

وكانت هذه المعاناة الأليمة عاملا مساعداً "لساموري" في مستقبل عمره، إذ تمكن من إدارة شؤون دولته ومعالجة مشاكلها وخصوصا فيما يتعلق بجيوشها فيما بعد باحكام فائق، وفي خضم هذه الأحداث الحافلة بالمحن القاسية والمآسي المحزنة نضجت مواهب الداعية المصلح ورأى بأم عينه ما بلغته الأمة من تخلف وما علق بالإسلام من بدع وخرافات، وما يعانيه المسلمون من إنحطاط كما أدرك ببعد نظره وثاقب فكره ما يحيط بالمنطقة من أهوال وما يحدق بسكانها من أخطار، ولاسيما أن الإستعمار بمختلف جنسياته ومذاهبه الدينية قد بدأ يمد ذراعيه ونفوذه يتوغل في القارة الإفريقية، وخصوصا الإستعمار الفرنسي الذي بدا وجوده واضحا في غرب القارة، ولم يكن ببعيد عن "ساموري" ما روج له هؤلاء بحقهم في إفريقيا وما جاء في كتاباتهم عنها، فقد راح مونتسكيو 1689م/1755م المفكر الفرنسي في كتابه "روح القوانين" داعيا لاستعباد الإنسان الإفريقي حيث قال(2) ***"إن لنا حقا مكتسبا في اتخاذ الزنوج عبيدا..... إن شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين لم يعد أمامها إلا أن تستعبد شعوب إفريقيا لكي تستخدمها في استغلال هذه الأقطار الفسيحة، فما هذه الشعوب الا عناصر سوداء البشرة من قمة الرأس حتى اخمص القدمين ولا يمكن أن نتصور أن الله جلت قدرته وهو ذو الحكمة السابغة قد يضع روحا طيبة في مثل هذا الجنس الحالك السواد"***.

يظهر من هذا القول الصريح والمليء بالعنصرية ونظرة الإحتقار للشعوب الإفريقية وحق الأوروبي في استعبادها، كما تبرز الروح العدائية وسياسة الإبادة القذرة التي مارسها الأوروبي في العالم الجديد ويحاول إعادتها في القارة السمراء".(2) من هنا أدرك الزعماء الأفارقة وخاصة المسلمون حقيقة الإستعمار وابعاده واستعدوا لمواجهته، فراح "ساموري" يجمع السكان حوله محاولا نشر الوعي الديني بينهم ومن خلاله غرس الروح الوطنية في نفوسهم، وما كان ليخفى على رجل مثله ما للتعليم والثقافة من دور في جمع الشعوب وتوحيد كلمتها فقام بالدعوة للاسلام والتصدي للغزاة الطامعين، فاجتمع حوله المسلمون والمالدكيون الوثنيون وطفق في تأسيس دولة إسلامية كبيرة(3).

والحق أن "ساموري" قد شرع في تهيئة الأرضية، فوضع اللبنة التي تعد النواة الأولى لهذه الدولة الفتية التي سينشئها مستقبلا، مباشرة بعد مغادرته جيش إبراهيم صوري، يحمل معه أمه إلى مسقط رأسه بعد أن حررها من الأسر، وهناك دخل في خدمة ملك "توريغنو" "TOURINGOU" وقاد جيشه وحقق انتصارات

---

(1) George.H: Op-Cit. P201.

(2)- محمد محمود الصياد: صور إفريقية. سلسلة اقرأ العدد 177، دار المعارف ، القاهرة 1957م. ص 11 .ود. السويدي (من سياسات التفرقة و التمييز العنصري في افريقيا) المجاهد الاسبوعي، العدد 684 ، الجزائر 25 شعبان 1393هـ – 1973/09/23، ص32

(3)- جماعة من الأساتذة: موسوعة السياسة. ج3. مرجع سابق، ص99.

باهرة نالت إعجاب وتقدير ورضى الملك واعتراف الجيش بقدرات القائد الجديد،وحينما اطمأن "ساموري" إلى ثقة الجيش وتعلقه بشخصه تمرد وأعلن الثورة على الملك، وأبعده عن العرش وتولى مكانه(1).

ومن خلال هذه الحادثة التاريخية يمكننا القول أن "ساموري" كان يتمتع بثقة مواطنيه وتأييدهم المسلمين منهم والوثنيين، وقد تمكن من كسبهم إلى صفه بسهولة ويسر، في ظرف قصير،مما سهل عليه الاطاحةبالملك وإبعاده عن العرش دون إراقة للدماء وحدوث إنشقاقات في صفوف الجماهير الشعبية، كما يوضح لنا أن دعوة الرجل كانت تتماشى وتطلع هذه الجماهير وميولاتها بغض النظر عن عقيدتها، وهذا ما يزيد في حيوية الحركة ويثبت عدم تعصب قائدها، والواقع أن المجتمع المالينكي في ذلك الوقت كانت تسوده الوثنية و لم يكن هناك من معتنقي دين التوحيد إلا قلة قليلة من المسلمين، وكان معظمهم من التجار الديولا "Diola" وبالتدريج قوى نفوذهم وزادت شوكتهم لاسيما خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين، الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، حينما زادت ثرواتهم ونشطت تجارتهم بسبب اتصال الأوروبيين بقارة إفريقيا.

ومنذ أواخر الربع الثاني من القرن الثالث عشر الهجري، منتصف الربع الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، شهد المجتمع المالينكي هجومات متكررة من قبل جيرانه لاسيما من بعض الزعامات التي كانت تدعوا إلى الإسلام، سواء منها قادة الحركات الإسلامية أو شيوخ بعض الطرق الصوفية، حينها وقف المالنكيون عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم وصد الغارات الخارجية عنهم، حتى ظهر "ساموري" الذي استطاع أن يلم شمل هذه القبائل والشعوب ويجمعها تحت راية واحدة وذلك بفضل النشاط الذي كان يقوم به على رأس الجيش من جهة،والدعوة التي كان يقوم بها في أوساط الجماهير من جهة أخرى، ونتيجة لهذا زاد إقبال الناس عليه وبدا أنه يعد لأمر عظيم،ولما اطمأن على استواء الدعوة وتعمق جذورها بين المسلمين واعتناق بعض الوثنيين الإسلام،اغتنم الزعيم هذه الأوضاع وأطلق على نفسه لقبا دينيا "المامي" أي الإمام بلغة أهل البلاد(2). ثم أقدم على ما كان يخطط له منذ مغادرته خدمة جيش إبراهيم صوري.

إعلان تأسيس الدولة و تنظيم الجيش

تقبل السكان إعلان الزعيم حمل لقب "المامي" دون ردود فعل سلبية،ولما لاحظ عدم معارضة السكان لهذا الإجراء أقدم على إعلان قيام الدولة التي ضمت جميع الشعوب والقبائل التي تتوزع في المنطقة، وعمل على نشر الإسلام ومبادئه بالوسائل السلمية، ابتغاء كسب ود الناس واطمئنانهم إليه فوجدت هذه

---

(1)- د. عبد الله حشيمة: المرجع السابق، ص.59.

(2)- جماعة من الأساتذة: الموسوعة السياسية، ج3، مرجع سابق، ص.99.

الوسيلة طريقها إلى نفوسهم، فازدادوا تكتلا واتحادا،فتوسع نطاق الحركة وبالتالي اتساع حدود الدولة التي ضمت كل قبائل ماندنجو في المنطقة الواقعة في أعالي نهر النيجر ومنابعه في المنطقة التي تضم اليوم الدول الإفريقية التالية:" غينيا، شاطئ الذهب(*)، وسيراليون وفولتا العليا(**) وليبيريا". وابتداء من سنة 1289هـ/1872م/ استقرت له الأوضاع نهائيا،ودانت له كل القبائل وأبدته في مساعيه فاستقامت أحواله وفي ظل هذا الهدوء والسيكنة شرع في تجسيد طموحاته التي ظل يثابر من أجلها وتحقيق أهدافه في الواقع العملي، وأقدم على اتخاذ مدينة "بساندغو" "BISSANDOGOU"حاضرة لدولته الجديدة، ومركز الإنطلاق جهاده وتوسعاته مستقبلا، ولما سيطر على الوضع عقد اتفاقا للتبادل التجاري مع تجار الساحل و"مور" "MORE" الصحراء، وتحصل على الأسلحة والخيول والملح فزاد قوة(1).

وفي العام الموالي أي سنة 1290هـ/1873م، وجه كل نشاطه واهتمامه إلى الدعوة والإصلاح داخل البلاد، فازداد عدد المسلمين من جهة، وحسن إسلامهم من جهة أخرى، ثم نظم نفسه وتفرغ للجهاد في المناطق المجاورة،فاستسلمت لقواته المجاهدة مدينة "كاكان" وخضعت لسلطانه، ولما شعر بالأمان والخضوع التام لهذه المدينة، مد بصره متطلعا إلى مدينة باماكو، وجهات النيجر الشمالية،ونتيجة لتوسع الماندنغو وسيطرتهم على هذا النطاق الجغرافي الكبير، توسطت دولتهم ممالك ودول مثل "ليبيريا وسيراليون(2) ومملكة كيندوغو "KINDOGOU"والتكرور" وتميزت علاقات "ساموري" بجارتيه الأخيرتين بالعداء والشحناء الشديدين، في الوقت الذي تميزت العلاقات مع دول الجنوب بالصفاء والود،وتوجت بتوثيق روابط صداقة متينة،لاسيما مع التجار البريطانيين في كل من سراليون وليبيريا والسنغال،حيث نشطت التجارة وبلغت مستوى رفيعا من التبادل. الأمر الذي سمح بالنشاط الإصلاحي داخل المناطق التي تمت له السيطرة عليها.وعلى هذا يقول أحد المؤرخين الأفارقة:"لقد نعم الله عليه بعونه، منذ أخذ في زيارة الوثنيين عبادة الأصنام،وكان يزورهم بقصد دعوتهم إلى اتباع دين الله "الدين الإسلامي" والإدعان لحكومته لكنهم أبوا الخضوع له ففرض عليهم الجزية كما أمر القرآن، ولكنهم ظلوا في صممهم وضللهم فجمع الإمام للجهاد قوة فأعانه الله ونصره(3).

(*)- شاطئ الذهب: وهي جمهورية غانا اليوم وصلها البرتغاليون سنة 1470م وتحولت إلى مستعمرة بريطانية سنة 1873م، نالت استقلالها سنة 1957م، العاصمة "آكرا" أكثر من 12 % منهم مسلمين. انظر د. احمد بن محمد : اطلس البلدان، دار الشهاب، باتنة، الجزائر 1985، ص149.

(**)- فولتا العليا: بوركينا فاسو حاليا، كانت مستعمرة فرنسية حصلت على استقلالها عام 1960م، عاصمتها واغادوغو يمثل المسلمون بها حوالي 40 %. انظر د. احمد بن محمد مرجع سابق، ص61.

(1) Gosset (P.ET. r): Op-Cit, P299

(2)- د. عبد الرحمان عمر الماحي: الدعوة الإسلامية في إفريقيا، الواقع والمستقبل، مرجع سابق، ص.167.

(3)- نعيم قداح: المرجع السابق، ص.164.

وبذلك استطاع "ساموري" في ظل هذا السلام أن يزيد في توسيع قاعدته ونشر الإسلام بين القبائل كما يظهر لنا من هذا القول أن الدعوة كانت بين القبائل جارية عن طريق الدعوة السلمية أولا، ولما رفضوها طالب منهم دفع الجزية للحفاظ مقابل ذلك على ما كانوا عليه، وهنا يتضح لنا تمسك "ساموري" بحرفية الشريعة في هذا الباب على الأقل، وهذه أيضا تبعد عنه الشبهات التي ألصقها به الإستعمار.

وقد استغل "ساموري" تأمين جانبه في الجنوب من توجيه أنظاره إلى الشمال والإحتراز من خصومه على الحدود الشرقية، حيث مملكة "كانيدوغو" "KANIDOGOU"ومن الغرب والشمال الغربي مملكة "التكرور"، وفي عام 1291هـ/1874م وبعد إعلانه الخروج إلى الجهاد في سبيل الله أخذ له لقب "فاما" "FAMA" أي الملك وبعد شروعه في أمر الجهاد كثف من نشاطه الدعوي الذي لقي إقبالا واسعا هذه المرة من القبائل المختلفة،وبذلك شملت رقعة مملكته معظم مرابع تلك القبائل، بما فيها "الماندينجو" الذين أسلموا ولن يعودوا إلى وثنيتهم،وذلك لأن كل أبنائهم دخلوا المدارس وشرعوا في حفظ القرآن الكريم وبدأوا يلمون بأطراف الدين والتربية الإسلامية التي وجدت طريقها إلى نفوسهم(1).

ويمكننا أن نستنتج من هذه الشهادة السابقة أن الداعية كان قد أعد للأمر عدته وأنه في مستوى المهمة التي حملها على عاتقه كما لم تكن غايته الوصول إلى عرش المملكة فقط، بل كان هدفه وطموحه أبعد من ذلك بكثير، لذلك استعد للمهمة وهيأ لها الوسيلة،فإلى جانب جهاده بالسيف كان يقيم المدارس ويعين فيها المعلمين ليضمن استمرار دعوته ويقضي على الجهل والأمية من جهة، ويكون دعاة ومسلمين عارفين حدود الشريعة ومقاصدها من جهة ثانية،فقصد ابناء البلد هذه المدارس التي أنشأها الداعية كبارا وصغارا،وبذلك بدأ تبدد ظلام الجهل، وانقشعت غيوم الأمية فأنير الطريق واتضحت معالمه أمام الأمة(2).

إنشاء الجيش و تنظيمه

بعد أن تمت للداعية الملك السيطرة على مناطق واسعة من البلاد تطلب الأمر إعداد قوة تحرص على حماية حدودها والحفاظ على الأمن واستتبابه،وهذا لضمان السير الحسن لهذه الدولة الفتية،فأقبل على تكوين جيش كبير سهر على تدريبه والعناية به وتسليحه،وكان يظم فرقا عديدة ومنظمة تنظيما حسنا(3).

وتتكون كل فرقة من هذه الفرق من جنود محترفين،معظمهم من قبائل المندنجو ومن أسرى الحرب الذين يبدون استعدادا خالصا في العمل ضمن قواته، وعلى رأس كل عشرة جنود قائدا(4). يقود هم

---

(1)-د. عبد الله حشيمة: المرجع السابق، ص59.

(2)-د. نعيم قداح: المرجع السابق، ص165.

(3)- عبد الله حشيمة: المرجع السابق، ص59.

(4) Gosset (P.et. r): Op-Cit, PP 301-302.

هذا فضلا عن الميليشيات التي تأتيه من القرى في حالة الحرب، وهي بمثابة قوات الإحتياط يلجأ إليها في وقت الحاجة فيجدها مستعدة، كما أنشأ فرقا عسكرية تتشكل من الأسرى الصغار حيث يهتمون بتربيتهم وتعليمهم بمدارس تابعة للدولة، وينشئهم تنشئة عسكرية خاصة فيكبر هؤلاء على حبهم للدولة وولائهم وإخلاصهم لقائدها الأعلى وهذا يذكرنا بالجيش الإنكشاري في الدولة العثمانية ممثلة الخلافة الإسلامية(1).

وكان هذا الجيش مسلحا بالأسلحة النارية التي كان يحصل عليها من التجار الأوروبيين في الساحل من أمواله الخاصة ومقابل بيع العبيد(*)، كما أقام مصانع للأسلحة والذخيرة (2)، ولا تستغرب الأمر إذا كانت جيوش "ساموري" منظمة ومدربة تدريبا حسنا، فهذا لكونه جنديا محترفا من جهة وعلى اطلاع بما يدور حوله في العالم الخارجي من جهة ثانية.

وما تكوينه لهذه الفرق الأخيرة إلا دلالة واضحة على أنه كان على دراية بتنظيمات الجيش العثماني وعلى علم بما حققه من انتصارات لذلك راح يقلده، وحتى هذه الأثناء التي كان فيها المصلح الإفريقي منشغلا في تنظيم شؤون دولته الجديدة كان الإستعمار الفرنسي يزحف مقتربا من حدود أراضي "ساموري"، وأمام تطور مجريات الأحداث التاريخية التي تتطلب تغيير الإستراتيجية عمد إلى نقل عاصمة البلاد إلى "جبيليبه" "GUIBILIBA" جنوبا حتى يكون على مقربة من أحد مراكز الثروة التي تزخر بها المنطقة تلك هي مناجم "بوري" الغنية بإنتاج الذهب والتي سبق وأن استغلها الحاج عمر من قبل لشراء الأسلحة، وبعد أن استتب الأمر لساموري في مقر حاضرته الجديدة وجه اهتماماته ونشاطه نحو الجهة اليمنى لنهر النيجر، حيث تتوفر تلك الجهات على ثروات حيوانية ومنجمية كالخيول والملح وغيرها، وانقض على القرى وجند سكانها للعمل في خدمة جيوشه لذلك وصف الفرنسيون حركته بالفوضى والنهب(3).

إعلان الحرب على الفرنسيين

وبالرغم من محاولات الداعية المصلح تحاشي دخول معترك القتال قدر المستطاع لإدراكه أن موازين القوى في غير صالحه، إلا أن القوات الإستعمارية الفرنسية الغازية المتقدمة نحو حدود بلده أجبرته على ذلك، لأن الغزاة الأجانب قد رسموا خططهم منذ البداية لبسط سيطرتهم على هذه البلاد لذلك كانت

---

(1)- مجموعة من الأساتذة: موسوعة السياسية، ج3، مرجع سابق، ص. 378.

(*)- كان العبد يساوي 5 كلغ من البارود والحصان يساوي 10 من العبيد، لذلك استنفذ المنطقة القوة البشرية، أنظر Gosset (P.et.r) Op-Cit. P303

(2) Gosset (P.et.r) Op-Cit. P303

(3)- د. حسين مؤنس: أطلس التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ص378.

كل خطط "ساموري" التي تهدف إلى تلافي القتال محكوم عليها بالفشل مسبقا، إذ لا مناص من المواجهة العسكرية الحقيقية(1).

لم يكن الطريق أمام فرنسا مفتوحا وهي تتقدم نحو النيجر بل كان عليها مواجهة ساموري وفي نفس الوقت "أحمدو شيخو" الذي كان قد كون دولته في أعالي نهر النيجر وتوسع نحو منحناه شمالا(2).

والواقع أن الفرنسيين لم يكونوا يعرفون شيئا عن "ساموري"،و لم يسمعوا عنه من قبل، وذلك حتى حدود سنة 1296هـ/1878م، وذلك لانشغالهم "بالحاج عمر" و"أحمدو شيخو"، وغيرهما من الزعامات والقياداتالافريقية الباسلة الذين صمدوا في وجه الفرنسيين وغطرستهم أعواما طويلة(3)مجاهدين في سبيل إنقاذ أوطانهم من الغزو الاستعماري البغيض.

كان أول اتصال للمحتلين الفرنسيين بساموري عام 1298هـ/1881م، إذ وجدوا وسيلة الإتصال عندما أرسلوا إليه الضابط "كاماسا" "KAMASSA"(*) من مدينة "كيتا" "KITA"وطلبوا منه الإبتعاد عن مدينة "كينيارا" "KINIARA"وكانت هذه الأخيرة من أهم المراكز التجارية في المنطقة وخاصة في تجارة الذهب وملح الطعام والخيول،والتي استنجد حاكمها "باغوبا" "BAGOUBA"بالفرنسيين(4). غير أن حاكم كيتا الفرنسي رفض المغامرة بجيشه في أراضي مجهولة لديه، وحث "باغوبا"على الصمود في وجه ابن بلده "ساموري"، ثم أرسل إليه "الكاماسا"ثانية ليكون وسيطا لعقد صلح بين الطرفين، فرفض المصلح الإفريقي هذا المنطق الغريب الذي يتمثل في توسط الأجانب بين أبناء البلد، وبقيت قواته تحاصر حليف الخصوم الأجانب(5).

وفي هذه الأثناء عين "بوربي ديبور" "B-DESBORDES"في منصب القائد الأعلى لأعالي النهر وذلك في مطالع سنة 1298هـ/1882م، وجهز قوة لفك الحصار عن كنيارا "KINIARA" التي سقطت في يد "ساموري" في شهر فيفري 1300هـ/1882م وتصدت قواته بقيادة أخيه "فابو" "FABO"للفرنسيين وألحقت بهم هزيمة ساحقة في شهر مارس من نفس العام(6)، وكان هذا أول لقاء بين "ساموري" و"بوربي ديبور"(7) وواصل نشاطه العسكري. في العام الموالي 1300-1301هـ/1883م وهاجم الأراضي التي وقعت تحت النفوذ الفرنسي وحطم المنشآت التي أقاموها هناك ومنها الخط التليغرافي الذي مده الفرنسيون بين مدينتي "كيتا" و"باماكو" ومهاجمة القوات الفرنسية.

---

(1)- د. حسين مؤنس، اطلس التاريخ الاسلامي، المرجع السابق، ص.378.

(2) Hanotaux, G, Op-Cit, Tome1, P194-195.

(3) – مصطفى مؤمن: المرجع السابق، ص.391.

(*)- كاماسا: مسلم سوداني عمل في خدمة الجيوش الإستعمارية في منطقة السودان الغربي.

(4) Meniaud, G, Op-Cit, Tome1, P152.

(5) Hanotaux, G, Op-Cit, Tome1, P201.

(6) Hanotaux, G, Ibid, Tome1, P202.

(7) Gosset (p.et.r): Op-Cit, P305.

وحتى هذا الحد ما زالت المواجهات بين قوات الداعية المصلح والغزاة الأجانب مجرد مناوشات إذ أن "ساموري" لم يشرع بعد في إعلان الجهاد، ولذلك ذهب البعض إلى القول أن الدافع الديني لدى الرجل لم يكن في المستوى الذي بلغه الحاج عمر"، أما "جورج هاردي"(1) فيذهب إلى القول أن "ساموري" وبفضل احتكاكه ومعايشته لصوري إبراهيم" صار مسلما متحمسا للإسلام، ونشر رسالته وتصحيح مفاهيمه.

وهنا يمكن أن نقول: أن سبب هذا الخلاف مرده إلى أن "ساموري" قد جمع بين الكفاح الوطني والجهاد الديني، فقد جمعت قواته العناصر المسلمة إلى جانب العناصر الوثنية دون تمييز(2) وهذه النزعة الوطنية والروح الدينية التي زاوج بينهما المصلح هي التي أعطت له ولقواته النفس الطويل في المقاومة والجهاد رغم تعدد الجبهات، إذ لم يكن الفرنسيون هم الأعداء الوحيدين للرجل في الميدان، بل هناك من ناصبه العداء من بني وطنه، مثل حاكم كيندوغو "KINDOGOU" غرب باماكو، الذي تحالف مع الفرنسيين الذين زودوه بالأسلحة والمؤن وشجعوه على الوقوف في وجه "ساموري ومقاتلته"(3)، لذلك قرر المصلح الوطني القضاء على هؤلاء الحكام الوثنيين العملاء والإستعمار مهما كلفه ذلك من أمر(4).

ورغم المعارك التي كانت تدور بينه وبين أعدائه في مختلف الجهات، فإن "ساموري" ظل منكبا على تنظيم المجتمع الجديد يعلمه ويوجهه ويصلح شؤونه وفق مبادئ الشريعة الإسلامية.

خلف القائد كومب "Komb" زميله ديبور "B.Desbord" عام 1302هـ/1884م في قيادة المنطقة ومارس هذا الأخير سياسة عدائية لكل ما هو وطني وينتسب إلى الإسلام، فدخل بذلك في صراع أكثر دموية مع "ساموري" وجرت معارك عنيفة بين الطرفين، كانت فيها الحرب سجالا، غير أن الإنتصار الذي أحرزه الزعيم الوطني في قرية "نافاديا" "Navadie" ما زال ذكرا يفتخر به الأفارقة في غرب القارة(5). غير أن هذا الإنتصار أوقعه في حرج، حيث صارت قواته تتوسط بين القوات الفرنسية من جهة وقوات عدوه "تيبه" "TIBA" حاكم كيندوغو حليف الفرنسيين من جهة ثانية.

هذا الأمر دفعه إلى توثيق علاقاته بحكام سيراليون الذين زودوه بالأسلحة والذخيرة، وفي هذه الأثناء حل فراي "Ferey" في القيادة محل "كومب" "Komb"، وانشغل القائد الجديد بالقضاء على حركة "محمدو لامين" فاغتنم "ساموري" الفرصة ودعم سيطرته على المنطقة، وعهد إلى أخويه "مالين كاموري" "MALIN KAMORE" وفابو "FABO"، بحشد القوات وبناء الحصون على الضفة الشمالية لنهر الباخوي و منطقة نياجاسولا(*) "NIAGASSOULA"(6).

---

(1) George,H, Op-Cit, P201.

(2)-د. أمين أسير: المرجع السابق، ص.25.

(3) Gerneir, Op-Cit. Tome1, P.59.

(4)- نعيم قداح: المرجع السابق، ص.90.

(5) Hanotaux, G, Histoire Generale de lafrique noir, Tome 2,Op-Cit, p11.

(*)- أنظر الشكل رقم 18، ص348.

(6) George, H, Op-Cit, P201.

تصدى "فراي" "FREY" لهذا النشاط الوطني السريع غير أن الحظ لم يحالفه، فتكبد خسائر فادحة على يد "مالين كاموري"، ولظروف إستراتيجية انسحبت القوات الوطنية من المنطقة(1)، ورغم الإنتصارات التي حققها الداعية المصلح،فقد رأى ضرورة عقد صلح مع الفرنسيين وتم ذلك في سنة 1303هـ/16 أفريل 1886م، عرف باسم "كينيا باكورا" "KINIABAKORA"وتحددت بموجبه مناطق النفوذ، الضفة اليسرى لنهر النيجر للفرنسيين، واليمنى منه "لساموري"(2).

ولما تولى جالييني "GUALINI" القيادة عمد إلى استبدال هذه المعاهدة بمعاهدة "بساندجو" في سنة 1305هـ/25مارس 1887م، فقد على إثرها مناطق أخرى من بلاده، بيد أنه استطاع تأمين ظهر قواته ليتفرغ للقضاء على عدوه اللدود تيبا(*) حليف الفرنسيين، وحاصره في عاصمته سيكاسو "SICASSOU" التي استمر حصارها حوالي ستة أشهر، اضطر بعدها إلى إخلاء سبيلها بسبب تهديد الفرنسيين تجارته في سيراليون،وتحريض أتباعه على التمرد عليه والوقوف في وجهه ومحاولتهم خلعه(3).

ومن خلال هذه السياسة نلاحظ الغدر والخيانة الفرنسية وسياستها الرامية إلى خلق المزيد من الفرقة بين الزعامات الوطنية الافريقية حتى تتلافى اتحادها والوقوف في وجهها صفا، ولذلك تلجأ إلى عقد صلح مع هذا ومهادنة ذاك، حتى تمكنت في النهاية من إضعاف هذه القيادات باستنفاذ قواتها في محاربة بعضها البعض، ليتم لها في النهاية القضاء عليها جميعا.

والحق أن "ساموري" رغم التواجد الفرنسي، فقد كانت تربطه منذ سنة 1298هـ/1880م علاقات تجارية مع الإنجليز في سيراليون ،حاول استغلالها للإيقاع بين الفرنسيين والإنجليز لكن هذا الجهد تبدد نتيجة توقيع "ساموري" للمعاهدة السالفة الذكر مع الفرنسيين والتي حالت دون امتداد النفوذ الإنجليزي نحو الداخل، فراح هؤلاء الأخيرين يبذلون المساعي لعقد المعاهدات مع الزعيم الوطني لأن مصالحه بالمنطقة أضحت تحت رحمة فرنسا،واستمر "ساموري" في توثيق علاقاته بسيراليون لأنها بالنسبة له مصدرا رئيسا للتزود بالأسلحة التي اصبحت تصله باستمرار. الأمر الذي أقلق الفرنسيين،فأقدموا سنة 1310هـ/ مارس 1892م إلى رفع شكوى إلى الحكومة البريطانية تطالبها بمنع هذه التجارة.

وبتولي آرشينار Archinard صاحب النزعة الإستعمارية الجامحة القيادة،قرر وضع حد للحركات الوطنية بما فيها حركة "ساموري" الذي واصل جهوده في تسليح قواته وتدريبها على المعدات التي حصل عليها،وواصل هجوماته المتكررة على الأراضي التابعة للفرنسيين بمقتضى المعاهدات السالفة الذكر فأرسل إليهم مبعوثين،وتجددت الاتفاقيات،ولم تكن في صالح "ساموري" ولما أدرك ذلك عمد إلى محاولة عقد

---

(1) Hanotaux, G: Histoire Generale de lafrique noir, Tome 2, Op-Cit, p204.

(2) Hanotaux, G: Ibid, P 205.

(*)- تيبا: ملك كينيدوغو ويحكمها من عاصمته سيكاسو وهو وثني تحالف مع الفرنسيين هو وأخيه ضد مواطنيهما ساموري، أنظر: Gosset (p.et.r): Op-Cit p338

(3)- جماعة من الأستاذة: موسوعة السياسة، ج3، المرجع السابق، ص.100.

المعاهدات مع الإنجليز، لكن هؤلاء الأخيرين رفضوا ذلك اعترافا منهم بالمعاهدات التي وقعها مع الفرنسيين حول منطقة غرب إفريقيا(1).

ومن هنا يمكن أن نقف على ما كان يتمتع به"ساموري توري"من قدرات فإلى جانب كونه رجل دعوة إصلاحية تسعى لتنظيم وتهذيب المجتمع "المالنكي" وتسمو به إلى مصاف المجتمعات الحديثة وغرس القيم الإسلامية الصحيحة بين أبنائه المسلمين والوثنيين على حد سواء، فإنه كان على جانب كبير من القوة والخبرة العسكرية والمهارة في توجيه المجاهدين ورسم الخطط للمعارك الحربية، كما تميز أيضا بالحنكة السياسية والبراعة الديبلوماسية حينما سعى بدهائه للوقيعة بين السلطتين الفرنسية والإنجليزية، فراح يكسب مهادنة هذه وملاطفة الأخرى وكسب ود هذه وإثارة الثانية وهذا من خلال المعاهدات،وكاد هذا السلوك المرن أن يؤدي في كثير من الأحايين إلى المواجهة بين الفرنسيين والإنجليز،وهذا ما دفع"أرشينار"إلى التفكير في التخلص منه بأية وسيلة.

لذلك فليس من الغريب أن يطلق عليه الإستعماريون إسم"بونابرت"السودان(2)، لقد ركز"أرشينار" كل طاقاته من أجل نسف"ساموري"فوثق علاقاته مع "تيبا" وضمن وقوفه إلى جانبه عند شن الحرب على مواطنه "ساموري"، وراح يبعث البعثات للتعرف على المناطق ويرسل الرسائل إلى غريمه يدارية فيها ويترجى استقباله محاولا كسبه، غير أن الرجل لم ينخدع بالمظاهر البراقة مثل مواطنه تيبا وشقيقته "سين كيلي"SINKILI"(*)، لكن "أرشينار" استمر يطلب إرضاءه والإعتراف بنصوص المعاهدات المعقودة وتطبيقها، كما أعرب له عن نيته في حمايته، لكن "ساموري" لم يلب طلباته،وواصل غزو القرى ودعوة الناس إلى الوحدة لمواجهة الخطر الداهم، ورغم ما بذله القائد الفرنسي في إخفاء نواياه الإستعمارية الدنيئة، إلا أن "ساموري" لم يعد يثق في وعود النصارى مصداقا لقوله تعالى(3)" **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم**"

وبفضل كسب هذه الصداقات الوطنية العميلة من قبل الفرنسيين وإثارة اتباع"ساموي"ضده في الفترة السابقة لسنة 1306هـ/1888م، اعتقد الفرنسيون بهذه السياسة أن دولة المندنجو ستنهار وتقع بين أيديهم غير أن صاحبها قضى على الإنتفاضة وأخمد الفتنة فيما بين سنتي 1306هـ-1888م/ 1308هـ-

---

(1) Hanotaux, G: Histoire Generale de lafrique noir, Tome 2.Op-Cit. p206.

(2)- نعيم قداح، المرجع السابق، ص91.

(*)- سين كيلي: شقيقة تيبا، كانت تحكم ديولايوحو، وكان لديها جيش قوي استقبلت بعثة أرشينار بقيادة الدكتور كروزا "Croza" وأعربت عن استعدادها للتعاون مع الفرنسيين ضد ساموري. انظر د. الهام محمد علي ذهني، مرجع سابق، ص156.

(3)- سورة البقرة، الآية:120.

1890م، فتدعمت سلطته على جميع أجزاء المملكة، وفي نفس الوقت عدل عن سياسته المبنية على نوع من العنف اتجاه مواطنيه، ووجهها نحو المستعمرين الدخلاء.

كما حاول تأخير المواجهة والصدام معهم،حتى يتمكن من تنظيم جيشه وتحديث أسلحته لإعطاء الجهاد نفسا جديدا(1)، وإزاء تطور الأحداث واستمرار "ساموري" في درب الجهاد ومهاجمة المناطق التي تخضع للنفوذ الأجنبي وعملائه يبدأ "أرشينار" يستعد لمهاجمة خصمه، وفي ربيع سنة 1309هـ/1891م أعد حملة سارت بمحاذاة الضفة الشمالية من نهر النيجر، ثم عبرت النهر إلى ضفته اليمنى حيث تتمركز القوات الوطنية، وفي هذه الأثناء أعلنت الكثير من القرى التابعة "لساموري" خضوعها للأجانب خوفا من الإنتقام وتقدمت الحملة نحو نافاديا فوجدت أن "ساموي" قد أخلاها بعد أن خربها وأضرم فيها النيران.

دامت الحرب بين الطرفين من 1309هـ/1891م إلى 1316هـ/1898م، اتبع فيها "ساموي" سياسة الأرض المحروقة، وبذلك أفرغ مملكته القديمة منذ بداية 1312هـ/1894م، من محتواها البشري والإقتصادي واتجه صوب الأراضي الداخلية لساحل العاج "كوت ديفوار حاليا" وقد أدى توغل "ساموري" في أرض هذا البلد إلى مداهمة بعض القرى التابعة لبريطانيا(2).

وأثناء وجوده على أرض ساحل العاج راسل الحاكم الإنجليزي لساحل الذهب "غانا" يطلب منه إقامة علاقات صداقة وتعاون، لكن الإنجليز رفضوا ذلك خوفا منه من جهة، ولكونه في حرب مع الفرنسيين أصدقاء الإنجليز من جهة ثانية(3)، ورغم ذلك فإن "ساموري" لم يتوقف عن الجهاد والدعوة واستمر في الإستيلاء على المناطق رغم الصعوبات التي واجهته في هذه الحروب الأخيرة، غير أن وقوع مدينة "سيكاسو" سنة 1316هـ/1898م كان من العوامل التي مكنت فرنسا من تضييق الخناق عليه، ولكنه واصل الحرب ضد الفرنسيين الذين استمروا يتعقبونه بقيادة دي لارتيج "DELARTIGE" ولما رأى "ساموري" استحالة استمرار الحرب والمقاومة،طلب من القائد الفرنسي السماح له بالعودة إلى مسقط رأسه للإقامة فيه، فرفض "دي لارتيج" العرض إلا بشرطين: الأول تسليم أسلحته، والثاني تسليم أبنائه(4).

لم تفتر عزيمة الجهاد في نفس الداعية بالرغم مما أحاطه من أخطار، وبينما هو يستعد للإنقضاض على دولة ليبيريا واحتلالها، هاجمته كتيبة فرنسية بقيادة غورو "GOURAUD" في شهر سبتمبر 1316هـ/1898م وعلى إثر الهجوم وقع البطل بعد أن تفرق جمعه في أسر الفرنسيين صحبة ابنه وزوجته في "جيليمو" "GUELLEMOU" وتم نفيه إلى الغابون "GABON"

---

(1)- جماعة من الأساتذة: موسوعة السياسة، المرجع السابق، ص.100.

(2)- جماعة من الأساتذة. موسوعة السياسة، نفس المكان.

(3) Hanotaux, G: Histoire Generale de lafrique noir, Tome 4,Op-Cit, Pp 226-229 .

(4)-د.عبد الله حشيمة: المرجع السابق. ص60.

حيث توفي هناك في شهر فيفري من سنة 1318هـ/1900م[1] في ندجولي "N'djolé" في ظروف غامضة شأن غيره من الدعاة[2].

وهكذا تنتهي حياة المصلح المجاهد الإفريقي "ساموري" الذي دوخ الفرنسيين، وقد وصفه أحد الجنرالات المستعمرين بقوله:" **كان ساموري صانع رجال يتحلى بالجرأة والحمية والمنطق، وكان صاحب رؤيا، وفوق هذا كله كان يملك روح المثابرة، التي لم تعرف الكلل ولا التعب**"[3]

ولم يكن "ساموري" رجل إصلاح وحرب فقط، بل فقد كان سياسيا محنكا، ورجل دولة وإدارة على حد سواء، ويتجلى ذلك من خلال أعماله والتنظيمات التي وضعها لدولته، فقد استطاع رغم الصعاب والعقبات الداخلية والخارجية من إصلاح أحوال المجتمع وبناء دولة إسلامية على مساحة كبيرة من أديم إفريقيا الغربي، وقد أدرك بفضل ما كان يتمتع به من عقل وفطنة، وما أكسبه من خبرة منذ الشروع في بناء دولته مدى أهمية المواقع الجغرافية والاستراتيجية في الحروب، لذلك اختار لحصونه ولحاضرة دولته أماكن منيعة، كما لم يخف عليه ما للقوة الإقتصادية من أثر في إنشاء هذه الدول،لذلك فمنذ سنة 1299هـ/1881م نقل "ساموري" عاصمته من بيساندوجو إلى جبيليبة وذلك بغية الاستفادة من مناجم الذهب التي كان قد استغلها "الحاج عمر" من قبل، بالإضافة إلى قربها من مناجم الملح،علاوة على إتخاذها مركزا لنشاطه العسكري ضد القوى الأجنبية والخيانات المحلية التي تهدد الكيانات الإفريقية كلها، وليس دولة "ساموري" لوحدها، ومن خلال سير حركة الجهاد التي قام بها الرجل ومسار بناء دولته اتضح أن الدولة التي شيدها المصلح المالينكي قد مرت بأدوار متميزة عن بعضها البعض.

أدوار بناء الدولة و تنظيمها

مرت دولة المصلح المالنكي "ساموري توري" بأدوار متمايزة يمكن حصرها فيما يأتي:

أ-دور بناء الدولة

1-بداية ظهور الدولة 1289هـ، 1872م - 1302هـ 1884م

في هذه الفترة من بداية ظهور الدولة ونموها ركز "ساموري" خلالها على نشاطه الدعوي والإصلاحي، إذ كان يتصل بالناس عامتهم وخاصتهم من المسلمين والوثنيين على السواء،يحدثهم في أمور دينهم ودنياهم، ينشر بينهم الوعي وينبههم لما فيه الخير،بأسلوب مرن ومعاملة حسنة حتى اطمأن إليه عدد

---

(1)- حسين مؤنس: أطلس العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص.378.

(2)- جماعة من المختصين: الموسوعة العسكرية، ج3. مرجع سابق، ص664.

(3)- جماعة من الأساتذة: موسوعة السياسة، ج3. ص.100.

كبير من الناس، فتمكن من كسبهم إلى صفه فصاورا من أنصاره واتباع دعوته ومؤيديها، فاستطاع بذلك توسيع الرقعة الجغرافية للدولة، بسيطرته على مساحات شاسعة من الأراضي، وشرع في بناء مجتمع ودولة جديدين في تلك الأصقاع من منطقة إفريقيا الغربية جنوب الصحراء.

2- الدور الثاني : نمو الدولة 1302هـ، 1884 - 1306هـ، 1888م

تميز هذا الدور بتبلور ونضج دعوة الشيخ واستوائها وبروز معالمها وذيوع صيتها واتسامها بالصبغة الدينية رغم وجود الوثنيين، فزاد إقبال القبائل عليها واعتناقها،وسخروا ما يملكون لحمايتها،ولما شعر بقوة الدعوة ورسوخها في أذهان الناس واستقرارها في نفوسهم، أعلن عن رفع راية الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته ونشر الإسلام بين الوثنيين، والتفت إلى البدع والخرافات والأباطيل التي انتشرت بين المسلمين، ولاسيما حديثي العهد بالدين الجديد فقاومها، ولكن لم يتأتى له تطهير البلاد وتنقية العقول والأذهان من أدران السحر والشعوذة، إلا ببناء المساجد لإقامة شعائر الإسلام، وتأسيس المدارس والعناية بها، والحرص كل الحرص على تحفيظ القرآن الكريم لطلابها، فظهرت الدولة بنفس جديد.

3-الدور الثالث : ازدهار الدولة(*) 1306هـ، 1888م - 1316هـ، 1898م

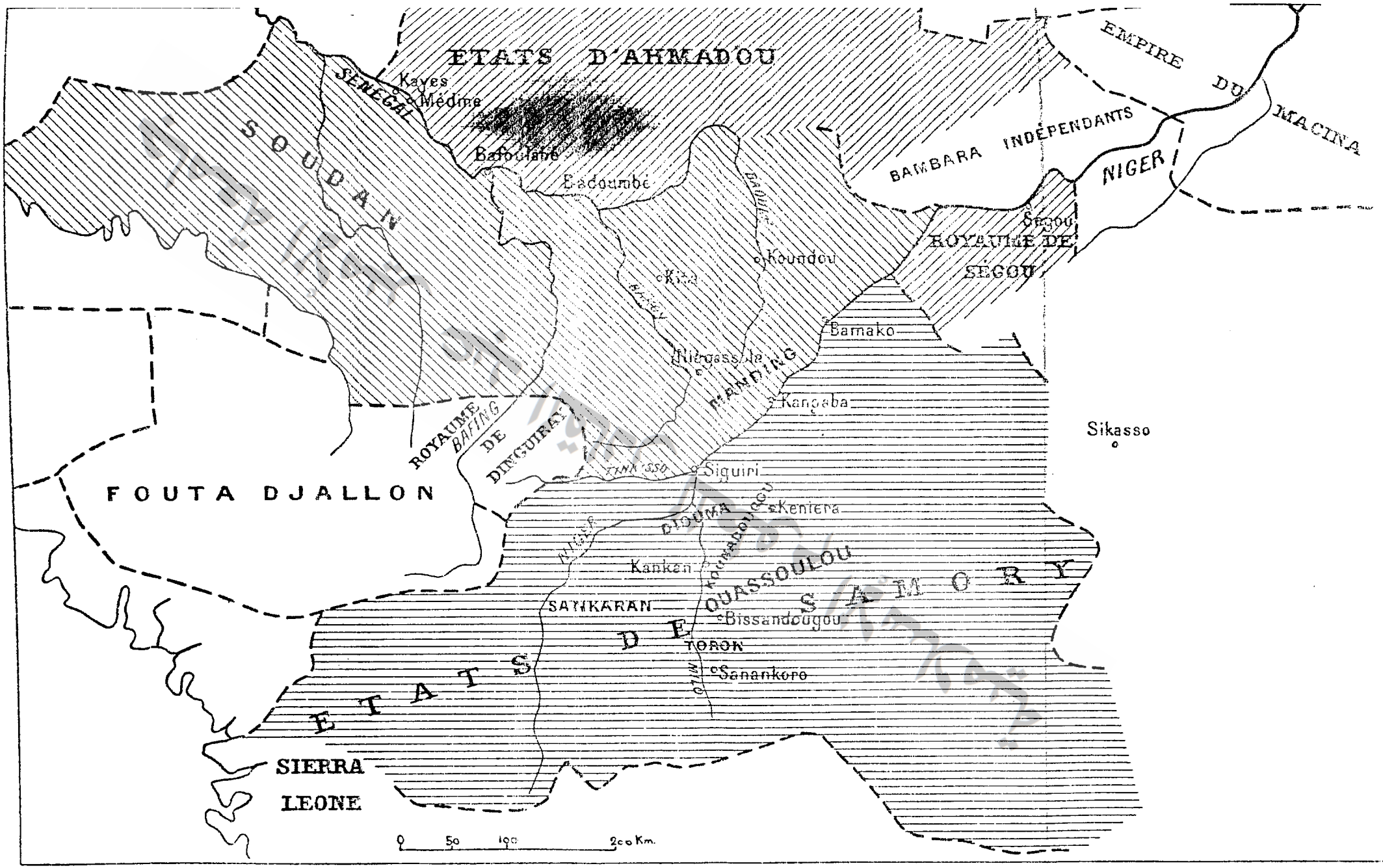
وفي هذه المرحلة الأخيرة اكتمل نضج الدولة، وحاقت بها الأخطار من كل جانب، وكثر أعداؤها ولاسيما الفرنسيين الغزاة الحاقدين وبان كيدهم لساموري والحركات الإسلامية والوطنية الأخرى، وتمثل للمسلمين قوله تعالى(1) "**ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا**"... وقوله تعالى(2) "**ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحق**"...

ومع زيادة حجم المشاكل وتعددها ،كانت نفس المصلح تزداد صلابة وتنجلي أمامه الحقائق التي كانت إلى وقت ما خافية أو لم تظهر على السطح بعد، لذلك فبمجرد أن اكتمل كيان الدولة تجلى الصراع الحقيقي في هذه الربوع الإفريقية بين القوى الوطنية الإسلامية والقوى الأوروبية المسيحية على مناطق النفوذ وإدخال هذه الشعوب في إحدى الثقافتين المتنازعيتين وبالأحرى الحضارتين المتصارعتين، المسلمون يريدون نشر الإسلام ومبادئه السمحة والقضاء على الوثنية والإعتقاد في السحر والشعوذة وبناء مجتمعات تقوم نظمها على العدل والحرية والمساواة بين الناس كافة، والغربيون يريدون خلق كيانات متميزة خاضعة لسلطانهم لإستغلالها في مختلف المجالات الإقتصادية والعسكرية.

(*)- انظر الشكل رقم 19، ص369.

(1)- سورة البقرة: الآية 226.

(2)- سورة البقرة، الآية 109.



Croquis n° 8. — Le Soudan vers 1888.

ولعل ما يوضح حقيقة هذا الصراع الذي كان النصر فيه للأسلحة الحديثة التي حملتها القوات الإستعمارية إلى إفريقيا جنوب الصحراء على مدى أحقاب متعاقبة.

ورغم كل أسلحة الفتك والدمار إلا أن جذوة الجهاد لم تخمد،إذ كثف "ساموري" هجوماته العسكرية على القوات الفرنسية الإستعمارية، هذه الهجومات التي وصفها العسكريون والسياسيون على حد سواء بالعنيفة والخطيرة في آن واحد(1).

ب- تنظيمات دولة ساموري: شملت التنظيمات في دولة "ساموري" جميع المجالات

التنظيمات السياسية و الاقتصادية:

بنى ساموري دولته على إدارة مركزية قسمت إلى مائة وإثنين وستين إقليما، يضم كل إقليم عددا من القرى تختلف من حيث عدد السكان وكثافتهم، ومن حيث القوة والإتساع، وتحكم هذه الأقاليم عشر حكومات محلية يترأس كل واحدة منها أحد أقرباء الشيخ أو أحد الرجال المخلصين الموثوق بأمانته وتساعده شخصيتان الأولى عسكرية،والثانية مدنية،على أن يكون صاحب هذه الاخيرة متفقها في الدين(2).

وتضم هذه الأقاليم جملة من الحواضر ذات الأسواق الزاخرة بالبضائع والمنتوجات المختلفة،وكان لهذه الأسواق شهرة ذائعة الصيت في ربوع إفريقية الغربية مثل: سوق كمباي "Kambay" ونورا "Nora " وكوروسا "Koroussa"،وبفضل هذه الأسواق ربطت العلاقات التجارية مع دولة المندنجو بزعامة "ساموري" وبعض الدول الخارجية في كل من سيراليون"Siralion" وفوتاجلون "Foutajloun".

وعلاوة على الحواضر السالف ذكرها فقد اشتهرت مدينة "Sonanding" بتجارة الحبوب المختلفة كما اشتهرت كنكان بين مدن إفريقيا الغربية في هذه الحقبة من الزمن باعتبارها من أعظم مراكز تجارة المعادن الثمينة كالذهب والعاج، كما عرفت كنيبا "Keniba" بكونها رئيسة في تجارة الملح مع الفرنسيين خاصة كما برزت مدينة بيساندوجو بنسيجها الفاخر ومصانع اسلحتها الى جانب كورا "KORA"، التي بزت سابقتها في النسيج ونافستها في إنتاج الذهب والفضة والخيول والأرز أيضا.

التنظيمات المالية:

ان الدراسات والبحوث التي تعرضت لهذا الجانب تكاد تكون منعدمة أو على الأقل لم تصل إليها أيدينا، غير أننا نستنتج من خلال الدراسة أن "ساموري" منذ البداية كان سعيه إلى إقامة دولة تقوم على الشريعة الإسلامية ومن ثم فلا غرو أن تكون مصادر خزينة الدولة (بيت المال) مستمدة مما شرعه الدين كالعشور والخراج والجزية والغنائم وبعض الغرامات التي كانت تفرض على بعض القرى والركاز، خاصة وأن المصلح كان قد وضع يده على مناجم الذهب والملح، كما كان للدولة نشاط

---

(1) Hanotaux. G. Histoire de colonier Française de L'expansion dans le monde. Tome 4. Paris 1929. P204

(2)- جماعة من الأساتذة: موسوعة السياسة، ج3، مرجع سابق، ص.99.

تجاري واسع مع جيرانها في الجنوب، هذا بالإضافة إلى أن الملك كان قد سخّر كل ما يملكه من ثروة، وما كان يحصل عليه من هدايا وهبات، وما كان يبيعه من محاصيله الخاصة من أراضيه والحقول المزروعة في كل قرية،ويوجهها لبيت المال، زيادة على ما كان يحصل عليه عن طريق الإتجار بالأسرى، وهذه كلها تدخل ضمن المصادر المكونة لبيت مال الدولة.

التنظيمات التربوية و الدينية :

أوكل الشيخ مهمته لذوي الإختصاص من الشيوخ والعلماء والأئمة، فقد كان الإمام هو القائد والموجه يقوم بالإضطلاع بمهمة المؤسسات الدينية والإشراف على ترميم المساجد ومراقبة القائمين عليها وتوجيه نشاطها،علاوة على إنشاء المدارس وإرسال الأطفال إليها بانتظام، ومن فرط اهتمام الشيخ بهذا الجانب وحرصه الشديد على العلم والتعليم،فقد كان يشرف هو بنفسه على إعداد المناهج الدراسية المقررة ويحضر الدروس ليراقب كيفية تقديمها، كما أنه كان يتابع أبناءه شخصيا ويجري لهم الإختبارات مرتين كل أسبوع ليلاحظ مدى تقدمهم في رحاب العلم والوقوف على درجة الإستيعاب والتحصيل، كما أن الشيخ نفسه كان دائب السعي شديد الحماس لنشر الإسلام وبناء المساجد والمدارس والسهر على تنظيمها ونظافتها.

التنظيمات العسكرية :

باعتبار ساموري توري جنديا محترفا قديرا،وقائدا بارعا،فقد بنى الحصون واهتم بالجيش اهتماما بالغا، فقد كانت قواته تضم جنودا عاملين اختارهم من بين قبائل المندنجو، هذا فضلا عن قوات الإحتياط والقوات الخاصة، وكان زعيم كل قرية ملزم بتقديم عدد من المجندين لتعزيز القوة العامة و لم تكن فترة الخدمة محددة،لذلك يبقى المجندون في الصفوف إلى غاية حلول مجندين آخرين يشغلون محلهم.

أما في فترات السلم فإن قوات الإحتياط تعود إلى قراها لمزاولة نشاطها دون إنقطاع كلي،إذ كان عليهم المثول أمام زعيمهم المباشر مرتين في العام على الأقل ليقرر حسب احتياجات الجيش إما العودة للخدمة العسكرية ثانية، أو إخلاء سبيلهم والعودة إلى أهاليهم، وقسم ساموري قواته إلى ثلاث مجموعات لكل مجموعة وظيفة منوطة بها، فالمجموعة الأولى وهي التي تتوفر على البنادق النارية السريعة الطلقات، وكانت هذه الفرقة تتلقى تدريبا خاصا يساير المهمة الموكلة إليها، وكانت تتلقى تدريبا خاصا ومهمتها التصدي للقوات الإستعمارية ومحاربتها، أما المجموعة الثانية وهي بمثابة قوات الشرطة والدرك في الدول المعاصرة،ومهمتها حفظ الأمن وحراسة المواطنين وحمايتهم،والسهر على راحتهم وطمأنينتهم على مصالحهم وممتلكاتهم.

وأما المجموعة الثالثة والأخيرة فكانت مهمتها فتح البلدان وضم الأراضي الجديدة وتسجيلها،والقيام بأمر الدعوة وتبليغها، وإدخال القبائل في نطاق الدولة الإسلامية، والكل مجند في إطار الحرب الحديثة والمجابهة البدنية "الحروب بالسلاح الأبيض في العصر الحديث"،وهي الطريقة الوحيدة لمجابهة المدفعية الفرنسية(1).

أما أسلحة هذا الجيش فقد إقتنى بعضها من التجار وخاصة البريطانيين من السواحل وذلك منذ سنة 1297هـ/1879م، لاسيما من سيراليون وقد خصص مردود مناجم ذهب وانسولو"Wassulu" لشراء هذه الأسلحة ومعدات القتال(2).

ونظرا لأهمية الآلة القتالية بالنسبة لداعية مثل "ساموري" فإنه لم يكتف باستيراد السلاح والإعتماد على الأجانب في هذا الجناح الحساس، فلم يقف مكتوف الأيدي بل عمد إلى إنشاء مصانع صغيرة على شكل ورشات "محترفات" للصناعات العسكرية، ويشتغل فيها عمال أفارقة يقومون بإصلاح البنادق المعطوبة وصناعة البنادق السريعة الطلقات(3).

أما فيما يخص خططه العسكرية فقد كانت له إمكانات كبيرة على مستوى عال من الإستراتيجية معتمدة بالدرجة الأولى على قوة مخابراته التي تتميز بالسرية التامة والكتمان، فحين سئل يوما عن كيفية الحصول على معلوماته حول تحرك القوات الإستعمارية الفرنسية، أجاب قائلا(4):" **إنني أتناول طعامي منفردا**"، وهكذا يمكن القول أن "ساموري توري" قد جسد في الربع الثاني من القرن الرابع عشر الهجري، أواخر القرن التاسع عشر الميلادي الإتجاهات التي كانت تنمو وتتبلور منذ قرون في إفريقيا الغربية عامة وفي بلاد المندنجو المعادية للتقاليد القديمة البالية، بالقضاء على الخلافات والصراعات القبلية في ظل شريعة التوحيد عن طريق الدين الإسلامي وشريعته السمحة،وإعادة النهوض بالبلاد عن طريق البناء والتحديث والعمران خاصة، ووقف البطل الشجاع والمجاهد المقدام والداعية المصلح يقاوم الوثنية من جهة والإستعمار الأوروبي الغاشم الزاحف على القارة من جهة أخرى.

وقد استطاع بفضل ما أوتي من خبرة ومهارة عسكرية ودهاء وحنكة سياسية وإيمان عميق بقدسية عمله أن يلحق الهزائم المتكررة بأعدائه، غير أن إنعدام التكافؤ بين القوتين حال دون تحقيق نصر ساحق ونهائي، لذلك كانت دولة "ساموري" في أخريات أيامها عبارة عن دولة متحركة حيث اتخذ قرارا من التقدم الفرنسي متخليا عن بناء الحصون التي أصبحت لا طائل من ورائها أمام نيران وقذائف المدفعية الثقيلة، ولجأ إلى أراضي ساحل العاج "كوت دي فوار" وأقام دولته الثانية التي دمرها الفرنسيون بعد أن قبضوا عليه.

---

(1)-د. أمين أسير: المرجع السابق. ص.26.

(2)- د. أمين أسير. المرجع نفسه. ص.25.

(3)- جماعة من الأساتذة: موسوعة السياسة، مرجع سابق. ص.99.

(4)-د. أمين أسير: المرجع السابق. ص ص 25-26.

ولئن كانت هذه نهايته،فإن هذا المصلح كان عظيما حتى في نظر خصومه وأعدائه، فقد وصفه القائد الفرنسي "باراتييه" "Bartier" (1) "**إنه من الصعب** تدميره فقد كان استراتيجيا وسياسيا وقائدا يملك القوة والقدرة في وضع الخطط الحربية"، ولئن آل ساموري إلى هذه النهاية فإن العمل الإصلاحي الذي قام به والدعوة التي رفعها مازالت منقوشة في عقول وسارية في نفوس المسلمين عموما، والأفارقة بوجه خاص حتى وإن روجت الدعايات الأجنبية محاولة التشهير به، ووصفه بأبشع النعوت بكونه رجلا متسلطا ظالما يسفك الدماء ويلحق الخراب والدمار بالقرى والمدن التي يمر بها، كما أنه سلك سياسة الأرض المحروقة، وقد تناسى المستعمرون عامة والفرنسيون خاصة أعمالهم الدنيئة وسياسة الإبادة ونهبهم قرى وممتلكات الأفارقة وإذلالهم والشواهد على أعمالهم ما زالت ماثلة في جميع البلاد التي دخلوها.

لذلك فالأفارقة المسلمون وغير المسلمين وحتى الأعداء من المنصفين يعتبرون "ساموري" من أوائل القيادات النضالية الواعية والشجاعة التي انتفضت وأعلنت الجهاد من أجل تحرير القارة الإفريقية من براثن الجهل والتخلف ومحاولة إنقاذها من الإستعمار الأوروبي(2).

ب - حركة محمد بن عبد الله حسن في بلاد الصومال

- لمحة تاريخية عن بلاد الصومال

يرتبط تاريخ شرق إفريقيا عموما والصومال(*) بوجه خاص بغرب شبه الجزيرة العربية التي كانت مخزنا بشريا عظيما يفيض بالهجرات(3) وخاصة من اليمنيين والحضارمة، والتاريخ القديم لهذا البلد يكتنفه بعض الغموض، ويذكر أنه كان لقدماء المصريين صلات قوية ببلاد "بونت" (الصومال الحالي) (**) ويرجح العلماء أن تعمير القارة الإفريقية جاء عن طريق هجرات من آسيا عبر البحر الأحمر(4)

لذلك فالشعب الصومالي ينتمي إلى الحاميين الشرقيين لغويا وسلاليا(5)، حيث سكنته القبائل العربية واستقرت به، واستمر اتصال العرب بموطنهم الأصلي عن طريق التجارة خاصة، وزادت هذه

---

(1)- د. الهاشم محمد علي دهني: المرجع السابق ص 56

(2)- جماعة من الأساتذة: موسوعة السياسة، ص ص 99-100.

(*)- الصومال: كلمة تعني في اللغة الصومالية الرمح، وقيل تعني اذهب وأحلب البقر، أنظر هامش حسن محمد جوهر، الصومال دار المعارف، القاهرة 1965م، ص.12.

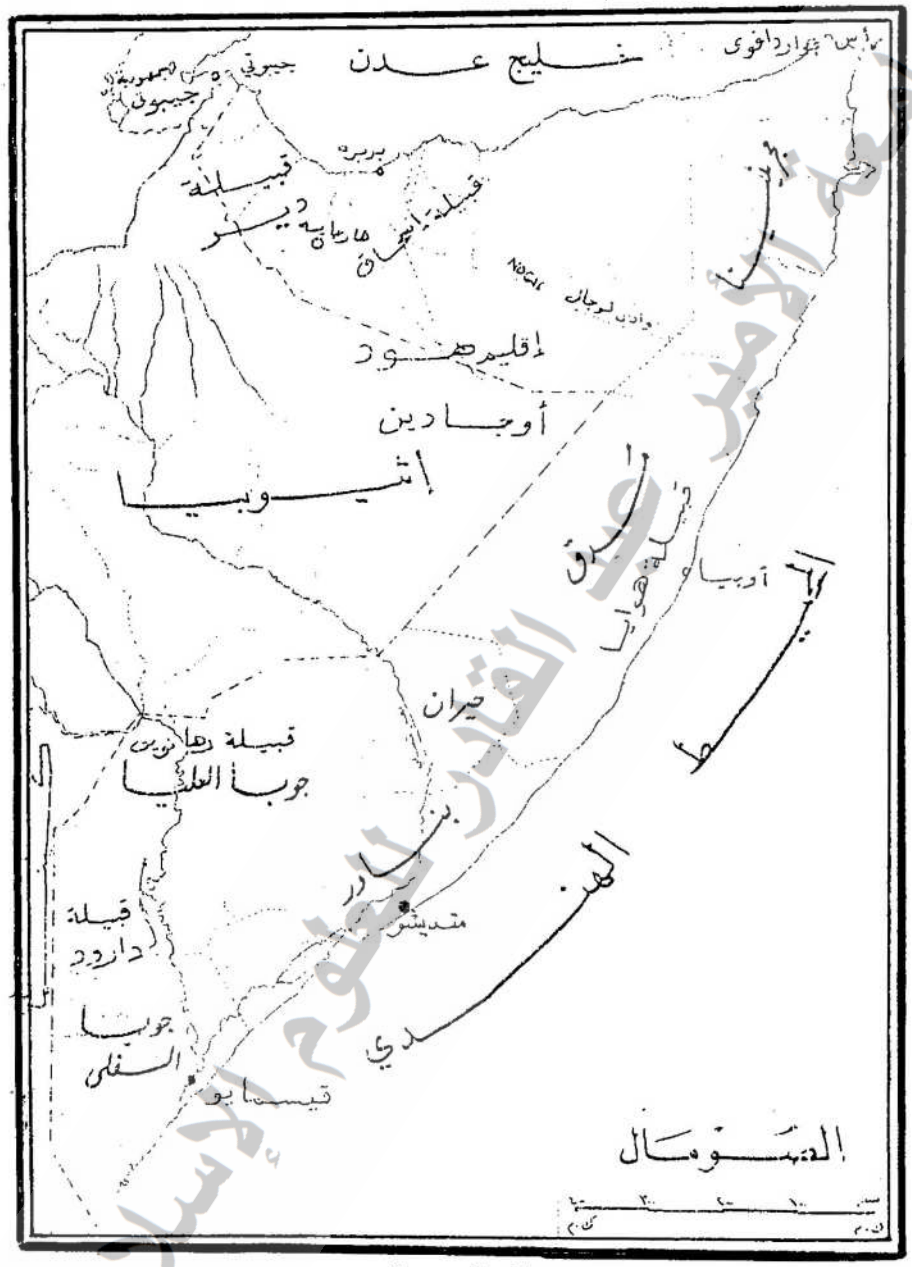
(3)- د. محمد عبد الله النقيرة: المرجع السابق، ص.22.

(**)- أنظر الشكل رقم 20، ص 367.

(4)- د. فليب رفلة بشارة: المرجع السابق، ص.344.

(5)- د. جودة حسنين جودة: المرجع السابق، ص.285.

الشكل (20)



بلاد الصومال

عن د/ جودة حسين جودة، جغرافية إفريقيا الإقليمية، ص 287

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الهجرات وتوثقت الصلات بعد ظهور الإسلام(1)، وبذلك يدخل الصومال عهدا جديدا من تاريخه،وتقول الروايات أن مدينة "مقديشو"(*) أسسها العرب(2).

دخل الإسلام الصومال منذ ظهوره على عهد الرسول "ص" وأصبح حقيقة ثابتة في القـــرن الأول الهجري، القرن السابع ومطلع القرن الثامن الميلاديين في عهد الخليفة العباسي "عبد الملك بن مـــــروان"(3) ويعتقد أن هجرات المسلمين الأوائل إلى الحبشة مرت عبره.

وبفضل الموقع الإستراتيجي لهذا البلد وظروفه أتيح للإسلام أن ينتشر بيسر وسهولة،فقد كان يحيط الصومال من الشمال الغربي بلاد الحبشة النصرانية(4)، ومن الغرب جالة الوثنية(**)، وكان على الصومال لبين الذين اعتنقوا الإسلام وأصبحوا دعاة،أن يحملوا لواء الدعوة إلى الدين الجديد(5).

وكان من الطبيعي في مثل هذا الموقع الجيو استراتيجي الحساس أن يترتب عنه التصـــــادم نتيجـــة الإحتكاك بين رجال الدعوة من الصوماليين المسلمين والأحباش النصارى، و لم يجد هؤلاء الفرصة مواتيـــة لمقاومة الإسلام، إذ لم تكن لهم حكومة مركزية قوية ومتحدة، فلم تتمكن من الوقوف أمام المد الإســلامي الذي كان يبشر بالعدالة والمساواة والحرية، كما كان يحمل طابع البساطة والسهولة،عكس ما كان يســود السلطنات الحبشية من ظلم وفساد.

هكذا كانت الظروف مواتية لانتشار الإسلام وظهور الإمارات الإسلامية(***) السبع (6)،التي حققت تقدما وازدهارا في مختلف المجالات. فكان لهذا أثره السيئ في نفوس حكام الحبشة، ونظروا إليه نظـــــرة خـــوف وإرتياب، وأعتبروا الحكام المسلمين في هذه الإمارات منافسين خطرين لهم، ومن هنا طفا على الســـــطح شكل من أشكال التوتر ترتب عنه صراع ومواجهات دموية بين الطرفين، وانحازت إلى كل فريـــق قـــوى خارجية تسانده،فكانت الدولة العثمانية إلى جانب الممالك الإسلامية وانضمت البرتغـــــال النصرانيـــة إلى جانب الحبشة.

---

(1) Basil Davidson: Traduit par Pierre Vidoud, Lafrique anciene, tome 2 Imprimerie F rancois maspero, paris 1978, pp15-17

(2)- عبده بدوي: مدن إفريقية، الدار القومية للطباعة والنشر، بدون تاريخ ص.120.

(3)- محمود بيومي:"الإسلام في الصومال"، مجلة الأمة، العدد 65، الدوحة قطر، السنة 6 جمادى الأولى 1406هـ/جانفي 1986م، ص21.

(*)- مقديشو: كلمة فارسية معناها مقر الملك، بناها العرب سنة 920م، أنظر عبده بدوي، المرجع السابق، ص ص117-120.

(4)- د. أحمد شلبي: المرجع السابق، م6، ص652.

(**)- الجلا: قبائل حامية عبرت خليج عدن وبوغاز باب المندب في العصور القديمة، استقروا في البداية بالصومال ثم اختلطوا بالزنوج مارســوا الرعي ثم الزراعة وأسسوا مملكة وثنية، أنظر: محمد عبد الله النقيرة، مرجع سابق، ص.37-38.

(5)- د. عنايات الطحاوي: (ماذا تعرف عن العالم الإسلامي)، مجلة منبر الإسلام، العدد10، القاهرة، السنة24، 1386هـ، ص.303.

(***)- الممالك الإسلامية السبع هي: وفات، دوارو، أراييني، هدية، شرخا، بالي، دارة، أنظر: محمد عبد الله النقيرة، المرجع السابق، ص180.

(6)- د. محمد عبد الله النقيرة، مرجع سابق، ص180.

كانت أهداف ونوايا البرتغال الصليبية ترتكز على محاربة الإسلام والقضاء على نفوذ المسلمين الذين بدأوا يتوسعون في الساحل الشرقي، ووقفوا في وجه نشاط البرتغاليين منذ وصولهم إلى شرق إفريقيا عام 4،905هـ/1499م.

وقد وقف سكان الحبشة إلى جانب المسلمين في طرد البرتغاليين الذين جاءوا إلى الصومال وحاولوا فرض الكاثوليكية على الأحباش، وفي ذات الوقت ظهر دعاة ومجاهدون عملوا على استمرارية المد الإسلامي إلى هذه البقاع،وتزعم الداعية أحمد بن إبراهيم الجراني الملقب "بالأشول" الذي حارب الظلم والفساد وقاد حركة الجهاد ضد الحكام المستهزئين بالدين الإسلامي والدخلاء الأجانب(1).

وفي القرن الحادي عشر الهجري،السابع عشر الميلادي استنجد الصوماليون بالعرب والعثمانيين وتحرروا من المستعمرين البرتغاليين الذين ما لبثوا أن عادوا(2)، فاستنجدوا ثانية بالسلطان "برغش" حاكم زنجبار الذي زحف بجيوشه عام 1288هـ/1871م ولكنه لم يتمكن من السيطرة على كامل البلاد.

والحق أن العثمانيين مدوا نفوذهم إلى مناطق البحر الأحمر وكانت لهم السيطرة على كل من ميناء "مصوع وسواكن"، غير أن نفوذهم على تلك المناطق كان إسميا.

ولما قامت أسرة محمد علي باشا بمصر مدت نفوذها إلى تلك الجهات وتمكنت من بسط نفوذها على المنطقة في عهد الخديوي إسماعيل، و لم تلق الجيوش المصرية مقاومة كبيرة من قبل السكان وذلك منذ (1292هـ/1875م) غير أن السيطرة المصرية لم تدم طويلا إذ سرعان ما وقعت مصر نفسها في يد القوى الإستعمارية الأجنبية ابتداء من سنة 1299هـ/1882م(3) والواقع أن الإهتمام انصب بشكل رهيب على المنطقة منذ فتح قناة السويس(4)، لذلك زاد التكالب الإستعماري، وسارعت إنجلترا لإحتلال الأراضي التي كانت بيد المصريين واحتلت فرنسا جيبوتي باتفاق مع إنجلترا.

أما الصومال الجنوبي فقد عقد معاهدة مع ألمانيا سنة 1293هـ/1886م، ليكون تحت حمايتها ثم تخلت عنه لصالح إنجلترا سنة 1307هـ/1889م.

أما الصومال الحبشي أو ما يعرف بمنطقة الأوجادين(*) فقد زحف عليه الأحباش وسيطروا عليه سنة 1293هـ/1876م(5).

والحق أنه في خضم هذه الأحداث المأساوية وهذا الصراع والتسابق الإستعماري الغربي المحموم على بلد

---

(1)- محمد فريد السيد حجاج: صفحات من تاريخ الصومال، دار المعارف، القاهرة، 1983م، ص.20.
(2)- د. عنايات الطحاوي:(ماذا تعرف عن العالم الإسلامي) مجلة منبر الإسلام، العدد10، السنة 24، 1386هـ، ص304.
(3)- د. أحمد شلبي: المرجع السابق، ج6، ص660.
(4)- مصطفى مؤمن: المرجع السابق، ص408.
(*)- أنظر الشكل رقم 20، ص367.
(5)-د. أحمد شلبي: المرجع السابق، ج6، ص663.

إفريقي مسلم لم يكن أصحابه الصوماليون غافلين عما يحدق بالبلد من أخطار، على الرغم مما بلغوه من تخلف وانحطاط، وما لحقهم من فقر، غير أن نار الجهاد والدعوة لم تخب،بل استمرت وزاد النشاط الدعوي والجهادي وذلك لما كان يحمله الصوماليون من إرث حضاري إسلامي في البلاد من جهة وما كانت تحمله الرياح من تيارات الحركات الإسلامية وخصوصا تلك التي كانت قريبة من حدود الصومال من جهة ثانية،فقد كانت الدعوة المهدية التي تجاوزت حدود بلاد السودان، حيث وصلت أخبار الدعوة وانتصارات محمد أحمد المهدي أصقاعا واسعة وأمصارا نائية(1)، اضافة الى د. غيرها من الحركات الاخرى.

وإذا كان يبدو للمتمعن في الخرائط الجغرافية استحالة اتصال هذه الأمصار المتباعدة بالسودان،فإن الواقع أكد عكس ذلك، فقد هبت شعوب إسلامية وحركات إصلاحية وهبت نفسها لمقاومة الظلم ومحاربة الجهل والتخلف المتفشين في أوساط هذه الشعوب، ومكافحة الإستعمار الأوروبي الغاشم في أوطان متباعدة عن السودان، وإذا كان تأثير الحركة المهدية قد بلغ مناطق نائية عن السودان العربي فما بالنا بالأوطان المتاخمة لحدود بلد هذه الدعوة كالصومال.

لقد كان العالم الإسلامي كما يقول لوثروب ستودارد(2) "يغلي غليان الماء على النار" وكان وسط هذا الغليان الدعوة الثائرة التي برزت في بلاد الصومال على يد أحد الدعاة المسلمين الأبطال الذين يستنكفون - الجهل والظلم والفساد،ويمقتون الإستعمار،ألا وهو الداعية المصلح محمد بن عبد الله حسن(3).

المولد و النشأة

ولد محمد عبد الله حسن في قرية سب فروت "Sepfrout"إحدى قرى الصومال سنة 1256،57هـ/1841م(*) و لم يطل به المقام في مسقط رأسه،فانتقل إلى موطن أخواله برأس عنود حيث تربى هناك، ودخل الكتاتيب صغيرا فحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة،وتعلم الكتابة والقراءة ثم درس العلوم الإسلامية واللغة العربية وآدابها على يد شيوخ مدينتي بربرة(**) وهرر بالصومال(4) وكان محمد بن عبد الله-

---

(1)- د. نعوم شقير: المصدر السابق، ص ص 1002 -1011.
(2)- لوثروب ستودارد: ترجمة عجاج نويهض: م2، ج3، المرجع السابق، ص ص 292 ،293.
(3)- إبراهيم عبد الله الأحمر: (الصومال العربي)، مجلة منار الإسلام، شهرية الإمارات العربية المتحدة، ع5، السنة العاشرة، جمادى الأولى 1405، فبراير 1985م، ص ص48-49.
(*)- لم تذكر الروايات تاريخ مولد المصلح، غير أنها تقول أنه حج وعمره 25 سنة، ويذكر شارل بروكلمان أنه حج عام 1895م، وبناء على ذلك استنتجت تاريخ ميلاده. غير أن بروكلمان نفسه يقول أن الرجل حج وعمره 35 سنة، أنظر: C. Brockelann : Op-Cit. P346.
(**)- أنظر الشكل رقم 20، ص363.
(4)- حسن محمد جوهر الصومال، دار المعارف القاهرة، 1965م، ص79.

منذ نعومة أظافره شغوفا بالدراسة،لذلك أخذ على نفسه مأخذ طالب العلم يحصله ويسير أغواره ويتقصى حقائقه،يسعى إليه في غير ثوان أو كسل يثقف نفسه من جميع جوانبها المختلفة غير عابئ بالمصاعب التي تواجهه في بناء شخصيته، و لم تشبع الثقافة المحلية نهمه،فقرر مواصلة دراسته والسافر إلى البقاع المقدسة على عادة الطلاب القادمين من العالم الإسلامي في تلك الأزمنة وما قبلها لأداء فريضة الحج من جهة،والإستزادة من العلوم والمعارف الإسلامية المختلفة من جهة ثانية.

وفي الحرمين الشريفين التقى بكبار العلماء المسلمين وجلس إليهم واحتك بهم واغترف على أيديهم العلوم والمعارف(1)، مستفيدا من خبرتهم وكيفية معالجتهم القضايا والمستجدات من الوجهة الشرعية،مما جعله مستقبلا داعية وخطيب لا يشق له غبار في موطنه الصومال.

مكث بالبقاع المقدسة حوالي عشر سنوات، كانت له فيها لقاءات وصحبة مع شيوخ الطرق الصوفية، ولما عاد إلى بلاده التقى بالشيخ "محمد صالح السوداني" تلميذ"أبراهيم الرشيدي" شيخ الطريقة الصالحية(*)، وقيل التقى به في الحجاز، فنقل إليه أخبار المهدي السوداني ودعوته والإنتصارات التي أحرزها في جهاده ضد الظلم والجهل والإستعمار الأجنبي الدخيل،الذي ناء بكلكله على العالم الإسلامي مشرقه ومغربه.

والحق أنه من غير المعقول أن تبقى أخبار الدعوة المهدية بعيدة وخافية على محمد عبد الله حسن في تلك الحقبة الزمنية، وذلك لكون الرجل متعلم وبلغ سن الخامسة والعشرين من عمره،وقريب جغرافيا من مهد الدعوة.فكيف نصدق عدم معرفته شيئا عن دعوة بلغت الهند والباكستان(2).

ولذا يمكن القول أن محمد بن عبد الله حسن كان على علم ودراية بالمهدي والمهدية والحركة التي قام بها وهو في بلده الصومال، ثم زادت معرفته بها وتعمقت وهو يؤدي فريضة الحج، بيد أن انشغاله بطلب العلم وأداء مناسك الحج جعلاه يؤجل اهتماماته بالدعوة المهدية، إلى حين عودته من البقاع المقدسة.

غير أننا لا نشك في أن الشيخ "محمد صالح السوداني" مؤسس الطريقة الصالحية كان له الفضل في نقل الأنباء المتعلقة بالثورة المهدية وأدق تفاصيلها علاوة على أخبار الثورة العرابية(3).

---

(1)-د. عبد الرحمان عمر الماحي: الدعوة الإسلامية في إفريقيا، الواقع والمستقبل، مرجع سابق، ص235.

(*)- الصالحية الرشيدية: أسسها إبراهيم بن الرشيد وابن عمه محمد بن صالح، انتشرت في الصومال البريطاني، أحيت الروح الإسلامية وعمقت فهم الصوماليين للإسلام وثقافته بين القبائل الوثنية، أنظر: حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، مرجع سابق، ص.402.

(2)- كارل بروكلمان: ترجمة منير البلعبكي وآخر، مرجع سابق، ص649.

(3)- د. عبد الودود إبراهيم شلبي: المرجع السابق، ص ص 160-161.

أعماله

بعد عودته إلى أرض الوطن في حدود (1313هـ/1895م) وجد البلاد قد بلغت من الضعف عتيا فأخذ على نفسه عهدا نحو وطنه بأن يشرع في اطفاء نار الفتن حتى يخمدها،ويكافح دياجير الجهل والأمية بين أبناء بلده حتى يبدد ظلامها وينير الطريق أمام الناس جميعا.

فمنذ أن وطئت أقدامه أرض الصومال جند نفسه لخدمة هذه الأمة وعلاج أمراضها وعللها،ورأى أنه لا سبيل إلى ذلك إلا عن طريق العلم والدين، فشن حملة واسعة النطاق على الجهل والأمية، وذلك بتأسيس الدوسكي "المدارس" والكتاتيب القرآنية وإقامة الحلقات في المساجد وإلقاء الدروس والمحاضرات فزرع في نفوس الناس حب الفضيلة ومقاومة الرذيلة،ومحاربة الكسل ومواجهة الواقع بثقة وشجاعة وبشخصية خالية من مركب النقص، وعدم الإستسلام للذل والهوان، داعيا القبائل الصومالية إلى التعاون ورص الصفوف،حاثا إياها على الإقدام على جلائل الأعمال في عزة وبسالة للنهوض بالوطن وتحريره.

وكان أسلوبه ومنهجه في الدعوة بالغ التأثير والعمق في نفوس الصوماليين،لما اكتسبه من علوم غزيرة وثقافته رصينة،علاوة على فصاحته وقدرته على استعمال الاساليب المؤثرة وتمكينه من فن الخطابة واستشهاداته بآي القرآن الكريم،والأحاديث النبوية الشريفة،وأقوال السلف الصالح.

أضفى كل ذلك على شخصية الداعية قوة واحتراما فكانت خطبه وتوجيهاته تصل إلى قلوب وعقول القبائل الصومالية بشكل ملفت للإنتباه[1]، فاستطاع بإخلاصه وتفانيه في عمله وترفعه عن مباهج الدنيا وزخارفها،وتمسكه بتعاليم الإسلام الصحيحة من غرس الفضائل الإسلامية في نفوس الناس،فزاد حبهم لدينهم وتعلقهم بوطنهم،فاشتد حنقهم وتضاعف حقدهم على المستعمرين الدخلاء ومن وقف في صفهم بالتأييد والمساعدة، ومع الوقت والجهد الذي كان يبذله الرجل وأعوانه،انطلت معاني القرآن الكريم السامية في نفوسهم، وأدركوا المغزى والمقصود منها، فامتلأت نفوسهم إيمانا وازدادوا حماسا للإسلام وتعاليمه من جهة، وتحريرهم لوطنهم من جهة أخرى، فهبوا للجهاد ومقارعة الإستعمار وجيروته لتحرير الوطن والدين من الجمود والتحجر بقيادة الداعية "محمد بن عبد الله حسن" الذي أطلق عليه بعض المؤرخين إسم "أسد الصحراء"[2]، ولخوض غمار الجهاد يتطلب توفر الإعداد المادي والإستعداد النفسي.

والحق أن الإستعداد النفسي متوفر بفضل العقيدة ودعوة الشيخ ودروسه، أما الإستعداد المادي فإن الصومالي معروف بالقناعة والشجاعة والإكتفاء بالقليل، فبعض الروايات الشائعة على أهل المنطقة تقول بأن إسم الصومال بلهجة أهل البلد تعني ذو الرمح[3]. وهذا يعني ان الصومالي محارب لذا

---

(1)- د. عبد الودود إبراهيم شلبي: نفس المرجع ، ص161.
(2)-عبد الله حشيمة: المرجع السابق، ص67.
(3)- محمد جوهر: المرجع السابق، ص12.

أخذ الصوماليون في الإستعداد بالرماح والسيوف وبعض البنادق تحت إشراف ورعاية الشيخ محمد بن عبد الله حسن مصداقا لقوله تعالى(1): ***"وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شئ في سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون"***

وفي سنة 1317هـ/1899م وبعد أن رأى تزايد أنصاره وأتباعه أعلن أنه المهدي المنتظر(2)، وهكذا نجح محمد بن عبد الله حسن في لم شمل مواطنيه من الصوماليين وكسب حبهم وولائهم وجذب مشاعرهم إليه فألهبها بالحماس، ثم شرع في الإستعداد لجمع القوات حوله لقتال الأجانب، وتمكن من الوقوف في وجههم ردحا من الزمن(3).

إعلان الجهاد

كان لإعلان جهاد هذا الزعيم الإفريقي جملة من العوامل الداخلية والخارجية جعلته يبادر لقيادة الجماهير الشعبية المسلمة في هذه المنطقة لمقاومة الفساد الداخلي والإستعمار الخارجي،بعد أن مهد لذلك بحركة دينية وسياسية سعت إلى نشر الوعي بين الناس، ويمكن تتبع أسباب هذا الجهاد وثورة محمد بن عبد الله حسن على النحو الآتي:

1- تدهور الحياة الإقتصادية والآجتماعية والثقافية للمجتمع الصومالي.

2- تأثير الحركات الإصلاحية الإسلامية في العالم الإسلامي وخاصة الحركة المهدية والسنوسية والوهابية بالإضافة إلى ثورة أحمد عرابي بمصر(4).

3- صراع الدول الأجنبية على بلاد الصومال وتقسيمه فيما بينها، فقد أخذت بريطانيا جزءا وفرنسا جزءا آخر، و لم تشد إيطاليا عن صنوتيها السالفتين، كما راحت الحبشة تسعى لضم أجزاء أخرى وهكذا صار الصومال مجزأ بين اربعة قوى أجنبية(5).

4- تفشي ظاهرة الإنشقاقات الداخلية والصراعات القبلية والمنافسات الشخصية التي ضربت أطنابها في عمق المجتمع لاسيما بين شيوخ القبائل وزعماء العشائر بسبب المنافع الخاصة. ولعل هذه الظاهرة هي التي أدت إلى إزالة الدولة الصومالية في العصر الحديث.

---

(1)- سورة الأنفال: الآية 60.

(2) C. Brockelmann, Op-Cit, P346.

(3)- أنور الجندي: المرجع السابق، ص323.

(4)- د. عبد الودود إبراهيم شلبي: المرجع السابق، ص 343 وما بعدها.

(5)- وليام لانجر: ترجمة جماعة من الاساتذة، إشرافمصطفى زيادة، موسوعة تاريخ العالم، ج6، مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1966 ص.2173.

5- وقوف بعض زعماء القبائل وشيوخ بعض الطرق الصوفية إلى جانب الإستعمار إذ سخروا أنفسهم لخدمته وتحقيق أغراضه.

6- في ظل هذه العواصف والمؤامرات بين بعض أبناء البلد والأطماع الأجنبية،برزت بعض القيادات الوطنية والزعامات، ووقفت في وجه التحديات الخارجية والصراعات المحلية فظهرت الإنتفاضة تلو الأخرى تحت لواء هذه القيادات والعلماء والمصلحين الغيورين؛ وكان على رأس هؤلاء المصلح محمد بن عبد الله حسن.

كل هذه الأسباب ساهمت كل بنصيبه،ويسرت السبيل أما المصلح لتوجيه جماهير الصومالي إلى الثورة وذلك لتغيير الواقع المؤلم،وكانت بداية انطلاق الثورة.

. بداية المواجهة

كانت أول مواجهة بين المصلح والإنجليز في مدينة "بربرة" التي كانوا قد احتلوها سابقا،وذلك في صبيحة أحد أيام سنة 1317هـ/ 1899م، عندما تقاطر المسلمون يتزاحمون على مسجد المدينة استعدادا لأداء صلاة الصبح، عندها رفع المؤذن صوته مناديا للصلاة، فأرعب الإنجليز وأوجفوا خيفة من الآذان وجموع المصلين،واعتقدوا أنه دعوة للثورة والجهاد، فأشهر أحد ضباطهم سلاحه وصوبه نحو مصدر الصوت المنبعث بالتكبير،وأطلق النار على المؤذن الأعزل،فخر صريعا على مرأى ومسمع من جموع المصلين(1).

كانت هذه الرصاصة الشرارة التي اشعلت فتيل نار الحرب ضد المستعمرين الإنجليز، فأعلن محمد عبد الله حسن "الملاح " "MALAH". كما سماه الإنجليز الجهاد على الدخلاء ومحاربتهم(2)، فأصدر الحاكم الإنجليزي القرار بطرده وطلابه من المدينة، فخرجوا من بربرة مكرهين وقصدوا مدينة "برعو" والإنجليز يترصدونهم، وعلى مقربة من هذه المدينة الأخيرة حاولوا الغدر بهم وقتلهم جميعا،فدارت معركة رهيبة عند تخوم هذه المدينة، و لم يكن اتباع الشيخ سوى نفر قليل من الطلاب والأتباع الذين لم يتجاوز عددهم الأربعين فردا، و لم يكن بحوزتهم من السلاح سوى الإيمان بالله وتحرير الوطن وبعض الحراب والسيوف ولكن النصر كان حليف الشيخ وأنصاره،وقد وعد الله المظلومين الذين أبعدوا عن ديارهم بالنصر المبين(3). قال تعالى(4) :" **الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز**".

---

(1)- محمد جوهر، المرجع السابق، ص.79.
C. Brockelmann, Op-Cit, P346. (2)
(3)- محمد جوهر: المرجع السابق، ص79.
(4)- سورة الحج: الآية 40.

وقال[1]:"***كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين***"، وبفضل الله وشجاعة هذه الفئة القليلة العدد والعدة حقق الشيخ انتصارا باهرا على القوة الإنجليزية المسلحة بالأسلحة النارية الحديثة، وسقط ثلاثة من الطلاب شهداء ومات من جنود الإنجليز سبعة نفر، وفر الباقون هائمين على وجوههم ينشدون النجاة ويطلبون النجدة.

وفي هذا الظرف العصيب بالنسبة للمصلح الذي أدرك بأن الإنجليز لن يتركوه، توجه نحو موطن أخواله "برأس عنود" وشرع يدعو الناس إلى الجهاد والكفاح ضد المغتصبين فاجتمع حوله ناس كثيرون ولقي مشروعه هذا الذي بدأه منذ زمن إقبال الشباب خاصة،فشرع يدربهم على فنون القتال والرماية والفروسية[2].

وقد اهتم الشيخ بهذه القوة اهتماما بالغا وحفها بعنايته ورعايته ساهرا على تدريبها وتنظيمها بنفسه، وهذا يثم على أن الرجل كان إلى جانب كونه عالما في المنقول والمعقول، فقد كان على دراية ومعرفة بالشؤون التنظيمية والعسكرية،حيث انتقى عناصر هذه القوات بعناية فائقة، ونظمها تنظيما دقيقا ومحكما، واعطاها تسميات تنطبق وتحدد اختصاصتها وطبيعتها، والمهام الموكلة إليها والمنوطة بأدائها فلا تتعداها حتى لا تتدخل في اختصاصات غيرها، فتتعدد مهامها وتتبدد قدراتها وتتلاشى.

ومن هنا يمكن القول أن الرجل لم يكن بمعزل عما يجري حوله في العالم المعاصر من تطورات وكان رجلا عمليا بالدرجة الأولى، لذلك أنشأ هذه التنظيمات ليسهل عليه إدارة شؤون البلاد.

تنظيمات الدولة :

قام محمد بن عبد الله بإقامة تنظيمات مختلفة لإرساء دولته المستقبلية،وتتمثل هذه التنظيمات فيما يأتي:

التنظيمات الدستورية: أنشأ محمد بن عبد الله حسن مجلسا يتكون من كبار العلماء والفقهاء المشهود لهم بالكفاءة العلمية ورجاحة العقل، ومهمة هذه الفئة التعليم والتوجيه والوعظ والإرشاد، وبذلك فهي محل الإستشارة ويطلق عليها إسم "شيخ بال".

التنظيمات العسكرية : نظمها وحدد دور كل منها في الجهاد والمعارك ومنها:

مينتلي: وهي وحدة من الوحدات القتالية الهامة، المسلحة بالأسلحة النارية،ويحمل سلاحها غلامه (م،م).

صجد: وهم الرماة المدربون على هذا الفن الحربي الهام.

حجاتو: وهي فرق مكلفة بالإغارة والهجوم على مواقع العدو وتحصيناته.

---

(1)- سورة البقرة: الآية 249.
(2)- د. عبد الودود إبراهيم شلبي: المرجع السابق، ص ص 261-262.

ناجورة: وهي الفرقة المتخصصة في قطع الأسلاك الشائكة التي ضربت حول المعسكرات والحصون التي يتحصن بها الغزاة المستعمرون.

جويسري: وهي الجناح الأعلى أو الميمنة.

جريهويسي: وهي الجناح الأسفل أو الميسرة.

تقبوحن: وهم نحاف الأجسام، ضعفاء البنية الجسمية الذين لا تتلاءم أجسامهم وطبيعة الحروب والمعارك الضارية،وهم بمثابة قوة احتياطية.

طريش: وهم الذين يتميزون بعدم الإنتظام،ويتقصهم الحزم ولا يهتمون بحسن الهندام،وهم الملشيات الشعبية، ووظائفها تقديم المساعدات للفرق المنظمة والتجسس على العدو.

غلوين: أي أصحاب العيون الكبيرة، وهم الذين ينتقون الخيول المعدة للحرب، ويشرفون على تربيتها وترويضها.

أنطودين: أي أصحاب العيون الكبيرة الذين يسهرون على تربية المواشي،كالإبل والأغنام والبقر الذي يخصص انتاجها لتموين الجنود بالمواد الغذائية(1).

وقد أنشأ المدارس المختصة بالسهر على هذه التنظيمات والتدريبات، ولم يتوقف تنظيمه على الجانب البشري بل ذهب إلى أبعد من ذلك،فقد اهتم ببناء الحصون والقلاع الحربية، واختار لها الأماكن الإستراتيجية المنيعة، وراح في عمله هذا غير عابئ بما يواجهه من صعوبات وما يقف أمامه من عراقيل،وما يتطلبه من تضحيات لأنه اختار الجهاد الذي يحرز صاحبه إحدى الحسنيين النصر أو الإستشهاد.

كما اهتم بالعلم ومراكزه، فأقام المدارس في القرى ونظم مراكز الطرق الصوفية وزواياها في الأماكن النائية والبعيدة عن نفوذ الأمهرة حكام الحبشة(2).

ومن هنا يتضح جليا بأن الرجل لم يكن "درويشا" كما أطلق عليه،و لم يكن رجل دعوة إصلاحية تهدف إلى تهذيب النفوس وتثقيف العقول وتربيتها فقط، بمعزل عن بناء مجتمع متكامل، بل أكدت على أن "محمد بن عبد الله" كان رجل دولة من الطراز الأول فقد سعى سعي العارف المتمكن إلى بنائها على دعائم متينة وهياكل صلبة وتنظيمات تتماشى وظروف الحرب ومجتمع الصومال المسلم.

ومما يدل على قدر الرجل ووزنه وحنكته تفطنه لما للعلم والعلماء من دور في بناء الدول وإصلاح المجتمعات قديمها وحديثها، كما لم يخف عليه ما للخبرة والمعرفة والتخصص وما تعكسه كل واحدة من

---

(1)- د. عبد الرحمان عمر الماحي: الدعوة الاسلامية في افريقية الواقع والمستقبل ، مرجع سابق ص ص236-237.

(2)- إبراهيم عبد الله الأحمر: (الصومال العربي) مرجع سابق، ص49.

مهارة، لذا شكل فرق جيشه وفق هذا المنظور الذي كان يتماشى مع روح الجيوش العصرية، إذ تخصصت كل فرقة في مهمة وفن من الفنون القتالية.

إما الحصون فقد أنشأ عدداًمعتبرا نيف عن الأربعين حصنا، وكانت مزودة بكل الإحتياجات من ذخيرة ومؤن، وحرص على إمدادها بالمياه،فأقام الصهاريج والخزانات، كما زرع قلاعا عديدة خصوصا في الأوجادين "OGADIN"، فالتف حوله الأتباع والمريدون في مواقع استراتيجية،فكانت عيونا على تحركات الأعداء، علاوة على كونها معسكرات إقامة الجند، واختار لنفسه معقلا في منطبقة "طليح" "Talih" بين رأس عنود وعرجابو "ARGABOU"، وأحاط به أنصاره وأقدم على الإستعداد لمحاربة الإنجليز والخونة الموالين للإستعمار فأطلق عليه الإنجليز إسم الملا المفتون أو المجنون.

وفي هذه المراكز زاد النشاط الإصلاحي بدعوة الأنصار والمجاهدين إلى التمسك بتعاليم القرآن والسنة النبوية الشريفة، وترك ما سواهما في محاولة لإنقاذ الأمة من التقهقر والغفلة، التي سيطرت عليها حتى جعلت من السكان في الصومال كما في غيره من البلاد الإسلامية الاخرى الناس سادرين في الجهل يتقبلون الأفكار المغلوطة التي جاء بها الإستعمار،فتلقى السكان منهم آراءهم ونظرياتهم التي لا تخدم مصالحهم الوطنية(2)، بل أثاروهم ضد المصلح نفسه الذي كان يسعى إلى انقاذهم مما هم فيه من تخلف وانحطاط، وخاض حربا عوانا ضد الاجانب من اجلهم(3).

انطلاق الجهاد :

بعد أن أكمل محمد بن عبد الله إستعداداته في مقره الجديد،نغص الحياة على الإنجليز وأقض مضاجعهم لذا أولوه اهتمامهم، وبدأت الإتصالات بينه وبينهم عن طريق المراسلات، لقد بعث إليه كوفيل "Coufille" القائد الأعلى للقوات البريطانية في الصومال رسالة إلى مقره بـ"طليح" جاء فيها(4):**"إهدم هذه المدينة قبل أن نصل إليك مع الجيش وإلا هدمناها فوق رؤوسكم .....سنسفك نسفا إذا لم ترجع عن غيك وإذا لم تخمد ثورتك الجنونية، وأعلم أن حكومة صاحبة الجلالة عظيمة جدا، ولا يستطيع مجنون مثلك أن ينال منها شيئا .....فأرجع عما أنت فيه، وعد إلى صوابك قبل أن تقع المصيبة عليك، وتندم على أعمالك السيئة".**

---

(1)- إبراهيم عبد الله الأحمر: **المرجع نفسه** ص49.

(2)- محمود شاكر: سكان العالم الإسلامي، نشر دار الشهاب، الجزائر 1989م، ص.108.

(3)- د. عنايات الطحاوي: (ماذا تعرف عن الإسلام)، مجلة منبر الإسلام، مرجع سابق، ص.305.

(4)- د. عبد الودود إبراهيم شلبي: المرجع السابق، ص263.

من هذه الرسالة يتضح اعتداد الإنجليز بأنفسهم وقواتهم ،كما تعبر عن جهلهم بالقوة الصومالية الناشئة واستهتارهم بها،علاوة على استخفافهم بمشاعر المصلح، ومن ورائه الشعب الصومالي المسلم واصفين من يحمل قضية الدفاع عن وطنه والذود عن حياضه وتحريره من الغاصبين "بالمفتون" أحيانا و"المجنون" أخرى، وينصح بالعدول والرجوع عن ذلك، وهذا أمر غريب بالنسبة لدعاة الحرية وخاصة من المجاهدين.

وكان رد قائد الجهاد الصومالي على الرسالة كما يأتي(1):" **من السيد محمد بن عبد الله حسن قائد القوات الإسلامية إلى الجنرال كوفيل قائد الشيطان، لقد اطلعت على رسالتك وفهمت منها جميع أغراضك الدنيئة وأغراض حكومتك الرضيعة..... واعلم أن قواتكم التي تفاخرون بها لا تساوي لدي شيئا وأعلمك أيضا إذا كنتم تحاربونني بقواتكم القائلة الكثيرة العدد فإني** أقاتلكم بنيتي الصالحة وبإيماني القوي وبعزيمتي التي لا تعرف الملل، ومهما تكن الظروف لن أستسلم لك وأكون للشرك عبدا وسوف لن أفعل ما طلبت مني، حتى تصل إلينا وسترى بعينيك الجواب".

ومن هذا الخطاب يتضح أثر الإيمان الصادق بقدسية وقضية الوطن،فالمسلم المؤمن لا يضع في مثل هذه المواطن قيمة للفائدة أو الخسارة شأن التجار والسماسرة، فهو فائز في الحالتين بالنصر أو الشهادة لذلك كان رد المصلح صريحا وواضحا لا غبار عليه.

ثارت ثائرة الجنرال كوفيل بعد أن وصله الرد الفصل، فتوجه بقواته إلى "طليح" فوقعت مواجهة بين الجانبين قرب قرية "بيرا" "Bira" بالقرب من راس عنود، وتمكنت القوات الصومالية بقيادة محمد بن عبد الله سحق القوات الإنجليزية وقتل "كوفيل" نفسه فوقف القائد الصومالي على رأسه وقال(2):" أيها الكافر لقد توجهت إلى الآخرة ومالك بقية من حياة؟ وإن رأيت في الآخرة جماعة لك..... فقل لهم وقع الرصاص في فمي ودخلت الرماح كتفي، وأذكر هناك قوتك وقوة بريطانيا وتعب بريطانيا معك".

وهنا نلاحظ الفارق الكبير في المعاملة بين المجاهد المسلم والمحارب المسيحي، ففي الوقت الذي سقطت فيه أم درمان بالسودان العربي في يد الجيوش البريطانية سارع الإنجليز إلى نبش قبر "محمد أحمد المهدي" وسرقة رأسه(3)، والتمثيل بجثث القتلى، نلاحظ "المجنون" هنا يقف عند رأس جثة خصمه ويوجه له الخطاب في إشفاق مذكرا عسى أن يكون في ذلك عبرة لمن يعتبر.

---

(1)- محمد المعتصم سيد: مهدي الصومال سلسلة مذاهب وشخصيات دار المعارف مصر

(2)- حسن محمد جوهر: الصومال، المرجع السابق، ص.80.

(3)- أنور الجندي: المرجع السابق، ص.285.

كان لهذه الهزيمة النكراء الأثر الكبير على نفوس الإنجليز حيث تكررت مأســـاة "غـــرودون" في شخص" كوفيل"حيث سار إلى المصير نفسه الأول في مدينة الخرطوم الإسلامية،والثاني في قرية بيرا علـــى أرض الصومال الإسلامي.

أمام هذا الخطب والمأساة والفشل الذريع الذي مني به المستعمر الغاشـــم،عمـــدت بريطانيـــا إلى أساليبها المخزية الدنيئة معللةالنفس بالظفر بالزعيم المصلح ،كما فعلت مع كثيرين غيره في مناطق أخرى مـن البلاد الإسلامية.

بدأت الاتصالات والمفاوضات وكانت الحكومة البريطانية تنوي وقف القتال وإلقـــاء المجـــاهدين السلاح والتخلي عن الجهاد،في نظير هذا تعترف الحكومة بالشيخ "المفتون" ملكا على الصومال كلـــه،أي مفارقة هذه؟كيف تطلب دولة أجنبية من رجل وأي رجل؟ على أديم وطنه ترك السلاح والإعتراف بـــه ملكا على أرض ليست ملكا لها، فما جدوى إعترافها أو عدمه؟، أما كان يكفيها أن تغادر البلاد وتتركـــه فإن النية هنا لاتحتاج إلى تفسير لكل دي عقل وبصيرة.

وهذا الموقف يذكرنا بموقفها مع مصلح وداعية تجاور حدود بلاده بلاد الصومال تلكم هي دعـــوة "غرودون" الإنجليزي لمحمد أحمد المهدي في السودان، الذي دعاه إلى إخلاء سبيل الجهاد والدعوة مقـــابل تعيينه حاكما لكردفان وكأن الأخيرة ملك لإنجلترا[1]، وإذا كان المهدي قد رفض العرض فإن"محمد بـــن عبد الله حسن" لم يشد عن صنوه المهدي، كيف يشذ؟ وكلاهما غرف من معين واحد وهو كتاب الله وسنة رسوله، وهدفهما واحد وهو الدعوة والجهاد ضد الإستعمار وإصلاح أحوال الأمة وإقامة نظام حكم قـائم على الشريعة الإسلامية.

لقد كان رد"محمد بن عبد الله حسن" واضحا جليا لا غبار عليه، فقد أمر أتباعه برد هدايا الـــتزلف التي بعث بها نائب المملكة في الهند مع وفد خاص،ثم توجه بحديثه إلى رئيس هذا الوفد قائلا[2]:" ***إنـــي لم أفكر في يوم من الأيام أن أكون ملكا..... ولم يكن ذلك هدفي لا في الحاضر ولا في المستقبل، ولكـــن هدفي الوحيد هو أن أطرد الإستعمار من بلادي وأعيد إليها حقوقها المغتصبة وأطهرها مـــن النفـــاق والشرك..... ولست أبالي بعد ذلك أن أحيا أو أموت***" .

كيف لا يكون هذا جوابه وكيف لا يكون هذا موقفه؟ وقدوته الرسول محمد بن عبـــد الله "ص" الذي عرض عليه الملك والمال نظير التخلي عن الدعوة فقال[3]:" ***والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته***" .

---

(1)- د. جلال يحي: الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية في السودان، مرجع سابق، ص141.

(2)- د. عبد الودود إبراهيم شلبي: المرجع السابق، ص264.

(3)- إبن هشام: مختصر السيرة، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، دون تاريخ، ص44

لم تتوقف الحرب بين الصوماليين والإنجليز ففي الوقت الذي كان المصلح يهاجم فيه قوات العدو في "بيرا" كان قد اشتبك مع الأحباش في موقعة "جيججا" "GUIGUIGə" التي مني فيها الأحباش بهزيمة منكرة، وتمكن قائد المسلمين "هري" "Herri" من القبض علىٰ إلياسٰ قائد الحبشان الذي لاذت جيوشه تجر أذيال الهزيمة والإنكسار فرار إلى مدينة "هرر".

دخلٰ محمد بن عبد اللهٰ المدينة وأقام فيها حكما إسلاميا يقوم على الكتاب والسنة، ونظرا لإنشغاله بالدعوة والإصلاح والجهاد،عين على رأس هذه المدينة الشيخ "رحمة الله" الذي عمد إلى تعمير المدينة وتنظيمها وإقامة المساجد التي علت من مآذنها بكلمة "الله أكبر" تشق عنان السماء، كما شيد المدارس التي قصدها أبناء الصومال ليغترفوا منها العلوم والمعارف.

وحدة المقاومة الصومالية في مواجهة الاستعمار

في نفس الوقت الذي كان فيهٰ محمد بن عبد الله حسنٰ في شمال البلاد يقارع الإستعمار كان البطل الصومالي الآخر "راجي أوجاس" "GULOGOS" يقاوم الأحباش في الجنوب محققا إنتصارات باهرة في منطقتي بقيلي "BIKILI" وبيالي "Bialli" وتمكنه من القضاء على القائد الحبشي بقيلي إيلي "Bikilli" ونائبه "فيري مارن" "Ferey Marn"وقد استفادٰ محمد بن عبد الله حسنٰ من "راجي أوجاس" عندما طلب هذا الأخير منه الانضمام إلى صفوفه فلم يمانع.

انتقل "راجي" بجيوشه إلى طليح مقعل السيدٰ محمد بن عبد اللهٰ واشترك معه في حروبه وكان ينوب عنه في قيادة الجيوش ورسم الخطط إلى أن وافته المنية.

توفيٰ راجي أوجاسٰ وترك صديقه الشيخ المصلح يجاهد الإستعمار بمفرده(1)، فقد واجه أربع دول تمثل قمة الطغيان والجبروت في وقتها تلك هي بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، والحبشة، علاوة على الخونة من الصوماليين(2).

لقد اتخذت القوى الإستعمارية ضد الشعب الصومالي وقائده لتحقيق أغراضها،فبالنسبة لفرنسا رأت بريطانيا ضرورة عقد إتفاق معها بموجبه تقف حائلا دون تسرب الأسلحة وخاصة النارية من ميناء جيبوتي الذي كان يخضع للنفوذ الفرنسي إلى المجاهدين(3).

أما إيطاليا فقد رأت من جهتها بأن حركة المصلح الصومالي تشكل تهديدا صارخا ومباشرا لممتلكاتها في البلاد الإسلامية، لذلك قررت الوقوف في صف بريطانيا تحقيقا لمصالحها وضرب الإسلام

---

(1)- د. عبد الودود إبراهيم شلي: المرجع السابق، ص.265.
(2)- إبراهيم عبد الله الأهمر: المرجع السابق، ص.49.
(3)-د. عبد الودود إبراهيم شلي:المرجع سابق، ص262.

والمسلمين خصوصا بعد إلحزامها أمام الأحباش 1314هـ/1896م، وعقدها معاهدة أديس بابا في أكتوبر من نفس السنة(1).

أما بالنسبة للأحباش فإن دورهم في محاربة الإسلام والمسلمين ، فقد بات أكثر من ضرورة،وصار كالماء بالنسبة للسمك، ولاسيما وأن التحالف مع الدول الإستعمارية المسيحية منحهم فرصة مناسبة للإنتقام والتشفي.

إن الحرب بهذا الأسلوب والمعركة بهذه الصورة أصبحت تشكل ضربا من المغامرة والإنتحار، لكن "محمد بن عبد الله حسن" استمر في الحرب قدما غير مبال بما يواجهه من أهوال غير عابئ بما يلاقيه من أخطار، فقد شن غارات متكررة على الأجانب وممتلكاتهم،وحدثت إشتباكات عنيفة مسلحة ليست بين الصوماليين المجاهدين فحسب، بل تعدتها لتشمل القبائل الصومالية الناشز المدعمة من قبل القوى الأجنبية.

وأمام تفاقم الخطر الذي صار يهدد القوى الأجنبية وأذنابها بارتفاع شوكة المصلح، شعر المستعمرون بخيبتهم وفشلهم المتكرر في القضاء على الحركة الإصلاحية الصومالية، وأدركوا عدم جدوى الحرب والقتال في إخماد جذوة الجهاد في نفوس المجاهدين، بل يزيدان الثورة عمقا في النفوس والجهاد تأججا وقوة بين المجاهدين،فيزداد الإقبال على الشهادة والإستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الحق والوقوف في وجه المستعمر المغتصب لتحرير الوطن(2).

أمام هذا الإصرر والإستماتة في الجهاد،لم تجد الدول الإستعمارية من وسيلة سوى اللجوء إلى أساليب أخرى محاولة تحقيق ما تصبوا إليه، فطلبت اللقاء والتفاوض علها تظفر بعقد صلح أو معاهدة، وقد سعت إلى ذلك عدة مرات، غير أن المصلح كان ينتظر اللحظة المناسبة ليتفاوض من مركز قوة، ولما أيقن أن دعوته فرضت نفسها على الساحة الصومالية وتبلورت في أنظار الآخرين في الوقت الذي تبددت فيه القوة الإستعمارية وخارت عزائمها،أقبل على عالم السياسة فطرق بابه الواسع لعلمه أن الظرف مناسب، وقبل بفتح باب المفاوضة مع الأجانب.

المفاوضات و عقد الهدنة

أجرى "محمد بن عبد الله حسن" المفاوضات مع خصومه الإيطاليين الذي ألحوا عليه بعروضهم لأجل الصلح بينهم وبينه، وللوصول إلى عقد هدنة، و لم يكن هذا المسعى من طرف الإيطاليين بمفردهم بل كانت رغبة الإنجليز والأحباش أيضا.

---

(1)- د. زاهر رياض: استعمار إفريقيا، المرجع السابق، ص.227.

(2)- د. عبد الودود إبراهيم شلبي المرجع السابق، ص262.

وفي الوقت الذي كانت فيه الإتصالات والمفاوضات جارية مع الإيطاليين،عمد البطل إلى إجـــراء إتصالات مع دولة ألمانيا والدولة العثمانية بغية توثيق العلاقات مع الخارج وكســـب مســـاعدات ماديـــة وعسكرية وفنية(1).

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن "محمد بن عبد الله حسن" قد نضج وكبر في عيون الآخريـــن كما يدل على أنه لم يكن ذلك المجنون أو المفتون كمال وصفه الإنجليز، بل بعمله هذا أثبت أنه مفتون بحب بلاده ودينه وشعبه، كما يدل إقدامه على عقد مثل هذه الإتصالات مع الخارج على أنه بلـــغ مرحلـــة لم يبلغها من قبل، كما عبر من خلال طموحه هذا على أنه رجل دعوة إصلاحية حقة ورجل دولة أيضا.

كما قرر الإتصال بأعيان البلاد ورؤساء قبائلها وعشائرها والعلماء، من أجـــل توحيـــد جـــهود الصوماليين وتأييد دعوته ومساندتها والوقوف إلى جانبها من أجل دفع الخطر المحدق بالبلاد،لأن الخطر يهدد الجميع.

ويعبر سلوكه هذا على فطنة وذكاء ووطنية،وأن الرجل خبير من الطراز الأول في الميادين العسكرية والشؤون الأمنية والحنكة السياسية بوضعه مصلحة الوطن فوق أي مصلحة.

المفاوضات و إبرام الصلح:

بعد حروب ومعارك دامية توصلت إنجلترا وفرنسا والحبشة إلى عقد اتفاقية بينها وبين "محمد بـــن عبد الله حسن" الصومالي، وذلك في يوم 28 ذي الحجة 1322هـــ/05 مارس 1905م وكان الهـــدف مـــن توقيع مثل هذا الإتفاق الوصول إلى إتفاق صلح يشمل جميع أراضي الصومال،وحضر الإتفاق عن الجـــانب الإستعماري الإيطالي "سيطلونذا" "SITLOUNDA" وعن الجانب الصومالي الداعية المجاهد "محمد بن عبد الله حسن"، وبمقتضاه يمنح هذا الأخير إقليما في الصومال(2).

نصوص الاتفاقية :

جاءت نصوص الإتفاق على الوجه الآتي:

1- تكون إيطاليا وبريطانيا والحبشة ورعاياها في تصالح أبدي مع الصومـــاليين،ويمثـــل الجـــانب الصومالي "محمد بن عبد الله" وينوب الممثل الايطالي عن دولته ورعاياها،وكذلك عن كل من دولة بريطانيـــا والحبشة ورعاياهما،وتحل الخلافات والمشاكل ان وقعت حلا سليما عن طريق المفاوضة والإتفاق.

ويترأس الوفد المفاوض في الحالة الأخيرة إيطاليا،ويمثل جميع الأجانب،مع إمكانية حضـــور ممثـــل الدولة المعنية بالمفاوضات إذا كان موضوع المفاوضات متعلقا بها أو برعاياها.

---

(1)—د. عبد الودود إبراهيم شلبي: المرجع السابق، ص265.
(2)- وليام لانجر: المرجع السابق، ج6، ص2175.

2- يمنح "الملاح" "محمد بن عبد الله حسن" إقليما من الصومال الإيطالي،يشمل السواحل التي تقع بين "كرغد" و"كيع" التي يتخذها مدنا ومرافئ ترسوافيها السفن التجارية لممارسة التجارة الخارجية وتموين الداخل.

ولإيطاليا حق مراقبة هذه المدن والمرافئ والمياه الإقليمية، مع الحق في تعيين وكيل لها في هذه المدن مع حق الابقاء على حامية عسكرية بها، وعلى "محمد بن عبد الله حسن" القيام على حماية وأمن هذا الوكيل ويدفع له العشر من صادرات وواردات البلاد.

يتولى "محمد بن عبد الله" حكم تلك المدن بالنيابة عن إيطاليا إلى غاية تعيين الوكيل، وعليه أن يسهر على تأمين تلك المدن وطرقها، ويحكم بين رعايا البلدان الثلاث بالعدل.

3- حريه بيع السلع في أسواق تلك المدن،ما عدا الأسلحة،ويتعهد "محمد بن عبد الله" بذلك.

4- الإعتراف بأراضي كل من "نفال" "Naval" و"هيبو" "Hibou" بأنها من ممتلكات المجاهدين وتتنازل إنجلترا عنها وعن السواحل المحصورة بين "كرغد" و"كيع" بالإضافة إلى ضم بعض الأراضي الأخرى من جهة سلطاني مجر تينا "Magartina"وهيبو "HIBOU"ويتعهد"محمد بن عبد الله"بعدم إرسال أنصاره إلى تلك الجهات إلا بعد موافقة إنجلترا على ذلك، ووجوب عقد صلح بين الداعية وسلطاني المجرتينيين ومع قبيلتي عمر محمود وعيسى محمود حيث أنهما لا يعترفان بسلطة السلطانيين عليهما رسيما برغم أنهما من جملة قبائل المجرتينيين.

5- كل خلال ببنود الإتفاقية أو سلامة المجاهدين وأمنهم يجب تبليغه فورا إلى حكومة إيطاليا لإتخاذها الإجراءات اللازمة.

6- تكوين لجنة تقوم بتنفيذ هذا الصلح بين الجانبين وتتصل بالحبشة ليكون لها عضو في تلك اللجنة[1]. وإذا سلطنا الأضواء واستقصينا الأسباب الحقيقية التي دفعت إلى عقد مثل هذه الإتفاقية خاصة من جانب الدول الإستعمارية -إيطاليا- إنجلترا- الحبشة، لتبين لنا بجلاء أن هذه الأطراف لجأت إليها مكرهة بسبب عجزها في القضاء على الدعوة وإبادتها وتشتيت وحدة الصوماليين وفشلها في فرض نفسها على المجاهدين وقائدهم "محمد بن عبد الله."

لذا يمكننا أن نقول أن اللجوء إلى عقد الإتفاقية لم يكن عن حسن نية وإقتناع بل يعبر عن سوء نية مبينة مسبقا.

وما إقدامها على التوقيع على الإتفاقية سوى لكسب الوقت والخداع واستغلال الهدنة لإستعادة الأنفاس والإجتهاد لترتيب خطط جديدة أكثر نجاعة وأشد فاعلية.

---

(1)- محمد السيد حجاج "عميد أركان حرب": المرجع السابق، ص50-52.

فالدارس لنص الإتفاقية وبنودها يدرك بيسر أنها تحتوي على كلمات مطاطة، وعبارات تفتقر إلى الدقة والوضوح، لذا يمكن تأويلها،مما يؤدي إلى متاهات تدفع إلى مزيد من المشاكل أشد تعقيدا.

و لم تكن النوايا خافية على المجاهدين أو بعيدة عن إدراكهم وإحساسهم،لذا أطلقوا على الصلح إسم "صلح الخديعة".

ولا يمكن أن تخفى على كل ذي عقل وبصيرة في مثل هذه المواطن وهذه الإتفاقيات وخاصة أن التاريخ قديمه وحديثه حافل بمثل هذه الظواهر،لاسيما الإتفاقيات والمعاهدات التي أبرمت بين المستعمرين وسكان البلاد الأصليين، ليس في إفريقيا فحسب،بل وفي مناطق عديدة من العالم، ولعل هذا ما يدفنا إلى القول أن كل طرف كان على علم ودراية بما جاء في نصوص الإتفاقية من خلل، ولكنه تغافل عنها وتساهل كي يجد المبررات والذرائع القانونية للتحلل والتنصل منها في الوقت الذي يراه مناسبا فيتخلى عن كل إلتزاماته ومسؤولياته.

انعكاسات الاتفاقية :

استغلت الدول الإستعمارية هذا الإتفاق "صلح الخديعة" وسارعت إلى:

- بث روح الشك بواسطة دعايتها المغرضة إلى شن حرب نفسية على السيد محمد بن عبد الله وأنصاره لسحب الثقة منهم.

- كسب القبائل وبعث الفرقة بينها،حيث عملت بريطانيا على كسب المزيد من القبائل الموالية وتحريضها على ضرب الصوماليين بعضهم بعضا، وقيام حرب أهلية بين أفراد الشعب الواحد،وذلك خدمة لأغراضها الإستعمارية، من جهة،وصرف الداعية وأنصاره عن مواصلة الدعوة ونشر الإسلام والجهاد في سبيله من جهة أخرى.

- تأليب العلماء،إذ لم يقتصر كيد المستعمرين على الوسائل السابقة بل تجاوزه إلى حد الإتصال ببعض العلماء داخل الصومال وخارجه من أجل تشويه صورة وسمعة وأعمال السيد محمد بن عبد الله حيث استصدرت منهم فتاوي تقول بأن الداعية مارق يسلك سلوكات تتنافى والشرع الإسلامي الحنيف ومن هؤلاء العلماء أستاذه "محمد صالح" الذي حرضته بريطانيا وإيطاليا فأعلن من مكة المكرمة عن فصله من الطريقة الصالحية سنة 1323هـ- 1905م، فوجدت القادرية ضالتها وصار يوسعها مقاتلته بوصفه مبتدعا أو زنديقا[1].

أدت هذه الدسائس والمؤمرات من جانب الدول الإستعمارية إلى تجدد القتال والمعارك بين أنصار محمد بن عبد الله، وإنجلترا والدول الإستعمارية المتحالفة معها من جانب، والقبائل الصومالية الموالية لها من

---

(1)- كارل بروكلمان: المرجع السابق، ص.650.

جانب آخر، وبلغت المواقع ثمانية وعشرون معركة، وسلكت الدولة الإستعمارية للقضاء على هذه الدعوة بعد تجدد القتال أساليب سياسية في غاية المكر والخديعة والدناءة، حيث لم تكفها غارات القبائل الموالية على معسكرات المجاهدين، لأنها لم تكن كافية للنيل من قوات المصلح، فتوجهت إلى سلطنتي "ماجرتنيا" و"ورسنجلي" الصوماليتين اللتين تتمتعان بقوة وتنظيم أكثر بالإضافة إلى قربها من المركز الرئيس للمجاهدين ودفعتهما لشن الحرب على المجاهدين ودك مراكزهم، فالتقى جيشا السلطنتين المدجج بأحدث أسلحة الفتك والدمار بمنطقة "بران" "Bran".

وأمام هذا الموقف الصعب لم يجد السيد محمد بن عبد الله حسن سوى الإستعداد له وجمع قواته وتنظيمها ووضع خطة محكمة أدت إلى كسب المعركة بأقل الخسائر وانهزمت قوى الخيانة الصومالية الموالية للإستعمار، ثم قامت بعد ذلك معركة "نافال" بين المجاهدين والإنجليز وإنتهت بإصابة هؤلاء الاخرين بهزيمة منكرة، إذ أباد المجاهدون القوة البريطانية، فيأست هذه الأخيرة من الانتصار والتغلب على الصوماليين وبدأت تفكر في الإنسحاب والجلاء عن الصومال، ولم تكن فكرة الإنسحاب والجلاء مستساغة لدى جهابذة الاستعمار الإنجليزي، ولما طرح الموضوع للنقاش في مجلس اللوردات المنعقد في عام 1328هـ، 1910/29م وجه اللورد "كرودني" "CRODNI" انتقادا شديد اللهجة لسياسة حكومته في الصومال عند عرضها فكرة الجلاء، وذلك لما لهذه المنطقة من أهمية استراتيجية ولإنعكاسات الجلاء السلبية على السياسة البريطانية في شرق إفريقيا عموما ومنطقة القرن خصوصا.

لم تقف جهود هذا المندوب المعارض عند هذا الحد، بل راح يجمع التوقيعات من أهالي محمية الصومال البريطاني احتجاجا على قرار الجلاء، كما شنت الصحافة البريطانية حملة واسعة النطاق على سياسة بريطانيا في الصومال ومن ورائها القرار.

وأمام هذه الإنتقادات ووعد إيطاليا بمشاركتها ومساهمتها الجدية في حرب المجاهدين، إضطرت بريطانيا إلى التراجع عن قرار الجلاء ودفعت بكامل ثقلها السياسي والعسكري، فألحقت الهزيمة بالمجاهدين. فلم يجد الداعية بدا فيما بعد سوى التراجع نحو الأحراش والجبال إلى أن وافته المنية بمرض الحمى في الحبشة سنة 1339هـ/1921م فوقعت البلاد بعد ذلك في يد المستعمرين الذين سارعوا لإقتسام بلاد الصومال باعتباره غنيمة(1) من وجهة نظرهم.

فشل المقاومة و أسبابه الهزيمة:

تعود أسباب هزيمة الصوماليين إلى جملة من العوامل التي استغلتها بريطانيا فمكنتها من تحقيق

---

(1)- مصطفى مؤمن: المرجع السابق، ص،ص 408،409.

الإنتصار وهي:

1- انتصار الحلفاء على ألمانيا والدولة العثمانية في الحرب الكونية الأولى 1914-1918م ذلك أن "محمد بن عبد الله حسن" قد حاول الإستفادة من هاتين الدولتين خاصة في المجال العسكري قبيل إندلاع هذه الحرب.

2- ظهور سلاح جديد في ميدان القتال ضد الصوماليين، إذ ظهر سائل "الأسينون" المستخدم لإذابة "النيتروجليسيرين" وقطن البارود لصناعة مادة "الكورديات" المفرقعة الدافعة التي يحشى بها الرصاص والقنابل من دقيق الذرة، طور هذا السلاح خلال الحرب العالمية الأولى واستخدم فيما بعد في الصومال(1).

3- الصراع والفرقة التي حدثت في صفوف الشعب الصومالي.

4- الإنشقاق الذي حدث على مستوى الأنصار والمجاهدين والتسرع في إصدار الأحكام على بعض الأتباع وتنفيذ حكم الإعدام فيهم، لإتهامهم بالخيانة العظمى دون بينة ثابتة وحجة دامغة.

5- تخلي بعض شيوخ القبائل عن مساندة وتأييد السيد "محمد بن عبد الله حسن"، فتقلصت شعبيته.

6- استغلال الأعداء المناوئين للحركة، في هذه الأحداث وبث روح الحقد والكراهية في نفوس الصوماليين ضد الداعية "محمد بن عبد الله حسن".

7- خيانة بعض العلماء المسلمين في الداخل والخارج ووقوفهم في صف الإستعمار وإصدارهم فتاوي مغرضة ضد قائد الجهاد الصومالي وخاصة تلك التي صدرت من أستاذه في مكة بإيعاز من الإيطاليين والإنجليز(2).

تظافرت هذه العوامل كلها وساهمت في التقليص من شعبية الحركة بعزوف الكثير من الأتباع والأنصار عنها، فقلت بذلك الموارد البشرية والمادية،صاحبها ندرة الاسلحة ولاسيما العصرية منها ،كما ساهم في صعوبة الموقف طول أمد فترة الجهاد من جهة وتفرغ الدول الإستعمارية بإمكاناتها الضخمة وعلى رأس هذه الدول بريطانيا العظمى من جهة أخرى، الأمر الذي حال دون انتصار المصلح المجاهد "محمد بن عبد الله حسن".

إذ تمكن الأسطول الجوي البريطاني من سحق الثورة ودك مواقعها وطاردت القوات الإستعمارية والصومالية العميلة للإستعمار قائد الحركة، الذي خرج من البلاد.

وبالرغم من القضاء على المصلح إلا أن ثمار الدعوة وآثارها بقيت محفوظة في نفوس الشعب الصومالي المسلم،ورغم خضوعه للاستعمار الأجنبي الغاشم، إلا أنه كافح ضد هذا الوجود المتعدد الجنسيات وتمكن في النهاية من إفتكاك إستقلاله واسترجاع حريته سنة 1960م، وفضلا عما دبر له إلا أنه

---

(1)- د. عبد الرحمان النجار: (الإسلام في الصومال)، عرض محمود بيومي، مجلة الأمة، شهرية قطرية، ع65، جمادى الأول 1406هـ/ يناير1986م، ص55.

(2)- كارل بروكلمان: المرجع السابق، ص.650.

بقي متمسكا بدينه،وأقر الشعب الصومالي في وثيقة تاريخية وقع عليها علماء الصومال ورؤساء الأحـــزاب السياسية بشأن تحديد اللغة الرسمية للدولة جاء فيها[1]:" إننا نختار اللغة العربية لغة الديـــن ولغـــة القـــرآن الكريم، ولأنها لغة المحاكم الشرعية في جميع نواحي القطر ولغة التجارة والمكاتبات منذ انتشار الإســـلام في هذه البلاد... ولأن اللغة العربية يتكلم بها أغلبية السكان وأن اللغة العربية قد اختارها الشعب بالإجمـــاع لتكون لغة البلاد الشعبية والرسمية وهو مجرى طبيعي لا نجد مناصا منه" وبذلك عـــبر الصومـــاليون عـــن تمسكهم بالإسلام والعروبة وصارت البلاد عضوا في جامعة الدول العربية.

بعد تعرضنا لتاريخ الصومال تبين لنا أنه موطن لهجرات الشعوب والقبائل المختلفة منـــذ القـــدم فعبره مرت هجرات عديدة إلى شرق القارة الإفريقية إنطلاقا من شبه جزيرة العرب ومن شرق آسيا، كمـــا مرت عبره الهجرات الأولى للمسلمين الفارين بأرواحهم ودينهم الجديد إلى أرض الحبشة على إثر نـــزول الرسالة المحمدية.

كما بينت لنا الدراسة أن الشعب الصومالي كان شعبـــا نشيطا ومتفتحا على الخارج،فقد مـــارس النشاط التجاري وتبادل المنافع مع الشعوب الأخرى المختلفة منذ العصور القديمة،لذلك كانت علاقاته متينة مع العديد من الشعوب والأمم وخاصة مع البلاد العربية في المشرق.

وبعد ظهور الإسلام وزيادة هجرات المسلمين أفرادا وجماعات،زاد الإستطان العربي لأرض القـــرن الإفريقي،وبمرور الزمن صار البلد بلدا عربيا وإسلاميا دون استعمال لقوة الجيوش، بل فقد انتشر الإســـلام بين الصوماليين بالحكمة والموعظة الحسنة والمعاملة الطيبة والمصاهرات.

ومنذ أن اعتنق هذا الشعب الدين الجديد حمل على عاتقه لواء الدعوة، فاندفع ينشرها في إفريقيـــا عموما وفي شرقها على وجه الخصوص، وقد لعب الصوماليون حكاما ومحكومـــين دورا بـــارزا في هـــذا المضمار إذ كانوا منذ القديم هدفا للصليبية الحاقدة، وذلك لمجاورتهم لأعتى قوة مناوئة للديـــن الجديـــد في إفريقيا، تلك هي الحبشة المسيحية.

لذلك يمكن القول أن الصومال لم يتحمل شعب من الشعوب الإسلامية الإفريقية ما تحمله هـــذا الشعب بوقوفه ضد مناورات الحبشة وهجماتها المتكررة في محاولة منها للنيل مـــن الإســـلام والمســـلمين والوقوف سدا منيعا في وجه المد الإسلامي وانتشار الدعوة وتقدمها نحو وسط القارة الإفريقية، وقد وقـــف الصوماليون لكيد الحبشة وغاراتها بصبر وشجاعة نادرتين محققين النصر تلو الآخر، معتمدين على أنفســـهم حينا ومستنجدين بإخوانهم العرب والمسلمين في أحايين أخرى وبالرغم من هذه الحروب والصراعات، فقد تمكن الشعب الصومالي من الحفاظ على عروبته وتمسكه بدينه الإسلامي الحنيف بفضل ما أقامـــه الدعـــاة

---

(1)- د. عبد الرحمان النجار: المرجع السابق، ص.61.

والعلماء والمعلمون من كتاتيب ومدارس ومساجد ومراكز ثقافية أقبل من خلالها أبناء البلد على العلـــوم والمعارف وانتقلوا إلى الحواضر الإسلامية، لتلقي العلوم وخاصة في الأزهر الشريف، ومســـاجد الحرمـــين الشريفين، فترسخت بذلك اللغة العربية والثقافة الإسلامية في عموم البلاد وظهر من بين الصوماليين علمـاء ودعاة حافظوا على استمرارية الدعوة والحركة الإسلامية.

وما كاد الصومال ينعم بالإستقرار والهدوء حتى ظـــهرت الطلائـــع الأولى للإســـتعمار الأوروبي الحديث،منذ أواخر القرن التاسع الهجري، نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، المتمثل في البرتغاليين الذيـــن حلو بشرق إفريقيا واتصلوا بالأحباش وقدموا لهم المساعدة والعون من أجل محاربة الإسلام والمسلمين، غير أن تعصب البرتغاليين لمذهبهم ومحاولة فرضه على الأحباش حال دون تحقيق أغراضهم،غـــير أن الأمـــر لم يتوقف عند هذا الحد فقط، بل سرعان ما تهافتت على المنطقة قوى إستعمارية متعددة زادت في تأزم الوضع أكثر فأكثر، فزاد التغلغل الأوروبي زيادة فاحشة في شرق إفريقيا بصفة عامة ومنطقة القرن بوجه خاص، إذ سرعان ما تتابعت الدول الأوروبية في سباق محموم للإستلاء على المنطقة وكان حظ الصومال من ذلـــك سيئا، فقد سارعت هذه القوى لتجزئة البلاد وبذر نار الفتن والقلاقل بين أفراد الشعب الواحد وزعزعـــة الإستقرار وتشتيت قوى ووحدة البلد ليسهل عليها إبتلاعه.

لكن ماضي الصومال وحضارته أبى قبول هذا الواقع المؤلم وعمل من أجل تغييره أو التخفيف على الأقل من قساوته، فضاعف الصوماليون الوطنيون وخاصة المثقفون منهم ورجال الدعوة نشاطهم الدعـوي لإصلاح ما فسد من المجتمع سواء على مستوى الدين والأخلاق أو على مستوى التجديد وتعبئة المجتمـــع للمقاومة والمجاهدة،خاصة أن هؤلاء الدخلاء الأجانب حملوا على عاتقهم مهمة تنصير الشعب الصومـــالي المسلم واحتلال أرضه واستنـــزاف ثرواته، فلبى الصوماليون نداء الجهاد وحملوا رايته فكانت لهم صـولات وجولات في ربوع الصومال الإسلامي، يجاهدون أربع دول ثلاثة منها على الأقل من أقوى الدول في وقتها بزعامة المصلح"محمد بن عبد الله حسن" الذي قارع الإستعمار في هذه البقعة من العالم الإسلامي حوالي ربع قرن من الزمن.

وبالرغم من استشهاد البطل وسقوط الصومال في يد الإستعمار الغاشم فإن الصوماليين لم يغفلـــوا عن واجبهم في تحرير بلدهم الممزق، وقـــاموا بالكفـــاح والنضـــال إلى أن حصلـــوا علـــى اســـتقلالهم 1380هـــ/1960م، وما زالوا إلى اليوم غصة في حلق الدول الغربية المتكالبة على المنـــاطق الإســـتراتيجية وخصوصا في منطقة القرن الإفريقي.

خاتمة الفصل :

بعد أن تعرضنا لأهم حركتين إصلاحيتين إسلاميتين في إفريقيا جنوب الصحـــراء كانتـــا خاتمـــة حركات مطالع القرن الرابع عشر الهجري، ونهاية القرن التاسع عشر الميلادي إحداهما كـــانت في غـــرب إفريقيا،والثانية في منطقة القرن الإفريقي بشرقها.

ورغم بعدهما من حيث المكان،فإن لهما أوجه شبه يمكن ملاحظتهما فيما يأتي:

– تشابه الأوضاع الداخلية بين المنطقتين رغم تباعدهما جغرافيا، فقد كان الجهل والأمية والتخلف والإنحطاط القاسم المشترك بين شعوب المنطقتين،علاوة على ميل الناس الجامح إلى الكسل والبعـــد عـــن الإلتزام بتعاليم الدين،وعودة الوثنية إلى الظهور مجددا في مجتمعات عرفت منذ أمد بعيد بتمسكها بالإســـلام وتعاليمه والعمل على نشره بحيوية.

– أن زعيمي الحركتين إنطلقا من منطلق واحد وهو محاولة تصحيح العقيدة الإسلامية التي امتـــد إليها الزيف وخالطتها البدع وخرقها الخرافة ومزقتها أباطيل الشعوذة والسحر،برغم قدم الإسلام ورسوخه في هذه المناطق.

– سلك المصلحان "ساموري توري" في غرب القارة و"محمد بن عبد الله حسن" في شرقها منذ البدايـة أسلوب الدعوة بالعودة إلى الإسلام الصحيح بالتعليم والطرق السلمية، لاسيما في المنطقة الأخيرة ثم انتقلت الدعوة إلى الجهاد.

– انتشار الطرق الصوفية على نطاق واسع في كلتا الجهتين،ووقوف بعض شيوخ هذه الطرق مـــع بعض زعماء القبائل إلى جانب الإستعمار في وجه الدعوات الإصلاحية الجديدة سواء ضد "ســـاموري" أو في وجه "محمد بن عبد الله حسن".

– أن الرجلين كان كل منهما رجل علم وتقوى وصلاح منذ البداية،إذ أخذا العلوم الشرعية منـــذ الصبا،وتشبع كل منهما بالتعاليم الإسلامية الصحيحة، فأضفى عليهما نوعا من التقدير والاحترام،وما لبثـــا أن تحولا إلى مصلحين مجاهدين وزعيمين سياسيين و أنشآ دولتين لهما تقاليدهما وتستمدان تشريعاتهما مـــن القرآن والسنة النبوية الشريفة، فبـــرهنا بذلك على قدراتهما وإمكاناتهما الفكرية والدبلوماسية والعســـكرية و لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل راح كل منهما يحاول الوقيعة بين القوى الإستعمارية "ساموري" بـــين فرنسا وبريطانيا، و"محمد بن عبد الله" بين هاتين الأخيرتين وبين كل من الحبشة وإيطاليا.

– وقوف المصلحين رغم ضعف إمكانات بلديهما في وجه أعتى قوة استعمارية، في حينها،وتمثـــل في قوة كل من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا والحبشة علاوة على القيادات الوطنية العميلة المســـاندة للقـــوات الأجنبية.

- سلك كل منهما منهجا مزدوجا من أجل الحفاظ على المقومات الأساسية الإسلامية لشعبه من جهة، ومن جهة ثانية إستمرارية المقاومة والمواجهة للإستعمار الدخيل على المنطقة، وبذلك تميز كفاحهما بالمرونة حينا والشدة أخرى، و لم يقطع كل منهما حبل الإتصال مع الإستعمار وعقد الإتفاقيات معه ومحاولة كسب صداقته أو على الأقل مهادنته،كما فعل "ساموري" مع الإنجليز وفي نفس الوقت كانت المقاومة مستمرة مع غيرهم.

إن المصلحين وجهين إفريقيين شرفا القارة بنضالهما في سبيل محاربة التخلف والإستعمار، إذ لم يتسطع هذا الأخير الإطاحة بهما بسهولة، "فساموري" لم يتمكن الفرنسيون من الإنتصار عليه حتى أقاموا المعاهدات والإتفاقيات مع أصدقائهم الإنجليز.

أما "محمد بن عبد الله حسن" فقد راحت الدول الإستعمارية تتقرب إليه وتتودد له، وتفاوضه وتعترف به وبسيطرته على مناطق واسعة من الصومال، و لم تتمكن منه حتى بعد إنتهاء الحرب الكونية الأولى 1918، إذ تفرغت بريطانيا وإيطاليا وفرنسا وحتى الحبشة للإطاحة بزعيم الحركة الصومالية.

- انتهاء الرجلين بالخروج من بلديهما مكرهين بعد مقاومة بطولية،وموتهما بالمنفى خارج حدود الوطن الذي دفع كل منهما الغالي والنفيس في سبيل إنقاذه.

وهكذاتوقف المقاومة والجهاد البطولي للمسلمين في إفريقيا، وتقع المنطقة من أقصى شرقها إلى أقصى غربها ومن شمالها الى جنوبها بين براثن الإستعمار الأوروبي الصليبي الذي مارس أبشع صور الإبادة والمسخ ضد الشعوب الإسلامية في إفريقيا،ومارس نشر المسيحية بمختلف مذاهبها بين السكان هؤلاء الذين استمروا محافظين على مقوماتهم الاساسية متمسكين بها،حتى قامت الحركات الوطنية المعاصرة التي استخدمت كل الوسائل للقضاء على الاستعمار واخراجه.

خاتمة الرسالة :

بعد المعايشة للبحث ومناقشة وتحليل الأحداث المختلفة التي سبق عرضها في هـــذه الدراســة المتواضعة التي قمت بها لمنطقة إفريقيا جنوب الصحراء، خلصت إلى النتائج الآتية:

1- إن منطقة إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى منطقة غنية بثرواتها الطبيعية السطحية والباطنية وأن سكانها كانوا ينعمون بحياة إقتصادية ورفاه مادي وبمستوى لا بأس به من الرقي عكس مـــا كـــان يعتقده الكثير من الناس.

2- مدى قساوة الطبيعة والمناخ الصحراوي المتمثل في فيافي الصحراء وشساعتها من جهـــة وحرارة مناخها وقلة المياه وانعدامها أحياناءعلاوة على تباعد الواحات ومراكز العمران عـــن بعضـــها البعض من جهة أخرى، الأمر الذي ضاعف من صعوبة إختراق هذه الصحـــاري وتضخـــم الخســـائر البشرية والمادية عند عبورها.

3- كما تبين لنا أن المجتمعات المنتشرة على الساحة الإفريقية الواسعة لم تكن كلها مجتمعـــات بدائية متخلفة للدرجة التي وصفت بها من قبل الرحالة والمستكشـــفين ورجـــال الديـــن والساســـة الأوروبيين، فقد دلت الأبحاث والدراسات -رغم قتلها- وشهدت الآثار على أن المجتمـــع الإفريقـــي كغيره من المجتمعات البشرية شهد فترات رقي وازدهار كما عرف فترات تدهور وانحطاط.

4- كما أن الصحراء الإفريقية الكبرى لم تقف عائقا وسدا منيعا أمام الإنسان الإفريقي كمـــا كان شائعا، فقد اتصل أفارقة شمالي الصحراء بأفارقة جنوبيها من شرقي القارة الى غربيـــها،وتوطـــدت عرى الصداقة وتوثقت العلاقات التجارية التي ساهمت بقدر كبير في ربط العلاقات السياسية وإعطـــاء دفع غير يسير لتمتين الروابط الثقافية، وتم ذلك بفضل الإحتكاك والإمتزاج بينهم منذ فترات موغلة في القدم يصعب تحديدها.

5- لقد كان لظهور الدين الإسلامي واعتناقه من قبل الأفارقة أثره،إذ زادت الصلات وتهذبت بشكل ملفت للإنتباه، إذ بلغ التأثير مداه بين أفارقة شمالي القارة وجنوبيها، فقد قطع الإســـلام هـــذه البلاد وانتقل بسهولة إلى هذه الأصقاع النائية في فترات مبكرة سواء عبر الشاطئ الإفريقي الشـــرقي المواجه لشبه جزيرة العرب، أو عن طريق الشمال الإفريقي عبر مسالك معلومة.

6- لقد بلغ الإسلام إلى مناطق موضوع الدراسة عن طريـــق الدعـــاة والمعلمـــين والتجـــار والهجرات،وانتشر بالدعوة والموعظة الحسنة دون إكراه، لا كما يدعي الكثير من خصومه.

7- أن الأفارقة الذين اعتنقوا الإسلام لم يقفوا عند حد الإيمان به فقط،بل كان له بالغ الأثـر في نفوسهم فتحولوا إلى دعاة ومعلمين ومصلحين حملوا رسالة نشره بين ذويهم، وخصوصا أولئك الذيـن تمكنوا من تحصيل زاد علمي وافر، وأصبحوا علماء وفقهاء دعاة، وقد ظهر هذا في جهات عديدة مـن نطاق إفريقيا جنوب الصحراء، إذ قام هؤلاء بالإنتقال بين القرى والواحات والجماعات القبليـة دون مراعاة صعوبة الطبيعة وقساوة المناخ، ولا الأخطار التي قد تنجم عن حلهم وترحالهم بين هذه الأمـاكن وهم عزل لا سلاح لهم سوى سلاح العلم والتقوى ليس إلا، فكانوا رسلا للعلم والإيمـان مبشـرين ومنذرين، فشيدوا المساجد والمدارس والمراكز الإسلامية،وعلموا الناس الدين الإسـلامي الصحيـح فأخرجهم من عبادة الأوثان، فتخلوا عن كثير من المعتقدات والمظاهر المشينة كالمشي عـراة، وأكـل اللحم البشري وما إلى ذلك.

8- كما أن الإفريقي المسلم بفضل إعتناقه الدين الجديد،تمكن من التعلم والرقي فتخلى عـن المعتقدات الوثنية الزائفة، وانصرف عن الأباطيل والسحر والشعوذة،وتفتح على حقيقة الحيـاة فـزاد تعطشه للمعرفة وتطلعه لمراكز الحضارة الإسلامية، فازداد ابتعادا عن الروح القبلية واشتد مقتـه لهـا فأنشأ الإمارات والممالك والإمبراطوريات التي تحكمها شريعة الإسلام، ومازال التاريخ شاهدا علـى أن حضارة عظيمة وراقية قامت هاهنا ذات يوم ما زالت شواهدها قائمة رغم عوادي الزمن وقهر الطبيعـة وتخريب يد الإنسان، حدث هذا في زمن كانت الشعوب التي تسود عالم اليوم تعيش في دياجير الأميـة وغياهب الجهالة وعصور الظلام، لذلك كانت إلى وقت قريب تجهل إفريقيا ولا تعلم عنها إلا النـادر واليسير المزيف.

9- استطاعة رجال الدعوة الإسلامية من إنشاء دول وممالك رغم أنهم رجال ديـن، فـأثبتوا بذلك أن الإسلام دين ودلة،عكس ما يعتقده الكثير من المثقفين، فالإسلام والسياسة يمتزجان مع جميـع مناحي حياة المسلم، وانطلاقا من هنا فإن تسمية رجال الدعوة الإسلامية في إفريقيا برجال الدين تسمية خاطئة، إذ لا نستطيع أن ننفي عنهم الصفة السياسية.

10- كما تبين لنا مدى قدرة سكان المنطقة سواء في السودان الغربي أو الأوسط أو الشـرقي على تنظيم شؤونهم تنظيما يتماشى مع التعاليم الإسلامية وتقاليدهم الموروثة فاستقروا، وفي ظل هـذا الإستقرار والهدوء عكف طلبة العلم والمعارف على التحصيل العلمي حيثما كانوا،فبرز منهم النوابغ مـن العلماء والأدباء والشعراء، الذين تولوا مناصب القضاء والإفتاء والتدريس والإدارة، وما لبث أن امتـد نشاطهم إلى خارج نطاقهم الجغرافي فعملوا على نشر الثقافة العربية والإسلامية بفضـل جـهودهم في

التربية والتعليم والإصلاح، ولما وضعوا وخلفوا من إنتاج فكري، كما حظي هؤلاء العلماء بـــالتقدير والإحترام والتشجيع من قبل الكثير من الحكام الأفارقة.

11- سيادة اللغة العربية وثقافتها على جميع اللغات خاصة في المجال العلمي والثقـافي والإداري فقد كانت لغة المكاتبات الرسمية والمعاملات اليومية، فمعظم المخطوطات والمراجع التي تحفـظ تـراث المنطقة مدون باللغة العربية، وقد امتدت إليه يد النهب والسلب من قبل المستعمرين فنقلوه إلى ما وراء البحار واستغلوه في محاربة أهل البلاد أنفسهم، كما يلاحظ أن معظم اللغات الإفريقية لا تخلـوا مـن مفردات عربية، فاللغة السواحلية مثلا تتوفر على نسبة عالية من الكلمات العربية.

12- استطاع سكان المنطقة بفضل ما تعلموه من الإسلام والمسلمين أن يخضعوا البيئة ويطوعوا الصحراء ويخضعونها لمقتضيات حاجياتهم اليومية، فأخذوا ما يحتاجونه وسخروه في بناء منازلهم وتشـييد قصورهم، كما استخرجوا المياه واستغلوها في أغراضهم الحياتية وزراعاتهم،فازدهرت الحياة في الحواضر وارتفع مستوى المعيشة والمدنية، كما عرفوا كيف يوظفون الموقع الجغـرافي منـذ القـدم في المجـال الإقتصادي والسياسي والثقافي، فاستغلوه في التجارة فنمت الاسواق وتحولت الى نـوادي وملتقيـات تجمع القوافل التجارية العابرة للصحراء من جميع المناطق وكانوا وسطاء في نقل التجارة بين الشـمال والجنوب.

13- استمرار منطقة إفريقيا جنوب الصحراء في تأدية دورها الإجتماعي والإقتصادي والثقـافي منذ القدم، وزاد نشاطها بفضل إعتناق سكان المنطقة للإسلام وتأثير المسلمين فيهم، فشـيدوا أعظـم الإمبراطوريات في عصرهم فزاد انتشار الحواضر والمراكز الثقافية والمساجد والزوايا التابعـة للطـرق الصوفية المتعددة حتى صار معظم السكان ينتسبون إليها، ويرجع الفضل في نقـل هـذه الطـرق إلى الحجاج والمعلمين والدعاة والتجار.

14- تدهور أوضاع المنطقة في العصور الحديثة نتيجة الصراعات السياسية والنزاعات العصبيـة والخلافات القبلية، وتخلي الحكومات عن الحكم بالشريعة الإسلامية لمجتمع تجذرت فيه هـذه الثقافـة علاوة على النشاط الإستعماري الأوروبي الذي باركته الكنيسة ولم تدخـر أي جـهد في مسـاعدته والتمكين له بوسائل متعددة وبالكثير من المبشرين ورجال الدين والجمعيات الدينية المتعددة.

15- إدراك ووعي الانسان الافريقي مبكرا بالاخطار التي حدقت به،لذلك لقي المسـتعمرون مقاومة شديدة من قبل الوطنيين الأفارقة الذين كان معظمهم مسلمون، فقـد أدرك حكـام الممـالك الإسلامية والوثنية على حد سواء أبعاد الغزو الهادف إلى نسف الحضارة الإسلامية والثقافية الإفريقيـة والقضاء عليهما، وإحلال الحضارة والثقافة الغربية محلهما، خصوصا وأنه ساد الإعتقاد لـدى الغـزاة

الأوروبيين بأن الأفارقة لم يعرفوا ولم يمارسوا النظم السياسية فأعتقدوا أنهم منقذوا القارة من الظلام والدافعين لها نحو الرقي والتقدم والازدهار.

وقصور النظرة الأوروبية لإفريقيا إذ ظن هؤلاء أن المهمة التي جاءوا من أجلها سهلة لكن الأماني والظنون تحطمت على صخرة المقاومة الوطنية وشدتها، فما كان عليهم سوى وصف زعمائها بالمتعطشين لسفك الدماء مثل "ساموري توري"، والوحوش والمجانين كما حدث مع "محمدو لامين" و"محمد بن عبد الله حسن"، وتناسى المعمرون وحشيتهم وجنونهم وعنفهم ضد الوطنيين وإراقة دمائهم

16- ظهرت شدة استخدام القوة العسكرية نتيجة قوة المقاومة الوطنية وعنفها وعجز المستعمرين عن إخمادها، فلجأوا إلى القوة باستخدام جيوشهم المدججة بالأسلحة الحديثة المدمرة وجلبوا أشخاصا لا يعترفون إلا بالقوة لتحقيق أطماع الإستعمار التوسعية، وقد سعى هؤلاء الضباط لكسب أمجاد شخصيته، فراح الكثير منهم ينفذ العمليات العسكرية دون إعلام حكومته أحيانا ومتجاهلا أمرها أخرى، واقتنعوا بأنهم أدرى بالظروف المحلية واثقين من قدراتهم القتالية، فكان إحساسهم نحو المدنيين حتى من بني جنسهم لا تتعدى مشاعر السخرية والإستخفاف.

17- ظهور إغراءات الحكومات واندفاع العسكريين للعمل في ميدان الإستعمار، إذ أصبح العمل في إفريقيا مصدر كل ترقية وربح سريعين للعسكريين،نتيجة الزيادات المغرية في الرواتب وتقديم المنح بسخاء، فراحوا يبحثون عن مستقبل باهر في ميادين القتال.

وإذا كانت هناك أسماء لمعت في صفوف القادة العسكريين والمدنيين الغزاة،فإن هناك بجانبها أسماء فاقت لمعانها بريق لمعانهم، بل اكتسب قدسية،وأصبحت مضربا للمثل تلك هي أسماء الوطنيين الأفارقة الذين رفعوا راية الجهاد.

وإذا كان أمر الجهاد قد اختلفت دوافعه بين زعيم وآخر،إلا أنه كان لكل واحد دوره في نشر الإسلام وإصلاح المجتمع من جهة،ومقاومة الإستعمار الدخيل من جهة أخرى،فقد دوخوه وكبدوه الخسائر وحالوا دون تحقيق أحلامه التي كانت تراوده، فقد كان يتصور أن السيطرة على القارة السمراء ما هي إلا مجرد سياحة للترهة وجولة خاطفة.

وإذا كان لنا أن نسأل أنفسنا لماذا أخفقت هذه المقاومة الإفريقية في تحقيق النصر رغم قوتها وعنفها ومكانة زعمائها؟.

يمكننا أن نجمل ذلك في العوامل الآتية:

أ- اعتماد المستعمرين على الفرق العسكرية النظامية ذات التدريب الحديث والمدججة بالأسلحة النارية المتطورة، واستمالة الحكام الأوروبيين لفئة من السكان المحليين كونوا منهم فرقا

عسكرية "الصبايحية والرماة السنغاليين، الذين كانوا على دراية تامة بجغرافية البلاد، كما كانت لهـــم القدرة الكافية على تحمل قساوة المناخ، خاصة بعد الإكتشافات العلمية في أوروبا وإيجاد أدوية للوقايـة ومقاومة الأمراض والأوبئة وعلاجها، فقدمت هذه الفرق خدمات جليلة للإستعمار وتحملت العـــبء الأكبر في ترسيم الإستعمار في إفريقيا.

ب- سيادة الروح الفردية وعدم التعاون بين الزعامات الإفريقية، فالمقاومات كانت تفتقـر إلى التنظيم الجيد والموحد،فرغم وجود حركات متقاربة في المكان والزمان لكنها لم تتحد لتخوفـــها مـــن بعضها البعض، وعندما أدركت ضرورة التعاون مثل ما حدث بين "ساموري" و"أحمدو شيخو" كـــان الوقت قد تجاوزها بسبب توغل النفوذ الإستعماري في المنطقة.

جـــ- اعتماد المستعمرين على سياسة التفرقة بين القبائل الإفريقية، فقد أنشأ الفرنسيون مثـلا دولة لشعب البمبارا الوثني موالية لهم على حساب التكرور المسلمين، هذا في غرب إفريقيا، أمـــا في شرقها فقد عمد المستعمرون إلى إثارة القبائل ضد بعضها بعضا، وامتدت أعمالهم الدنيئة إلى شراء ذمم بعض الشيوخ واستصدروا منهم فتاوي ضد زعماء المقاومة ووصفهم بـــالمروق والزندقـــة خاصـــة في صفوف الزعماء المسلمين مثل ما وقع مع "محمد بن عبد الله في الصومال،فضلا عن كـــثرة الطـــرق الصوفية وتعددها وانتشارها على نطاق واسع في إفريقيا جنوب الصحراء، لكن مع الأســـف لم يـــهتم زعماء هذه الجمعيات وأنصارها بأية محاولة للتعاون والتحالف، بل زادت في الفرقة واتساع الخلافـــات فعمدت هذه الطرق إلى مقاتلة بعضها البعض، فالحاج عمر "التيجاني" مثلا قام بمحاربة أتباع "القادرية" ومحاولة إرغامهم على اعتناق التيجانية.

د- إعتماد السلطات الإستعمارية أساليب العنف واستخدامها القوة لتشريد الزعماء الأفارقـــة بعد التغلب عليهم.قتل، نفي، تعذيب، لإرهاب السكان وتشويه صورة الزعماء بين شعوبهم في المنـــاطق التي كانوا يحكمونها وحتى خارجها ليضمنوا لأنفسهم عدم إلتفاف السكان المحليين مجددا حولها.

هـــ- انتشار الجهل والأمية وسيادة الفكر الخرافي لاسيما بين القبائل الوثنية واعتمادها علـــى خرافات السحر في مقاومة الإستعمار بالإضافة إلى إيمان المسلمين بالمهدي المنتظر المخلص عندما فقـــدوا الأمل في المقاومة.

ي- الظروف الدولية المحيطة التي ساعدت إلى حد كبير في توجيه الإستعمار نحو القارة خاصـــة بعد الحرب السبعينية، واكتمال الوحدة القومية لكل من إيطاليا وألمانيا، وانعقاد مؤتمر برلـــين 1884-1885م بعد ذلك، ليقر اعتراف كل دولة أوروبية معنية بالإستعمار سيادة كل منها على المناطق الـــتي تقع تحت نفوذها طالما أن هذه السيادة مجسدة ومدعمة عسكريا.

وإذا كانت السلطالت الإستعمارية بمختلف جنسياتها راحت بعد التغلب على المقاومات والزعامات الإفريقية تسلط عليها أقسى العقوبات، إلا أن المقاومة الوطنية والدعوة إلى الإسلام والإصلاح لم تتوقف واستمرت حتى ما بعد الحرب الكونية الأولى.

ورغم الدور الكبير الذي قدمه الإسلام والزعماء والدعاة المسلمين في مجال المقاومة والتضحية والجهاد، فإن معظم هذه القيادات والمقاومات طمس تاريخها وشوه وأغمطت حقها، بل فقد أضطهد المسلمون ونكل بهم وأبعدوا عن المراكز الفاعلة في البلدان الإفريقية حتى بعد الإستقلال، على الرغم من أنهم يشكلون الأغلبية الساحقة من المجتمع، وإذا أراد الأفارقة والعرب والمسلمون إزاحة الغموض الذي خيم على القارة الافريقية وما بلغته الحضارة في تلك الربوع،وخاصة تحت ظلال الاسلام والدور الذي لعبه المسلمون في ترقية المجتمع الافريقي والنهوض به وكشف اللثام عن الدعوات والحركات الإصلاحية التي قادها دعاة ومصلحون مسلمون في القرون الأخيرة لتنقية العقيدة الإسلامية مما علق بها من خرافات وأباطيل، وإصلاح أحوال المجتمع لمقاومة الغزو والتبشير والوقوف في وجه الإستعمار الغربي الذي كان يستهدف القارة لاستعباد شعوبها واستغلال ثرواتها،مسخرا كل الوسائل بما فيها اللاانسانية واللحرمة عند جميع الأجناس والملل.

وإذا ما أردنا الدقة في إبعاد هذه الضبابية التي تغيم سماء التاريخ الإفريقي وحضاراته وتحاول طمس معالمها،لابد من جمع التراث الإفريقي في جميع عصوره ومراحله التاريخية وبذل المساعي على مختلف الأصعدة وفي جميع المستويات،وإقناع الذين يمتلكون المكتبات الخاصة في هذه الربوع من تذليل الصعوبات والعراقيل وتمهيد السبيل أمام المشتغلين في حقول البحث والمعرفة لاسيما من أبناء القارة وتمكينهم من الإطلاع على ما تحتويه مكتباتهم وخزائنهم من مخطوطات قيمة، لأن هناك الكثير ممن يمتلكون مثل هذه الكنوز يخفونها ويرفضون الإفصاح عنها وعن محتوياتها حفاظا عليها وخوفا من أن تمتد إليها يد طامع وتسلبها منهم، أو تباع في حالة جهل أصحابها بقيمتها بأثمان مغرية للأجانب.

والجدير بالملاحظة في هذا المقام أن هذه المخطوطات والمراجع التي تحفظ تراث المنطقة امتدت اليها يد الاختلاس من قبل المستعمرين الذين نقلوها إلى حواضرهم وهي اليوم تعمر مكتبات الغرب ومراكزه،وتستغل حتى للإساءة لأهل البلاد أنفسهم.

لذا على حكومات الدول الإفريقية أن تقوم اليوم باسترجاع تراثها الثقافي والحضاري الذي يحمل هويتها والإستفادة منه قدر المستطاع، كما على الحكومات في الدول الإسلامية والعربية أن تسعى لتقديم العون والمساعدة وتحريك هذا الموضوع وتنشيط وتشجيع كل من يطرقه لأن معظم هذه

الأثار المخطوطة مدون بلغة الظاد، وتتمحور حول مواضيع لها علاقة باللغة العربية وبالشريعة والنظـــم الإسلامية وغيرها من العلوم.

وفي الأخير أستطيع أن أقول أنه رغم الإستعمار وما صاحبه من نشاط تبشيري ومســـــاعدات معنوية ومادية من قبل الكنيسة وحكومات الغرب وجمعياته المختلفة المذاهب والمعادية للإســـلام،فـــإن المستقبل لهذا الدين في القارة السمراء وذلك لسماحته وبساطته ونبل مبادئه، وباعتبار الإســـلام في نظر الأفارقة هو دين الرجل الأسود ولذلك استمر ينتشر رغم مقاومته بإمكاناته الذاتية.

وإذا كنت قد قصرت في مجال معالجتي لبعض الجوانب المختلفة لموضوع هذا البحث الواســـع والمتشعب والشائك في آن واحد، فالسبب يعود في المقام الأول إلى قلة المصادر والمراجع التي تتنـــاول الموضوع والتي لو توفر لدينا الكثير منها لزادنا في وضوح الرؤيا التاريخية والحضارية لهذه الجوانب.

غير أنني على رضا بأنني قد وفقت بعون الله في دراسة هذا الموضوع وأزحت الستار عن كثـــير من الحقائق والجوانب التي كانت متوارية،التي عاشتها ومازالت تعيشها المجتمعات الإفريقية بقدر يســـمح للراغبين في مواصلة دراسة هذه الجوانب التي بقيت خفية وهي كثيرة وجديرة بالتناول، وياحبذا لـــــو أفردت لكل داعية ومصلح دراسة خاصة به.

وإن كنت قد وفقت وأصبت في عملي فبعون وتوفيق من الله وإن أخطأت فمن نفسي.

والله ولي التوفيق.



الملاحق



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملحق الأول

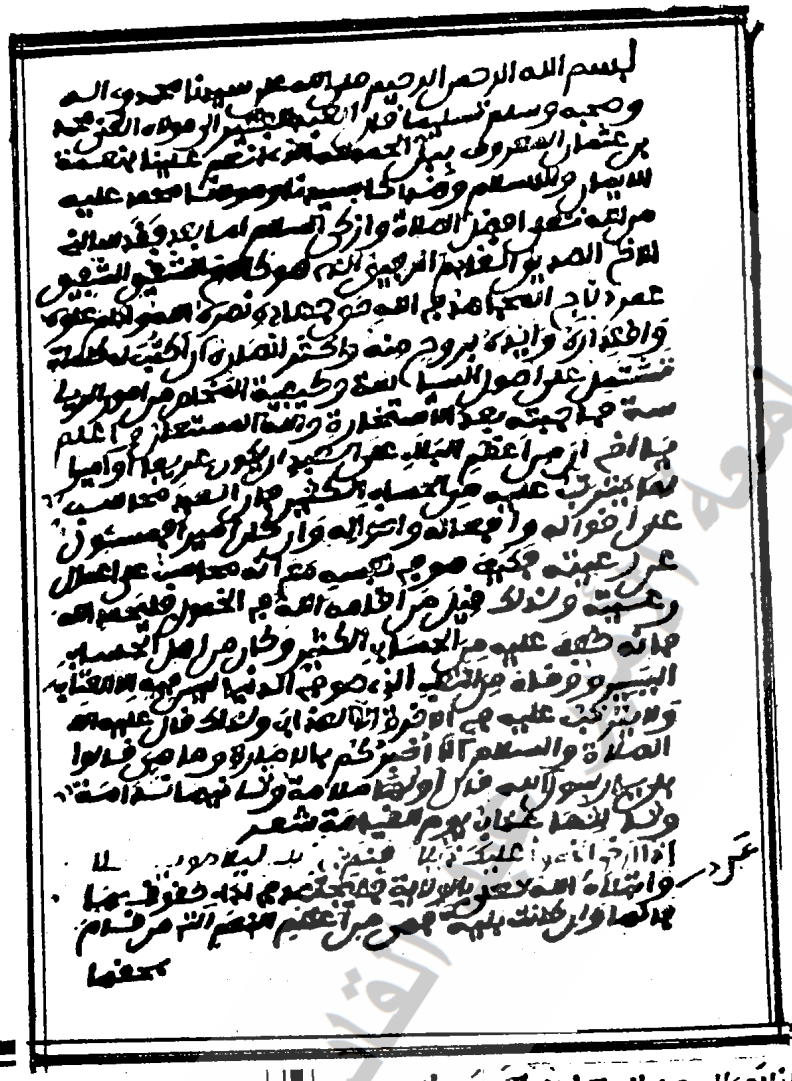
إجازة الشيخ مرتضى الزبيدي إلى الشيخ جبريل بن عمر

جماعة من الأساتذة: ممدوة العلماء الأحارقة. مرجع سابق ص355

« وأما ما أخذناه عن طريق الإجمال فقد أجازنا به أبو التوفيق عمر في جميع ما أجازه له شيخه أبو الفيض محمد مرتضى الحسيني الواسطي ولابنه أبي الأمانة جبريل بن عمر . . . . . وصوره إجازته لهما :-

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً الحمد لله وحده وصلى الله علي من لا نبي بعده وسلم تسليماً كثيراً أما بعد : فقد أجزت سيدنا الإمام الفقيه العلامة أبي الأمانة جبريل بن عمر الأقدسي وولده البخيت الشيخ عمر حفظهما الله تعالى وبلغتهما إلى آمالهما ونفع بهما المسلمين جميع ما يجوز لي روايته وأخص منها ما لي من تأليف في العلوم من منثور ومنظوم منها شرحي على القاموس المحيط في عشر مجلدات وشرحي على أحياء (علوم) الدين أعانني الله على إكماله ومنها شرحي على الحزب الكبير للقطب أبي الحسن الشاذلي قدس سره وغير ذلك من بين صغير وكبير وجليل وحقير ما جاوز عن المائتين تأليفاً في أنواع الفنون إجازه « خاصة عامة ومشائخي الذين أخذت عنهم وسمعت منهم ينيفون على المائة ومن أعلا ما وقع لي شيخنا الناسك شعبان بن زمان بن سابق الزعيلي المعمر عن الحافظ شمس الدين محمد بن علاء الدين البابلي عن علي بن يحيي الزيادي عن يوسف بن عبد الله الأزميدني عن كل من الحافظين ابن الخير السخاوي والجلال السيوطي بأسانيدهما » وكتب أبي الفيض محمد مرتضى الحسيني الواسطي نزيل مصر وخادم علم الحديث لطف الله به بمنه وكرمه في عشر شهر ربيع الثاني سنة ثمان وتسعين ومائة بعد الألف من المهجرة النبوية حامداً الله ومصلياً عليه انتهى .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية





الملحق الثالث

شجرة نسب الشيخ محمد بن علي السنوسي :

هو محمد بن علي بن السنوسي بن العربي بن محمد بن عبد القادر بن شهدة بن حم بن يوسف ابن عبد الله بن خطاب بن علي بن راشد بن أحمد المرابط بن منداس بن عبد القوي (أحد أمراء تاقدامت و تلمسان) ابن عبد الرحمن (مؤسس إمارة تاقدامت) ابن يوسف بن زيان (أحد ملوك المغرب الأقصى) ابن زين العابدين (أحد أمراء تاقدامت) ابن يوسف (عاشر ملوك الريف و باديس) ابن حسن (تاسع الملوك المذكورين) ابن ادريس (ثامن الملوك) ابن عبد الله ابن أحمد (سابع الملوك) ابن محمد (سادس الملوك) ابن عبد الله (خامس الملوك) ابن حمزة (رابع الملوك) بن سعيد بن يعقوب (ثالث الملوك) ابن حمزة بن علي (ثاني الملوك) ابن عمران (أول ملوك الريف و باديس) ابن ادريس الأصغر أمير المؤمنين و (مؤسس مدينة فاس) ابن ادريس الأكبر (أول خلفاء الأدارسة بالمغرب) ابن عبد الله الكامل بن حسن المثنى ابن الإمام حسن السبط (أحد أولئك الدين تولوا الخلافة الإسلامية الكبرى) ابن رابع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه و فاطمة الزهراء بنت رسول البشرية و باعث الإنسانية و خاتم النبيئين محمد صلى الله عليه و سلم.

و قد أثبت العلماء هذا النسب و حافظ عليه الأدارسة و رووه كابرا عن كابر و قد نضمه الشعراء في قصائد، و كان هذا النسب من ضمن ما يحفظه الطلبة في معهد الجعبوب، و قد أمر خديوي مصر (اسماعيل باشا) نقش سلسلة هذا النسب بأحرف ذهبية داخل إطار مذهب و أهداه ليعلق بحائط ضريح السنوسي، و لما عرضت اللوحة على الإمام محمد المهدي السنوسي علق عليها بالأبيات الآتية و لم يسبق له أن قرض الشعر :

سلسلة من عسجد قد نظمت *** بالجوهر المضيء من ضوء سما

فانبعثت شعشعة من نورها *** أجلت ظلاما كان قبل قد طما

وابتهجت بابن السنوسي الذي *** شمس علاه بهرت شمس السما

فنظر هنا منثور در تنظرن *** روضا نظيرا ناميا منمنما

نقلا عن محمد الطيب من ادريس الأشهب : السنوسي الكبير و عرض و تحليل لدعامة حركة الإسلاح السنوسي، مطبعة محمد عاطف، طرابلس، ليبيا، بدون تاريخ، نسخة تحت رقم 0785، مركز بحوث الدراسات الجهاد الليبي، ص 87.

الملحق الرابع

مخطوط هتك الستر عما عليه سودان تونس من الكفر للحاج أحمد بن القاضي أبي بكر بن يوسف بن ابراهيم التمبكتاوي، نقلا عن د/ عبد الجليل التميمي : الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس و ليبيا و وسط و غرب إفريقيا خلال العصر الحديث، مرجع سابق، ص،ص37-38

رسالة

هتك الستر عما عليه سودان تونس من الكفر

تاليف

الحاج احمد بن القاضي ابي بكر بن يوسف بن ابراهيم التنبكتاوي

افتا الفتاي الفوتي قبيلة، الدوجقي مولدا الجناوي قراءة

وهو بحث مستوفى في معتقدات الزنوج المجلوبين قديما من بلاد السودان الى شمالي افريقية - لا سيما تونس - وعوائدهم الوثنية الراسخة في نفوسهم من لدن اسرهم وظاهر هاني الحاج وقد حرر المؤلف هذا البحث عند عودته من الحج ومروره بمدينة تونس - خلال سنة ١٢٢٨هـ (١٨١٣م) وقدمه الى امير البلاد وقتئذ وهو محمود باشا الحسيني راجيا منه قطع دابر آثار الوثنية المتلبسة بالدين الاسلامي الطاهر

اعلم ان الطالب ان هذه النسخة هي الاصل خط مؤلفها

الشكل رقم 1 : الصفحة الاولى من مخطوطة هتك الستر عما عليه سودان تونس من الكفر

الصفحة الاولى من النسخة الثانية.

المكتبة الوطنية التونسية رقم 9564 مجموع 63 ب

مخطوطة هتك الستر عما عليه سودان تونس من الكفر

بسم الله الرحمان الرحيم

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

قال العبد الفقير المعترف بذنبه القليل العلم والتقوى الراجي الغفران والستر عند مولاه الكريم احمد بن القاضي ابي بكر بن يوسف بن ابراهيم التنبكتاوي افتا ، الفتاني الفوتي قبيلة الدوجتي مولدا الجناوي قراءة سامحه الله من عيوب لسانه وبقية ذنوب اعضائه انه هو المجيب الداعي القريب السميع اللطيف ونسأل الله ان يوفقنا بالقول والعمل وان يعيننا على الطاعة والقيام بحقوقه وان يدخلنا آباءنا وامهاتنا واحبابنا وكل من نظر الى كتابتنا هذا بعين الرضا والصواب او حمله الى حاكم او اصلح ما فيه من الفساد او طالعه او نسخه ولو باجرة جنة الفردوس بلا حساب يا رب العالمين

الحمد لله الذي تفرد بالوحدانية ولم يشاركه احد في صفاته ولا في افعاله سبحانه هو الذي لم يستحق ولا يستحق احد ان يعبد في السماء ولا في الارض سوى ذاته جل وعلا عما يقوله الكفار والمشركون في جنابه وتنزه ان يكون مالا يريده في ملكه وملكوته وهو الذي خلق الملائكة والجان والانس وبجميع خلقه وكل يسبح بحمده ويشهد بوحدانيته .

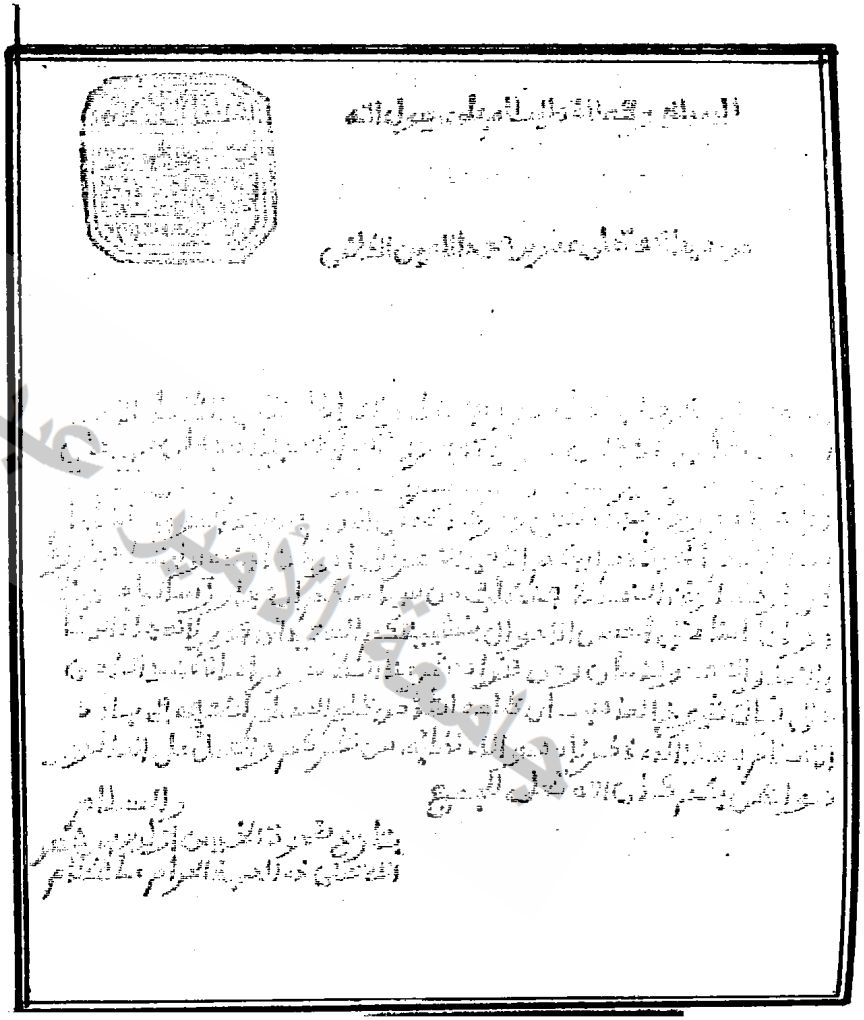
والصلاة والسلام الدائمان الاكملان الاطيبان على صفيه الذي ارسله لابطال الشرك والكفر واعتقادات اهله وعلى آله وصحبه وامته الذين جاهدوا على دينه وسنته وبينوا لنا طريقة السلامة وحذرونا عن اتباع كل شيطان وكيده .

وبعد فلما رجعت من الحج الى تونس حرسها الله بحفظه المنيع ، وابقاها بيد المؤمنين بحرمة مكة والبقيع ؛ وجدت فيها فتنة لا يجوز لاحد ممن في قلبه رائحة الايمان ان يسكت عنها باتفاق اهل التاصيل والتفريع ووجدت اهل الفضل والصلاح والعلم فيها ما اطلعوا عليها لحقيقة الاطلاع لكون ذاك لم يكن لكفار رفقهم من اليهود والنصارى بصنيع ، بل ذلك من فعل كفار بلدنا السودانية اذلهم الله بما اذل به فرعون والسامري باسمه العليم السميع وكان اميرالمؤمنين بها في الوقت الاعز الاكرم المنصور المؤيد الذي ازعج بنو الاعادي مع بعد محلهم بشدة هيبته واذل رقاب الجبابرة بقوة بطشه وتحيرت عقول اهل الفساد وانظلم بسرعة انتقامه وصارت اليهود والنصارى يرعدون تحت ذمته كانهم اسارى ينتظرون اعظم عقوبة جعلوا هم تاج الملوك السيف

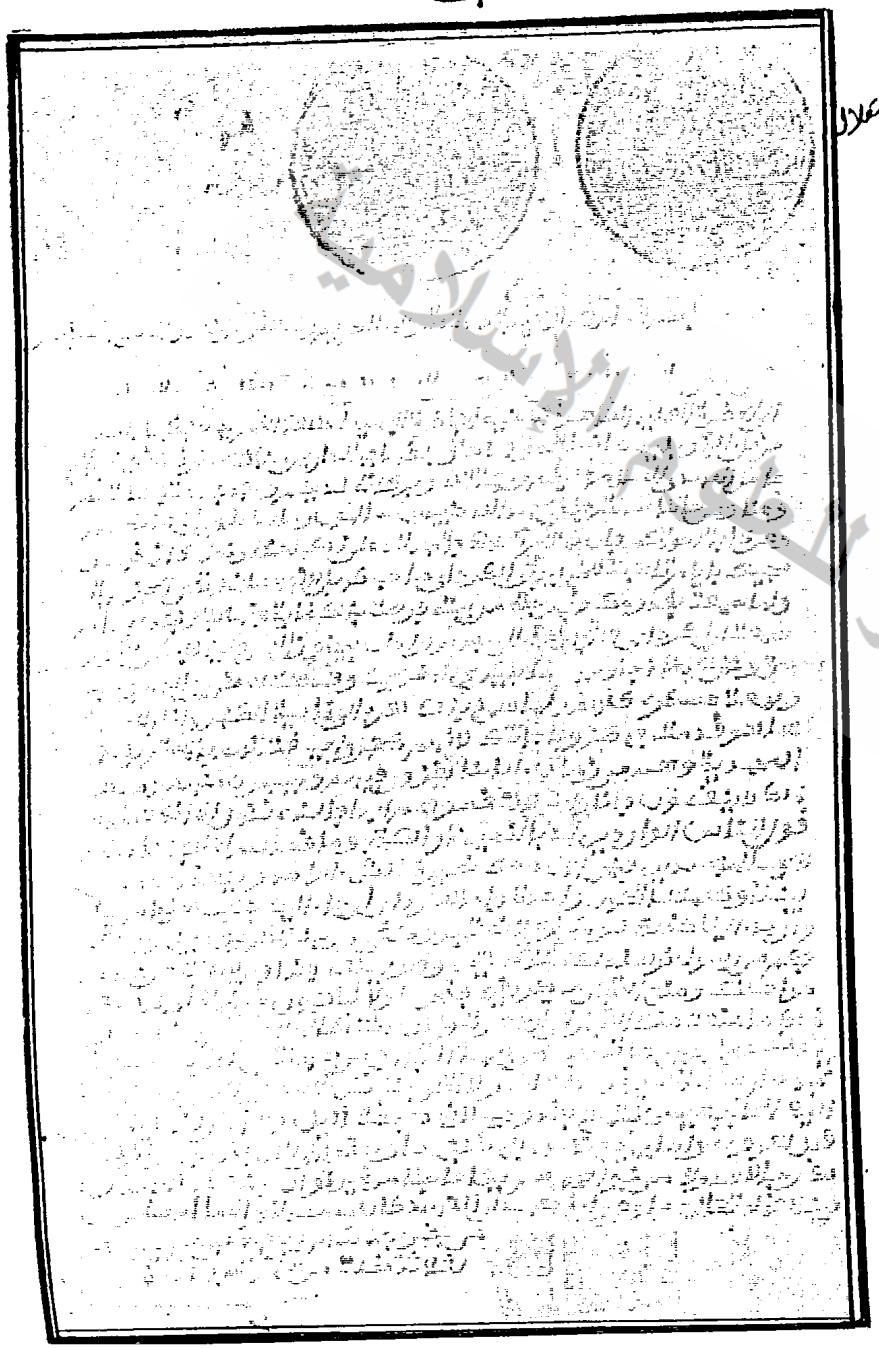
الملحق الخامس

أ – توصية خاصة من عمر بن محمد الأمين الكانمي سلطان كانم برنو إلى محمد علي بن الشريف سلطان واداي بالسماح بمرور الرحالة جوستاف ناختجال ببلاده إلى دار فور: د/ عبد الرحمن عمر الماحي: تشاد من الاستعمار إلى الاستقلال، مرجع سابق

ب – رسالة من محمد عبد الرحمن سلطان باقرمي إلى الشيخ رابح نقلا عن د/ عبد الرحمن عمر الماحي: تشاد من الاستعمار إلى الاستقلال، مرجع سابق، ص 258 و ما بعدها.



ب



توصية خاصة من عمر بن محمد الأمين الكانمى سلطان كانم ـ برنو الى محمد على بن الشريف سلطان وداى ، للسماح بمرور الرحالة جوستاف ناختيجال ببلاده الى دارفور ٠

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله
من عبد الله تعالى عمر بن محمد الأمين الكانمى

الى حضرة العالم الفاضل حاوى الفضائل والفواضل الأمجد الشامل الأسعد الكامل صاحب الاخلاق المرضية والمزايا السنية محبنا السلطان محمد على بن الفاضل الشهير محمد الشريف ابراهيم السلام واسنى التحية والاكرام ورحمة الله تعالى وبركاته على الدوام ٠ أما بعد :

فموجب كتابنا هذا اليكم أنه يقدم اليكم الذمى النصرانى أدريس أندى وجيته المجازة الى أرضه أرض النمسة فنطلب من سياستكم(٢)ان يجاوز سلامنا ملتمسا مؤمنا آمنا على أحسن الأحوال بتشييعكم السعيد الى (فور) لانه حل الينا بالذمة والعهد والأمان ، ومن قواعد شرعنا المطاهر مراعاة عهد الذمى حتى قال شيوخ المذهب ان ظلمه أشد من ظلم المسلم لضعفه فى بلاد الاسلام فهذا الذى ذكرناه هو الذى نطلبه من نظركم والعمل على المذكور هو الذى بكم كان الله تعالى للجميع والسلام ٠

بتاريخ ضحوة الخميس أول يوم من شهر الله تعالى ذى الحجة الحرام عام ١٢٨٩ هـ (٣) ٠

رسالة من محمد عبد الرحمن سلطان باقرمى ، الى الشيخ رابح ، هذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الوالى الكريم ، والصلاة على محمد وآله مع التسليم .

فمن عبد ربه السلطان محمد عبد الرحمن بن السلطان محمد عبد القادر نصره الله أمين ، الى حضرة العلية الظاهرة السنية الفاخرة البهية الطلعة القمرية حفظها الله من كل آفة وبلية وصانها الله وحماها وبانيها فى الدارين مناها ، حضرة الشيخ رابح عامل المهدى (٢) السلام عليكم ورحمة الله وبركاته لديكم ، وبعد :

فان تفضلتم وعنا وعن حالنا سألتم فنحن بحمد الله طيبون سالمون وما سائلون الا عنكم وعن كافة أحوالكم فان كنتم كذلك فالحمد لله على ذلك هذا ونعلمك ، انى قبل مجيئك بأيام تأهبت للخروج الى « الكردای » (٣) صاحب « كوربل » لانه عصانى ونقص الجزية ولما سمعت بقدومك واخرجته من بيته نزحت بذلك غاية ونهاية وبعد أيام سمعت ان « الكردای » هرب وجاء الى « بسى » (٤) وأراد أن يجاوز (٥) البحر (٦) ويذهب الى حجر

---

(١) وثيقة غير منشورة ، دار الوثائق الوطنية ـ بالجزائر ـ فورت لامى سابقا .

(٢) يعتقد سلطان باقرمى ان رابحا كان امتدادا للحركة المهدية فى السودان ولذلك طلب التعاون معه ضد الكفر ، الا أن رابحا لم يثق به خوفا من أن يقضى عليه بالحيلة خاصة وانه لا يعرف عن هذه البلاد ومسالكها شيئا ، فهجم عليه قبل أن ينظم معه ، وبالتالى قاوم سلطان باقرمى نفوذه فى المنطقة حتى النهاية .

(٣) الوثيقة .

(٤) بوسو .

(٥) يتجاوز .

(٦) نهر شارى

« مدقو » ، وكان اذ ذاك اجاريدى (١) غائبين وانا نزحت وتبعت له طريق الهروب وجمعت عسكرى كلهم ولما سمع بذلك هرب الى ناحية الكفر ، وانا الآن باهو قدمت نى « مبروا » لاعانتك لانهم كفا ، راحب قتالهم بالشريعة المحمدية رهم من زمان (٢) بانك يغزون فيهم ويحرزون منهم ومع ذلك لا ينقصون (٣) ، فانا وأنت لا نتقصرهم (٤) أبدا ، فالذى تقول لك (٥) انك لا تسمع قول الناس الراردين لك بالنميمة والكذب وما تصدهم الا الفساد والله لا يحب المفسدين ، فنحن الآن معك نصير كالشيء الواحد ويتعقد الأمان بيننا وكلمتنا تكون واحدة ، وأما الكردای ان جاء اليك فكنه عليا مريئا ، وان جاء الينا كذلك هو وغيره ، لانه تجبر وطغى وربط الطريق بينى وبينك وكم من رسول ترسله الى منذ سنتين وهو يمنعه . هذا وأن سألت عن عدم مواصلاتك ومنع التجار من طريقك فنحن لا [illegible] أنت تصالحت معهم (٦) فهذا هو المقصود فجميع ما تطلب من جهة التجار ومن جهتنا فى الاخوة (٧) الاسلامية تجده ان شاء الله ونحن كذلك ، ولا تظن بنا ظن السوء ، ولاجل ذلك أرسلت اليك الحاج عيسى المسمع بقدومى لانى طبقت الليل والنهار لندرك « الكردای » قبل هروبه (٨) ، رأيا جميع ناسى فى خلفى ما وصلوا الى الآن فان جاءوا ترسل لك رجالا عدولا من خواصى سريعا عاجلا من غير توان لينعقد الأمان بيننا لقوله تعالى : « واوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا » ، والسلام على من حضر مجلسك الرفيع الأعلى ، عام ١٢٠٧ هـ (٩) .

لثلاثة بقيت من شهر الله جماد أول (١٠) .

---

(١) أجاريد : النبلاء والأعيان .

(٢) منذ زمن آبائنا .

(٣) يشيد بالأتراك لشجاعتهم الفائقة البشرية .

(٤) لن نتقصرهم .

(٥) فالذى نقوله لك .

(٦) اسماعيل رابح على السلطات الفرنسية المجاورة لمملكته ودای (وادى روفا ، وداركوتى ، وملحقاتهما) ، ولكنه لم يعقد صلحا مع الوادى .

(٧) الاخوة الاسلامية

(٨) الكردای الذى تتحدث عنه الرسالة هرب من رابح ، وجاء ليستنجد بسلطان باقرمى ، ولذلك يبدو أن هذه الرسالة كتبت للتمويه الحقائق عن رابح حتى يتم الهجوم عليه بقوة ، لما أنه نسبه ويادر بالهجوم على باقرمى ، قبل ان تتكالب عليه القوى الوطنية .

(٩) الموافق ١٨١٩ م .

(١٠) جمادى الاولى .

الملحق السادس

نموذج من مناشير محمد أحمد المهدي السوداني

نقلا عن د/نعوم شقير: جغرافية و تاريخ السودان، مرجع سابق، ص،ص943 ..948

تعاليم المهدي من منشوراته : وأهم منشور نشره المهـــدي بين اصحابه فضمنه معظم تعاليمه المنشور الآتي وهو بحرفه بعد البسملة :

« وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي ابن السيد عبد الله الى كافة الاحباب في الله . أيها الاحباب ان الامر كله لله واليه المرجع والمآب وان النبي ﷺ لما أجلسني على كرسي المهدية قد امرني بجهاد الترك وقال لي ان الترك كافرون بل هم أشد النـــاس كفراً ونفاقاً لقوله تعالى يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وانهم يسعون في اطفاء نورالله تعالى لقوله تعالى يريدون ليطفئوا نورالله بأهانة السنة النبوية واستعطاف الاسلام . وقد أظهروا كتباً يريدون بها طفي نورالله تعالى ويسمونها كتب القانون مع شتم الاسلام وقهره . أما ترونهم يسحبونكم في الحديد والسلاسل لاجل اخـــذ أموالكم لا يوقرون كبيركم ولا يرحمون صغيركم ويحملونكم المشاق القوية.لا تتركوهم حتى يسلموكم الاسلحة والاموال فان فعلوا ذلك فلا تسترقوا أولادهم ونساءهم بل أقروهم على حالهم وهم اخوانكم في الدين وأحسنوا اليهم . وان العمل كله للنية في الجهـاد في سبيل الله كمثل خطاف اخذ بمنقاره من ماء البحر قال تعالى ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة عوضاً عنها اذ قتلوا او قاتلوا . قال تعالى ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . وقال لي سيد الوجود ﷺ من أنكر مهديتك فقد كفر . وان أرواح الترك اشتكت اليّ وقالوا يا إلهنا ويا خالقنا ان الامام المهدي قتلنا من غير انذار فقلت يا إلهي أنذرتهم وخالفوني وصالوا عليّ وسيد الوجود شاهد علينا. وقال سيد الوجود ﷺ ذنبكم عليكم وانكم خالفتم وصلتم فقتلتم . واني عبـد مأمور باظهار الكتاب والسنة المقبورين حتى يستقيما . وقد امرني سيد الوجود ﷺ ان كل من خالفني عدّ كافراً وان الله قد غفر ذنب من اتبعني وقواني . وقد أمرني سيد الوجود ﷺ ان زواج الثيب بخمسة والبكر بعشرة ريالات تخفيفاً لأمته ومن نقص الصداق عن ذلك فهو أقرب اليّ من بياض العين الى سوادها وإياكم والزيادات . فامنعوا نساءكم عن النوح والتسنيم وذبح الاموال سرفاً . وأما كيفية الحافرين والحاملين النعش فلا بد من ماله اذا كان له مال وإلا فمن بيت مال المسلمين. فمن بكت او سوّدت الباب او ناحت او حدّت على غير زوجها فتؤدب حتى تظهر توبتها بالضرب والسخط بما يناسب لهـــا . ونهيتكم عن التنباك الخبيث فمن شربه منكم فليؤدب حتى يموت او يتوب . وان الجهاد فرض فمن تخلف عنه فهو عاص الله ورسوله ولا تقبـل صلاته ولا صومه ولا صدقته بل أمره كله هدر فمن تركه من غير عذر باين فحكمه كذلك. أطعموا

طعامكم المجاهدين . فمن لم يأخـذ البيعة من الامراء اصحاب الرايات الذين يخرجون من عندنا لاجل الجهاد فهو منافق ملعون . فأما العـالم التابع لي في مهديتي فهو كالنبي المرسل والعامي التابع لي كرتبة الشيخ عبد القادر الجيلاني والعالم المخالف لي كفرعون والعاميّ المخالف لي كهامان . ومن علامة مهديتي ان النـار تخرج من ثقب السلاح أي يخرج دخاناً . وان الله قوّاني بالملائكة الكرام وعزرائيل حامل لواء نصرتي وان الخضر وسيد الوجود والاولياء من عهد أبينا آدم الى هنا معي ومؤمن الجن كذلك معي . وقـد أمرني سيد الوجود ﷺ بأن يخرجوا الاحراز ساعة الملاقاة كون الجان تنفر منه. وأمرني بأن أتوكل على الله كيف يهتم العبد بالرزق حيث ضمن الله رزقه لقوله تعالى وفي السماء رزقكم وما توعدون وقوله تعـالى وما من دابـة في الارض إلا على الله رزقها . كيف يرتقي العبـد من الأمراض كونه هو الفاعل والتوكل أولى . وكيف يصح للعبد ان يسوء في بساط الخيرات لأن الفاعل يفعل والمفعول يدفع لقوله تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه . ومن سرق منكم سرقة قـل او كثر فاقطعوا يـده لأنه يوم القيامة يقوم بلا يد ويتخبط كما يتخبط العبد في الدنيا بحس الشيطان لا بارك الله في ولي تركه او امير استعان به . وكذلك الزّاني يرجم اذا كان محصناً ويجلد البكر وأما المرأة فاذا دخلت بالاجنبي الذي يخشى عليها منه فيؤدبان بالاجتهاد لأن الشاب والشابة اذا تلاقيا يكون الشيطان دليلهما فلا بأس بمقاضاة الحاجات بحضرة واسطة من الناس . ومن ترك الصلاة او تهاون بها قتل حدّاً في ضرورّية . وأما من تعدى منكم على اخيه ببسط لسانه في عرضه او ماله فهو ليس مني وأنا لست منه . وان ادعيتم انكم أتباعي ولم تفعلوا فعلي فانكم منافقون لقوله تعـالى يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم فاذا لم تتحابوا كالأخوين من الأبوين فليس أنتم اتباعي. ومن ستر على سرقـة رآها او شرب خمر او زنى فكتمه رأفـة عليهم فهو كالفاعل . ومن تخلف عن الجهاد بصحة جسم لا بارك الله فيه . واذا أخذتم ذنب الأبقـار والاغنام والابل والزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم .

اتركوا الترفهات وفراوي الريف لأن موت النفوس حياتهـا . والبسوا الجبب المرقعات ولبسوا نساءكم الثياب الخلقة. وان أمري مبهم لا يعرفه إلا اصحاب الحضرة الذين يرون رسول الله ﷺ لقوله تعالى ويخلق ما لا تعلمون . أما ترون الترك لهم الأسلحة النارية والقوة العديدة قـد هلكوا وأورثكم ارضهم وديارهم . هذا حصل لهم بمعصية الله كذلك اذا عصيتم الله يحصل لكم كمثلهم لقوله تعالى ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وأفضل الخلق من اتقاه بمأموراته ونهى نفسه عن منهياته . وان الشخص اذا اخذ البيعة وعـاد الى فعله الخبيث فهو كالمرتد . ويقول الانسان اذا الليل أظلم بجناحه الله القادر المقتدر القاهر على كل جبـار عنيد ناصر الحق حيث كان به الحول والقوة ان هي إلا صيحة واحدة فاذا هم خامدون اللهم" اني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشائي هذا اليك لم أخرج اشراً وبطراً ولا رياء ولا سمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك أسألك ان تنقذني من النار وان تغفر لي ذنوبي فانه لا يغفر الذنوب إلا انت . ومن قال هذا الدعاء صباحاً ومساء احدى واربعين مرة فهو معي ومع سيد الوجود ﷺ وان عمله كعمل اهل السموات والارض. ولا تجاوروا من ترك الجهـاد او فعل منكراً من المنكرات المنهية كتاباً وسنة فاستعينوا عليه فخذوا نفسه وماله غنيمة للمسلمين المجاهدين ان استحل ذلـك وإلا فليؤدب . ولا تمنعوا الاراضي لأنها لا تملك بـــل هي محوزة لبيت مال المسلمين . وأما المجاهد فان استضافكم فأضيفوه وان استغاث بكم فأغيثوه. واما ارباب الجاه الذين اتخذتموهم اولياء ان نهوكم عن متابعتنا فانهم كافرون لا تسمعوا لهم قولاً لأنهم ضالون مضلون بل هم اشد اهـل النار وعملهم كعمل الذين قال فيهم ربنا كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال اني بريء" منك اني اخاف الله رب العالمين. وقال لي سيد الوجود ﷺ ان السعيد من اتبعك والشقي من خالفك واني عبد ضعيف ليس لي طاقة على قوام أدنى شيء فضلاً عن ذلك الملك الجائر الذي غيّر السنة النبوية والكتب الازليـــة واني على بصيرة من الله واعانة من رسوله ومعي سيف النصر لا ينفع الشريف

فعرفه ولا العالم علمه ولا الولي ولايته إلا باتباعي والخير كله في تسليمه الأمر أيها الاحباب اني محمد بن عبدالله وأبي حسني من جهة ابيه وامه وامي عباسية من جهة ابيها وامها حينئذ لا شك اني من نسل المصطفى ﷺ واني ولدت في بحر النيل وهاجرت الى ماسة في اقصى الغرب بلصق جبل يقال له قدير لأني موعود بـــه فلا تلبسوا على انفسكم بقول ظهرنا في المشرق المعنى اننا نظهر بالمشرق ويملأ الله لنا البلدان عدلاً كما ملئت جوراً ويدرّ الله لنا الارزاق درّاً ويفيض الماء غيضاً وتتآنس الذياب يعني بها السباع الضارية في الانعام ويؤمن كل مؤمن من سم الحية وهذا كله بعد وصولنا لبيت الله الحرام والبيعة الثانية هي الكبرى وتسمى بيعـة الفوز والرضوان . اللهم اجعلنا واخواننا المؤمنين على التقوى لقوله تعالى ان المتقين في جنـــات وعيون . وقوله تعالى الاخلّاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . وقال تعالى واتقوني يا اولي الألبـاب وقال تعالى واتقوا الله لعلكم تفلحون وقوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب والتقوى المذكورة لا توجد غاية إلا بالجهاد في سبيل الله والعمـل بالكتـاب والسنة رأس المال والجهاد ثمنـه . ويجب على المجاهدين يعني بهم أتباعنا الذين يلهجون بالذكر في جـل احوالهم بالتهليل والتسبيح والتكبير . وان اصحابي كأصحاب رسول الله ﷺ وهذا قاله لي بلفظه الشريف ان اصحابك كأصحابي فلما كان كذلك ينبغي لنا ان نقتفي أثر اصحاب رسول الله ﷺ الذين قـال فيهم ربنا تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون وكن كذلك واحمل نفسك ودسها تحت اقدامك لعل الله يعلوك . أيها الاحباب قد أمرتكم ان من ترك منكم عقيقة ابنه فليدعها لأن الروح تشكي اليّ وتقول والدي لم يدعني فاعطني اسماً أدعى بـه فيقول الله لها سمي نفسك بنفسك وكذلك من لم يسمه ابوه فليسم نفسه ولو بعيـــد الشيب والهرم فيا حسرة اب لم يسمّ ابنه . وكذلك تجب اعادة الزكاة لمفرطها والصوم والكفارة فتفحصوا من الذنوب. واذا ضعف المجاهدون عن الجهاد أعينوهم أيها القاعدون

أولوا الضرر بثلث مالكم واتقوا نفوسكم بمالكم ولا تخزنوها فيها لكم ضرر وسوء حظ . وحكم النساء ان المرأة الناشزة لزوجها احبسوها في الاوكار والبيوت المظلمة حتى ترجع او يتوفاها الله تعالى كالزانية فمن ثبطت نفسها عن زوجها فمالها غنيمة لزوجها وان راضاها فماله غنيمة للمسلمين فان فعلوا ذلك فلا تعودوهم ان مرضوا ولا تشيعوا جنائزهم ولا تعينوهم عند الشدائد . ولا يجهل في مهديتي إلا شقي محروم الحظ وعادم الخير والاحسان . واعلموا ان الوقت قد أزف وربما قام كالشمس تكون في اوكار غروبها . وتجنبوا عن النساء واللذات العديدة التي تورث صاحبها الكبر والبطر وجاهدوا في حق الله حق جهاده ايها الاحباب الناظرون لرضوان الله الواحد القهار . وناصحوا المؤمنين وحب لأخيك المؤمن كما تحب لأخيك من ابويك وقدم حب اخيك المؤمن على نفسك وذلك الوقت تكون صاحبنا فان لم تكن كذلك بل انت مغرور وقد حرّم الله عليك سيد الوجود . واموال الغنيمة وان قلت كابرة فانه لا يدخل الجنة إلا من اخذها بقسمة او شراء او استحق شيء من بيت مال المسلمين فان من سرق منها لا تقبل عمله حتى يردها او قيمتها. فمن أعان مجاهداً بلقمة او درهماً او اناء شرب او آلة حرب فكان يوم القيامة تحت ظل العرش ومن ناصح مجاهداً فكأنما ناصح محمداً ﷺ وأمن في الجنة . ليتعلم بعضكم من بعض وليتأدب بعضكم لبعض وليكسر طرفه لأخيه المجاهد . وان لا يعلوا عليه وان يساويه في الفراش والاكل إلا الضرر البيّن وان الامراء والعاميين فكلهم على حدّ سوى إلا في الامر والنهي فليحبوهم ولا يتفاضلون عليهم في المركب والملبس والاكل فمن فعل ذلك فهو مردود منا . وقال في الغنيمة المتقدمة وما كان لنبي ان يغلّ ومن يغلل يأتِ بما غلّ يوم القيامة فهو العتاب عدم نهب الغنيمة للنبي وغيره . فمن جاهد خوفاً على ماله او عياله وجماهه فهو مخسور عند الله كالصدقة تخرج الناس . ايها الاحباب كونوا ربانيين وفوّضوا امركم الى الله فان النصر لكم وان القتل الذي ترونه امتحاناً لكم وليس يريد به تضعيف المسلمين وان الله مع المؤمنين والسلام » .

٩٤٨

الملحق السابع

أبناء محمد أحمد المهدي و الخليفة عبد الله التعايشي

نقلا عن د/نعوم شقير: جغرافية و تاريخ السودان، مرجع سابق،ص 1239



أولاد المهدي : الطاهر ونصر الدين وعلي وهم الجلوس
وأولاد الخليفة : عبدالصمد ويحيى وعمر وابراهيم واسماعيل
وهم الواقفون والقاعدون القرفصاء

بيبلوغرافية البحث

1- المصادر العربية

1 - القرآن الكريم

2 - سنن أبي داود : دار الجيل، بيروت، لبنان، 1992.

3 - سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، ط1، المكتب الإسلامي، بيروت، 1408هـ، 1988.

4 - سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني، ط1،المكتب الإسلامي، بيروت، 1408هـ، 1988.

5- مسند الإمام أحمد.

6 - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ط6، دار الكتاب العربي، بيروت، 1986.-

7 ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف : النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، المؤسسة المصرية العامة القاهرة 1383هـ.1963م

8 - ابن ابي الأعراب : طبقات علماء إفريقية و تونس، تحقيق علي الشابي و نعيم حسن اليافي، ط2، الدار التونسية للنشر، 1985.

9 - ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) : تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار (الرحلة)، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1377هـ.1958م.

10 - ابن جرير محمد أبو جعفر الطبري : تاريخ الأمم و الملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة 1961.

11- ابن إدريس الأشهب محمد الطيب : السنوسي الكبير عرض و تحليل لدعامة حركة إصلاح السنوسي، مطبعة محمد عاطف، طرابلس، الجماهيرية الليبية، بدون تاريخ.

12- ابن خلدون عبد الرحمن : العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني للطباعة و النشر، 1956.

13- ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في إخبار الأندلس و المغرب، ط2، دار الثقافة بيروت، 1400هـ.1980م.

14- ابن علي أبو العباس القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية العامة، بدون تاريخ.

15- ابن هشام : السيرة النبوية، تحقيق محمد الهادي العابدين، و ابن الدين عبد الحميد، دار المعارف القاهرة، 1964.

16- ابن هشام : مختصر السيرة، مكتبة النهضة الجزائرية، بدون تاريخ.

17- ابن محمد الحسن الوزان : وصف إفريقيا، تحقيق محمد حاجي، و محمد لخضر طبعة 2 دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1933.
18- ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم : لسان العرب، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
19- ابو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين، دار الكتاب العربي، بدون تاريخ.
20- ابو علي ابن الحسين علي المسعودي : مروج الذهب و معادن الجوهر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1989.
21- البكري أبو عبد الله : المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب، تحقيق دي سلام، مكتبة الحكومة الجزائر 1857
22- البلاذري : فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار النهضة القاهرة 1958
23- الحموي ياقوت : معجم البلدان، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
24- الكندي محمد بن يوسف : ولاة مصر، تحقيق د/ حسين نصار، دار صادر، بيروت، لبنان 1379هـ.1959م.
25- بابا أحمد التمبكتي : نيل الابتهاج بتطريز الديباج، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس الجماهرية الليبية، 1989.
26- رود لفو غراسياني : برقة الهادئة، ترجمة ابن عامر إبراهيم سالم، دار مكتبة الأندلس، بنغازي ليبيا بدون تاريخ.
27- د/ نعوم شقير : جغرافية و تاريخ السودان، دار الثقافة، بيروت، 1967م.

2- المراجع العربية

1- د/ إبراهيم خليل عبد الرحمن : دور الشعر في معركة الدعوة الإسلامية أيام الرسول ط2، (ش.و.ن.ت)، الجزائر، 1971.
2- د/ إبراهيم عبد الرازق عبد الله : الحركات الإصلاحية في غرب إفريقيا في القرن التاسع عشر، نشر البحوث و الدراسات الإفريقية، القاهرة، 1983.
3- د/ إبراهيم محمد أبو سليم : الحركة الفكرية في المهدية، ط2، دار الجيل، بيروت، لبنان 1981.
4 أبو زهرة محمد : تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
5- د/ أ ج هوبنكز : ترجمة بلبع فؤاد أحمد : تاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998.

6- إسحاق عبد العزيز محمد : نهضة إفريقيا، الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر القاهرة 1321هـ.1971م.
7- د/ التميمي عبد الجليل : الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس و ليبيا و وسط و غرب إفريقيا خلال العصر الحديث مطبعة الإتحاد العام التونسي للشغل، 1981.
8- د/ الجمل شوقي و إبراهيم عبد الله : تاريخ إفريقيا الحديث و المعاصر، ط1، دار الثقافة الدوحة، قطر، 1407هـ.1987.
9 - الجندي انور : الإستعمار السياسي و الإجتماعي و الثقافي، ط1، دار المعرفة، 1970
10 - د/ اسبر أمين : إفريقيا و العرب، ط1، دار الحقائق، بيروت، 1980.
11 - الجلالي عبد الرحمن : تاريخ الجزائر العام، ط7، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1415هـ.1994.
12- الحفناوي محمد أبو القاسم : تعريف الخلف برجال السلف، ط2،مؤسسة الرسالة، تونس 1405هـ.1985م.
13- الخياط ابو الفتوح محمد : الوحدة الإفريقية، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1965.
14 - الدجاني أحمد صدقي : الحركة السنوسية نشأتها و نموها في القرن التاسع عشر، دار الكتاب، القاهرة، 1988.
15- د/ الرافعي عبد الرحمان : مصر و السودان في أوائل عهد الإحتلال (تاريخ مصر القومي) 1882 –1892، الدار القومية للطباعة و النشر، القاهرة 1966.
16- الزبير سعد الدين : إمبراطورية رابح الزبير، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1953م .
17- الزركلي خير الدين : الأعلام، ط4، دار الملايين، بيروت، 1980.
18- السيد معتصم محمد : مهدى الصومال، سلسلة مذاهب و شخصيات
19- الصواف محمود محمد : المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام، دار الثقافة للطباعة، ط1، مكة، 1384هـ.1965.
20- الصياد محمود محمد : صور إفريقية، سلسلة اقرأ العدد 177، دار المعارف القاهرة 1957م.
21- أ.ل.شاتليه : ترجمة و تلخيص الخطيب محب الدين و اليافي مساعد الغارة على العالم الإسلامي ط4 ديوان المطبوعات الجامعية 1405هـ.1985م
22- د/ العربي إسماعيل : الرحلة و الاستكشاف في البر و البحر، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1986.
23- د/ العربي إسماعيل : الصحراء الكبرى و شواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983.

24- العقاد صلاح : مغرب الاستعمار الفرنسي، بدون تاريخ و لا مكان طبع.
25- العقاد محمود العباس : الإسلام في القرن العشرين حضره و مستقبله، المكتبة العصرية بيروت، 1979.
26- د/ القشاط سعيد محمد : جهاد الليبيين ضد فرنسا في الصحراء الكبرى 1854هـ-1988م، ط2، منشورات مركز دراسات و أبحاث شؤون الصحراء، طرابلس الجماهيرية الليبية، 1989.
27- د/ الماحي عمر عبد الرحمن : الدعوة الإسلامية في إفريقيا الواقع و المستقبل، ديوان المطبوعات الجامعية، 1992 .
28- د/ الماحي عمر عبد الرحمن : تشاد من الاستعمار إلى الاستقلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1982م .
29- المعلم بطرس البستاني : دائرة المعارف، م 12، دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ
30- د/ النقيرة عبد الله محمد : انتشار الإسلام في شرق إفريقيا و مناهضة الغرب له، دار المريخ، الرياض، 1402هـ-1982م.
31- د/ إمام إبراهيم : أصول الإعلام الإسلامي، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
32- أمين أحمد : زعماء الإصلاح في العصر الحديث، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1990.
33- أورنولد سير توماس : ترجمة د حسن إبراهيم حسن و آخرين، ط3، مكتبة النهضة المصرية، 1971. .
34- بروكلمان كارل : ترجمة فارس أمين نبيه و منير البعلباكي، تاريخ الشعوب الإسلامية، ط6، دار العلم للملايين، بيروت، 1974.
35- بن يونس صالح إبراهيم : الإسلام حياة العرب في إمبراطورية كانم برنو، مكتبة و مطبعة البادي الحلبي و أولاده، القاهرة، 1976.
36- د/ بورويبة رشيد : ترجمة د/ حاجيات عبد الحميد ابن تومرت، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1982.
37- بوصفصاف عبد الكريم : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و علاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى 1931-1945، المؤسسة الوطنية للاتصال و النشر و الإشهار، رويبة، الجزائر، 1996.
38- بوغزيز يحي : ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين، ط1، دار البعث للطباعة و النشر، قسنطينة، الجزائر، 1400هـ، 1980م.
39- جلال يحى : الثورة المهدية و أصول الثورة البريطانية في السودان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1959.

40- جماعة من الأساتذة : موسوعة السياسة، ط2، المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت لبنان، 1990.
41- جماعة من الأساتذة : مهرجان الثقافة الإفريقية، ملتقى الجزائر، جويلية /أوت 1969(ش.و.ن.ت)، الجزائر 1969.
42- جماعة من الأساتذة ندوة العلماء الأفارقة و مساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية، الخرطوم، 30/28أوت/1983، مؤسسة الخليج للطباعة و النشر، الكويت، 1405هـ.1985.
43- جماعة من الأساتذة : دائرة المعارف الإسلامية .
44- جماعة من الأساتذة : بغداد تجارة القوافل و دورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، مؤسسة الخليج للطباعة و النشر، 1404هـ.1984م.
45- جماعة من المختصين : الموسوعة العسكرية، ط3، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت لبنان 1990.
46- د/ جمال الدين الديناصوري و آخرون : ج3، إفريقيا و استراليا، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1967.
47- د/ جودة حسين جودة : جغرافية إفريقيا الإقليمية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.
48- جوهر محمد حسن : الصومال، دار المعارف، القاهرة، 1965م.
49- حارش محمد الهادي :التاريخ المغاربي القديم السياسي و الحضاري منذ فجر التاريخ الى الفتح الإسلامي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1995.
50- حجاج السيد فريد محمد : صفحات من تاريخ الصومال، دار المعارف، القاهرة، 1983م.
51- د/ حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ط2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1964.
52- د/ حشيمة عبد الله : في إفريقيا السوداء، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1962م.
53- حمد حاج محمد أبو القاسم : السودان المأزق التاريخي و أفاق المستقبل، ط1، دار الكلمة للنشر، بيروت، 1980.
54- د/ خالدي مصطفى و فروخ عمر : التبشير و الاستعمار في البلاد العربية، ط4، المكتبة العصرية، بيروت، 1390هـ.1970م.
55- دافيد سون بازل : ترجمة أحمد.م.جمال إفريقيا تحت أضواء جديدة، دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ.
56- دونير بولم. ترجمة، نصار نسيم : الحضارات الإفريقية، ط1، منشورات عويدات، بيوت لبنان، 1974.

57- د/ دياب أحمد إبراهيم : لمحات من التاريخ الإفريقي الحديث، ط1، دار المريخ الرياض 1401هـ.1981م

58- د/ ذهني علي محمد الهام : جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي 1850هـ.1914م، دار المريخ، الرياض، 1988.

59- رحومة حامد مصطفى:المقاومة الليبية التركية ضد الغزو الإيطالي أكتوبر 1911 /أكتوبر 1912، المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية، حلب، سورية، 1988.

60- د/ رفلة قليب : الجغرافية السياسية الإفريقية، مكتبة النهضة المصرية، ط2، القاهرة 1966.

61- د/ رمضان عبد العظيم : الغزوة الإستعمارية للعالم العربي و حركات المقاومة، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.

62- روكز يوسف : إفريقيا السوداء سياسة و حضارة، ط1 المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، 1406هـ.1986.

63- د/ رياض زاهر : استعمار إفريقيا، الدار القومية للطباعة و النشر، القاهرة 1884هـ.1965م

64- د/ رياض زاهر : الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا، و أثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1968م.

65- د/ زبادية عبد القادر : الحضارة العربية و التأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء دراسة و نصوص، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.

66- زبادية عبد القادر : مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين 1493هـ.1591م (ش.و..ن.ت.) الجزائر، 1971.

67- زيادة محجوب : الإسلام في السودان، دار المعارف، القاهرة، 1960.

68- د/ سالم عبد العزيز : المغرب الكبير العصر الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت 1981.

69- ستودارد لوثروب : ترجمة عجاج نويهض، تعليق الأمير شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1974.

70- سعد الله أبو القاسم : تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (20.16)، الجزء الثاني، ط2 المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر 1985م.

71- سعد الله أبو القاسم : إبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، ط2، (ش.و.ن.ت)، الجزائر، 1401هـ1981م.

72- د/ سعودي محمد : الوطن العربي دراسة لملامحه الجغرافيا، دار النهضة العربية، بيروت بدون تاريخ.

73- د/ شاكر محمد : سكان العالم الإسلامي، نشر دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1989م.
74- د/ شبيكة مكي : تاريخ شعوب واد النيل مصر و السودان في القرن التاسع عشر، دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ.
75- د/ الشابي علي صلاح الدين و آخر : جغرافية العالم الإسلامي، ط1، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1987.
76- د/ شلبي إبراهيم عبد الودود : الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني و دعوته، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.
77- د/ شلبي أحمد : موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة الإسلامية، القاهرة، 1995.
78 -شلتوت محمود : الفتاوى، ط12، دار الشروق، بيروت، 1403هـ.1983م.
79- شكري فؤاد محمد : السنوسية دين و دولة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1948.
80 - صلاح صبري : إفريقيا وراء الصحراء، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1960.
81- الصياد محمود محمد : مدخل للجغرافيا الإقليمية، دار النهضة العربية للنشر، بيروت، بدون تاريخ.
82 - طلس اسعد محمد : تاريخ الأمة العربية عصر الانبعاث، دار الأندلس للطباعة، بيروت 1963.
83- د/ ضيف الله محمد الأخضر : محاضرات في النهضة العربية الحديثة، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1981.
84 - عادل نويهض : معجم الأعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1400هـ.1980م.
85 - عبد الكريم عزت أحمد : دراسات في تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت بدون تاريخ.
86 - الشيخ عبده محمد : جمال الدين الأفغاني و رسالة الرد على الدهريين، دار الشهاب للطباعة و النشر، باتنة الجزائر بدون تاريخ.
87 - عبده إبراهيم علي : المنافسة الدولية في أعالي النيل مكتبة النهضة، القاهرة 1958
88 - عبده محمد (الشيخ) : الإسلام دين العلم و المدنية تحقيق و تعليق طاهر الطناجي، دار الهلال، القاهرة، بدون تاريخ.
89- د/ عطية الله أحمد : القاموس السياسي، ط4، دار النهضة العربية، القاهرة، 1980.
90- د/ عطية الله أحمد : القاموس الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، 1383هـ.1963م.
91- غانم محمد الصغير : التوسع الفنيقي في غربي البحر المتوسط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1978.

92- فؤاد أفرم البستاني : دائرة المعارف، بيروت 1967.
93- فرج محمود فرج : اقليم توات خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1975.
94- د/ فليجة نجم الدين أحمد : إفريقيا دراسة عامة و أقليمية لأقطارها غير عربية، مركز الإسكندرية، للكتاب، القاهرة، 1978.
95 -د/ فليجة نجم الدين أحمد : إفريقيا دراسة عامة و أقليمية، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر 1996
96- د/ الفكهاني حسن : موسوعة المعارف الحديثة للدول العربية، الدار العربية للموسوعات، القاهرة، 1390هـ.1970.
97- قداح نعيم : حضارة الإسلام و حضارة أوروبا في إفريقيا الغربية، ط2، (ش.و.ن.ت.) 1975.
98 - قلوب جون باجوت : ترجمة حماد خيري، الفتوحات العربية الكبرى، مكتبة المثنى بغداد بدون تاريخ.
99 - د/ لقبال موسى : المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى قيام ثورات الخوارج ط1، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1969.
100- كاني محمد أحمد : الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، ط1، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1407هـ.1987.
101- د.كوثر عبد الرسول محمد رياض: إفريقيا دراسة لمقومات القارة، ط.ع. دار النهضة العربية بيروت، 1973
102 - مؤمن مصطفى : قسمات العالم الإسلامي المعاصر، ط1، دار الفتح، بيروت، 1394هـ.1974م.
103- د/ مؤنس حسين : أطلس العالم الإسلامي، ط1، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1407هـ.1987.
104 - د/ مؤنس حسين : الإسلام الفاتح، الزهراء للأعلام العربي، 1987.
105 - مؤنس حسين : تاريخ المغرب العربي و حضارته، ط1، العصر الحديث للنشر و التوزيع 1412هـ.1992.
106 - د/ محمود أحمد حسن : الإسلام و الثقافة العربية في إفريقيا، دار الفكر العربي، 1986.
107 - د/ مهران بيومي محمد : تاريخ السودان القدم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1 1414هـ.1994م.
108 - د/ نوار سليمان عبد العزيز : التاريخ المعاصر أوروبا من الحرب البروسية حتى الحرب العالمية الأولى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1979م.

109- د/ هلال عمار : العلماء الجزائريون في البلاد العربية الإسلامية في ما بين القرنين التاسع عشر و العشرين، 14/3هـ ديوان المطبوعات الجامعية، 1995.
110- د/ والترودني : ترجمة القصير أحمد أوروبا و التخلف في إفريقيا، الكويت 1401هـ.1988م.
111- وليام لانغر : موسوعة تاريخ العالم، ترجمة جماعة من الأساتذة، تحت إشراف د/ محمد مصطفى زيادة، مكتبة النهضة المصرية، 1966م.
112- د/ يحي جلال : تاريخ المغرب الكبير من اقدم العصور إلى الوقت الحاضر، بدون مكان و سنة الطبع.

الرسائل الجامعية :

1 - د/ بوصفصاف عبد الكريم : الأبعاد الثقافية و الاجتماعية و السياسية في حركتي محمد عبده و عبد الحميد بن باديس 1849-1940، دراسة تاريخية و فكرية مقارنة رسالة دكتورة غير منشورة.

الدوريات :

1 -الأصالة : وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، الجزائر، العدد 58-59، 1398هـ، جوان جويلية 1978.
2-الأصالة : وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، الجزائر، العدد 26، رجب، شعبان 1395هـ، جويلية، أوت 1975م.
3-الأصالة : وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، الجزائر، العدد 53، محرم صفر، 1398هـ، جانفي 1978.
4-الأمة : العدد 65، الدوحة، قطر، جمادى الأولى، 1406هـ، جانفي 1986م.
5-الدعوة الإسلامية : كلية الدعوة الإسلامية، الجماهيرية العربية الليبية، العدد 3، 1397هـ 1987.
6-الدعوة الإسلامية : كلية الدعوة الإسلامية، الجماهيرية العربية الليبية، العدد 4، 1398هـ 1988.
7-الدعوة الإسلامية : كلية الدعوة الإسلامية، الجماهيرية العربية الليبية، العدد 13، 1996.
8-الثقافة : وزارة الأعلام و الثقافة، الجزائر، العدد 62، مارس أفريل 1981.
9 -العربي : العدد 436، الكويت، مارس 1995.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

10-الفيصل : العدد 91، الرياض، المملكة العربية السعودية، محرم 1405هـ، أكتوبر 1984م.
11-المجاهد الأسبوعي : العدد 684، الجزائر، 25 شعبان 1393هـ، 23 سبتمبر 1973م.
12-المجلة التاريخية المغربية : العدد 02، مطبعة الإتحاد العام للشغل، تونس، جويلية 1974.
13-المجلة التاريخية المغربية : العدد 12، مطبعة الإتحاد العام للشغل، تونس جويلية 1978.
14-المجلة التاريخية المغربية : العدد 37-38 مطبعة الإتحاد العام للشغل، تونس، جوان 1985.
15-جريدة النصر : العدد ، 1998/12/29، قسنطينة، الجزائر.
16-حوليات كلية الإنسانيات و العلوم الاجتماعية : العدد 5، جامعة قطر، الدوحة، 1413هـ، 1992م
17-منار الإسلام : العدد 5، الإمارات العربية المتحدة، 1405هـ، فبراير 1985م.
18-منبر الإسلام : العدد 6، القاهرة، مصر، 1383هـ، 1963م.
19-منبر الإسلام : العدد 10، القاهرة، مصر، 1386، 1986م.

المصادر الأجنبية :

1- C. Cornet : Au Tchad trois ans chez les Sounoussistes les Ouaddaïenes et les Kirdis, librairie plon, Paris, 1911.
2- C. Deporter : L'aquestion du Touate au Sahara Algérien, Alger, 1891.
3- Ernest mercier : La france dans l'afrique centrale en 1891, imprimerie Adolphe Braham, Constantine, Algérie, 1893.
4- Eugene Mage : voyage au Soudan occidentale (1863-1866), Edition Karthela, Paris, 1880.
5- George Hardy : Vu general d'Afrique, librairie Armand colin, Paris, 1922.
6- Gosset (P. Et R) : histoire militaire de l'Afrique occidentale Française, imprimerie nationale, Paris, 1931.
Maurice de la fosse : afrique occidentale française, librairie plon, Paris, 1931.
7- Guenier eugeunne : L'Afrique occidentale, Tome 1, paris, 1929.
8- Hanotaux Gabiriel et Alfred Maritinau : Histoire des coloniers Française de l'expansion de la France dans le monde, Tome 4, Paris, 1929.

9 - Y. Urvoy : Histoire population du soudain Centrale, colonie du Niger, librairie la Rose, Paris, 1936.

المراجع باللغة الأجنبية :

1 - Carle Brockelmann : Histoire des peuples et des états Islamiques depuis les origines jusqu'à no jours, librairie Payot, 1949.

2- Deschmp Hubert : Histoire générale de l'Afrique noire, Tome 2, Edition Begèr le vrault, Paris, 1947.

3- Jacques Weulersse : l'Afrique noire, Editeur a. Fayard, paris, 1934.

4- Meniaud Jacques : Les pionniers du Soudain, Tome 1, librairie nationale, paris, 1931.

5- Robert et Marinne Cornovin : Histoire de l'Afrique des origines à nos jours, 2 édition, petit bibliothèque Payot, Paris, 1966.

6- Serge Cordellier : l'état du monde, Edition la couvert, Paris, 1996.

7- W. July. Robert : Histoire des peuples d'Afrique, Tome 2, nouveau horizon.S.E 200, 1977.

8 - Zerbo Joseph : Histoire de l'afrique noire d'hier à demain, librairie la Rose, Paris, 1972.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفهارس



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأعلام :

(أ)

ابراهيم 133

ابراهيم أبو سليم 270

ابراهيم الغماري 202

ابراهيم الرشيدي 371

ابراهيم أحمدون 216

ابن الحكم 24

ابن بطوطة 16-51

ابن تيمية 108-166-299

ابن حوقل 27

ابن خلدون عبد الرحمن 120-273

ابن سعيد 16

ابن شميل 24

ابن مريم 54

ابن منظور 24

أبو السعود العقاد 282-285

أبو بكر الصديق 44-192

أبو بكر الغدامسي 207

أبو الفداء 16

أبو القاسم العيسوي 202

أبو القاسم التواتي 203

أبو القاسم عبد الوهاب 204

أبو القاسم بن سبيع 205

أبو المهاجر دينار 46

أبو بكر بن عبد الرحمن 74

أبو بكر بن عمر 51

أبو تلوري 61

أبو راس المعسكري 158

أبو زيد القيرواني 56

أبو طالب المازوني 158

أبو بكر عبد الرحمن الحسين 74

أبو قنطور 328

أحمد 201

أحمد الأزهري 298

أحمد أبو القاسم التواتي 201

أحمد القرمنلي 156

أحمد بابا 53-54-57-58-59-60-61

أحمد ابن ابراهيم الجرامي 369

أحمد بن ادريس الفاسي 162

أحمد بن ادريس الأشهب 200-204-205

أحمد بن تكوك 204

أحمد بن القاضي أبو بكر التمبكتي 241-242

أحمد بن سعد 201

أحمد بن صادق 203

أحمد بن علي بن عبيد 201

أحمد بن محمد الشماخ 215

أحمد بن محمد الأمين 90

أحمد بن يزيني الدلهمي 72

أحمدو الثاني 149

أحمدو الثالث 149

أحمد شريف 186-197

أحمدو شيخو 213-216-224-225-226-227-228-229-230-234-237-238-248-251-307-311-312-314-317-318-332-341-355-395

أحمد فرج الله الفيتوري 169

القلقشندي 48
الكندي 273
الكيقما 329
الله 139-140-141-150-174-181-182-
193-242-246-247-266-267-269-
270-276-279-280-282-295-299-
302-312- 313-314-323-333-336-
338-350-352-353-361-373-374-
379-380
المراكشي 57
المسعودي 16
المغيلي 53-54-55-56
المقري 59
المقوقس 45
الملك 244
المنصور الذهبي 51-59-139
المنصور السعدي 83
المهدي 36-109-148-191-193-195-
196-197-198-199-204-205-207-
208-209-255-262-263-264-265-
266-267-268-269-270-271-272-
273-274-275-276-277-278-279-
280-281-282-283-284-285-286-
288-293-303-314-325-326-338-
340-341-373-378-379-395
الياس 380
آمنة 263
أمية 229
أمير المؤمنين 140-143-144-147-148-
150
أميل جانتي 332-333

(ب)

باجوبا 355
باراتيه 366
بانيكار 18
باوا 92-101
بايول 216
بدور عثمان بن الأمين 89
براون 333
برتشارد 192
برثليموديا ز 17
برغش 369
بسمارك 306-307
بشاره خراج 333
بغيغ 58
بقيلي إيلي 380
بك 322
بلس 307
بن مود بوعال 91
بورني ديبور 355
بوطليموس 22
بوعمامة 196
بول كراميل 332
بونابرت 358
بروتون 18
بيرتونى 332 -333

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

دي لارتيج 359

(ر)

رابح بن فضل الله (الزبير) 133-196-197-305-320-321-322-323-326-327-329-330-331-332-333-334-335-336-337-338-339-340-341-342

راجي أوجاس 380

رؤوف باشا 282-283-285

رازي 56

راشد أيمن 284-285

رافع بدر فركاش 201

رحمة الله 380

رضوان 270

رفاعة 168

رقية 43-89

رويفع بن ثابث الأنصاري 168

رومولو جسي 322

روبيلوت 333

ريبل 49

رينيه كاييه 32

(ز)

زبير رحمة 321-322-338-341

زمواري 64

زيد 44

زيدان 59

زين الدين 325

زين بن محمد صغيرون 64

زينب نصر 263

(س)

ساموري توري 87-231-232-233-234-317-318-346-347-349-350-351-353-354-355-356-357-358-359-360-361-363-364-365-389-394-395

سبويه 61

سعد 204

سراج 266

سعيد الفحاص 204

سعيد باشا 83

سعيد فركاش 204

سلاطين باشا 288

سليمان الزبير 322-335

سليمان القانوني 155

سلميمان بن محمد الوالي 61

سلطان صالح 327-329

سنان باشا 155

سنوسي 191-195-199-213-215

سنوسي الأشهب 201

سنوسي الغماري 204

سوري ابراهيم 349-351-356

سويبو 317

سيتوندا 382

سيد القوم بادي 64

سيد خليفة بن سعيد 73

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(ت)

توفيق محمد البكري 270

توماس أورنولد 192

تيبه 356-357-358

(ج)

جاليني 230-233-317-319-357

جبريل بن عمر 65-66-68-90

جرو 333

جعفر 43

جلال الدين السيوطي 56

جمال الدين الأفغاني 255-285-300-302-320

جوالاند 333

جورج هاردي 355

جودار باشا 51-83

جول فيري 306-307-308

جيلان 333

(ح)

حاج شريف 264

حافظ ابراهيم 95

حامد غانم المكاوي 199

حجر كبير 327

حسن الجبرتي 62

حسن الوكيل 329

حسين الغرياني 200-202

حسين الموهوب الدرسي 203

حمدان بن بركة الفيتوري 200

حمدو لوبو 138

حمدون بن عبد الرحمن 159

حمودة باشا 241

حمودة بن الحاج 159

حواء 89

(خ)

خاتو 103

خديجة 94

خلفان بن مبارك 75

خليل 57-61

خليفة شنتيح 202

خلفاء 318

خياري (شياري) 330

(د)

دارسي 247-248

دانييدرو 155

دانيل 113

دان هام 133

داودمبا 243-244

دراويش 283

دردير 67

درغوث 155

دوران 333

دوفرجين 198

دوناما بابلمي 121

دي بورتر 107

جمعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

دي لارتيج 359

(ر)

رابح بن فضل الله (الزبير) 133-196-197-305-320-321-322-323-326-327-329-330-331-332-333-334-335-336-337-338-339-340-341-342

راجي أوجاس 380

رؤوف باشا 282-283-285

رازي 56

راشد أيمن 284-285

رافع بدر فركاش 201

رحمة الله 380

رضوان 270

رفاعة 168

رقية 43-89

رويفع بن ثابت الأنصاري 168

رومولو جسي 322

روبيلوت 333

ريبل 49

رينيه كاييه 32

(ز)

زبير رحمة 321-322-338-341

زمواري 64

زيد 44

زيدان 59

زين الدين 325

زين بن محمد صغيرون 64

زينب نصر 263

(س)

ساموري توري 87-231-232-233-234-317-318-346-347-349-350-351-353-354-355-356-357-358-359-360-361-363-364-365-389-394-395

سبويه 61

سعد 204

سراج 266

سعيد الفحاص 204

سعيد باشا 83

سعيد فركاش 204

سلاطين باشا 288

سليمان الزبير 322-335

سليمان القانوني 155

سليمان بن محمد الوالي 61

سلطان صالح 327-329

سنان باشا 155

سنوسي 191-195-199-213-215

سنوسي الأشهب 201

سنوسي الغماري 204

سوري ابراهيم 349-351-356

سويبو 317

سيتوندا 382

سيد القوم بادي 64

سيد خليفة بن سعيد 73

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سيد صالح بن علوي 76
سيد علي عبد الله جمال الليل 73
سيد مجيد 72
سيدو 230
سين كيلي 356

(ش)

شارف الغرياني 205
شافعي 48-72-266
شاكر العزي 298
شبيكة 339
شرف الدين 325-326
شريف ابراهيم صالح الحسني 122
شريف الغدامسي 202
شريف الغرياني 204
شريف (ملك مكة) 296
شعيب سيماكولا 75
شيخ أبو بكر 58

(ص)

صادق السنوسي حامد 199
صالح 87
صالح الفولاني 66
صالح بن محمد عبد القادر 67-68
صالح عبد الله بن عمر بن محمد آقيت 56
صمب عامر 392

(ط)

طاهر الفولاني 76-77
طيب البصير 268
طيب بن كيرام 159

(ع)

عائشة 216
عباس 164-280
عباس محمود العقاد 186-263
عبد الجبار 49
عبد الحميد الثاني (سلطان) 73-192-300-302
عبد الرازق ماتوفو 76
عبد الرحمن 275
عبد الرحمن التواتي 204
عبد الرحمن الثعالبي 53
عبد الرحمن السعدي 58-61
عبد الرحمن العوال 200
عبد الرحمن بن جابر 63
عبد الرحمن بن حبيب الفهري 49
عبد الرحمن بن يوسف الشريف 132
عبد الرحمن جاورانج الثاني 327-332-333
عبد الرحمن حمدا 89
عبد الرحيم المحجوب 201
عبد السلام 102
عبد السلام فركاش 199
عبد الصمد بن مجيد 75
عبد العزيز الدباغ 163
عبد القادر الجيلاني 109

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عبد القادر الفزاني 202
عبد القادر حلمي 278
عبد الكريم السماني 267
عبد الكريم بوصفصاف 192
عبد الكريم صالح 205
عبد الكريم فوتاجلوني 215
عبد اللطيف النعاس 205
عبد الله أبو سيف 200
عبد الله التعايشي 275-279-282-288-
292-298-299-300-327
عبد الله التواتي 199-204
عبد الله الحلاني 202
عبد الله السني 201
عبد الله الطوير 206
عبد الله الفضيل 202-205
عبد الله الكليلي 205
عبد الله بن أبي سرح 46-47
عبد الله بن أمية 43
عبد الله بن فودي 65-66-68-69-70-71-
92-93-100-101-105-111-113
عبد الله بن محمد باكثير 74
عبد الله بن نافع المزروعي 72-73
عبد الله بن ياسين 49-214
عبد الله فركاش 204
عبد الملك بن مروان 263-368
عبد الهادي الفضيل 201
عبد الوهاب أبو القاسم العيساوي 204
عثمان 213-225-227-236-237-316
عثمان الفولاني 67
عثمان بن حسن الدمياطي 72
عثمان بن شاكر 329
عثمان بن عفان 43-46-292
عثمان بن فودي 65-6668-69-70-82-85-
87-89-90-91-92-93-94-95-96-97-
98-99-100-101-102-103-104-105-
106-107-108-109-110-111-112-
113-114-115-116-118-122-126-
127-128-130-132-134-136-139-
141-142-144-148-150-151-152-
239-255-274-300-318
عزرائيل 296
عقبة بن عامر 47
عقبة بن نافع 44-45-46-49-120
عقيلة الحليق 200
علي العابدي 201
علي المحجوب 201
علي باشا أصقر 164-169
علي بن عبد الله المزروعي 72-73-74
علي بن أبي طالب 44-48-265
علي بوري 231-312
علي حامد 199
عليش 161
علي عبد الله 202
عمارة بن الوليد 43
عمر 133-319
عمر أبو حواء الفضيل 201

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عمر الاشهب 200-201
عمر بن الخطاب 44-67-183
عمر بن العاص 43-45-47-154
عمر بن سعيد الفوتي 71-87-149-239-
240-241-243-246-247-249-250-
251-255-311-315-318-354-355-
356-360-395
عمر بن قسام 122
عمر بن عبد العزيز 46
عمر المختار 198-201
عمر جالو 202
عمر كندة 316
عمر محمود 383
عيسى محمود 383

(غ)

غرودون 322-378-379
غورو 359

(ف)

فابو 355-356
فاسكو دي جاما 17
فاطمة 63-156
فاطمة الزهراء 157
فاما 353
فراي 315-316-317-356-357
فريمان 380
فضل الله 334
فودي 89-109
فورنو 196
فورني 317
فيدر هيرب ليون 239
فيكتوريا 300

(ق)

قوامي نكروما 19

(ك)

كابرو 326
كارسوندرز 21
كارل بروكلمان 330
كرودني 385
كاماسا 357
كسيلة بن لمزم 46
كشلا 329
كلابرتون 71-133
كليمنصو 307
كوانته 334
كوفيل 377-378-379
كومب 356

(ل)

لابراد بينيه 239-240-248
لاتديور 312
لافياتوري 347
لامي 333-334
لوثروب ستودارد 370

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(م)
ماباجاخوبا 213-222-239-242-243-
244-245-246-247-248-249-250-
251-252
ماجي ابراهيم 55
مالا 329
مالك (الأمام) 48-108-124-188
مالم حياتو 327-330-336
مالين كاموري 356-357
مانير 333
محمد ابراهيم الغماري 200
محمد أبو القاسم العيسوي 101
محمد أبو خليفة 200
محمد أبو زيد 204
محمد أبو فارس 204
محمد أبو نجوى الفحاص 204
محمد أحمد العيسوي 204
محمد الأزهري 202
محمد الأزرق 64
محمد الأمين الكانمي 69-118-120-122-
123-124-125-126-127-128-129-
130-131-132-133-134-135-136-
151-152-216-236-319-340-342
محمد الأمين فركاش 202
محمد الأول أبو بكر 90
محمد البراني 197
محمد البسكري 207
محمد الجبالي 201
محمد الحبيب 204
محمد الحسن الغماري 202
محمد الخير 256-266-271
محمد العربي 204
محمد العلمي الغماري 200
محمد الغالي 215
محمد الغماري 199-205
محمد الكليلي 202
محمد المبخوت السواتي 201
محمد المدني 202
محمد المهدي السنوسي 166-167-169-176-
190-292-296-302
محمد الهاشمي 204
محمد الهاشمي (الأمير) 67
محمد بلو 69-71-77-106-113-131-140-
141-145-148-216-227-237-274
محمد بن ادريس الفاسي 162-163
محمد بن الشفيع 199-201-204
محمد بن تومرت 51
محمد بندو 61
محمد بن سبيع 204
محمد بن سينا الشنقيطي 67
محمد بن عبد الرحمن البرناوي 62
محمد بن عبد الكريم السمان 67
محمد بن عبد الله 280-338-379
محمد بن عبد الله التواتي 201
محمد بن عبد الله السني 200-206
محمد بن عبد الوهاب 108-166-299

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

محمد بن عبد الله حسن 346-366-370-
371-375-377-386-388-390-395
محمد بن عثمان 60
محمد بن عثمان الحشائشي 161
محمد بن علي 122-124
محمد بن علي السنوسي 35-154-156-
157-158-159-160-161-162-163-
164-165-166-167-168-169-170-
171-172-173-174-179-180-181-
182-185-186-187-188-189-190-
202-203-208-209-210-299-300
محمد بن علي الشريف 158
محمد بن علي المولى 205
محمد بن عمر التونسي 260
محمد بن محمد الفيلالي 200
محمد بن محمد الكشناوي 61-62
محمد بن محمود كعتو 57-58-60
محمد جنينة 204
محمد رمفا 54-55
محمد الرويغي 205
محمد الزروالي 159-205
محمد السقالي 215
محمد السكوري 201-203
محمد السنوسي 54-327
محمد الشارف 204
محمد الشريف 169-190
محمد صالح السوداني 371-384
محمد صفار 67
محمد صغيرون 63-64
محمد طاهر 330
محمد عابد 205
محمد عبد الحي الكتاني 66
محمد عبد الله الزوي 199
محمد عبده 161-225-285-300-302
محمد علي 204
محمد علي باشا 160-369
محمد علي بن عمر الأشهب 201
محمد علي أبو سيف 200
محمد عمر الفضيل 201
محمد فودي 61-89
محمد كرعك 61
محمد هاشم 330
محمد يحيى 201
محمدو الأمين 305-307-308-309-311-
319-341-342-366-394
محمود كعتو 57
محي الدين بن عربي 174-284
مراد آغا 155
مريا 216
مريم 94-216-227
مسلم (الأمام) 273
مصطفى أبو شايده 200
مصطفى الدردفي 201
مصطفى المحجوب 201
مصطفى الغماري 199
مصطفى القوني 93

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقرب حدوث البرعصي 204
مكي شبيكة 262
منسى موسى 83-121
موسى جكل 87
مونتيسكيو 350

(ن)

نابليون 306
ناصر (سلطان) 283
نافاتا 101-102
نجاشي 43
نجم الدين 201
نجيب بن محمد شمس الدين 56
نعمة 271
نعوم شقير 279
نمر (ملك) 284
نور الدايم 267-268-269-270-271
نيابي 334

(هـ)

هاشم (الشيخ) 133-320
هاشم الزمفري 91
هري 380
هشام بن عبد الملك 44
هوبير ديشان 44
هوصا 216
هيكس باشا 286-302
هيرودوت 22-26

(و)

ود البشير أحمد الطيب 267
ود البصير أحمد 179
ود حلو علي 292
ود الزين القرشي 268-271-274-275-298
ود سليمان أحمد 291
ود عيسى 265
ويلكوكس 21

(ي)

يحي بن ادير 53
يوسف 75
يوسف (السلطان) 225
يوسف القرمنلي 183
يوسف باشا 156
يوسف حسن الشلالي 284-285-291
يونس الموهوب 202

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الدول

(أ)

إثيوبيا 22-25-36-37-42-43-45-288-
302-338-369-376-380-382-383-
387-389-390

أدموا 196

إفريقيا الوسطى 32

الأجادين (الصومال الحبشي) 369-377

الأندلس 19-28-54-79-273

الباقرمي 326-327-329-334

البرتغال 17-368-369-388

الجزائر 25-26-54-155-157-159-
164-187-192-194-195-207-215-
333

العراق 263

الغابون 359

الفور 259-260

الفونج 258-259-260-294

الكاميرون 32-126

الكونغو 32-36

ألمانيا 307-308-369-382-386-395

المرس 256

المسبعات 260

المغرب 19-25-27-54-56-59-68-
124-159

المقره 256-301

المكسيك 24

المملكة العربية السعودية 343

المملكة العربية السعودية 343

الهند 348-376

اليمن 44-162

إندونيسيا 74

إنجلترا (بريطانيا) 18-62-71-198-230-
247-248-286-288-300-302-307-
308-358-369-373-374-375-377-
378-379-382-383-384-385-386-
387-389-390

أوغندا 75-76

إيطاليا 155-256-288-308-373-380-
383-384-385-389-390-395

(ب)

باكستان 371

بروسيا 306

بنت (الصومال) 366

بنين (الداهومي) 18-31-196

بوركينافاسو (فولتا العليا) 28-142-352

(ت)

تركيا 262

تشاد 25-28-29-32-34-118-124-125-
133-151-191-192-197-206-208-
236-305-319-334-337-338-340-
341-343

تقلى (التروج) 260-297

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تكرور (مملكة)
تنجانيقا 36
تونس 25-53-85-155-160-186-194-
241-269-308

(ج)

جالا 367
جزر القمر 73
جنوب إفريقيا 74-78
جيبوتي 25-389-390

(د)

دار فور 259-261
الدولة الأحمدية 60
الدولة السعدية 61
الدولة العباسية 60
الدولة العثمانية 148-169-170-172-
173-174-185-189-192-255-260-
354-368-372-386

(ر)

الرأس الأخضر 17

(ز)

زئير 32-36
الزرقاء 258
زنجبار 72-73-74-75-369

(س)

السنغال 17-19-27-28-31-178-214-
216-218-221-222-223-224-231-
232-233-239-240-243-245-247-
249-312-316-318-352
سنغاي 51-58-69-79-121
السودان 22-24-25-27-28-36-192-
195-198-207
سيراليون 17-218-230-352-356-357-
363-365

(ص)

الصومال 25-36-37-337-366-368-369-
370-371-372-373-376-377-379-
380-383-384-385-386-387-388-
390-395
الصحراء الغربية 25
الصين 176

(ع)

علوة 256-258-301

(غ)

غانا 19-49-83-236-352-359
غاميا 28-31-102-218-222-236-246-
247-305-309-312-317-340-341
غينيا 31-32-217-230-236-347-352
غينيا الاستوائية 32

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(ف)

فرنسا 31-198-221-222-224-229-
230-231-232-233-236-248-306-
307-308-312-316-318-331-332-
333-334-357-359

(ك)

كانم برنو 34-48-61-63-69-76-77-
79-118-120-121-122-124-125-
126-127-128-129-130-132-133-
134-135-152-168-192-196-236-
250-319-320-329-330-331
كوار 339
كوت ديفوار (ساحل العاج) 31-236-355-
365
كوش 256-301
كيندوغو 352-353-356
كينيا 76

(ل)

ليبريا 347-359
ليبيا 17-22-24-25-26-27-28-34-
35-123-154-156-168-169-170-
174-176-183-184-187-189-191-
192-195-198-200-208-334

(م)

مالي 19-25-51-60-61-68-79-83-
121-136-142-152
ماسينا (دولة) 216-217-221-224-225-
234
مجرتينا 345
مروى 301
مراكش (دولة) 32-83-194-228
مصر 20-25-28-36-45-46-47-48-57-
62-63-67-84-85-121-123-128-129-
154-160-161-168-173-192-194-
195-200-205-206-216-255-258-
260-261-262-263-285-286-296-97-
301-302-320-321-325-341-343-
369-373
موريطانيا 25-28-67-68-214-215-222

(ن)

نوباتا 256-258-301
نيجيريا 30-62-68-71-87-100-112-
113-116-126-206
النيجر 19-24-25-28-31-55-83-333-
355

(و)

واداي 168-192-196-326-327-329
ورسنجلي 82

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأماكن :

(أ)

الأبيض 269-285-286-291

الأزهر 85-121-123-160-161-170-

215-216-285-291-343-388

الأستانة 194

الأغواط : 159

الألزاس 306

أبا 268-269-270-278-282-292

أب تركي 263

أبرو 327

أبي 323

أبي قبيس 163-168-174-190-199-208

أديس أبابا 381

أروان 58

أسان 247

استراليا 24

اسطمبول 73

اسقفة 205

آسيا 20-42-110-179-366-387

أطلس 25-27-30-31-32

أعالي النهر 355

أغدس 51

أفافيت 294

إفريقيا 16-17-18-19-20-22-26-27-

28-30-31-32-35-38-39-40-42-44-

45-46-47-48-49-51-52-53-56-62-

64-77-78-79-80-82-86-109-110-

111-116-118-121-132-138-143-

146-147-150-154-168-179-180-

181-189-209-213-215-218-219-

221-222-224-225-227-232-234-

238-239-240-241-248-250-301-

306-307-308-346-347-350-351-

360-389-390-392-394-395

إفريقيا الاستوائية 26-30-83-106-334

إفريقيا الجنوبية 17-22

إفريقيا الشرقية 17-35-36-39

إفريقيا الشمالية الغربية 28

إفريقيا الوسطى (وسط) 21-22-32-34-39-

323-332-333-

إفريقيا الغربية 17-22-30-31-39-68-86-

89-97-105-114-118-120-138-147-

148-149-150-152-172-213-218-

225-305-307-308-309-315-334-

361-363-365-389

إفريقيا جنوب الصحراء 16-17-19-28-30-

32-42-53-59-66-77-78-82-85-86-

87-114-116-190-196

أقرمي 206

البلاد الإسلامية 196-377

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإنسانية

البلاد العربية 196-199-387
البلقي 330
البيضاء 168-170-174-200-208
الجابية 45
الجامع الكبير : 159
الجزيرة العربية 20-24-42-43-78-82-
120-123-164-185-263-366-387-
391
الجفرة 201-202-205
الجلفة 159
الجوف 200
الحجاز 161-162-164-166-170-174-
190-192-194-199-200-206-215-
251-295-296-302-371
الحنية 206
الخرطوم 285-286-288-293-320-379
العالم الجديد 350
العراذيب 269
العرقوب 201
العزيات 202
العقبة 164
العقيلة 168
العيص 206
الغبش 265
الفارعة 206
الفاشر 207
الفرافرة 205
الفسطاط 263
القارة 16-17-18-19-20-21-22-25-31-
32-35-36-38-39-40-154-186-196-
198-239-240-366-384-389-394-
395-396-397
القادرية 869
القاهرة 121-161-164-186-215-216-
255-320-321
القدس 45-123-215-295-297
القرن الإفريقي 36-282-346-387-388-
389
القرويين : 85-170
القسطنطينية 172-192-273-295-297
القصر 205
القصور 201
القطفية 205
القلعة 261
القلمون 205
القيروان 124-215
الكفرة 167-192-195-196-197-200-
201-202-204
اللورين 306
المثان 205
المحيط الأطلنطي 20-25-26-28-30-31-
32
المحيط الهادي 37
المحيط الهندي 21-28-36-37
المخيلي 202
المدينة (المنورة) 67-74-123-124-174-
199-225-295-297-302

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المرازيق 205
المرج 201
بامبوك 317
بانجاسو 323
بانجالاما 327
بحر أبيض متوسط 20-22-25-27-35-
172-138-256
بحر أحمر 20-25-28-35-36-43-258-
366-369
بحر العرب 36
بحر الغزال (تشاد) 349
بحر الغزال (السودان) 221-322-327
بحر مأمون 326
بحيرة تشاد 106
بدر 200
بدور 214-217
بر 215-223
بران 385
براني 206
بربر (جزيرة) 265-268
بربرة 370-373
برعو 374
برقة 25-35-45-154-164-166-167-
170-192-200-201-202-204-205-
215
بركو 34
برلين 197-312-332-395
بريطوريا 19
بقيلي 340
بلاد الزنج 28-36
بنغازي 160-168-201
المشرق 52-61-79-121-124-127-129-
160-162-180-236-246-273-316
المعهد العالي (جغبوب) 170-171-208
المغرب 46-47-52-61-79-121-124-
127-129-160-161-162-180-230-
246-273-339
المغرب العربي 25-27
الهوقار 25
الواسطة 157
الودية 106
أم التيمان 326
أم درمان 246-279-288-294-378
أم ركبة 202
أم شختب 205
أم مرحي 267
أنتيلات 205
أنهار الجنوب 239-240
آهير (أير) 25
أوبانقي 32-325-327
أوجلة 205
أودغشت 27
أورندو 317

(ب)

باؤول 246
باب الجديد 164

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

باب المندب 20
باخوي 285
باريس 306
باقل 27-223-233-314-315
باكو 67
باماكو 31-335-336-352
بنوي 31
بوا 326
بوري 364
بوسو 326-327
بوسيرو 75
بومباري 323
بونا 67
بيالي 380
بيرا 378-379-380
بير علالي 197-206
بيساندوجون 347-352-357-360-363

(ت)

التاج 157-204-205-208
تازربو 202
تافيلالت 26
تبستي 25-34-35
تجوراء 155
تسونسو 105
تسوي 141
تلمسان 53-124-215
تمبو 217
تمبكتو 56-57-58-59-60-61-67-68-79-83-124-142-149
توات 26-54-55-207
توجيباو 332-333
تورينغو 350
توكرة 202
تيديكلت 207
تيكدا 56

(ج)

جالمي 87
جامعة الملك فيصل (تشاد) 343
جاوة 74
جبل الأخضر 35-168-190
جبل طارق 20
جبل ماسه 283
جبيلية 354-360
جدة 200
جريبنجي 323
جغبوب 171-172-174-185-190-193-194-195-204-207-208
جنوب الصحراء 118-136-138-150-151-152-221-238-242-243-249-251-252-305-346-361-363-389-391-392-393-395
جنى 60-71-79-138-139-140-141-142
جوبان 37
جوبا 37

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جوبير 68-87-92-100-136
جودو 103-105
جولفي 329-333
جيجيجا 380
جيليمو 359

(ح)

حضرموت 41-72-73
حلفاية الملوك 320
حلويين 271-275
حمد الله 106-142-145-147-149-152-216-224-234
حوض ميلو 347

(خ)

خديجة 155
خط الاستواء 258

(د)

دار السلام 236
دار بنده 325
دار روفاي 325
دار رونغا 325-326
دار فور 34-36-172-286-321-325-329
دار كوتي 225-226
دار كوفة 242
دانجويري 216-218-219-228-234
داندي 36
دانزي 326
دبيني 61
درنة 108-200
دمبور 217
دنقلة 256-263-264-286-294-297
دياجوكو 318-319
دياقونو 316-317
ديالا 229
ديانا 316-317
دي بيكرات 288
ديجل 92
ديكوة 330-332-333-334-338
ديم الزبير 335-337
ديمياط 129-132
ديوخو 248
ديوري 218

(ذ)

ذات البقر 76

(ر)

رابغ 206
رأس الرجاء الصالح 18
رأس بوجادور 17
رأس عنود 370-375-377
ربيانة 202
رجبان 202
رفاعة 168

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ركن 225
روندي سيرو 140-141
روما 27
الريانية 206
ريب 247

(ز)

زاريا 71-103-105-331
زمفر 92
زندر 331
زويلة 201
زيبان 26
الزيتونة : 85-170

(س)

الساحل 25
سان لويس 316
سب فروت 370
سجلماسة 132
سلامات 34-325
سلوم 32-240-247-248-255
ساندينغ 363
سنار 258-261-284-320-341
سندوبو 314-316
سواكن 369
سوبة 256-258
السودان 49-55-56-58-60-61-94-
103-104-109-120-200-234-370-
379-378
السودان الأوسط 16-28-47-48-58-61-
100-118-120-121-122-124-133-
135-151-172-196-197-241-249-
305-319-323-327-331-338-339-
340-341-342-346-392
السودان الشرقي 17-28-35-249-392
السودان العربي 16-28-82-86-92-100-
172-195-214-217-231-233-237-
239-249-250-255-256-258-259-
260-265
السودان الغربي 54-56-58-61-135-139-
151-233-236-267-269-320-321-
322-323-338-344-347-353-362-363
السودان النيلي 320
سوزيرام 349
سوكنة 202
سوكوتو 68-69-71-79-86-87-104-
106-107-125-130-131-132-134-
138-140-141-146-148-152-216-
225-227-234-236-237-256-327-336
سومب 248
سيجو 138-139-149-216-221-224-
227-228-229-230-232-234-237
سيدان 306
سيغادا 106
سين 240-246-255
سينا 20
سوننكورو 349

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سيكاسو 357-359
سيوة 206
سيوح 206

(ش)

شا 325
شاري 31-34-326-327
الشام 45-123-129-194
شيبلي 37
شحات 201
شرق 160-213-339
شرق إفريقيا 42-43-44-45-52-68-72-
74-75-111-303-346-366-369-
385-387-388-391-395
شركندو 242
شركوار 242
الشلال الثالث 258
شماس 205
شمال الصحراء 53-55-78-82-118-391
شمال إفريقيا 42-44-45-46-47-52-
78-174-186-198-200-214-215-
222-308
شمال خط الاستواء 198
شندي 64
شنقيط 28
الشهر 72
شيكان 286

(ص)

صبراتة 27
صبيا 163
صحراء 47-52-78-79-83
صقلية 20

(ض)

ضرار (جزيرة) 366

(ط)

الطائف 200
طبقة 202
طرابلس 24-27-38-45-124-154-155-
164-168-169-185-192
طرش 157
الطلمون 201
طلميثة 202
طليح 377-378-380

(ع)

العالم الإسلامي 167-170-174-179-180-
181-185-186-187-209-226-227-
255-298-299-302-303-320-321-
370-371-373-388
عدن 37
عرجابو 377
عطبرة 36
عطمور 36
عمان 73
عين جلك 197

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عين صالح 207
عين ماضي 159-164

(غ)

غاو 55-83
غدامس 202
غرب إفريقيا 49-65-78-85-103-106-
107-109-110-111-112-142-240-
246-248-250-251-255-256-301-
303-305-306-311-312-318-334-
339-346-347-348-350-358-385-
391
غنديورو 309
غوري 314-317
غوند 21-32
غوندو 69
غويديمكه 316-317

(ف)

فاس 53-54-56-159-215
فزان 24-26-28-35-154-168-183-
192-201-204
الفسطاط 263
فلسطين 295
فوتاتورو 87-89-123-124-214-216-
221-223-227
فوتاجلون 31-32-67-89-138-217-228-
237-363
فوجيه 334
فوكة 206
فيكتوريا (بحيرة) 36

(ق)

قابس 160-164
قدير 282-283-284
قرارة 26
قرطاجة 27
قرو 197-206-208
قرى بربى 205
قفنطة 201
قناة السويس 20-369
قوز العلوب 270

(ك)

كاتسينا 55-56-61-79
كأرتا 142
كارنو 112-332
كازمنس 32
كانو 54-55-56-68-71-79-112-206
كايا 323
كبي 55-92-105
كدي 214
كربلاء 44
كردفان 36-258-260-276-277-282-
283-285-286-372
كررى 264
كرغد 383

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كرنك لوجون 327-329-333
كسلا 298
كلاوا 105
كليمانجارو 36
كمباي 363
كمبي صالح 49
كنكان 347-352-363
كنين 202
كوار 183
كورا 120-363
كوروسا 363
كوسري 229-333
كوكا 126
كوكاكة 332-333
كونو 333
كيب تاون 74
كيتا 231-233-355
كيع 383
كيكوة 329-330
كينيبا 363
كينيارا 355
كينيبا كورا 357

(ل)

لآمو 74
لبب 63
لختة 333
لندن 18-247
لوجون 34

(م)

ماتاواشي 259
مادرا 331
ماره 200-226
مارمايكا 25
ماروت 248
ماسه 190
ماسينا 61-67-327-337-339
مانجافا 327-329
مبالي 75
ميبغي 75
مجارتينا 383
مجاهر 107
مدار السرطان 22
مرادة 205
مراكش (مدينة) 32-56-59-60-61-67-68-79
مرت 68
مرازيق 201
مزده 201
مستغانم 157-158-159-207-215
مسوس 201
مصوغ 208
معرب إسلامي 123-198
مقديشو 368
مكة 43-62-67-72-74-103-123-162-163-168-174-199-208-215-296-297-384-386

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ممباسا 72-73
منديشه 205
منى 200

(ن)

نانكين كوتو 105
نافاديا 356-359
نافال 383-385
نجامينا 343
نجد 302
نجيلة 206
ندجولي 359
نفوسة 35-36
نهر باني 142
نهر الباخوي 356
نهر السنغال 32-37-138-214-228-
230-232-233-239-316-332
نهر غامبيا 32
نهر النيجر 32-136-138-332-334-
352-354-355-357-359
نوبة 28-35-44-47-260
نورا 363
نوميديا 24-25
نياجاسولا 356
نياسا 35-36
يان 205
يجر أوسط 249

النيل 26-28-36-256-258-261-262-
266-272-283
النيل الأبيض 36-256-269
النيل الأزرق 36-256-271
نيروبي 76
نيورو 228-229-232-233-234-247-
نيومي 247-248

(هـ)

هرر 370-380
هلوار (ألوار) 214
هون 201
هيبو ي83

(و)

واحة 162-171-172-192-195-196-
197-200-201-391-392
واداي 26-34
وادي الباولي 347
وادي البرد 168
وادي الشلف 157
وادي المخازن 83
وادي تارجا 24
وادي ذرعة 24
وادي ريغ 27
واسولو 348-365
واو 201
وجنقة وجنقات 181-197

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وجنقة الصغرى 206
وجنقة الكبرى 206
وراء البحار 393
وسط إفريقيا 111-196-303-334-338
وسط القارة 387
ولاتة 55-56-215
ون 197

(ي)

يثرب 103
يلل 157
ينبع 164-206
يوغونسيرو 138

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأجناس و الشعوب

الأتراك (العثمانية) 155-167-170-185-193-195-258-261-262-294-369

الأثيوبيون (الأحباش) 26-368-369-380-381-388

الأدارسة 49

الإسبان 155

الأسيقيون 51

الأفارقة 44-45-52-78-79-82-86-106-113-114-116-198-239-252-347-349-350-352-356-365-366-391-392-397

الألمان 306

الأمازيغ 46-49-52-78

الأمهرة 376

الأمويون (بنو امية) 129-263

الإنتشاريون 155

الإنجليز 31-32-37-39-113-195-196-218-222-230-252-255-262-298-352-357-358-359-365-378-380-381-382-385-386-390

الأندلسيون 59

الأوروبيون 19-22-30-39-48-52-116-146-147-150-155-172-176-198-218-318-342-351-354-394

الأوغنديون 75

الإيطاليون 37-151-156-172-195-381-382-386

الباقرميون 327

البربر 22-25-26-27-46

البرتغاليون 17-32-38-369

البزنطيون 46-78

الجزائريون 53-55-154

الحاميون 366

الحجازيون 68

الحضارمة 372

العباسيون 107

العرب 16-19-24-28-35-38-39-258-301-366-368-369-387

الفرنسيون 27-32-113-166-184-191-196-197-207-209-307-312-313-314-318-320-337-354-361-363-366-390-395

الفلانيون 84-87-89-92-103-105-107-108-112-113

الفنقيون 38

الكانميون 122-183

الكرميون 26

الليبيون 26-155-334

الماليون 51

المجرتنيون 383

المصريون 46-78-366-369

المغاربة 46-51-55-59-84-139

المماليك 261

الموحدون 51

الوندال 238

اليمنيون 366

التشاديون 334

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الرومان 22-38
الزنج 28
السعديون 28
السنغاليون 395
السودانيون 48-285-286-301
السوريون 48
السكوتيون 132
السواحليون 75
الصوماليون 368-369-370-372-373-
380-381-382-383-388
الطوارق 337
النورمانديون 154

فهرس القبائل :

(أ)

البجة 47-260
الجعليين 64
الفولة 67
الفونج 48-64
المرابطون 27-49-51
أولاد جابر 63
الهوسا 69

(ب)

باؤول 138-139
بمبارة 51-238-140-141-149-216-
221-223-224-226-227-228-229-
230-232-233-234-292
بونده 338-339
بني سعد 338

(ت)

تبو 200
ترارزة 220-222
تعايشية (البقارة) 275
تكرور 149-214-217-218-224-225-
227-229-230-231-233-234-248-
309-311-312-313-317-352-395.

(ج)

جولة 326
جهمة 200-258
جهينة 48

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(ح)

حسنات 292

(خ)

خطاطبة 157

(د)

دغيم 292

ديالو 139

ديولا 347-351

(ز)

زويا 195-200

(س)

ساراكابا 338-339

ساراكولي 228-305-308-309-310-311-312-313-315-316-317-318

سرير 246-248-255-316

سلامات 326-338

سونونكى 247-248

(ش)

شايقية 64

(ص)

صنهاجة 24-27-67

(ع)

عبد لاب 258-259-260

(ف)

فولاني 118-122-127-132-135-136-138-139-145-150-255-274-319-340

فونج 258-267

(ق)

قريش 43-44-166-302

قواسمة 258

(ك)

كاجورا 228

كنانة 292

كواهلة 267

كونتا 148-149

كيلاي 338-339

(م)

مالينك 350-351-358

مسوفة 67

مغيلة 53

مندنجو 136-138-221-317-352-353-358-363-364

مور 352

(هـ)

هوسا 91-101-103-104-106-113-131-132-133-136-139-151-152

(و)

ولوف 248-312

(ي)

يوربا 256

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الفرق و الطوائف :

الحنابلة 68

الخوارج 65

العلويون 78

تيدو 242-243-245

الزيدية 78

السنة 274-294

السنوسيون 116-184-191-194-196-197-207-209-319-329-331

الشافعية 72

الشيعة 44-73-74

الفاطميون 85

القادريون 251

فهرس الجمعيات :

الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية 18

الخادرية 163-191-207-208-209

الخلوتية 67-215

العمرية 247-251

التيجانية 86-149-215-227-228-236-237-247-251-292

جمعية الكشف الجغرافي 18

السمانية 67-267-269-271-279

السنوسية 17-34-86-156-161-163-166-167-168-169-170-171-172-173-175-176-177-178-179-181-182-183-184-185-186-189-190-192-193-194-195-196-200-203-213-255-285-299-300-325-373

الشاذلية 67

المهدية 109-110-166-191-195-196-197-198-199-208-268-275-276-277-278-279-280-281-282-284-286-291-294-296-298-300-301-302-305-325-326-340-341-371-373

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الآيات :

بسم الله الرحمن الرحيم

"و الذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة و لأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون الذين صبروا و على ربهم يتوكلون "

سورة النحل الآية 41-42 ص.43

" لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت و يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها و الله سميع عليم "

سورة البقرة الآية 256 ص.46

" ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير "

سورة الحجرات الآية 13 ص.52

" فضل الله المجاهدين بأموالهم و أنفسهم على القاعدين درجة و كلا وعد الله الحسنى و فضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما "

سورة النساء الآية 95 ص.86

" و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل ترهبون به عدو الله و عدوكم "

سورة الأنفال الآية 60 ص.86

" كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و تؤمنون بالله و لو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون و أكثرهم الفاسقون "

سورة آل عمران الآية 110 ص.89

" أدع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة و جادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله و هو أعلم بالمهتدين "

سورة النحل الآية 125 و ص.ص96-97 ص.188

" و لو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة "

سورة هود الآية 111 ص. 118

" و لا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذالكم وصاكم به لعلكم تعقلون "

الأنعام الآية 151 ص.130

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

" و لتكن منكم أمة يدعون إلى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و أولئك هم المفلحون "

سورة آل عمران الآية 104 ص.130

" ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا و لعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم و الكفار أولياء و اتقوا الله إن كنتم مؤمنين "

سورة المائدة الآية 57 ص.131

" و أمرهم شورى بينهم "

سورة الشورى الآية 38 و ص.177 ص.143

" اقرأ باسم ربك الذي خلق "

سورة العلق الآية 1 ص.176

" و ابتغ فيماء اتاك الله الدّار الآخرة ،و لا تنس نصيبك من الدنيا و أحسن كما احسن الله إليك"

سورة القصص الآية 77 ص.181

" و لن ترضى عنك اليهود و لا النصارى حتى تتبع ملتهم "

سورة البقرة الآية 120 ص.193

" ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود و النصارى أولياء بعضهم أولياء بعض و من يتولهم منكم فإنه منهم و إن الله لا يهدي القوم الظالمين "

سورة المائدة الآية 51 ص.222

" و لن ترضى عنك اليهود و لا النصارى حتى تتبع ملتهم إن هدى الله هو الهدى و لئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من وليّ و لا نصير "

سورة البقرة الآية 120 ص.223

" و لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون "

سورة آل عمران الآية 169 ص.224

" يخربون بيوتهم بأيديهم و أيدي المؤمنين فاعتبروا ياأولي الأبصار "

سورة الحشر الآية 2 ص.244

" و إذا أردنا أن نهلك قرية امرنا متره فيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا "

سورة الإسراء الآية 16 ص.245

" و الذين تبوءو الدار و الإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم و لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا و يؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة و من يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون "

سورة الحشر الآية 9 ص.265

" ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون "

سورة المائدة الآية 90 ص.270

" و الذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبو ئنهم في الدنيا حسنة و لأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون الذين صبروا و على ربهم يتوكلون "

سورة النحل الآية 41-42 ص.280

" ياأيها الذين ءامنوا استجيبوا لله و للرسول إذا دعاكم لما يحييكم "

سورة الأنفال الآية 24 ص.280

" لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر و المجاهدون في سبيل الله بأموالهم و أنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم و أنفسهم على القاعدين درجة و كلا وعد الله الحسنى و فضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما "

سورة النساء الآية 95 ص.312

" و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله و عدوكم و ءاخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم و ما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم و أنتم لا تظلمون "

سورة الأنفال الآية 60 ص.ص.313-373

" ياأيها الذين ءامنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار "

سورة الأنفال الآية 15 ص.313-314

" و اعتصموا بحبل الله جميعا و لا تفرقوا و اذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا و كنتم على شفا حفرة من النّار فأنقذكم منها "

سورة آل عمران الآية 103ص.323

" كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله و الله مع الصابرين "

سورة البقرة الآية 249 ص.333-375

" و السارق و السارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله و الله عزيز حكيم "

سورة المائدة الآية 38 ص.336

" الزانية و الزّاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة و لا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله و اليوم الآخر "

سورة النور الآية 2 ص.337

" و كتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس و العين بالعين و الأنف بالأنف و الأذن بالأذن و السن بالسن و الجروح قصاص "

سورة المائدة الآية 45 ص.337

" الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله و لو لا دفع الله النّاس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع و صلوات و مساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا و لينصرن الله من ينصره أن الله لقوي عزيز "

سورة الحج الآية 40 ص.374

فهرس الأحاديث :

" من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ،فإن لم يستطع فبلسانه و إن لم يستطع فبقلبه و ذلك أضعف الإيمان "

رواه أبو داود ص.90

" العلم فريضة على كل مسلم "

رواه ابن ماجة ص.ص.95-173-176

" اطلبوا العلم و لو في الصين "

ص.176

" من أحيا أرضا ميتة فهي له "

رواه أبو داود ص.177

" .....غناء كغناء السيل ..... "

رواه أبو داود ص.180

" علموا أولادكم السباحة و الرماية و نعم لهو المؤمنة في بيتها المغزل "

رواه الديلمي ص.183

" أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ،و أعمل لأخرتك كأنك تموت غدا "

رواه الحكم ص.184

فهرس الدوريات

الوقائع المصرية 320

مجلة أبو نضارة 320

مصر و التجارة 320

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الخرائط و الصور

الشكل (1) : الصحراء الإفريقية الكبرى	23
الشكل (2) : إفريقيا السياسية، تقسيم إفريقية إلى بيضاء و سوداء	29
الشكل (3) : طرق الرحالة و المستكشفين قبل 1850	33
الشكل (4) : غرب إفريقيا في القرن التاسع عشر	50
الشكل (5) : إمبراطورية الفولاني	88
الشكل (6) : دولة تشاد	119
الشكل (7) : مناطق نفوذ التكرور و ساموري توري و الفولاني	137
الشكل (8) : المملكة الليبية و تظهر بها مراكز السنوسية	165
الشكل (9أ) : صورة الحاج عمر	212
الشكل (9) : إمبراطورية الحاج عمر	220
الشكل (10) : إمبراطورية التكرور في عهد أحمدو شيخو	235
الشكل (11أ) : محمد أحمد المهدي السوداني	254
الشكل (11) : خريطة بلاد السودان	257
الشكل (12) : هيكس باشا Hiks Bacha	287
الشكل (13) : غرودون باشا Grodqn Bacha	289
الشكل (14) : قبة المهدي بعد واقعة أم درمان	290
الشكل (15) : مناطق نفوذ محمدو لمين زغيم الساراكولي	310
الشكل (16) : الطريق الذي سلكه رابح إلى المنطقة	324
الشكل (17) : مناطق نفوذ رابح في الفترة ما بين 1893-1900	329
الشكل (18أ) : ساموري توري	345
الشكل (18) : مناطق نفوذ ساموري توري زعيم قبائل الماندينجو	348
الشكل (19) : السودان في حوالي 1888	362
الشكل (20) : بلاد الصومال	367

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات :

أ) مقدمة البحث و خطته

الفصل الأول : الإطار الجغرافي لإفريقيا جنوب الصحراء

مدخل لجغرافية إفريقيا جنوب الصحراء 17

التعريف بالقارة الإفريقية 20

الصحراء لإفريقية الكبرى. 22

المجال الجغرافي لنشوء الحركات الإصلاحية و الدول الإسلامية جنوب الصحراء 30

غرب إفريقيا 30

وسط إفريقيا 32

شرق إفريقيا 35

خاتمة الفصل 38

الفصل الثاني : انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء و جهود العلماء و المصلحين الأفارقة في نشره

انتشار الإسلام في القارة الإفريقية 42

شرق إفريقيا 42

الشمال الإفريقي 45

السودان الأوسط 47

غربي إفريقيا 49

العلماء المصلحون في إفريقيا جنوب الصحراء 53

الفصل الثالث : حركة الشيخ عثمان بن فودي و منجزاته السياسية و الفكرية

الأوضاع العامة في إفريقيا جنوب الصحراء 82

أسباب ظهور فكرة الإصلاح و الجهاد في إفريقيا جنوب الصحراء 85

الشيخ عثمان بن فودي 87

حياته 87

تعليمه 89

بناء الدولة 91

الدور الأول : انطلاق الدعوة و منجزاتها. 91

ركائز الدعوة و منهج التعليم. 95

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

موقف علماء البلاط من الدعوة و الإصلاح 97
تصنيف عثمان العقيدي لمجتمعه 97
الدور الثاني: هجرة الشيخ و جهاده 103
بداية الجهاد 105
الدور الثالث : إنشاء الدولة 106
إعلان تأسيس الإمارة و تنظيماتها 107
آراء الشيخ عثمان الفقهية 108
مواقف الشيخ عثمان من القضايا الرائجة في عصره 109
أثر الحركة 111
خاتمة الفصل 114

الفصل الرابع : حركتا الشيخين محمد الأمين الكانمي و أحمدو لوبو الماسيني و جهادهما في نشر الإسلام و مقاومة الوثنية

أ – حركة محمد الأمين الكانمي في السودان الأوسط 118
أوضاع السودان الأوسط قبل ظهور الحركة 120
نشأة محمد الأمين الكانمي 123
سياسة المصلح محمد الأمين و منجزاته 126
موقف الكانمي من الجهاد السوكوتي 127
مراسلات الكانمي و محاوراته المجاهدين 127
ردود مجاهدي سوكوتو على الكانمي 130
ب – حركة الشيخ أحمدو لوبو الماسيني 136
أصوله 136
حياته و أعماله 138
إعلان الجهاد 141
تنظيمات دولة أحمدو لوبو 143
تأسيس المجالس 143
التنظيم الإداري 144
التنظيم القضائي 145
النظام الضريبي 146
التنظيم العسكري 147

ميدان التعليم و الثقافة 147
العلاقات الخارجية 148
خاتمة الفصل 151

الفصل الخامس : حركة الشيخ محمد بن علي السنوسي و منهجه في الدعوة و التربية و الإصلاح

ليبيا قبل ظهور الحركة السنوسية 154
ليبيا في العهد العثماني الأول 155
ليبيا في العهد العثماني الثاني 156
حياة الشيخ محمد بن علي السنوسي 157
تعريف الحركة 157
حياته و آثاره 157
تأسيس الطريقة 163
انتقاله إلى برقة 164
مبادئ الحركة 166
نشأة الحركة و بناء الزوايا 167
إستراتيجية بناء الزوايا و تنظيمها 173
تنظيمات الزوايا 174
منهج السنوسي في الإصلاح 179
إعلان الإمارة السنوسية 184
مذهب السنوسي و آراؤه 187
الحركة السنوسية في عهد محمد المهدي 190
إنجازاته 193
الخليفة و فكرة المهدية 195
انتقال الخليفة إلى الكفرة 195
المواجهة مع الفرنسيين 197
زوايا السنوسية في عهد المؤسس 199
الزوايا المشيدة في عهد الخليفة محمد المهدي 204
الزوايا الرئيسة 208
خاتمة الفصل 209

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل السادس : حركتا الشيخين الحاج عمر تال و ماباجا خوبا و جهودهما في نشر الإسلام و مقاومة الاستعمار

أ – حركة الحاج عمر تال بن سعيد الفوتي 213
حياته و أعماله 214
مراحل الدعوة و الحركة 218
المرحلة الأولى : انطلاق الدعوة 218
المرحلة الثانية : إعلان الجهاد و الثورة 219
انطلاق الجهاد 219
إنتاجه الفكري 226
استمرار نشاط الحركة في عهد الخليفة أحمدو 227
مولده و نشأته 227
ب – حركة الشيخ ماباجا خوبا 239
أوضاع المنطقة قبل ظهور الحركة 239
حياة مابا و أعماله 241
إعلان الجهاد 245
خاتمة الفصل 250

الفصل السابع : حركة الشيخ محمد أحمد المهدي في السودان و نشاطه الدعوي و الإصلاحي

لمحة تاريخية عن بلاد السودان 256
السودان في عهد محمد علي باشا 261
ظروف نشأة محمد أحمد المهدي 262
حياته و نسبه 263
مولده 264
تعليمه 264
التصوف في حياة المهدي 266
المهدية في حياة المصلح 272
ظهور المهدي في السودان 274
إشهار محمد أحمد المهدية 278
الهجرة إلى قدير 282

الجهاد و بناء الدولة 284
تنظيمات الدولة 291
الموقف من مهدية محمد أحمد 295
التيارات الفكرية المؤثرة في فكر محمد أحمد 299
خاتمة الفصل 301

الفصل الثامن : حركتا الشيخين محمدو لمين و رابح بن فضل الله و جهودهما في تصحيح الإسلام و محاربة الاستعمار

أ – حركة الشيخ محمدو لمين 305
منطقة غرب إفريقيا بعد حرب 1287هـ، 1870م 306
حياته و نشأته 309
ظهور الحركة و إعلان الجهاد 312
المواجهة مع الفرنسيين 314
ب – حركة رابح بن فضل الله 319
حياته 320
إعلان الإمارة 323
إشهار الدعوة و إعلان الجهاد 326
ضد الممالك و الإمارات الوثنية 326
ضد إمبراطورية كانم برنو 328
ضد الاستعمار الأوروبي 331
تنظيم الدولة 335
التنظيمات الإدارية 335
التنظيمات الدستورية 336
التنظيمات القضائية 336
التنظيمات المالية و التجارية 337
التنظيمات العسكرية 337
اختيار الراية 338
إنجازاته في الدعوة و الإصلاح 338
خاتمة الفصل 341

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل التاسع : حركتا الشيخين ساموري توري و محمد بن عبد الله حسن و جهادهما ضد الغزو الاستعماري و الحفاظ على الإسلام

أ – حركة الشيخ ساموري توري 347
إعلان تأسيس الدولة و تنظيم الجيش 351
إنشاء الجيش و تنظيمه 353
إعلان الحرب على الفرنسيين 354
أدوار بناء الدولة و تنظيمها 360
– دور بناء الدولة 360
الدور الأول : بداية ظهور الدولة 360
الدور الثاني : نمو الدولة 361
الدور الثالث : ازدهار الدولة 361
– تنظيمات دولة ساموري 363
التنظيمات السياسية و الاقتصادية 363
التنظيمات المالية 363
التنظيمات التربوية و الدينية 364
التنظيمات العسكرية 364
ب – حركة محمد بن عبد الله حسن في بلاد الصومال 366
لمحة تاريخية عن بلاد الصومال 366
المولد و النشأة 370
أعماله 372
إعلان الجهاد 373
بداية المواجهة 374
تنظيمات الدولة 375
التنظيمات الدستورية 375
التنظيمات العسكرية 375
انطلاق الجهاد 377
وحدة المقاومة الصومالية في مواجهة الاستعمار 380
المفاوضات و عقد الهدنة 381
المفاوضات و إبرام الصلح 382
نصوص الاتفاقية 382

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

انعكاسات الاتفاقية 384
فشل المقاومة و أسباب الهزيمة 385
خاتمة الفصل 389
خاتمة الرسالة 391
الملاحق 398
بيبلوغرافية البحث 414
الفهارس 425
فهرس الأعلام 426
فهرس الدول 437
فهرس الأماكن 440
فهرس الأجناس و الشعوب 451
فهرس القبائل 452
فهرس الفرق و الطوائف 454
فهرس الجمعيات 454
فهرس الآيات 455
فهرس الأحاديث 458
فهرس الخرائط 459

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية